وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة

٢

الإبادة

Photo taken by Robert Fisk

روبرت فيسك

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الحرب الكبرى

تحت ذريعة الحضارة

(الإبادة)

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

روبرت فيسك

الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة

الإبادة

المجلّد الثاني

ترجمة: عاطف المولى وآخرون

تدقيق لغوي: صالح الأشمر

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حقوق الطبع محفوظة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد

ص.ب.: ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

e-mail: tradebooks@all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

تصميم الغلاف: فؤاد رسامني

الإخـراج الفنـي: بسمة التقي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إهـــداء

إلى بيل وپيغي

اللذين علّماني أن أحبّ الكتب والتاريخ

This file was downloaded from QuranicThought.com

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المحتويات

كلمة شكر ٩
فهرس الخرائط ١٥
مقدّمة ١٧
الفصل الأول: محكوم عليه بالموت ٢٩
الفصل الثاني: المحرقة الأولى ٦٥
الفصل الثالث: خمسون ألف ميل عن فلسطين ١٢٩
الفصل الرابع: الحرب الاستعماريّة الأخيرة ٢٠٣
الفصل الخامس: الفتاة والطفل والحبّ ٢٨٧
الفصل السادس: «أيّ شيء للقضاء على الشرّير» ٣٨٣
الفصل السابع: لعنة الكوكب ٤٩٥
الفصل الثامن: الخيانة ٥٨١

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كلمة شكر

في كتاب بهذا الحجم ـ يغطّي سنوات عديدة من العمل الصحفي ـ يُعتبر القرار حول مَن يجب شكرهم صعب التقدير. مع ذلك، قرّرت أنه يجب الإعراب عن الشكر للذين ساعدوني بشكل مباشر في ما ورد في هذا الكتاب خلال السنوات الخمس عشرة الماضية ـ وهذه هي غالبية الأسماء المدوّنة هنا بمن في ذلك، على سبيل المثال، ياسر عرفات، رئيس السلطة الفلسطينية، والسيد حسن نصرالله، زعيم حزب الله اللبناني، وميخائيل كلاشينكوف، مخترع أشهر سلاح أوتوماتيكي عالمي ـ وأقلّية ساهمت مساعدتها في التقارير الأخيرة لهذا الكتاب قبل اتّخاذ القرار النهائي بتأليفه. وجوبهت أيضاً بواقع أن أسماء الذين ساعدوني مباشرة في كتاب «الحرب الكبرى من أجل الحضارة» تضمّنت الجيّد والسيّئ والقبيح. فهل بمقدوري مثلاً وضع والد انتحاري بمصفّ ناشط إنساني غربي، أو بطل عراقي خضع للتعذيب نتيجة مقاومته لطموحات صدّام حسين النووية في المنزلة نفسها مع رجل أعطى صديقته الحامل البريئة قنبلة لنقلها إلى طائرة مدنية؟ وهل يجب وضع الراحلة مارغريت حسن التي اغتيلت بشكل بشع في العراق في الصفحة نفسها مع وزير داخلية جزائري مُبيد للبشر؟

ويُعتبر أُسامة بن لادن المثل الأكثر تطرّفاً لهذه المشكلة. فخلال المقابلتين الأخيرتين معه علم أنني كنت أكتب هذا الكتاب وتحدّث بوضوح وفق تلك المعرفة. فهل يجدر تكريم رجل اعتُبر مسؤولاً عن أكبر جريمة دولية ضدّ الإنسانية في الغرب بمقدّمة؟ الواقع أن تعليقاته وأفكاره كانت مهمّة بالنسبة إلى أجزاء من الكتاب، لذا رأيت أن أسجّل له ذلك؛ إلّا أنّ اسمه لا يظهر في لائحة الأسماء اللاحقة.

بالتالي، أورد في ما يلي بالتسلسل الأبجدي أسماء الذين يجب شكرهم لدعمهم وحماستهم وصراحتهم خلال الخمس عشرة سنة الماضية وقبلها. ولإرشاد القارئ، أوردت أسماء بعضهم مع ذكر ألقابهم أو موقعهم المميّز في المساعدة. وسوف يدرك آخرون أنني أوجّه إليهم الشكر بصفة شخصيّة:

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جون أبلت، من المجلس التمثيلي الأرمني في أميركا. ريم أبو العبّاس. أستريد أغاجانيان، ناجية من المجزرة الأرمنية عام ١٩١٥. شوجا أحمد أفند، جندي إيراني عام ١٩٨٤. روبرت. أ. ألغاروتي، مدير اتصالات في وحدة الأنظمة الصاروخية في شركة «بوينغ أُتونَتِكس» Boeing Autonetics. الدكتور جواد العلي، طبيب أطفال في البصرة. دوروثي أندرسون، للدلالة على ملاحظات اللورد روبرت عام ١٩٠٥ حول أفغانستان. نمر عون، جريح ناجٍ من احتلال فلسطين عام ١٩٤٨. الراحل ياسر عرفات، رئيس السلطة الفلسطينية. حنان عشراوي، من السلطة الفلسطينية. تيم أوستن، النائب السابق لرئيس تحرير الشؤون الدولية في التايمز. الراحل شهبور بختيار، آخر رئيس وزراء للشاه. بيتر بلاكيان، من جامعة «كولغَيت» Colgate. صديق برماكد، مخرج سينمائي أفغاني. الدكتور أنطوني بارتر، بالنسبة إلى رسائل والده حول العراق والأرمن في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨. زاووي بنامادي من «ألجيري أكتواليتي» Algérie Actualité. زكا بربريان، ناجٍ من مجزرة الأرمن. شاميم باتيا. محمد بويعلي، شقيق قائد الثوار مصطفى بويِعلي. الأخضر الإبراهيمي. روس كامبل، بالنسبة إلى المخطوطات حول تقارير «سكوتسمان» Scotsman في نهاية الانتداب البريطاني لفلسطين. بيار كاكيت. الملازم ساندي كافيناغ من الفرقة الثالثة، وحدة المظليين عام ١٩٥٦. مصطفى سيريك، إمام من البوسنة. هيلين سركسيان بالنسبة إلى مذكّرات والدها الأرمني. كونور أوكليري، من صحيفة الأيريش تايمز. طوني كلينتون، من النيوزويك. باتريك كوكبرن، من الإندبندنت. الجندي الاحتياطي تيم كوروين، قائد طائرة شينوك في كردستان عام ١٩٩١. الراحل فُريد كوني، موظف إغاثة أميركي. جيانيك دامي، من الصليب الأحمر الدولي في الكويت عام ١٩٩١. نورمان ديفيس، بالنسبة إلى تحليله لمراجع هتلر حول المحرقة (الهولوكست) الأرمنيّة. الدكتور جون دي كورسي إيرلند، بالنسبة إلى مذكّراته حول الأيتام الأرمن. الدكتور نديم دمشقيه، دبلوماسي لبناني سابق. ليونارد دويل، رئيس تحرير سابق للإندبندنت. إيمون دانفي، من الإذاعة الإيرلندية. إيان. ر. إدغار، من جامعة درهام. القاضي دايفيد أ. و. إدوارد، بشأن نسخته المتعلّقة بمحاضرة جايمس برايس عام ١٩٢٢، حول الحرب الكبرى وأرمينيا. إيزابيل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إلسين. صائب عريقات، من السلطة الفلسطينية. جوان فرشخ. بيل وبيغي فيسك، والداي الراحلان. اللواء الأميركي جاي غارنر، قائد القوّات الأميركية في كردستان عام ١٩٩١. سمير غطّاس، مدير مكتب الأسوشيتدبرس في بيروت حالياً. بسّام وسنيّة غُصين، اللذان قُتلت ابنتهما في القصف على ليبيا. الدكتور ستيفن غولدلي، من مكتب الشؤون الخارجية الخاصّ بعقوبات الأمم المتحدة. تيري غوردي، من مجموعة «بوينغ» Boeing للدفاع وشؤون الفضاء (وحدة الأنظمة الصاروخية والفضائية). بن غرينبرغ، مستوطن يهودي في الضفّة الغربية. الدكتورة سلمى حدّاد، طبيبة أطفال في بغداد. دنيس هاليداي، رئيس برنامج الأمم المتحدة للنفط مقابل الغذاء، ١٩٩٧. مولانا سامي الحقّ، من مدرسة الحقّ الدينية في باكستان. أميرة هاس، من هآرتس. الراحلة مارغريت حسن، من منظمة «كَير» Care في العراق. الدكتور ميرسي هيتلي. فيليب هيفينيك، من اليونيسيف، بغداد، ١٩٧٧. محمّد حسنين هيكل، صحفي ومؤلّف مصري. غافين هويت من البي بي سي BBC. سو هيكاي، من تلفزيون السي بي سي CBC الكندي سابقاً، لندن. نزار هنداوي، بالنسبة إلى محاولته غير المقنعة لتفسير سبب إعطائه صديقته الحامل قنبلة لنقلها على متن طائرة العال. مارجوري هوسيبيان. شفيق الحوت وزوجته بيان. جوستين هاغلير، من الإندبندنت. جون هيرست، نائب رئيس لوكهيد مارتن. العاهل الأردني الراحل الملك حسين. عليا الحُسيني، حفيدة الحاجّ أمين الحُسيني مفتي القدس الأسبق. نادين العيسى، بالنسبة إلى نسختها حول Paice & Martin Palestine Police Report (وشكر أيضاً لبيتر ميتكالف). عبّاس جحا، الذي فقد العديد من أفراد عائلته بهجوم المروحية الإسرائيلية في لبنان عام ١٩٩٦. ميخائيل كلاشينكوف، مخترع بندقية AK-47 السوفياتية. ميريني كالوستيان، ناجية من مجازر الأرمن عام ١٩١٥. الراحل واصف كمال، المساعد السابق للحاجّ أمين الحُسيني إبّان ألمانيا النازية. آل كمحي، مدير لوكهيد للاتصالات عام ١٩٩٧. مروان كنفاني، من السلطة الفلسطينية. كيفورك كارابويادجيان، مدير بيت المسنّين الأرمن في بيروت. فيكتوريا كاراكاشيان، ناجية من الفارّين الأرمن في

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الإسكندرونة. جمال خاشقجي، مساعد السفير السعودي في لندن. هاروتيان كبدجيان، ناجٍ من المجزرة الأرمنية. أندرو كيفوركيان، من أجل مساعدته القيّمة في الحصول على معلومات المجزرة الأرمنية، وشقيقه الراحل آرام بالنسبة إلى المذكّرات حول زيارته لمنزل أجداده في تركيا. زينب كاظم، بالنسبة إلى رسالتها حول التشيّع. الشيخ جواد مهدي الخالصي، لمساعدته التاريخية حول الحكم البريطاني للعراق. هيلين كينسلّا، مديرة الشؤون الدولية في الإندبندنت بالنسبة إلى بحثها الدؤوب. زينة كرم، من الأسوشيتدبرس. جوزف ليبوويتز. جورج لوينسكي، من السي بي سي سابقاً، لندن. ميخائيل ليندفال، ضابط اليونيفيل في جنوب لبنان. الدكتور ديفيد لوينشتين، من جامعة مديسون، وسكنسون. السيدة هيلدا مادوك، بالنسبة إلى المعلومات حول والدها المجنّد تشارلز ديكنز عام ١٩١٧. الدكتورة غريس ماغنير، من قسم الدراسات الإسبانية، كلّية ترينتي Trinity College، دبلن، بالنسبة إلى بحثها حول الأندلس. الراحل علي محمود، مدير مكتب الأسوشيتدبرس في البحرين. الجنرال منصور، قائد جهاز المخابرات العسكري السوري في القامشلي. لارا مالرو، من صحيفة الأيريش تايمز. نبيلة مغالي، من الأسوشيتدبرس سابقاً في البحرين. آلف مانديز. جيرهارد ميرتنز، تاجر سلاح ألماني. بيتر ميتكالف. عبد الرحمن المزيني شريف، وزير الداخلية الجزائري الأسبق. توفيق وفيليبا ميشلاوي من مراسل الشرق الأوسط Middle East Reporter في بيروت. الجنرال السابق (المتقاعد) محمّد عبد المنعم، من صحيفة الأهرام. جودي مورغان، من منظمة «كَير» Care في العراق. هارفي موريس، من رويترز، والإندبندنت وحالياً من الفايننشال تايمز. فتحي داود موفاك، مصوّر عسكري عراقي في الحرب العراقية ـ الإيرانية. الرائد مصطفى مراد، من الجيش المصري عام ١٩٥٦. أنيس نقّاش، بالنسبة إلى مذكّراته حول الثورة الإيرانية، وزوجته بتول في ما يتعلّق بالترجمات المرتبطة بشعر الحرب الإيرانية. الحاجّ محمد نصر، والد الانتحاري الفلسطيني من جنين. السيّد حسن نصرالله، زعيم حزب الله اللبناني. سهيل ناطور، من الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين. غيوم نيكولز، بالنسبة إلى لفت انتباهي إلى خطبة جورج لويد عام

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

١٩٣٦ حول فلسطين. نوّاف عبيد، الذي كانت أطروحته في هارفرد حول أهداف الوهّابيين السعوديين قيّمة جدّاً. محمّد مهران عثمان، مقاتل مصري أعمى، عام ١٩٥٦. الراحل سربوهي بابازيان، ناجٍ من المجزرة الأرمنية. المخرج السينمائي نلومز بازيرا. الراحل عبد العزيز الرنتيسي، من حماس. زميلي فيل ريفيس، من الإندبندنت والعامل حالياً في الإذاعة الوطنية العامّة. الحاخام والتر روتشيلد، بالنسبة إلى معلوماته حول السكك الحديدية اللبنانية. مارتن روبنشتاين، الذي لفت انتباهي إلى مرجع حول المجزرة الأرمنية «الطريق إلى أندرو». مُجتبى صفوي، أسير حرب إيراني سابق. حيدر الصافي، من بغداد. المفكّر الفلسطيني المشهور الراحل إدوار سعيد وشقيقته الكاتبة جين مقدسي لمساعدتهما واقتراحاتهما طيلة سنوات عديدة. محمّد سلام، مدير الأسوشيتدبرس السابق في بغداد. الدكتور كمال الصليبي، المدير السابق لمركز دراسات «إنترفَيث» Interfaith في عمّان. محمّد سلمان، وزير إعلام سوري أسبق. فاروق الشرع، وزير الخارجية السوري. عبد الهادي صيّاح، صديق مصطفى بويعلي. مارتن سكانال، بالنسبة إلى سماحه بالاستشهاد بكتاب كينيث وايتهيد «العراق الذي لا شفاء له» Iraq the Irremediable. كليف سيمبل. الدكتور حسين الشهرستاني، كبير مستشاري صدّام حسين في الشؤون النوويّة. دون شيريدان. المجنّد أندرو شوميكر، من وحدة المشاة المدرّعة الأميركية الرابعة والعشرين في حرب الخليج عام ١٩٩١. المؤرّخ الإسرائيلي آفي شليم. أميرة الصلح. هانز فون سبونيك، الذي خلف هاليدي في مكتب الأمم المتحدة للخدمات الإنسانية في بغداد عام ١٩٩٩. إيفا شتيرن، من نيويورك من أجل بحثها الدؤوب عن الحقيقة حول مجزرة صبرا وشاتيلا. فرجين سفازليان، من أجل نسختها حول أغاني الناجين من المجزرة الأرمنية. المحامي محمّد الطاهري، محامٍ جزائري في حقوق الإنسان. المونسنيور هنري تيسيه، أسقف الجزائر. ألكس تومسون، من الـ «آي تي في» ITV. الدكتور حسن الترابي، من الخرطوم. ديريك تورنبول، من «ڤيكَس» Vickess. كارستين تفيت، من الإذاعة النرويجية. كريستوفر ج. والكر، لمعلوماته حول كل الأمور الأرمنية. جهاد الوزير. غاري وليمسون، من مجموعة بوينغ Boeing للدفاع والفضاء. الراحل

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كريستوفر مونتي وودهاوس، عميل سابق في منظمة Special Operations Executive في اليونان وعميل بريطاني في إيران. ديدي زوكر، عضو في الكنيست الإسرائيلي. ويجب عليّ أيضاً تقديم الشكر إلى سيمون كلنر، رئيس تحرير الإندبندنت الذي شجّعني على كتابة هذا الكتاب في الفترة ما بين وجودي في العراق ولبنان ولتغاضيه عن غيابي الطويل عن الصحيفة ولسماحه لي بالاقتباس من مقالاتي في الصحيفة طيلة ستة عشر عاماً. كما أشكر صحيفة التايمز اللندنية التي عملت لديها مراسلاً في الشرق الأوسط بين ١٩٧٦ و١٩٨٨، وصحيفة الأيريش تايمز ومركز London Review of Books وصحيفة «النايشِن» The Nation في نيويورك لسماحهما لي باقتباس مقالات لي ظهرت في صحفهم، وتلفزيون السي بي سي CBC الكندي في تورنتو فيما يتعلّق بتسجيلاتي منذ الاحتلال السوفياتي لأفغانستان عام ١٩٨٠ والحرب العراقية الإيرانية. والشكر أيضاً لمراقب المكتبة الملكية المكلّف بالأرشيف الوطني لمستندات الحكومة البريطانية (Kew). وشكر خاصّ إلى لويز هاينز، رئيس التحرير في «فُراوث إستَيت» Frowth Estate لاهتمامها الأكاديمي الواسع في إثراء هذا الكتاب طيلة ستة عشر عاماً، وإلى ستيف كوكس، رئيس التحرير الأكثر مثابرة في العالم. وأخيراً، أقدّم تقديري للدكتورة فيكتوريا فونتين التي دوّنت التواريخ والمراجع وقامت بتنظيم أرشيف لمستنداتي وملاحظاتي وتقاريري بصبر. وحتماً، هناك العديد من الذين أدين لهم بالشكر ولكن لا يمكن ذكرهم حفاظاً على سلامتهم المعرّضة للخطر من أعدائهم أو من حكوماتهم. ومن هؤلاء أشخاص عاملون ومتقاعدون في القوّات المسلّحة المصرية، والفرنسية، والإيرانية، والعراقية (بمن فيهم نائب رئيس أركان القوّات الجوّية واثنان من طيّاريه)، والأردنية والإسرائيلية، واللبنانية، والفلسطينية، والسورية، والتركية، والبريطانية، والأميركية. وبالطبع أضيف التحذير المعتاد للكاتب: لا أحد ممّن وردت أسماؤهم أعلاه مسؤول عن أي أخطاء أو وجهات نظر معبّر عنها في «الحرب الكبرى من أجل الحضارة».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فهرس الخرائط

الإبادة الأرمنية ٦٦
فلسطين/ إسرائيل ١٣٠
الجزائر ٣٨٤
السعودية/ الكويت/ إيران ٤٩٦

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مقدّمة

عندما كنتُ صبيّاً صغيراً، كان أبي يأخذني معه كل سنة لزيارة ميادين المعارك التي شهدَت الحرب العالمية الأولى، ذلك النزاع الذي سمّاه «هـ.ج. ويلز» (H.G.Wells) «الحرب التي ستُنهي كل الحروب». كنا ننطلق كل صيف في سيّارتنا «الأوستن» الإنكليزية، ونجوب الطرق في ميادين تلك المعارك بحفرها وعفرِها: من معركة «صوم، Somme»، ومعركة «إيپر، Ypres»، إلى معركة «ڤردان، Verdun». وعندما ناهزتُ الرابعة عشرة من العمر، أصبح بوسعي أن أسرد أسماء مواقع الهجوم كافّة: من «باپوم، Bapaume»، وتلّة ٦٠، والغاب العالي، إلى «پاسشانذال، Passchendaele»... لقد رأيتُ جميع المقابر، وتجوّلت عبر جميع الخنادق التي كساها العشب، ولمستُ الخُوَذَ الصَّدِئة التي خلَّفها الجنود البريطانيون، ومدافع الهاون الألمانية المتآكلة في المتاحف البالية. كان والدي جندياً في تلك «الحرب الكبرى»، مقاتلاً في خنادق فرنسا، بسبب رصاصة أُطلقت في مدينة لم يسمع بها أبداً تُسمّى «سراييفو». وعندما مات منذ ثلاث عشرة سنة عن عمر الثالثة والتسعين، ورثت منه الأوسمة والمداليات التي نالها في خدمته العسكرية. وتصوِّر إحداها نسراً مجنَّحاً، وعلى وجهها حُفرت الكلمات التالية: «الحرب الكبرى من أجل الحضارة»، (The Great War for Civilization).

لقد أمضيتُ قسماً كبيراً من حياتي في الحروب، نظراً إلى الانشغال العميق الذي أبداه والدي بهذا الأمر، وصبر والدتي عليه. والمفروض أن تكون كل الحروب قد خيضت «من أجل الحضارة». ففي أفغانستان، لاحظتُ أن الروس كانوا يحاربون من أجل «واجبهم الدولي» في نزاع ضدّ «الإرهاب الدولي»، بينما كان خصومهم الأفغان يحاربون طبعاً ضدّ «الاعتداء الشيوعي» ولوجه الله.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لقد كتبتُ تقاريري من الصفوف الأولى في جبهة الحرب، عندما كان الإيرانيون يواجهون ما سمَّوه «الحرب المفروضة عليهم» من صدَّام حسين ـ الذي أطلق على غزوه إيران عام ١٩٨٠، لقب «الحرب الخاطفة»، (The Whirlwind War). وقد رأيتُ الإسرائيليين يغزون لبنان مرّتين، ثم يعاودون غزو الضفّة الغربية الفلسطينية، في سبيل ما زعموا أنه «تطهير الأرض من الإرهاب». وقد شهدتُ أيضاً حرب العسكريين الجزائريين ضدّ الإسلاميين للسبب الظاهريّ ذاته؛ وهم يعذِّبون أسراهم ويعدمونهم، على غرار ما يفعل أعداؤهم. وفي عام ١٩٩٠، غزا صدّام الكويت، وأرسل الأميركيون جيوشهم إلى الخليج من أجل تحرير تلك الإمارة، وفرض «النظام العالمي الجديد».

وبعد حروب عام ١٩٩١، دوّنت مراراً في دفتر ملاحظاتي تلك الكلمات: «النظام العالمي الجديد» تتبعها علامة استفهام. وفي البوسنة، وجدتُ الصرب يحاربون من أجل ما سمَّوه «الحضارة الصربية»، بينما حارب أعداؤهم المسلمون وماتوا من أجل حلم راودهم بشأن إمكان التعايش في إطار متعدّد الثقافات، وفي سبيل إنقاذ أرواحهم.

وعلى رأس جبل في أفغانستان، جلستُ قبالة أُسامة بن لادن في خيمته، عندما تلفّظ بأول تهديد مباشر ضدّ الولايات المتحدة الأميركية، بينما كنت «أخربش» كلماته في دفتر ملاحظاتي على ضوء قنديل الكاز. لقد تكلّم معي بن لادن عن «الله» و«الشرّ». وكنت مسافراً بالطائرة عبر المحيط الأطلسي بتاريخ ١١ أيلول/سبتمبر، عام ٢٠٠١، عندما دارت طائرتي لتعود إلى «إيرلندا»، بسبب الهجوم الذي تعرَّضت له الولايات المتحدة الأميركية. وهكذا صرت في أفغانستان في غضون أقلّ من ثلاثة أشهر، هارباً مع فلول طالبان على الطريق العامّ غربيّ قندهار، بينما كان الأميركيون يقصفون بالقنابل بلداً سبق أن دمَّرته الحرب. وبعد سنة من الهجوم على أميركا، وجدتني في الجمعية العامّة للأمم المتحدة، عندما تكلّم جورج بوش عن أسلحة الدمار الشامل الوهميّة لدى صدَّام، بينما كان يُعدّ العدّة لغزو العراق. وقد مرَّت الصواريخ الأولى من ذلك الغزو فوق رأسي في بغداد.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إنّ النتائج المادّية المباشرة لكلّ تلك النزاعات ستبقى، بل يجب أن تبقى، في ذاكرتي حتى دنوّ أَجَلي. ولستُ بحاجة إلى أن أطالع في جبال من تقارير المراسلين، لأتذكّر الجنود الإيرانيين وهم في قطارهم شمال طهران. كما أني لا أحتاج إلى أيّ من قُصاصات الجرائد لديّ لأستعيد ذكرى ذلك الأب الذي كان يحمل بين ذراعيه ما يشبه رغيفاً ممسوحاً من الخبز، والذي تبيّن أنه نصف طفل مسحوق، بفعل وابل القنابل الأميركية التي أُلقيت على العراق في هجوم عام ٢٠٠٣. ناهيك بالمقبرة الجماعية خارج «الناصرية»، حيث صادفتُ بقايا ساق بشرية في داخلها قضيب من الفولاذ، مع وجود قرص بلاستيكي طبّي لا يزال مربوطاً بأرومة العظم، الأمر الذي دلّ على أن القتلة في نظام صدّام انتزعوا ضحيتهم من قلب المستشفى حيث كانت ترقد لاستكمال تبديل وركها، وجرُّوها إلى مكان إعدامها في الصحراء.

لا تنتابني كوابيس بخصوص هذه الأمور؛ لكنّني أتذكّر، وأتذكّر. وتعاودني صورة ذلك الرأس المقطوع من جسد لاجئ ألباني في «كوسوفو»، إثر غارة جوّية أميركية حدثت قبل أربع سنوات. كان رأساً ملتحياً واقفاً وسط حقل أخضر، تحت نور الشمس الساطع؛ وكأنه قُطع على يد سيّاف من القرون الوسطى. وكذلك جثّة ذلك الفلّاح «الكوسوفي» المقتول على يد الصرب، والذي فُتح قبره بواسطة الأمم المتحدة، فبرز أمامنا من الظلمات منتفخاً، وحزامه مشدود بقوّة حول معدته، وحجمه يناهز ضعف حجم الشخص العادي. وذلك الجندي العراقي في منطقة «الفاو» خلال الحرب الإيرانية ـ العراقية، الملتفّ المتغضّن كطفل قابعٍ في حُفرة مدفعه بجانبي، وقد فحّمه الموت، بينما كان يلمع على إصبعه الثالث من يده اليسرى خاتم زواج ذهبيّ يتيم، يتوهّج بالنور والحبّ لامرأة لا تعرف أنها أمست أرملة. هناك جنود ومدنيُّون بعشرات الآلاف ماتوا، لأن الموت خُطّط ولفّق لهم، لقد نُبذت الأخلاقيات ووضعت على الرفّ ليُسمح لنا بالكلام عن «البيئات الغنية بالأهداف»، وعن «الأضرار الفرعية» ـ تلك المحاولة الأكثر طفولية للتنصُّل من جريمة القتل ـ وتقديم التقارير عن مهرجانات الانتصار، وهدم التماثيل، وأهمّية السلام.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إنّ الحكومات تحبّ أن يكون الأمر كذلك. وإنّ المسؤولين يريدون لمواطنيهم أن يروا الحرب وكأنهم ينظرون إلى مسرحية تحصل بين الأضداد، بين الخير والشر، «بينهم» و«بيننا»، بين النصر والهزيمة. ولكن الحرب ليست فعلاً بين النصر والهزيمة، ولكن بين الموت وفرض الموت على الآخرين؛ إنها تمثل الإخفاق الكامل للروح الإنسانية. وإني أعرف رئيس تحرير ملَّ وضجر من كثرة ترديدي لذلك، ولكن كم من رؤساء التحرير لديهم خبرة مباشرة في الحرب؟

ومن باب السخرية، كان فيلم «المراسل الأجنبي» (Foreign Correspondent) لألفرد هيتشكوك، الذي شاهدته عن عمر الثانية عشرة، حافزي لامتهان الصحافة. وهو فيلم قديم، غير ملوَّن، من إنتاج ١٩٤٠، فيه صرير الوطنية والفكاهة السوداء؛ مثَّل فيه «جويل ماك كْرِيا» دور مراسل أميركي يسمّى «جان جونز» ـ الذي أُعيدت تسميته «هنتلي هافرستوك» بواسطة رئيس التحرير في نيويورك ـ ذلك الشخص الذي أُرسل عام ١٩٣٩ من أجل تغطية الحرب التي أوشكت أن تقع في أوروبا. فكان شاهداً على عملية قتل، وطارد الجواسيس الألمان في هولندا، وكشف الغطاء عن عميل ألمانيا في لندن، وأُسقطت طائرته بواسطة سفينة حربية ألمانية؛ ولكنه عاش ليتقصّى أخبار العالم. كما أنه فاز بأجمل امرأة في الفيلم المذكور، كإكرامية إضافية له لاضطلاعه بمثل هذه المهنة المثيرة. وينتهي هذا الفيلم بالهجوم الخاطف على لندن، وصوت المذيع بالراديو يقدِّم «هافرستوك» على الهواء صارخاً وسط عويل صفّارات الإنذار المنبئة بحصول غارة جوّية: «لدينا الليلة ضيف من جنود الصحافة... إنه جندي من الجيش الصغير المؤلّف من مؤرّخين يكتبون التاريخ عند فوّهة المدفع».

لم أنظر إلى الوراء أبداً في حياتي. كنتُ أقرأ جريدة «الدايلي تلغراف» الخاصّة بوالدي من أوّلها إلى آخرها، ولا سيّما التقارير الأجنبية، وأنا مضطجع على أرض الغرفة قرب النار، بينما كانت والدتي ترجوني أن أشرب «الكاكاو» وأخلد إلى النوم. وفي المدرسة، كنت أدرس «التايمز» كل يوم بعد الظهر. كنت أنقِّب في كامل خطاب «خروتشيف» الذي يشجب الحكم الإرهابي لستالين. فزت بجائزة المدرسة عن «القضايا الراهنة»، ولم يستطع أحد أن يؤثر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عليّ لتغيير قراري بأن أكون مراسلاً أجنبياً (Foreign Correspondent). وعندما كان يقترح والدي عليّ دراسة المحاماة أو الطبّ، كنت أخرج من الغرفة. وقد استشار والدي أحد أصدقائه بخصوص ماذا يجب أن أفعل، فبادرني ذلك الصديق بقوله: تخيّل أنك في قاعة المحكمة، هل تحبّ إذ ذاك أن تكون المحامي أو المراسل الجالس على مقعد الصحافة؟». قلت إني أريد أن أكون المراسل، وقد نقل الصديق ذلك إلى والدي قائلاً: «يريد روبرت أن يكون صحافياً». لقد أردت فعلاً أن أكون «جندياً من جنود الصحافة».

التحقت ببعض الجرائد مثل «نيوكاستل إيفننغ كرونيكل»، (New Castle Evening Chronicle)، و«الصنداي أكسبرس»، (Sunday Express)، حيث طاردت بعض القساوسة الذين كانوا يهربون مع ممثّلات ناشئات، ونُجيمات. وبعد ثلاث سنوات، رجوت جريدة التايمز أن تعيّنني لديها، ففعلت.. وأرسلتني إلى إيرلندا الشمالية لتغطية النزاع الصغير الشديد الذي نشب في أعقاب الحكم الاستعماري البريطاني. وبعد خمس سنوات، أصبحت أحد «جنود» الصحافة، ومراسلاً أجنبياً. وفي شهر نيسان/أبريل من عام ١٩٧٦، كنت على شاطئ «بورتو كونو» في البرتغال، أقضي إجازة بعيداً عن العاصمة لشبونة، حيث كنت أغطّي تبعات الثورة البرتغالية ـ فنادتني مديرة مكتب البريد معلنة أن هناك رسالة يجدر أن أتسلّمها. كانت رسالة من رئيس تحرير القسم الأجنبي في جريدة التايمز، «لويس هيرين»؛ يقول فيها: «لديّ أنباء جيّدة لك. لقد طلب مراسلنا «پول مارتن» نقله من الشرق الأوسط، نزولاً عند رغبة زوجته؛ وأنا لا ألومها. فعرضت عليه الوظيفة الصحافية الثانية في باريس، وأنا أعرض عليك وظيفة الشرق الأوسط، أعلمْني إذا كنتَ تريدها... فقد تكون فرصة رائعة لك، حافلة بالقصص الجيّدة، وكثير من السفر ونور الشمس...». وفي فيلم «هيتشكوك» المذكور، طلب رئيس التحرير من «هافرستوك» الحضور إلى مكتبه، قبل إرساله إلى «الحرب الأوروبية»، قائلاً: هل تحبّ أن تغطّي أكبر قصّة في العالم اليوم؟». لكنّ رسالة «هيرين» لم تكن بمثل تلك الإثارة، إنما عنت الشيء ذاته.

كان عمري ٢٩ سنة عندما عُرضت عليّ الوظيفة الصحافية للتايمز في الشرق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الأوسط ـ وإني أتمنّى لو كنت أعرف كيف شعر الملك فيصل الأول عندما عُرض عليه حكم العراق، وكيف كان ردّ فعل أخيه عبد الله عندما عرض عليه «ونستون تشرشل» حكم شرقيّ الأردنّ. لقد كان «لويس هيرين» ذاته ذا أسلوب «تشرشلي»، كان عنيداً، وفصيحاً، ومحبًّا للنبيذ الممتاز؛ فضلاً عن كونه سابقاً مراسلاً في الشرق الأوسط. ولكن، لو كانت القصص جيّدة صحافياً، فلا بدّ أن تكون أيضاً رهيبة، ولا بدّ أن يكون السفر مشوّشاً، ونور الشمس كحدّ السيف القاطع. فنحن معشر الصحافيين، ليس لنا حماية الملوك، أو ادّعاؤهم الكمال. ولكنني أستطيع الآن أن أكون أحد الجنود في جيش المؤرّخين الذين يكتبون التاريخ بجانب فوّهة المدفع. كم كنتُ بريئاً، وكم كنت ساذجاً. لكنّ البراءة إذا دامت، تحمي استقامة الصحافي وأمانته. وعليك أن تجاهد في سبيل الإيمان بذلك.

لم أكن مقاتلاً مثل والدي، بل ذهبت إلى الحرب شاهداً ومتفرّجاً عليها، وشديد الاغتياظ، ولكنني لم أكن أبداً من الرجال، الغاضبين، أو المتحمّسين لها، أو المخبولين بالذين أشعلوها. إني أبجّل المراسلين القُدامى الذين غطّوا الحرب العالمية الثانية وتبعاتها: مثل «هوارد ك. سميث» الذي هرب من ألمانيا النازية على آخر قطار غادر برلين قبل أن يعلن هتلر الحرب على الولايات المتحدة الأميركية عام ١٩٤١؛ و«جايمس كاميرون» صاحب التقرير الأيقوني الصادر عام ١٩٤٦ حول التجارب الذرّية البيكينية (Bikini) الذي ربّما كان أفضل مقال أدبي فلسفي نُشر في جريدة.

إن مهنة المراسل في الشرق الأوسط هي مهنة مُذلّة نوعاً ما في ظلّ ظروف مماثلة. فلو قرّر الجنود الذين كنت ألاحظهم إخلاءَ ساحة القتال، لأُطلقت النار على كثير منهم بتهمة الفرار، أو أُحيلوا إلى المجلس العسكري للمحاكمة على الأقلّ. أمّا المدنيُّون الذين كنتُ أعيش بينهم وأعمل، فقد أُلزموا البقاء في أماكنهم تحت القصف، ونتيجة لذلك هلك القسم الأعظم منهم بفعل القنابل والغارات الجوّية. ولم يتمكّنوا الحصول على تأشيرات سَفر بصفتهم مواطنين في بلدان منبوذة. ولكن إذا أردتُ أنا أن أترك عملي، وإذا أرهقتني رؤية الفظائع

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

التي شاهدتها، أستطيع أن أحزم حقيبتي وأذهب بالطائرة إلى بلادي، بدرجة سياحية، وبيدي كأس من الشمبانيا، على افتراض دائم بأني لم أمت، خلافاً لحالة الكثيرين من زملائي. ولهذا السبب أنقبض عندما ينبري أحدهم للثرثرة النفسيّة عن الخبرات الشديدة لدى مَن يغطّون أخبار الحروب، وعن ضرورة بذل الإرشاد النفسيّ لنا، نحن الكتبة الصحافيين المحظوظين براوتبنا، كي نتصالح مع ما رأينا وسمعنا. ولكن، ليس هناك من إرشاد ورعاية للفقراء والجموع الحاشدة الذين تُركوا لمصيرهم كي يعانوا من غاز العراق، وصواريخ إيران، وقسوة الميليشيات الصربيّة، والغزو الإسرائيلي الوحشي للبنان عام ١٩٨٢، والموت المبرمج على الحاسوب للعراقيين أثناء غزو الأميركيين لبلادهم عام ٢٠٠٣.

أنا لا أحبّ وصف المراسل بأنه «مراسل حرب». إن التاريخ لا الصحافة، هو الذي حكم بالحرب على الشرق الأوسط. فوصف المراسل بمراسل حرب وصفٌ تفوح منه رائحة رومانسية خاطئة، وفيه نفحات غزيرة من سِمات المراسلين الفيكتوريين الذي يراقبون المعارك من رؤوس التلال بصحبة سيّدات محصَّنات ضدّ المعاناة، حيث لا يُنظر إلّا لِماماً إلى قصف المدافع عن بعد.

لكنّ الحرب خبرة فذَّة قويّة بالنسبة إلى الصحافي؛ تشمل كثيراً من التناقضات، وتُعتبر فرصة له كي يختبر الإثارة الوحيدة التي لا تزال مجّانية. وإذا كنتَ قد شهدت ذلك في الأفلام السينمائية، فلماذا لا تختبره في الواقع؟ أخشى أن بعض زملائي ماتوا بهذا الأسلوب، فقد توجّهوا إلى الحرب على افتراض أنها أمر هوليودي، وأن البطل لا يموت، وأنك لن تموت كالآخرين، وأنهم كلّهم سيكونون مثل «هنتلي هافرستوكس» سبَّاقين إلى اقتناص الأخبار والفوز بأجمل فتاة. ولكن يمكن أيضاً أن تموت. ففي عام واحد خلال حرب البوسنة، مات ثلاثون من زملائي. وهناك معركة مثل معركة «صوم» تنتظر جميع الصحافيين الأبرياء.

عندما انطلقت لتدوين هذا الكتاب، أردته أن يكون عرضاً للأحداث بحسب تسلسلها الزمني في الشرق الأوسط على مدى ثلاثة عقود. فهكذا كتبت كتابي

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

السابق «ويلات وطن»(*). وهو تقرير بصيغة المتكلّم حول الحرب الأهليّة اللبنانية والغزوتين الإسرائيليتين للبنان. ولكنني نقَّبتُ خلال الأوراق المتكدّسة في مكتبتي التي تشمل أكثر من ٣٥٠٠٠٠ وثيقة وملفّ ودفتر ملاحظات، كتبتُ بعضها بقلمي تحت وطأة القصف وأثبت بعضها الآخر موظفو الاتصالات العرب التعبون على أوراق التلغرافات، ومنها ما ضُرب أيضاً على آلات الفاكس التي كنا نستخدمها قبل اختراع «الإنترنت». وبعد هذا الطواف بين تلك الأوراق الوثائقية، أدركت أن هذا الكتاب لن يكون مجرّد تقارير شاهد عيان مرتّبة بحسب تسلسلها الزمني.

لقد قرأ والدي، الجندي الهرم من أيام الحرب العالمية الأولى، تقريري عن لبنان. ولم يعش ليقرأ هذا الكتاب. لكنه كان دائماً ينظر إلى الماضي ليفهم الحاضر. ليت العالم لم يذهب إلى الحرب عام ١٩١٤؛ وليتنا لم نكن بالغي الأنانية في عقد السلام. لقد وعدنا، نحن المنتصرين، العرب بالاستقلال، وساندنا اليهود ليحظوا بوطن لهم في فلسطين. ولا بدّ من الوفاء بالوعود. ولكن، لم يتمّ الوفاء ببعض تلك الوعود ـ فظنّ اليهود طبعاً أن وطنهم سيشمل كلّ فلسطين ـ وحُكم على ملايين العرب واليهود في الشرق الأوسط أن يتعايشوا اليوم مع عواقب تلك الوعود.

يشعر المرء أحياناً في الشرق الأوسط أنه ليس هناك أمر في التاريخ بدون نهاية محدّدة، أو مفترق، بحيث نقف لحظة ونقول: «كفى، كفى ـ لنتوقفْ،

(*) Pity the Nation: Lebanon at war (Oxford University Press, 2001); US new edition entitled Pity the Nation: The Abduction of Lebanon (New York, Nation Books, 2002).

وبوسع القرّاء الكرام المهتمّين بشأن الحرب الأهلية اللبنانية، والغزو الإسرائيلي للبنان عامي ١٩٧٨ و١٩٨٢، ومذبحة قانا، وغير ذلك من المآسي التي حصلت في لبنان، أن يعودوا لمراجعة هذا الكتاب. فأنا لم أحاول معاودة كتابة قصّة لبنان هنا. وعنوان الكتاب المترجم إلى العربية هو: «ويلات وطن» (الطبعة السابعة عشرة منه، طبعة جديدة ومزيدة بفصلين صدرت عام ٢٠٠٥ عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ولنتحرَّرْ». أعتقد أني أفهم اليوم ذلك الاعوجاج الزمني. لقد ولِد أبي في القرن الذي سبق القرن الماضي؛ بينما ولدت أنا في النصف الأول من القرن الماضي. وها أنذا في عام ١٩٨٠، أشهد الجيش السوفياتي يغزو أفغانستان، وأربض عام ١٩٨٢ في الخطوط الإيرانية الأمامية مقابل جيوش صدّام، وأراقب في عام ٢٠٠٣ طلائع الجنود الأميركيين من فصيلة المشاة الثالثة تقطع الجسر الكبير فوق نهر دجلة. ولكنّ معركة «صوم، Somme» جرت قبل ولادتي بثلاثين سنة. نزل «بيل فيسك» إلى خنادق فرنسا بعد ثلاث سنوات من الإبادة الجماعيّة للأرمن، قبل ٢٨ سنة من ولادتي. لقد ولِدتُ بعد ستّ سنوات من «معركة بريطانيا»، وبعد انتحار هتلر بأكثر من سنة. وشاهدت الطائرات تعود إلى بريطانيا من كوريا، وأتذكّر ملاحظة والدتي عام ١٩٥٦ بأني محظوظ، لأني لو كنت أكبر سنّاً لكنت في عداد المجنّدين الإلزاميين الذين غزوا قناة السويس.

أشعر بكلّ ذلك شخصيّاً، لأنّي شهدت أحداثاً عبر الزمن لا يمكن أن نعرِّفها إلّا بأنها عجرفة السلطة (Arrogance of Power). كان الإيرانيون يلقّبون الولايات المتحدة الأميركية بأنها «مركز الاستكبار العالمي»، وكنتُ أضحك من ذلك، لكني بدأت أفهم ماذا يعني هذا القول. فبعد النصر الذي أحرزه الحلفاء عام ١٩١٨، وعند انتهاء حرب والدي، قسّم المنتصرون البلاد التي كانت تحت حكم أعدائهم السابقين. وخلال ١٧ شهراً فحسب، أوجدوا حدود «إيرلندا الشمالية»، ويوغوسلافيا، ومعظم الشرق الأوسط. وقد صرفتُ كامل أيامي المهنية ـ في بلفاست، وسراييفو، وبيروت، وبغداد ـ أشاهد الناس يحترقون، ضمن تلك الحدود. لقد غزت أميركا العراق، لا من أجل أسلحة الدمار الشامل عند صدّام حسين، تلك التي دُمّرت منذ زمن طويل، بل من أجل تغيير خريطة الشرق الأوسط، على غرار ما فعل الجيل الذي كان أبي في عداده، منذ أكثر من ثمانين سنة. فقد أسهمت الحرب، التي كان أحد جنودها، في إحداث أول إبادة جماعية في ذلك القرن، ذهب ضحيّتها مليون ونصف مليون نسمة من الأرمن، ممهِّدة بذلك للإبادة الجماعية التالية لليهود في أوروبا.

إن هذا الكتاب يتمحور حول التعذيب والإعدامات. وربّما فتح عملنا في

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الصحافة باب الزنزانة عَرَضاً واتفاقاً. وربّما استطعنا أحياناً أن نُنقذ روحاً من حبل المشنقة. إنما تجمّع لدينا عبر السنين سيل من الرسائل المتزايدة، الموجّهة إليّ وإلى رئيس تحرير جريدة الإندبندنت، يعرض فيها القرّاء أفكارهم ويأسهم، ويتساءلون كيف يمكنهم أن يُسمِعوا صوتهم، عندما لا تعود الحكومات الديمقراطية تمثل المواطنين الذين انتخبوها. فهؤلاء القرّاء يسألون كيف يقون أولادهم من السمّ الذي يقطر من قسوة هذا العصر؟ وكيف أستطيع أن أساعدهم؟ فقد كتبت إليَّ امرأة بريطانية تعيش في ألمانيا، بعدما نشرت جريدة الإندبندنت مقالاً طويلاً لي حول اغتصاب نساء مسلمات في غاكو بالبوسنة، أنّ تلك النساء لم يحصلن على عناية طبّية دولية، أو مساعدة نفسيّة، أو لفتة لطف وإحسان بعد سنتين من الاعتداء عليهنّ.

وبناءً على ذلك، أفترض أننا كصحافيين نحاول ـ أو يجب أن نحاول ـ في آخر المطاف، أن نكون أول شهود غير متحيّزين على التاريخ. وإذا كان هناك من سبب لوجودنا، فيجب على الأقلّ أن نكون قادرين على أن نقدّم تقارير عن التاريخ كما يحدث فعلاً، بحيث لا يستطيع أحد أن يقول: «لم نعرف ـ لم يخبرنا أحد بذلك». وقد ناقشت الصحافية الإسرائيلية اللامعة «أميرة هاس» هذا الأمر معي منذ أكثر من سنتين في صحيفة «هآرتس»؛ تلك الصحافية التي بزّت بتقاريرها أيّة كتابات أخرى لمراسلين غير إسرائيليين. لقد أصررتُ في مناقشتي معها على أن رسالتنا كصحافيين تُهيب بنا أن نكتب الصفحات الأولى من التاريخ، لكنها قاطعتني بقولها: «لا يا روبرت، أنت مخطىء، إن عملنا هو أن نراقب مراكز النفوذ والقوّة». وأعتقد في نهاية هذا الأمر، أن هذا هو أفضل تعريف للصحافة سمعته في حياتي. علينا أن نتحدّى السلطة ـ كل سلطة وكل نفوذ ـ وبخاصّة عندما تجرّنا الحكومات وأهل السياسة إلى الحرب، عندما يقرّر هؤلاء القتل، ويفرضونه على الآخرين.

ولكن هل نستطيع كصحافيين أن نؤدّي هذا المهمّة؟ ـ إن هذا الكتاب لن يعطينا جواباً عن هذا السؤال. لقد كانت حياتي كصحافي مغامرة كبرى؛ ولا تزال. ولكن عندما نظرت إلى هذه الصفحات بعد شهور من كتابتها، وجدت

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فيها أوصافاً للألم، والظلم، والرعب؛ إنها خطايا الآباء التي يصاب بها الأبناء. كما أنها تدور حول الإبادات الجماعيّة. لقد كنت أدعو يائساً إلى ضرورة أن يحمل كل مراسل كتاب تاريخ في جيبه الخلفي. وفي عام ١٩٩٢ كنت في سراييفو، فمرَّت قذيفة صربيّة من فوق رأسي في لحظة خاطفة؛ لقد كنت واقفاً في المكان الذي وقف فيه «غافريلو پرينسيپ» (Gavrilo Princip) وأطلق النار، فأشعل شرارة الحرب العالميّة الأولى، التي جرَّت والدي إلى خنادق الحرب. وبالطبع، كانت الطلقات تترى في سراييفو عام ١٩٩٢. وكان التاريخ عبارة عن قاعة كبرى يتردّد فيها الصدى. وكان ذلك العام هو التاريخ الذي مات فيه والدي. وها أنذا أضع بين يَدي القارئ قصّة جيله وجيلي.

بيروت، حزيران/يونيو، ٢٠٠٥

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفصل الأول

محكوم عليه بالموت

«وستنطفئ ذكراي،
كما تموت قنبلة في جبهة القتال،
قذيفة جميلة مثل «الميموزا المزهرة».
«غِيُّوم أبولينير» من مؤلَّفه: «إذا متُّ هناك»
٣٠ كانون الثاني/يناير، ١٩١٥، في مدينة «نيم» الفرنسية

عندما كنتُ صبيّاً، كان والدي يُجلسني على رُكبتيه، ويضع أحد أصابعي على انبعاج في جبهته، ينسلّ منه أثر جرح قديم؛ ويقول: «هنا أصابني بسكّينه ذلك الصينيّ». وتتلو ذلك رواية غريبة عن كيفيّة حلّ مشكلة ألمَّت بـ «بيل فيسك» مع أحد الصينيّين، خلال الحرب العالميّة الأولى، وكيف هاجمه الصينيّ، فأطلق عليه بيل رصاصة قاتلة من مسدّسه. وكنتُ أتفاخر أمام رفاقي في المدرسة بأنّ والدي «أردى رجلاً صينيّاً»؛ دون أن أعلم لماذا فعل ذلك.

كان لوالدي علاقة مُستغربة بحرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨. وقلّما أراد أن يتكلّم عن مشاركته القصيرة في ذلك النزاع؛ ولكنّه بقي يقرأ طوال حياته كل ما كُتب حول هذا الموضوع. لقد قرأ قصائد «ولْفرد أوين» ـ الذي كان يسكن كوالدي في «بيركنهيد»، ـ ودرس كل تاريخ رسمي خُطَّ حول الجبهة الغربية. وما زلت أتذكّر شهقات الرعب التي أصدرها عندما كان يقرأ دراسة نقديّة عن سيرة حياة «إيرل هايغ»، وتبيَّن له أن الرجل الذي احترمه في ما مضى كان كذّاباً فعلاً.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وعندما كان يتعالج في أحد بيوت الرعاية الصحّية من إصابته بالسرطان في أواسط الثمانينيّات، طلبتُ منه أن يطلعنا على ذكرياته عن أيام الخنادق. قال: «لقد كان كل ذلك يا «فلّاح» هدراً كبيراً هائلاً».

كان والدي يناديني يا «فلّاح» Fellah منذ أن رآني لأوّل مرّة في مهدي. لقد كان يقرأ القصّة البطولية «للفرقة الفرنسية الأجنبية» المعنونة «مبادرة جميلة» بقلم «پ. س. رين». فعندما كان أحد الأبطال في الرواية يعاني من جروحه بصمت، كان رفيقه يلقّبه «بالفلّاح القويّ». ولم يخطر على بال والدي أن كلمة «فلّاح» باللغة العربية تعني القرويّ أو المزارع. وقد تؤخذ على محمل التهكّم، ما دمت قد قضيت نصف عمري في العالم العربي. وفي الواقع، كنتُ في بيروت عندما توفّي والدي بيل فيسك عام ١٩٩٢ عن عمر ٩٣ سنة، وهو غير خائف من الموت؛ لكنه زاد إذ ذاك غضباً ومرارة. لقد كان مخلصاً لوالدتي «پيغي» ـ زوجته الثانية ـ ولم يغشّ أحداً أو يكذب على أحد. لقد دفع فواتيره في موعدها. عمل كأمين صندوق «بورو» في «كَنْت» في مايدستون لمدّة تناهز ثلاثين سنة. وكان ينتظر والدتي كل يومِ أحد لتذهب معه إلى «كنيسة جميع القدّيسين»، كي يذرعا معاً أروقة الكنيسةَ وينشدا المزمور ٢٣ قائلين: «مع أني أمشي في وادي شبح الموت، فإني لا أخاف أيّ شر يُحيق بي». لقد كان أبي وطنياً. ففي عام ١٩٤٠، لم يتردّد في طلب رشّاش «م ١٦» (M16) لتشكيل خليّة مقاومة في «كَنْتْ»، عندما بدا أنّ الألمان قد يغزون جنوبيّ ـ شرقيّ إنكلترا. وكنتُ أتباهى في المدرسة بشرح خططه لنسف جسر السكّة الحديدية في «شرقي مايدستون»، عند مرور قطار يحمل جنوداً من الألمان. ولو جاء النازيّون لقتلوا «بيل فيسك» بصفته «إرهابيّاً». وقد بقيت صورة تشرشل الكبيرة، وهو يتكلّم من هيئة الإذاعة البريطانية أثناء الحرب، على جدار غرفة جلوسنا في مايدستون سنين طويلة، حتى أزالتها والدتي بعد وفاته رحمةً بنا، واستبدلتها بلوحة ألوان مائية لنهر «مَدْواي».

ولسوء الحظ كان هناك وجهان «لبيل فيسك». فبينما كان مُخلصاً لوالدتي، كان أيضاً مُلاحِقاً للآخرين. فقد كان يدقّق أسبوعياً في مصاريف البيت معها،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وهي تحاول أن تتجنّب أيّ خطأ تقع فيه بهذا الصدد. وإذا قاطعتُه أثناء ذلك، كان يضربني بشدّة على رأسي. كما أن وطنيّته كان يمكن أن تنقلب إلى عُنصريّة. فقد كنتُ أغتاظ منه في سنواته التالية عندما كان يلقّب السود بالعبيد (Niggers)، ويغضب مني عندما أجادله بهذا الشأن. كان يقول: «نعم أنا عُنصريّ، ومفتخر بذلك. إني أعتزّ بكوني إنكليزياً»؛ بينما تلوي أمي يديها في الممرّ.

كانت والدتي تحاول أن تلطّف من لهجته، وكان ينتهي بها الأمر إلى أن تبكي. وقد أُرسلتُ إلى مدرسة داخلية في التاسعة من عمري. وكنت أكره الإقامة هناك ـ بسبب العنف والتمييز الطبقي فيها. وقد رجوتُ والدي أن ينشلني من هذه الورطة، وكرّرت رجائي عبر الأسابيع والأشهر والسنين، دون جدوى. وكذلك فعلت والدتي. فقد كان يعتقد أن المدرسة الداخلية تعلّمني أن أعتمد على نفسي، كما أخبرني. لقد أرادني أن أصبح «فلّاحاً قويّاً». وكان اعتزازه بي عندما أنجح في الامتحانات ينقلب إلى شراسة عندما لا أطيعه. وكان ينتقي لي ثيابي كلّها، حتى «ربطات العنق» والأحذية. وعندما أنبأته بعد سنين بأني شبعت من اتجاهاته العنصريّة ـ إذ كان يلعن الإيرلنديين آنذاك ـ رماني بسكّين الطعام. وقد أخبرتني أمّي أنه لكمَ أحد موظّفي المجلس على خدّه عندما ظنّ أنه يتقرّب إليها. ولم أعلم أن ذلك الرجل كان رئيس بلدية مايدستون إلّا من عمّتي بعد وفاة والدتي.

كنتُ بالإجمال ولداً مُطيعاً. وكان والدي في نظري ـ مثلما يكون الآباء لجميع أبنائهم الصغار ـ حامياً لي وظالماً. كنتُ أحبّه عندما لا يحبّ الظهور. وقد حاولتُ أن ألطّف مزاجه بتلقيبي إيّاه: «الملك بيلي»؛ ممّا كان هجاءً لشخصيّته الطاغية. وعندما كان يلقّب نفسه «بالملك بيلي» ـ مُقرّاً بأخطائه، ومُنزلاً من قدر ذاته ـ كان يعود إذ ذاك كائناً إنسانيّاً عاديّاً. لقد علّمني حبَّ المطالعة في الكتب ولا سيّما التاريخية منها. فمنذ نعومة أظفاري، عرفت «درايك» و«نلسون»، و«هارولد الإنكليزيّ» و«التمرّد الهندي». وكان اختياره من الأدبيات يراوح بين تاريخ «كولين» لأولاد إنكلترا و ج. أ. «هنتي» الرهيب.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وعندما أُرسلت إلى المدرسة الداخلية كنت على دراية بمسألة اغتيال الأرشيدوق في سراييفو التي أشعلت شرارة الحرب العالمية الأولى. وكنت أعرف أيضاً أن اتفاقية «فرساي» وضعت حدّاً لتلك الحرب، لكنها لم تستطع أن تتجنَّب نشوب حرب عالمية ثانية. وقمتُ برحلتي الأولى خارج بلادي في عمر العاشرة ـ فذهب «الفلّاح» إلى فرنسا، وإلى تلك الميادين الحربيّة التي كانت لا تزال تؤرّق خاطر والدي.

وعندما توفّيت والدتي عام ١٩٩٨، اكتشفتُ المحفوظات الصغيرة التي جمعتها عن عطلة عام ١٩٥٦ هذه. وكانت محفوظة في دفتر جامع رخيص غلافه من الجلد الاصطناعي، أُلصقت فيه مجموعة من الصور الصغيرة باللونين الأبيض والأسود، تمثّل «بيل» و«روبرت» واقفين أمام سيّارتنا ـ الأوستن الإنكليزية، كما كانت تُسمّى، وأنا أستطيع أن أتصوّر لماذا اختارها أبي ـ خارج محطّة «دوفر» البحريّة، بانتظار مركب السكك الحديدية الإنكليزي القديم، المسمّى «عبّارة سپرتون» أي «معدِّيتها»، كي تأخذنا إلى بولونيا؛ ثم روبرت بكنزته المدرسية جالساً قرب «بيل»، وصندوق السيّارة مفتوح، مع موقد كاز يهسهس قربنا؛ فضلاً عن «روبرت» عند قاطرة بُخاريّة فرنسية، و«بيل» و«پيغي» معاً أمام السيّارة والصورة مهتزّة قليلاً، ولا شكّ في أنني الشخص الذي أخذها.

وكان من الواضح أين يتركّز اهتمام أبي وتفكيره. فقد كتبت «پيغي» في الدفتر الجامع، وهي تضع خريطة لرحلتنا: عبر مونتروي، و«هسدن، سانت پول»، و«أرّاس»، إلى «لوڤنكور». وقرب كلمة «لوڤنكور» كانت هناك صورة لطريق تحفّ بها الأشجار الباسقة، في آخرها هُريٌ وسطح متداعٍ منخفض تدريجاً. وقد علمت ما كان ذلك؛ فقد تكلّم أبي عنه عدّة مرّات فيما بعد. لقد وجد المنزل ذاته في منطقة الصوم (Somme)، الذي نام فيه بتاريخ ١١ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩١٨، آخر يوم من أيام الحرب العالمية الأولى. وفي رحلتنا التي قمنا بها عام ١٩٥٦، خجل أبي من أن يقرع الباب. وكانت هناك أيضاً صورة أخرى تظهره واقفاً أمام نُصب أُقيم للموتى من لوڤنكور في حرب

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

١٩١٤ ـ ١٩١٨. وكان يرتدي ربطة عنقه الزرقاء والحمراء الداكنة التقليديَّة المعتمدة لفوج ليفربول الملكي.

وفي إحدى الليالي، كان والدي لابساً ربطة العنق تلك في فندقنا «ببوفيه»، ينتظر والدتي لتنضمّ إليه عند المشرب. وكنتُ إذ ذاك مُصاباً بتسمّم من جرّاء الأكل، فبقيت معي. وإذ بوالدي يفتح باب غرفة نومي فجأة، ويقول لها: «أريد أن أتكلّم معك ـ الآن». وتناهى إلى مسمعي من خلال الجدار الرفيع الذي يفصل بين غرفتهما وغرفتي، قوله المتكرّر لها: «كيف تجرُئين على تركي أنتظر هكذا؟ كيف؟». فصارت تبكي؛ فقال: «طيّب؛ لن نقول أكثر من ذلك بهذا الشأن». وقد استعمل إزائي تلك العبارة مرّات عديدة خلال السنوات التالية؛ وامتنع عن مكالمتي بعدها لأسابيع عقاباً لي على ما ارتكبت من مخالفة واقعيّة أو خياليّة. وكذلك، لم يتكلّم مع بيغي لعدّة أيام بعدما تركته ينتظر عند المشرب في الفندق. وكنا في صُوَر إجازتنا نبتسم دائماً. وكذلك فعلنا خلال العُطلات التالية؛ فقد ذهبنا إلى الأماكن ذاتها، حيث جرت معارك الحرب العالميّة الأولى التي اشترك فيها أبي، وأخذنا الصور ذاتها لتلك الحرب الكبرى، كما كان يسمّيها والدي. وذهبنا بخاصّة إلى «إيپر» مرّات عديدة؛ وكذلك إلى «فردان». وإذ ذاك صارت والدتي تأخذ صوراً ملوّنة عندما كانت تلك الصور في أوّل عهدها؛ وكنا فيها دائماً مبتسمين.

ومع أن بيل لم يُرد أن يتكلّم عن تلك الحرب، فقد استدرجته وضايقته عدّة مرّات ليروي عنها بعض القصص. وتبيّن أن جُرذاً عضّه في الخنادق عام ١٩١٨؛ فنام عدّة ليالٍ في محطّة للإسعاف الأوّليّ، داخل كاتدرائية «أميان»، بعدما نُسف سقفها خلال القصف الألماني ـ وتذكّر أبي كيف كان ينظر إلى النجوم، بينما كانت تنظر إليه كراغل القرون الوسطى. وقد أراني مرّة صورة أخذها لجبهة القتال الغربية، لا يكاد يبلغ طولها سوى إنش واحد تمثّل أشجاراً مقطوعة وسماداً حيوانياً. وكان أبي قد اصطحب معه آلة تصوير إلى ميدان الحرب ـ خلافاً لكل القواعد والأنظمة الحربية؛ ولكن عندما كنتُ أهمّ بالمغادرة من أجل تغطية شؤون الحرب اللبنانية الأهلية عام ١٩٧٦، للتايمز، التفت إليّ وقال: تذكّر يا فلّاح، أن القذائف التي يجب أن تحذر منها، هي

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ضربات القنّاصين التي يجب أن تنتبه لها». وكانت تلك نصيحة صحيحة مبنيّة على خبرة خنادق الحرب العالمية الأولى.

وقبل موت والدي بقليل، حدّثني عن زواجه الأوّل ـ وكان سرًّا محفوظاً حجبه عني حتى اكتشفت يوماً بالصدفة في مقبرة مايدستون، قبرَ زوجته الأولى. كانت حبيبته منذ الطفولة، ولكن لم تردّ له ذلك الحبّ بعدما تزوّجها، ولا حتى ليلة الدُّخلة. وقد ماتت «ماتيلدا فيسك» عام ١٩٤٤ أثناء الحرب العالمية الثانية. وعلى الأثر، تزوّج «بيل» «پيغي» عام ١٩٤٦. وكان عمرها إذ ذاك ٢٥ سنة، بينما كان عمره هو ٤٦ سنة.

ولكنه أخبرني أيضاً قصّة أخرى مذهلة، غير اعتيادية. فعند نهاية الحرب العالمية الأولى بالذات، طُلب منه أن يرأس فرقة إعدام لتنفّذ الحكم بأحد الجنود؛ لكنه رفض. وبعدما انتهت الحرب، عاقبه الجيش بأن أجبره على نقل الجثث التي كانت لا تزال مُلقاة على أرض المعارك لدفنها في المقابر البريطانية الكبرى. وكنتُ أعرفه دائماً كارهاً للأشياء المتعفّنة المهترئة: كالعصافير النافقة والكلاب الميتة المطروحة على الطرقات. وكان عدم انصياعه للأوامر أمراً غريباً يصدر عنه؛ لكنني أكبرتُ فيه ذلك. وعلى مرور الأيام وصلت إلى نتيجة مؤدَّاها أن رفضه قتل إنسان آخر كان الشيء الوحيد الذي فعله في حياته، وكنتُ مستعدّاً لأن أفعل مثله.

وعندما بلغتُ الثامنة والعشرين من عمري، اشترى لي والدي كتاب «وليم مور»؛ الخطّ الأصفر الرفيع»، أحد التواريخ الأولى عن القصاص الكبير (الموت) على جبهة القتال الغربية. وقالت لي أمّي إنّ أبي قرأه من أوّله إلى آخره، ولم ينبس ببنت شفة. وقد أرادني أن أقرأ عن مصير ٣١٤ رجلاً أعدمهم البريطانيون في الحرب الكبرى. فقد كان الأمر هاجساً له. وقبل موته بقليل، سألته عمّا إذا كان يعرف هويّة الجندي الذي رفض أن يطلق النار عليه. فقال إنه كان أُستراليّاً، ثملَ وقتل دركياً فرنسياً. فناب عن أبي شخص آخر في رئاسة فرقة الإعدام.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وكان هذا كل شيء. وكنتُ قد رجوت والدتي مرّة أن تتحدّث مع والدي عن الحرب، وأن تستجوبه كصحافية، لاستكشاف هذه الحلقة المفقودة من حياته؛ فوعدتني بأن تقوم بذلك. ولكني لم أجد عند وفاته سوى تسع صفحات قصيرة كتبها بخط يده ـ بقلم الرصاص ـ حول قصّة عائلته. فقد ولد عام ١٨٩٩ في «ستون هوس» في «ليسو ويرال تشيشاير». وكان والده «الماستر مارينر» المولود عام ١٨٦٨، ووالدته ابنة «ماركت غاردنر»، المولودة عام ١٨٦٩. ومن قُدامى عائلة فيسك أستاذ هولّندي جاء إلى إنكلترا عام ١٨٣٧. وقد درس «بيل» في مدرسة المجلس، وحاز منحة للدراسة في المدرسة الثانوية. ولمّا لم يستطع والده أن يعيله إذ ذاك، كان لا مناص من ترك المدرسة والمنافسة للعمل في دائرة «بورو» المالية، بين ٢٦ متقدّماً للعمل مقابل ٦ شلنات أسبوعياً. فنجح في المباراة وابتدأ بالعمل عام ١٩١٣ قبل عيد ميلاده الرابع عشر بأسبوعين». ولا عجب إذاً أن يحرص «بيل» على إكمالي دراستي. ولكنّ ملاحظاته أغفلت أن والده إدوارد كان ضابطاً مساعداً (Mate) على سفينة «كاتي سارك» الكبرى الراسية الآن في حوض «غرينويتش» لإصلاح السفن. وكانت هناك أيضاً نُبذة أخرى، مُفادها أن «بيل» لم يكتشف إلّا بعد الحرب العالميّة الأولى أن جدّه ـ والد والده «إدوارد» ـ قد خدم أيضاً خلال ذلك النزاع ذاته، كاحتياطي بحري في موقع «زيبروغي» عام ١٩١٨، عندما سدّ البريطانيون المرفأ البلجيكي لمنع استعماله من قِبل الزوارق والمدمّرات الألمانية.

ومرّت ستّ سنوات أيضاً قبل أن أكتشف مزيداً من المعلومات عن هذه الأمور. وهكذا، عندما توفّيت والدتي عام ١٩٩٨، وجدتُ تحت سطح بيتها في مايدستون صندوقاً من التنك من النوع الذي كانت العائلات ترسله إلى الجنود خلال الحرب الكبرى، مزوّداً بالصابون وفُرش الحلاقة. قرأت على سطح العُلبة اسم «معطرة شيوتسباكي» فوق لوحة رسِمت عليها صورة امرأة شابّة، شكّت في شعرها بعض الورود، وهي تكاد تبتسم. وبداخل العُلبة كانت عشرات الصور المحفوظة كتذكارات من حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨. كما كانت هناك أيضاً بعض

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

صور بحجم البطاقات البريدية، تمثّل أصدقاء «بيل» في الجيش، ممّن قضوا نحبهم منذ زمن طويل، وهم يرتدون البزّات الرسميّة لفوج ليفربول الملكي، وفي نظراتهم وقارُ شباب سائر إلى الهلاك. وقد كُتب على قفا إحدى البطاقات: «شباب برستون»؛ فضلاً عن وجود صور أخرى أخذها «بيل» بكاميرته غير القانونية، ومنها صورة واحدة، كنتُ قد رأيتها قبلاً، تمثل مشهداً ريفيّاً من مشاهد جبهة القتال شمالي «أرّاس عام ١٩١٨»، كما كتب بيل على ظهر تلك الصورة؛ وصورة أخرى تُظهر خيَّالاً على صهوة جواده، كُتب على قفاها «أنا على ظهر وايتسوكس قرب هايزبْراك». كما كانت هناك بعض العُملة الفرنسية، مع صورة تمثّل خمسين جندياً مع والدي، لا يلبسون قبّعات على رؤوسهم، مستلقين باسطين أذرعهم وأقدامهم في موقع الجبهة وجزماتهم بمساميرها موجّهة نحو الكاميرا. لكنّ الصورة المثيرة كانت تمثّل استعراض الكتيبة الرابعة لفوج ليفربول الملكي في «دوويه» بشمالي فرنسا، والحراب مشكوكة خلال عاصفة ثلجية؛ فضلاً عن صورة أخرى باهتة وسيّئة التظهير ـ تمثّل مدرسة المدفعية في دووية، وبناية نابوليونية أمام مكان الاستعراض، وحشداً من الجنود البريطانيين والأحصنة ومركبات المدافع؛ وقد كُتب على ظهرها: «اللواء كاپر يتفقّد الفرقة ب (B)».

ثم كانت هناك صورة فوتوغرافية كبيرة «لبيل فيسك»، وهو يتّكئ على قاعدة نافذة بيت في أرَّاس بفرنسا، مؤرّخة في آب/أغسطس عام ١٩١٨. لقد كان رجلاً طويلاً جميلاً، منفوش الشعر، عميق النظرات، نافر الأنف، مع ابتسامة باهتة على وجهه، واضعاً يده اليمنى في سرواله، مع الحصان شعار الفوج على طيّة صدر سُترته. لقد بدا مثل «بورت لانكستر» في شبابه. وبصرف النظر عن جمال طلعته، لا بدّ لي من أن أعترف بأنه يشبهني قليلاً.

وقد أظهرَته صورة أخرى جالساً في سيّارة مكشوفة مع رجل وامرأة؛ فضلاً عن صورة غيرها أُخذت في الريف الفرنسي بدا فيها لابساً ثياباً مدنية، إنما مع لفائف قماش حول الساقين، كان الجنود البريطانيون يلبسونها لتقيهم من تسرّب ماء الخنادق إلى أحذيتهم. وكانت وراءه على غصن شجرة، قبّعة نسائية. فهل حصلت له قصّة حبّ أثناء الحرب؟ لم يقل شيئاً عن ذلك؛ وكذلك والدتي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فعندما كان في فرنسا لم تكن قد وُلِدَتْ بعد. ولكن عندما مات، عثرتُ على بطاقتين لحضور مهرجان سباق في «لونشان» عام ١٩١٩. وطلبت والدتي مني أن أرميهما؛ إذ لم ترحّب بأن يحتفظ «بيل» بهاتَين البطاقتَين طوال تلك السنوات.

كانت عُلبة التنك التي احتوت الصور محفوظة في صندوق أحذية تحت السطح. ولكني عثرت أيضاً في غرفة والدي على صفحات مكتوبة بخطّها كانت في جارور طاولتها. وكانت عبارة عن مقابلة أجرتها مع والدي بناء على طلبي منذ عقد من الزمن. فقد تكلّم بيل بحريّة معها؛ ووصف حماسه عندما جرى تعيينه في فرنسا ـ ممّا يدعو إلى العجب، لأن رفاقه من «ليفربول» ماتوا في موقع «إيپر» في فرنسا ـ وتأثّره عندما لبس بزّة الضابط الرسمية، وتسلّم منحة ٥٠ ليرة إسترلينية ومسدّساً من طراز «سميث وسّون». قال إنه شعر بأنه «مشير». وكان قد أُرسل إلى فرنسا في آب/أغسطس عام ١٩١٨، حيث وجَد آلافاً من الصينيّين استُقدموا ليصلحوا من شأن الطرقات الملأى بالحُفر. وكان هؤلاء الصينيّون قد نهبوا قطاراً فرنسياً يشحن المؤن. وجاءت كتيبة والدي على أثر ذلك. . . وكان والدي إذ ذاك ضابطاً ثانوياً. وعندما وصلت الكتيبة لم يسمح الصينيون لها بدخول مخيّمهم المؤلّف من أكواخ محاطة بشريط شائك؛ لكنهم سمحوا له شخصياً بأن يدخل. قال:

«عندما وصلنا لم يسمحوا لنا بالدخول؛ بل سمحوا لي وحدي بذلك. فقلت لذلك الرجل الصينيّ الذي يتكلم الإنكليزية: «لقد أُرسلت لأستقصي مسألة قطار شحن فرنسي، مع فصيلتي المؤلّفة من ثلاثين رجلاً. فأجاب: «تفضّل، دون رجالك». فلم أُلقِ بالاً لقوله؛ ولكني لم أرحّب بتعبير «دون رجالك». فدخلت وجلست إلى طاولة، وكان هناك صينيّون حولنا. فهاجمني ذلك الرجل بسكّين وجّهها مباشرة إلى جبهتي بين عينيّ. وكنت إذ ذاك منحنياً أحاول أن أقرأ شيئاً، عندما رأيته يتحرّك. فتحرّكت، ولولا ذلك لطعنني في قفا رقبتي. فأطلقت عليه النار ووثبت إلى الباب

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وركضت بعدوٍ سريع جدّاً، لأنهم جدّوا في أثري؛ وفتح العريف المسؤول عن رجالي النار عليهم ـ لا أدري كم قُتل منهم؛ لكنه أحسن صُنعاً».

وكانت القصص العديدة التي رواها أبي لأمّي متناثرة. فقد عضَّه الجُرذ في صدره خارج موقع أرَّاس «وكانت الجرذان محتشدة بالآلاف حول خطط الجبهة، ولا شكّ في أن أسنانها كانت مسمومة، نظراً لأنها كانت تقتات جِيَف القتلى المُلقاة هناك منذ أسبوع أو أكثر. . . وكان في مستشفى «أميان» أسرى ألمان يخدمون هناك. وقد أهداني الأسير الألماني، الذي كان يخدمني، صندوق ذخيرة رَسم عليه الحصان، شعار فرقتنا، واسمي ورتبتي». وقد جلبته معي إلى «بركنهد» حيث بقي وقتاً طويلاً على مدخنة والدتي، ثم اختفى قبل أن أولد. وقال أبي: «لو بقي هذا الصندوق لفرح به ابني روبرت».

وكانت هدنة تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩١٨ عبارة عن وقف لإطلاق النار؛ ولذا بقي عشرات الآلاف من الجنود البريطانيين في أوحال الجبهة، لئلّا يتجدّد القتال مع الألمان. وفي مرفأي «دوڤر» و«فولكستون»، رفض آلاف الجنود البريطانيين أن يركبوا في الزوارق الذاهبة إلى فرنسا عام ١٩١٩؛ لكنّ والدي تطوّع كي يخدم في الجندية سنة أخرى. وأخبر والدتي عن الرحلات التي قام بها مع قائده على صهوات الجياد عبر المدن الفرنسية الشمالية المهشَّمة، بينما كانت القوى الغربية الظافرة تعقد اجتماعات «ڤرساي» وتمعن تقطيعاً في أوصال إمبراطوريات أوروبا والشرق الأوسط. وكان أحد الأحصنة التي استخدمها والدي أعور؛ فدار به دوراناً ورماه في باحة سكّة حديد فرنسية. كما أُرسل أبي إلى «كولونيا» مع جزء من جيش الاحتلال، وإلى ميناء «الهاڤر» ليشرف على مغادرة آخر قافلة من الجنود البريطانيين المقاتلين لفرنسا.

ولكن، لم يكن في تلك المذكّرات سوى القليل عن الحرب ذاتها، ومعاناة الحياة في الخنادق التي أعرف أنه قضى فيها أسابيع طوال؛ كما لم يذكر شيئاً عن فرقة الإعدام التي رفض أن يترأّسها. وكانت الصفحة الأخيرة من مذكّرات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

والدتي هذه قد انقطعت في منتصف جملة. فهل أتلفها والدي ـ عدا ما أسرّ به إلى أمي، وخوافي بعض الصور الفوتوغرافية الصغيرة. وكان لا بدّ أن تكون هناك طريقة أخرى للتفتيش على محتوى الأشهر المفقودة من سيرة حياة أبي. ففي كانون الثاني/يناير، دخلتُ مكتب المحفوظات العامّة البريطانية في ضاحية لندن المسمّاة «كيو»، وطلبت ملفّ خدمة «بيل» الشخصي في الحرب ـ مع سيرة الحرب للكتيبتيْن اللتيْن خدم فيهما ـ الفوجيْن الثاني عشر والرابع الملكيّين لليفربول.

وعليّ أن أعترف بحصول وخز خفيف في ظاهر يديّ، عندما دقّ حاسوب القرّاء، وذهبت إلى المكتب، حيث ناولني موظف مدني في منتصف العمر الملفّ ذا الرقم (WO 374/24476)؛ وقد كُتب على غلافه (2nd Lt Wm Fisk). ولكنّ آمالي تهاوت على الفور عندما رأيت على الغلاف ذاته أنّ تنقية الملفّ جرت عام ١٩٣٦ وعام ١٩٥٥. فبدلاً من أن يحتوي الملفّ على خمسين أو ستّين صفحة مثلاً، كان يحتوي الآن على ما يناهز عشرين صفحة فقط. لكنّ تكليف «بيل» كضابط لم يمسّ. كما ظهرت في الملفّ مكانته المدنية: «مساعد ماسك دفاتر». وقد سُئل عمّا إذا كانت سلالته أوروبية خالصة، فأجاب بالإيجاب على استبيان المكتب الحربي، فلم تكن في ذلك مشكلة. وتحت تقويم «قدرته على القيادة»، كتب أحد الضبّاط: «حسن، لا تلزمه سوى بعض الخبرة». وكانت في ذلك الملفّ أيضاً: تواريخ إرساله إلى فرنسا، ونقله إلى الكتيبة العاملة بعد الحرب، ورحلته الأخيرة بالباخرة من «بولونيا» إلى «ليفربول» قبل عيد الميلاد عام ١٩١٩. ولا شيء غير ذلك. فماذا سحبوا من ذلك الملفّ؟ ربّما الإشارة إلى رفضه رئاسة فرقة الإعدام، ومجزرة الصينيّين الصغيرة؟

وكان هناك ملفّ (PRO) مستقلّ حول الصينيّين يظهر أن عددهم بلغ ١٨٧٠٠٠ في فرنسا عام ١٩١٨. كانوا مأجورين لوزارة الدفاع، وقد وُعدوا لدى استقدامهم بأن لا يعملوا على جبهة القتال. ولم يتمّ الوفاء بهذا الوعد. وكان لقبهم «عمّالاً حمَّالين»؛ مع توصية بإبقائهم بعيداً عن الأوروبيين. وقد أُعدم منهم عشرة أشخاص بتهمة القتل؛ ولم يُنعَم على بعضهم باسمٍ ـ بل برقم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فقط ـ عندما أُطلقت النار عليهم عند الفجر من قِبل الجنود البريطانيين. وقد أوردت المذكّرة الحربيّة تورّطهم مرّة في نهب قطار مؤن فرنسي.

ثم رنّ حاسوب القرّاء من جديد مُعلناً وصول مذكّرات الحرب المتعلّقة بفوج ليفربول الملكي من قسم المحفوظات. ففي الأشهر الأخيرة من الحرب العظمى، شنّ الألمان هجوماً ضخماً كاد يبلغ باريس؛ ولكنهم رُدُّوا على أعقابهم بواسطة جنود الحلفاء من بريطانيين وكنديين، وفرنسيين، ومن الأميركيين الواصلين حديثاً. وهكذا اتخذت معارك «ييل» الأخيرة شكل هجوم مضادٍّ قام به الحلفاء، وكان ساري المفعول عندما انتهى النزاع. وكانت مذكّرات الحرب لتلك الكتيبة قد وردت مكتوبة بخط اليد على ورق مهلهل، مفتَّت الأطراف، وموضوعة في صناديق كبيرة من الكرتون. لكن الصفحات المتعلّقة بتاريخ الكتيبة الثانية عشرة بدءاً من آب/أغسطس ١٩١٨، بدت مألوفة بغرابة. وسأقضي عدّة ساعات لأعرف ذلك.

كانت هناك تقارير مستعجلة في مذكّرات الحرب حول «الاعتداء بالقصف»، و«قذائف الغاز التي سبَّبت مقتل أربع ضحايا من رُتب أخرى». وفي ٢٢ آب/أغسطس، حصلت غارة على الخنادق الألمانية انتهت بالقبض على أسيرين «وقد دُمِّرت معظم تحصينات العدوّ الإسمنتيّة تحت وطأة قصف مدفعيّتنا». وفي أوّل تشرين الثاني/نوفمبر وجدت الكتيبة مأوى لها بأمر رسمي في شارع «سان روون» في «كامبريه». وكنت أعلم أن أبي كان في «كامبريه» ـ وكان قد أعلمني أنها كانت مشتعلة عندما دخلها مع فرقة كنديّة. ولكنّ الكتابة بخط اليد هي التي استرعت انتباهي. فقد كانت متماثلة مع ما كُتب على قفا الصور الفوتوغرافية التي عثرت عليها تحت سقف البيت الذي كانت تسكنه والدتي؛ حتى أن الخطوط القصيرة الملتوية التي كان «بيل» يصفّها تحت حرف «د» (D) الكبير، كانت أيضاً هناك، تماماً.

فلا شكّ في أن بيل فيسك كان ملازماً ثانياً مولجاً بكتابة مذكّرات الحرب، كل ليلة؛ إذ إنه كان قبل ذلك طبعاً «ماسك دفاتر محاسبة». وكانت تلك المداخل أحياناً لا تتعدى كلمات قليلة، أو ملاحظة حول الطقس القاسي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

العاصف ـ فقد كان أبي طول عمره يسمّي الطقس الماطر عاصفاً؛ وكنتُ أبتهج لتلك التسمية ـ ولكن، كانت هناك أيضاً تقارير أطول مكتوبة باللغة العسكرية الجافّة التي علّموه إيّاها، كقوله في أول تشرين الأول/أكتوبر: «دوريات ناشطة ليلاً ونهاراً». . . «كانت الدوريات ناشطة، تلتحم باستمرار مع العدوّ. ففي صباح اليوم الخامس من الشهر تحرّكت دوريّاتنا شمالاً وجنوباً من المواقع الجديدة التي احتلتها. . . وواجهت مقاومة من المدافع الرشاشة العديدة». وكان «بيل» يذكر الألمان في المذكّرات الرسمية للحرب بصفة «العدوّ»؛ كما كان يسمّيهم شخصياً «البوش» (The Bosche)، طول عمره.

لقد وجد بيل مأوى رسميّاً أيضاً في «دوويه»، كما علمتُ. فقد كانت مع تلك الصور الفوتوغرافية التي وجدتها في علبة «التنك»، صور أخرى ملتقطة من بعيد لأسرى ألمان يقودهم رفاق «بيل» من فوج ليفربول الملكي في طريق ذات ثلاث شعب؛ فضلاً عن مئات من البطاقات البريدية. فحيثما حلّ «بيل» كان يشتري تلك الصور الرخيصة من المدن والبلدات والقرى الواقعة في شماليّ فرنسا. وبعضها يظهر الدمار والخراب اللذين أحدثهما القصف الألماني، لكنّ أكثرها طُبع قبل الحرب ـ إذ إنها تمثّل بلدات باقية منذ القرون الوسطى، وكنائسها ذات الأبراج المستدقّة، وشوارعها المرصوفة بالحجارة المدوّرة، وواجهات البيوت «الفلامنكية»، وحافلات «الترامووي» التي تجوب بين البنايات ذات الشرفات الخشبية ـ وقد كانت حتى في ذلك الزمن الذي اشتراها فيه «بيل» ذكريات عن فرنسا التي لم تعد موجودة.

وكانت هناك ٢٤ بطاقة بريدية في مجموعة «دوويه»، كان بيل قد أرسلها إلى ذويه: إدوارد ومارغريت فيسك، في بركنهَد، كما يتبيّن من السطر أو السطرين اللذين كتبهما على قفاها. وعلى ظهر صورة فوتوغرافية تظهر حافلة «ترامواي» تجتاز شارع بيلّان ـ المدمَّر بفعل القتال الحديث ـ كتب «بيل» ساخراً: «لم أرَ أيّ حافلة ترامواي هنا حتى الآن». ومهَر بيل صورة «ساحة الأسلحة» ـ حيث برج الساعة التابع لقاعة المدينة التي تبدو عن بُعد، وصفَ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

من المباني الأنيقة الباقية من القرن التاسع عشر والواقعة عن يمين البرج ـ بالوصف الآتي: «إن المباني البادية عن يمين البرج متهدّمة. وقاعة طعامنا تبعد مئة ياردة عن البرج المسمّى بالفرنسية «أوتيل دو ڤيل»، أي «فندق المدينة». أما صورة «بوّابة أرَّاس» الباقية من القرون الوسطى، فكتب عليها «بيل»: «مكان إقامتنا الرسمي يبعد ٥٠ ياردة عن هنا ـ ويليام»، مرسلاً قُبلة لوالدته مرغريت. وبين الصور، رسم مطبوع كبير لزوج من الوجهاء بملابسهما الفاخرة، ممّا يشير إلى تاريخ «دوويه» العنيف(*). وكان من الأسهل على «بيل» أن يفهم صورة مثيرة ـ نُشرت طبعاً بعد تحرير البلدة بواسطة البريطانيّين ـ تُظهر جنود الاحتلال الألمان بخُوَذهم المستدقّة الرأس، وهم يمرّون في عرض أمام ضبّاطهم في ساحة «بارليه». وقد أرسلها «بيل» إلى أهله في «بركهَد»، وكتب على قفاها غاضباً: «هذه هي طريقة «البوش»، أي الألمان، في دخول بلدة من البلدات».

وأجمل من ذلك وأدقّ، صورةٌ مؤطَّرة مأخوذة في ممرّ مُقنطر، تُظهر مجموعة من مباني حجارة القرميد ذات البُرَيْجات، قريبة من قاعة البلدة. وكان «بيل» قد رسم إشارة الصليب على الشارع المرصوف عن يمين البطاقة البريدية تحت قاعة الطعام ليدلّ عليها إزاء الرقم ١٦٠٦، عند ممرّ «فندق المدينة». لقد بقي هذا الشارع بعد الحرب العالمية الأولى، فهل يصمد بعد الحرب العالمية الثانية؟ وفي إحدى جولاتنا التي لا تنتهي حول مواقع المعارك، أخذنا «بيل»، أنا ووالدتي، عبر «دوويه» ـ ولا شكّ أن ذلك كان في أواخر الخمسينيّات من القرن العشرين ـ لكني لم أعد أتذكّر تلك البيوت. وكلّ ما أتذكّره هو أنّ أحد رجال الدرك صفّر لأبي كي يوقف سيّارته الأوستن الإنكليزية، إذ كان يسير عكس اتجاه السير في ذلك الشارع؛ حتى أن «بيل» كان قد ابتاع نموذجاً خشبياً صغيراً لدركيّ سمين، كي يحتفل بأن شرطياً فرنسياً مُختالاً تجرّأ على أن ينتقد سياقة أحد البريطانيين الذين حرَّروا «دوويه». وبقي ذلك النموذج منتصباً سنين طويلة على عتبة نافذتنا في غرفة الجلوس ببيتنا في «مايدستون».

(*) إن «غايان» زعيم «كانتان»، الملقّب «بجيهان جيلون» حرّر مدينة «دوويه» التي كانت محاصرة من قِبل الاسكندينافيّن القدماء (Norsemen). ومع أن «بيل» كجندي، كان يحمل دائماً قاموساً فرنسياً في جيبه، فقد كتب على قفا الصورة آسفاً: «لا أدري ماذا تعني».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وبعد مرور ٨٦ سنة على إرسال بيل لتلك البطاقات البريدية من «دوويه»، أعدتُها إلى ظرفها وكتبتُ على الغلاف: «ويليام فيسك، ملازم ثانٍ»؛ وانطلقتُ لزيارة تلك المدينة الفرنسية مرّة أخرى، تلك التي دخلها «بيل» تحت القصف الألماني عام ١٩١٨. ولكني لم أكن واثقاً ممّا آمل أن أجده في «دوويه». ربّما أجد شبح البلدة التي دخلها، وبعض المباني التي لا تزال قائمة فيها، مثل رصف الشارع بالأحجار المدوَّرة التي سار عليها ذلك الجندي من الجيل السابق؛ تلك الحجارة التي رسم عليها إشارة الصليب قبل ٢٨ سنة من تاريخ ولادتي. وكان القطار السريع المنطلق من المحطة الشمالية عبر الريف النديّ في شمالي فرنسا، ينزلق إلى «دوويه» خلال ساعة من الزمن. بينما ينقر المطر نوافذ عرباته. وكان لديّ تصوّر بأن أستخدم الصور التي تركها بيل لاستكشاف معالم المدينة، ومعاودة تركيب صورته عن «دوويه» ـ مع أن المدينة صارت بالغة التضرّر بعد الزمن الذي أرسل فيه أبي تلك البطاقات ـ ومتابعة السير على خطاه. فإحدى تلك البطاقات البريدية تصوّر محطّة سكّة الحديد في المدينة، الباقية من القرن التاسع عشر والمؤلّفة من ثلاث طبقات، وذات الأسلوب المعماري الهولّندي، بنوافذها المحاطة بأحجار تزيِّنها؛ فضلاً عن وجود أحصنة وعربات ومركبة قديمة ذات محرّك في مقدّمة الباحة. لكنّ المحطّة التي دلف إليها قطاري كانت مبنى مثل الصندوق، سقفه، مقشور، ومن مخلَّفات أواخر الأربعينيّات من القرن العشرين. وكان «بيل» قد كتب على ظهر صورة المحطّة تلك، كلاماً غير واضح المعالم، بمعنى «إنّ هذا قد تضرّر قليلاً».

ولم يطل بي الأمر حتى اكتشفتُ السبب؛ «فقد قصف البريطانيون والأميركيون ذلك المكان وفتّتوه أجزاء خلال الحرب العالمية الثانية»؛ كما أخبرني رجل عجوز كان جالساً قربي في مشرب المحطة. «وعلى التوالي، دمّر الألمان «دوويه» عام ١٩١٤، ثم عام ١٩١٨، وبعد ذلك عام ١٩٤٠. أما البريطانيون والأميركيون فقد قصفوها عام ١٩٤٤. وأرادوا أن يمنعوا الألمان من استخدام خط السكة الحديدية من أجل إرسال تعزيزات إلى النورماندي بعد الإنزال على الشاطئ». توقّفتُ عند إحدى المكتبات؛ فوجدت سيلاً من الكتب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المتمحورة حول الاحتلال الألمانيّ الصادرة بمناسبة الاحتفال بمرور ستّين سنة على تلك الأحداث، مع أنه لم يكن بينها أيّ كتاب عن المدينة يعالج وضعها خلال الحرب العالمية الأولى. أليس ذلك غريباً؟ ولكنّ أحد كتيّبات التاريخ العسكري للمدينة أورد كيف احتلّ الجنود الألمان المدينة بتاريخ ٣١ آب/ أغسطس ١٩١٤ ـ بعد ٢٧ يوماً من نشوب الحرب، أو بعد أربعة أشهر على عيد ميلاد «بيل» الخامس عشر ـ راوياً كيف طُرد الأهالي من المدينة ثم عادوا إليها بتاريخ ٢ تشرين الأول/أكتوبر. كانت «دوويه» أول خط للسكة الحديدية، ومركزاً لتعدين الفحم؛ وبالتالي هدفاً عسكرياً استراتيجياً. فكل الفرنسيين الذين تراوح أعمارهم بين ١٧ و٥٠ سنة تلقّوا الأمر بالمغادرة، ثم بدأت حركة المقاومة، وشرع الألمان يأخذون الرهائن. فأرسلوا عشرين رهينة إلى ألمانيا بتاريخ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٦، وأتبعوهم بثلاث وثلاثين رهينة أخرى ـ بينهم ١٢ امرأة ـ أُرسلوا إلى ألمانيا ولتوانيا في أواخر شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٧. وبالإجمال، مات ١٩٣ مدنياً من هذه المدينة على يد الألمان خلال الحرب الكبرى.

انقطع المطر، فسحبتُ بطاقات «بيل» البريدية من ظرفها. لقد كانت المكتبة في شارع «سانت جاك»؛ وقد أظهرت صور أبي الشارع ذاته قبل الحرب. كان هناك خط «ترامواي»، وحافلة، وأكثر من ثلاثين شخصاً ـ والعديد منهم من النساء اللواتي يلبسن مآزر بيضاء ـ واقفين في الشارع وعلى الرصيف. وكان الشارع ينعطف نحو اليسار، كما هو ظاهر أمامي. وإلى اليسار بناية من ثلاث طبقات لها شُرفات خشبية غير اعتيادية، مع شَعْرية كبيرة متدلّية فوق خط «الترامواي». وكانت هذه الشرفة لا تزال قائمة هناك. لقد كانت هذه «دوويه» التي عهدها بيل. تمشّيتُ على طول القناة. وكانت بطاقة «بيل» المختصّة بهذه القناة، تُظهر عدّة مبانٍ من الطراز «الفلامنكي» متماثلة مع مباني رصيف الميناء الذي كنت أتمشّى عليه. استدرت إلى اليسار لأدخل شارعاً مرصوفاً بالحجارة المدوّرة، بدا من المؤكّد أنّ أكواخه المنخفضة لم تُلمَس منذ قرن من الزمن. فهل مشى «بيل» ورفاقه الجنود في هذا الشارع عام ١٩١٨؟

عادت الدنيا تمطر، ولمعت أحجار الشوارع المرصوفة؛ فأرجعتُ البطاقات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

البريدية إلى ظرفها. إن الصحافيين يريدون أحياناً أن يكونوا مُخرجي أفلام، ليعاودوا تخليق التاريخ من مصادر المحفوظات والخبرة على السواء. فباستطاعتي أن أرى الآن فوج ليڤرپول الملكي ينزل في هذا الشارع تحت المطر، وخُوَذه تلمع، والدخان يتصاعد من البنايات المقصوفة وراء البيوت، وبعض المدنيّين الذين سمح لهم الألمان أن يبقوا في المدينة، يلوّحون للجنود البريطانيين الذين حرّروهم. فهل لوّح لهم «بيل» البريء ابن التاسعة عشرة مستجيباً لتحيّتهم؟ لا بدّ أنه فعل ذلك. لقد كان مُحرِّراً، بطلاً. ولا بدّ أن يكون هذا الشعور قد خالجه؛ ولا بدّ أن يكون ذلك الشعور طيّباً لجنديّ بريطانيّ موجود في «دوويه» عام ١٩١٨.

ولكن هل عرف تاريخ تلك المدينة؟ هل أدرك أنه منذ ثماني مئة سنة قبل وصوله إليها، انطلق سادتها الإقطاعيون في حرب صليبية قادتهم إلى الشرق الأوسط، كي يحرّروا القدس؟ وبالتأكيد، لم يكن ليعرف أن عائلةً من هؤلاء الصليبيّين الوافدين من هذه المدينة قد استقرّت شماليّ القدس (أورشليم) في بلد يُسمّى الآن لبنان، حيث تزوّجوا من أهل تلك البلاد المحلّيين المسيحيّين، وأسّسوا عائلة «الدويهي». ولماذا حاولتُ بعد رُبع قرن أن أستجوِب زعيماً لعائلة لبنانية صليبية أخرى، العجوز سليمان فرنجية ـ وكلمة «الفرنج» مشتقّة من كلمة «فرنسي» وتعني «الأجانب» و«الغربيين» باللغة العربية ـ بشأن اشتراكه في مجزرة بالرشّاشات ذهب ضحيتها آل «الدويهي» في بلدة «زغرتا» اللبنانية عام ١٩٥٧. لقد أُطلقت النار عليهم في كنيسة لبنانية؛ لكنّ العجوز سليمان فرنجية رفض أن يبحث ذلك معي. وعندما عاودت فتح الموضوع، صوَّب رجال ميليشياته رشّاشاتهم نحوي. ولذلك لم أكتشف أبداً خلفيّة وحشيّته الصليبيّة ـ الفرنسية. ومن المعلوم أن المسيحيّين في لبنان كانوا يتقاتلون في ما بينهم، حتى عندما تحدّاهم نفوذ المسلمين الصاعد الغامر.

ولكنّ ملامس التاريخ لا تُرخي قبضتها عنّا، ولا تفتأ تُناكدنا، حتى عندما لا نتصوّر وجودها. فأوروبا والشرق الأوسط، والغرب والعالم العربي، متشابكان بحيث يصعب فصلهما بعضهما عن بعض، حتى في «دوويه» الحديثة،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عندما تجابهني قصّتي الصحفية. ففي زُقاقٍ مقابل للقناة، ها أنا أوقف رجلاً وأسأله أن يدلّني على محفوظات المدينة؛ فيعدني بالمساعدة وينبئني بأنه سيذهب إلى الجامعة ليسَتفسر عن العنوان المطلوب، ويعتذر عن قلّة معرفته بالمنطقة لكونه لبنانيًا ـ كنت قد أدركت فجأةً أنّه كذلك. ريمون حدّاد، مسيحي لبناني من الأشرفية في بيروت؛ أبوه ضابط في الشرطة قضى أسابيع يحاول التوصّل دون جدوى إلى وقف لإطلاق النار بين الكتائب اللبنانية المسيحية والجنرال ميشال عون، قائد الجيش والمخلِّص المسيحي الذي ادَّعى عام ١٩٨٨ أنه رئيس مجلس الوزراء. وكنتُ قد صرفتُ أكثر من سنتيْن وأنا أكتبُ تقارير عن ذلك النزاع الدامي العبثي بين الفئات المسيحية المتناحرة. وها أنا الآن على بُعد أكثر من ثلاثة آلاف كيلومتر عن لبنان، أطلب المساعدة من لبنانيّ مسيحيّ، بينما أقتفي خُطى والدي عبر حرب ضروس أكثر إخافة ورعباً. سمع مني ريمون حدّاد قصّة «بيل» أبي ـ إذ إن أولئك الذين قاسوا ويلات الحرب يُبدون تفهّماً لمثل هذا الاستقصاء التاريخي، ولو لم يُبدوا تعاطفاً معه ـ ورافقته إلى «فندق المدينة» الذي ساد برج ساعته الكبير العديد من بطاقات «بيل» البريدية.

وساعدتنا امرأة في «مجلس البلدة»، واستطاعت فوراً أن تحدِّد الشارع الذي رسم «بيل» إشارة الصليب عليه ليدلّ على قاعة الطعام التي كانوا يأكلون فيها عام ١٩١٨. أمَّا القنطرة التي بدت في الصورة فقد دمَّرتها قنابل الحلفاء عام ١٩٤٤، ولكن كان من السهل العثور على المباني البادية عن يمين الصورة. فقد كانت متماثلة بشُرفاتها، وأبراجها التي تحاكي أبراج القصور، ومنعطف الشارع، وصفوف الحجارة التزيينية المرصوفة حول النوافذ. وكانت السلطات قد أصلحت الثغرات التي أصابت حجارة البناء ـ بفعل شظايا القصف الذي جرى عام ١٩٤٤ ودمَّر القنطرة ـ لكنّ الشارع بقي على حاله لم يمسّ. قرعت جرس المنزل ذي الرقم ١٦٠٦ في الممرّ؛ وأنا أقول لنفسي أن بيل مشى على الدرجات المؤدّية إلى هذا الباب، عندما كان شابّاً يؤمن بالحياة وبالسعادة وبالوطنية، وربّما بالحبّ. وليس «بيل» الذي كان في منتصف عمره، حسبما أتذكّر من أيام طفولتي، أو الرجل العجوز الغاضب الذي كان يهدِّد والدتي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لا أدري ماذا كنتُ أتوقّع إذ ذاك. فهل توقّعتُ أن ينبري «فيسك» الملازم الثاني ليفتح لي الباب، فيلتقي الابن البالغ من العمر ٥٧ سنة والده البالغ من العمر حينئذٍ ١٩ سنة، وهو يلبس البزّة «الكاكيّة» التي تصوَّر بها في بلدة «أرَّاس» خلال آب/أغسطس عام ١٩١٨؟ فُتح الباب ـ ذاك الباب الذي كان يؤدّي إلى قاعة طعام الجنود ـ وحيَّاني رجل فرنسي صغير الجسم، بأدب جمّ، فتصوّرت أنّه محامٍ ـ وكان ذلك صحيحاً ـ وأبدى تفهّماً لقصّتي دون أن يتحمَّس لها. أجل، هذا هو البيت الذي كانت فيه قاعة طعام «بيل»، وكان صاحبه السيّد «لوروا» محامياً يُعبّر عن نفسه بكلّ دقّة. وكانت شُرفته ذات الحديد المُطاوع الذي يسيِّجها ويطلّ على ذلك الشارع الضيّق، هي ذاتها البادية في البطاقة البريدية. لكنّ كلّ شيء تغيَّر في الداخل. فقد ابتاع المحامي هذا البيت منذ ثماني سنوات، وأعاد تركيب الغُرف ـ بعدما كان قد أعيد بناؤها داخليّاً في أعقاب الفترة الطويلة من الزمن التي تلت الحرب العالمية الأولى. فأهله يعيشون الآن في القاعة الطويلة المنخفضة، حيث كان «بيل» ورفاقه من الضبّاط الصغار يشربون ويدخّنون بالغليون. نظر السيّد «لوروا» إلى صديقي اللبناني الملتحي ـ الذي بقي حيّاً بعد الحرب التي عاناها ـ ثم نظر إليّ ـ أنا الذي عانيت حرب «ريمون» وحروباً أخرى، وبقيت حيّاً ـ وشكرني لاهتمامي بمنزله.

ولكن، بماذا أتوقّع أن يبدي مواطن من «دوويه» تعاطفاً أكبر معي؟ ففي الحرب العالمية الثانية، قتلت الغارات الجوّية البريطانية والأميركية ٣٤٢ مواطناً في المدينة خلال ليلة واحدة فحسب، بتاريخ ١١ آب/أغسطس ١٩٤٤، وتركت كثيراً من المباني القديمة جدّاً أطلالاً ـ بما فيها مبنى مدرسة المدفعية التي كان «بيل» قد صوّرها منذ أكثر من رُبع قرن. ومن المعقول أن يكون بعض الموتى ممَّن حرَّرهم «بيل» وجنوده عام ١٩١٨، عاشوا ليموتوا على أيدي أبناء بلاده بعد ٢٦ سنة. كما يمكن أن يكون من بينهم اليهود الفرنسيون البالغ عددهم ١٣ شخصاً الذين هجَّرهم النازيون عام ١٩٤٢. فقد مات عدّة أشخاص من أهالي «دوويه» تحت التعذيب بأيدي «الغستابو» (البوليس السرّيّ النازيّ) مع العلم أن عمّال المناجم المحلّيين دعموا المقاومة المحلّية بقوّة؛ وكان الكثير منهم من الشيوعيّين.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ولكنني تساءلت: «ما قيمة الحرب التي خاضها «بيل»؟ بينما كان القطار يعود بي إلى باريس عبر الريف النديّ في موقعة «الصوم»، قاطعاً خطّ الجبهة القتالية القديمة، من فرنسا التي احتلّها الألمان إلى فرنسا التي رابط فيها البريطانيون. على مدى أربع سنوات مات عشرات الألوف من الجنود كي يحموا هذه الخطوط ـ التي لا تعدو الآن كونها موجات خفيفة عبر الحقول ـ بينما كان قطاري يقطعها كلّها في أقلّ من عشر ثوانٍ، مجزرة تمَّت في سُدس دقيقة. وبينما كنتُ أحتسي قهوتي في الدرجة الأولى، لاح لي بسرعة خاطفة مرأى مقبرة عسكرية بريطانية، فلم أستطع أن أقرأ أسماء القتلى تحت الإسمنت وعبر القبور.

وكان والدي يقول لي دائماً إنني سأرث مكتبته عندما يموت؛ تلك المكتبة التي تشغل جداريْن من الكتب في منزلنا في مايدستون، والتي كانت مرجعاً له كلّما أخنى عليه الدهر. وكان يردّد دائماً: «لديّ دائماً كُتبي». وبالفعل كان لديه مؤلّفات تشرشل كافّة، المتضمّنة مجلّديْن من سيرة حياة «مالبورو»، وقّعها بنفسه لبيل عن طريق صديق له في حركة «المدَّخرات الوطنية». وما زلتُ أتناول ذلك الكتاب من وقت إلى آخر عن الرفّ؛ وأرى توقيع «ونستون تشرشل» المكتوب بقلم حبر والمنزلق عبر الصفحة تعمره الثقة بالنفس مثلما كانت حاله عندما كتب تقاريره عن الأفعال العسكرية على الحدود الأفغانية، وعندما كتب مديحه للربابنة الشبان في معركة بريطانيا عام ١٩٤٠. وقُبيل وفاة والدي صارت مكتبتي أكبر من مكتبته ـ ولكنّي لم أقل ذلك له، طبعاً ـ مع العلم أن مجموعات كتبه الكبرى عن حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ وعقابيلها كانت قيِّمة بحيث لا ينوب عنها شيء. وقد استعملتُ بعضها كمراجع لهذا الكتاب وكانت هناك مذكّرات «هايغ» و«لويد جورج»، و«ألّنبي» ـ الذين دخلوا القدس عام ١٩١٧ بعد ثمانية أشهر من دخول «مود» إلى بغداد ـ بجانب المجلّات المصوّرة الأسبوعية للحرب الكبرى، والتحاليل لمعاودة ترسيم الحدود العالمية بعد الحرب.

وعلى العموم، استغرق الحلفاء من جيل والدي ٢٣ شهراً ليخلِّقوا تلك الحدود الاصطناعية والدول الاصطناعية التي تحتويها تلك الحدود. فدولة لبنان الكبير الجديدة انتُزعت من جسم سوريا، وأعلنها اللواء «هنري غورو» بتاريخ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

٣٠ آب/أغسطس عام ١٩٢٠. وشُكّلت كذلك يوغوسلافيا، مملكة الصرب المزعومة، من الصرب، والكرواتيين، والسلوفينيين، وأُعلنت بتاريخ ٢٨ حزيران/يونيو ١٩٢١. ووُقّعت المعاهدة الإنكليزية ـ الإيرلندية التي جزّأت إيرلندا بعد حوالى ستة أشهر، بتاريخ ٦ كانون الأول/ديسمبر. وأقرّت «عُصبة الأمم» انتداب بريطانيا على فلسطين ـ بما فيه شروط اتفاقية بلفور ـ بتاريخ ٢٢ تموز/يوليو ١٩٢٢، بعد ١١ شهراً من تنصيب الملك فيصل ابن الشريف حسين ملكاً على العراق بواسطة البريطانيين. ومن الواقع المتجهِّم المقيت في حياتي الشخصية، كما أفكّر غالباً، أنّ مهنتي كصحافي ـ التي بدأت في إيرلندا، ثمّ انتقلت إلى الشرق الأوسط والبلقان ـ صرفتُها في كتابة التقارير عن هذه الحدود الوهميّة اللاهبة، وانهيار تلك الدوَيلات التي أقامتها الحرب التي خاضها والدي، وسمحت بقتل شعوبها. ومن طرائف التفكير حول روحية ذلك العصر، أن معظم عمليّات معاودة وضع خرائط تلك المناطق وإقامة دُوَيلاتها، يفترض أنها حصلت بالنيابة عن الأقليَّات، التي لم تكن هي ذاتها تريد أبداً وضع تلك الخرائط، ما عدا حالة يهود فلسطين، وحالة البروتستانت في شماليّ إيرلندا.

فقد سقط الكروات والصرب فوراً. وحصل شغب طائفي شرس في إيرلندا، بينما نشبت حرب أهليّة بين الوطنيين الإيرلنديين. ودمَّر الفرنسيون جيش سوريا العربي، وأعدموا وزير دفاعه، وقمعوا تمرّدات قامت في سوريا ولبنان. وواجهت بريطانيا تمرّداً وطنياً في العراق. وحوالى الثلاثينيّات من القرن العشرين الميلادي، صار البريطانيون يحاربون تمرّداً في فلسطين، قام به العرب الساخطون على تقسيم أراضيهم وإعطائها لليهود كوطن قومي. أما الوعود بالاستقلال التي قطعها ت. إ. لورانس للعرب، فلم يعد لها قيمة؛ بينما جاء في تصريح اللورد بلفور عام ١٩١٧ حول فلسطين حرفياً ما يلي: «إن حكومة صاحب الجلالة ترحّب بإقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين»؛ فضلاً عن مُلحق خارجي ينصّ على أنه «لا يجب القيام بشيء يضرّ بالحقوق المدنية والدينية للسكّان غير اليهود في فلنسطين». وفي الواقع، لم يكن بلفور مهتمّاً باستشارة عرب فلسطين حول مستقبلهم؛ بل إن اللورد بلفور نفسه اتّخذ موقفاً يكاد يكون ممالئاً أيضاً ـ ولكنه أكثر انفتاحاً ـ إزاء إيرلندا الشمالية. كما أن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

«بلفور» أعطى أيضاً دعماً وزارياً حيوياً لرئيس الوزراء «جايمس كريغ» عندما اقترح أنه، بالنظر إلى عدد الكاثوليك الذين قد يخدمون في شرطة «ألستر» الملكية، يلزم إنشاء قوّة بروتستانتية من قوّة «ألستر» المتطوّعة الطائفية. وهكذا صار لدينا فلسطين الطائفية، وإيرلندا الشمالية الطائفية، ولبنان الطائفي ـ القائم على نفوذ أقلّية نحيلة من المسيحيّين الموارنة ـ كما صار لدينا سوريا والعراق، البلدان المقسومان اللذان تحكمهما طوائف وقبائل، ويوغوسلافيا القائمة على الارتياب الإثنيّ: هذه هي بعض الهدايا التي منحتها حرب والدي للعالم.

وبينما كان ذلك النزاع يدفن أجياله، عمدت الإمبراطوريات ـ المنتصرة والمنكسرة في ما بعد ـ إلى استخدام أبناء المستعمرات طُعمة للمدافع. فمع والدي في معركة «الصوم» كان «الهنود» يحاربون أيضاً؛ ومع الفرنسيين في «فردان» حارب الجزائريون والمراكشيون. كما حارب الفلسطينيون والسوريون بمن فيهم الذين سيصيرون لبنانيين مع الجيوش العثمانية. وقد أخبرني سائقي اللبناني «عبد مغربي» بأن والده سيق إلى الجيش العثماني مباشرة بعد ليلة عرسه ليحارب ضدّ «ألّنبي» في فلسطين. أضف إلى ذلك أن أرض موقعة «الصوم» في فرنسا، حيث حارب أبي خلال الأشهر الأخيرة من الحرب، قد ارتوت من دم عشرات الألوف من الإيرلنديين الكاثوليك الذين حاربوا ببزّات رسمية بريطانية؛ بينما كان إخوانهم يموتون بالرشّاشات البريطانية ـ أو أمام فِرق الإعدام البريطانية في دبلن(*). وقد ساعد «بادرايغ بيرس»، و«جايمس كونولي»، و«جان ماكبرايد» ـ وكذلك إيمون دي فاليرا ـ كلهم ساعدوا بطريقة غير مباشرة على

(*) تحتاج سياسة التقسيم إلى بعض الإحصائيّات هنا. ففرقة «ألستر» ذات الرقم ٣٦ كانت مؤلّفة كلّها تقريباً من بروتستانت وافدين من المقاطعات الإيرلندية في أقصى الشمال ـ التي تؤلّف ستّ منها الآن إيرلندا الشمالية ـ لم يكونوا مُتعاطفين مع ثورة ١٩١٦ في دبلن. وقد بلغ عدد الضحايا المروّع منهم ٣٢,١٨٦ بين قتيل وجريح ومفقود في معارك «الصوم» و«إيبر». أما الفرقتان الإيرلنديتان العاشرة والسادسة عشرة، المؤلّفتان في معظمهما من الإيرلنديين الكاثوليك ـ والذين وُلِد العديد منهم في بريطانيا ـ فقد حاربوا في «غزّة» وفي سائر فلسطين، كما حاربوا في «الصوم» و«الفلاندرز». وبالإجمال، خسروا ٣٧,٧٦١ رجلاً بين قتيل وجريح ومفقود. وعلى العموم، يُقدّر عدد الإيرلنديين الذين قضوا نحبهم في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ بما يناهز ٣٥٠٠٠ قتيل.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إنقاذ حياة بيل فيسك. ففي أعقاب ثورة عيد الفصح عام ١٩١٦، أُرسل والدي إلى إيرلندا بدلاً من فرنسا، حيث كان يمكن أن يموت في الأيام الأولى من معركة «الصوم»؛ فحارب «الشين فين» أو الشينيين» (Shinners) في إيرلندا بدلاً من محاربته «للبوش» (الألمان)، على الأقلّ في المرحلة الأولى.

منذ ربُع قرن مضى، سافرت مع امرأة إيرلندية شابّة إلى مدينة «إيپر» (Ypres) البلجيكية؛ حيث حُفرت في الصخر فوق بوّابة «منين»، أسماء أولئك الرجال البالغ عددهم ٥٤,٨٩٦ الذين حاربوا باسم البزَّة الحربية البريطانية مثل والدي ـ ولكن لم يُعثر على أجسادهم. كانوا يحاربون بحسب اعتقادهم من أجل بلجيكا الصغيرة ـ الكاثوليكية ـ التي غزاها الألمان بجيوشهم عام ١٩١٤. وقد تأثّرت المرأة الشابّة مرافقتي لكون العديد منهم إيرلنديين. وتساءلت «لماذا بحقّ الله، يأتي شابّ من «استايشن هاوس» في «ترالي» ليموت هنا في وحل الفلاندرز؟»

وبعد دقائق قليلة، اقترب منّا رجل متقدّم في السنّ يحمل سجلّ الزائرين، وسألها إذا كانت تحبّ أن توقّع عليه. وكان ذلك قبل أن تواجه الجمهورية الإيرلندية القوية الواثقة اقتصادياً خطر التضحية بجنود ما قبل الاستقلال التابعين لها، الذين يرتدون البزَّة الرسمية البريطانية. فنظرت صديقتي إلى شارة الجيش البريطاني على كتاب النصب التذكاري بكرهٍ شديد؛ إذ كان التاج يتلألأ على الغلاف في ضوء المساء. وكان رجال المطافئ البلجيكيون يتأهّبون لتغيير مواقعهم داخل بوّابة «منين» الكئيبة؛ كما يفعلون كل ليلة. ولم يكن هناك وقت كافٍ لأخذ القرار. لكنّ صديقتي لم تكن لتنسى ذلك الشاب الوافد من «ترالي». لقد كانت تواجه التاريخ، الذي لم يكن سهلاً ومطمئناً ومفهوماً بالنسبة إليها، كما يمكن أن يكون بالنسبة إلى الذين يُعتبرون منا أنهم دائماً المنتصرون في الحروب. وفي آخر المطاف، كتبَت في السجلّ باللغة الإيرلندية ما معناه: «للبلدان الصغيرة». فكم يسَّرت رغبة الشاب الإيرلندي في مساعدة بلجيكا الصغيرة ـ أحد الأسباب التي دفعت بأبي للذهاب إلى الحرب ـ في إطار ذكرى مأساة بلد صغير آخر، وكم استطاعت أن تجمع بين إيرلندا والفلاندرز، دون أن تتخلّى عن صدق مشاعرها الخاصّة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أُعجبتُ بسلوكها وقدَّرته. فمن اليسير أن يقف المرء مع الحرب، وأن يدعم «الشباب» الذاهبين إليها، وأن يكتب المقالات الافتتاحية لتبيان الحاجة إلى الوقوف في وجه الاعتداء، والغزو، و«الإرهاب»، و«الشرّ» ـ مع العلم أن الحرب العالمية الأولى كانت حافلة بتعاريف «الشرّ» ـ ولكنه أمر آخر أن يقف المرء ضدّ الحرب، وأن يتملَّص من قبضة التاريخ، ومن اليد المائتة التي تقبض على ذراعنا وتذكّرنا بأنه لا يزال هناك عمل يجب القيام به، وغضب يجدر استثماره، وشراسة تلزم تهدئتها، وطموح ينبغي تحقيقه، وحدود تحتاج إلى معاودة ترسيم، وبلدان نرغب في تخليقها، وشعوب لا بدّ من أن تُحكم أو تُدمَّر. وهكذا، جاءت الحرب العالمية الأولى، والإنزال على شواطئ غاليپولي الذي استفزّ تركيا لمحاولة إبادة الأرمن ـ وهي أول محرقة في القرن العشرين الميلادي ـ وتُرك الشعب الأرمني لمصيره عندما جرى إبرام معاهدة السلم في فرساي؛ كما حصل لشعب كردستان. ففي حرب بيل الكبرى، استعملنا، نحن الأوروبيين، الأسلحة الكيميائية لأوّل مرّة، وهو تطوّر أورثناه الشرق الأوسط. فكم هو يسير علينا أن ننسى أن هزيمة الغرب الأولى على يد الجيوش الإسلامية في العصر الحديث، جاءتنا لا عن يد العرب، بل عن يد الأتراك في «غاليبولي» و«قط العمارة» في العراق.

لقد تعامت القوى الكبرى الأوروبية عن العديد من الحقائق التي كانت تُخلِّقها. ويتذكّر المرء وصف «لويد جورج» للورد «كيتشنر» بقوله: «كان كإحدى تلك المنارات التي تطلق إشعاعاً موقّتاً بضوء بعيد المدى في الظلام المحيط بها، ثم تنكفئ إلى الظلمة». فبالنسبة إلى البريطونيين، كانت الحرب الكبرى إدماناً، لحظةً تعطي فرصة للتفكير في الأجيال المتعاقبة، وفي التضحية الفارغة من المعنى، وفي انهيار الإمبراطورية، وفي الحروب التي خاضها آباؤنا ـ وأجدادنا. إنها الحرب التي خاضها والدي ووالد جدّي، على الأقلّ. لكنّ عواقب حرب بيل فيسك هي التي أرسلتني إلى إيرلندا، ويوغوسلافيا، والشرق الأوسط. أمّا واضعو الخرائط المنتصرون، فلم يكونوا كلّهم ذوي عقل واحد. فحدّ إيرلندا الشمالية كان إيذاناً بانحطاط الإمبراطورية، وحدود الشرق الأوسط كانت محاولة أخيرة من قبل بريطانيا وفرنسا للتعلّق بنفوذهما الإمبريالي. كلّا،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لا يمكن لوم «بيل» لما اقترفه زعماء الغرب من أكاذيب، ووعود عُرقوبية، وفساد في معاهدة «فرساي». ولكنّ عالمه هو الذي شكَّل عالمي، وإمبراطوريات زمانه هي التي أحدثت كوارث الشرق الأوسط. فلم تكن بطاقاته البريدية هي الإرث الوحيد الذي تركه لي.

وكم أستطيع أن أتقدّم في بحثي حول حياة «بيل» بين مهاجمات الغاز، والقصف، والغارات الجوّية المذكورة في مذكّرات الحرب - عبر الأراضي المتنازع عليها والبادية بحيويّة في الصور الصغيرة التي ورثتها عن أبي. وفي مذكّرات كتيبة الحرب، بتاريخ ١٠ - ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر كتب والدي ما يلي: «رسالة فوريّة عند الساعة ٧:٣٠، بتاريخ ١١: من الفيلق ١٧، تلقّيناها عبر الكتيبة، تُفيد بأن الاعتداءات ستتوقّف عند الساعة ١١:٠٠ اليوم - وعلى الجنود المتقدّمين أن يبقوا في الخطّ الذي بلغوه». ثم كتب: «الوصول إلى مأوى «لوڤنكور» عند الساعة ١٨:٠٠». وهكذا وصل أبي إلى الكوخ - الحظيرة الذي سيصبح مأواه والذي سيسكن فيه حتى آخر كانون الثاني/يناير القادم. وعدت مرّة ثانية إلى الملاحظات التي استلّتها أمّي من أبي قبل وفاته، حيث تذكّر أنه: «كان هناك قصر (في لوڤنكور)، سكنه كبار الضبّاط، نظراً لأن أصحابه هجروه، ولأن الضبّاط الصغار أوَوا إلى البيوت القروية الحقيرة. وجدتُ نفسي أسكن كوخاً متداعياً مهجوراً؛ وعليّ أن أمرّ في غرفة أخرى تسكنها امرأة عجوز كي أصل إلى غرفتي... وكنت أراها يومياً جالسة في سريرها تدخّن الغليون».

وقد اكتشفتُ أن ذاكرة «بيل» قد تخونه أحياناً. فقد جاء في سجلّات الكتيبة الرابعة ما يلي: «دويزون» في ١١ حزيران/يونيو ١٩١٩، تولّت فرقتان تهدئة الاضطراب الذي حصل في المجمّع الصيني في أرّاس... وبقي منهما ضابط وفصيلة للحراسة. وأظنّ أن هذه هي الصيغة الرسمية التي تمّت مراقبتها بشأن إطلاق النار الذي حصل في المجمّع الصيني، وأن الضابط كان «والدي». ولكن التاريخ كان عام ١٩١٩ لا ١٩١٨؛ فقد أخطأ أبي في تذكّر السنة.

لكنه تذكّر لوڤنكور بكامل وعيه. وفي يوم صَقِع من أيام الشتاء، كانت فيه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جوانب الريف مكلّلة بالثلج، والحقول بمثابة مقابر عسكرية بيضاء، سافرت على الطريق ذاتها التي سلكتُها مع أهلي منذ أكثر من أربعين عاماً، عائداً إلى لوفنكور في منطقة «الصوم». وكانت معي الصورة المستلّة من محفظة العائلة ومن مجموعة والدتي، والتي تُظهر المنزل الذي سكنه والدي. وها أنا الآن أيضاً لا أدري ماذا أتوقّع أن أجد. ربّما شخصاً يتذكّره؟ ـ لا أظنّ ذلك. لقد غادر أبي «لوفنكور» منذ ستّين سنة خلت. فهل هناك معلومات موثوقة عن تحوّل ذاك الشاب، الطليق الروح، كما يظهر في صورة عام ١٩١٨، إلى رجلٍ مسنٍّ أتذكّره يهدّد بضرب «پيغي»، عندما بدأت تظهر عليها إمارات مرض «پاركنسون». والذي آساها إلى درجة ارتاحت فيها عندما رأته ينتقل إلى بيت العناية بالمسنّين؛ ولم تزرْهُ هناك، كما أنها رفضت أن تحضر جنازته؟

عثرتُ على ذلك البيت في «لوفنكور»، وكان سطحه لا يزال مائلاً، لكنّ الجدران تجمّلت بنوافذ ومصاريع جديدة. وعلى خلاف سلوك «بيل» عام ١٩٥٦، قرعت الباب، ففتحته سيدة فرنسية عجوز، ولدت عام ١٩٢٠ ـ ذلك العام ذاته الذي ولدت فيه والدتي «پيغي» ـ وبالتالي لا يُحتمل أنها عرفت والدي. ولكنها تتذكّر جدّتها المسنّة ـ أي المرأة العجوز التي ذكرها والدي ـ التي كانت تعيش في ذلك المنزل. وكانت أرض غرفة الجلوس مكسوّة بالآجرّ الذي لا بدّ أنه لبث هناك أكثر من مئة سنة؛ ولا بدّ أن يكون «بيل» قد مشى عليه بحذائه المُمَسْمَر والضمادة الملفوفة حول ساقه. ثم وجدتُ القصر عند آخر ذلك الشارع البارد، بعد الكنيسة، ونصفه أطلال وراء الجدار القرميدي الأصفر والأحمر، وقابلت الرجل الأكبر سنّاً في القرية ـ كان قد بقي له ثلاث أسنان فقط في مقدّمة فمه ـ الذي تذكّر تماماً وجود الجنود الإنكليز هنا. أجل، لقد سكن الضابط آنذاك في القصر(*)؛ واتّخذوا من بيته مستوصفاً صحّياً للكتيبة. وكان عمر الرجل إذ ذاك ستّ سنوات؛ وكان الجنود الإنكليز يعطونه «الشوكولاتة». وربّما لذلك فقد أسنانه!

(*) بعد أن كتبتُ عن إقامة والدي في لوفنكور في جريدة الإندبندنت، تلقّيت رسالة من قارئة تقول إنها اليوم تمتلك القصر. كانت بريطانية؛ وقد أخبرتني أن كثيراً من الضبّاط حفروا أسماءهم على الطاولة والجدران في القبو. ولم يكن اسم «بيل» مع تلك الأسماء.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

صعدتُ الطريق عائداً؛ فوجدت مقبرة حرب بريطانية صغيرة أخرى، مقابل البيت الذي قضى فيه والدي تلك الليالي الباردة. وكان هناك قبران لجنديّيْن قتلتهما فجراً فرقة الإعدام، وهما: «هاري ماكدونالد» من فرقة «وست يوركس» الثانية عشرة ـ وهو أب لثلاثة أولاد ـ الذي أُعدم لفراره بتاريخ ٤ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩١٦؛ و«ف.م. برّات» من فرقة الرشّاشات الملكيّة الذي أُعدم أيضاً لفراره بتاريخ ١٠ تموز/يوليو ١٩١٧. وكان قبراهما لا يبعدان أكثر من عشرين متراً عن نافذة الغرفة التي كان يسكنها الملازم الثاني «بيل فيسك». فهل عَرف من هما؟ وهل أسرَّ قبراهما إلى ضميره بشيء، لقربهما منه، عندما طلب منه أن يترأّس فرقة الإعدام لقتل الجندي الأسترالي؟

ومن باريس، خابرتُ بالتلفون أمين المحفوظات المسؤول عن سجلّات الحرب في كامبيرّا؛ فقال: لم يُعدم أيّ جندي من الفِرق الأسترالية المشتركة في الحرب العالمية الأولى. فلم يُرِد الأستراليون أن يعدم رجال «هايغ» شبابَهم عند الفجر. ولكن عندما انتهت الحرب، كان هناك أستراليان محكوم عليهما بالموت، أحدهما لأنه قتل مدنياً فرنسياً. وقد شكّ موظّف المحفوظات في أن يكون هذا هو الرجل الذي تكلّم عنه «بيل»، ولكنّه غير متأكّد. وقد يُسرّ أبي لو علم أن الرجل المُدان، قد عُفي عنه. ولكنّ الحقيقة كانت أقسى من ذلك بكثير.

وقد كتب إليّ قارئ آخر لجريدة الإندبندنت، يشير إلى أن هناك حالة لجندي أسترالي، من فِرقة المدفعية في الجيش البريطاني، حُكم عليه بالإعدام ـ لأنه قتل شرطياً عسكرياً بريطانياً في باريس، وليس لأنه قتل دركياً فرنسياً. وكان اسمه فرانك ويلز؛ وقد فُتح ملفّه الآن في المحفوظات الوطنية في لندن. فعدتُ إلى ما كان يُسمّى «مكتب السجلّات العامّة»؛ حيث استُبدلت برنَّة الحاسوب شاشة. وعندما قرأت عليها أن الملفّ ذا الرقم (WO71/682) ينتظرني، علمت أن تلك الأوراق تحتوي على قسم من حياة والدي «بيل». ولو لم يقرأها، فلا شكّ في أنه كان على دراية بمحتواها. فلا بدّ أنه كان يعرف قصّة «غنَر وِيلز».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كانت القصّة بمنتهى البساطة. وقد لُخّصت محاكمة «غنر فرانك ويلز» ذات الرقم ٢٥٣٦١٧، من كتيبة مدافع الهاون الملكية التابعة للفرقة ٥٠، في صفحتين مضروبتين على الآلة الكاتبة. لقد فرّ من الجيش البريطاني بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٨ ـ بعد أكثر من أسبوعين من تاريخ الهدنة ـ وقُبض عليه في باريس بتاريخ ١٢ آذار/مارس ١٩١٩. وأُوقف مع زميله في شارع «فوبور دو تامپل»، في الدائرة الباريسية الحادية عشرة، من قِبل شرطيَّيْن عسكريين بريطانيَّيْن هما «وبستر» و«كوكسون»، وكلّ منهما برتبة وكيل عريف. وكانت قصّته قصّة الفارّين المألوفة ذاتها. هاتِ أوراقك. فقال «ويلز» إن أوراقه موجودة في فندقه ذي الرقم ٦٦ بشارع «مالت». فذهب الأربعة إلى «فندق البريد» ليُحضر ويلز أوراقه. وبحسب تقرير المدّعي العامّ:

> «صعد المتّهم مع وكيل العريف وبستر الدرج، وسُمعت على الأثر طلقتان ناريّتان... ثم نزل المتّهم وركض هارباً وبيده مسدّس، فتبعه وكيل العريف كوكسون، فرماه المتّهم بثلاث طلقات، جرحته إحداها جرحاً بسيطاً في ذراعه. وهرب المتّهم... ولكنّ بعض رجال الدرك والمدنيّين طاردوه؛ فقُبض عليه، وجُرِّد من مسدّسه الذي كان قد أطلق منه خمس خرطوشات. ووُجد وكيل العريف وبستر ملقًى على أعلى الدرج، مصاباً في صدره، وبطنه، وإصبعه. فنُقل إلى المستشفى حيث مات بعد ثلاثة أيام...».

لا بدّ أن يكون هذا الرجل هو الذي أُمر «بيل» بأن يترأّس فرقة إعدامه. فهو جندي أسترالي، والمقتول هو شرطي، والمشتركون هم الدرك الفرنسي، والمكان هو باريس. وقد التحق «غنر ويلز» بالجيش الأسترالي عام ١٩١٥ في عمر السادسة عشرة ـ كان عمره من عمر بيل ـ وأُرسل إلى مصر، وصحراء سيناء، والدردنيل. وعلى شاكلة الجندي ديكنز، شارك «ويلز» في حملة تشرشل الهالكة إلى غاليپولي. فقد حارب هو أيضاً الأتراك العثمانيين. ولكنه أُرسل إلى المستشفى عام ١٩١٦ بسبب «الحُمَّى المصريّة» ـ التي خلّفت لديه مشكلات عقلية وثُغرات في ذاكرته. ولم يجادل المدّعي العامّ في هذا الأمر. وقد سُرِّح «فرانك ويلز» من الجيش الأسترالي عام ١٩١٧؛ فسافر إلى إنكلترا وسُمح له ـ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بسبب يأس الجيش البريطاني في تلك المرحلة من الحرب ـ بأن يتطوّع في فرقة المدفعية الملكية في نيسان/أبريل عام ١٩١٨. ووصل إلى فرنسا قبل «بيل فيسك»؛ لكنه اختلف عنه بكونه محارباً سابقاً.

وبحسب منطق دفاعه، كان «ويلز» يعاقر الخمرة. وقد جاء إلى باريس من أجل فورة انغماس في الشراب... ولم يكن قد أفطر صباح ١٢ آذار/مارس، ١٩١٩... لكنه لم يكن ثَمِلاً، بل كان على طريق السكر. ولا يذكر إذا كان قد أطلق النار على كوكسون أم لا. لكنه كان يعلم أن المسدّس محشوّ، منذ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٨. وقد كتب شهادته بيده على ثماني صفحات، ومهرها بتوقيعه تزيينياً «ف. ويلز»؛ وشرح فيها كيف سأله الشرطيّان عن الإذن الذي يحمله لزيارة باريس، وكيف وصل معهما إلى الفندق:

«صعدت الدرج بسرعة إلى غرفتي؛ فوجدت الباب مُغلقاً. وسمعت خلال ثوانٍ أحداً يصعد الدرج. وكان معطفي على ذراعي في ذلك الوقت. وكان لديّ في إحدى جيوبه مسدّس ذو ستّ طلقات. وقد أُعطيته في فرقتي... سحبت المسدّس من جيبي كي أخفيه تحت السجّادة حالما أدخل. فلم أشأ أن أُوقف وبحوزتي مسدّس، إذ كنت أحمل كمّية كبيرة من المال، وكنت ألعب لعبة «التاج والمرساة». وبالتالي، قد يتعاظم اتّهامي. ولم أكد أسحب مسدّسي حتى جاء أحدهم صاعداً الدرج... فركض إليّ هذا الرجل، وتبيّن أنه العريف «وبستر». لم نتحادث. أمسكني «وبستر» بمِعصمي الأيمن؛ فخفت واضطربت؛ وعندما لوى معصمي انفجرت من المسدّس طلقتان. فترك العريف «وبستر» معصمي، وضربني على رأسي فتدحرجت على الدرج. صُعقت من الضربة التي أصابت رأسي... ووجدت المسدّس على الدرج أمامي. فأمسكته. وكنتُ أظنّ أن العريف «وبستر» يجري ورائي على الدرج. كنتُ مرتبكاً متحيّراً وشديد التأثر. وعندما وصلت إلى الشارع، سمعت طلقة ناريّة. ولم أعد أذكر ما حدث بعد ذلك حتى أُوقفت».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كانت شهادة ويلز شهادة شابّ صغير السنّ وغير ناضج، إذ كتب يقول: «عندما تركت فرقتي، لم أرغب في أن أبقى بعيداً عنها. قابلت بعض الأصدقاء الذين أقنعوني بأن نذهب لتناول دورة شراب؛ ثم وصلت إلى باريس. وكنتُ أنوي العودة إلى فرقتي حالما أرى باريس: فلم يكن هناك في الفِرقة أيّ عمل يذكر في ذلك الوقت، وكان سير الأمور وئيداً. وتورّطت مع جماعة سوء، وصرت أقامر وأشرب بإفراط. . .» وقد كرّر «ويلز» اعترافه بمشكلة معاقرته للشراب في شهادته الأخيرة؛ وادّعى أنه لا يزال يشكو من انقطاعات في ذاكرته. لم يكن لديه إذن بزيارة باريس، وقد عاد إلى فندقه ليجمع حوائجه. وانفجرت الطلقتان لأن العريف وبستر لوى معصمه. وقد كتب أنه بعد توقيفه، أخذته الشرطة الفرنسية بسيّارة أجرة، ولم يستعد ذاكرته حتى ضربه أحد رجال الشرطة بحربته. وعبّر عن ذلك عندما كتب قائلاً: «لم أكن ثملاً بل كنتُ على طريق السكر مع العلم أن الشرب يعطّل الذاكرة. . .». ولم يكن صعباً تصوّر الشابّ ثملاً، يائساً، مُدركاً ببطء المصير المروِّع الذي ينتظره. أردت أيضاً أن أرى ذلك المكان، إذا كان لا يزال موجوداً: الفندق، والدرج والطابق الثاني، حيث جرح «ويلز» الشرطي العسكري البريطاني جرحاً مُميتاً، والشارع الذي أوقف فيه الدرك الفرنسي «ويلز».

سافرت إلى فرنسا من جديد؛ ووجدت أن شارع «مالت» الضيّق ذا الاتجاه الواحد، الذي تقطعه جادَّة، لا يزال موئلاً لمجموعة من الفنادق الصغيرة الرخيصة. ودُهشت لأن الرقم ٦٦ لا يزال فندقاً ولكنّه يحمل اسماً جديداً. فندق «هيبيسكوس» بدلاً من فندق «البريد». فماذا أتوقّع أن أجد هنا؟ كان موظف الاستقبال جزائرياً، فطلبت منه استئجار غرفة في الطابق الثاني، أقرب ما يمكن إلى الدرج، تلك الغرفة التي سكن فيها «ويلز». وعلمت أن الفندق جُدِّد مرّات عديدة، وكُسيت جدرانه بالورق المصوّف. وكان في الردهة جهاز تلفزيون مفتوحٌ على برنامج مباراة كرة القدم، مع تعليق عليها باللغة العربية. لكن الدرج كان نسيجَ وحده، بدرابزينه ومفاصله المعدنية، ممَّا كان سائد التركيب في كثير من البيوت الفرنسية في أواخر القرن التاسع عشر.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لم أكد أنبئ الجزائري بسبب قدومي إلى هنا، حتى رجمني فجأة بسيل من أسئلته. لماذا جاء ويلز إلى باريس؟ ولماذا أطلق النار على الشرطي العسكري؟ كان اسمه «صفوان»؛ وقد أخبرني أنه أعدّ دراسة عن تأثير مذبحة قرية «بينتالّا» في الجزائر على الأولاد ضمن موجبات الدرجة الجامعيّة التي كان يحضّرها. قلت لنفسي: «بينتالّا»، إني أعرف هذا الاسم. لقد كنتُ هناك، ورأيت دماء طفل مُنتشرة على شرفة في «بينتالّا»، حيث ذُبح هذا الصبي على يد شابّ قتل مئات من المدنيين في القرية عام ١٩٧٧. وقد اتهمت الحكومة الجزائرية آنئذٍ الإسلاميين بارتكاب المجزرة؛ لكن كنتُ دائماً أرتاب بوجود يد للجيش الجزائري في ذلك. كرّرتُ قول ذلك لصفوان، فأجاب بمعنى أنه سمع به، وقال: «هناك الكثير الذي يجب كشفه بشأن هذه المذبحة. لقد كان لي صديق، وكان العسكريون هناك، وقد تقدّموا قرابة المكان الذي كانت تحصل فيه المذبحة. فلم يفعلوا شيئاً. ولا أستطيع أن أجيب وأقول الكثير عن ذلك. تذكّر أني جزائري». نعم إني أتذكّر. أتذكّر القرويين الذين ما زالوا على قيد الحياة. فقد قالوا لي الشيء ذاته: «لقد استنكف الجيش الجزائري عن إنقاذهم».

وكما حصل عندما التقيت فجأة الشابّ اللبناني في «دوويه»، يبدو أن الشرق الأوسط العربي يمدّ إليّ أخباره. فها هو شابّ جزائري ـ يخاف من حكومته ويخشى بلاده ـ ويقبع في رُدهة فندق رخيص بباريس. ولا شكّ في أنّ مقتل شرطيّ هنا منذ ٨٠ سنة موضوع أكثر أماناً له. ترجمت شهادة ويلز لصفوان الذي لم يفهم لماذا أطلق «ويلز» النار على العريف «وبستر»، بينما كان اتّهامه بالفرار مسألة أقلّ خطراً. صعدت الدرج مرّتيْن؛ فلم يستغرق وصولي إلى الطابق الثاني أكثر من ١٥ ثانية. وعندما ركضت على الدرج بلغتُ الطابق الثاني في خمس ثوان ـ مثلما بلغه العريف وبستر. فلم يكن لدى «ويلز» وقت لإخفاء مسدّسه ـ لو كان ينوي القيام بذلك. ولا يشغل الطابق الثاني أكثر من خمسة أمتار مربّعة. وهنا ناضل «ويلز» ضدّ «وبستر»، وتركه ملقًى على الأرض مضرَّجاً بدمائه. دخلت الغرفة ذات الرقم ٢٢، وهي الأقرب إلى الدرج، غرفة «ويلز» آخر مكان نام فيه قبل موته. هنا كان يحفظ معطفه الكبير ومسدّسه. لقد كان

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يشرب صباح يوم ١٢ آذار/مارس ١٩١٩، ربّما في هذه الغرفة بالذات من «البنتش» و«الكونياك»، و«الكروغ الأميركي»، كما أخبر أعضاء المحكمة. وكان في الفندق جندي أميركي سارع إلى الهرب بعد إطلاق النار. ولم يتحرَّ أحد أبداً هويّته. فهل كانت تعمل هناك مافيا حرب؟ ومَن كان يدير أوكار المقامرة، ويقدّم المشروبات؟ ومَن أعطى «ويلز» المال الذي كان يحمله: ٦٦٤٠ فرنكاً فرنسياً بالعُملة الورقيّة، وعشر ليرات ذهبيّة من طِراز «لويس»؟

جلست على سريري في غرفة ويلز، وأعدت قراءة شهادته؛ ذلك الشابّ الذي كُلِّف أبي بأن يترأّس فرقة إعدامه، متأمّلاً في الكلمات الأخيرة التي كتبها دفاعاً عن حياته:

> «أبلغُ من العمر ٢٠ عاماً. وقد التحقتُ بالجيش الأسترالي عام ١٩١٥، عندما كنت في السادسة عشرة من عمري. ذهبتُ إلى مصر وإلى الدردنيل. واشتركتُ في عدد كبير من الاشتباكات هناك، وفي فرنسا. ثم التحقت بالجيش البريطاني في نيسان/أبريل عام ١٩١٨، وجئت إلى فرنسا في حزيران/يونيو ١٩١٨. وكنتُ قد سُرِّحت من الجيش الأسترالي بسبب حُمّى أصابتني في مصر وأثَّرت على رأسي. أقنعني بعض أصدقائي بترك فِرقتي، وانغمست في عِشرة السوء. وبدأت أشرب وأقامر بإفراط. ولم يكن في نيَّتي أن أرتكب تلك الآثام التي أقف بسببها أمام المحكمة... أطلب من المحكمة أن تأخذ بنظر الاعتبار شبابي، وأن تعطيني فرصة لأستقيم وأُمضي حياة صالحة في المستقبل».

أستطيع أن أدرك كيف أثَّر ذلك على «بيل فيسك». لقد كان «ويلز» من عمره ـ وكان قد أُرسِل إلى فرنسا قبل شهرين فقط من إرسال «بيل» إلى منطقة الصوم. لم يفرّ «ويلز» من الجيش أثناء الحرب؛ لكنه قتل شرطياً عسكرياً بريطانياً. وإني أتذكّر كم آمن «بيل» بالقانون، والعدالة، والمحاكم، والقضاة، والشرطة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

خرجتُ من ذلك الفندق الباريسيّ إلى طراوة الليل في الصيف. وكان عن يساري ذلك الشارع حيث طلب الشرطيّان العسكريّان من ويلز وزميله أوراقهما الثبوتيّة. وأبعد من ذلك بقليل شارع «ألبير» ـ المذكور في الوثائق البريطانية باسم شارع «ألبرت طوماس» ـ حيث قبض الدرك الفرنسي على ويلز وأخذوه بسيّارة أجرة، وضربه أحدهم بحربته؛ فخسر إذ ذاك حياته.

وجاء في خُلاصة الحُكم الذي لفظته المحكمة العُرفيّة «أنّ ويلز حُكم عليه بالموت». وعلى الأثر، سيق إلى القاعدة البريطانية في «الهافر» على الساحل الفرنسي بتاريخ ٢٤ أيّار/مايو، وكان موقع بيل هناك. وقد أخذ صورتيْن للمخيّم، إحداهما يلوح في خلفيّتها برج كنيسة ـ وكان حاضراً لدى وصول ويلز. وقد رجعتُ في المحفوظات البريطانية إلى السجلّ الأخير لإعدامه، يداخلني شيء من الخوف. وكان بيل قد تكلّم عن رفضه رئاسة فرقة الإعدام. وصدّقته آنذاك لكنّ الصحافي الذي يقطن فؤادي، والمدقّق في المحفوظات الذي يعمر روح أيّ مستقص للحقائق، يحتاج إلى معاودة التدقيق. أعتقد أن ابن «بيل» أراد أن يتأكّد من أن والده لم يقتل «فرانك ويلز» حقّاً؛ وأن يستوثق من أن هذا العمل البطولي كان حقيقياً.

وكانت هناك قُصاصة ورق يتيمة، سُجّل عليها موت ويلز. لقد أطلقت النار عليه فرقة الإعدام «تنفيذاً للحكم عند الساعة ٤:١٤. بتاريخ ٢٧ أيار/مايو. وكان توقيع قائد الفرقة بالأحرف الأولى (CRW)؛ ولم يكن بخطّ والدي. كما كانت هناك أيضاً ملاحظة أخرى، جاء فيها: «إن الإعدام نُفِّذ إنسانياً وكما ينبغي. وكان الموت فوريّاً». وهل يكون الموت فوريّاً؟ وماذا عن ويلز في تلك الدقائق الأخيرة، بل في تلك الثواني بين الساعة الرابعة والساعة ٤:١٤ صباحاً. كيف كان ابن عشرين سنة يشعر في تلك اللحظات الأخيرة، في ظلام فرنسا الشمالية، وربّما بانسياب نسيم قادم من البحر؟ وهل سمع بيل الطلقات التي قتلت ويلز؟ لقد كان ضميره مرتاحاً، على الأقلّ.

ولد بيل فيسك منذ ١٠٦ سنوات؛ لكنّه بقي لُغزاً لي. هل كانت المرأة الفرنسية التي ذهب معها في نُزهة قادرة على أن تجعل حياته سعيدة؛ ومَن كان

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ليمنعه من أن يعود على الباخرة البولونية إلى ليڤربول منذ ٨٦ سنة، إلى حياة الضجر في مكتب المحاسبة، وزواجه الأول عن غير حبّ؟ وهل كانت زوجته الأولى سبب تطوّعه الحقيقي لتجديد إقامته في فرنسا بعد الحرب؟

لقد دمَّرت الحرب الكبرى حياة الناجين كما سحقت حياة الموتى، ففي مقبرة لوڤنكور وعلى مقربة من مكان السكن القديم لبيل، يرقد اتفاقاً رولاند لايتون الجندي الشابّ الذي حزِنت عليه خطيبته فيرا بريتان حزناً شديداً، وكتبت رائعتها الأدبية: «شهادة الشباب»، معبِّرة عن الخسارة الإنسانية. وربّما منحت الحرب والدي الفرصة كي يمارس حرّيته بشكل لم يألفه من قبل، تلك الاستقلالية التي سلبه إيّاها المجتمع بقسوة. فقد كانت مدالياته التي ورثتُها منه تشمل: مداليّة الدفاع لعام ١٩٤٠، ومداليّتيْ (OBE وMBE) للعمل في «المدّخرات الوطنية» بعد الحرب؛ فضلاً عن مداليتيْن من الحرب الكبرى. وعلى إحداهما حُفرت السنوات ١٩١٤ ـ ١٩١٩، التي لم تشمل وقف إطلاق النار في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩١٨ بل معاهدة «فرساي» المعقودة عام ١٩١٩، والتي أنهت النزاع رسمياً، ونشرت منذ ذلك الحين نتائجها الدامية عبر الشرق الأوسط. وهي المداليّة التي تحمل شعار: «الحرب الكبرى من أجل الحضارة».

وفي أيام والدتي «پيغي» الأخيرة، أخبرتني إحدى الممرّضات أن السناجيب دخلت عُلِّيتها، وأتلفت بعض الصور العائلية. فصعدتُ إلى العليّة لمعرفة ما جرى، فوجدتُ أنه بالرغم من افتقاد بعض الصور، فإن عُلبة التنك التي تحوي الصور التي التقطها أبي بقيت سليمة. وبينما كنتُ أستعدّ للمغادرة، نطحت برأسي أحد جسور السقف؛ فجرى الدم مدراراً على وجهي. وأذكر أني اعتبرت ذلك خطأً من قِبل والدي، الذي لعنتُ اسمه آنذاك. ولم أكد أنتهي من تنظيف جرحي، وتمرّ عليّ ساعتان من الزمن حتى ماتت أمّي. وفي الأسابيع التي تلت ذلك حصل شيء غريب؛ فقد تشكّلت آثار جرح وانبعاج على جبهتي ـ كما حصل لأبي عندما هاجمه ذلك الصينيّ بسكّينه.

ومن حياة الآخرة، حاول «بيل» أن يُصلح شأنه. ففي ثنايا البرودة التي ما

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

زلت أشعر بها إزاءه، لا أستطيع أن أنكر الرسالة التي تركها لي، لأقرأها بعد وفاته. وقد جاء فيها:

«يا فلّاحي العزيز،

أريد أن أقول لك شيئين فحسب، أيّها الفتى الكبير. أوّلاً: أشكرك لما منحتنا إيّاه، أنا وأمّك، من حبّ، وفرح، واعتزاز. إنّنا فعلاً أهل محظوظون بأن يكون لنا ابن مثلك. ثانياً: أعلم أنك ستُعنى بوالدتك العناية القُصوى؛ فهي ألطف وأحسن امرأة في العالم، كما تعلم. فقد منحتني أسعد فترة في حياتي بحبّها المستمرّ الذي لا يخيب».

مع مودَّة والدك،

«الملك بيلي»

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفصل الثاني

المحرقة الأولى

«راكمِ الجُثث عالية في «أوسترليتنر» و«واترلو»،
اجرفْها من تحت، ودَعْني أعمل،
أنا العشب الذي يغمر كلّ شيء.
وراكمْها عالية أيضاً في «غيتسبورغ»،
وراكمْها في «إيبر» و«فردان».
اجرفْها من تحت، ودعْني أعمل.
وفي غضون سنتيْن، أو عشر سنوات، سيسأل المسافرون السائق:
ما اسمُ هذا المكان؟
أين نحن الآن؟
أنا العشب،
دَعْني أعمل».

كارل ساندبرغ، «العشب»

تلّة «مَرقدة» (Margaada) شديدة الانحدار، وحافلة بالأحجار البركانيّة، يغمرها الضياء الخارق والظلال، بإطلالتها على الصحراء السورية. والطقس بارد على قمّتها، وقد حفرت سيول الشتاء أخاديد في التراب العالق بين الصخور، والذي يشكّل ودياناً تنخفض نزولاً إلى سفح التلّة. في القعر، تنساب مياه نهر «الخابور» بين الضفاف الغبراء العارية من الشجر، متلوّية عبر كُثبان الرمل القاتمة؛ إنه نهر ذو أسرار سود. لا يحتاج المرء إلى أن يعرف ماذا حدث في مرقدة ليكتشف أمراً سيّئاً في هذا المكان. فعلى شاكلة غابات بولونيا

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

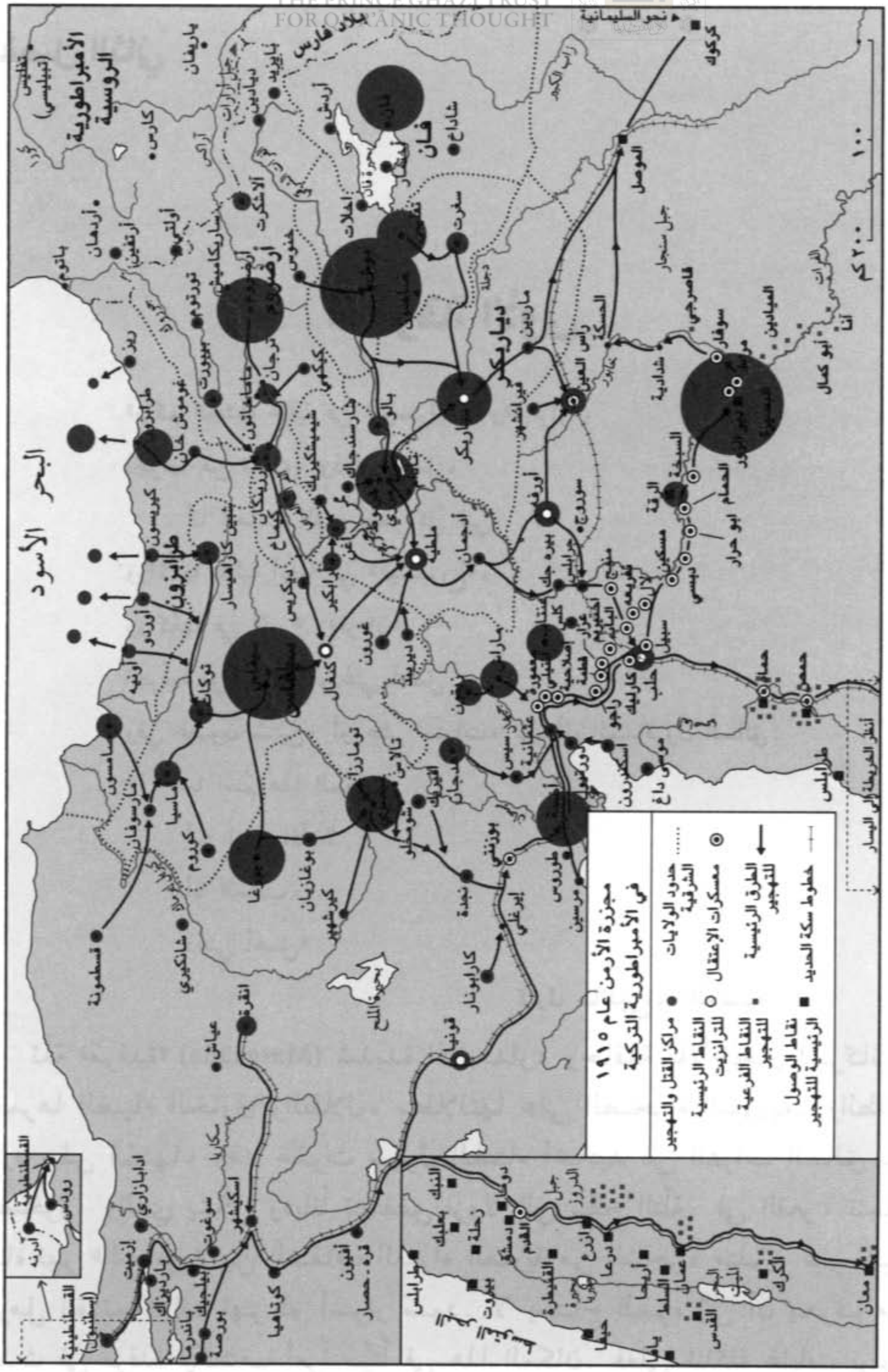

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الشرقية، تنتصب تلّة مرقدة كموقع مُحيَت ذاكرته؛ مع أن مسؤول الشرطة السوري، وهو رجل عالي الخدّيْن غزير الشاربيْن، قد سمع بأنّ أمراً مخيفاً حدث هنا قبل أن يولد.

وقد وجدت هذه الإثباتات المُفزعة «إيزابيل إلْسين» مصوِّرةُ جريدة الإندبندنت. فقد نزلت مستعينةً بيديْها وقدميْها في الشقّ الذي حفره المطر في التلّة. ومرّت يدها على جُمجمة لا يزال قحفها قاتماً بنيّاً وأسنانها لامعة. كما برز من قربها عمود فقري من خلال الطين. وعندما أزحتُ التراب عن الجهة الثانية من الفجوة، ظهر هيكل عظمي كامل، ثم هيكل ثانٍ وثالث، وكلّها مرصوصة ومتشابكة بعضها ببعض. فكلّ شِبر من الوحل والطين يكشف عن عظم فخذ أو جمجمة، أو طقم أسنان، أو عظم ساق وجوارب معصورة معاً، كما كانت عندما ماتت بفعل الإرهاب عام ١٩١٥، مربوطة معاً بالحبال لتغرق بالآلاف.

وحالما تعرّضت العظام للهواء صارت مثل الطين وتقشّرت بين أيدينا؛ إنها رُفات القتلى الباقية من شعب كامل اختفى بسرعة مثلما أراد ساحقوه الأتراك أن ننساه. لقد قُتل ما يناهز ٠٠٠ ٥٠ أرمني في هذا الحقل الصغير المميت؛ وقد أدركتُ تماماً مع «إلْسين» بعد دقيقة أو دقيقتيْن أننا نقف على قبر جماعيّ. إن مرقدة والصحارى التي تحيط بها ـ شأنها شأن آلاف القرى في ما كان واقعاً ضمن أرمينيا التركية ـ كانت «أوشفيتز» الشعب الأرمني، موطن «المحرقة» الأولى الدوليّة المنسيّة.

إنّ التوازي مع «أوشفيتز» ليس عبثاً. فقد كان هناك حُكم تركيّ إرهابيّ موجّه ضدّ الشعب الأرمنيّ لاستئصال شأفته. وقد بلغت ضريبة الموت التي دفعها الأرمن حوالى مليون ونصف مليون نسمة. وبينما كان الأتراك يتكلّمون علناً عن قيام الحاجة إلى «معاودة إسكان» الشعب الأرمني ـ كما كان الألمان يتكلّمون فيما بعد عن يهود أوروبا ـ كانت النيّة الحقيقية للحكومة التركية محدَّدة تماماً. ففي ١٥ أيلول/سبتمبر عام ١٩١٥ مثلاً، أَرسل وزير الداخلية التركي طلعت باشا تعليمات ـ والنسخة الكربونية لهذه الوثيقة موجودة ـ إلى الوالي

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

التركي في حلب تقول: «لقد أُعلمتم سابقاً أن الحكومة... قرّرت القضاء التامّ على جميع الأشخاص المعهودين الذين يعيشون في تركيا... يجب إنهاء وجودهم. ومهما كانت التدابير المتّخذة مأساوية، ينبغي عدم الأخذ بعين الاعتبار العمر، أو الجنس، أو أيّ حيرة للضمير».

ألم يكن هذا ما أفضى به «هملر» تماماً إلى القتلة الذين يعملون تحت إمرته عام ١٩٤١؟ وها نحن الآن نقف في تلّة «مرقدة» على الرفات الباقية من «الأشخاص المعهودين». إن «بوغوص داكسيان» مع ابن أخيه «هاغوب» البالغ من العمر خمس سنوات اللذين جاءا معنا من «دير الزور» السورية، يعرفان تماماً تلك التدابير المأساوية. «لقد جلب الأتراك عائلات كاملة إلى تلك التلّة ليُقتلوا. واستمرّت المجزرة أياماً. كانوا يوثقونهم معاً في صفوف مؤلّفة من الرجال، والأولاد، والنساء، وأكثرهم يعانون المجاعة، والمرض، وكثير منهم عُراة. ثم يدفعونهم من التلّة إلى النهر ويطلقون النار على واحد منهم، فيجرّ المقتول باقي جماعته نزولاً ليغرقوا في النهر. لقد كان قتلهم رخيصاً، لا يكلّف سوى رصاصة واحدة».

ركع داكسيان قرب مسيل صغير، ورفع بمفتاح سيّارته التراب عن جُمجمة أخرى. وإذا كان هذا يبدو كئيباً وحتى فاحشاً، يجدر أن نتذكّر أن الشعب الأرمني عاش مع هذه القضيّة تسعة عقود زمنية ـ وأن إثبات حصول الشرّ أهمّ من التأثّر به. وبعد أن كشفنا التراب عن فجوتَي العينيْن وعن الأسنان، أعطى «داكسيان» الجمجمة لهاغوب الصغير الذي وقف في الخندق يبتسم، غير مُدرك لمعنى الموت. قال «داكسيان»: «لقد أخبرته بما حصل هنا، فعليه أن يفهم». وقد سُمّي هاغوب على اسم والد جدّه ـ جدّ داكسيان ـ الذي كان ضحيّة المحرقة الأولى في القرن العشرين الميلادي، بعد أن قطع رأسه شرطي تركي في بلدة مرعش عام ١٩١٥.

وقد زرتُ في بيروت عام ١٩٩٢ مأوى العميان الأرمني ـ حيث يوجد الناجون الأخيرون من المحرقة الذين يعيشون مع ذكرياتهم الأليمة، ويعانون في الوقت ذاته ويلات الحرب الأهليّة في لبنان التي دامت ١٦ سنة ـ هناك اكتشفتُ

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

زاكار بربريان في غرفة ليس فيها ضوء، إذ إن لمبة «النيون» الكهربائية اليتيمة كانت تناضل في الداخل القارس. وكان العجوز الأرمني البالغ من العمر ٨٩ عاماً، قابعاً في معطف قديم، يحدِّق في مُكالميه وهو كفيف. ولم يلبث «زاكار بربريان» أن مات بعد عشر سنوات ـ مثل معظم الذين أعطوني شهاداتهم بشأن الإبادة ـ وفي ما يلي قصّته، كما رواها لي:

«كنتُ في الثانية عشرة من عمري عام ١٩١٥، وكنتُ أعيش في قرية بالاجيك الواقعة على نهر الفُرات. وكان لي أربعة إخوة؛ وكان أبي حلّاقاً. رأيتُ في ذلك اليوم العسكر الأتراك يدخلون قريتنا؛ وهو مشهد لا أنساه أبداً. ولم أكن قد فقدتُ بصري. أحرقوا السوق في بالاجيك؛ وتناثر قِرميد البناء والأحجار في المكان. رأيتُ كلّ ما حدث بعينيّ. فقد أخذوا الرجال الذين لم يعودوا أبداً. وجرّوا النساء والأولاد إلى السوق القديم؛ وصار الجنود يرفعون كلّ ولد ـ من أيّ عمر كان، من السادسة أو السابعة أو الثامنة ـ ويرمونه في الهواء ليقع على الحجارة، أمام الأمّهات؛ فإذا بقيَ على قيد الحياة يفجّرون دماغه على الحجارة. وقد فعلوا ذلك كلّه أمام أمّهاتهم. لم أسمع في حياتي مثل ذلك الصراخ... رأيت تلك المشاهد كافّة من حانوت الحلاقة. وكان العساكر الأتراك بلباسهم الرسمي، ومعهم الشرطة الحكومية. وبالطبع، لم تستطع الأمّهات أن يفعلنَ أيّ شيء بينما يُقتل أولادهنّ أمامهنّ بهذا الشكل، ورُحنَ يَصرخْنَ وينتحِبْنَ. كان أحد هؤلاء الأولاد من مدرستنا. لقد وجدوا دفتر علاماته في جيبه، وتبيّن أنه نال أحسن العلامات المدرسيّة؛ ففجّروا دماغه. وقد ربط الأتراك أحد أصدقائي برجليه إلى ذيل حصان، وجرّوه خارج القرية حتى مات.

وكان هناك ضابط تركي تعوّد أن يأتي إلى حانوتنا؛ وقد حمى أخي الذي فرّ من الجيش؛ لكنه قال إن علينا أن نهرب. ولذلك غادرنا بالاجيك إلى قرية أسما. وبقينا على قيد الحياة لأن والدي غيّر

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

دينه، وقَبِل أن يصبح مسلماً. ولكنّ والدي ووالدتي مرضا كلاهما بالكوليرا كما أظنّ؛ فماتا. ومرضتُ أنا أيضاً، وبقيت بين الموت والحياة. واستمرّت عمليات الترحيل؛ وكان من المرتقب أن أموت، لكن الأتراك أعطوني طعاماً فبقيت على قيد الحياة.

وفي آخر المطاف أُخذ «بربريان» إلى مأوى للأولاد اليتامى، حيث غسّلوه؛ وإنما بماء وسخ. وكان معه في الحمّام أولاد آخرون عميت عيونهم بسبب الماء الزرقاء. «فتحمّمت بذلك الماء وصرتُ أعمى مثلهم. ولم أر شيئاً بعينيّ منذ ذلك الزمن. وكنتُ أنتظر أن يعود إليّ بصري، دون جدوى. ولكنني أعرف لماذا فقدت بصري؛ فلم يكن ذلك بسبب الحمّام؛ بل لأن والدي غيَّر دينه. فقد أخذ الله ثأره مني، لأننا تخلّينا عنه».

لم يظهر على «بربريان» أيّ علاقة انفعالٍ في صوته عندما روى قصّته؛ ربّما بسبب تقدّمه في السنّ. لن يعود إليه بصره أبداً؛ إذ لم تكن له عينان، بل بعض الجلد الأخضر الشاحب مكان البؤبؤين.

كان العام ١٩١٥ بمنتهى الفظاعة في الأراضي الأرمنية بتركيا، وفي صحارى سوريا الشمالية، وكانت السلطات التركية آنذاك بالغة القسوة، إلى درجة أنّ بعض المسلمين ضحّوا بأرواحهم لإنقاذ الأرمن المسيحيّين الهالكين. وفي كلّ مقابلة تقريباً أجْريتها مع الأرمن العُميان المسنِّين الناجين من إبادة شعبهم، رُويت لي قصص عن أفراد أتراك خالفوا القوانين شبه الفاشية لحُكّامهم الشباب في القسطنطينية، بدافع دينيّ أو إنسانيّ، وآووا الأرمن في بيوتهم، وعاملوا أيتام الأرمن المسيحيّين كأعضاء في عائلاتهم الإسلاميّة. وكان والي دير الزور التركي علي سعاد بك بمنتهى العطف على اللاجئين الأرمن ـ إذ أقام لأولادهم دوراً للأيتام ـ وعلى الأثر، استُدعي إلى القسطنطينية، وعُيِّن مكانه زكي بك الذي حوّل البلدة إلى معسكر اعتقال.

وهكذا، تبقى قصّة المحاولة التي قام بها الأتراك لإبادة الأرمن مُرعبة. فقد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

نفّذ العسكر والشرطة الأتراك أوامر حكومتهم بكلّ اندفاع لاستئصال شأفة هذا الشعب المسيحي في الشرق الأوسط. وكانت تركيا العثمانية عام ١٩١٥ في حالة حرب مع الحلفاء الغربيين. وقد ادّعت أن الجماهير الأرمنية ـ التي تعرّضت لمذابح الأعوام ١٨٩٤ ـ ١٨٩٦ ـ كانت تدعم أعداءهم المسيحيّين. وفي روسيا، كان ما لا يقلّ عن ٢٠٠ ٠٠٠ أرمني يحاربون في جيش القيصر. وكان في بيروت رجل أرمني اسمه ليفون إسحاقيان، أعمى لكنه يقظ نسبة لعمر ١٠٥ سنوات. وكان لا يزال يحمل آثار الجرح الذي أصاب رأسه على يد الخيّالة الألمان، عندما كان من رجال المشاة القيصريين في بولّندا عام ١٩١٥. وبعد سنتيْن في فوضى الثورة البلشفية، عاد إلى وطنه. مشى مجهداً على قدميه عبر روسيا حتى وصل إلى نوغورنو كاراباخ، والتجأ إلى إيران، وسجنه البريطانيون في بغداد. وأخيراً مشى طول الطريق حتى حلب، حيث وجد بقايا بني قومه الجائعين. لم يُقضَ عليه. لكنّ آلافاً من الأرمن كانوا يخدمون ضمن القوّات العثمانية؛ دون أن تكون لهم الحظوظ ذاتها. وادَّعى الأتراك أن الأرمن ساعدوا أساطيل الحلفاء في البحر الأبيض المتوسط، دون أيّ إثبات.

وفي الواقع، نشأت حركة تركيّة شبابيّة ـ تُسمّى رسمياً «لجنة الاتحاد والترقّي» ـ واستولت على الإمبراطورية العثمانية الفاسدة من السلطان عبد الحميد. وكانت أصلاً حزباً تقدّمياً دعمه كثير من الأرمن، تبنّى معتقداً قومياً، تركيّاً، عِرقيّاً، ينتشر في أنحاء الدولة المسلمة الناطقة باللغة التركية من أنقرة إلى باكو ـ وهو حكم تحقّق لفترة قصيرة عام ١٩١٨، لكنه مُعاق اليوم على الأرض بوجود الجمهورية الأرمنية التي نشأت بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. والأرمن المسيحيون في آسيا الصغرى، هم خليط من العِرق الفارسي، والروماني والبيزنطي. وقد زالت حالاً ثقتهم بالحكّام الجُدد الذين سادوا الإمبراطورية التركية(*).

(*) ترجع سلالة الأرمن إلى «أوارتو». وقد أنشأوا أول أمّة مسيحية عندما اعتنق ملكهم «درتاد» المسيحية بدلاً من الوثنية عام ٣٠١ بعد الميلاد. وكان عليهم أن يحموا معتقدهم أولاً من الفرس الذين كانوا «زردشتيين» قبل اعتناقهم الإسلام، وثانياً من العرب. وقد جاء الأتراك من آسيا الوسطى في القرن الحادي عشر. وكانت أرمينيا واليونان كلاهما الأمّتين المسيحيتين ضمن الإمبراطورية العثمانية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تشجّع الأتراك بعد انتصارهم على الحلفاء في الدردنيل، فأطبقوا على الأرمن بالضراوة نفسها التي عامل بها النازيون اليهودَ في أوروبا بعد عقدين من الزمن. وقد تنبّه «ونستون تشرشل» لهذا الدور المدمِّر الذي نجم عن حملة الحلفاء على تركيا، فكتب في «العقبول» (The Aftermath)، وهو كتاب يكاد يكون منسيّاً مثل الأرمن أنفسهم ـ يقول: «ربّما يصحّ أن حصول الهجوم البريطاني على شبه جزيرة غاليپولي، قد استثار الغضب الشديد لدى الحكومة التركية». ولا شكّ في أن انتصار الأتراك على البريطانيين والأستراليين في الدردنيل منح النظام التركي ثقة بالنفس جديدة لا ترحم. وكان هناك في تلك المعارك الجندي «تشارلز ديكنز» الذي نزع بيان اللواء «مود» عن الجدار في العراق؛ وكذلك فرانك ويلز الرجل الذي رفض والدي أن يعدمه عام ١٩١٩. واختير يوم ٢٤ نيسان/أبريل عام ١٩١٥ ليبقى إلى الأبد يوماً يُحتفل فيه بذكرى الإبادة الجماعية الأرمنية ـ عندما اعتُقِل الأرمن المفكّرون والقادة في القسطنطينية وقُتلوا؛ وتلا ذلك تدمير منهجي للشعب الأرمني في تركيا.

وكان الجنود الأرمن في الجيش التركي قد سُرّحوا وتحوّلوا إلى كتائب شغل وعمل في ربيع عام ١٩١٥. وفي مأوى المكفوفين الأرمن في بيروت، أمسكت «نيڤارت سرويان البالغة» ٩١ سنة بيدها صورة فوتوغرافية لوالدها، البادي كرجل جميل مهيب في بزّته العسكرية التركية. كانت «نيڤارت» لا تكاد تسمع عندما قابلتها عام ١٩٩٢، فصرختْ بصوت عالٍ: «كان أبي رجلاً رائعاً، وذكيّاً جدّاً؛ وعندما جاء الأتراك إلى عائلتنا عام ١٩١٥، لبس بزّته الرسميّة، التي خاطت أمي عليها شارات كي توحي بمقامه العالي. كما وضع مداليّاته الأربع التي استحقّها كجندي. وبهذا الزيّ، خرج بنا إلى محطة سكّة الحديد في «قونية»، ووضعنا على متن قطار، فنجونا. لكنه بقي هناك؛ وعندما اكتشف الأتراك لعبته أعدموه».

وقد ساقت الشرطة التركيّة كلّ الرجال الأرمن في كلّ بلدة أو قرية كي يُقتلوا على أيدي فِرق الإعدام، ويُلقوا في القبور الجماعية أو في الأنهار. وقد قابلتُ أيضاً في مأوى المكفوفين في بيروت «مايراني كلوصتيان». وكانت في

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الثمانين من عمرها عندما قابلتها. وبدت مخلوقة سريعة العطب، تربط رأسها بمنديلها وترتجف وهي تروي قصّتها المثيرة للشفقة، حتى أن إحدى الممرّضات الحاضرات انفجرت باكية، وهي تستمع إليها:

«أنا من قرية «مَشّ». وكنا نزرع الجاودار كلّ عام بعد أن يذوب الثلج. وكان أبي مانوك طارويان وأخي يشتغلان في الحقول. ثم جاء العساكر الأتراك. وكان ذلك عام ١٩١٥. فوضعوا جميع رجال القرية، البالغ عددهم حوالى الألف في إسطبل، ثم أخذوهم في اليوم التالي من قرية «مَشّ» ـ بمن فيهم كلّ أقربائنا من الرجال، وأبناء عمّي، وإخوتي. وكان والدي معهم. وقال الأتراك: «إن الحكومة تحتاج إليكم». أخذوهم كقطيع؛ ولا نعرف أين ذهبوا بهم؛ لكنّنا رأيناهم يذهبون. وكان كلّ منّا في حالة صدمة. واكتشفت والدتي خاتون ما حدث. فقد كان قرب قرية مَشّ مكان تلتقي فيه الأنهار وتمرّ تحت أحد الجسور. وهو موقع هائل من الماء والرمل. ذهبت أمّي إلى هناك في الصباح ووجدت مئات من رجالنا مصطفّين على الجسر، وجهاً لوجه. ثم أطلق العسكر عليهم النار من الجهتيْن. «فوقع بعضهم فوق بعض كالقشّ»، بحسب قولها ـ وبعد أن جرّدوا الجثث مما تحمل من ثياب وأشياء ثمينة، حملوها باليدين والرجلين ورموها في النهر. واستغرق هذا العمل الفظيع طول النهار حتى هبوط الليل. وعندما عادت والدتي قالت: يجب أن نذهب إلى النهر ونرمي أنفسنا فيه».

وما كانت مايراني تصفه لم يكن جريمة حرب معزولة؛ بل كانت عملية عادية رتيبة. فعند مدخل حصن كيماخ، ذبح الأكراد وعسكر كتيبة الخيّالة ذات الرقم ٨٦ أكثر من ٢٠ ٠٠٠ امرأة وولد. وفي بتليس، أغرق الأتراك أكثر من ٩٠٠ امرأة في نهر دجلة. كما جرت مذبحة كانت من الضخامة بحيث شكّلت آلاف الجثث سدّاً على نهر الفرات قرب قرية إرزنجان، وجعلت النهر يغيّر مجراه لمسافة مئة متر.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وقد وصف السفير الأميركي في القسطنطينية هنري مورغانتو اليهودي، ما حدث بعد ذلك في برقية أرسلها إلى وزارة الدولة الأميركية قائلاً:

«تدل التقارير الواردة من شتّى المناطق المتباعدة على أن هناك محاولة لاقتلاع الشعب الأرمني المسالم، من خلال توقيفات تعسّفية، وتعذيبات مخيفة، وطرد وترحيل بالجملة من طرف من الإمبراطورية إلى آخر، ترافقها عمليّات اغتصاب، ونهب، وقتل، تحوّلت إلى مجزرة تجلب الدمار والإملاق على ذلك الشعب. ولا تُتَّخذ هذه التدابير استجابة لطلب شعبيّ أو تعصّب دينيّ، بل كعمل تعسّفي محض صادر عن القسطنطينية باسم الضرورة العسكرية، وغالباً ضمن مقاطعات لا يُحتمل أن تجري فيها أيّة عمليات عسكرية».

وغداة قتْل الرجال ورمْيهم في النهر، بدأت مسيرة الموت انطلاقاً من قرية «مَشّ». وسارت فيها مايراني كلوصتيان، وأمّها خاتون، وشقيقاتها: ميغاد وديلابار وهريكو وأرزون، وشقيقاها الصغيران درجيفان وفرياد. قالت مايراني:

> «سافرنا أولاً بعربات تجرّها الثيران؛ ثم كان علينا أن نمشي على أقدامنا لعدّة أسابيع. لقد كان هناك آلاف منّا. استجدينا الطعام والماء. وكان الطقس حارّاً. مشينا بدءاً من الربيع، ولم نتوقف حتى عيد القديس يعقوب في كانون الأول/ ديسمبر. وكان عمري آنذاك اثنتي عشرة سنة عندما فقدت والدتي. ذهبنا إلى سيفاس. ثم جاء الروس في جيش القيصر، ووصلوا إلى قرية مَشّ وفجّروا الجسر الذي قُتل عليه أبي. حاولنا الرجوع إلى «مَشّ» لكنّ الروس هُزموا. ثم مرضنا جميعاً بالكوليرا: إخوتي وأخواتي وأنا. وماتوا كلّهم ماعدا أرزون وأنا. ثم ماتت أرزون؛ فأُخذت إلى بيت للأيتام. لن تتصوّر كيف كانت حياتنا. ترك الأتراك قطّاع الطرق يفعلون ما يريدون؛ وسُمح للأكراد باختطاف البنات الجميلات. وأذكر أنهم كانوا يضعونهنّ على صهوات جيادهم وهنّ متدلّيات على السروج؛ كما أخذوا الأولاد. وكنا ندفع للأتراك ثمن الماء».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ومن المنسيّ أيضاً أن الأتراك شجّعوا إحدى الجماعات الإثنية الإسلامية على مشاركتهم في المذبحة. وهكذا، شملت المجزرة آلافاً من الأرمن ـ وتخلّلت ذلك مشاهد من الاغتصاب والنهب الجماعي ـ على أيدي الأكراد ـ الشعب الذي حاول صدّام حسين أن يبيده بعد حوالي ستّين سنة ـ وعلى ضفاف نهر الخابور، وغير بعيد عن تلّة مرقدة، بيعت النساء الأرمنيات للأكراد وللعرب المسلمين. وتذكر النساء الناجيات أن الرجال دفعوا عشرين قرشاً للعذراوات، وخمسة قروش فقط للأولاد والنساء اللواتي تمّ اغتصابهنّ. أما النساء الأكبر سنّاً، والعديد منهنّ حوامِل، فقد دُفعن إلى النهر برسم الغرق.

وفي عام ١٩٩٢، وعلى بعد ١٦٠ كيلومتراً من مرقدة، وفي مجموعة من أكواخ الطين التي تقع على بعد ٣٠ كيلومتراً من الحدود العراقية ـ حيث كان القرويون السوريون عام ١٩٩١ يراقبون صواريخ سكود العراقية تنطلق في الليل البهيم فوق بيوتهم ـ هناك وجدتُ سيربوهي پاپازيان، السيّدة الأرمنية التي نجت من الإبادة، وأرملة أحد العرب المسلمين الذي أنقذها في دير الزور. كانت امرأة تشبه العصا الطويلة وذات طاقة هائلة، لها عينان لامعتان، ولكن ليس لها أسنان. وكانت تعتقد أن عمرها يبلغ مئة سنة ـ لكنّ عمرها الحقيقي كان ٩٢ سنة ـ وإنما لا شكّ في صدق قصّتها؛ قالت:

«أنا من قرية تاكيردا التي تقع على بعد ١٢ ساعة من اسطنبول ركوباً على ظهر الحصان. كان عمري آنذاك ١٥ سنة. ساقنا الأتراك من بيوتنا بكامل عائلتنا، ووضعونا على متن سفينة وسخة أبحرت بنا من قونية إلى الشاطئ؛ ثم ذهبنا إلى حلب: أمّي «رنوهي»، وأبي «طاتيوس»، وعمّتي «أزّاز»، وشقيقتاي «هارتووي» و«يبڤا». ضربونا وجوّعونا. وفي حلب ماتت أمّي وعمّتي بسبب المرض. وأرغمونا على المشي طول الطريق في حرّ الصيف. ثم وضعنا الأتراك في مخيّم هناك. وكلّ يوم، كانوا يأتون ليأخذوا آلافاً من الأرمن ويسيروا بهم نحو الشمال. وقد سمع والدي قصصاً مخيفة عن العائلات التي أُعدمت. ولذلك وشم الحروف

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الأولى من أسمائنا باللغة الأرمنية على معاصمنا، حتى نستطيع أن نهتدي إلى بعضنا البعض فيما بعد».

إنها لهويّات تُرسم بالوشم. لم يحدث للعجوز سيربوهي باپازيان ما يوازي عملية إبادة أخرى. لقد أنقذها صبيّ عربيّ، وتحوّلت إلى الإسلام مثل الكثير من الأرمنيّات اللواتي التجأن إلى المسلمين غير الأكراد. ولم تسمع بما حدث لباقي أفراد عائلتها إلّا فيما بعد؛ قالت:

«أرسلَهم الأتراك بكاملهم إلى الصحراء شمالاً. وربطوهم بعضهم ببعض، مع عديد من الناس الآخرين. ربُط أبي وشقيقتاي معاً، و«ييڤا» و«هارتووي» بمِعصميْهما. ثم أخذوهم إلى تلّة تسمّى «مرقدة، حافلة بالجثث. ورموهم في أوحال النهر بعدما أطلقوا النار على أحدهم ـ ولا أدري مَن هو ـ وهكذا غرقوا هناك كلّهم معاً».

وبعد عشر سنوات من حصول المحرقة الأرمنية، عادت سيرپوهي إلى تلّة مرقدة، وهي تحاول أن تعثر على رفات أبيها وأختَيها. قالت: «وكلّ ما وجدته عام ١٩٢٥، هو رُكام من العظام والجماجم. لقد أكلتهم الحيوانات البرّية والكلاب. ولا أدري لماذا تكلّف نفسك عناء المجيء إلى هنا حاملاً دفترك لتسجيل ما أقوله». وهذا فحوى ما قاله لي أيضاً بوغوص داكسيان في لحظة جرداء حين كنا نجوب تلّة مرقدة بين الجماجم. وعندما تحوّلت إحدى الجماجم بين يديه إلى فُتات وغبار، قال: «لا تقل اشفقْ عليهم. لقد انقضى الأمر بالنسبة إليهم وانتهى». وتذكّرت سيربوهي النهر الجاري قرب التلّة. ولكني مع رفيقتي إيزابيل إلسين لم نجد أوّلاً أيّ آثار لعظام على ضفاف نهر الخابور. ولم نجد تلك العظام إلّا عندما صعدنا التلّة فوق الطريق الرئيسيّة المؤدّية إلى دير الزور ـ على بعد حوالى كيلومترين من الماء ـ لنرى مُجمل المشهد، وتظهر لنا ضفاف نهر أصابه الجفاف منذ زمن بعيد. فقد غيَّر نهر الخابور مجراه خلال ثلاثة أرباع القرن المنصرمة، منتقلاً في سيره مسافة كيلومتر باتجاه الشرق. وإذ ذاك وجدنا الجماجم. لقد كنا نقف على التلّة حيث قُتلت «ييڤا» و«هارتووي» مع والدهما. وخطرت ببالي مقارنة بين نهر الفرات ونهر الخابور. فكما غيّر نهر الفرات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مجراه بسبب انسداده بالجثث، يمكن أيضاً أن يكون نهر الخابور قد اختنق أيضاً بالرفات البشرية، وتحوَّل نحو الشرق. ولا شكّ في أن جثتي «ييڤا» و«هارتووي» ما زالتا ترقدان في طين «مرقدة» الطريّ حتى اليوم.

لكنّ حقول مقاتل الأرمن لها انتشار أوسع في الصحراء السورية. فعلى بعد ٨٠ كيلومتراً شرقي قرية شحادة، توجد أوشفيتز أخرى صغيرة. وهي عبارة عن كهف ساق إليه العسكر التركي آلافاً من الرجال الأرمن خلال عمليات الترحيل. وجدناه، داكسيان وأنا، بسهولة وسط ما هو اليوم حقل نفط سوري. وقد انهار جزء من الكهف، ولكن ما زال بإمكان المرء أن يزحف إلى فم الصخرة، وينسلّ في ضوء القدّاحات داخل الكهف المشؤوم الذي يمتدّ لأكثر من كيلومتر تحت الأرض. قال داكسيان متضجّراً من سوء احتساب الإحصاءات: «لقد قتلوا هنا حوالى خمسة آلاف شخص، بإدخالهم إلى الكهف وإشعال نار عند المدخل بحيث يملأ الدخان الكهف. وهكذا ماتوا اختناقاً. لقد سعلوا كلّهم حتى ماتوا». مرّت علينا عدة ثوانٍ حتى استوعبنا مغزى كل هذا، فهنا في الصحراء الباردة الجافّة حوَّلَ الأتراك هذا الشقّ من سطح الأرض إلى أوّل غرفة غاز في القرن العشرين الميلادي. لقد بدأ تطبيق المبادئ التكنولوجية للإبادة هنا في الصحراء السورية، عند مدخل هذا الكهف البريء، في غرفة طبيعية منحوتة في الصخور.

وهناك متوازيات أخرى مع هذا. فقد أخبر «أنور باشا» وزير الحربيّة التركي(*) السفير الأميركي «مورغانتو» أنه يجري نقل الأرمن إلى «أماكن أخرى جديدة»؛ تماماً كما ادّعى النازيون فيما بعد أن يهود أوروبا أُرسلوا إلى الشرق «لإعادة إسكانهم». وقد أُضرمت النار في كنائس الأرمن، مثلما حدث لكلّ كنيس يهودي تحت السيطرة النازية. ومات الأرمن في ما سمّاه الأتراك «القوافل»؛ كما أُرسل اليهود الأوروبيون «بوسائل النقل» إلى معسكرات الموت.

(*) عندما استولى أنور على مدينة «إديرن» خلال الحروب البلقانية الكارثيّة، سُمّي آلاف من الأطفال باسم وزير الحربية التركي هذا، قاتل الجماهير المستقبلي؛ منهم أنور خوجا دكتاتور ألبانيا المجنون... وأنور السادات دكتاتور مصر العاقل.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وفي جنوبيّ تركيا، استعمل الأتراك أحياناً حافلات قطارات الماشية لسوق الرجال الأرمن إلى قبورهم الجماعيّة. وقد مثَّل الأكراد دور الجلّادين في خدمة الأتراك، مثلما فعل اللتوانيون والأوكرانيون والكرواتيون في خدمة النازيين؛ حتى أن الأتراك أسّسوا منظمة خاصّة تُسمّى «تشكيلات المخصوصيّة» لتنفيذ الإبادات: كسابقة «لجماعات العمل الخاصّ» التي أسّسها هتلر.

وقد وضع العلماء الأرمن خريطة تفصيلية تمثّل اضطهاد شعبهم؛ مثل خرائط أوروبا التي تبيّن خطوط القطارات إلى أوشفيتز ـ بيركانو، وتريبلينكا، وداشو وغيرها من معسكرات الاعتقال النازيّة. وقد سيق أرمن سيڤاس إلى مالاتيا، ومن مالاتيا إلى حلب، أو من مَشّ إلى ديار بكر وإلى رأس العين ـ عبر ماردين ـ وإلى الموصل، وإلى كركوك. إنها خريطة مجرى العذاب، وقوافل الإذلال والحزن التي سيقت ١٥٠ كيلومتراً جنوبيّ مرعش إلى حلب، ثمّ مسافة ٣٠٠ كيلومتر شرقاً إلى دير الزور، ومن ثمّ شمالاً ـ باتجاه تركيا نحو نهر الخابور وراء تلّة مرقدة. وقد جرى ترحيل الأرمن من شاطئ البحر الأسود، ومن أوروبا التركية إلى الصحراء السورية؛ كما انتقل بعضهم جنوباً إلى فلسطين.

وما اتّضح من أمر هذه الوحشية الإثنية آنذاك لم يكن مداها واتّساعها ـ ربّما شملت مِئتيْ ألف أرمني ذُبحوا قبل عقدين من الزمن ـ بل طبيعتها المنهجية المتّسمة بالمحرقة. فقد صُمّمت سياسة لقتل شعب في زمن الحرب، وضعها رجال الدولة التركية الكبار الذين كانوا يسيطرون على «آلة العنف الرسمي وغير الرسمي»؛ كما وصفها أحد المؤرّخين. وعلى غرار يهود أوروبا، كان كثير من الأرمن مثقفين ثقافة عالية. لقد كانوا محامين، وموظفين في الدولة، ورجال أعمال، وصحافيين. وعلى خلاف محرقة اليهود، عرف العالم حرب الإبادة التركية حالما بدأت. وقد كُلّف الفيكونت جايمس برايس والشابّ «أرنولد توينبي» بإعداد تقرير للحكومة البريطانية عام ١٩١٥؛ فضلاً عن مؤلّفهما المسمّى «معاملة الأرمن في الإمبراطورية العثمانية ١٩١٥ ـ ١٩١٦» ـ الصادر في ٧٠٠ صفحة من المشاهدات العيانية للمجازر ـ الذي صار تأريخاً كاشفاً

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

للمذبحة؛ بل أوّل محاولة جدِّية للتعاطي مع الجرائم المرتكبة ضدّ الإنسانية. وكانت معظم الشهادات قد جاءت من المبشّرين الأميركيين في تركيا ـ الذين شكّلوا آنذاك المنظمات غير الحكومية لتلك الحقبة الزمنية ـ ومن الدبلوماسيين الإيطاليين، والهولّنديين، والسويديين، واليونانيين، والأميركيين، والألمان، ومن السجلّات(*).

وكان الدبلوماسيون الأميركيون من أوائل الذين سجّلوا حصول «المحرقة» الأرمنية ـ ومن أشجع شهود العيان ـ وقد بقيت تقاريرهم في محفوظات وزارة الخارجيّة الأميركية بين الشهادات التي لا يرقى إليها الشكّ عن مصير الأرمن. وقد كتب لزلي دايفيس، البالغ من العمر ٣٨ سنة، والمحامي السابق الذي كان قُنصلاً أميركياً في «هاربوت» تقريراً مُرعباً عن رحلاته الشخصية التي قام بها على صهوة جواد عبر أراضي الموت في أرمينيا. فحول بُحيرة غولجوك، وخلال ٢٤ ساعة، رأى «رُفات ما لا يقلّ عن ألف أرمني». لقد وجد جُثثاً متراكمة على الصخور عند أقدام المنحدرات الصخرية الشاهقة، وفي الماء، وفي الرمل، وفي الوهاد، «وقد كانت النساء مُلقيات على ظهورهنّ مع دلائل تشويه بربرية بحراب الشرطة...». وفي إحدى رحلاته، اقترب دايفيس من امرأة تحتضر، وقدّم لها خبزاً «فصرخت تقول إنها تبغي الموت». وقد أنقذ دايفيس أستاذاً أرمنياً في كلّية، عبر القرية التي تتناثر فيها جثث الرجال، والنساء، والأولاد. فكتب الأستاذ نُبذة عن الألم والكرامة ـ يمنح بها «بركة»، بحسب تعبير المؤرّخ الأرمني بيتر بالاكيان.

(*) تأسّست الجمعية الأرمنية ـ البريطانية بعناية اللورد برايس عام ١٨٨٠. وهي جماعة تأثير، مارست الضغط على الحكومة البريطانية لتأمين حقوق متساوية للأرمن، ضمن الإمبراطورية العثمانية. ولدى المؤلّف ملحق خاصّ بالمجلّة الأرمنية ـ الإنكليزية الصادرة في نيسان/أبريل عام ١٨٩٥، يحوي تقريراً عن مجزرة الأرمن في ساسون، فضلاً عن رسالة دعم ضخمة من اللورد غلادستون ـ جاء فيها: «إن مجرّد الكلمات، الصادرة عن الأتراك، لا تساوي النفس المبذول للتلفّظ بها» ـ والطلب إلى الشرطة الرسمية الأوروبية أن تحمي «الأرمن المسيحيين». فدينهم، لا كونهم أقلّية في الإمبراطورية العثمانية، كان بوضوح هو المحرّك لإثارة شعور البريطانيين.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

«ألا تستحقّ هذه الأجساد الميتة وهذه العظام المبيضّة، حفنة من تراب؟!

حفنة من تراب على الأقلّ، لهؤلاء الموتى الذين لا يطالِب بهم أحد. . .

إننا نكره أن نتخيّل أجساد أحبابنا طُعمة للحشرات؛ وعيونهم، عيونهم الجميلة ملأى بالدود؛ خدودهم، خدودهم الحريّة بالقُبل محشوّة بالعفن؛ وشفاههم الرمَّانية الوردية طُعمة للزواحف.

إنهم مطروحون في الجبال، مهجورون وغير مدفونين، تهاجمهم الديدان والعقارب؛ وعيونهم مكشوفة، ووجوههم مرعبة، وسط روائح نتنة، مثل روائح المسلخ. . .

هناك نساء صدورهنّ وسيقانهنّ مكشوفة، أليس لديكم حفنة من تراب تغطّي شرفهنّ؟!

أعطِنا يا ربّ حفنة التراب المنشودة، التي نطلبها منك».

وكان الألمان أيضاً من شهود تلك المجازر، إذ إن ضبّاطاً من جيش القيصر أُوفدوا إلى تركيا لمعاودة تنظيم الجيش العثماني. وكانت هناك أرمين وغنر الممرّضة الألمانية والملازمة الثانية في بطانة المشير «ڤون دير غولتز». وقد عصت الأوامر، وأخذت مئات الصور للضحايا الأرمن في مخيّمات رأس العين، والرقَّة، وحلب، ودير الزور. وتُعتبر اليوم هذه الصور المرعبة التي أُخذت للموتى وللمحتضرين قاعدة للصور الشاهدة على المذابح. ومن المعلوم أن الألمان شاركوا في بناء نظام السكك الحديدية في تركيا، ورأوا بأمّ عيونهم أول استعمال لحافلات الماشية من أجل ترحيل الناس بمعدّل تسعين رجلاً في الحافلة الواحدة ـ وهو المعدّل ذاته الذي استعمله النازيّون لنقل اليهود إلى مخيّمات الموت ـ وذلك على خطوط السكك الحديدية في الأناضول وبغداد. وقد أرسل فرانز غونتر ممثّل البنك الألماني، الذي موّل مشاريع السكك

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الحديدية التركية، صورة عن قطار الترحيل إلى أحد رؤسائه، كمثل على القسوة الوحشية للحكومة التركية.

وقد أعطت الجرائد العالمية ـ وبخاصّة في الولايات المتّحدة الأميركية ـ مكاناً بارزاً في صفحاتها لهذه الإبادة. ومنذ البدء، تميّزت جريدة النيويورك تايمز بتغطية شبه يومية للمذابح، والاغتصاب، ونزع الملكيّات، واستئصال شأفة الأرمن. وقد ظهرت التقارير الأولى في الجريدة في تشرين الثاني/نوفمبر، ١٩١٤. وفي ٢٩ منه، ظهر في الجريدة عنوان «متعصّبو أرضروم يذبحون المسيحيين». ونُشرت احتجاجات السفير «مورغانتو» للحكومة التركية بتاريخ ٢٨ نيسان/أبريل ١٩١٥، تحت عنوان: «نداء إلى تركيا لوقف المجازر». وبتاريخ ٤ تشرين الأول/أكتوبر نشرت النيويورك تايمز عنواناً آخر: «الفظائع المرتكبة في أرمينيا»، وتحته برقية تحوي تفاصيل الفظائع والتعذيب، والترحيل، وقتل الأولاد. وبتاريخ ٧ تشرين الأول/أكتوبر بدا العنوان هكذا: «٨٠٠ ٠٠٠ أرمني يُقضى عليهم و ١٠ ٠٠٠ يُغرقون فوراً». وقد أعطي تقرير «مورغانتو»، وخُطب «برايس» أمام مجلس اللوردات تغطية كبرى. كما نشرت «النايشون» سلسلة مقالات افتتاحية قويّة تدعو برلين ـ كانت الولايات المتّحدة لا تزال محايدة في الحرب ـ لوقف القتل الجاري بواسطة حليفتها تركيا. وبقيت القصص تُروى عن القتل الجماعي، وتُنشر في النيويورك تايمز حتى حزيران/يونيو ١٩١٩، بعد مضيّ حوالَي ثمانية أشهر على انتهاء الحرب. ففي أوّل حزيران/يونيو جاء العنوان التالي: «الفتيات الأرمنيات يروين قصّة المجازر». وحتى في مدينة «هاليفاكس» الكندية، نشرت الجريدة المحلّية تقارير شبه أسبوعية عن الإبادة. وتكوَّن المجلّد الذي يحوي البرقيات والرسائل بخصوص إبادة الأرمن المنشورة في هذه الجريدة، والبالغ ٣٥٢ صفحة.

وقلّما نال التطهير العِرقي والإبادة الجماعية مثل هذه الدعاية على نطاق واسع. وكان الدبلوماسيون البريطانيون أنفسهم يتلقّون عبر الشرق الأوسط تقارير مباشرة عن المجازر. ففي مدينة البصرة التي كانت آنذاك بيد العثمانيين كتب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جرترود بيل ـ الذي أصبح فيما بعد وزير الشؤون الشرقية في بغداد ـ تقريراً استخباراتياً عن الاعتداءات والانتهاكات التي رواها أحد الجنود الأسرى الأتراك:

«غادرت الكتيبة حلب في ٣ شباط/فبراير، ووصلت إلى رأس العين خلال ١٢ ساعة... وكان هناك حوالى ١٢٠٠٠ أرمني محجوزين في مخيّم تحت إشراف مئة كردي... وكان هؤلاء الأكراد يسمّون «جندرمة» (أي دَرَكاً) لكنهم كانوا في الحقيقة جزّارين. وقد أُمرت جماعات منهم علناً بأن يأخذوا معهم مجموعات من الأرمن من الجنسيْن إلى أمكنة مختلفة؛ لكنهم تلقّوا تعليمات سرّية بقتل الرجال والنساء والأولاد... واعترف أحد هؤلاء الدرك بقتل ١٠٠ رجل بنفسه... وامتلأت كهوف الصحراء الخالية وأحواضها بالجثث... وقد ارتاع الضبّاط الأتراك في الكتيبة من المشاهد المرعبة التي رأوها، حتى أن إمام الكتيبة الشيخ المسلم هاله أن يرى هذا العدد الكبير من الجثث، فصلّى وطلب من الله تعالى أن يُجنِّب المسلمين القِصاص المترتّب على هذه الجرائم. ومن أجل التكفير عن هذه الذنوب حفر بنفسه ثلاثة قبور... وبعد مجزرة رأس العين، لم يعد أيّ رجل ينظر إلى جسد امرأة، إلّا بنوع من الرعب...».

وبعد أن دخلت الولايات المتّحدة الحرب، استمرّ دبلوماسيّوها في جمع التقارير حول تلك الفظائع. فقد كتب «ج. ب. جاكسون» القنصل الأميركي السابق في حلب بتاريخ تموز/يوليو، ينبئ عن ١٠٠٠ امرأة وولد من قرية هاربورت سُلِّموا إلى الأكراد:

«الذين ساروا بينهم على جيادهم، واختاروا أجمل النساء والفتيات والأولاد... وقبل أن يقوموا بهذا الاختيار والإخضاع، نزعوا ثياب مَن بقي من النساء، وأجبروهنّ على إكمال باقي الرحلة عاريات. وقد أخبرني شهود عيان عن هذا الانتهاك الذي وصلت بموجبه أكثر من ٣٠٠ امرأة عارية تماماً إلى رأس العين، تذرو الرياح شعورهنّ

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كالبهائم؛ وبعد أن مَشيْن ستّة أيام في الشمس الحارقة... جاء بعضهنّ إلى القنصليّة في حلب. وأظهرنَ لون أجسادهنّ الذي صار مثل الزيتون الأخضر، وجلدهنّ الذي تقشّرت بثوره الكبيرة؛ فضلاً عن أن العديد منهنّ كان لديهنّ جروح بليغة على الرأس والبدن.

وقد سُجّلت فظائع «المحرقة» الأرمنية في رسائل ومذكّرات خاصّة لا تُحصى - وبعضها لم ينشر بعد - كتبها أوروبيون مرّوا بشمال سوريا التركي وجنوب تركيا. وفي ما يلي مثلاً، يجد القارئ نُبذة من تقرير طويل كتبه سيريل بارتر رجل الأعمال الذي أُرسل من العراق إلى حلب تحت الحراسة التركية عام ١٩١٥:

«قد أُخبركم أننا التقينا، على مسيرة يومين جنوبي دير الزور، فوجاً من اللاجئين الأرمن، وبقيت أراهم على مدى الأشهر الثلاثة التالية باستمرار. ومن المستحيل وصف بؤسهم وشقائهم. بكلمة موجزة، لم يكن بينهم رجال من أعمار ١٦ إلى ٦٠ سنة، لأنهم ذُبحوا؛ وما تبقّى من رجال عجزة، ونساء وأولاد، كانوا يموتون كالفراش بسبب المجاعة والمرض، بعد أن ساروا على الطريق التي مشوا عليها من قُراهم إلى هذه الصحراء الجرداء، دون أيّة أرزاق تبقيهم على قيد الحياة، في رحلتهم التي دامت من ثلاثة شهور إلى ستة أشهر... كان ذلك كابوساً استحوذ عليّ، ودام لديّ وقتاً طويلاً، بعدئذٍ».

وقدّم بارتر فيما بعد تقريراً إلى لجنة برايس المذكورة - التي طبعته أولاً دون ذكر اسم كاتبه - حيث سجّل كيف كانت العربات تمرّ بحلب، و«تُلقى عليها أجساد القتلى الجُدد من الأرمن كأكياس الفحم». كما شهد بارتر أيضاً ترحيل الأرمن بالقطار، ووصف «إخراجهم من مأوى اللاجئين بخشونة إلى محطّة السكّة الحديديّة، ومُراكمتهم في عربات القطار كالأغنام، وإرسالهم إلى دمشق وغيرها من بلاد الحجاز».

كما أن أحد الضبّاط البريطانيين الذي أُخذ كأسير حرب، الملازم إ. هـ.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جونز، روى مصير الأرمن في قرية يوزغات، حيث كان محجوزاً في مخيّم لأسرى الحرب. فقد كتب يقول: «حصلت المذبحة على بعد حوالي عشرة أميال من البلدة. وكان بين حرّاسنا رجال شاركوا في قتل الرجال، والنساء، والأولاد حتى تعبت أذرعهم من الفتك. وكانوا يفتخرون بذلك في ما بينهم؛ لكنهم كانوا من نواحٍ أخرى لطفاء». وحتى في عام ١٩٢٣، زار «جان دوكورسي إيرلند ـ الطالبِ الإيرلندي الذي صار فيما بعد كاتباً بحرياً ومؤرّخاً ـ مركز «كاستل غاندولفو» خارج روما، حيث رأى أولاد اللاجئين الأرمن، ووصفهم بأنهم «سُمْر، يسترعون انتباه المرء، لكنهم هادئون، بالرغم من فوضى احتشادهم».

وبما أنّ كلّ الناجين من «المحرقة» الأرمنية قد ماتوا؛ فقد تسلّم أولادهم القضيّة. وكان بعض الناجين من الموت عام ١٩١٥، قد تعرّضوا عام ١٩٢٢ لمجزرة ثانية في مدينة «سميرنا» أي «إزمير» اليوم التي كان يسيطر عليها اليونانيون. وقد أفادت ابنة أحدهم المدعوّ سركيس بأنّ والدها الذي نجا بحياته من الصحراء السورية، شارف على الموت في «سميرنا». وقالت في رسالتها إليّ:

> «... جاء والدي واثنان آخران إلى سميرنا، في الوقت الذي تسلّم فيه أتاتورك ورجاله الحكم. أوقفوهم وأخذوهم إلى باحة عند محطّة سكّة الحديد، مع بضع مئات من اليونانيين والأرمن، الذين أُعدموا بالمدافع الرشّاشة. وقد نجا أبي لأنه أُغمي عليه. ولكنه لم ينجُ من حدّ الحراب التي كان يشكّ بها الجنود الأتراك الموتى تكراراً. وقد أُصيب بجروح بليغة في جبهته وساقه، ولكنه نهض وسار إلى رصيف المحطة.
>
> ورأى أمامه فتاتيْن شابّتيْن ترتجفان من الخوف مذعورتيْن لهول ما شاهدتاه. فلم يطاوعه قلبه على أن يتركهما هناك. فأمسك بأيديهما، وركض الثلاثة لينجوا بحياتهم. وما رأوه على رصيف المحطة سيبقى مع والدي لبقيّة أيامه. لقد احتشد عشرات الألوف

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

من الناس مرعوبين، ولهب المدينة المحتضرة يقترب منهم أكثر فأكثر. ومع ذلك... لم تأتِ أيّ مساعدة من السفن الحربية التابعة للبريطانيين، والفرنسيين والأميركيين. لكنّ والدي رأى عن بُعد سفينة أخرى يصعد إليها الناس، وكان على ثلاثتهم أن يقفزوا إلى الماء ويسبحوا ليصلوا إليها. ففعلوا، وأنقذهم بحّارة إيطاليون».

كان أول من سمّى إبادة الأرمن بالمحرقة ونستون تشرشل، مضمِّنا القائمة التركية لفظائع الحرب «مجزرة آلاف لا تُعدّ من الأرمن المساكين، من رجال، ونساء وأولاد، ضمن مناطق كاملة تعرّضت كلّها لمحرقة إدارية... لا تُبقي ولا تَذر». قال تشرشل:

«إن التطهير العِرقيّ في آسيا الصغرى تمّ بأحسن ما يكون... وليس هناك من شكّ معقول في أن هذه الجريمة قد خُطّط لها ونُفِّذت لأسباب سياسية. لقد سنحت الفرصة لتطهير الأرض التركية من عِرق مسيحي يتعارض مع كلّ المطامح التركية؛ ويرعى مطامح قومية لا يمكن تحقيقها إلّا على حساب تركيا؛ وهو مزروع جغرافياً بين تركيا والقوقاز المسلميْن».

وقد اعترف تشرشل بأنّ اهتمام البريطانيين والأميركيين بمذبحة الأرمن المشؤومة، «قد أُوقد بمصابيح الدين، والاهتمام بالغير، والسياسة... وحرّكه غضب أناس ذوي شهامة وفروسيّة من الرجال والنساء المنتشرين في العالم الناطق باللغة الإنكليزية».

ولكن كان هناك أيضاً أناس آخرون أقلّ شهامة وفروسية، نفعتهم خبرتهم المباشرة بمحرقة الأرمن، في أوروبا الجديدة المتوحّشة. فهناك مثلاً: فرانز فون پاپن الذي كان رئيس الأركان في الجيش التركي الرابع خلال حرب ١٩١٤ - ١٩١٨؛ وقد خدم بصفته نائب مستشار لهتلر عام ١٩٣٣. وكان خلال الحرب العالمية الثانية ثالث سفير «للرايخ» في تركيا. كما اطّلع على التفاصيل الحميمة لإبادة الأرمن الفريق الألماني هانز فون شيخت، الذي كان رئيس الأركان

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

التركية العامّة عام ١٩١٧. وقد أرسى دعائم الفيرماخت في العشرينيّات من القرن العشرين الميلادي، وكرّمه هتلر بمأتم رسمي للدولة عندما مات عام ١٩٣٦. وكان أكثرهم سوءاً وشؤماً شابّ ألمانيّ يُدعى رودولف هِسّ، الذي انضم إلى القوّات التركية قبل أن يبلغ العشرين من عمره. وفي عام ١٩٤٠ عُيِّن قائداً لأوشفيتز، وصار نائب مفتّش لجميع معسكرات الاعتقال في قيادة الجيش الألماني عام ١٩٤٤.

وفي أحد أعمال المؤرّخ الأرمني «فاهاكن دادْريان»، وصف «ماكس إروين فون شيوبنر ـ ريختر»، كأحد أكثر المعلّمين النازيّين فعاليّة. وقد كان نائب القنصل في أرضروم، وشاهد مذابح الأرمن في مقاطعة بتليس، وكتب إلى المستشار الألماني تقريراً طويلاً عن عمليات القتل. وعلى العموم، قدّم إلى برلين ١٥ تقريراً عن الترحيل والقتل الجماعي. وصرّح في رسالته الأخيرة بأنه إذا استثنينا بعض مئات الألوف من الناجين، فإن أرمن تركيا قد أُبيدوا عن بكرة أبيهم. وقد وصف الأساليب التي اتّبعها الأتراك في إخفاء خُطط الإبادة، والتقنيات التي استخدموها للإيقاع بالأرمن، واستعانتهم بزُمر من المجرمين؛ حتى أنه أشار إلى الأرمن بصفتهم «يهود الشرق» الذين برعوا في إدارة الأعمال والتجارة. وقد قابل شوبنر ـ ريختر هتلر بعد خمسة أعوام، وصار من مستشاريه المقرّبين. كما كتب مقالات افتتاحيّة عنصريّة في جريدة ميونيخ التي طالبت بحملة «لا ترحم ولا تتوقّف» ضدّ اليهود، بحيث تنظّف ألمانيا. وعندما احتفل هتلر بانقلابه على حكومة بافاريا، شبك «شوبنر ـ ريختر» ذراعه بذراع هتلر، بينما كانا يسيران في الشوارع، فأُصيب في قلبه برصاص الشرطة، وقُتل.

لا ندري كم تعلّم هتلر من محرقة الأرمن بواسطة صديقه؛ لكنه كان مطّلعاً على التفاصيل بالتأكيد؛ إذ أشار إلى أن الأرمن وقعوا ضحيّة الجبن عام ١٩٢٤؛ وفي آب/أغسطس عام ١٩٣٩ سأل جنرالاته السؤال البلاغي المشؤوم في ما يتعلّق بالبولونيين: «مَن يتكلّم اليوم عن تدمير الأرمن؟». وكانت هناك محاولات متكرّرة ـ ولا سيّما في تركيا ـ للادّعاء بأن هتلر لم يتفوّه بتلك الملاحظة؛ لكن دادْريان وجد خمس صِيَغ من ذلك السؤال، أربع منها متطابقة،

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

واثنتان مسجّلتان في محفوظات القيادة العليا الألمانية. وعلاوة على ذلك، اكتشف المؤرّخون الألمان أن هتلر أبدى تعليقاً مماثلاً عام ١٩٣١ في مقابلة أجراها معه رئيس تحرير جريدة ألمانية، إذ قال: «ينتظر الناس في كل مكان نظاماً عالميّاً جديداً. ونحن ننوي أن نُدخل سياسة جديدة كبرى لإعادة الإسكان... هل تذكرون إبادة الأرمن». ثم وردت إشارة مصيرية أخرى إلى الإبادة الأولى عندما كان هتلر يطلب ترحيل يهود هنغاريا، وأنهى كلامه بخطبة طويلة أمام الأميرال هورثي وليّ العهد الهنغاري، عام ١٩٤٣، مع ملاحظة حول «أفول نجم الناس الذين كانوا يوماً شديدي الاعتزاز ـ الفرس ـ والذين يعيشون الآن حياة بائسة مثل الأرمن».

ولا يزال البحث التاريخي مستمرّاً بشأن الألمان الذين شاهدوا مأساة الأرمن، ودورهم التالي في حرب هتلر. وكان بعض الأرمن من العمّال المستعبدين ـ رجالاً ونساءً ـ قد صرفوا الأشهر الأخيرة من عمرهم، وهم يشتغلون في إتمام قسم من خط سكّة الحديد الذي كان الألمان يبنونه إلى بغداد؛ وبالتالي كانوا في حماية المشرفين الألمان على ذلك الخط. ولكن كان هناك ألمان آخرون يشهدون موت الأرمن ولا يحرّكون ساكناً(*). وما كان يبعث الرعشة في النفس بخصوص سؤال هتلر لجنرالاته، لا يتعلّق بالمقارنة التي أجراها ـ إذ إن العالم كلّه كان عالِماً بتفاصيل إبادة الأتراك لجماهير الأرمن ـ ولكن بمعرفته المهمّة أيضاً بأن المعتدين والمرتكبين لجرائم الحرب هذه، قد كوفئوا بعدم القصاص.

وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى مباشرة انعقدت المحاكم العُرفية لعقاب أولئك المسؤولين، وقد اعترف برلمانيون أتراك بتلك الجرائم ضدّ الإنسانية. وأصدرت محكمة عسكرية تركية، غير مسبوقة في التاريخ العثماني، سجلّات حكومية استُخدمت كإثباتات خلال المحاكمة. وكان أحد الاتصالات البرقيّة ذا

(*) ألقى الأستاذ ولفغانغ ويبرمان من جامعة برلين الحرّة، محاضرة في بيروت عام ٢٠٠١، عرض فيها إثباتاً على أن كثيراً من الضبّاط الألمان شهدوا المجازر الأرمنية دون أن يتدخّلوا أو يساعدوا الضحايا.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

طابع نازيّ. فقد قال موظّف عن الأرمن: «لقد أُرسلوا إلى مصيرهم النهائي»؛ فسأله آخر: «وماذا يعني ذلك؟»، فجاء الجواب: «يعني أنهم ذُبحوا، وقُتلوا». وعلى الأثر شُنق ثلاثة موظفين ذوي رُتب بسيطة؛ كما حُكم غيابياً على الثلاثي: جمال، وأنور، وطلعت، بالموت.

ولكن لم يكن لدى المحاكم التركية الإرادة في الاستمرار؛ كما أن الحلفاء الغربيين، الذين تشجّعوا ووعدوا بإجراء محاكمة لمُجرمي الحرب الأتراك الرئيسيين ـ والذين وصفوا القتل الجماعي للأرمن بأنه «جرائم ضدّ الإنسانية» في تحذير أرسل إلى الحكومة التركية في أيار/مايو عام ١٩١٥ ـ لم يهتمّوا بإلزام الأتراك القيام بذلك. وفي الواقع ـ ما زال الادّعاء المنهجي قائماً حتى اليوم بإنكار أن القتل الجماعي قد ارتُكب ـ وهو ادّعاء مخيف مثل لامبالاة الحلفاء الذين كان عليهم أن يلاحقوا أولئك الذين صمّموا خطة إبادة الأرمن. وقد قُتل طلعت باشا في برلين على يد أرمني راحت عائلته ضحيّة عمليّة الإبادة. وقد جرت محاكمة «سوغومون طهليريان» وبُرّئ عام ١٩٢١؛ ودلّ ذلك على أن تفاصيل المحرقة الأرمنية كانت معروفة تماماً لدى الجمهور الألماني. وقد أورد «فرانز ويرفيل» الكاتب اليهودي الألماني تحذيراً تنبُّئيّاً بالمحرقة اليهودية القادمة في معالجته لقضيّة المقاومة الأرمنيّة ضدّ القتلة الأتراك تحت عنوان: «أربعون يوماً لموسى داغ». وألقى محاضرات عبر ألمانيا عام ١٩٣٣، حتى شهّرت به المجلّة النازيّة المسمّاة: «داس شوارزي كوربس»، على أنه يقوم بدعاية فظائع التركية المزعومة المرتكبة بحقّ الأرمن». كما كانت هناك أيضاً رابطة مُقلقة أخرى بين «المحرقة» الأرمنية ومحرقة اليهود القادمة. فقد أدانت الجريدة المذكورة ذاتها «أن يقوم اليهود الأرمن في أميركا بترويج كتاب «ويرفيل» في الولايات المتّحدة الأميركية.

وبينما كان يجري إخفاء معالم الإبادة الجماعية الأولى، استمرّ ونستون تشرشل في التوكيد على حقيقة حصولها. وقد كتب في عام ١٩٣٣، ذلك العام الذي طاف فيه ويرفيل ألمانيا محاضراً، ما يلي:

«لقد برز الشعب الأرمنيّ من الحرب الكبرى، مشتّتاً، مُحجَّماً،

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مستأصلاً في كثير من المناطق بسبب المجازر، والخسائر التي مُنيَ بها أثناء الحرب، والترحيل، في إطار نظام سهل للقتل والفتك. . . إنّ المحنة التي ألمّت بالأرمن صارت معروفة في بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية. وقد حطّ الدهر بظالميهم ومضطهديهم بسبب الحرب أو الثورة. إن الدول العظمى إبَّان انتصارها كانت صديقة للأرمن، وتريد أن تُصلح شأنهم».

لكنّ الأرمن خُدعوا وخانهم المنتصرون. وتروي المحفوظات قصّة مُرَّة عن التقاعس والضعف وقِلّة الجدوى والوعود الكاذبة. وفي ما يلي هذه الفقرة من معاهدة سيفر بين الحلفاء والحكومات التركية بتاريخ ١٠ آب/أغسطس، عام ١٩٢٠:

«اعترفت تركيا بأرمينيا كدولة مستقلّة، وقبلت تحكيم الرئيس (وودرو) ويلسون، بشأن إقامة الحدود بين البلدين».

وتقول المادّة ٦٤ من المعاهدة ذاتها:

«وخلال عام واحد. . . على الشعب الكرديّ أن يخاطب مجلس عُصبة الأمم، ويُظهر أن غالبية سكّان هذه المناطق يرغبون في الاستقلال عن تركيا، وإذا أوصى المجلس بمنحهم هذا الاستقلال، تقبل تركيا بموجب هذه المعاهدة أن تُنفِّذ تلك التوصية، وأن تتخلَّى عن جميع حقوقها وإشرافها على هذه المناطق».

وكانت النقاط الأربع عشرة التي وضعها الرئيس «ويلسون» محاولة أولى من قِبل الولايات المتّحدة الأميركية لإقامة «نظام عالمي جديد»، وقد حوت مطالب مشرِّفة. فقد أصرَّت النقطة الخامسة على ما يلي:

«إجراء تكييف حرّ، منفتح الذهن، وغير متحيِّز على الإطلاق لجميع المطالب الاستعمارية. . . وإن مصالح الشعب المعنيّ، يجب أن يكون لها الوزن ذاته الذي تحظى به مطالب الحكومة، التي سيُحدَّد اسمها فيما بعد».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وقد أشارت النقطة ١٢ بوضوح إلى الأرمن والأكراد:

«إن الأقسام التركية من الإمبراطورية العثمانية الحاضرة، تُؤكَّد لها سيادة آمنة؛ كما يؤكَّد للجنسيّات الأخرى التي تقع الآن تحت الحكم التركي، دون أيّ شكّ، تأمين على حياتها، وفرصة غير منقوصة للنموّ المستقلّ...»

وكان الرئيس ويلسون قد أعطى على الأثر الجمهورية الأرمنية مناطق من تركيا الحديثة ـ بما فيها محافظتا «أرضروم» و«ڤان» ـ ولكن الأتراك والبولشفيك تعاونوا على تدمير ذلك قبل كانون الأول/ديسمبر من عام ١٩٢٠. ولم يكن «ويلسون» من نوع الرؤساء الذين يرسلون قوّة مثل «عاصفة الصحراء»، لطرد تلك الجيوش، والوقاية من مجزرة أخرى تصيب الأرمن. ولم يكن مصير الأكراد الذين بطشوا بقسوة في إبادة الأرمن، أفضل من مصير الأرمن؛ إذ إن الحماس لإقامة دولة كردية تحميها بريطانيا، وتكون منطقة عازلة بين تركيا وإيران والعراق، خمد عندما قرّرت بريطانيا أن تكسب الرأي العامّ العربي في العراق بإبقاء المناطق الكردية ضمن الدولة العراقية، وعندما بان أن الاتحاد السوفياتي الصاعد قد يستفيد من دولة كردية صنيعة.

وقد عنى الانعزال الأميركي في ما عنى، أن يُترك الأرمن وشأنهم. فقام الأتراك من جديد بالهجوم على جيش فرنسي مرابط في سيليسيا وطرده من مرعش وذبح ٥٠ ٠٠٠ أرمني آخرين، ظنّوا أنهم تحت الحماية الفرنسية. كما حدثت مجزرة أخرى في ياريفان. وقد كتب تشرشل على أثر توقيع معاهدة لوزان، التي ثبَّتت السلم الأخير بين تركيا والقوى الكبرى، ما يلي: «سيفتّش التاريخ عن كلمة أرمينيا، دون جدوى».

ومع ذلك، فمن المهمّ أن نتذكّر أن الدولة التي اختارت بديلاً ديمقراطياً للشرق الأوسط، في الأعقاب المباشرة لحرب والدي، كانت الولايات المتّحدة الأميركية. ولا أُشير هنا فقط إلى المبادئ الأربعة التي شكَّلت حجّة قويّة للتطوّر الديمقراطي. فقد صرّح الرئيس «ويلسون» أيضاً في خطاب إلى «الكونغرس» أنه

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

«يجب أن لا تجري مقايضة على حساب الشعب باستبدال سيادة بسيادة أخرى عليه، كما لو كان الشعب شيئاً منقولاً أو حجراً في لعبة». وقد دافع الدبلوماسيون الأميركيون والإرساليات الأميركية ببلاغة عن ضرورة إقامة إمبراطورية عربية ـ دون تركيا ـ «كأمّة عربية واحدة»، كما سمّوها، كي تتطوّر وتتقدّم بين بلدان العالم. كما جاءت حجّة أخرى أيضاً من لجنة «كنغ كراين»، التي شكّلها ويلسون، والتي سافرت إلى الشرق لتستفتي شعب المنطقة وتستطلع رغباته.

ولم يكن من خطأ ويلسون انعزال الشعب الأميركي، الذي سبّب انسحاب أميركا من شؤون العالم. لكنّ ذلك كان إحدى أكبر مآسي العصر في ذلك الوقت الذي لم تكن فيه أميركا طرفاً من أطراف النزاع في الشرق الأوسط. لقد سيطرنا، نحن الأوروبيون، على المنطقة؛ وأخفقنا. وعندما عادت الولايات المتّحدة الأميركية فدخلت من جديد إلى المنطقة بعد رُبع قرن فإنما فعلت ذلك من أجل النفط. وبقيت منذ ذلك الوقت داعمة ومموِّلة لإسرائيل، دون قيد أو شرط.

وكان اللورد برايس، الذي نوّر تقريره الرأي العامّ الأميركي قد اشتكى خلال جولة قام بها عبر أميركا عام ١٩٢٢، من تقاعس الحلفاء في تجريد الجيش التركي من السلاح؛ ممّا سمح للأتراك بمعاودة ممارسة «غطرستهم القديمة». وقد عبّر رايس عن ذلك الوضع بجُملة مُلغزة، ألمح فيها إلى أن رفض الحلفاء معاودة تركيز وضع الأرمن، ناجم عن أكثر من تعبهم من متابعة خوض الحرب. فقد تساءل: «لماذا، بعد أن قامت الحكومة التركية عام ١٩١٥ بذبح مليون من رعاياها المسيحيين... لماذا، بعد أن ارتكبت تلك الحكومة تلك الجرائم، عومِلت من قِبل الحلفاء بليونة فائقة ـ كل ذلك أسرار يعلمها بعضكم؛ لكن تلك الأسرار، كما قال هيرودوتس بشأن بعض القصص التي سمعها من كُهّان مصر، بالغة التقديس، بحيث لا تُروى». وبحسب قول برايس قاسى الأرمن أكثر من أيّ شعب آخر خلال حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨، و«تُركوا لشأنهم بقسوة بالغة».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فما كان السرّ الذي ادّعى «برايس» أنه يعلمه ولا يبوح به؟ هل كان ذلك مجرّد بلاغة تُفسِّر تردّد الحلفاء بعد الحرب؟ أو أنه اعتقد أن بريطانيا وفرنسا أرادتا اتّخاذ تركيا حليفة لهما إزاء قيام الدولة البلشفية الجديدة، التي قد تهدّد قريباً آبار النفط في الشرق الأوسط؟ وفي منطقة القوقاز كلّها، قاوم الجنود البريطانيون بادئ ذي بدء البلاشفة ـ باستنشاق رائحة النفط في باكو، بحسب وصف أحد المراقبين ـ وحافظوا لفترة قصيرة، على استقلال، جورجيا، وأذربيجان، والدولة الأرمنية المقطَّعة أوصالها. ولكن عندما انسحب البريطانيون عام ١٩٢٠، وقعت هذه الدول الثلاث تحت سيطرة الاتحاد السوفياتي. وفي تركستان، حيث كنّا، نحن البريطانيين، مهتمّين بمنع ألمانيا من الوصول إلى إمدادات القطن، حاربت قوّاتنا البريطانية الروس، بمساعدة أعوان أنور باشا الأتراك، ضمن تحالفات عجيبة غريبة؛ نظراً لأن روسيا القيصرية بقيت حليفة لبريطانيا حتى بدء الثورة الروسية عام ١٩١٧.

وقد تمسّك الأرمن بإحدى زوايا الأراضي الخاضعة للحكم التركي سابقاً: الإسكندرون، التي صارت الآن قلعة موسى داغ المهدّمة، الواقعة على مسافة ٢٠ كيلومتراً من أنطاكية، التي صمد أهلها بوجه الحصار المضروب عليهم، كما جاء في ما كتبه ويرفيل. وسقطت الإسكندرون الواقعة في أقصى شمال غرب سوريا تحت الحكم الاستعماري الفرنسي عام ١٩١٨. ورجع عدة آلاف من الأرمن إلى بيوتهم الضيِّقة. ولكنّ فرنسا عادت فسمحت لتركيا بأن تستولي على لواء الإسكندرون. ومن أجل أن يفهم القارئ هذه الخيانة، يجدر به أن يذهب إلى بلدة «عنجر»، بلدة الحزن الصغيرة، التي تُزرع حول بيوتها الورود، وتُرى من الطريق العامّ تزيّن مداخل البيوت؛ وهناك على طول حديقة الأب أشود كراكشيان خط طويل ورديّ وقِرمزيّ يرمز إلى الآلام التي عاناها الأرمن الذين أقاموا بلدتهم هذه على المستنقعات الواقعة في خراج بلدة «مجدل عنجر»، شرقي وسط لبنان عام ١٩٣٩. إن هؤلاء الأرمن قوم ذوو أنفة، يحملون الآن جوازات سفر لبنانية، كما يكنُّون في نفوسهم الأسرار المظلمة للماضي الأرمني: وذلك لأنهم هُجِّروا من موطنهم مرّتين خلال القرن العشرين

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الميلادي، أولاً عام ١٩١٥، ثم عام ١٩٣٩. وإذا كانوا يلومون الأتراك بسبب تهجيرهم أوّل مرّة وثاني مرّة، فهم يلومون الفرنسيين أيضاً، وهتلر. لكنهم يلومون الفرنسيين أكثر.

وكانت فكتوريا شقيقة الأب كراكاشيان في العاشرة من عمرها عام ١٩٣٩؛ لكنها تتذكّر الكارثة الثانية التي ألمَّت بعائلتها، والتي كانت عبارة عن إبادة صغيرة بالمقارنة مع إبادة عام ١٩١٥. قالت: «رافقنا الجيش الفرنسي على طول الطريق؛ ولكننا كنا نحتضر. فقد مات أخي فاروجان البالغ من العمر آنذاك سنة أو سنتيْن أمامي في حضن أمّي على الشاحنة التي كانت تقلّنا. لقد أصابته «الملاريا» مثلنا كلّنا. ولم يكن الفرنسيون يعرفون ماذا يجدر أن يفعلوا بنا. أخذونا أولاً إلى العبّاسية في سوريا، حيث مكثنا أربعين يوماً؛ ثم وضعونا في السفن سبعة أيام، حتى وصلنا إلى ميناء طرابلس في شمالي لبنان. ومن هناك أركبونا في قطار للماشية إلى رياق في سهل البقاع؛ ثم أخذونا إلى عنجر، حيث بقينا فيها حتى اليوم».

وكان الأب كراكاشيان مع شقيقته وسائر الأرمن المقيمين في عنجر قد وِلِدوا في موسى داغ، بلدة القلعة الأرمنية التي تقع الآن جنوبيّ شرقيّ تركيا، والتي صمدت أربعين يوماً ضدّ الظروف العسيرة أثناء الإبادة الأولى؛ حتى جاءت السفن الحربية الفرنسية والبريطانية فأنقذتهم، ونقلتهم إلى مصر؛ ثم أعيدوا إلى بلدتهم بحماية الجيش الفرنسي بعد حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨. وهناك عاشوا تحت الانتداب الفرنسي، مثل سائر أنحاء سوريا حتى عام ١٩٣٩، عندما لجأت الحكومة الفرنسية إلى محاولة يائسة لإقناع تركيا بمساندة الحلفاء ضدّ هتلر، فأعطتها بلدة «موسى داغ» ومدينة الإسكندرون ولواءها.

وكان الأولاد من عائلة «كراكاشيان» قد ولدوا بعد حصول محرقة ١٩١٥؛ لكنّ كثيراً من جيرانهم ليس لهم آباء أو أجداد. وحتى عندما جاءوا إلى عنجر ـ التي كانت لا تزال تحت الانتداب الفرنسي في «لبنان الكبير» ـ ظلّوا يعانون. فقد هاجمهم بعوض المستنقعات، وكانت تلك المنطقة بريّة. «وقد أعطى الفرنسيون كلّ رجل ٢٥ ليرة لبنانية لينحت الصخر ويبني لنفسه بيتاً. كما مات

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

كثير منهم بسبب الملاريا». وبلغ عدد هؤلاء زُهاء ألف رجل وامرأة؛ ولا تزال قبورهم المتهدّمة قائمة شماليّ البلدة. وفي تلك الأثناء، حوالَي عام ١٩٤٠، كان معظم أوروبا في حالة حرب، كما هو معلوم.

وتملأ صور المأساة الأرمنية جدران كنيسة القدّيس بطرس في عنجر. ومنها صورة أُخذت عام ١٩١٥ تُظهر الناجين من حصار «موسى داغ» يتسلّقون بيأس ظهر سفينة حربية للحلفاء. وأخرى تبيّن الضبّاط الفرنسيين وهم يستقبلون وجهاء الطائفة الأرمنية العائدين إلى الإسكندرون، مع بعض رجال «اللواء الأرمني» التابع للجيش الفرنسي. وفي الثلاثينيّات من القرن العشرين الميلادي، بنوا نُصباً تذكارياً للحصار ـ عاد الأتراك فهدموه ـ وعندما أُجبروا على الرحيل مرّة أخرى قبل الحرب العالمية الثانية أخذ الأرمن موتاهم معهم، على الطريقة «الصربية». فاصطحبوا رُفات ١٨ شهيداً من معركة ١٩١٥، لم يمسّها الأتراك، ووضعوها في شاحنة عام ١٩٣٩، وجلبوها مع لاجئيهم الذين ما زالوا أحياء إلى عنجر، حيث رقدت في ضريح رخامي بجانب كنيسة القدّيس بطرس «بالذكرى الأبدية»، كما هو ظاهر على الضريح.

ولكن الذكرى تلطّفت بسكّان عنجر. قال الأب كراكاشيان: «خلال السنوات العشر الأولى من مغادرتنا للإسكندرون، كان عدد المرحَّلين يناهز ستّة آلاف شخص، وكانوا يريدون العودة. ولكن، بعد الحرب العالمية الثانية، هاجر كثير من شعبنا إلى أميركا الجنوبية. والآن نحن لا نرغب في العودة. ولكنّي عدتُ إلى هناك في العام الماضي سائحاً؛ فوجدت حوزة أرمنية صغيرة من ٣٠ عائلة لا تزال تعيش في ذلك الجزء من تركيا الذي يخصّنا حول «موسى داغ»، وقد جُدّدت الكنيسة الأرمنية. وكان الأتراك مهذّبين معنا. وأعتقد أنهم يعرفون ما حدث، وأنهم يحترموننا لأنهم يدركون أنهم يعيشون على أرضنا».

إن تسليم الفرنسيين سنجق الإسكندرون، بما فيه «موسى داغ»، إلى الأتراك عارٌ لم تروَ قصّته بين قِصص الحرب العالمية الثانية. فقد خافت فرنسا أن تنضمّ تركيا إلى المحور الألماني؛ كما فعلت في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨، ووافقت على إجراء استفتاء في لواء الإسكندرون ليختار السكّان جنسيّتهم. فما كان من

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الأتراك إلّا أن أقحموا في السنجق أعداداً غفيرة من مواطنيهم ليصوّتوا طبعاً على جعل السنجق جزءاً من تركيا. وهكذا كان. قال الكاهن: «عندما قرّرت الحكومة الفرنسية تسليم السنجق إلى تركيا، أدرك الأرمن أنهم لم يعودوا قادرين على العيش هناك؛ فطلبوا من الحكومة الفرنسية إجلاءهم إلى موطن آخر، يتخلّصون فيه من الأتراك. فغادروا. لقد عقد الفرنسيون اتفاقاً لمصلحتهم. إنّي ألوم الفرنسيين». وهكذا صار السنجق الذي كان يسمّى «ألكسندريتّا» (Alexandretta) يحمل اسم الإسكندرون، واسم محافظة هاتاي (Hatay) التركية. وفي سياق السخرية الأخيرة، انضمّت تركيا إلى جانب الحلفاء ضدّ هتلر ـ ولكن لم يحصل ذلك إلّا في الأيام الأخيرة من ذلك النزاع الأوروبي، عندما كان هتلر على وشك الانتحار في ملجأه تحت أرض برلين، وعندما تحوّل الرايخ» إلى رماد. وكانت التضحية بالسنجق دون مقابل.

كما لم تنقشع أشباح ذلك الأمر. ففي عام ١٩٩٨، أنذر رئيس وزراء تركيا مسعود يلماظ سوريا، لمساعدتها رجال حرب العصابات الكردية من حزب العمّال الكردي الناشطة على الحدود. وقد اختار أن يقيم حفلة في ذكرى تسليم الفرنسيين السنجق إلى تركيا، وأعلن: «إن الذين يركّزون أنظارهم على الأراضي التركيّة مصابون بالعمى ـ إننا لن نتهاون في أن يؤخذ من تركيا سنتيمتر واحد». ولكنّ السنجق كان أرمنياً. وسلام على اتفاقية «سيڤر».

إن العالم مليء بالإبادات الكبيرة والصغيرة؛ نعرف أخبار بعضها من شهادات جماهيرها، بينما أغمضنا عيوننا عن بعضها الآخر، مثل اللاجئين الأرمن الذين فقدوا بصرهم في حمّامات البيوت التي وضعوا فيها عام ١٩١٦. وقد كتب «مارك ليڤين» بإسهاب عن إحدى الإبادات غير المعروفة ـ أخبِرونا عنها أيها القرّاء، إذا كنتم تعرفونها ـ التي حصلت عندما شنّ الجيش العراقي الناشئ عام ١٩٣٣ هجوماً إبادياً على سكّان من الطائفة الأشورية. فقرب مدينة «داهوك» فتك الجنود بأهالي قرية تُدعى «سومايْل». والناجيات القليلات من تلك المذبحة، اغتُصبن من قِبل العصابات فيما بعد. وقد شارك الأكراد الذين يؤلّفون غالبيّة سُكّان المنطقة في القتل الجماعي ـ وكانوا في بعض الحالات هم

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الأكراد أنفسهم الذين نهبوا وقتلوا الأرمن عبر الحدود التركية منذ ١٨ سنة. وحصل كلّ ذلك في ظلّ الاحتلال البريطاني للعراق. وقد عمد المفتّش الإداري في المنطقة الكولونيل ر. س. بستافورد إلى تقديم تقرير إلى لندن حول ما قرّره الضبّاط العراقيون بشأن عمليات القتل «وإبادة الأشوريين قدر الإمكان». وكان الأشوريون قد رحلوا من تركيا بعد هجمات الإبادة على قراهم، ولجأوا إلى بلاد فارس، ثم نقلهم البريطانيون إلى قرب الموصل في الدولة العراقية الجديدة القادمة.

وقد روى ليڤين قصّة هذا النمط من المواجهات مع الدولة العراقية من عام ١٩٣٣ إلى عملية قتل الأشوريين في حملة الأنفال التي قام بها صدّام عام ١٩٨٨. وحتى بعد حصول المذابح الأولى، أعاق البريطانيون إجراء عملية تحرٍّ في عُصبة الأمم، لأن ذلك قد يؤدّي إلى انهيار حُكم الملك فيصل؛ وأمدّوا الطيران العراقي الجديد بقنابلهم في حملته المضادّة للأشوريين ـ بعد حصول القتل الأوّليّ. وكان البريطانيون قد حذَّروا من أن البحث العلنيّ في هذا الأمر قد يُحدث «ردّة فعل بخصوص كُره الأجانب»، ذلك الأمر الذي نجحوا في القيام به بعد مرور سبعين سنة.

وتظهر أيّ مناقشة لعمليات الإبادة في جريدة مثل الإندبندت إلى أيّ مدى يسيطر هذا الموضوع على تفكير الجمهور. فقد راسلني رئيس المجلس اللاتڤي في بريطانيا، بعد أن كتبت عن المحرقة الأرمنية؛ وذكَّرني بأن ما يناهز ١١ مليوناً من الناس ماتوا في «المجاعة الإرهابية» في «أوكرانيا» بين ١٩٣٠ و١٩٣٣، قائلاً: «لن يكون لمحرقة هؤلاء احتفال تذكاري في يوم معيّن». وماذا عن ملايين المسلمين المطرودين من البلقان ومن روسيا في القرن التاسع عشر، «كجزء من تاريخ أوروبا المنسيّ»، كما عبّر عن ذلك أحد المؤرّخين؟ وقد حثَّني بعض القرَّاء على فحص «محرقة الكونغو» التي قام بها الملك «ليوبولد» الثاني، حيث مات ملايين الناس ـ من الضرب أو من الإنهاك الجسدي، أو الجوع، أو المرض ـ في مخيّمات «السخرة» للعمّال المستعبدين، خلال القرن الماضي. وكيف سنتعاطى مع أولئك الإسبانيين الذين لديهم الحقّ في التشهير بما فعله

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

«فرانكو» من إبادة ٣٠٠٠٠ من خصومه السياسيين والعسكريين ـ الذين لا يزالون مدفونين في ٦٠٠ قبر جماعي عبر إسبانيا كلّها؛ واعتبار هذه الفاجعة شكلاً من أشكال الإبادة.

وعندما كتب إليّ المؤرّخ نورمان دايفيس عام ١٩٩٨، ليذكّرني بأن سؤال هتلر عن الأرمن القائل: «مَنْ يتكلّم اليوم عن تدمير الأرمن؟»، قد طُرح من جديد في ما يتعلّق بالبولونيين، وكان قد سجّله أولاً رئيس مكتب الصحافة المتحدة في برلين لويس لكنر في آب/أغسطس عام ١٩٣٩. فقد توصّل «دايفيس» إلى النتيجة التالية: «وقد يُغري المرء أن يضيف إلى ذلك: «ومَنْ في النهاية، يتكلّم اليوم عن مَحْق البولونيين؟»». ولكن، من المؤكّد أن هناك كتاباً نُشر دون ذكر اسم مؤلّفه، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة، مع مقدّمة كتبها الشاعر المعروف «ت. س. إليوت»، يسجّل عذاب الملايين من البولونيين الذين رحّلهم إلى الموت والمجاعة الجيش الروسي الذي دخل بولونيا بعد الغزو الألماني عام ١٩٣٩، وهناك مقطع من هذا الكتاب يحرّك مشاعري تُعبّر فيه أمّ بولونية عن رجائها بأن يغادر قطار الترحيل في الليل:

> «كان خطّ القطار يمرّ بتلّة منخفضة قرب بيتنا وحديقتنا؛ وقد خالج الأمّ الأمل بأن لا ينتبه الأولاد لهذا المنظر، حتى لا ينبجس كلّ حزنهم من جديد. وحالما لاح منظر البيت والحديقة، رأى أولادنا الجيران وأعضاء آخرين من عائلتنا واقفين على التلّة، بينما كان كاهن الأبرشية يحمل الصليب بيده... وعندما تجلّى منظر المداخن، والحديقة، والأشجار، بوضوح، صرخ توموس بصوت شديد: أمّي، أمّي، هذه حديقتنا، وبِرْكتنا، و... بقرتنا ترعى في المرج! لماذا يجب علينا أن نذهب من هنا يا أمّي!».

إن تلك المغادرة، وبراءة توموس، وحبّه لبقرة العائلة، واستشعار الأمّ بأن قطار الترحيل سيمرّ قرب بيتهم، وذلك السؤال الذي طرحه الولد، كلّها أمور سيردّد صداها ملايين من الأصوات الأخرى، التي ستُسمع على هذه الخطوط الحديدية ذاتها، عندما تنطلق محرقة اليهود التي أمر بها هتلر في الأشهر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

والسنوات القادمة؛ كما حدث في محرقة الأرمن منذ ٢٤ سنة. إن الذي ابتدع كلمة «إبادة» (Genocide) بخصوص ما أصاب الأرمن عام ١٩٤٤، هو روفائيل لامكين، اليهودي المولود في بولونيا. وهو إنجاز ساعد على إرساء القاعدة القانونية والأخلاقية لثقافة تراعي حقوق الإنسان.

ومع كلّ هذه الإثباتات، وما قدَّمه الشهود العيان، والتقارير الدبلوماسية، والبرقيات، والعظام والجماجم لمليون ونصف مليون من الناس، هل يمكن إنكار هذه الإبادة؟ هل يمكن التستُّر على هذا الشرّ الجماعي الذي أُنزل بالأرمن؟ أو هل يمكن نسيانه، كما قال هتلر؟ أليس من السخرية بمكان أن لا يُعترف اعترافاً كاملاً بالمحرقة العالمية الأولى، وأن لا تتصدَّر قائمة الأعمال الوحشية الرهيبة التي اقترفها الإنسان في القرن العشرين الميلادي، والتي أنبتت أعمالاً من البربرية، وآذنت بالشراسة القادمة في القرن الحادي والعشرين؟

واأسفاه، أن يمرَّ كلّ ذلك ويُنسى. عندما كتبتُ لأوّل مرّة عام ١٩٩٣ عن المجازر التي حلَّت بالأرمن، شجب الأتراك مقالتي ونعتوها بالكذب ـ كما فعلوا إزاء ما لا يُعَدّ من الكتب ومن الاستقصاءات قبلاً ومنذ ذلك الوقت. وكتب القرّاء الأتراك إلى رئيس تحرير جريدتي يطلبون عزلي من «الإندبندنت». وقد جاء فيما كتبوا أنه إذا كان المواطنون الأرمن قد قُتلوا ـ لاحظ كلمة «إذا» ـ فقد كان ذلك نتيجة للفوضى العارمة التي سادت تركيا العثمانية، خلال الحرب العالمية الأولى، إذ قُتل ما لا يُعدّ من الأتراك في تلك الفوضى المدنية، وحينما كان الأرمن شبه العسكريين قد ناصروا روسيا القيصرية. وبذلك نُبذت بصفتها دعاية كلّ الإثباتات الصادرة عن اللجان الأوروبية حول المجازر، وتقارير الشهود العيان من الصحافيين الغربيين الذين شهدوا فيما بعد مذبحة الأرمن في سميرنا ـ إزمير اليوم ـ ذلك المنتجع السياحي العامر بما لا يُحصى من السائحين البريطانيين الذين يتشمَّسون هناك، دون أن تكون لديهم أيّة فكرة عن حمَّام الدم الذي حصل على تلك الشواطئ وحولها ـ فضلاً عن الشجب الذي كتبه مورغونتو وتشرشل.

وقد كتب غولر كوكنار رئيس «تجمّع الرابطات التركية الأميركية» إلى رئيس

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تحرير جريدتي «سيمون كيلنر»، مدّعياً أن الأرمن «قد ارتدّوا جماعياً ليحاربوا مع العدوّ، ويخدموا كطابور خامس، وبدأوا حرباً أهليّة ضدّ المسلمين العثمانيين». كما كتبت السيدة «سونا كاكير» لتنبئني بأن الادّعاء بحصول إبادة جماعية للأرمن كان «محض تلفيق... ومجرّد اختلاف خيالي». أما «آيجن تات» من واشنطن العاصمة، فقد أرسلت مقالتي بالبريد الإلكتروني لتصفها بأنها «مخادعة»، وتذكر أن مقطع هتلر المستشهد به «مُلفّق» إذ «لم تكن هناك أبداً محرقة للأرمن أو إبادة لهم، إنما كانت هناك مذبحة للأتراك ارتكبها الأرمن وأسيادهم القيصريّون الروس». وكان آخر سطر خطّته «تات» تساؤلاً يقول: «لماذا نلوم تركيا والأتراك بشأن أحداث حصلت عام ١٩١٥؟». ويثير «إبراهيم تانسيل» الاهتمام، إذ يقول: «إن إبادة الأرمن المزعومة كانت جزئياً عبارة عن ردّة فعل من قِبل القرويين. وفي الواقع، أُرسل الأرمن إلى لبنان من أجل تجنّب أيّ إراقة جديدة للدم». وكان هذا الطوفان البريدي يمثّل شيئاً مقلقاً جدّاً: بمحاولته جعل مرتكبي إبادة الأرمن ضحايا، والضحايا قتلة وكذّابين».

وكانت كلّ رسالة تفد إلينا ـ وكأنَّ المراسلين منظّمون ليكتبوها بالدور ـ تزيد من لهجة الإنكار. فرسالة «س. زوربا» من روتشستر، في ولاية نيويورك، أشارت إلى «الضحايا التعساء لأحداث تعيسة»؛ وتصف فيما بعد الإبادة بأنها «مزعومة». وقد وصفتني رسائل إلكترونية بأنني «شرّير»، ونعتتني أخرى «بالجهل والغطرسة» وانتهت بسطر كاشف يقول: «ربّما حدثت إبادة، ولكن ليس من واجبك أن تعطي حُكماً؛ إذ إن من عمل المؤرّخين أن يكشفوا عن الواقع والحقيقة». وقد صار ذلك لازمة مُضجرة، تكرّرت ـ بشكل لا يُصدّق ـ حتى من قِبل سياسيين إسرائيليين، سنتكلّم عنهم فيما بعد.

ولكن، يجدر أن لا يُنظر إلى هذه الملاحظات بمعزلٍ عن سياقها. فقد كانت مدعومة من قبل دبلوماسيين أتراك. وقد اشتكى «قرقماز هاكتانير» السفير التركي في لندن، في رسالة وجّهها إلى جريدة «الإندبندنت» من أن «كثيراً من أعضاء عائلتي وحوزتهم عانوا وماتوا على أيدي الإرهابيين الأرمن». وضمّن رسالته صورتين فوتوغرافيّتين لنساء مشوّهة أجسادهنّ بشكل رهيب قتلهنّ الأرمن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في قريتيْ سوباتان ومرسيني دير عام ١٩١٥. وعقّب على ذلك بتأكيده: «ان «فيسك» متلهّف ليعيد فتح الجروح القديمة» ـ مما يثبت على الأقلّ أنه كانت هناك جروح أُحدثت في الواقع.

ولكنّ النظير المقابل لـ «هاكتاينر» في إسرائيل، «بارلاس أوزينر» قام بمسعى أكثر غرابة ـ بالنسبة إلى البلد الذي كان يخدم فيه، فقد اتّهم في رسالة وجّهها إلى مجلّة جيروزاليم بوست صاحبة مقال «إنكار الإبادة» بخصوص الأرمن، بأنها تحاول أن تعيد كتابة التاريخ. قال في رسالته: «إن أسطورة «المحرقة الأرمنية» لُفّقت مباشرة بعد الحرب العالمية الأولى، أملاً في أن يكافأ الأرمن بناء على «معاناتهم» بقطعة أرض من الدولة العثمانية المتفكّكة». إننا لا نفهم ماذا سيستفيد الناجون من محرقة اليهود من ذلك المقال عن الإنكار. إن الصحافية «مارلين هنري»، بحسب قول «أوزينر»، استخدمت قلمها مستهدفة «الكنيست الجديد، والحكومة الإسرائيلية الجديدة، والعلاقات التركية ـ الإسرائيلية».

ولكن، لا داعي لأن يخشى الدبلوماسيون الأتراك من خِزي إسرائيل. وعندما تقرَّر عقد مؤتمر المحرقة في تلّ أبيب عام ١٩٨٢، اعترضت الحكومة التركية على تضمين المؤتمر موادّ عن المذبحة الأرمنية. وصرّح وزير الخارجية الإسرائيلي بأن هذا الأمر قد يوقع الضرر بالعلاقات الإسرائيلية ـ التركية. وكان ذلك بمنتهى عدم المعقولية، بحيث اضطرّ «إيلي ويزل» أحد الناجين من محرقة «أوشفيتز» أن ينسحب من المؤتمر. لكن المؤتمر استمرّ ـ مع محاضرات عن الإبادة الأرمنية ـ بعدما بذل «شيمون بيريز» جهده دون جدوى لإقناع «إسرائيل تشارني»، أحد أبرز الخبراء المختصّين بشؤون الإبادة، في إسرائيل، بأن لا يضمن المؤتمر موضوع المجازر الأرمنية.

وقد تجاوز بيريز أيضاً هذا الحدّ ـ وغرق في مستنقعات إنكار المحرقة ـ في تصريح أدلى به قبل أن يقوم بزيارة رسمية إلى أنقرة، بصفته وزيراً للخارجية في نيسان/ أبريل عام ٢٠٠١. ففي مقابلة أجرتها معه «وكالة الأنباء الأناضولية» قال: «إننا نرفض المحاولات التي تُبذل لإقامة تشابه بين محرقة يهودية والمزاعم الأرمنية. لم يحدث أي شيء يشبه المحرقة اليهودية. إنها مأساة تعرّض لها

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الأرمن، ولكنها ليست إبادة». وأضاف: «وإذا كان لا بدّ من اتخاذ موقف من هذه المزاعم، فيجب أن يُتّخذ بعناية فائقة حتى لا تتشوّه الحقائق التاريخية. ولكنّ هذه التعليقات المدهشة التي فاه بها بيريز لم تمرّ دون ردّة فعل عليها، إذ إنها تعارض كل الوقائع التي لا بدّ أن يكون على دراية بها، وكل ما قاله الشهود عيان، وكل الروابط المباشرة بين إبادة عام ١٩١٥ وإبادة اليهود. وقد تصدّى لها «تشارني»، أحد الأكاديميين الإسرائيليين المشهود له بالاستقامة التامة.

فقد كتب «تشارني» رسالة شخصية إلى «بيريز» يقول فيها: «يبدو لي أنك تجاوزت الحدّ الأخلاقي الذي لا يجدر بأيّ يهودي أن يتعدّاه... وربّما كان عليك، في منظورك الواسع لحاجات دولة إسرائيل، أن تتحاشى إثارة الموضوع في تركيا؛ ولكني كيهودي وإسرائيلي أخجل من المدى الذي بلغتَه في إنكار حصول الإبادة الأرمنية، والذي يمكن أن يُقارَن بإنكار حصول المحرقة اليهودية». وقد ذكَّر تشارني بيريز أنه حدث في مؤتمر حول المحرقة اليهودية عُقد في فيلادلفيا عام ٢٠٠٠، أن وقّع عدد كبير من الباحثين، بمن فيهم مؤرّخون إسرائيليون، تصريحاً علنياً بأن الإبادة الأرمنية حقيقية، وأنه في اجتماع عام ١٩٩٧ «لجمعية علماء الإبادة»، جرى التصويت على قرار بأن الأرمن قاسوا «إبادة شاملة». كما أن تشارني لم يحجم عن الدفاع عن هذه القضيّة في كتابه: «موسوعة الإبادة» الواقعة في مجلّدين، والمحتوية على ٤٥ صفحة من إفادات شهود العيان وتقارير معاصرة دبلوماسية وصحافية حول المذبحة الأرمنية؛ ولاسيّما من النيويورك تايمز؛ فضلاً عن استشهادات مطوّلة من مصادر تركيّة أصلية. وأحدها عن المؤرّخ التركي المرموق «أحمد رفيق» الذي خدم في استخبارات الأركان العامّة العثمانية. وقد صرّح بشكل باتّ أن «هدف الاتحاد (القيادة التركية للجنة الاتحاد والتقدّم) كان تدمير الأرمن».

وقد أشار تشارني إلى أن إنكار بيريز ارتكز على أمنيته أن تتحسّن العلاقات الإسرائيلية ـ التركية ـ تلك العلاقات التي أعاقتها تركيا ذاتها عندما تعارضت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مع مؤتمر الإبادة الذي عقده «تشارني» عام ١٩٨٢ في تلّ أبيب. وشهد «إيلي ويزل» بأن موظّفاً كبيراً أخبره أن الأتراك أعلنوا أنه «ستكون هناك صعوبات جدّيّة إذا اشترك الأرمن في المؤتمر».

وهكذا، هلّا يكون للأرمن أيّة عدالة، أو أي اعتراف بالجريمة التي ارتُكبت بحقّهم، أو أيّ تعويض، أو أيّ إعادة لأملاكهم، أو أي اعتذار؟! إن المسألة تدور حول مليون ونصف مليون من الهياكل العظمية، التي ما زال الأتراك يُنكرون وجودها. هل تخشى تركيا من ماضيها، بحيث لا تستطيع أن تفعل ما فعلت ألمانيا إزاء اليهود ـ بتنقية الذات، وتبكيت الضمير، والإقرار، والاعتراف، والتعويض، وحُسن النيّة؟ وبحسب قول «جوناثان أريك لويس» من معهد «رومارك» في جامعة نيويورك: «كيف يكون تدمير قسم كبير من طبقة التجّار في الإمبراطورية العثمانية أيَّ شيء آخر سوى قضيّة مركزية في تاريخ تركيا الحديث؟ إنّ أراضي الأرمن، وبيوتهم، وسائر أملاكهم، هي الآن بيد أولئك الذين استفادوا من الجرائم السابقة. إن خوف تركيا من دفع التعويضات لا يتعدّى كونه أحد الأسباب التي تجعل الحكومة التركية رافضة للاعتراف بالإبادة».

ولكنّ عمليات الإنكار تستمرّ. وعندما تجرّأ البابا يوحنا بولس الثاني أن يشير إلى «الإبادة الأرمنية، التي كانت مقدّمة لفظائع مستقبلية»، لقّبته جريدة «مِلّيّيت» التركية على صفحتها الأولى بما يلي: «البابا مصاب بخرف كبر السنّ». وعندما حاول الدكتور صلاحي صونييل أن يُظهر أن سؤال هتلر عن الأرمن كان تزويراً، وأن يفصله عن الإبادة التي قام بها النازيون، بالإشارة الصحيحة إلى أن الفوهرر كان يتكلّم عن البولونيين، وليس عن اليهود. يبدو ذلك خطّاً إقناعياً قويّاً، إلى حين نتذكّر أن ثلث السكّان البولونيين عام ١٩٣٩ كانوا يهوداً، أي الفئة من السكّان التي نوى هتلر أن يقضي عليها. وصونييل ذاته هو الذي عَنوَن إحدى مقالاته بما يلي: «كيف أمالت الدعاية الأرمنية المناهضة للخلافة العثمانية العالم المسيحيّ الساذج». والفرق الحقيقي طبعاً، بين المحرقة الأرمنية والمحرقة اليهودية، هو أن ألمانيا اعترفت بمسؤوليتها، بينما أنكرت الحكومات التركية المتعاقبة حصول الإبادة الأرمنية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إن لدى تركيا جماعات قويّة ناشطة تهاجم أيّ صحافي أو أكاديمي ينادي في الولايات المتّحدة الأميركية بأن إبادة الأرمن هي حقيقة وقعت. فتركيا اليوم لم تعد ذلك الرجل المريض؛ بل إن القوى الغربية ذاتها التي أدانت قسوتها في القرن الماضي لا تزال تحاول اكتساب ودّها. فهي عضو مقدَّر في حلف شمال الأطلسي (الناتو) ـ وحليفتنا في إلقاء القنابل على صربيا عام ١٩٩٩ ـ وأقرب حليف إقليمي إلى إسرائيل، وزبون أساسي في شراء الأسلحة من أميركا وفرنسا. وكما بقينا صامتين عند بداية اضطهاد الأكراد، نفضّل الآن أن نتجاهل المحرقة الأولى التي حصلت في القرن العشرين الميلادي.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الإنكار وصلت عدواه إلى الصحافيين. وعندما زار البابا أرمينيا في أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١ شعرت الصحافة المتّحدة بأنها مضطرّة إلى أن تخبر مشتركيها بأن «تركيا تُنكر بإصرار الاتهامات الأرمنية بأن الجيوش التركية العثمانية تورّطت في عملية الإبادة، تلك الكلمة التي درج استعمالها بعد الحرب العالمية الثانية، فحسب». فبصرف النظر عن كلمة «إصرار» ـ بمعنى أن الأتراك قد يكونون على حقّ ما داموا يصرّون على موقفهم ـ تبدو كلمة «اتهامات» جزءاً قبيحاً من عمل الصحافة، وأن الإشارة إلى تعريف «المكين» (الذي حصل أثناء الحرب العالمية الثانية، وليس بعدها) لم تذكر أنه كان يشير إلى الأرمن. وقد غطَّت وكالة الإذاعة البريطانية الزيارة ذاتها التي قام بها البابا، وكشفت عن المستوى المحتقر الذي وصلت إليه، عندما أخبرت مستمعيها «بقتل أكثر من مليون أرمني أثناء تفكّك الإمبراطورية العثمانية» ـ لنلاحظْ كلمة «قتل» بدلاً من كلمة «ذبح» أو تدمير، وكيف أن ذلك حصل بطريقة غير معروفة خلال اندثار الإمبراطورية العثمانية ـ ممّا هو غير صحيح في كل حال، نظراً لأن الإمبراطورية استمرّت بعد الحرب العالمية الأولى.

ولكن الأكثر خِزياً وعاراً جاء من ـ قبل النيويورك تايمز التي سجّلت الأسطورة بشجاعة ـ وسبقت غيرها عالمياً ـ وغطَّت قضية الإبادة الأرمنية التي حصلت عام ١٩١٥؛ فتحوّلت شجاعتها إلى جُبن. وفي ما يلي على سبيل المثال، فقرة هامّة من تقرير النيويورك تايمز بتاريخ ٢٦ آذار/مارس ١٩٩٨،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بقلم «ستيفن كينزر»، حول ما تبقّى من الأرمن في تركيا، وعددهم ٧٠ ٠٠٠ شخص:

«كانت العلاقات بين الأتراك والأرمن جيّدة خلال معظم الفترة العثمانية، لكنها انجرحت عميقاً بمجازر أصابت الأرمن نفَّذتها قوى تُناصر العثمانيين في شرقي الأناضول خلال ربيع عام ١٩١٥. ولا تزال تفاصيل ما حدث موضع نقاش حارّ؛ لكن من الواضح أن عدداً كبيراً من الأرمن قُتلوا أو تُركوا ليموتوا، خلال المسيرات الإجبارية في تفجُّر يسمّى اليوم التطهير العرقي».

والآن لديّ مشكلة جدِّية بخصوص هذه الفقرة. فقد اختفى منها أولاً، العدد الإجمالي للأرمن المصابين البالغ مليوناً ونصف مليون ـ أو حتى مليوناً ـ وهو عدد يجب ذكره لوضع الفاجعة في خانة الإبادة، وللدلالة على المنكوبين كضحايا المحرقة الأولى التي حصلت في القرن الماضي. ولذلك بقينا مع ما سمّاه كينزر: «عدداً كبيراً» من القتلى، ممّا يجعل جريدة النيويورك تايمز بمنجى من الإضرار بالأتراك. ثم جرى تقزيم الإبادة إلى «التطهير العِرقيّ»؛ وهي عبارة مألوفة من أيام حرب الصرب ضدّ المسلمين في البوسنة والألبانيين في كوسوفو، وعلى مستوى أقلّ فظاعة من مجازر ١٩١٥. ثم لنلاحظْ كيف حدث ذلك «بتفجّر» من التطهير العرقي الذي حصل فجأة وبصورة تلقائية بدلاً من كونه قتلاً عن سابق تصوّر وتصميم. ولنلاحظْ أيضاً تعبير «القوى المناصرة للعثمانيين»، بدلاً من تعبير «القوى التركية» الخَطِر، أو حتى «القوى التركية العثمانية» التي كان عليه أن يكتب عنها. ثم يخبرنا بأن القضيّة جدليّة تُناقش مناقشة حارَّة. فكم يكون من العدل أن تذكّرنا النيويورك تايمز بأن هناك حملة إنكار لحقيقة الإبادة، دون أن تعبّر عن ذلك بوضوح. إنه تكذيب لما حدث مماثل لتكذيب حصول المحرقة اليهودية. كما أن من مقالات «كينزر» أيضاً مقالة بعنوان: «أرمينيا لا تُنسى أبداً ـ ولكنني ربّما أنسى».

إن لديّ شكوكاً حول هذا كلّه. وأعتقد أن مراسل النيويورك تايمز كتب هذه السفاسف كي يتجنّب إثارة حفيظة الحكومة التركية الحاضرة. ولم يرغب في أن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

تصبح مقالته موضوع مشادَّة خلافية؛ أو أن يثير قضايا. ولذلك لطَّف الحقيقة الواقعة ـ ولا شكّ في أن الأتراك سُعدوا بذلك. والآن لنقمْ باختبار بسيط. فلنتحوَّلْ شطر محرقة اليهود الأرهب والأوفر عدداً التي حصلت في أوروبا. فهل كان «كينزر» ليتجرّأ على أن يكتب عن ذلك الفتك الجماعي بالأسلوب ذاته؟ وهل كان ليخبرنا أن العلاقات الألمانية ـ اليهودية قد «انجرحت عمقاً» بسبب المجزرة النازية؟ وهل كان ليلفظ ـ ولو للحظة ـ أن التفاصيل «تُناقش مناقشة حارَّة» وهل كان ليُقارِن بين مجزرة اليهود وحرب البوسنة؟ ـ كلّا، لم يكن ليتجرّأ على فعل ذلك؛ ولم يكن عليه أن يفعل ذلك. فلماذا كان إذاً مستعدّاً لإلقاء الشكّ على الإبادة الأرمنية؟

عاد كينزر إلى حِيَله القديمة المتمحورة حول «الإنكار» في مقالة صدرت في النيويورك تايمز بتاريخ ٢٧ نيسان/أبريل عام ٢٠٠٢، بشأن متحف الإبادة الأرمنية في نيويورك:

> «لواشنطن الآن مؤسّسة واحدة رئيسة هي متحف المحرقة اليهودية، التي توثّق لمحاولة تدمير شعب بأسره. والقصّة التي تقدّمها، ليس عليها خلاف. أما أحداث عام ١٩١٥، فلا تزال موضع مشادّة حادَّة».

وها نحن من جديد أمام الموقف ذاته. فالمحرقة اليهودية حقيقة «لا يمكن إنكارها». لكن عدم الإنكار هذا يُستخدم هنا للانتقاص من حقيقة المحرقة الأرمنية التي ليست «خارج الإنكار» والتي تقوم حولها مشادَّة حادَّة». وهذه التلميحات تقوّي في مقالتيْ كينزر مصداقيّة الإنكار التركي. وقد عادت هذه التفويتات التلميحية إلى الظهور مجدّداً في النيويورك تايمز بتاريخ ٨ حزيران/ يونيو عام ٢٠٠٣، عندما برزت الصورة الشهيرة لرجال أرمن يساقون بواسطة «الجندرمة» التركية في بلدة لم يذكر اسمها عام ١٩١٥، مع العنوان التالي: «الأرمن يُساقون إلى السجن بواسطة العسكر الأتراك عام ١٩١٥». مع العلم أنهم كانوا نادراً ما يساقون إلى السجن؛ بل كانوا يُساقون مشاة قبل ترحيلهم، وتُغتصب وتذبح نساؤهم وأولادهم. والبلدة الظاهرة في الصورة هي هاربوت ـ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وقد أخذ الصورة أحد رجال الأعمال الألمان ـ ورجال هارپوت الذين يظهر بعضهم في الصورة أُبيدوا كلّهم تقريباً؛ لكنّ «النيويورك تايمز» تراهم يساقون إلى «السجن» بسلام.

وليست «النيويورك تايمز» وحدها في إبداء هذا الجُبن. فبتاريخ ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر عام ٢٠٠٠ عمدت «وول ستريت جورنال»، وقد تكون أكبر صديقة لإسرائيل في الصحافة الأميركية ـ مع أن هناك أيضاً جرائد أخرى مرشّحة لتكون مقرّبة لها ـ إلى القيام بإنكارها الخاصّ للمحرقة البسيطة. فمع اعترافها «بالواقع التاريخي الذي يثبت موت ٦٠٠ ٠٠٠ أرمني أو أكثر تقديرياً؛ وكثير منهم في عمليات الترحيل القسريّ إلى سوريا وفلسطين، التي نظمتها الجيوش العثمانية» تتابع الجريدة قائلةً ـ وعلى القرّاء أن لا يبتسموا لمطالعتهم تلك اللغة البائسة الجديرة بالازدراء ـ ما يلي: «أما كون معظم هذه الميتات نتيجة لسياسة مقصودة مدبَّرة ترمي إلى الإبادة، أو نتيجة لعوامل أخرى، فإنّ هذا الأمر هو موضع مشادّة علمية خلافيّة». هنا، نجد المسعى القديم المرذول لاجتزاء الحقيقة. فالأرمن «ماتوا» ـ كما يموت الجنود، مع أن الصحافيين قلّما يشيرون إلى ضحايا المجازر بعبارة ملطَّفة مثل هذه ـ أثناء الترحيل الذي «نظمته الجيوش العثمانية». وقد حُذفت من ذلك كلمة «التركيّة». كما جاءت كلمة «نظمته» بدلاً من «ارتكبته» التي تعني أننا نتكلّم عن إبادة. ثم لدينا في آخر الأمر «المشادَّة». فحقيقة إبادة الأرمن لا تزال قيد «المشادَّة» التي هي «شديدة وحادّة»؛ فضلاً عن أن هذه المشادّة «خلافيّة وعلميّة».

وأعتقد أني أعرف هويّة «العالِم» الذي تفكّر فيه الجريدة: إنه هيث لوري، أستاذ أتاتورك المتخصّص في الدراسات العثمانية والتركية الحديثة في جامعة «برنستون»، والذي كتب عدّة كرّاسات دعائية ـ نُشرت في تركيا ـ حاول فيها أن يضعف طرح فكرة الإبادة الأرمنية. وقد أحسن «بيتر بالاكيان» والمؤرّخ «روبرت تجاي ليفتون» باستقصاء عمل لوري. فقد ذهب لوري إلى تركيا حاملاً شهادة الدكتوراه في الدراسات العثمانية، واشتغل في معهد للبحوث في إسطنبول كما حاضر في جامعة البوسفور، وعاد إلى أميركا خلال عام ١٩٨٦، ليصبح مديراً

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لمعهد الدراسات التركية في واشنطن العاصمة. وقد أقامت الحكومة التركية هذا المعهد. وفيه كتب «لوري» مقالات ينكر فيها الإبادة التي حصلت عام ١٩١٥؛ كما سعى في الكونغرس لإحباط القرارات التذكارية بخصوص إبادة الأرمن.

ولكنّ المدهش في هذا الأمر أنه عندما كتب السفير التركي في واشنطن نوزهيت كامديمر إلى روبرت تجاي ليفتون يشتكي بشأن الإشارة إلى إبادة الأرمن في كتابه الجديد «الأطبّاء النازيون»، ضمَّن هذا الدبلوماسي عرَضاً رسالة من لوري إلى السفارة كانت النسخة الأصلية التي اعتمدها السفير وأرسلها إلى ليفتون ذاته. وبتعبير آخر، كان لوري يخبر السفير التركي كيف يعترض على مرجعيّات الإشارة إلى الإبادة، مضيفاً أنه «شدّد تكراراً، خطيّاً وشفهيّاً، على اهتمامه بالمؤرّخين الذين اعتمد «ليفتون» على كتاباتهم، بمن فيهم «فاهاكن دادْريان» الذي لا يكلّ ولا يملّ. فماذا كان لوري يفعل في نصحه للحكومة التركية بكيفيّة إنكار الإبادة الأرمنية؟

وكان هناك أساتذة كراسٍ جامعية في الدراسات التركية في هارفارد وجورج تاون، وإنديانا، وبورتلاند ستايت، وشيكاغو. والمؤهّلات المطلوبة من شاغلي هذه المناصب الجامعية هي أن يكونوا قد قاموا ببحوث في محفوظات في تركيا (تلك المحفوظات التي لا تُفتح للمؤرّخين الذين ينتقدون تلك البلاد)، وأن تكون لديهم علاقات ودِّية مع الحوزة الأكاديمية التركية ـ وهو الأمر الذي لن يحوزوه إذا تصدّوا لجوهر الإبادة الأرمنية. وقد كان لدى جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس (UCLA) الشجاعة في أن ترفض إقامة هذا الكرسيّ. ومن المعلوم أن جميع شاغلي هذه الكراسي يعتقدون بأنه يجب على المؤرّخين أن يقرّروا الحقيقة، أي التعبير الذي يعني هنا منع إدراج الإثباتات التي يُدلي بها الناجون من المجازر الذين يتناقص عددهم تدريجاً. وكلّ هذا أهاب بمئة وخمسين عالماً ومؤرّخاً أن يناشدوا تركيا كي تنهي حملة الإنكار التي تقوم بها. وقائمة هؤلاء العلماء تشمل: ليفتون، وإسرائيل تشارني، ويهودا بوير، وهوارد زن، وديبورا ليپستاد. ولكنهم خابوا في مسعاهم. وكان إيلي ويزل هو الذي قال أولاً إن إنكار الإبادة هو «قتل مزدوج»: ذبح الضحايا أولاً ـ ثم قلب

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

موتهم إلى إنكار للحدث، وإنكار للواقع. وهكذا يموت الموتى مرّتين. والناجون يتعذّبون، ويقال لهم إنهم لا يتعذّبون، وإنهم يكذبون.

وهكذا استُعملت المدافع الثقيلة ـ تقريباً حرفيّاً ـ للتأكّد من بقاء الموضوع على حاله من الإنكار. فعندما قُدّم في الكونغرس الأميركي مشروع قرار بشأن الإبادة الأرمنية عام ٢٠٠٠، يطلب من الرئيس الأميركي كلينتون أن يشير في الذكرى السنوية الأرمنية إلى عمليات القتل على أنها إبادة، كان لمشروع القرار الأصوات الكافية لإقراره. لكنّ تركيا حذّرت واشنطن بأنها ستغلق قواعدها الجوّية أمام الطيران الأميركي الذي يطير فوق المناطق العراقية الذي يمنع فوقها الطيران. وأعلن وزير الدفاع التركي «سَباهاتن كاكما كوغلو»، أنه مستعدّ لإلغاء اتفاقيّات لشراء الأسلحة من الولايات المتّحدة الأميركية. وناصرت وزارة الخارجية الإسرائيلية موقف تركيا؛ فعمد الرئيس «كلينتون» بكلّ خزيٍ وعارٍ، إلى طلب الإجهاز على الوثيقة. وهكذا كان.

ويعمل هذا الضغط عبر الولايات المتحدة كلّها. ففي عام ١٩٩٧ مثلاً، أزال متحف جزيرة إيليس (Ellis) صوراً ونصوصاً لشهود عيان على الإبادة الأرمنية من أحد المعارض؛ كما فعل عام ١٩٩١. وفي عام ٢٠٠١، اعترض القنصل العام التركي في سان فرانسيسكو على استعمال صليب تذكاري من الحرب العالمية الأولى، كنُصب تذكاري أرمني للإبادة. وعندما استقصيتُ مسألة هذه الشكوى في سان فرانسيسكو، تبيّن أن «مركز العلماء للتدقيق التاريخي، فرع ستانفورد المزعوم، ليس له علاقة بجامعة ستانفورد، وأنه ادَّعى في إعلان نشَره في «سان فرانسيسكو كرونيكل»، أن ذلك النصب قد يصبح دعاية سياسية تبشّر بالرواية «الأرمنيّة» للتاريخ التي يقع عليها الخلاف لدى العلماء والمؤرّخين الموضوعيين»؛ حتى أن الأتراك وزّعوا نشرة إعلانية على «النادي الصيني ـ الأميركي الديمقراطي» المحلّي، ـ باللغة الصينية ـ تنذر بأن النصب قد يؤدّي إلى تنازع تاريخي حدث مثله في الماضي». وهكذا تحوّلت «المشادّة» إلى «تنازع»؛ ولكنني عرفتُ مَن هم أولئك «العلماء الموضوعيّون».

إن إنكار المحرقة الأرمنية أمر حيّ يرزق في الولايات المتّحدة الأميركية. فالمؤرّخ برنارد لويس، المناصر القويّ لإسرائيل، والمقرَّب من الرئيس جورج

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بوش لم يعد يقبل بحصول إبادة الأرمن؛ ويبدو أن آراءه لا تلقى تحدّياً في الولايات المتّحدة الأميركية. أما في فرنسا، حيث إنكار الإبادة يعتبر إثماً، فقد بدرت صرخة من الأرمن؛ وأُدين لويس من قِبل المحكمة العُليا في باريس لاقترافه خطأً، إذ قال: «إن كلمة «إبادة» هي الصيغة الأرمنية الوحيدة لهذه القصّة». ولكن، عندما اقترح مجلس الشيوخ الفرنسي في عام ٢٠٠٠ الاعتراف بالإبادة الأرمنية لعام ١٩١٥، استجاب المدير العام لوزارة الخارجية الفرنسية بتصريح يمكن أن يكون قد صدر عن السفارة التركية؛ إذ اعترض على أن يبدر هذا الاقتراح من قِبل البرلمان، لأن التاريخ «يجب أن يؤوِّله المؤرّخون». وكل ذلك يبدو رهيباً ومألوفاً؛ لكنّ مجلس الشيوخ عاد وصوَّت على المشروع في تشرين الثاني/نوفمبر، واعترفت الجمعية الوطنية الفرنسية رسميّاً بإبادة الأرمن، بعد شهرين.

ثم هبطت السماء؛ إذ ألغت الحكومة التركية صفقة تجارية لشركة «ألكاتيل» الفرنسية تبلغ قيمتها ٢٠٠ مليون دولار أميركي بخصوص آلات تجسّس فضائية، وسحبت من شركة الأسلحة «جيات» اتفاقية يبلغ مقدارها سبعة مليارات دولار أميركي ثمن دبّابات. وقد ناصرت جريدة «تركية» مقترحاً تقدّم به ٤٢ نائباً إسلامياً في البرلمان للتصويت عليه من أجل الاعتراف «بإبادة الجزائريين على أيدي الفرنسيين» ـ وكانت تلك ضربة صائبة لبلد كان دائماً متحفّظاً إزاء قسوته في حرب الجزائر من ١٩٥٤ إلى ١٩٦٢، مثلما كانت إزاء ماضي «ڤيشي» خلال الحرب العالمية الثانية ـ وذكّرت القرّاء بالمذابح الجماعية الأولى التي أصابت الجزائريين المسلمين حول «كيريتا» عام ١٩٤٥.

وكان الرئيس «جاك شيراك» دائماً يخشى مسألة القتل الجماعي الذي تعرّض له الأرمن. ففي مؤتمر صحفي له عُقد في بيروت عام ١٩٩٩ ـ حيث يعيش عشرات الألوف من أبناء الناجين من المحرقة الأولى ـ رفض أن يناقش قرار الاجتماع المقترح حول الإبادة، قائلاً: «لا أعلّق على مسألة تتعلّق بالسياسة المحلّية وأنا خارج بلادي». فتساءلت وأنا أستمع إلى هذا الجواب الشائن: هل يكون هذا جوابه على إدانة المحرقة اليهودية؟ وأفضل ما أمكن أن يفعله شيراك

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عام ٢٠٠٠ كان تصريحه بأنه يتفهّم «شواغل» الأرمن(*). لكن طلب تركيا الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، أثار المسألة من جديد. ففي الاجتماع المعقود بتاريخ ١٤ تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠٤ سأل «فرانسوا بايرو» لماذا اهتمت اللجنة الأوروبية بتجريم الزنا في النظام الجنائي التركي الجديد ـ الذي سُحب فيما بعد ـ ولكنها تجاهلت المادة (٣٠٥)، التي أقرّها البرلمان التركي، والتي تتطلّب الملاحقة في حالة «المؤامرات ضدّ الوطن»، بما في ذلك «المطالبة بالاعتراف بالإبادة الأرمنية»، بحسب لجنة العدل التركية.

ولكن من حيث الجُبن السياسي المجرَّد، يصعب إيجاد ما يضاهي أداء طوني بلير رئيس وزراء بريطانيا ـ الذي كان متلهّفاً للذهاب إلى الحرب في صربيا وفي العراق لوضع حدٍّ للعبث بحقوق الإنسان ـ فقد أعلن عام ٢٠٠٠ أنه سيكون في بريطانيا سنوياً يوم مخصّص لذكرى المحرقة اليهودية التي قام بها النازيّون ضدّ اليهود. ولكنه لم يُشِر لا من قريب ولا بعيد ـ ولو بملاحظة واحدة مثيرة للشفقة ـ إلى إعدام مليون ونصف مليون أرمني عام ١٩١٥. ألم تكن الحكومة البريطانية هي التي نشرت تقرير برايس؟ ـ لقد اعترض قادة الأرمن فوراً على هذا الحذف الغريب المتنافر، وطلبوا تضمين محرقتهم في ذلك الحدث. لكنّ استجابة الحكومة البريطانية كانت نوعاً من المراوغة الكلامية المخزية.

وقد قال نيل فرايتر من «وحدة المساواة العِرقيّة» ـ حيث هذا الاسم وحده يتكلّم مجلّدات عن التوجّه السياسي الصحيح لإدارة بلير ـ إن تلك الفظائع هي «مأساة مروِّعة»؛ وقد بلّغت الحكومة «تعاطفها» مع القضية إلى أبناء الضحايا. وإن «وحدته» طلبت من «اللجنة التوجيهية لذكرى يوم المحرقة» أن تدرس الموضوع. ولكن «بعد كامل الدرس والتمحيص» قرّرت اللجنة أن لا تغيّر خططها الاحتفالية بذلك اليوم. فقد أرادت اللجنة التوجيهية، بحسب قول فرايتر

(*) ممّا يدعو إلى الاستغراب أن الخطوط الجوية الفرنسية «إيرفرانس»، لم يكن لديها أيّ تخوف من مناقشة حمّام الدم الأرمني. ففي عام ١٩٩٩، نشرت مجلّتها التي تُستخدم على متنها مقالاً حول معرض فوتوغرافي للقتل الجماعي. مشيرة إلى «الإبادة التي لا يزال الأتراك ينكرونها اليوم». ومع ذلك ما زالت «إيرفرانس» تقوم برحلاتها العادية إلى تركيا.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أن تتجنّب المخاطر التي تجعل الرسالة مائعة جدّاً، لدى إدخال كثير من الأحداث التاريخية فيها». فهدف يوم المحرقة، كما وعظ، هو «تأمين تفهّم أكبر لقضايا «الإبادة»، والترويج لمجتمع ديمقراطي ومتسامح، يحترم التنوّع ويحتفل به، متحرّراً من التحيّز والتمييز العنصري».

وهكذا يبدو أن مجرّد ذكر إبادة الأرمن قد «يميّع رسالة» يوم المحرقة! وحدث كل ذلك بسبب «تمرين الاستشارة «الذي تمّ في وايتهول (Whitehall). فعقد «تمارين الاستشارة» خصيصة تميِّز إدارة بلير؛ وهي التي تقرّر أيّة جماعة عِرقيّة لها الحقّ في الاحتفال بذكرى معاناتها، وأيّة جماعة أخرى تُستأصل من كتب التاريخ دون رحمة أو شفقة. وبالطبع، لم ترد كلمة «تركيا» في أيّ ناحية من نواحي مراسلات فرايتر. لكنه كتب رسالة أخرى مدهشة بقلّة إحساسها، إلى «أرمن لوكاس» أحد رجال الأعمال المرموقين في فرنسا، وكرَّر فيها التفكير ذاته حول التعاطف مع الأرمن، مضيفاً إلى ذلك أن الحكومة البريطانية قد تلقّت طلبات لفحص فظائع أخرى، بما فيها «الحروب الصليبية، والعبودية، والاستعمار، وضحايا حُكم ستالين، وحرب «البوير». وهكذا، طوَّت الحكومة البريطانية الآن إبادة الأرمن مع حرب البابا «أوربان» الثاني في القرن الحادي عشر الميلادي ضدّ المسلمين في الشرق الأوسط. وقد جادل رئيس الكلّية الإنجيلية الأرمنية في بيروت، بمنطق قوي، مفنّداً قرار لجنة «فرايتر» بقوله: «أي عمل تذكاري يستحقّ هذا الاسم، يجب أن يشمل بداية عمليات الإبادة؛ ولا سيّما التي حدثت خلال القرن العشرين الميلادي، وبخاصّة إذا كان تناسي إحداها شجّع على حصول الإبادة التالية».

وقد طُلب من هيئة الإذاعة البريطانية أن تنظّم الاحتفال باليوم التذكاري للمحرقة اليهودية. وعندما أثار لوكاس قضيّة حذف إبادة الأرمن مع «بريتين ـ كاتلن» المخرج المسؤول، أقرّ هذا الأخير بأن «المكتب البيتي» (Home Office) «احتفظ بالضبط الإجمالي لتحرير الموادّ التي ستقدّم». وتلا ذلك نموذج من الغطرسة السياسية التي تقطع الأنفاس، إذ أعلن بريتين ـ كاتلين: «إن إطارنا المرجعي لا يشمل فترة ١٩١٥ ـ ١٩٢٠، وبحسب شروط الحدث، لم يكن في حُسباننا أن نستعرض كل فظائع القرن العشرين الميلادي في موجزنا». ثم أردف

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يقول: «ولكن هناك إذاعة خارجية تُذاع على الإذاعة البريطانية الثانية تشمل الإشارة المختصرة إلى الإبادة الأرمنية». لنلاحظْ كيف أن الرسالة تتجنّب القضيّة الحقيقية. إن لوكاس لم يكن يسأل عمّا إذا كان إطار الإذاعة البريطانية التاريخي المرجعي ـ مهما كانت طبيعة ذلك الإطار ـ يتضمّن قضيّة إبادة الأرمن، بل لماذا لا يتضمّنها؟ فإذا لم يكن في حُسبان موجز الإذاعة البريطانية أن تشمل كل فظائع القرن العشرين، فالسؤال هو: لِمَ لا تشملها ـ ولِمَ لا تشمل الأرمن؟ ففي آخر الأمر، لا بدّ من الرأفة بمئات الآلاف من أولئك المذبوحين من الرجال، والنساء المغتصبات، والأولاد، والإشارة إلى وضعهم ـ ولو كانت إشارة مُقتضَبة. ولكن «بريتين ـ كاتلن» أورد عبارة «إبادة»؛ وربّما كانت تلك هفوة بيروقراطية. ولكن كان من العسير تدبيج رسالة أكثر استعلاء إلى رجل اضطُهد شعبه بقساوة.

وكل هذا التعتيم بُني على مقولة ساخرة صدرت عن حكومة بلير، مُفادها أنها تستطيع أن تتسترّ بإنكار الإبادة، ولا تتعرّض لعواقب وخيمة، بل تحافظ على علاقات جيّدة مع تركيا. وكانت الرسالة واضحة جداً عام ١٩٩٩، عندما صرّحت الحكومة البريطانية في جواب لها بمجلس اللوردات بالقول «إنه في غياب الإثباتات غير المُلتبسة التي تظهر أن الإدارة العثمانية اتخذت قراراً باستئصال شأفة الأرمن الموجودين تحت سيطرتها في ذلك الوقت، لم تعترف الحكومة البريطانية بأن أحداث ١٩١٥ و١٩١٦ هي «إبادة». فإذا كان هذا التصريح صحيحاً ـ أي إذا لم تكن هناك «إثباتات غير مُلتبسة، لحصول الإبادة عام ١٩١٥ ـ فلا بدّ أن تكون الحكومة البريطانية تعتقد أن برايس، في تقريره، وتشرشل، ولويد جورج، والدبلوماسيين الأميركيين المتمركزين عبر الإمبراطورية العثمانية وقت حصول المجازر، و«أرمن وَغنر» المصوّر الفوتوغرافي للمحرقة الأرمنية، والعالم «إسرائيل تشارني» ـ عدا الناجين الفعليين و١٥٠ أستاذاً وقّعوا بياناً يفيد أن المذبحة كانت عملية إبادة ـ هم كلّهم مخادعون. وهذا طبعاً غير صحيح. وكانت البارونة «رمساي أُف كارتڤالي» هي التي أطلقت هذا التصريح الكاذب بالنيابة عن الحكومة البريطانية، وادّعت أن هناك حكومات أخرى قليلة «خلعت لقب «إبادة» على هذه الأحداث المأساوية. وفي رأينا هذا هو

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الصحيح، لأننا لا نعتقد أن من عمل الحكومات اليوم مراجعة أحداث حصلت قبل ٨٠ سنة لتبدي موقفها منها... وفي كل حال، من هو المستفيد من اتخاذ مثل هذا الموقف؟».

بالتأكيد، ليس طوني بلير هو المستفيد. لكنّ قسماً آخر من التصريح هو أكثر إقلاقاً ـ وأكثر دلالة على موقف حكومة بلير غير الأخلاقي من التاريخ ـ عندما يقترح أن على أرمينيا وتركيا أن تحسما في ما بينهما القضايا التي تفرّقهما... «إننا لا نستطيع أن نمثّل دور صديق مساند لكلا البلدين، إذا اتخذنا موقفاً سياسياً حول قضية بالغة الحساسية لهما كليهما». إذن، إن الاعتراف بالإبادة أو إنكارها هو عمل «سياسي»؛ والقتل الجماعي هو «حدث». والحكومات لا تستطيع أن تراجع الأحداث التي حصلت «منذ أكثر من ٨٠ سنة»، وأن تتّخذ موقفاً منها. ومعنى ذلك أنه إذا صارت ألمانيا عام ٢٠٢٥ يمينية التوجّه ـ حمانا الله من هذا التطوّر ـ وأنكرت المحرقة اليهودية، قد تتراجع الحكومة البريطانية، وتقول إنها لا تستطيع أن تتّخذ موقفاً إزاء «الأحداث» التي حصلت منذ ثمانين سنة، وأن على جماعة اليهود أن «يحلّوا» هذه المشكلة مع الألمان. وهذا هو المنطق الداعي إلى أن يعمد الخلف القوي للمُبيدين العثمانيين إلى حلّ هذه القضية «الحسَّاسة» مع مَن بقي مِن سلالة الضحايا الأرمن. كما يكون البريطانيون إذ ذاك متَّبعين أيضاً ممارسات إسرائيل في التفريق بين المحرقة الأرمنية والمحرقة اليهودية، من أجل تخليق فردانيّة للتجربة اليهودية في الاضطهاد، ممّا لا يسمح لأيّ جماعة إثنية أخرى بأن تشارك فيها. وقد كرَّر سفير إسرائيل في دولة أرمينيا الشيء ذاته ببلاهة عام ٢٠٠٢(*). وكذلك فعل السفير البريطاني في أرمينيا بعد سنتيْن.

ولكن من اليسير أن يشعر المرء أنه على حقّ. فعندما رفض بلير الاعتراف بإبادة الأرمن، كتبتُ سلسلة من المقالات الغاضبة في جريدة الإندبندنت، أقول

(*) قال رفقا كوهين السفير الإسرائيلي في ياريفان بتاريخ ٥ آذار/مارس عام ٢٠٠٢: «بينما كانت إبادة الأرمن «مأساة»، تميَّزت محرقة (اليهود) بأنها «ظاهرة فذّة»؛ لأنها كانت دائمة ومُصمَّمة وترمي إلى تدمير كامل الأمّة». وبالطبع أصدرت الحكومة الأرمنية في ياريفان مذكّرة اعتراض دبلوماسية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فيها إن اليوم التذكاري للمحرقة يستبعد الأرمن ويصبح شأناً يهودياً فحسب. أجل، لقد كان الحرف الأول من كلمة "Holocaust" ـ «محرقة» ـ مطبوعاً بشكل كبير (H) عندما يتعلّق باليهود. وكنتُ أنا موافقاً على ذلك دائماً.

فالقتل العِرقيّ على هذا النطاق الواسع ـ أي إعدام هتلر لستّة ملايين من اليهود ـ يستحقّ هذا الحرف الكبير. ولكنني أعتقد أيضاً أن إبادة الأعراق الأخرى ـ من أيّ جنس كانت ـ تستحقّ أيضاً حرفاً كبيراً مماثلاً. وهكذا كتبت على طول صفحة مركزية في مقالي. ثم اجتمعت مع أحد معارفي من الأرمن، وذكرت له أني فعلت ذلك، بمعنى أنني اعتمدت الحرف الكبير (H) عندما أشرت إلى «المحرقة الأرمنية» في مقالي. وقلّما تصوّرت أن الموتى سينهضون من قبورهم بسرعة من أجل تعدادهم. فحالما ظهر مقالي في الإندبندنت، ـ تلك الجريدة التي لم تألُ أبداً في نبش أعمال الشرّ البشري التي أصابت أيّ عِرق وأيّ معتقد ـ بقيت مرجعيّاتي الدالّة على أول حرف من «المحرقة اليهودية» بحرف كبير؛ ولكن، أُعيد أول حرف من عبارة "Armenian Holocaust" ـ «المحرقة الأرمنية» ـ إلى حجمه الصغير (h)(*). ولذلك قال لي صاحبي الأرمني

(*) لم تكن هناك مؤامرات في جريدة الإندبندنت، بل كانت هناك قاعدة داخلية صلبة متّبعة، تُطبّق أسلوب «الاستعمال العادي» في الجريدة. وبحسب هذه القاعدة، كان أول حرف من كلمة Holocaust عندما يتعلّق الأمر بـ «المحرقة اليهودية» يطبع كبيراً وحده، دون سائر بدايات المحارق الأخرى. ولا يعرف أحد تماماً لماذا ـ وهذه الممارسة ذاتها متّبعة في سائر الجرائد والكتب عبر العالم كلّه؛ مع أنها كانت في مركز مجموعة في الولايات المتّحدة الأميركية، حيث لم تتمّ الموافقة في جامعة هارفارد على إقامة «كرسيّ للمحرقة وللدراسات المشابهة»، لأن الأكاديميين اعترضوا على جمع إبادات الشعوب الأخرى ـ بمن فيهم الأرمن ـ في سلّة واحدة تسمّى «المشابهة» (Cognate). ولكن، كل هذا لا يجيب عن الأسئلة التي طرحها صديقي الأرمني. ولو قلنا له إن شبهه لا يستحقّ حرفاً كبيراً أولاً، لكان ذلك عاراً علينا، كما كان إهانة له ولشعبه. إن «الاستعمال العادي» نعمة لكل الصحافيين؛ لكنه ليس مقدّساً، ولا يجدر أن يبقى على حاله. وقد أخبرت رئيس تحرير جريدتي أن والدي مثلاً، حارب في ما سمّاه «الحرب الكبرى»؛ لكن الاستعمال العادي لتلك الحرب تعدّل عام ١٩٤٥ إلى «الحرب العالمية الأولى». وقد تساءلت في مقالي عمّا: «يقبع وراء الحرف الكبير. كم جمجمة أخرى تلزم لتلتحف رمال سوريا الشمالية؟ ألم يقتل الأتراك عدداً كافياً من الأرمن؟ ومنذ ذلك التاريخ طبعت جريدة «الإندبندنت» الحرف الأول الكبير للمحرقتين كليهما: محرقة اليهود، ومحرقة الأرمن.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وهو يكظم غيظه: «أخبرني يا روبرت، كيف يصبح الأرمن مستحقّين لحرف كبير في أول كلمة من محرقتهم؟ ألم يقتل الأتراك عدداً كافياً منّا؟ أو لأننا لسنا يهوداً؟».

إن جريدة الإندبندنت تطالب أكثر من غيرها من الصحف في بريطانيا أن تعترف تركيا بحقيقة قتل الأرمن. وعندما اشتكت السفارة التركية رسمياً في آب/ أغسطس عام ٢٠٠٠، طالبة إحداث تغييرات ضمن الإشارة إلى قتل الأرمن، في «معرض الحرب الملكي» في لندن، لم يستطع الدبلوماسي التركي «محمد أتاك» سوى أن ينعت قتل الأرمن بلقب «قضيّة مؤلمة وفوضويّة». بينما نشرت الإندبندنت مقالاً افتتاحياً تساءلت فيه عن احتمال آخر، قائلة: «تصوّر، لو صرّحت الحكومة الألمانية بأن عدداً من اليهود ماتوا في الحرب العالمية الثانية، وأن ذلك كان بسبب سوء الصحّة ونتيجة للعمليات القتالية».

ولكن، حتى «معرض الحرب الملكي» ينحني أمام تركيا. فعندما نظمت تركيا، بعد سنة تقريباً، معرضاً آخر بعنوان: «جرائم ضدّ الإنسانية» ـ وهو التعبير الذي استُعمل لأوّل مرّة عام ١٩١٥ بخصوص الأرمن ـ شمل المعرض لوحة كاملة في القسم الأرمني تنصّ على إنكار تركيا لحصول القتل الجماعي. وقد علّق أحد قرّائنا على زيارته لذلك المعرض الذي أُقيم إحياء لذكرى المسلمين الذين قتلهم الأرمن في بلدة ياسيليلا، بقوله: «إن ما يصدم الزائر هو استعمال اللغة ذاتها التي تُستخدم كردّ فعل على «المحرقة اليهودية»، بعد تكييفها للدلالة لا على الأرمن المقتولين، بل على الأتراك أنفسهم». مع العلم أن تركيا حاولت زعزعة مصداقية الإثباتات الفوتوغرافية لإبادة الأرمن، وطلبت من «مكتبة هلتن غيتي للصور» أن تسحب من مجموعتها ثلاث صور شهيرة للأرمن المقتولين ـ بما فيها صورة أيقونية أخذها الألماني الشجاع «أرمن وغنر». وهي تمثّل فتاة أرمنية وولديْن أرمنيين صغيرين مقتولين وممدّدين بين القُمامة عام ١٩١٥ ـ على أساس أنه لم تكن هناك إبادة. وبالفعل، سحبت مكتبة هلتن الصور من المعرض لمدّة ثلاثة أيام، لكن مدير عامّ المؤسّسة «ماثيو بطسن» صرف النظر عن الاعتراضات التركية، قائلاً: «أعتقد أن ذلك يحصل، نظراً

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لتقديم تركيا طلباً للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. إن الأتراك يريدون أن «ينظّفوا» سجلّهم التاريخي؛ ولكن ليست هذه هي الطريقة للقيام بذلك».

وإذا رجعنا الآن إلى الولايات المتّحدة الأميركية، نجد أن الأرمن قد طلبوا تعويضات من الشركات الأميركية التي عقد معها أهلهم ـ الذين قتلوا عام ١٩١٥ ـ بوليصات تأمين على حياتهم. وإذا انتظر الناجون من المحرقة اليهودية ٤٠ سنة ليحصلوا على تعويضات من شركاتهم فقد تطلّب هذا الأمر من الناجين من المحرقة الأرمنية وأبنائهم ٨٠ سنة. وأخيراً، وافقت شركة نيويورك للتأمين على الحياة على دفع ٢٠ مليون دولار أميركي؛ لكنّ رئيسها ساي سَتِرنبُرغ الذي قال إنه «دفع ثُلث المبلغ بعد القتل»، استعمل اللغة الحيادية التي تحبّذها تركيا، إذ قال: «دفعنا مباشرة، حالما اتضح أن العديد من حاملي بواليصنا من الأرمن قد هلكوا خلال الأحداث المأساوية التي حصلت عام ١٩١٥». لنلاحظْ «هلكوا» و«الأحداث المأساوية». وقد تمنَّعت أولاً عدّة شركات عن الدفع في الولايات المتّحدة الأميركية، «لأنه لم يتقدّم أحد» للمطالبة. وبهذا الصدد، قال أندرو كيفوركيان أحد أفصح المتكلّمين بين البريطانيين الأرمن عن قضية ١٩١٥: «ماذا كانوا يتوقّعون؟ هل كانوا يتوقّعون أن يتسلّموا من الأتراك ملاحظة «لمن يهمّه الأمر، نصرّح عن كل قتيل في حينه؟»».

وعندما سألت الجالية الأرمنية في الولايات المتحدة الأميركية المرشح جورج و. بوش عن سياسته إزاء قضية إبادة الأرمن، في حال انتخابه رئيساً، قال بتاريخ ١٩ شباط/فبراير عام ٢٠٠٠: «إن الأرمن أُخضعوا لحملة إبادة... وهي جريمة فظيعة في قرن مليء بالجرائم الدموية ضدّ الإنسانية. وإذا انتُخبتُ رئيساً، سأضمن أن تعترف أمّتنا بالعذاب المأساوي الذي مُنيَ به الشعب الأرمني». لكنه عندما صار رئيساً فقد شجاعته، وخاب في الوفاء بوعده للجالية الأرمنية، ولجأ إلى المداهنات الكلامية. وفي خطابه الموجّه إلى الأرمن بتاريخ ٢٤ نيسان/أبريل ٢٠٠١، وهو الذكرى ٨٦ لبداية المذبحة، لم يعد بوش يستعمل تعبير «إبادة»؛ بل «إحدى أكبر المآسي في التاريخ»، و«القتل الشائن»،

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وعن «المأساة التي شوّهت تاريخ الأرمن»، وعن «مصيرهم المرّ»، عند «نهاية الإمبراطورية العثمانية».

وبعد مرور سنة وفي مثل ذلك اليوم، لقّب بوش تلك «الإبادة» «بالمأساة المرعبة»، وتكلّم عن «القتل المروِّع»، وأشار إلى ذلك السلب الرهيب للحياة. وهكذا تبخَّرت كلمة «إبادة». كما كان هناك أيضاً ملاحظة تضليليّة عن «الجروح المؤلمة التي لم تلتئم لدى شعب أرمينيا، وفي تركيا، وحول العالم». وفي نيسان/ أبريل عام ٢٠٠٣، جاء وصف «المأساة المخيفة» و«الفاجعة الكبرى»، وبعبارة لا يدركها سوى «بوش»: «تعكس الحزن العميق الذي لا يزال ينتابهم مع جيرانهم الأتراك». لقد كان ذلك مخالفاً للطبيعة وللعقل. وكانت الحكومة التركية لا تزال تُنكر الإبادة ـ دون أن ترثي لمصير ضحايا الإبادة. وبحسب كلام «اللجنة الوطنية للأرمن في أميركا»، وبالرغم من أن بوش دعا إلى «الصفاء الأخلاقي في الشؤون الدولية»، فقد «سمح» بوش لحكومة أجنبية أن تضغط على رئيس الولايات المتحدة الأميركية وتضطرّه إلى استعمال تعابير رجراجة وبلاغية ليتجنّب التحديد الصحيح لإبادة الأرمن...».

ويجب أن نتذكّر هنا أن هذا هو الرئيس ذاته الذي اعتقد أنه «يحارب الإرهاب»، والذي ادَّعى أنه يحارب «الشرّ»؛ ولكنه عندما جابهه الإرهاب والشرّ بإثبات دامغ، على مستوى يفوق أي شيء ارتُكب بحقّ الأميركيين، بردَ، واستكان، وهرب من مواجهة الحقيقة. وفي الواقع، هناك أوقات يبدو فيها حصول الإبادة الأرمنية ـ بالنسبة إلى العديد من الأمم حول العالم ـ أخطر من أسلحة الدمار الشامل، التي كذب بوش وبلير بشأنها. وفي هذه الصورة المتوازية بل في هذا العالم الواقعي، نجد أن الأتراك هم الذين يقولون لبوش ولبلير: إما أن تكونوا معنا أو ضدّنا. وقد وقف الرجلان إلى جانب الأتراك في إنكار التاريخ.

والآن، دعوني أُلقِ بعضاً من الضوء اللمّاع الشتوي الحزين على ردّ الفعل البائس، الجبان، والخطر الذي أبداه الغرب إزاء المحرقة الأولى التي حصلت في القرن العشرين الميلادي. ففي عام ١٩٩٦، جاءت ذكرى إبادة عام ١٩١٥

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بقوّة إلى دير وستمينستر، عندما قام السير مايكل ماين، العميد الفخري لذلك الدير ـ الكنيسة، وكلَّف فناناً إيرلندياً بأن ينحت صخراً يوضع خارج أبواب البوّابات الغربية. ويقول النقش عليه: «تذكّر جميع الضحايا الأبرياء للقهر، والعنف، والحرب». كما نقش على طرفه: «ألا يعني هذا الأمر لكم شيئاً، أيها المارّون هنا؟». وقد رفعت الملكة الغطاء عن ذلك الصخر بحضور رجال ونساء عانوا في «أوشفيتز»، و«رواندا» و«البوسنة»، و«سيبيريا» و«سويتو»، و«أرمينيا». وبين هؤلاء كان يرفانت شكردميان، البالغ من العمر ٨٩ سنة، الذي خبر المجازر الأرمنية وهو طفل، وفقد معظم أفراد عائلته في غِمار تلك الإبادة.

وبعد مضيّ أشهر على الرفض الخسيس للاعتراف بحقيقة تاريخية، تفجّر غضب شعبيّ عامّ، ألزم حكومة بلير في آخر لحظة بأن تستجيب وتسمح لأكثر من ٢٠ أرمنياً بحضور الاحتفال باليوم التذكاري للمحرقة الأولى عام ٢٠٠١. وقد دُعيَ إلى ذلك الاحتفال شكردميان وناجٍ آخر من تلك الإبادة يُسمّى أنيغ بودوسيان. وقد شغل مطران الأرمن في بريطانيا مركز شرف مع سائر الأساقفة المتقدّمين في السنّ، بمن فيهم الحاخام الأكبر، وكان بين الذين أشعلوا الشموع أمام بلير وغيره من السياسيين.

ولم يطُل بذلك الزمن حتى ظهر على التلفزيون التركي شيء عجيب. فقد ألقى «تانر أكّام» الكاتب والمؤرّخ التركي محاضرات على بني قومه حول الوقائع ـ والحقيقة ـ المرتبطة بإبادة الأرمن عام ١٩١٥. وأمام جماهير المشاهدين على مستوى البلاد كلّها، نصح بالندم والتوبة، قائلاً: «إذا لم تستطيعوا أن تُقنعوا أنفسكم بأنها كانت إبادة سمّوها مجزرة إذا أردتم؛ لكنها كانت جريمة ضدّ الإنسانية... اطلبوا الصفح من الشعب الأرمني... والتزموا في تركيا بأن لا تعتبروا الانشقاق السياسي وعدم الاتفاق منذ اليوم في عداد الآثام».

وقد صعب كثيراً على جماهير المشاهدين أن يسمعوا هذا الكلام الغادر. وهكذا، قوطعت تلك المشادَّة المرّة مع أكّام التي دامت ستّ ساعات على التلفزيون، بتاريخ ٣ شباط/فبراير عام ٢٠٠١. وجاء صوت مُتعجرف على

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

التلفون يقول: «كيف تتجرّأون أن تسمحوا لهذا الرجل بأن يتكلّم؟ أسكتوه!». وكان ذلك صوت «سمرة أوزال» زوجة رئيس الجمهورية التركي السابق «تورغوت أوزال». لكنّ الدكتور أكّام لم ييأس، أو يكفّ، أو يستسلم، بل أردف: «إذا لم نُبعد أنفسنا عن الذين ارتكبوا هذه الجريمة، التي كانت جريمة إبادة، لن نظفر براحة النفس والتخلّص من هذا العبث الرهيب». وقد استعمل الكلمة التركية ـ «سويْكيريم» ـ عبر كامل البرنامج. وزاد شرحاً بقوله: «إن اللازمة الدائمة التي تقول «لسنا مذنبين، لسنا آثمين»، وما يقابلها من الانتقال إلى لوم الأرمن، الضحايا، ليس في صالح تركيا، بل يضرّها». كما استشهد بقول كمال أتاتورك مؤسّس الدولة التركية، الذي وصف بتاريخ ٢٣ نيسان/أبريل عام ١٩٢٠، «المجازر الأرمنية بأنها فعل يلفّه العار» شاجباً إيّاها.

وقد انبرى حكمت سيسيك رئيس تحرير جريدة «إيدينلينك» فوراً لشجب أقوال أكّام ووصفه «بالخائن»؛ ولكن كان هناك صحافيون آخرون أجرأ منه؛ إذ كتب «أرطغرل أوزكوك» في عموده بجريدة «مِلّييت» في اليوم ذاته عن مُرتكبي إبادة الأرمن أنهم من فئة «بول بوت»، و«بيريا»، و«ستالين»؛ وكلّما حاسبناهم على جرائمهم... استطعنا تطهير أنفسنا من هذا البلاء الذي نوصم فيه بارتكاب جريمة إبادة».

وبعد مناقشة أكّام على التلفزيون بثلاثة أعوام تماماً، تجمّع أكثر من خمس مئة مُنكر تركي ـ من أساتذة الجامعات، والمؤلّفين، والكتّاب، ودُعاة حقوق الإنسان ـ واعترضوا على منهاج تاريخ جديد يأمر المعلّمين بأن يشجبوا أمام تلامذتهم «ادّعاءات الأرمن الواهية». ولم تكن هذه هي المرّة الأولى التي جابه فيها المفكّرون الأتراك حكومتهم. وقد جرت ملاحقة ثلاثة أتراك في إسطنبول خلال آذار/مارس ١٩٩٤ لأنهم ترجموا ونشروا ١٥٠٠٠ نسخة من كتاب فرنسي حول إبادة الأرمن. وكان قد وقع حظر على ذلك الكتاب في شهر كانون الثاني/يناير من تلك السنة أصدرته محكمة الدولة الثالثة في إسطنبول؛ كما اتُّهموا بأنهم محرّضون على الشغب، وعلى التمييز العُنصريّ، والتمييز في ملكيّة الأراضي التركيّة». وقد قامت جماعة أرمنية لحقوق الإنسان بحملة لمناصرة هؤلاء.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وخلال المحرقة اليهودية، وجد يهود أوروبا أناساً صالحين من غير مِلّتهم رجالاً ونساء، يعرّضون حياتهم للخطر من أجل إنقاذ أولئك اليهود. كما لاحت أشباح مجموعة أخرى من المنقذين من خلال صفحات تقرير برايس الكبير حول المحرقة الأرمنية. وقد سجّل شاهدان أميركيّان كيف وصلت الأوامر إلى تحسين بك، حاكم «أرضروم» عام ١٩١٥، تأمره بقتل جميع الأرمن. لكنه رفض تنفيذ تلك الأوامر. وفي الواقع كان دائماً ممانعاً في إساءة معاملة الأرمن؛ إنما طغت عليه «قوة قاهرة»(*).

وكان الأرمن أنفسهم يعلّمون أولادهم في المدارس سيرة جلال باشا حاكم حلب، الذي أعلن أنه حاكم وليس جلّاداً، إذ قال: «إن من الحقّ الطبيعي للكائن البشري أن يحيا لا أن يموت». وبذلك أنقذ أرواح الآلاف، وكان الرجل الصغير ـ الصالح ـ الذي تبدو شخصيّته أحياناً من خلال تقرير برايس. وعند الترحيل من «رأس العين» كانت ماريتزا كادجيجيان شاهدة على اغتصاب الأكراد لنساء شابّات. فقد كتبت فيما بعد: «عندما كانوا يحاولون اختطاف فتاة، رجوتُ الشاويش إيومر، الرجل المارديني الذي كان عريفاً في الجيش التركي، أن يساعدنا، فلم يتوانَ عن ذلك:

«أوقفهم حالاً، ولم يسمح لهم باصطحاب (الفتاة) وأخذها معهم... وكان الأكراد الوافدون من القرى المجاورة قد هاجمونا ليلاً. وخرج إيومر الذي كان مسؤولاً عنّا، إلى أعالي التلال فوراً وخطب فيهم باللغة الكردية، ليمنعهم من مهاجمتنا. وكنّا جوعى وعطشى، ولم يكن لدينا ماء نشربه. فحمل إيومر بعضاً من أوانينا، وجاءنا بالماء من مكان بعيد... وكانت زوجة أحد أصهارنا قد وضعت طفلاً تلك الليلة... وفي اليوم التالي، بدأنا السير من

(*) وتجدر الإشارة من جهة أخرى، أن تحسين بك لم يظهر بمثل هذه الصورة الإيجابية. ولكن، ألم يكن أوسكار شندلر عضواً في الحزب النازي؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جديد، بعدما ترك العريف إيومر بعض النسوة معها، وبقي يراقبها من بعيد. ثم أركب الأم والطفل على دابّة، وألحقها بنا سالمة».

فهل هناك من قصّة أكثر إثارة من هذه نستمدّها من الحقول الدامية للمحرقة الأرمنية؟ وهكذا، أرجع إلى سؤالي الأوّليّ: أليس على الأرمن أن يحتفلوا بذكرى جميع أولئك الأتراك الشجعان الذين تصرّفوا من باب الشفقة والرحمة، ورفضوا إطاعة الأوامر؟ ومهما كان عدد هؤلاء قليلاً لسوء الظرف، ألا يكون الأرمن في حال إقرارهم بالجميل، قد اعترفوا إذ ذاك بإنسانيّتهم؟ وكيف يكون ردّ فعل الأتراك؟ هل يكون برفض تقدير هؤلاء الزملاء الأتراك الشجعان؟ أو باعتزازهم بشجاعة أولئك الأفذاذ ـ وعلى الأساس ذاته ـ قبول الاعتراف بإبادة الأرمن؟ إن «تانر أكّام» يستحقّ مثل هذا الإقدام. وكذلك العريف إيومر.

وكذلك الأرمن أيضاً. في عام ٢٠٠٢، أرسل إليّ آرام كيفوركيان نُبذة عن زيارته لموقع تشنكوش، البلدة الأرمنية في تركيا التي ولِد فيها والده. لقد وجد فيها رُكام الكنيستيْن الأرمنيّتيْن اللتيْن لا تزالان واقفتيْن. وذهب إلى المنحدر الذي قُتل فيه شعبه عام ١٩١٥، «حيث أُلزم الأرمن بخلع ثيابهم، وأوثقت أيديهم، وقد نُحِرت أعناقهم، أو حُطّمت رؤوسهم بالفؤوس، ورُمِيت أجسادهم في الحُفر». وقف كينوركيان هناك وقرأ من «ييتس» قصيدة الأمل «لابِس لازولي»:

«جاءوا على أقدامهم، أو على متون السفن،
أو ظهور الجمال، والأحصنة، والحمير، والبغال،
حضارات قديمة تحت حدّ السيف.
ووقعوا كلّهم مع حِكمتهم في حُضن العذاب:
ليس هناك شيء من أعمال «كاليماكوس»،
الذي تعامل مع الرخام وكأنه من نُحاس،
وصنع أشرعة كانت ترتفع واقفة،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عندما تهبّ ريح البحر وتضرب الزوايا.

لم تصمد المدخنة الضوئية الطويلة،

التي تشبه ساق النخلة الرفيعة،

إلّا يوماً واحداً؛

لقد سقطت كلّ الأشياء،

وها هي تُبنى من جديد...»

نحن الآن في عام ١٩٩٢، وأنا أزور موقع مارغارا على الحدود بين تركيا وأرمينيا ـ الدولة الأرمنية الحقيقية، المتحرّرة أخيراً من المعطف السوفياتي الثقيل ـ وأنظر إلى قمّة جبل أرارات المكلّلة بالثلوج وراء الحدود التركية. إن أرارات، الرمز الوطني الأرمني، يقع داخل تركيا؛ وهو مكان يُنظر إليه ويُفكَّر فيه من بعيد. وأنا أقف في حديقة ليفون كرابيجيان، فوق مزاهر البندورة (الطماطم) والخيار ومساكب البطاطا، وأشجار الكرز التي تبدو مريضة لديه؛ وأرى عَلَماً تركياً يتدلّى في حرّ الظهيرة. على سطح مركز حراسة خشبي. قال كرابيجيان: «أرى أحياناً الجنود الأتراك هناك عند تلك الشجرة الصغيرة على الجهة الأخرى من السياج»، وأتساءل: «مَن هو الأرمني الذي يريد أن يعيش على بعد ستّة أمتار من الأمّة التي قام حكّامها العثمانيون باستئصال شأفة شعبه؟».

لم يبقَ من القرويّين سوى عدد قليل، لكنّ طيور اللقلاق أكثر منهم. وهي مُعشّشة على رافعة المصنع المهجور، وعلى أعمدة التلغراف، وعلى سطح المكتبة العامّة المتداعي، وعلى قمّة منصّة الرخام التي تُمجّد ذكرى أولئك الأرمن الذين سقطوا ضحايا حرب ١٩٤١ ـ ١٩٤٥ «الحرب الوطنية الكبرى» ضدّ هتلر. وكرابيجيان هو أستاذ تاريخ في المدرسة الثانوية المحلّية، يعلّم ويربّي أولاد أولاد الذين هربوا ونجوا من الإبادة ـ أي من قرى لا تكاد تبعد ٢٥ كيلومتراً عن مكانهم الحالي في معظم الحالات، وتقع على الضفّة الأخرى من الحدود التركية ـ خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩١٥ و١٩١٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وبينما أنا أجلس مع ليفون كرابيجيان وعائلته إلى طاولة في حديقته، نأكل الكرز، صرت أسمع صوت طير الوقواق من تركيا، ممَّا تسمّيه العائلة «أرمينيا الجنوبية». وفي هذه الأثناء، أشارت زوجته إلى صفّ من أشجار الحور الواقعة وراء مركز الحراسة التركي، وقالت: «كان ذلك بيت عائلتنا. وإني أتذكّر كيف كان والدي يحملني على كتفه عندما كنت صغيرة، ويخبرني كيف كان جدّي يقوم بزرع كل تلك الأشجار».

وبعد خمس سنوات، وعلى بعد ٣٥٠٠ كيلومتر، بينما كان ضباب البحر يلتفّ حول كُثبان منطقة ساسَكْس، خلال أمسية إنكليزية رطبة، جلست أمامي أستريد أغاجانيان تصبّ لي الشاي من إبريق كبير ثقيل. إنها واحدة من أُخريات الناجيات. عمرها الآن ٨٢ سنة؛ وقد قتل الأتراك بالبندقية جدّها، وجدَّتها، وعمّتها. قالت:

> «ثابر مَن بقيَ من العائلة على المسير. وعندما وصلنا إحدى القرى، جاءنا والدي ليزورنا. وأخبر والدتي أنه سُمح له بأن يودّعنا، وأنه سيُعدم مع سائر الرجال. وقد قالت لي أمّي كلماته الأخيرة: «أفضل ما تتذكّرينني به هو الاهتمام بأستريد». لم نره منذ تلك الزيارة أبداً. وكانت مسيرتنا طويلة. جاءنا الأتراك والأكراد ليخطفوا البنات ويغتصبوهنّ. وكانت أمّي تركض من عمود إلى آخر، كلّما رأتهم يهاجموننا. وماتت جدّتي الأخرى أثناء المسيرة. وكذلك مات أخي الوليد «فارتكيس». وقد اضطُررنا إلى تركه على حافّة الطريق. وفي أحد الأيام، جاء الأتراك، وادّعوا أنهم سيجمعون الأولاد الصغار للاهتمام بهم. وقد عمدت الأمّهات اللواتي لا يستطعنَ إطعام أطفالهنّ إلى التخلّي عنهم. وقد رأت أمّي مراكمتهم للأولاد، بعضهم فوق بعض وإشعال النار بهم؛ فدفعتني تحت كومة من الجثث. ودفنت نفسها معي تحت تلك الأجساد. ولا أزال حتى اليوم لا أتحمّل البقاء في الظلام أو البقاء وحدي. لقد أنقذتني أمّي من النار. وأخبرتني فيما بعد أنها عندما

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

سمعت صراخ الأولاد، ورأت لهيب النار، كانت تتصوّر أن أرواحهم تصعد إلى السماء».

حملت والدة أستريد طفلتها في آخر الأمر إلى مخيّم للبدو، وبعدما وصلت إلى حلب ـ بمساعدة أحد الضبّاط الأتراك ـ تزوّجت ثم سافرت إلى قطاع الانتداب الجديد في فلسطين. وفي القدس قابلت أستريد زوجها المقبل غاسبار الذي عاشت عائلته هناك لعدّة أجيال خلت. ولكنّ شقاءها الأرمني لم ينتهِ. فقد اضطرّوا إلى الهرب من جديد عام ١٩٤٨ بعد نشوب الحرب بين العرب وإسرائيل، والالتجاء إلى الأردنّ ـ حيث حصل غاسبار أغاجانيان على الجنسيّة البريطانية ـ ثم انتقل إلى قُبرص. ولكن عندما غزا الأتراك الجزيرة عام ١٩٧٤ بعد حدوث الانقلاب اليوناني، فقد الزوجان أملاكهما من جديد. وهكذا صارت أستريد لاجئة هاربة من الأتراك مرّتيْن خلال القرن العشرين الميلادي. ودخل الجيش التركي إلى ما كان منزلهما. فهل يمكن أن يعذّب التاريخ شخصاً أكثر من هذا؟

يبدو أن ذلك ممكن. فقد تسلّمت عائلة أغاجانيان تعويضاً عن المنزل الذي فقدته، ولكن عندما طالب غاسبار بتعويض عن سائر ممتلكاتهما ـ مثل السجّاد العجمي، والمفروشات، ومجموعة من العُملة القديمة، وصور الأقرباء المقتولين عام ١٩١٥، وبيانو ومكتبة كبيرة من الكتب الثمينة، ممّا سرقه الأتراك ـ تلقّى رسالة من المكتب الأجنبي البريطاني تقول: «إن السلطات القُبرصيّة التركيّة. . . أصدرت تشريعاً تستبعد بموجبه مطالب الأشخاص الذين لهم علاقات يونانية أو قُبرصية ـ يونانية. ويشمل هذا الاستبعاد مَن هم مِن سُلالة الأرمن».

لم يكن الزوجان من القبارصة اليونانيين، ولم يطلبا يوماً جوازات قُبرصيّة ـ يونانية، قال غاسبار: «كنّا مواطنين بريطانيين بكل معنى الكلام؛ ولكنهم رفضوا إعطاءنا التعويضات نظراً لأصولنا العِرقيّة». وعندما علم أن مرغريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا ستزور تركيا عام ١٩٩٠ لحضور الاحتفالات التذكارية بمعركة غاليپولي عام ١٩١٥ ـ بعد دورة زمنية كاملة من تاريخ تلك الكارثة ـ كتب زوج

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أستريد إلى نائبه في البرلمان يشتكي، مضيفاً أن زوجته هي من الناجين القلائل من إبادة الأرمن؛ فجاءته رسالة من مدير المكتب الأجنبي فرانسيس مود ـ وهنا يُسمح لقارئ هذا الكتاب أن يصرخ ويستغيث ـ تقول: «مع أن الحكومة البريطانية تعتبر خسارة هذه الأعداد الكبيرة من الضحايا بمثابة مأساة. . . فقد رأينا منذ زمن بعيد صواب عدم إثارة هذا الموضوع مع الحكومة التركية الحاضرة أو اتّهامها بهذا الأمر؛ لأنه يتعلّق بأعمال حدثت منذ ٧٥ سنة خلال حُكم العثمانيين».

وهكذا لا تُعدّ قصّة «كاتش ٢٢» (Catch 22) شيئاً يذكر أمام هذا الأمر. فمن أجل المحافظة على العلاقات مع تركيا، لم تعد الحكومة البريطانية تعترف بأن إبادة الأرمن حصلت. ولكنها لا تستطيع أن تحصل على تعويضات لعائلة أغاجانيان لأن الأتراك يرفضون دفع تعويضات لمواطنين بريطانيين من أصل أرمني ـ بسبب الإبادة الأرمنية التي حصلت عام ١٩١٥. ولم يتسلّم الزوجان أيّ تعويض عن سائر ممتلكاتهما، حتى الآن.

وإذا كان ثمّة لطف دولي يمكن أن يقدّم إلى عائلة أغاجانيان، فقد جاء عام ٢٠٠٣، عندما طلبت امرأة تركية، طالبة في شيكاغو أن تراهما. فقد سافرت الفتاة، التي يجدر كِتمان اسمها لحمايتها، من تركيا إلى الولايات المتّحدة الأميركية، وعاشت بين الأرمن هناك، وأصرّت على سماع قصّة الإبادة. وقد بدأت عملاً أكاديمياً لاكتشاف ما حدث عام ١٩١٥. وبعد ظهر ذات يوم، جاءت إلى بيت خشبيّ بسيط في شورهام بجنوبيّ إنكلترا، وعبَّرت عن حزنها لأستريد، وعن ندمها لما فعله الأتراك من شعبها. وقد اصطحبت مسجِّلها، وحفظت بواسطته ذكريات أستريد أغاجانيان ـ ابتداء من وداع أبيها، إلى موت شقيقها، وحرق الأولاد الذين صعدت أرواحهم إلى السماء ـ فقد أصبحت كلّها محفوظة لدى هذه المرأة التركية الشابّة(*).

(*) وقد كتبت فيما بعد لعائلة أغاجانيان: «سأبذل جهدي للاستمرار في العمل الرامي إلى الاعتراف بالإبادة، وأحدث فرقاً ولو طفيفاً في هذا الأمر».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وفي بيروت، صار البيت الأرمني للمكفوفين بيتاً لجميع المسنّين الأرمن ـ وأصبح اليوم أدفأ ممّا كان عليه في أواخر أيام الحرب الأهليّة، فقد رُكّبت له أبواب جديدة، وتدفئة مركزية. ومع أن جميع الناجين من المحرقة الذين قابلتهم عام ١٩٩٤ قد ماتوا، كان هناك نزيلان جديدان من الناجين أيضاً؛ (ولن يكون هناك مزيد من الناجين). أوّلهما سيّدة مسنّة، لا تتذكّر سوى الأغاني التي تعلّمتها من أمّها حول فظائع المسيرة والترحيل، تنوح بها صارخة باللغة التركية، لأنه لم يتيسّر لها أن تتعلم اللغة الأرمنية؛ وعلى الموظّفين أن يفتّشوا عن ممرّضة تتكلّم التركية لتترجم لها. وقد اطّلعت على هذه الأغاني، التي جمعها بعناية ودقّة أكاديميّ أرمنيّ؛ وجاء فيها:

«الورود قادمة بكثرة كاثرة،

ما أصعب الموت عليّ،

استفقْ أيّها السلطان، أيّها السلطان المستبدّ،

إن العالم كلّه يبكي دماً».

والناجي الثاني كان رجلاً مسنّاً، مستلقياً في فراشه عند آخر الممشى. إنه هاروتيون كبدجيان يحمل بيسراه التوراة بطريقة «براي» للمكفوفين، ويشير بيمناه إلى رسائل ناتئة الورق. استقبلني بابتسامة، وهو لا يبصر. نحن الآن في عام ٢٠٠٠، وقد بلغ من العمر ٩٣ سنة؛ وكان عمره ثماني سنوات عندما نجا من الإبادة الأرمنية. ولا تزال ذاكرته واضحة مثل انفعالاته؛ قال:

«كنّا نعيش في «دورتيول». كان اسم أبي سركيس وأمّي مريم؛ وكنّا عشرة أولاد أنا وأخوتي وأخواتي. وقد جمع الأتراك كلّ الناس، مع حميرهم وأحصنتهم. وكان علينا أن نذهب إلى حلب ورأس العين. ولكنهم ابتدأوا بقتلنا على الطريق. لقد ساقونا إلى نهر الخابور؛ وحين وصلنا إلى هناك، لم يبق من عائلتي إلّا أمّي وأختي وأنا. أمرونا جميعاً من رجال ونساء أن نخلع ثيابنا. كانت أختي بنت ١٨ سنة، وجاءها خيّال فرفعها ووضعها على حصانه،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أمامنا؛ ورأيت ذلك بأمّ عينيّ؛ إذ إنني لم أكن قد فقدت بصري بعد. وابتدأوا بضرب أمّي ولمّا رجتهم أن لا يأخذوا أختي، ضربوها حتى الموت. ولا أزال أذكر صراخها وهي تموت: «هاروتيون، هاروتيون». وقد أخذني أحد رجال البدو إلى بيته؛ وبقيت هناك ثلاث سنوات. وانتهت الحرب وجاء أناس يقولون إنهم يفتّشون عن أيتام الأرمن. فقلت إني منهم، فأخذوني إلى حلب. وهناك أصاب عينيّ «فيروس» ففقدت بصري فجأة، وأنا لا أزال في الحادية عشرة من عمري. وبقيت حتى صار عمري ٢٣ سنة، وأنا مشحون بالغيظ إزاء الأتراك الذين أخذوا أختي، وضربوا أمّي حتى الموت أمامي. ولكن عندما بلغت الثالثة والعشرين من عمري، شعرت أنها ليست الطريق القويمة لأكون رجلاً. لذلك صرت أصلّي إلى اللّه تعالى كي يراني. كنت أتصالح مع نفسي. والآن أنا مستعدّ لملاقاة ربي. إني في سلام. وفي العام الماضي عندما حصلت الهزّة الأرضية الكبرى في تركيا قُتل كثيرون من الأتراك. وقد صلّيت من أجل أولئك الأتراك ـ لقد صلّيت من أجل أولئك الأتراك الفقراء».

This file was downloaded from QuranicThought.com

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفصل الثالث

خمسون ألف مِيل عن فلسطين

«لم نَعد نُؤمن بهؤلاء الشياطين المُشَعوِذين،
الذين يُراوغوننا ويساوموننا على الوجهيْن،
إذ يُغدقون علينا الوعود،
وينكثون تلك الوعود، فيحبطون أملنا»

شكسبير في «ماكبِث»

غربيّ مقبرة «الشهداء» الفلسطينيين، التي تحيط بها قبور للفدائيين الفلسطينيين والجنود السوريين الذين راحوا ضحية غزو إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢، وفي زاوية هذه المقبرة يرتفع عن الأرض قبر يحيط به جدار من الإسمنت العاديّ، وتزيّنه بعض الزهور الذابلة على بلاطة القبر التي أصابتها القذائف، وتضرّرت قاعدتها كأنّ أحداً حاول أن يدخل إلى الضريح. ولكنّ النقش العربيّ عليها لا يزال واضح المعالم:

«ضريح المُفتي الأكبر... الحاج محمّد أمين الحُسيْني، زعيم اللجنة الفلسطينية العربية العليا، ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى؛ المولود في القُدس عام ١٨٩٧، والمتوفّى في بيروت عام ١٩٧٤».

وتُظهر الصور الفوتوغرافية المنشورة في العدد الصيفي التذكاري من مجلّة «فلطسين»، المجلّة السياسية التي تصدر أربع مرّات في السنة، والتي أسّسها الحاج أمين قبل عقد من الزمان، مجموعةً من مُعلني الحداد قُرب الضريح، قبل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

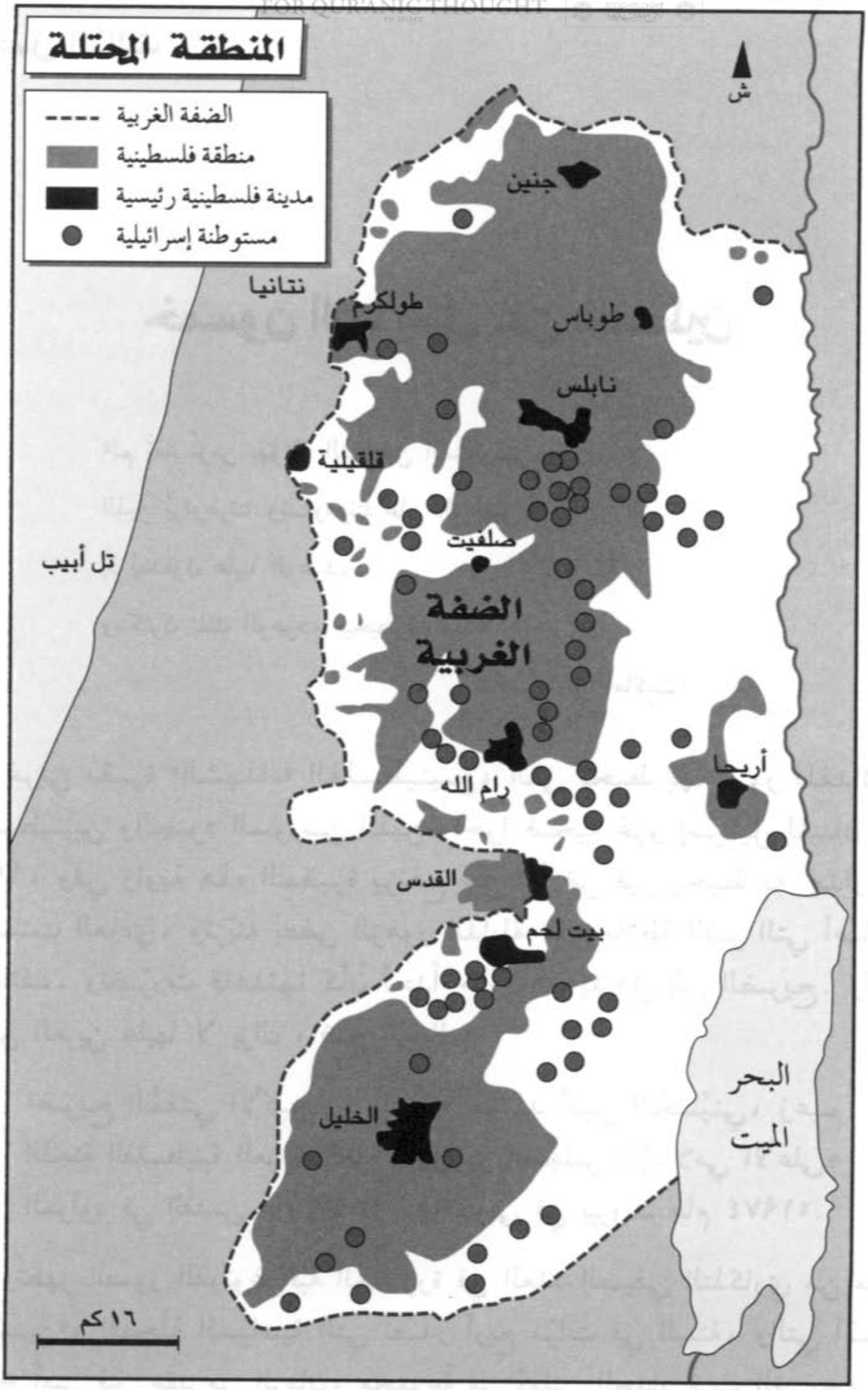

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حوالى سنة من بدء الحرب اللبنانية الأهلية. ويبدو في الصورة شفيق الحوت سفير منظّمة التحرير الفلسطينية في بيروت، وعدد من رؤساء الوزراء السابقين في لبنان الملتفّين حول الشيخ حسن خالد، المفتي الأكبر اللبناني، وإلى يسارهم وجه ياسِر عرفات بنظّارته الشمسيّة وكوفيّته فوق وجهه الأصغر سنّاً وإنما المعروف المعالم، وهو يُمسك بيده منديلاً يُطبق به على فمه.

أمّا صُوَر الأرشيف المنشورة في العدد ذاته، فتُظهر المفتي الأكبر ـ وهو الأعلى مقاماً دينياً وأهمّ زعيم مُنتخب في فلسطين ـ جالساً باعتزاز بين مقاتلين فلسطينيين، خلال تمرّد عام ١٩٣٦ العربيّ ضدّ الحُكم البريطاني في فلسطين؛ وهو يلبس ثوبه المذهّب الأطراف قرب المندوب الفلسطيني إلى عُصبة الأمم في جنيف. إنه رجل طويل القامة، ذو عينين واسعتيْن جدّيتيْن، وذقن مُشذّبة بعناية، تنضح سيماه، حتى في الصور القديمة، بجاذبيّة الزعيم الذي لا يزال مُريدوه يتكلّمون عنها؛ بينما يتحدّث الذين يعرفونه عن عينيه الزرقاوين، اللامعتيْن، غير العاديّتيْن.

ولكنْ هناك صُوَر فوتوغرافية أرشيفيّة أخرى، لم تنشرها مجلّة «فلسطين»، صور أكثر إقلاقاً من صُوَر وداع أخير لرجل وُصف خلال جنازته بأنه «شيخ المتمرّدين، وإمام الفلسطينيّين». وتظهره هذه الصوَر جالساً على كرسيّ عالي الظهر، مُرتدياً عمامته وثوبه الأسود، يُصغي إلى رجل قصير الشعر أشعث الشاربيْن، يلبس بِزّة عسكرية ويلوّح بيده اليسرى. هذا الرجل هو أدولف هتلر، وقد ظهر على كُمّه الأيسر شعار النسر الألماني حاملاً الصليب المعقوف. والمكان هو برلين، والتاريخ هو ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤١. وكانت هناك صور أخرى من تلك الأيام: الحاج أمين في التجمّعات النازِيّة في برلين، والحاج أمين يصافحه «هنريك هيملر»، والحاجّ أمين يرفع يده اليمنى بالتحية النازِيّة، ويتفقّد المجنّدين حديثاً من البوسنيّين المسلمين الذين انضمّوا إلى «الفيرماخت».

وربّما لا يكون مفاجئاً بعد أكثر من ثلاثين سنة على وفاته، أن يبقى اسم الحاجّ أمين الحسيني، مُفتي القدس الأكبر، مثيراً للحماس لدى الفلسطينيين وللمقت لدى الإسرائيليين. تذكُرْ تكريسه جهده لقضية العرب الفلسطينيين،

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ورفضه التسوية عندما عرضت عليه حكومة الانتداب البريطانية تقسيم البلاد، وكيف يَسأل الإسرائيليون لماذا لا يُدان الحاج أمين بصفته مجرم حرب نازيّاً - كما يصوّرونه اليوم في نُصب المحرقة التذكاري «بياد ناشيم» غربيّ القدس. تمعّن في دوافعه لمسايرة هتلر، تلك المسألة التي يشير إليها الفلسطينيون بانزعاج أحياناً على أنها «الفترة الألمانية». كما يسألك الفلسطينيون لماذا ترغب في دعم حملة الافتراء «الصهيونية» الموجّهة ضدّ ذكرى الرجل المسنّ؟ فمجرّد البحث في سيرة حياته يُلقيك في أتون الحرب الدعائية بين العرب والإسرائيليين. فالتقويم النزيه لسيرة الرجل - وبالتالي التأريخ غير المتحيِّز للنزاع العربي الإسرائيلي - يشبه امتطاء درّاجتيْن في الوقت ذاته. وقد نصحني أحد معاونيه السابقين، عندما طلبت منه أن يسرد لي بعض ذكرياته عن المفتي الأكبر، بقوله: «أنصحك بأن تكتب عن الحاجّ أمين بعد أن تتقاعد، فقد يكون من الخطر عليك إخراج سيرة حياته».

ومن المؤكّد أنه قلّما ظهر اسم الحاجّ أمين الحسيني في خُطب ياسر عرفات خلال الربع الأخير من القرن العشرين؛ وليس ذلك بسبب تعاونه مع النازيّين فحسب. فقد أعطاني العَالِم الفلسطيني إدوارد سعيد، عندما كنّا جالسين نستريح في إحدى حدائق بيروت سبباً آخر لهذا التحفّظ، «كنت جالساً مع عرفات عام ١٩٨٥، عندما وضع يده على رُكبتي، وقبض عليها بقوّة قائلاً: «يا إدوارد، إذا كان هناك شيء واحد لا أريد أن أكونه، فهو أن أكون مثل الحاجّ أمين. لقد كان دائماً على حقّ، ولم يحظَ بشيء، ومات في المنفى». ولكن في عام ١٩٩٠، كان على عرفات أن يتبع بشكل مُستغرَب مصيراً مشابهاً. فكما سافر الحاجّ أمين إلى بغداد ومن ثمّ إلى برلين - معتقداً أن هتلر يمكن أن يضمن استقلال فلسطين عن الحكم البريطاني ووقف الهجرة اليهودية - كذلك سافر رئيس منظمة التحرير الفلسطينية إلى بغداد ليحضن صدّام حسين بعد غزو العراق للكويت، مقتنعاً بصحّة وعد صدّام بتحرير الأرض المسمّاة فلسطين. ولا عجب إذن أن يُثير شبح الحاجّ أمين قشعريرة لدى الوكلاء على منظمة التحرير الفلسطينية. وكان مُفتي القدس الأكبر قد ألَّف حكومة عام ١٩٤٨ لما تبقّى له

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

من تلك البلاد، لكنها لم تعش طويلاً ـ على شاكلة السلطة الفلسطينية، التي كانت تجتمع في حدود فندق رثّ في غزّة.

لكنّ وقائع حياة الحاجّ أمين موثّقة تماماً. فقد وُلِد في القُدس في السنوات الأخيرة من الحُكم العثماني في عائلة تسلسل تاريخها إلى النبيّ الكريم؛ وتعلّم في المدارس الإسلامية، وفي جامعة الأزهر في القاهرة، قبل أن يخدم مدّة قصيرة كضابط في الجيش التركي خلال الحرب العالمية الأولى؛ تلك الحرب التي أصدر فيها البريطانيون وعدَيْن متناقضيْن. فقد وعدوا العرب بالاستقلال من جهة، مكافأةً لهم على تحالفهم معهم ضدّ الأتراك. وأعلن اللورد «بلفور» من جهة أخرى دعمه لوطن قومي يهودي في فلسطين المأهولة بغالبيّتها من قبل الفلسطينيين العرب. ومن هذه الخُدع، برز الحاجّ أمين كقوميّ عربيّ، وكخصم لا يُهاود ضدّ الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

ولمّا اتُّهم بإثارة العُنف ضدّ اليهود والبريطانيين عام ١٩٢٠، هرب الحاجّ أمين إلى شرقيّ الأردن، ثم إلى دمشق، حيث احتُفل به كبطل قومي. ومن باب المفارقة التهكّمية، كان البريطانيون ـ الذين بُهروا بمكانة عائلته وموقفه القومي بين العرب الفلسطينيين ـ هم الذين هندسوا انتخابه لمركز المفتي الأكبر. فأسرع الحاجّ أمين إلى تدويل القضية الفلسطينية بين البلدان الإسلامية، وضمن أيضاً انتخابه للمجلس الإسلامي الأعلى الذي كان يُسيطر على الهبات، والمحاكم وسائر المؤسّسات الدينية. ومن نافل القول إنه كان واحداً بين كثير من العرب الذين كان يمكن أن يُرفعوا إلى مقامات أسمى بواسطة القوى الغربية ـ لكنه أُنزل إلى الدَّرْكِ الأسفل عندما خالف سياساتهم.

وعلى شاكلة الملك حُسين، ملك الأردنّ، باشر الحاجّ أمين مشروعاً لترميم قُبّة الصخرة والجامع الأقصى في القدس. وهو الأمر الذي أكسبه شعبيّة كبرى في المناطق الريفية من فلسطين. ويذكر شفيق الحوت أن مصادر القوّة والنفوذ لدى الحاجّ أمين كانت متمثّلة بأئمة المساجد والقرويّين؛ بينما كان العرب في المجالس البلديّة مُناصرين للإنكليز؛ قال: «وقد اعتبرْنا نحن، الناس العاديّون، رؤساء البلديّات خائنين لأنهم كانوا ضدّ الحاجّ أمين». وفي آب/ أغسطس عام

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

١٩٢٨ أثارت الخُطب التي ألقاها الحاجّ أمين وغيره من الزعماء المسلمين شغباً قُتل أثناءه ستّة يهود في الخليل.

وكان من بين خصوم الحاجّ أمين، راغب النشاشيبي، رئيس بلديّة القدس، كواحد من الفلسطينيين الذين أبوا أن يتقبّلوا رجلاً لا يقبل التسوية بأيّة حال من الأحوال. وفي عام ١٩٣٠، بدا أن البريطانيين استعدّوا لتقييد هجرة اليهود وشرائهم للأراضي في فلسطين. ولكن عندما أصرّ الحاجّ أمين على إقامة «حكومة وطنية» أيضاً، خفّ اهتمام البريطانيين بذلك. وعندما أوقف البريطانيون الزعماء الفلسطينيين القوميّين خلال تمرّد الأعوام ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩، هرب الحاجّ أمين سرّاً إلى لبنان. وقبل نشوب الحرب العالمية الثانية مباشرة، قام البريطانيون بمبادرة تجاه القضيّة العربية، فدعوا إلى طاولة مستديرة عربية لمناقشة قضيّة فلسطين. والحاجّ أمين ـ الذي منعه البريطانيون من حضور المباحثات ـ أصرّ على «أن توقف بريطانيا مساعيها لإنشاء وطن قومي يهودي، وإعطاء فلسطين استقلالها». وهكذا خاب المؤتمر. وصدرت بعد ذلك ورقة بيضاء بريطانية تدعو إلى التخلّي عن وعد «بلفور» لليهود، واقترحت إقامة دولة بأكثرية عربية خلال عشر سنوات. فرفض الحاجّ أمين ما سمّاه «مالكوم ماكدونالد»، وزير المستعمرات الإنكليزي «فُرصة ذهبيّة». وفيما بعد، اتُّهم «عرفات» بتصلّب مماثل لعدم إطاعته الرغبات الإسرائيلية والأميركية.

وخاف الحاجّ أمين من أن تعتقله قوّات الانتداب الفرنسي على لبنان، فهرب من جديد إلى العراق، حيث استُقبل كبطل فلسطيني. ولكنّه نقض بسرعة وعده المُعطى إلى نوري السعيد، رئيس الوزراء العراقي، بأن لا يتدخّل في السياسات الداخلية. فقد اعتقد الحاجّ أمين أن انتصار البريطانيين سيقضي على فلسطين، وبناء عليه دعم رشيد عالي الكيلاني المناصر لدول المِحْوَر، بصفته خليفة لنوري السعيد؛ وكتب إلى هتلر رسالة طويلة غاضبة يلخّص فيها المأزق الذي صار إليه العرب الفلسطينيون في مواجهة ما سمّاه «التهويد العالمي»، هذا العدوّ الخطِر، صاحب الأسلحة السرّية ـ المتمثّلة بالأموال، والفساد، والمكائد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ـ والمتحالف مع «الخناجر البريطانية» حتى انتهى إلى تمنّيات «بفوز هتلر فوزاً ساحقاً، وازدهار الشعب الألماني العظيم...».

وكان نديم دمشقيّة، الذي صار فيما بعد سفيراً للبنان في الأمم المتحدة، مُعلّماً في بغداد آنذاك. وكان يزور الحاجّ أمين غالباً. قال لي بعد نصف قرن: «أظنّ أن الحاجّ أمين اقترف خطأً بتورّطه في السياسة العراقية الداخلية؛ إذ إنّ الناس الذين تورّط معهم كانوا جامحين وغير مسؤولين. ولكن أين كان يمكنه أن يذهب؟ إلى أميركا؟ إلى بريطانيا؟ لقد كان يأمل أن يناصر العراقُ ألمانيا، ممّا كان من شأنه أن يجعل العرب في موقف أقوى للمفاوضة بشأن فلسطين عندما تنتهي الحرب لصالح هتلر. فقد كان الحاجّ أمين يردّد أمامنا: «لنأملْ أن لا يخسر الألمان الحرب».

وعندما غزا البريطانيون العراق عام ١٩٤١(*)، حاول الحاجّ أمين تنظيم فِرقة من الفلسطينيين الذين يعيشون في بغداد ليقاتلوا إلى جانب العراقيين. وقد ذهبت عناصر من هذه الفِرقة إلى «أبو غريب» لمواجهة القوّة الغازية، فوجدوا أن العراقيين كانوا قد انهاروا. ولذلك هرب الحاجّ أمين مرّة ثانية إلى إيران، حيث طلب اللجوء إلى أفغانستان. لكنه رفض اقتراح كابول بأن يجتاز الحدود ويهرب عبر تركيا إلى دول المحور في أوروبا، كخطوة سياسية نهائية. وهكذا صار الحاجّ أمين في نظر الفلسطينيّين رهينة للتاريخ، كرجل أجبرته وطنيّته على الالتجاء إلى الحليف الوحيد المتيسّر له. وكان هذا عملاً لا يُغتفر، في نظر الناجين من المحرقة اليهودية ـ فضلاً عن سائر اليهود في العالم.

وكان واصف كمال مُناصراً للحاجّ أمين في بغداد، وقد وجد لنفسه طريقاً توصله إلى ألمانيا النازية عبر حكم «ڤيشي» في سوريا، ومنها إلى تركيّا، وبلغاريا عام ١٩٤١. وصار عمره في منتصف التسعينيّات من القرن العشرين الميلادي ٨٧ سنة، وأصبح الناجي الوحيد من مجتمع برلين أيّام الحرب المشتعلة. وقد قال لي عام ١٩٩٤: «إن معظم الفلسطينيين والعرب الذي كانوا

(*) انظر الفصل الخامس.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

في ألمانيا آنذاك تحلَّقوا حول الحاجّ أمين ورشيد عالي الكيلاني الذي وصل أيضاً إلى برلين». ثم أردف:

«معظمهم فضّلوا المفتي الأكبر. وصرت أحد معاونيه الكبار في برلين، حيث قرّرنا إنشاء منظمة دعوناها «جمعية الطلّاب العرب في ألمانيا». وقد اعتُبر الحاجّ أمين رئيساً للدولة تقريباً من قِبل الحكومتيْن الإيطالية والألمانية. وحصل اتفاق تُقدِّم بموجبه دول المحور سُلفات مؤقّتة إلى الحاجّ أمين ورشيد عالي الكيلاني ـ تُدفع فيما بعد بواسطة الدول العربية التي ستتشكّل بعد انتصار المحور. فأُعطي الرجلان راتباً. أما أنا فقد عوملت كلاجئ؛ لكنّنا تلقّينا أربعة أضعاف الحِصص التي كانت تُعطى للمواطنين الألمان، وعاملونا معاملة حسنة. ولكن خابت كل الجهود التي بذلها الحاجّ أمين ورشيد عالي الكيلاني لإقناع «هتلر» و«موسوليني» بتوقيع معاهدة مع الزعماء العرب، تضمن نشوء دولة عربية مستقلّة، وتدمير «الوطن القومي» الصهيوني. وكل ما قالوه على الراديو العربي كان: نحن مع الشعب العربي، ومع حيازته الاستقلال. لكنهم لم يقبلوا بوضع اتفاقيّة أبداً».

وعندما قابل الحاجّ أمين هتلر أخيراً في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٤١، حصل المفتي الأكبر على وعد شفهي من «الفوهرر» بأنه «عندما تصل ألمانيا إلى جنوبيّ القوقاز، يحين موعد تحرير العرب ـ ويمكنك الوثوق بكلمتي». وصرف الحاجّ أمين النظر عن أن كلمة هتلر تكون غالباً كاذبة؛ إنما سجّل كيف أن هتلر أكّد على حلّ المشكلة اليهودية «خطوة خطوة»، وكيف أن الحاجّ أمين سيكون زعَيماً للعرب. لكنّ هتلر رفض الاعتراف باستقلال البلاد العربية علناً، لأن «موسوليني» لم يكن في مِزاج يُفضي إلى التخلّي عن مستعمرته ليبيا، فضلاً عن أسباب أخرى.

وقد تذكّر واصف كمال ما يلي:

«لم يحصل اتّفاق؛ ووجدنا أنفسنا مضطرّين للعمل مع المحور.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وعندما بدأ «رومل» يُحرز انتصارات في ليبيا وشارف على دخول مصر، جاءنا الألمان معتقدين أنهم سينتصرون في الشرق الأوسط. فقارب هتلر وموسوليني الحاجّ أمين ورشيد قائلَين: «ستدخل جيوشنا قريباً مصر وكذلك العراق عبر القوقاز وستذهب يا رشيد مع جيوشنا من روسيا؛ بينما يذهب الحاجّ أمين مع الجيش الإيطالي عبر مصر إلى فلسطين». فاستدعانا الحاجّ أمين؛ وقال: «استعدّوا، واحصلوا على بزّات عسكرية، وتأهّبوا لدخول مصر معي». لكنني قلت له: «يا صاحب السماحة، كان للشريف حُسين (قائد التمرّد العربي الذي حصل عام ١٩١٦ ضدّ الأتراك) اتفاقية مع البريطانيين ـ وبالرغم من ذلك خدعنا البريطانيون وخانونا باتفاقية سايكس ـ بيكو السرّية التي عقدوها مع الفرنسيين. والآن ليس لدينا حتى اتفاقية مع هؤلاء الناس. فكيف نذهب، وليس لدينا شيء بأيدينا؟ إني لستُ ذاهباً، ولستُ داخلاً في هذه العملية». أما الحاجّ أمين فقد استعدّ ليذهب إلى مصر عبر ليبيا. ولكن بدأت دول المحور تخسر شيئاً فشيئاً».

وصار الحاجّ أمين يشتغل بحماس في آلة الدعاية للألمان. وسيجد العرب فيما بعد صعوبة كبرى وإحراجاً في تفسير هذه الأعمال. وفي كتابته لسيرة الحاج أمين كرّس تيسير جبارة ما لا يتعدّى أربع صفحات، تعاونه مع الألمان تحت عنوان: «المفتي في أوروبا»؛ حيث أعطى الحاجّ أمين الحقّ في التعاون من أجل إنقاذ وطنه الفلسطيني من براثن البريطانيين والمهاجرين اليهود، مثلما اضطرّ الصهيونيون إلى التعاون لإنقاذ الأرواح اليهودية. وقد بالغ الإسرائيليون أحياناً في تصوير تعاونه في سبيل إظهاره كمُجرم حرب. ويمكن الاحتجاج على ذلك على أساس أن المرء قد يتحالف مع الشيطان. وقد كرّر أمامي اثنان من رفاق الحاجّ أمين السابقين المثلَ السائر المكرور والمزعج القائل: «عدوّ عدوّي هو صديقي». وقد تحالف تشرشل حالاً مع أعتى الدكتاتوريين القتلة في القرن العشرين الميلادي، جوزف ستالين، محوّلاً «الشيطان» إلى «العمّ «جو»، حتى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

انهزمت ألمانيا. كما أنّ ميليشيا الكتائب اللبنانية التي تأسّست عام ١٩٣٦، بعدما استوحى قائدها انضباط «النازيّين الألمان»، تصرّفت كحليف لإسرائيل عام ١٩٨٢. وقد عمل أنور السادات كجاسوس لروميل، وصار فيما بعد حبيب الغرب ـ وإن لم يكن حبيب مصر ـ لإقامته سلاماً مع إسرائيل. ومن الصحيح أن هدف الحاجّ أمين الرئيسي كان كسب الاستقلال لفلسطين بعد أن ينتصر الألمان، ومنع استمرار هجرة اليهود إلى فلسطين في تلك الأثناء.

ولكنْ، وسط شرّ المحرقة لا يبدو من الممكن دعم موقف الحاجّ أمين. فهناك أيضاً في محفوظات خدمة المراقبة لهيئة الإذاعة البريطانية، مجموعة من التسجيلات لمحطّات الراديو النازيّ تُلقي ظلالاً قاتمة على أيّ مبادئ أخلاقية كان يدّعيها الحاجّ أمين. فها هو مثلاً، يخاطب الحشود في ذكرى يوم وعد «بلفور» في قاعة «اللوفتواف» ببرلين، بتاريخ ٢ تشرين الثاني/نوفمبر، قائلاً: «يعرف الألمان كيف يتخلّصون من اليهود. . . لقد حلُّوا المشكلة اليهودية، قطعاً». كما قال عبر راديو برلين بتاريخ أول آذار/مارس عام ١٩٤٤: «أيها العرب، هبّوا كرجل واحد وناضلوا من أجل حقوقكم المقدّسة. اقتلوا اليهود حيث تجدونهم. فهذا يُسرّ الله، والتاريخ، والدين». وبتاريخ ٢١ كانون الثاني/يناير من تلك السنة، زار الحاجّ أمين دولة «كرواتيا» الفاشيّة الضارية (Ante Pavelic's) ـ التي تشمل ما يُسمّى اليوم البوسنة ـ حيث خاطب مجنّدين مُسلمين بكلمات تتعارض والانفعالات التي عبّر عنها في مذكّراته بعد الحرب، إذ قال: «هناك تشابه كبير بين المبادئ الإسلامية والاشتراكية الوطنية، ولا سيّما بشأن توكيد الجهاد والزمالة. . . في فكرة النظام».

حتى أنه مثَّل دوراً في تخمير الكره بين البوسنيّين المسلمين من جهة والقوّة المتحزّبة التي يقودها الصرب لمحاربة الألمان في يوغوسلافيا؛ وهو الغضب الذي تفجّر من جديد عام ١٩٩٢. وقد سجّلت خدمة المراقبة لهيئة الإذاعة البريطانية بتاريخ ٢٦ أيار/مايو عام ١٩٤٤ كلاماً للحاجّ أمين يصف فيه «تيتو» كصديق لليهود و«خصم للنبيّ». وفي عام ١٩٤٣ تلقّى من «هنريك هملر»، مهندس المحرقة، برقية تذكّره «بأن الحزب الاشتراكي الوطني قد رسم على

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

علمه «القضاء على اليهودية العالمية». إن حزبنا يتعاطف مع نضال العرب، ولا سيّما عرب فلسطين، ضدّ اليهودي الغريب الأجنبي». كما ذكر راديو برلين فيما بعد أن الحاجّ أمين «وصل إلى فرانكفورت لزيارة معهد الأبحاث الجارية حول المشكلة اليهودية.

فهل علم الحاجّ أمين بالمحرقة اليهودية؟ بحسب أكثر مَن كتبوا سيرة حياته بدقّة «زفي ألپيليغ» ـ الحاكم العسكري الإسرائيلي السابق لقطاع غزّة، المعروف باستقامته كمؤرّخ، حتى من قِبل مَن تبقّى من عائلة الحاجّ أمين ـ «لا بدّ أن تكون اتصالاته الوثيقة والمتكرّرة مع قادة الحزب النازيّ، قد أطلعته دون شكّ على المصير الذي كان ينتظر اليهود، الذين أسهمت جهوده في منع هجرتهم». وفي تمّوز/يوليو عام ١٩٤٣، عندما كانت مُعسكرات الإبادة شغّالة في بولونيا، كان الحاجّ أمين يشتكي، لوزير الخارجية الألماني، «جواشيم فون ريبنتروپ» حول الهجرة اليهودية من أوروبا إلى فلسطين، كما يلي: «إذا كانت هناك أسباب تجعل نقلهم ضرورياً، فمن الجوهري والأفضل إرسالهم إلى بلدان أخرى، حيث يكونون تحت مراقبة ناشطة، مثل بولونيا مثلاً...». وقد كتب الحاجّ أمين قبل وفاته: «سدَّد الألمان حساباتهم مع اليهود قبل مجيئي إلى ألمانيا». وهو تصريح غير صحيح واقعياً وتاريخياً.

يصرّ واصف كمال على أن الحاجّ أمين لم يشجّع على سحق اليهود. قال: «طبعاً، كان يسعى لوقف هجرة اليهود إلى فلسطين؛ ولكن لم تكن له علاقة مع سياسة الإبادة. وعندما كنتُ معه في برلين رأيتُ العديد من اليهود. وكانت العلامة الفارقة التي تميِّز الأجانب ربطة «أوست» (Ost) على ذراع الروس، ونجمة داوود على ثياب اليهود. وكانوا يتجوّلون. أعتقد أن مسألتهم كانت سرّاً، وما كان يحصل...» وقبل وفاة الحاجّ أمين بثلاثة أشهر قابل أبو إياد أحد ضبّاط عرفات في بيروت. وقد كتب أبو إياد عن ذلك:

> «اعتقد الحاجّ أمين أن قوى المِحْوَر قد تكسب الحرب، وتمنح إذ ذاك فلسطين الاستقلال... فقلت له إن مثل هذه الرؤى قائمة على حسابات ساذجة، لأن هتلر صنّف العرب في الدرجة ١٤ بعد اليهود

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ضمن التراتبيّة التي أقامها للأعراق. ولو ربحت ألمانيا الحرب، لفرضت على العرب الفلسطينيين نظاماً أقسى من النظام الذي عرفوه أثناء الحكم البريطاني».

أخبرتني عالية الحسيني حفيدة الحاجّ أمين كيف تكلّم جدّها في سنواته الأخيرة عن أهداف هتلر الحقيقية، بقولها: «قال إنّ دور العرب في الإبادة يأتي بعد اليهود ـ لقد عرف نيّة الألمان. ولكن ماذا كان يستطيع أن يفعل؟ وعليك أن تدرك أن الحاجّ أمين عاش في زمن كان فيه كلّ الناس ضدّه». وقد حاول رفعت النمر أحد مؤسّسي منظمة التحرير الفلسطينية، الذي صار فيما بعد أحد المصرفيّين البارزين في بيروت، دون جدوى أن يحصل على دعم الحاجّ أمين لتلك المنظمة بعد الحرب العربية ـ الإسرائيلية عام ١٩٦٧. وقال: «لا أعتقد أنه أخطأ بعلاقته مع الهر هتلر». ففي عام ١٩١٦ كذب البريطانيون على العرب بشأن الاستقلال. وفي عام ١٩١٧ صدر وعد بلفور. فهل كان البريطانيون والأميركيون ليُعطوا الحاجّ أمين أيّ شيء لو لم يلتجئ إلى هتلر؟ ولكن النمر أقرّ بأن الحاجّ أمين «كان يكره اليهود لأنهم سلبوه وطنه».

وبينما كان الحلفاء يشدِّدون قبضتهم على ألمانيا، وجد واصف كمال والحاجّ أمين نفسيهما يتنقّلان بين أخطار مدينة برلين ومنتجعات شماليّ إيطاليا التي بقيت تحت سيطرة المحور. ويذكر كمال أنه كان واقفاً مع الحاجّ أمين على مرجة أحد الفنادق بعد ظهر أحد الأيام، ينظران إلى السماء، ويريان «آلافاً وآلافاً» من قاذفات القنابل الأميركية والبريطانية تتجه نحو ألمانيا. بعد ذلك، عاد الحاجّ أمين إلى برلين، وسافر إلى «أوبرسالزبورغ» ثم طلب اللجوء إلى سويسرا المحايدة فُردّ طلبه، فاستسلم إلى الفرنسيين، الذين حبسوه فترة في باريس، قبل أن يدبّروا هربه على متن طائرة حربية أميركية إلى القاهرة، باسم مستعار، ومن دون معرفة الأميركيين.

وفي ثمانية أيام مثيرة عام ١٩٤٨، ساعد الحاجّ أمين في تشكيل حكومة لعموم فلسطين في غزّة، قبل انهيار الجيوش العربية وضمّ الضفّة الغربية إلى الأردنّ. كانت تلك حرب التحرير لإسرائيل، و«النكبة» للفلسطينيين ـ «الكارثة»

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

التي أُخرج فيها ثلاثة أرباع مليون عربي فلسطيني من ديارهم، أو هربوا إلى منفى للاجئين لم يعودوا منه. قال أحد المُعجبين السابقين بالحاجّ أمين حبيب أبو فاضل: «كان على الحاجّ أمين أن يقبل مشروع التقسيم الذي طرحته الأمم المتحدة، بعد أن وافق عليه كثير من الدول، وعلى رأسها الروس. ولكنه لم يفكّر في المستقبل». لقد صرف الحاجّ حياته السياسية عبثاً. لقد تقرّب من الكولونيل ناصر الذي احتلّ جنوده غزّة، ثم كرهه ـ وكره فيما بعد الملك حسين ثم تقرّب منه، بعدما احتلّ جيشه الضفّة الغربية. وهكذا عاد الحاجّ أمين إلى منفاه الأخير في لبنان؛ حيث سكن في دارة بالجبل، يُزجي النصح ويروي الذكريات إلى الفلسطينيين الذين يأتون لرؤيته؛ رافضاً الانضمام إلى أيَّة حركة سياسية،حتى لا يتقزَّم بذلك.

وقد أراد شفيق الحوت تقوية نفوذ المفتي الأكبر بين اللاجئين الفلسطينيين في لبنان، وحاول أن ينصح الشيخ عندما زاره في داره في المنصورية خلال أوائل الخمسينيّات، لكنه واجه الصدّ، ثم ضربه رجال الحاجّ أمين في بيروت. قال الحوت: «لقد كان مثل أولئك الأتباع العثمانيين المدجَّنين. كان يتكلّم ببطء همساً، ويُصغي واعياً لنفسه خلال ٢٤ ساعة في اليوم؛ وكأنه على المسرح؛ لا تمكن مقاطعته. ولم تكن هناك نِكات...». لكنّ حفيدته عالية تتذكّره كرجل العائلة، الذي كان ينبّه والديها لتركها تضحك مع الأصدقاء خلال قيلولته بعد الظهر، «لأنه كان يعتبر ضحكنا نوعاً من الموسيقى».

وقد قضى الحاجّ أمين سنواته الأخيرة يستمع إلى أغاني المطربة المصرية أم كلثوم وإلى القسم العربي من هيئة الإذاعة البريطانية. وبعد نسيان الماضي، دعاه الحوت كضيف شرف إلى حفلة زواجه ـ من شابّة تدعى «بايان» ابنة أحد الرفاق الأوائل للحاجّ أمين، الذي سيكتب أطروحته للدكتوراه عن الحاجّ أمين. قالت بايان: «كانت رحلة الحاجّ أمين إلى ألمانيا غير صائبة. فقد كان بإمكانه أن يرسل مَن ينوب عنه لمفاوضة هتلر. كان يعتقد أنه مسؤول عن جميع المسلمين في العالم؛ إذ كان يشعر بمسؤولية إسلامية كبرى. وكان ينظر إليه البوسنيّون كزعيم كبير...».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وبعد سنتيْن من وفاته في عام ١٩٧٤، اقتحمت ميليشيا الكتائب اللبنانية دارته الفارغة، وسرقت ملفّاته ومذكّراته ـ وهناك إشاعة في بيروت تقول إنها بحوزة الإسرائيليين الآن ـ بينما انتقلت إلى ذلك البيت المتهدّم ١٥ عائلة من اللاجئين المسيحيّين. وكانت لا تزال هناك عندما زرته بعد عشرين سنة، ووجدت تحت غرفة مكتبه مرآباً لتصليح السيّارات. وقد عامله آخر من كتب سيرة حياته معاملة أفضل من سابقيه. فقد كتب ألپيليغ (Elpeleg)، عن «خيبته الكبيرة»، كما ذكر «إنجازاته الكبرى للحركة الوطنية الفلسطينية».

وعندما مات بالسكتة القلبيّة، رفض الإسرائيليون طلباً لدفنه في القدس؛ وكان على الحوت أن يتدبّر أمر دفنه في بيروت. وقد دُهش لأن قيادة منظمة التحرير الفلسطينية لم تهتمّ بذلك كحدث كبير، وكفصل تاريخي انتهى، ليُفتح فصل جديد. وقد طلب من عرفات أن يحضر المأتم. وأبّنه الحوت «كمجاهد» وكشهيد. ويذكر الحوت أنه نُسي أمره، بعدما تكاثر عدد الشهداء في الحرب اللبنانية.

ولكن لم ينسَ أمره آخرون. فحاولت عائلة الحُسيني المحافظة على الضريح؛ لكنّ ميليشيا «أمل» الشيعية ـ التي تنازعت في الحرب اللبنانية مع منظمة التحرير الفلسطينية في مخيّمات بيروت ـ اعتقدت أن هناك أسلحة فلسطينية مخبّأة في قبر الحاجّ أمين. فنزعت عنه غطاء الرخام لتجد المفتي الأكبر مسجًّى بكفنه الأبيض، دون سلاح.

إن الصراع العربي ـ الإسرائيلي، بدءاً من الوعود البريطانية المتضاربة الصادرة خلال حرب بيل فيسك، ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ـ الداعية في الوقت ذاته إلى استقلال البلاد العربية، وإلى دعم قيام وطن قومي يهودي في فلسطين ـ حتى تأسيس دولة إسرائيل على الأرض الفلسطينية، بعد المحرقة اليهودية والحرب العالمية الثانية، إن هذا الأمر هو ملحمة مأساوية انعكست نتائجها على العالم كلّه، ولا تزال تُسمِّم حياة المشاركين فيها فضلاً عن تسميم جميع السياسات والمحاولات العسكرية في الشرق الأوسط وفي العالم الإسلامي. وقد شكّلت رواية هذه الأحداث ـ من وجهة النظر العربية والإسرائيلية، ومن خلال تقارير

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وتعليقات الصحافيين والمؤرّخين المتحيِّزين منذ عام ١٩٤٨ ـ مكتبات ضخمة من المعلومات والتضليلات التي يتيه فيها القارئ ويُنهك. ومنذ عام ١٩٣٨، عندما كانت فلسطين تحت الانتداب البريطاني بقرار من عُصبة الأمم، كتب المؤرّخ البارز جورج أنطونيوس تحذيراً من أخطار كثرة الاعتماد على الأدبيّات الغزيرة التي كانت موجودة آنذاك؛ وكلامه لا يزال فاعلاً اليوم:

«... يجب أن تُستخدم (تلك المعلومات) بحذر، بسبب ارتفاع نسبة الدعاية السافرة والمبطّنة فيها من جهة، ولأن نأي المراجع العربية اللازمة عسَّر الوصول إلى العدل الحقيقي، حتى في أعمال المؤرخين المحايدين المنفتحي العقول من جهة أخرى، وكذلك الأمر بالنسبة إلى تيّار المعلومات اليومي. إن الدعاية الصهيونية ناشطة، ومنظمة تنظيماً دقيقاً، وواسعة الانتشار، على الأقلّ في الديمقراطيات الغربية. وهي تقود العديد من القنوات المعدّة لنشر الأخبار، وبخاصّة في العالم الناطق باللغة الإنكليزية. أما الدعاية العربية فهي بالمقارنة بدائية وغير ناجحة إلى حدٍّ كبير. فليس لدى العرب سوى القليل من المهارة، وإتقان مختلف اللغات، والموارد المالية، التي تجعل الدعاية اليهودية فعّالة جدّاً. وآلت النتيجة على مدى سنوات مديدة إلى أن ينظر العالم إلى فلسطين من خلال منظار صهيوني بالدرجة الأولى؛ كما اكتُسبت عادة التفكير بناء على المقدّمات الصهيونية».

لقد قضيت معظم السنوات الثلاثين الماضية من عمري وأنا أصنِّف الأحداث التي تتصل مباشرة أو غير مباشرة بمعركة فلسطين، وبقلّة العدل والإنصاف التي لا تزال معلّقة دون حلٍّ، في ما يتّصل بالعرب واليهود على السواء، منذ عام ١٩٢٠، وحتى قبل ذلك. فالدعم البريطاني لأمّة عربية مستقلّة صدر عندما احتاجت بريطانيا إلى مشاركة القوى العربية في محاربة الأتراك؛ وصدر تصريح بلفور الذي يدعم قيام وطن قومي يهودي عندما كانت بريطانيا بحاجة إلى دعم يهودي ـ سياسياً وعلمياً ـ خلال الحرب العالمية الأولى.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وكان لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا يتخيّل معتصماً بالمسرحية التوراتية التي تُمَثَّل في فلسطين، ويقول إنه يبغي القدس لعيد الميلاد عام ١٩١٧ ـ وقد حصل عليها، بهمّة الجنرال «ألّنبي» ـ وقد أشار في مذكّراته إلى «استيلاء الجيش البريطاني على أشهر مدينة في العالم، تلك المدينة التي صدّت جهود العالم المسيحي في قرون خلت لمعاودة استرداد مزاراتها المقدّسة». ولا بدّ أن يكون لويد جورج قد فكّر في حملة «ألّنبي» كخليفة للحملات الصليبية ـ من أجل «معاودة استرجاع» القدس من المسلمين ـ وكان هذا موضوعاً كبيراً ساد القرن العشرين الميلادي في تعامل الغرب مع الشرق الأوسط. وقد وجد صداه أيضاً في كلام جورج و. بوش عن «الصليبية» في الأعقاب المباشرة للجرائم الدولية التي ارتكبت ضدّ الإنسانية بتاريخ ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

ولم يُشر لويد جورج في مذكّراته إلى تصريح بلفور إلّا عندما ربطه بمبادرة ترمي إلى مكافأة العالم البارز حاييم وايزمان للعمل الذي قام به حول «الأسيتون»، العنصر الكيميائي الضروري لصنع متفجّرات «كوردايت»، وبالتالي لدعم الجهود الحربية البريطانية. لقد وضع لويد جورج اسم «وايزمان» مع اسم «نحميا» (Nehemia) في قصّة أبناء إسرائيل المُبهرة والموحية»؛ ذاك الذي كان مسؤولاً في القرن الخامس الميلادي عن معاودة بناء وتجديد القدس، وهي المُهمّة التي قام بها بعد الإفراج عنه كأسير لدى الملك الفارسي «أرتحشستا». ولكن، عندما كان يدوِّن لويد جورج هذا الإطراء ـ عام ١٩٣٦ ـ كان في الوقت ذاته تقريباً يتكلّم بمزيد من الصراحة عن تصريح بلفور في مجلس العموم، خلال مناقشة التمرّد العربي، حيث قال:

> «لقد أعدّ السيد بلفور مسوّدة تصريحه خلال أحد أحلك ظروف الحرب. وفي ذلك الوقت كان الجيش الفرنسي يتمرّد؛ وكان الجيش الإيطالي على أُهبة الانهيار؛ وكانت أميركا عند بداية تحضير استعداداتها الجدِّية. ولم يبقَ شيء يعوَّل عليه سوى بريطانيا التي تجابه التجمّع العسكري القوي الذي لم يشهد له العالم مثيلاً. وكان من المهمّ لنا التفتيش عن أيّة مساعدة شرعية نتمكّن من الحصول

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

> عليها. وقد توصّلت الحكومة من المعلومات التي تلقتها من أنحاء العالم كافّة، إلى نتيجة مفادها أن من الأمور الأساسية الواجبة علينا أن نكتسب تعاطف الحوزة اليهودية... ولكن من المؤكّد أنه لم يكن لدينا شيء ضدّ العرب؛ إذ كان لدينا في ذلك الوقت مئات الآلاف من الجنود الذين يحاربون لتحرير العرب من الأتراك. وفي مثل تلك الظروف، وبالنظر للنصائح التي تلقّتها الحكومة، قرّرت أن تظفر بتعاطف وتعاون تلك الحوزة الاستثنائية، حوزة اليهود، عبر العالم كلّه. لقد ساعدونا في أميركا إلى حدٍّ كبير، حتى أنهم نفعونا في روسيا في ذلك الوقت، لأن روسيا كانت على وشك أن تخرج وتتركنا وحدنا. وفي تلك الظروف اقترحنا هذا على حلفائنا؛ فقبلته فرنسا، وإيطاليا، والولايات المتحدة الأميركية... كما أن اليهود، بنفوذهم كلّه، استجابوا بنُبل لتلك المناشدة».

إن تمرّد الجيش الفرنسي وقرب انهياره على الجبهة الإيطالية متعلّق كما يبدو بالوعود التي تعطي اليهود «وطناً قومياً» أكثر من تعلّقه بـ «نحميا». ولكن العرب الآن باتوا يطالبون بوقف الهجرة اليهودية»، كما جاء في خطاب لويد جورج أمام مجلس العموم، إذ أردف قائلاً: «ولا يمكننا أن نقبل ذلك إلّا إذا نكثنا تعهّداتنا كما أن العرب يقولون إن الهجرة اليهودية تطردهم من أراضيهم...» لكن لويد جورج استوعب طبيعة المشكلة، ولو بقليل من الجدّية والرزانة، عندما قال:

> «إن التزامات الانتداب محدَّدة ونهائية. لقد قضت علينا بأن نشجّع تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين دون أن نضرّ بحقوق الجماهير العربية. كان ذلك مشروعاً مزدوجاً؛ وعلينا تنفيذ الوجهيْن من مهمّة الانتداب».

ولكن لم يكن ممكناً تنفيذ جزأي المشروع؛ إذ تحوّل اضطهاد اليهود عام ١٩٣٦، الذي ذكره لويد جورج، إلى محرقة تفضي إلى إقامة دولة إسرائيلية في فلسطين، «مهما كانت حقوق جماهير العرب». وفي عام ١٩٣٨، كان المؤرّخ جورج أنطونيوس يقول بوضوح:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

«لا يُمكن إقامة دولة يهودية على فلسطين، أي وطن قومي قائم على سيادة أرض، إلّا بإزاحة العرب بالقوّة...». لقد أراد أنطونيوس إقامة دولة عربية مستقلّة «تضمّ ما تستطيع من اليهود دون إضرار بحرّيتها السياسية والاقتصادية؛ بحيث يعيشون هؤلاء بسلام وكرامة، ويتمتّعون بحقوق المواطنين الكاملة». وخوفاً «من محرقة لا يمكن التنبّؤ بها تُصيب العرب واليهود والبريطانيين»، تجدر مساعدة يهود أوروبا ليستقرّوا في مكان آخر غير فلسطين، كما قال:

«إن المعاملة التي يلقاها اليهود في ألمانيا وغيرها من البلدان الأوروبية هي عار على الذين يقومون بها وعلى الحضارة الحديثة، ولكنّ الأجيال القادمة لن تعفي أيّ بلد يقصّر في القيام بحصّته من التضحيات اللازمة لتخفيف العذاب اليهودي وضائقته. وإن وضع الجزء الأكبر من هذا العبء على فلسطين العربية هو تهرّب بائس فاضح من الواجب الذي يقع على عاتق العالم المتمدّن بكامله. كما أنه شائن أخلاقياً بشكل لا يُحتمل. فليس هناك أي دستور أخلاقي يُبيح اضطهاد شعب ما في سبيل تلطيف اضطهاد شعب آخر. إن علاج طرد اليهود من ألمانيا لا يجدر أن يحصل على حساب طرد العرب من وطنهم، وإن تخفيف ضائقة اليهود يجب أن لا تتمّ على حساب فرض ضائقة موازية على شعب آخر بريء ومُسالم».

ومن المدهش أن تكون هذه الملاحظات ـ ذات البصيرة المستقبليّة في ما يختصّ بكارثة فلسطين التي حصلت خلال عقد من الزمان بعد ذلك ـ قد كتبت عام ١٩٣٨. مع العلم أن آخرين استطلعوا أيضاً قيام الكارثة المستقبليّة بعبارات كئيبة مماثلة. فقبل سنة واحدة، كتب ونستون تشرشل في معرض تفكيره المستقبلي عن استحالة تقسيم فلسطين، متنبّئاً بمثل ذلك بشكل أوفى، بقوله:

«إن الدولة اليهودية الغنية، المزدحمة، التقدّمية، تقع في السهول وعلى شاطئ بحر (فلسطين). وحولها في التلال والمرتفعات، التي تمتد على اتساع بعيد في الصحارى التي لا حدّ لها، قوم من عرب

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

سوريا وشرقيّ الأردنّ والجزيرة العربية مدعومون من قِبل القوّات العراقية، سيهدّدونها دون انقطاع بالحرب... ولكي تحافظ الدولة اليهودية على وجودها يجب أن تكون مسلّحة تماماً حتى أسنانها، وينبغي أن تُلحق كلّ رجل قادر جسمياً بجيشها من أجل تقويته. ولكن كم سيُسمح لهذا الوضع بأن يستمرّ من قِبل العراق وفلسطين؟ هل يمكن أن نتوقّع أن يقف العرب جامدين، ويراقبوا تأسيس جيش يهودي مزوّد بأفتك أسلحة الحرب، وانتظاره حتى يقوى إلى درجة تنفي الخوف من العرب، عن طريق الرأسمال والمصادر اليهودية العالمية؟ وحتى لو وصل الجيش اليهودي إلى ذلك الحدّ، مَن يستطيع أن يؤكّد أن لا يعمد اليهود القابعون ضمن حدودهم الضيّقة إلى التوسّع ويُقحموا أنفسهم في الأراضي الجديدة غير المنمّاة التي تحيط بهم؟».

ووصل تشرشل إلى نتيجة تقول: «إني أجد من الصعب... أن أتفادى الوصول إلى نتيجة مفادها... أن مشروع (التقسيم) سيُفضي حتماً إلى أن تفريغ بريطانيا لفلسطين تفريغاً كاملاً». وهكذا صار.

وقد اعترف بذلك الجنرال جون باغوت غلوب المعروف، قائد الفيلق العربي منذ عام ١٩٣٩، إذ علّق على هذا الموضوع بشكل يثير المشاعر قائلاً:

«إن المأساة اليهودية ترجع في أصلها إلى ما قامت به الأمم الغربية في أوروبا وأميركا. وأخيراً، استفاق الضمير المسيحي. يجب أن تنتهي المأساة اليهودية الطويلة عبر القرون. ولكن عندما جاء وقت دفع التعويض تكفيراً على التقصير السابق، قرّرت الأمم المسيحيّة في أوروبا وأميركا أن تدفع الأمّة الإسلامية تلك الفاتورة».

لقد أراد المؤرّخ أنطونيوس إسكان اللاجئين اليهود في بلدان غير فلسطين ـ ونحن نعلم أن البريطانيين فكّروا في «أوغندا» ـ كما نعلم أن اللجان الصهيونية التي شُكّلت قبل الحرب كانت تفكّر في ترحيل عرب فلسطين ـ في معرض

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

التطهير العِرقي ـ إلى منطقة الجزيرة في سوريا، من بين احتمالات أخرى. وهي الصحارى نفسها القائمة حول دير الزور وحلب حيث سيق «الأرمن البائسون ليقضوا نحبهم» منذ عشرين سنة. وفي هذا الجوّ من الارتياب، والاضطهاد، والمعاناة الشديدة الوطأة، شهد العرب واليهود الحرب العالمية الثانية تغمر أوروبا. وخاف العرب من أن تكرّس بريطانيا لليهود دولة في أراضيهم في نهاية المطاف، وراقب اليهود استئصال عِرقهم في أوروبا، حتى أن بريطانيا اعترضت سبيل بضع سفن تنقل اللاجئين اليهود إلى «أرض الميعاد». لقد كان هذا هو العالَم الذي رحل فيه المفتي الأكبر الحاجّ أمين إلى ألمانيا، لحثّ هتلر على وقف هجرة اليهود إلى فلسطين. ولكن بأي ثمن؟

وهنا صارت البوصلة الأخلاقية تدور بسرعة فائقة ـ فلماذا يجب على الفلسطينيين أن يتحمّلوا مصير الوعد الذي صدر عن بريطانيا في الحرب العالمية الأولى لشعبٍ عاش أجداده في تلك الأراضي منذ ألفي سنة؟ لماذا على هذا الطوفان الجديد من اللاجئين المسلمين أن يدفع الثمن إذاً ـ مثل الأرمن ـ وأن يوصفوا بأنهم المعتدون، وأن الذين أخرجوهم من ديارهم هم الضحايا؟ وذلك لأنه في العقود الزمنية القادمة، سيكون الفلسطينيون هم «الإرهابيين»، والذين أخذوا أراضيهم هم الأبرياء، ممثلّين أمّة الفينيق الذي قام من رماد «أوشفيتز». فبنظر العالم ـ ولا سيّما في عام ١٩٤٨، في عالم تعب من أعباء الحرب، وعجّ بملايين اللاجئين الذين تدفّقوا على أوروبا ـ ماذا يعني وجود ٠٠٠ ٧٥٠ لاجئ فلسطيني إزاء إعدام ٦ ملايين يهودي؟

نحن اليوم في شهر نيسان/ أبريل عام ٢٠٠٢، ذات صباح ربيعي مشمس في القدس الغربية، وأنا في شقّة صغيرة أنيقة حيث يعيش جوزف كلينمان وزوجته «هيا» فيما قد يبدو لنا أنه ضاحية دون أشجار ـ إذا كنّا لا نعرف مغزاها التاريخي. ويبدو كلينمان، الرجل الكريم اليد، مهتاجاً، يريد أن يخبرني عن أكثر الأيام سواداً في حياته؛ إذ كان يقفز من كرسيّه كالنمر، ويقول: «سأريك متحفي»، ويعدو نحو غرفة خلفيّة.

ثمّ يعود ومعه حقيبة ظهر، ويقول: «هذا هو القميص الذي أعطاني إيّاه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الأميركيون، عندما حُرِّرت من «لاندزبرغ» في ٢٧ نيسان/ أبريل عام ١٩٤٥». إنه قميص متجعِّد رخيص ذو أشكال مربّعة، لا يمكن أن ترفأ رقعته. ثم يُخرج ثوباً خارجياً فضفاضاً مخطَّطاً بالأزرق والأبيض، وقبّعة مخطَّطة أيضاً بالشكل ذاته من الأمام إلى الوراء؛ ويقول: «هذه هي بِزَّتي الرسمية كأسير في «داشو». لقد كانت صدمة لي أن أمسك بهذا الرمز لإهلاك الناس، كما نعهده في كلّ فيلم إخباري صدر منذ عام ١٩٤٥، وفي «قائمة شندلر» وفي مئات أخرى من أفلام المحرقة اليهودية. وكان كلينمان يراقبني وأنا أمسك ذلك الثوب؛ مدركاً معنى تلك الصدمة. إني أفكّر أن الرجل كان في «داشو»؛ وأن هذا الثوب من إنتاج النازيّين. إن هذا الجزء من تاريخ الإبادة حقيقي، منقوع بالزحار، ومضمَّخ بغاز السيانيد، وكلّ قطعة منه شهدت الوحشية والبربرية، على شاكلة العظام الأرمنية التي عثرتُ عليها مع «إيزابيل ألسن» وأخرجناها من الوحل السوري منذ عشر سنوات. وتظهر جلابيب معسكرات الاعتقال في الأفلام الإخبارية سوداء وبيضاء، ولكن القتل الحقيقي ليهود أوروبا نُفِّذ باللونين الأزرق والأبيض. وهما اللونان ذاتهما الباديان في العلم الإسرائيلي. وعلى وجه ذلك الجلباب ظهر الرقم ١١٤٩٨٦.

وعند مدخل قطاع الشقق حيث يسكن كلينمان، نشرات إعلانية تُذكّر المستأجرين بقرب الاحتفال بذكرى المحرقة. إن منطقة «غيفات شاوول» ضاحية مجاورة صدوقة ومشرقة يسكن فيها متقاعدون، وفيها دكاكين، وشقق، مع بعض المنازل القديمة الفخمة، بعضها متهدّم وبعضها الآخر مستخدم كبيوت. ومنها منزل أو اثنان ما زالا يحملان آثار الرصاص الذي أُطلق منذ زمن طويل، بتاريخ ٩ نيسان/أبريل ١٩٤٨، عندما جابه شعب آخر كارثته فغيفات شاوول هي دير ياسين. وهنا حصلت مذبحة دير ياسين حيث قُتل ١٣٠ فلسطينياً على يد اثنتين من الميليشيات اليهودية هما «أرغون زفاي ليومي» و«شترن غانغز»، عندما كان يهود فلسطين يقاتلون من أجل تأسيس دولة تُسمّى «إسرائيل». وقد أرعبت المذبحة عشرات الألوف من العرب الفلسطينيين إلى درجة جعلتهم يتركون بيوتهم ويهربون بأعداد كبيرة ـ كجزء من ثلاثة أرباع المليون من جماهير

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

اللاجئين الفلسطينيين الذين شكّل خروجهم من فلسطين مشكلة تكمن في قلب الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني.

ففي عام ١٩٤٨، وحول المنازل التي لا تزال موجودة قرب منزل كلينمان مزّقت القذائف اليدوية التي أطلقها المحاربون اليهود النساء الفلسطينيات إرباً. وقد أُخذت من القرية حمولة شاحنتين من الأسرى العرب للطواف بها عبر شوارع القدس. كما أُرجع العديد منهم فيما بعد إلى دير ياسين، وأُعدموا، ويُعتقد أن قبرهم الجماعي موجود تحت مستودع المحروقات القائم الآن عند نهاية إحدى ضواحي القدس. وهكذا، تثير زيارة بيت كلينمان سؤالاً أخلاقياً غير اعتيادي. هل يمكن للمرء أن يصغي إلى شهادته الشخصية حول أكبر جريمة في التاريخ الحديث، ثم يسأل عن المذبحة التي قضت على الفلسطينيين في هذا المكان بالذات، بينما يبدو طرد العرب من فلسطين على فظاعته، لا يقارن إحصائياً أو أخلاقياً بقتل ٨ ملايين يهودي؟ وهل يعلم جوزف كلينمان أن سخرية التاريخ جعلت يوم المحرقة ويوم دير ياسين يقعان هذه السنة في التاريخ ذاته؟

ليس جوزف كلينمان شخصاً اعتيادياً بين الناجين من المحرقة اليهودية. لقد كان الناجي الأصغر سناً من «أوشفيتز»، وقد سُمعت شهادته في محاكمة أدولف إيخمان، رئيس «الشعبة اليهودية» في الاستخبارات الألمانية، الذي أشرف على البرنامج النازي لقتل يهود أوروبا. حتى أن جوزف كلينمان رأى الدكتور جوزف مانغيلي الذي كان يختار الأولاد والنساء والمسنّين والمرضى الذي يساقون إلى غرف الغاز. ففي الرابعة عشرة من عمره رأى يوماً مانغيلي يجيء على درّاجة، ويأمر صبياً بتثبيت لوحة من الخشب على عمود. وفي ما يلي جزء من شهادة كلينمان لدى محاكمة إيخمان.

> «لم يخبرونا عمّا سيحدث. لكننا علمنا: إن الصبيان الذين لا يستطيعون المرور تحت اللوحة يُصفح عنهم؛ وإن الذين لا تبلغ رؤوسهم اللوحة يرسلون إلى غرف الغاز. حاولنا جميعاً مطّ أنفسنا علوّاً، لنكون أطول؛ لكنني يئست. فسألني أخي: هل تريد أن تبقى على قيد الحياة؟ قلت: نعم. قال: إذن، افعل شيئاً. فرحت أفكّر،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ووجدت بعض الحجارة، فوضعتها في حذائي، فصرت أطول. لكنني لم أستطع الوقوف عليها وقت التأهّب؛ لأنها كانت تقتلني ألماً».

قام «شلومو» (أخو جوزف كلينمان) بتمزيق قبّعته شقّين ووضع «جوزف» قسماً منها في حذائه؛ إنما بقي قصيراً. لكنه اخترق المجموعة التي نجحت في الاختبار بينما سيق باقي الصبيان ـ الذين يبلغ مجموع أعدادهم ألفاً ـ إلى غرف الغاز. ويتذكّر كلينمان أن مانغيلي كان يختار أيام العطل اليهودية للقتل الجماعي المفروض على أولاد اليهود. وقد أُرسلت عائلة كلينمان المؤلّفة من «مائير» و«راشيل» وشقيقته مباشرة إلى غرف الغاز حالما وصلت إلى «أوشفيتز» من جبال «الكارپات»، في ما يُسمّى اليوم «أوكرانيا»؛ لكنه نجا شخصياً مع أخيه ـ الذي لا يزال نجّاراً مثل جوزف، ويعيش على بعد عدّة مئات من الأمتار عن منزل أخيه في ضاحية غيفات شاوول/ دير ياسين. كما نجا جوزف كلينمان من «داشو»، ومن العمل المرهق لبناء ملجأ ضخم تحت الأرض ليؤوي مصنعاً سرّياً لهتلر ينتج فيه الطائرة الحربية «وسرشميت» (Me 262).

بعد أن حرّر الأميركيون كلينمان، سلك طريقه إلى إيطاليا، حيث استقلّ قارباً صغيراً وضعه على متن باخرة أوصلته إلى فلسطين، تلك الباخرة التي حملت مهاجرين يهوداً غير قانونيين يحاولون الدخول إلى أرض الانتداب البريطاني المتلاشي. ولم يكن بوسعه أن يحمل سوى بعض حوائجه؛ فاختار أن يضع بزّته في «داشو» ضمن الكيس ـ حتى لا ينسى ما حدث له. وبعد أن أعاده البريطانيون إلى قُبرص، قضى ستّة أشهر في مخيّم «فماغوستا»، ثم وصل أخيراً إلى مخيّم المهاجرين في عتليت بفلسطين. وانتقل إلى القدس بتاريخ ١٥ آذار/مارس عام ١٩٤٧، عندما اشتعلت حرب تأسيس دولة «إسرائيل». فاشترك في تلك الحرب ـ ولكن في غير دير ياسين. فقد ذكرتُ اسم دير ياسين عرضاً، وأومأ كلينمان وزوجته برأسيهما موافَقة على أنه لم يشترك في تلك المذبحة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قال كلينمان: «لقد كُتبت أشياء غير صحيحة عن دير ياسين. كنتُ آنذاك في القدس، ورأيت حمولة الشاحنتين من الأسرى الذين أُخذوا من هنا. وتقول بعض التقارير أن العرب قُتلوا، وبعضها الآخر ينفي ذلك. لم يُقتل الجميع، فهذه دعاية. ولكنني لا أدري فقد قتل العرب أسراهم من اليهود. ولم يكن هناك قتال واسع النطاق يحمل العرب على المغادرة».

ولكن عندما رأى كلينمان العرب يغادرون، ألم يذكّره ذلك بحياته هو؟ ـ مهما كانت المقارنة مع الكارثة الدامية التي أصابت اليهود غير ملائمة عددياً. فكّر في هذا الأمر بُرهة، ثم قال إنه لم يرَ كثيراً من اللاجئين العرب. لكن زوجته «هيا» أجابت بقولها: «أعتقد أنه بعد ما حصل لجوزف من أهوال، صار كل شيء آخر في العالم أقلّ أهمّية. عليك أن تفهم أن جوزف عاش في ذلك الوقت، وقت «الشوا» (Shoah). فمن أصل ٢٩٠٠٠ يهودي استقدموا إلى «أوشفيتز»، مات ١٥٠٠٠».

ولكن هل ينحصر الأمر في مجرّد ضخامة إحدى الجرائم، ومقارنتها العددية بترحيل العرب عام ١٩٤٨؟ هناك جماعة من اليهود، والمسلمين، والمسيحيين قاموا ولا يزالون يقومون بحملات من أجل تذكّر دير ياسين ـ حتى الآن في ذروة حروب فلسطين الأخيرة. وكما وصفها أحد منظّمي هذه الحملات: «قد لا يرغب كثير من اليهود في النظر في هذا الأمر. لأنهم يخشون من تصغير مأساتهم. ولكن بالنسبة إلى الفلسطينيين، هناك دائماً خوف من أن تُستخدم حجّة المحرقة لتبرير البطش بهم». ويبدو أن عائلة كلينمان لا تعلم شيئاً عن إحياء ذكرى دير ياسين ـ ولا تدري عن خطط المنظّمة لإقامة نُصب تذكاريّ لموتى الفلسطينيين غير بعيد عن بيتهما، في ضاحية «غيفات شاوول» الحالية. ولم يتكلّم جوزف كلينمان عن حمّام الدم الذي لا يزال جارياً في إسرائيل وفلسطين، بينما كنا نتحادث. ولكنه يعترف أنه سياسياً من جماعة اليمين، وقد انتخب أرييل شارون في الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة؛ إذ قال: «وهل هناك من رجل آخر؟».

لكن تذكُّر جوزف كلينمان لدير ياسين غير كامل. فسجلّات الصليب الأحمر، ورسائل المراسلين الأجانب في ذلك الوقت توضح أن القرويّين

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الساكنين في دير ياسين أُعدموا، وأن بعض النساء بُقرت بطونهنّ. وفي كلّ أرجاء ذلك الجزء من فلسطين الانتداب الذي أصبح «إسرائيل»، حصلت مذابح صغيرة ـ بدأها أحياناً العرب، وغالباً المحاربون الإسرائيليون الذين حاولوا أن يصبحوا جيشاً إسرائيلياً ما دامت الحرب قائمة. وفي ما يلي قصّة صغيرة مأساوية تُعطي فكرة عمّا حدث خلال إخراج الفلسطينيين من ديارهم.

في عام ٢٠٠٠، كنتُ في قرية لبنانية جنوبية يغمرها المطر، أصابها الفقر وتدمّرت طرقاتها تُسمّى شبريحا. وكان فيها شخص يبلغ من العمر ٨٥ سنة يُسمّى نمر عون، كشف عن ساقه ليريني العضلات والأربطة الممزَّقة حيث أصابته رصاصة إسرائيلية منذ ٥٢ عاماً. وقصّته قصّة خيانة مُزدوِجة؛ فلم يقع ضحيّة للإسرائيليين فحسب، بل لقوّتَي الانتداب كلتيهما ـ البريطانية والفرنسية ـ اللتين كان المفروض بهما في أعقاب الحرب العالمية الأولى أن تحمياه. إنه من قرية اسمها صلحا ـ تقع الآن على بعد كيلومترَيْن داخل إسرائيل على الجهة الأخرى من الحدود اللبنانية ـ وكان الناجي الأوحد من المذبحة التي ارتكبها الإسرائيليون بحقّ الرجال من القرويّين.

وقصّة «صلحا» والقرى الستّ الأخرى: «الناعمة، والزوق، وترشيحا، والخالصة، والكتيَّة، واللقاس» ترجع إلى عام ١٩٢٣، عندما كان البريطانيون يحكمون فلسطين، والفرنسيون يحكمون دولة لبنان الجديدة التي أُنشئت برعايتهم. واتفقت القوّتان الإمبرياليتان على تغيير خط الحدود قليلاً لصالحهما. فقرّرت باريس أن تتخلّى للندن عن أميال مربّعة قليلة من لبنان ـ فتوسّع الانتداب البريطاني قليلاً إلى الشمال ليستوعب القرى السبع المذكورة. وكانت هناك صفقة قذرة وراء هذا الاتفاق. فقد أظهرت السجلّات القديمة في بيروت أن تلك الأرض قد سُلِّمت لقاء اتفاقية عُقدت مع شركة فرنسية من أجل تجفيف مستنقعات في المنطقة للاستعمال التجاري. وقد سُمّيت في ذلك الزمن «اتفاقية حُسن الجوار» ـ ولكني رأيت أن لا أخبر نمر عون المسنّ بذلك ـ وبالتالي، قُضِيَ على كلّ قروي بالهلاك.

وهكذا، لم يعد نمر عون لبنانياً تحت الانتداب الفرنسي؛ بل صار فلسطينياً

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تحت الانتداب البريطاني - مع العلم أن السلطات لم تستشر في هذا الشأن عائلة عون أو غيرها. وعلى كل حال، ما زال عون يذكر البريطانيين بشغف. لقد كان مزارعاً؛ وتزوّج فتاة عمرها ١٣ سنة، ورُزق منها بتسعة أنجال يعيشون في حقول الذرة في قرية «صلحا». ولكنّ صوته بدأ يرتفع عندما وصل في روايته إلى عام ١٩٤٨. «عندما غادر البريطانيون، وجاء الجيش اليهودي إلى خارج القرية حيث ألقوا منشورات تقول إذا سلَّمنا أنفسنا نبقى بأمان. وكان أولادنا ونساؤنا قد هربوا. فصدّقناهم وسلَّمنا. لكنّ الإسرائيليين كذبوا. لقد شتمونا، وأوقفوا منا سبعين رجلاً معاً».

وما حصل بعد ذلك مُثبّت في المحفوظات الإسرائيلية. فقد كتب المؤرّخ الإسرائيلي «بني موريس» عن هجوم إسرائيلي يُدعى: «عملية حيرام»، حصل بعد مقاومة عربية بسيطة خارج قرية صلحا، إذ جرى تفجير منزل فيه ٩٤ قروياً بتاريخ ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٤٨. لكنّ قصّة عون حول هذا الأمر مختلفة، يدعم صدقها آثار الجراح البادية على جسمه؛ قال:

> «عندما وقفنا كلّنا معاً، فتحوا علينا النار. وكانت هناك ١٣ دبّابة حول المنطقة. لم يكن لدينا أمل. وقد ساعدني أني بعدما أُصِبتُ بساقي وقعت تحت رُكام من الجثث؛ وصار الرصاص يصيب رفاقي. لقد كنتُ أنزف بكثرة؛ ولم أشعر بشيء. وعندما حلّ الليل سحبت نفسي، وزحفت وراء إحدى الدبّابات ثم عبر الحشيش العالي، حتى وجدت حماراً».

رفع نمر عون جسمه بمشقّة حتى صار على ظهر الحمار، وسار به متألّماً إلى بلدة «مارون» اللبنانية، حيث حصل على عناية طبّية. وقد منع أحد موظفي الحكومة الأطبّاء من بتر ساقه، مما جعله لا يزال قادراً على أن يعرج حول منزله في «شبريحا»، الواقعة على بعد ٤٠ كيلومتراً من موقع كان يُسمّى قرية «صلحا» اللبنانية، حيث لا يرتفع هناك سوى بناء واحد؛ أما بقيّة الأرض فصارت كلّها بساتين للبرتقال.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وحتى عام ١٩٩٨، عومل نمر عون مع غيره من الناجين القلائل القادمين من «القرى السبع» عام ١٩٤٨، كفلسطينيين، مع وجود وثائق فلسطينية معهم. ثم قامت الحكومة اللبنانية بمنحهم الجنسية اللبنانية ـ لتكسب بذلك حسنات سياسية. وقد أراني عون تذكرة هويّته اللبنانية، والأرزة اللبنانية قرب صورته على جوازه اللبناني. لقد بدأ حياته كمواطن في الإمبراطورية العثمانية، وصار لبنانياً تحت الانتداب الفرنسي، وانقلب إلى فلسطيني تحت الانتداب البريطاني، وأمسى لاجئاً فلسطينياً في لبنان قادماً من إسرائيل، وفي آخر حياته عاد لبنانياً من جديد.

وتبدو ملفّاتي حول السنوات الأخيرة للانتداب الإنكليزي في فلسطين زاخرة برسائل قُدامى الجيش البريطاني، ومقابلات مع محاربين يهود وعرب، مع قُصاصات معاصرة من الجرائد. إنها قصّة فوضى وألم، و«هجمات إرهابية» ـ بحسب تعبير إسرائيل ـ وتفجيرات، قامت بها منظّمات يهودية مثل «الهاغانا» و«أرغون» و«شترن غانغز». وهناك نشرة بريطانية رسمية من عام ١٩٤٦، يمكن أن تُقرأ كتقرير عن التمرّد العراقي في سنته الأولى ضدّ الاحتلال الأميركي للعراق عام ٢٠٠٣: هجمات على الطرقات وعلى جسور السكك الحديدية، وخطف للضبّاط البريطانيين، ومحطات إذاعة سرّية تبثّ دعاية للمتمرّدين. وقد بدأ راديو «كول إسرائيل» البثّ يوم ١٨ حزيران/يونيو عام ١٩٤٦. وجاء في التقرير: «إن تفجير الجسور عبَّر عن معنويات وشجاعة المحاربين اليهود الذين قاموا به».

وقد أثارت غارات الجيش البريطاني غير المنظّمة ـ الموجّهة ضدّ العرب واليهود ـ عمليات انتقام قاسية. فقد حدث تفجير مقرّ القيادة البريطانية في فندق الملك داوود بواسطة منظمة «أرغون» اليهودية بتاريخ ٢٢ تموز/يوليو ١٩٤٦، وقُتل ٩١ موظفاً من الموظفين المدنيين البريطانيين، واليهود، والعرب. وكان ذلك أكثر الهجمات سوءاً بين التي مُنيت بها قوّات الاحتلال البريطانية. وقد فتحت القوّات البريطانية النار على مدنيين في شوارع تلّ أبيب. وبعد أن شنق البريطانيون ثلاثة من محاربي «أرغون» اليهود، شنقت «أرغون» بالمقابل رهينتيْن من الجيش البريطاني؛ وحدثت هجمات معادية للساميّة عبر بريطانيا. وقد قضى

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الرقيبان في الاستخبارات البريطانية «مرفين بايس» و«كليفورد مارتن» أياماً في مخبأ تحت الأرض في بلدة «ناتانيا»، بينما كانت «أرغون» تهدّد بإعدامهما. وكتب والد «بايس» رسالة استرحامية إلى قائد «أرغون» مناحيم بيغن، الذي صار فيما بعد رئيساً لوزراء إسرائيل، والذي أمر بالغزو الوحشي للبنان عام ١٩٨٢ ـ كما سيفعل أقرباء الرهائن الغربيين مُناشدين الخاطفين العراقيين عاميْ ٢٠٠٣ و٢٠٠٤. ولديّ نسخة من قرار «محكمة أرغون زفاي ليومي في فلسطين» الذي أُلصق على صدرَي الرجليْن بعد إعدامهما. والقرار يقول إن «المحكمة وجدت أن «بايس» و«مارتن» مذنبيْن أوّلاً بدخولهما إلى وطننا؛ وثانياً لانتمائهما إلى «المنظمة الإرهابية البريطانية المجرمة» المعروفة باسم «القوّات العسكرية البريطانية المحتلّة»... وقد نُفّذ الحكم بتاريخ ٣٠ تموز/يوليو ١٩٤٧. وكان شنق الجاسوسيْن... عملاً قانونياً عادياً للمحكمة السرّية التي أدانت وستدين المجرمين الذين ينتمون إلى «جيش الاحتلال النازي ـ البريطاني».

وقد أُرفق بهذه الوثيقة تقرير من الشرطة البريطانية في فلسطين حول العثور على جثّتي الرقيبيْن في أيكة من شجر «الأوكاليبتوس»:

> «لقد كانا معلّقيْن ومتدلّييْن من شجرتيْ «أوكاليبتوس»، على بُعد خمس ياردات أحدهما عن الآخر. وكان وجهاهما ملفوفيْن بالضمادات بحيث يتعذّر تبيّن ملامحهما... وجسداهما بلون قاتم باهت. والدم قد سال على صدريهما، وكأنّما أُطلقت عليهما النار... وقد سُمح للصحافة بأن تصوّر المشهد. بعد ذلك تقرّر إنزال الجثّتيْن. فقام المهندس الملكي النقيب بقطع الأغصان التي تحمل الجثّة الواقعة إلى اليمين، وبدأ بقطع الحبل بمنشار... وحالما وقعت الجثّة على الأرض دوّى انفجار كبير... فقد اقتُلعت الشجرتان من جذورهما، وبدت تحت الجذور فجوتان كبيرتان. ووجِدت إحدى الجثّتين بالغة التشويه على بعد عشرين ياردة... بينما مُزّقت الجثّة الأخرى شرّ تمزيق إلى قطع صغيرة وجِد بعضها على بعد ٢٠ ياردة».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وقد نشرت «أرغون» كرّاسات بلغة إنكليزية ضعيفة، تحثُّ فيها الجنود البريطانيين على الرحيل، لأنهم إذا لبثوا في فلسطين فسيعرّضون حياتهم للخطر يومياً؛ كي يتسنّى للحكومة البريطانية مهلة عشر سنوات كي تقرّر الانسحاب من فلسطين. وقد خالف البريطانيون العديد من قواعد الحرب. ووصف أحد أفراد الشرطة البريطانية كيف كانوا يسافرون على خط السكّة الحديدية من اللّدّ: «كان لدينا عادة في المقدّمة حافلة لنظّار العمّال ومعهم بعض السجناء ـ كي تنفجر بهم الألغام المبثوثة على طول الطريق».

هناك سخرية كبرى في كلّ هذا. فقد جاءت إسرائيل إلى الوجود، بعد حرب عصابات ضدّ استعمار جيش الاحتلال؛ ولكن خلال خمسين سنة، ها هو الجيش الإسرائيلي يصير جيش احتلال ويجابه أيضاً حرب عصابات تقليدية ضدّ الاستعمار في الضفّة الغربيّة وغزّة. ولكن هذا الترابط بين الأمرين غير وارد لدى الحكومة الإسرائيلية. وبتاريخ ٦ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٤٤، اغتال مسلّحون يهود اللورد «مُويْني» الوزير البريطاني المقيم في القاهرة، الذي كان وزيراً سابقاً للمستعمرات وصديقاً حميماً لتشرشل، وكان يدعم مشروع تقسيم فلسطين. وقد أقلق الفلسطينيين اليهود طلبُه من السلطات التركية ردّ السفينة «ستروما» التي كانت تحمل لاجئين يهوداً من المحرقة(*). وجاء على لسانه بعض الملاحظات العِرقية ضدّ اليهود؛ ولكن قلّما تجد من لا يوافقه على أن «العرب الذين عاشوا ودفنوا أجدادهم على مدى عشرين جيلاً في فلسطين، لن يرضخوا طواعية ويسلّموا أرضهم وحكمهم الذاتي لليهود».

وقد حدا مصرع «مويني» بتشرشل إلى التفكير التالي: «إذا تبخّرت أحلامنا الداعمة للصهيونية في دُخان مسدّسات القتلة، وإذا كانت جهودنا لمستقبلها ستُحدث موجة جديدة من اللصوصيّة تليق بالنازيّين الألمان، فهناك أناس عديدون مثلي ينبغي عليهم أن يُعيدوا النظر في الموقف الذي حافظنا عليه بثبات لوقت طويل». ومع ذلك، فقد أُقيم للقاتلَين «إلياهو حكيم» و«إلياهو بن زوري»

(*) بعد رفض مرور تلك السفينة عبر «البوسفور» بوقت قصير، انفجرت وغرق من ركّابها ٧٦٧ شخصاً.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

عام ١٩٧٥ مأتم رسميّ لضمِّهما إلى حضن دولة إسرائيل، حضره رئيس الوزراء، ومأتم عسكريّ حضره نائب رئيس الوزراء وحاخامان رئيسان. وقد سأل ابن «مويْني» ضابط «الهاغانا» السابق «دايفيد هاكوهين»: «لماذا قتل شعبكم والدي؟... ففي النهاية قُسّمت فلسطين، وأنتم الآن تقيمون دولتكم على أساس هذا التقسيم؛ ومع ذلك لم يُقتل أحد منكم لأنه قبل التقسيم».

إن مسألة تكريم القتلة لأنهم من جماعتكم، وإدانة قتلة الجانب الآخر على أنهم «إرهابيون»، هي مسألة تدخل في صميم الصراعات الحديثة. وكذلك فإن حرب عام ١٩٤٨ كانت نذيراً استثنائياً لحدوث حروب أخرى نشبت فيما بعد في الشرق الأوسط ـ تلك الأحداث التي نعتبرها أسباباً للأخطار الحاليّة، لكنها تتجلّى بوضوح بصفتها ملامح صراع قائم في المنطقة منذ زمن يفوق تصوّرنا.

وفي عام ١٩٩٧ قرّرت جماعة من الفلسطينيّين الإنسانيّين في سكوتلاندا الاحتفال بالذكرى الخمسين لقرار الأمم المتّحدة بتقسيم فلسطين، وانتهاء الانتداب البريطاني، وحرب تأسيس دولة إسرائيل، والنكبة الفلسطينية. وذلك عن طريق إصدار نشرات عن أحداث فلسطين اليومية عام ١٩٤٨، مأخوذة في معظمها من صفحات جريدة «السكوتسمان» ـ ذلك المشروع الذي أورث نتائج تخريبية. وفي ما يلي على سبيل المثال، رسالة من «مراسل خاصّ وصل حديثاً من الشرق الأوسط»، نُشرت في تلك الجريدة بتاريخ ١٣ أيلول/سبتمبر ١٩٤٨:

> «ظهر خطر جديد على القانون والنظام في الشرق الأوسط، قادم من قِبل شباب عرب متحمّسين يشكّلون جماعات إرهابية غير منظّمة، يكرهون الأجانب؛ وقد أقسموا على أن يخلّصوا بلادهم من جميع الغربيين، وبخاصّة طبعاً البريطانيين والأميركيين. وقد تلقّى أوروبيون قاطنون في دمشق، وبغداد، والقاهرة ـ وهم تجار نفط في الغالب ـ تهديدات صريحة بأنهم إذا أبقوا على علاقات تجارية مع اليهود، فسيقتلون.... والعمود الفقري لهذه الجماعات عرب فلسطينيون. فقد رأوا بلادهم تُستباح... وخسروا كل شيء كانوا يمتلكونه؛

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بيوتهم، وممتلكاتهم، وأموالهم، ووظائفهم، وليس لديهم شيء آخر يخسرونه. وهم يشعرون أن البريطانيين والأميركيين قد خدعوهم؛ وكذلك الأُمم المتّحدة، وإلى حدّ ما البلدان العربية. ويدركون أن هناك الآن خطراً كبيراً يتمثل في أن يحصل اليهود على الاعتراف والدعم القانوني، وهم يملكون في الوقت الحاضر أحسن جزء من البلاد...».

وكذلك، ألقى «باتريك و. دونافان» ضوءاً مقلقاً آخر على المستقبل في مقال له ظهر في جريدة «السكوتسمان» بتاريخ ١٤ تموز/يوليو ١٩٤٨:

«إن حرب تأسيس إسرائيل بدأت كحرب بسيطة للبقاء على قيد الحياة ـ أو هكذا شعر اليهود، كما يبدو. وكانت الإحصاءات العامّة معروفة غيباً من قِبل كل ولد لوّحته الشمس ـ فكان هناك ٧٠٠ ألف يهودي إزاء ٣٠ مليون عربي، مع توافر الدعم البريطاني لليهود. وكانت كل مستوطنة يهودية تبقى على قيد الحياة بعد أي هجوم عليها، تعتبر ذلك نصراً مؤكّداً... لكنّ العرب برهنوا على قلّة فعاليّتهم. وقد هُزئ بقبول اليهود الاستمرار بالهدنة (وليس هناك من فرق حول صحّة الموافقة إذ إنّ العرب كانوا سيرفضونها أوّلاً). وهكذا، تحرّر اليهود من أي وجوب لضبط النفس. وفي حال خابت جهود الكونت برنادوت(*)، عندئذ يخوض اليهود الحرب بصراحة على أساس الاستيلاء على أكبر قدر ممكن من الأراضي العربية، وإبقاء معظمها في حوزتهم، لأنها ستكون خالية من العرب ومحتلّة من قِبل اليهود...

(*) وقد نظم الكونت فولكي برنادوت، وسيط الأمم المتحدة، عدّة هدنات. وفي ١٧ أيلول/سبتمبر عام ١٩٤٨، اغتالته في القدس منظمة «شترن غانغز» اليهودية، لأنها اعتبرته عميلاً بريطانياً. وكان أحد الرجال الذين أقرّوا باغتيال إسحاق شامير، أحد رؤساء الوزراء المستقبليّين.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ففي حيفا... أقاموا للعرب حيّاً وضيعاً، فيه أربع شوارع حقيرة معزولة، مثلما كانت حال اليهود في «كراكاو» خلال القرون الوسطى. وفي هذا الحيّ يتعيّن على العرب من مسيحيّين ومسلمين أن يعيشوا ويناموا تحت الحراسة. ويمكن لرجال الأعمال العرب أن يطلبوا الحصول على بطاقات مرور، إذا أرادوا أن يخرجوا من تلك القوقعة أثناء النهار... ويبدو من العسير تخيّل شعب مقهور وخائف أكثر من العرب في إسرائيل...»

ومع أن نزع ملكيّة العرب الفلسطينيين يبدو غالباً أمراً يُكتشف من جديد في تاريخ الشرق الأوسط ـ على الأقلّ إلى أن تمكّن المؤرّخون الجُدد، أمثال «بني موريس» من الاطّلاع على محفوظات الحكومة الإسرائيلية لتلك الفترة ـ فقد أوردت الصحافة البريطانية مقالات عن «النكبة» بتفصيلات مصوّرة بيانياً. ففي ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر مثلاً، كتب مراسل «التايمز» من «بيرشيبا» (بئر سبع) يقول:

«لقد هُجّرت القرى العربية، ونُهبت بيوتها البائسة، وحُرق بعضها. والسكّان المقدّر عددهم بعشرين ألف شخص ـ العدد الذي ابتلعه عدد اللاجئين الكبير من الشمال ـ هربوا، ولا يعرف أحد أو يهتمّ كما يبدو أين ذهبوا. ومن الواضح أنهم هربوا مرعوبين، تاركين وراءهم معاطفهم، وأثوابهم المصنوعة من جلد الغنم، وحراماتهم الضرورية لهم إذا كانوا سيبقون على قيد الحياة في الليالي الباردة على تلال الخليل... وفي «بيرشيبا» ذاتها، التي كانت مركزاً مزدهراً لبيع الجمال، لم يبقَ سوى القليل من السكّان. ويقوم الآن بعض الأفراد من الجيش الإسرائيلي بنهب منظّم لتلك البيوت التي بقيت سالمة بعد التفجيرات. وربّما كان من تقاليد الحروب القديمة والضمنية أن يتنعّم الجنود الغازين على حساب المغلوبين. ولكن من الصعب إيجاد عُذر للبعض الذين يهزأون بالدين الإسلامي ويدنّسون مساجده... بتمزيق كتبه المقدّسة ونثرها على الأرض...

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إن هذا المشهد يُحبط عزيمة الذين لاحظوا العناية التي بذلها الجيش الإسرائيلي للحفاظ على قُدسية الأماكن المقدّسة المسيحية في مواقع أخرى، وأولئك المراسلين الذين زاروا اليوم مقبرة الحرب الملكية خارج البلدة. فبالرغم من الصعوبات التي عملوا في ظلّها، قام الوكلاء العرب في آخر لحظة بواجبهم في رعاية قبور البريطانيين والأُستراليين من الجنود الذين ماتوا هنا عام ١٩١٧؛ ولا تزال الورود البريطانية تزهر في رمال الصحراء».

لم يكن التدنيس والقتل مقصوريْن على طرف واحد من أطراف الحرب. فعندما استولى الإسرائيليون على القدس الشرقية عام ١٩٦٧، لاحظوا أن الجنود الأردنيّين استعملوا شواهد القبور اليهودية لأرض الحمّامات. كما أن نصب الكمائن والقتل أصابا العديد من المدنيين اليهود. وقد رافقت تقدّم الإسرائيليين في قرى الجليل مذابح؛ وأحياناً اغتصابات للنساء العربيات الشابّات؛ كما أثبت ذلك البحثُ المعاصر في إسرائيل. ولكن، إذا كان المؤرّخون الإسرائيليون قد أثبتوا حقيقة هذا الأمر، فقد بقي المؤرّخون العرب صامتين حول ما يمكن أن تكون جماعتهم قد ارتكبته في هذه الحرب وسائر الحروب.

وفي كتابي عن الحرب اللبنانية، كتبتُ مطوّلاً عن نزع ملكيّة الفلسطينيّين عام ١٩٤٨، وما تلا ذلك من إخلاء أولئك الفلسطينيين الخائفين لبيوتهم، وهجرة ٧٥٠ ٠٠٠ لاجئ فلسطيني، فضلاً عن الملايين من أبنائهم وأحفادهم، الذين يتلفون في مخيّمات الفقر والبؤس في لبنان، وسوريا، والأردنّ، وفي الضفّة الغربية المحتلّة وسوريا(*). ونظراً إلى العذاب الذي يقاسونه، أصبحت الكتابة عن الفلسطينيين ونقل أخبارهم مسألة عسيرة، ولا سيّما بخصوص قيادتهم السياسية الميؤوس منها، والتضحية بهم والاحتيال عليهم ـ وبخاصّة عندما يتناسى النافذون أن الفلسطينيين هم الضحايا، ويجعلونهم معتدين أمام

(*) أنظر: ويلات وطن، Pity the Nation: The Abduction of Lebanon, N.Y.: Nation Books, 2002, especially p.p.12-47; بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، عام ٢٠٠٥ 161-400.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العالم، كما تفعل إسرائيل بقوّتها الجامحة، وفيما بعد الولايات المتّحدة الأميركية الأكثر هيمنة ـ ناهيك بمحاولاتهم المشجية، والشجاعة، والصلبة لكسب عطف العالم. كل ذلك يجعل الكتابة عنهم خبرة صحافية كئيبة. فكلّما كتبنا عن طردهم من بلادهم خفّ تأثير هذه الكتابة، وزاد سوء معاملتنا كصحافيين.

فحرب السويس ذات الأيام الستة عام ١٩٥٦ ـ وعدم تبصُّر عبد الناصر بقبول تحدّي الجيش الإسرائيلي القوي ـ وصراع الشرق الأوسط عام ١٩٧٣، وغزو إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢، كلّ ذلك سحق الفلسطينيين، بطريقة غير مباشرة، وكذلك بطريقة مباشرة. ففي عام ١٩٦٧، وقعت الضفّة الغربية وقطاع غزّة تحت الاحتلال الإسرائيلي، بحيث توصّلت إسرائيل أخيراً إلى بسط سيطرتها على كامل أراضي الانتداب البريطاني الفلسطينية، فلسطين التي وعد بلفور اليهود بإعطائهم وطناً قومياً فيها ـ مع العلم أن بلفور لم يحدِّد مقدار مساحة الدولة اليهودية في فلسطين، فلنتذكرْ ذلك. كما تبيَّن أن أصدقاء فلسطين العرب كانوا بائسين في مطامحهم العسكرية مثلما كانوا في مطامحهم السياسية. فمحاربة العرب بشواذاتهم، وقلّة استعداداتهم، جعلت الجيوش العربية تنثني أمام ما لدى إسرائيل من قوّة ناريّة، وحِيَل قاسية، ومعنويات أفضل. وهي مميّزات يضاف إليها ما يفهمه كل إسرائيلي من أنه لا يستطيع أن يخسر حرباً واحدة. وكان نجاح الجيش المصري المبدئي عام ١٩٧٣ ـ لا تُصدَّق أخباره بشأن استيلائه على خط بارليف وجنوده ـ قد ضاع بسبب التردّد العسكري المصري. ولكن «حزب الله» اللبناني أثبت أن إسرائيل يمكن أن تُغلب ـ وهو الحزب المدعوم من قبل إيران وسوريا. فانسحاب إسرائيل عام ٢٠٠٠ من المنطقة التي احتلّتها في لبنان وتفكيك سجن التعذيب الإسرائيلي في بلدة الخيام، يبقيان من الأحداث العسكرية الهامّة في الحرب العربية الإسرائيلية ـ مع أن الإسرائيليين الخاسرين لم يعتبروها خسارة، وأن الأميركيين أصدقاء الإسرائيليين، رفضوا أن يتعلّموا الدروس.

وعلى مدى هذه السنوات الطويلة، كانت هناك ظاهرة بارزة لا تتغيّر واقعياً،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حافظت على توازن القوى في الشرق الأوسط: ألا وهي دعم إسرائيل الثابت، غير الناقد، والإلزامي غالباً. فقد أصبح «أمن» إسرائيل ـ أو الافتقاد المفترض لأمنها ـ هو مقياس كل المفاوضات، وكل التهديدات الحربية، وكل الحروب. فالظلم الذي فُرض على الفلسطينيين، ونزع أملاكهم وطردهم، وإخضاعهم للمجازر، وخسارة الجزء الأكبر من فلسطين لبناء دولة إسرائيل ـ والاعتراف بها دولياً ـ فضلاً عن احتلال إسرائيل لما تبقّى من أراضي فلسطين إبّان الانتداب البريطاني، والقمع الدموي لأي مظهر من مظاهر المقاومة الفلسطينية؛ كل ذلك يأتي في الدرجة الثانية بعد أمن إسرائيل، وما تمثّله من قِيَم متحضّرة وديمقراطية يُروَّج لها باستمرار. وجيشها الذي تصرّف غالباً بقسوة وقلّة انضباط، اعتُبر نموذجاً «لطهارة السلاح»، وكلّنا من الذين شهدوا قتل إسرائيل للمدنيين، وأُسيئت معاملتنا ووصِفنا بأننا كذّابون ومعادون للساميّة، أو أصدقاء «للإرهاب».

إن الإبلاغ عن الإسراف في استخدام العنف من قِبل الفلسطينيين ـ كخطف الطائرات، ومهاجمة المستوطنات اليهودية غير الشرعية، والتفجيرات الانتحارية ضدّ الأبرياء، بينما الجاني يلفّ المتفجّرات على جسمه ـ كل ذلك «إرهاب» نقيّ وبسيط، ينذر بالخطر، ويُعزل بسهولة عن التعقّل، والقضية، والتاريخ. وما دام الفلسطينيون يُتَّهمون بارتكاب جرائم لأنهم يكرهون إسرائيل أو اليهود، أو لأنهم ضدّ الساميّة (بالرغم من أنهم ساميّون)، أو يمثلون «الشرّ» ـ وما دام الأميركيون يعودون فيما بعد إلى استخدام هذه الأوصاف والتفسيرات ضدّ أعدائهم العرب ـ فإن الفلسطينيين يُعتبرون خارج نطاق العقل والمعقول. لا يمكن التكلّم معهم، أو مفاوضتهم؛ إذ لا يمكن «التفاوض مع إرهابيين».

و«الإرهاب» كلمة صارت وباء على مُفرداتنا، وأصبحت عُذراً، وحُجّةً، ورخصة أخلاقية للقيام بعنف الدولة ـ عنفنا ـ الذي يُستخدم الآن للإيقاع بالأبرياء في الشرق الأوسط، بشكل شائن ومفضوح. الإرهاب، الإرهاب، الإرهاب. لقد صار نقطة توقّف، وأداة ترقيم، وعبارة وخطاباً، وعِظة، وكيان كل شيء، ونهاية كل شيء لكل شيء، والمفهوم الذي يجب أن نكرهه من أجل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

التنكّر للظلم، والاحتلال، والقتل على مستوى جماهيري. الإرهاب، الإرهاب، الإرهاب. إنه لحن موسيقي، سمفونية، أوركسترا تُعرض على كل محطّة تلفزيون وراديو، وتقرير من وكالات الأخبار. إنه المسرح اليومي للشيطان، يُقدّم في أوقات الذروة، أو يُصفّى بشكل مُمِلّ وكذوب في تقارير «المعلّقين» الأميركيين على الشاطئ الشرقي من الولايات الأميركية المتحدة، أو في «الجيروزالم بوست»، أو لدى مثقّفي أوروبا. فلنضرب الإرهاب. والانتصار على الإرهاب. والحرب على الإرهاب. والحرب المستديمة على الإرهاب. قلّما حدث في التاريخ البشري أن انحاز الجنود، والصحافيون، ورؤساء الجمهوريات، والملوك بهذا الشكل إلى عدم التفكير وعدم المساءلة. ففي عام ١٩١٤، اعتقد الجنود أنهم عائدون إلى ديارهم في عيد الميلاد. وما زلنا حتى اليوم نحارب إلى الأبد. الحرب أبدية. والعدوّ أبدي، لكنّ وجهه يتغيّر على شاشاتنا. فمرّة يعيش في القاهرة، ويبدي شارباً، ويؤمّم قناة السويس. ثم يعيش في طرابلس الغرب، ويلبس ثوباً عسكرياً غريباً، ويساعد جيش التحرير الإيرلندي، ويفجّر حانات الأميركيين في برلين. ثم يلبس ثوب إمام مُسلم ويشرب لبن الزبادي في طهران، ويخطّط لثورة إسلاميّة. ثم يرتدي ثوباً أبيض ويعيش في كهف بأفغانستان. ثم يُظهر شارباً غريباً آخر، ويقيم في سلسلة من القصور حول بغداد. الإرهاب، الإرهاب، الإرهاب. وأخيراً، يعتمر الكوفية، ويلبس زيّاً عسكرياً للسخرة على شاكلة السوفيات، ويحمل اسم ياسر عرفات، ويصبح سيّد الإرهاب العالمي، ورجل دولة عظيماً، وسيّد الإرهاب من جديد، ويرتبط بحسب تقدير أعدائه الإسرائيليين براعي الإرهاب سيدهم، الذي يعيش في كهف بأفغانستان.

هنا يتمثّل كل ما هو شرعي وكل ما هو تاعس بشأن الحُلم الفلسطيني. لديّ تسجيل على شريط لعرفات، وهو جالس معي على تلّ بارد قاتم خارج مرفأ طرابلس الشمالي في لبنان عام ١٩٨٣، حيث كان الرجل «الختيار» ـ كانوا يسمونه «الختيار» قبل أن يصبح مُسنّاً ـ تحت الحصار الذي ضربه عليه الجيش السوري، أحد «الإخوان» العرب، بدلاً من الإسرائيليين. والأسوأ من ذلك أن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

السوريين استدرجوا بعض الفلسطينيين لينضمّوا إليهم في الحصار. ولم يكن قد مضى عام على حصار منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت لمدّة ٨٨ يوماً من قِبل الجيش الإسرائيلي، الذي كان يقوده وزير الدفاع أرييل شارون. والآن يعود حظّ عرفات إلى الانهيار. والتسجيل يهسهس، بصوت القذائف التي تسقط ويُكتم صوتها على جانب التلّة. وها أنا أستمع إلى التسجيل وصوت الريح حول المذياع:

عرفات: لن أبتعد عن المحاربين معي من أجل الحريّة، وهم يجابهون الموت، وخطر الموت... واجبي أن أكون مع هؤلاء المحاربين من أجل الحريّة، مع ضبّاطي وجنودي.

فيسك: منذ عام مضى، تحادثنا في بيروت الغربية. والآن نحن على رأس تلّة تلفّها الريح خارج طرابلس، على بعد ٥٠ ميلاً من حدود إسرائيل أو فلسطين، وهناك متمرّدون داخل «فتح».

عرفات: أترى؟ هذا إثبات آخر على أننا جوزة لا يسهل كسرها. آمل أنك لا تزال تتذكّر ما قاله شارون عند بدء غزوه. لقد كان يحلم بأن يصفّي أو يسحق منظمة التحرير الفلسطينية خلال ثلاثة أو خمسة أيام، ويقضي على شعبنا ومحاربينا المجاهدين من أجل الحريّة. وها نحن الآن لا نزال صامدين. مرّ علينا حصار بيروت، ومعارك جنوبي لبنان، هذه الأعجوبة التي صمدنا فيها ٨٨ يوماً كأطول حرب بين العرب والإسرائيليين. ثم جاءتنا حرب الإنهاك ضدّ الجيش الإسرائيلي. ولسنا وحدنا نحن الفلسطينيين ـ قطعاً ـ بل نحن وحلفاؤنا اللبنانيون الذين يسهمون معنا في حرب الإنهاك. وإني معتزّ جدّاً بهذا الحلف الشجاع.

فيسك: على بعد خمسين مِيلاً من فلسطين؟!

عرفات: وما الفرق بين خمسين ميلاً وخمسين ألف ميل؟ إن متراً واحداً خارج حدود فلسطين، يجعلني بعيداً جدّاً عنها.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فيسك: أعتقد أن «السرطاوي»(*) هو الذي قال مرّة أنك إذا ثابرت على إحراز الانتصارات على شاكلة انتصار بيروت في العام الماضي، فإنك ستعقد اجتماع العام التالي للمجلس الوطني الفلسطيني في «فيجي».

عرفات: أرجوك. أرجوك. لا تعطني هذا المثل.. إنه من أشجع شهدائنا؛ إنه شهيد شجاع؛ لكنه كان متأثراً... ولم يستطع التغيير...

لقد كان عرفات حالماً. وهي صفة ملازمة للفلسطينيين الذين ليس لديهم سوى الأحلام يعطونها لشعبهم. ولو كان المطلوب منه التسوية، لتكلّم مع الإسرائيليين، وأشار إلى قبوله بتقسيم فلسطين، حيث يقول: «سأقبل ولو إنشاً مُربّعاً من أرضي»؛ إذ لم تكن النسبة الجغرافية من مشاغله الكبرى. ولكن عندما يُحرج الفلسطينيين ـ والعالم ـ أحد أتباع منظمة التحرير الفلسطينية الغرباء، بقتله أحد الأبرياء، يتدخّل عرفات لمنع تفاقم المأساة، واكتساب احترام مستمدّ من الجرائم التي ترتكبها منظّمته. وقد تجلّى ذلك بوضوح عام ١٩٨٥ في رحلة الباخرة التطوافية «أشيل لورو» الإيطالية، حيث انبرى أربعة أعضاء أعمارهم دون العشرين، من جبهة التحرير الفلسطينية، وهي جماعة صغيرة منشقّة عن منظمة التحرير الفلسطينية، رئيسها محمد زيدان (أبو العباس)، ليسيروا بالسفينة إلى شاطئ حيفا، ويحتجزوا رهائن إسرائيليين، ويطلبوا الإفراج عن سجناء فلسطينيين في سجون إسرائيل.

ولكنّ بعض أفراد طاقم السفينة اكتشفوا أمرهم قبل الوصول إلى إسرائيل، فقام المسلّحون وسيطروا على السفينة، ووضعوا ركّابها البالغ عددهم ٤٧٦

(*) عصام السرطاوي، الموظف في منظمة التحرير الفلسطينية، وجرّاح القلب الذي نصح عرفات بمفاوضة المعتدلين الإسرائيليين. قُتل في البرتغال في نيسان/أبريل عام ١٩٨٣ ـ قبل محادثتي مع عرفات بشهرين تقريباً ـ على يد مسلّحين من جماعة «أبو نضال» والمجلس الثوري لفتح. وقد تمّ ادّعاء المسؤولية عن ذلك في «قلب العروبة النابض»: سوريا، التي تحاصر الآن عرفات.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

شخصاً والطاقم المؤلّف من ٨٠ شخصاً تحت رحمتهم؛ كما قتلوا بدم بارد العجوز المتقاعد المقعد اليهودي «ليون كلينغوفر» البالغ من العمر ٦٩ سنة، ورموه في البحر ـ وهو لا يزال في مقعده النقّال ـ قرب الشاطئ السوري. وهُرع عرفات بالطائرة إلى القاهرة دون أن يدري بعملية القتل، ليمارس دوره كقائد إنساني، وأمر الخاطفين أن يجيئوا بالسفينة «أشيل لورو» إلى مصر. وقد سردت تقارير الجرائد من بورسعيد ـ بما فيها تقريري إلى «التايمز» اللندنية ـ كيف أن عرفات «مثّل دوراً رئيسيّاً في إيجاد حلّ سلمي لأزمة شغلت الولايات المتحدة، وسوريا، ومصر. وما إن وصلت السفينة المشعشعة مثل شجرة عيد الميلاد تحت ضوء القمر إلى قناة السويس قبل الفجر، حتى عرفنا كلّنا ما حدث.

كان السفير الأميركي في القاهرة «نيكولاس فيليوتس» يتكلّم بانفعال أمام دبلوماسيّيه عن «أولاد الحرام» الذين قتلوا «كلينغوفر» بينما كان نور الفجر يظهر السفينة الكبيرة وهي تتبع زورقاً صغيراً للمراقبة كي ترسو عند مكتب شركة قناة السويس المزخرف بالجصّ. وعندما بدا السفراء الأجانب الآخرون خارجين من السفينة بعدما تفقّدوا رعاياهم بين الركّاب، تبيّنت معالم القصّة كلّها. قال السفير النمساوي فرانز بوغان: «كان الرجل الأميركي على ظهر السفينة في كرسيّه، ولا أدري لماذا. وكان الوقت ليلاً. وأخبرني القبطان أنه عندما سمع الطلقات، انحنى على جانب الجسر ورأى ثياب أحد الإرهابيين ملطّخة بالدم».

ثم أشرقت الشمس عبر القناة، وأظهرت بُقعة قاتمة تبدو كبقيّة طِلاء على جانب السفينة تحت الجناح (أ). لقد كانت من دم «ليون كلينغوفر» المتناثر عندما دفعوه من السطح إلى البحر. وقامت السلطات المصرية بترحيل الخاطفين مع أبي العبّاس في طائرة «بوينغ» مصرية، أقلعت من مطار عسكري قرب القاهرة إلى تونس حيث قيادة منظمة التحرير الفلسطينية. لكنّ الأميركيين بدورهم خطفوا تلك الطائرة وأجبروها على النزول في أحد مطارات حلف الأطلسي في إيطاليا. وقد سمّى الرئيس مبارك ذلك غاضباً: «قرصنة جوّية»؛ وتبيّن أنها من مغامرات المقدّم «أوليفر نورث» المحكوم عليها بالإخفاق. وهناك منع الجنود

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الإيطاليون المسلّحون، وهم شاهرو السلاح، القوّات الأميركية من اعتقال الفلسطينيين. وأُرسل أبو العباس إلى يوغوسلافيا. وصارت قصّته الباقية مُلغزة كما كانت مُميتة. فبعدما عفا عنه الإسرائيليون شكلاً، سُمح له بالرجوع إلى غزّة بعد اتفاق «أوسلو» عام ١٩٨٣، كأحد رجال الدولة الصغار ـ لكنه وُجد في بغداد بعد عشر سنوات، حيث قبضت عليه القوّات الأميركية التي ادّعت أنها ألقت القبض على «أحد الإرهابيين الكبار». وأقرّ الأميركيون بعد أشهر دون أي اعتذار، أنه مات «بأسباب طبيعية» تحت رعايتهم في العراق.

وبعد أقلّ من ثلاث سنوات على حادثة «أشيل لورو» الفاشلة، ظهر ياسر عرفات في «ستراسبورغ» ليخطب في الأعضاء الاشتراكيين ضمن البرلمان الأوروبي. وكانت الجريدة اليومية المحلية تسألة ـ مثلما يسأل المتظاهرون في الخارج ـ متى ينوي عرفات أن يتخلّى عن الإرهاب؟ ـ كما لو كان «الإرهاب» شكوى صحّية، مثل الإدمان على الكحول. وممّا كان هامّاً في هذا الأمر أن الصحيفة ذاتها عادت بعد ٢٤ ساعة إلى التكلّم عن انتصار عرفات. وبدلاً من التشهير به لدى زيارته إلى «ستراسبورغ» جعلوه مُستأسداً. وقد دعا إلى السلام مع إسرائيل. وحيًّا يهود إسرائيل بمناسبة بداية السنة اليهودية ـ وباللغة العبرية ـ لقد أراد إقامة دولة في الضفّة الغربيّة وفي غزّة ـ وكان ذلك للذكرى، في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٨؛ فقد ظنّ أن إطلالته بصفته «إرهابيّاً سابقاً»، تساعد قضيّته.

وفيما بعد سنحت لي الفرصة لأن أحشر عرفات بسؤال ـ وكان يرمقني بعينَي ذئب ـ إذ سألته عمَّا إذا كان أيّ لاجئ فلسطيني يُسمح له بأن يعيش في دولة الضفّة الغربية، أي واحد من الملايين الخمسة الذين جاءت عائلاتهم أصلاً من ذلك الجزء من فلسطين المسمّى اليوم إسرائيل، فلم يرتحْ للسؤال؛ وقال بضعف: «كلّ فلسطيني يحقّ له جواز سفر». أجل، ولكن هل يستطيع أن يعيش في الدولة الفلسطينية الجديدة؟ فأجاب عرفات: «يمكن أن يُقبر هناك، على الأقلّ». وكان جواباً غير موفّق، كما شعر بذلك معاونوه فوراً؛ وحاول الذين كانوا على يساره مقاطعته بالكلام، لكنّ عرفات عاد وكرّر القول ذاته.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ولكن هل يستطيع أيّ فلسطيني أن يذهب إلى فلسطين ليعيش هناك؟ هذا هو السؤال الذي كرّرته بدوري. فلا بدّ أن يكون الفلسطينيون راغبين في أن يعيشوا في فلسطين، لا أن يموتوا هناك. فماذا تفيدهم أرض الوطن، إذا لم يتمكّنوا من أن يلمسوها إلّا في القبر؟ فهل يمكن للشتات الفلسطيني أن يعود ويعيش في دولة الضفّة الغربية؟ بعد أن كرّرتُ ذلك للمرّة الرابعة، حصلت غمغمة بين مساعديه، ثم أجابني متهلّلاً: «يحقّ ذلك له قطعاً». وكان ذلك جواباً صحيحاً وخاطئاً في الوقت ذاته. إنه جواب صحيح لأنّ من حقّ كل فلسطيني أن يعيش في بلاده، وخاطئ لأن عرفات لن يسمح لملايين الشتات الفلسطيني بأن يدخلوا الضفّة الغربية. فيصبح سكّان فلسطين في هذه الحال أكثر من سكّان إسرائيل - مما لا يسمح به الإسرائيليون، ولا يقدر عليه عرفات. وفي كانون الأول/ ديسمبر، كان عرفات قد قبل بتقسيم فلسطين. ولكن لم يقدِّم هذه الصيغة أمام اللجنة الخاصّة للأمم المتحدة في جنيف. فأمام هذه الهيئة المهيبة ولا سيّما بالنسبة إلى الأميركيين - قبِل وجود إسرائيل. وفي خطابه للأمم المتحدة، وفي مؤتمره الصحفي بعد ذلك تخلّى فعلاً عن فكرة العودة إلى حدود الانتداب البريطاني. فتلك الأرض التي آلت الآن إلى إسرائيل، ستبقى لإسرائيل بالرغم من وجود ثلاثة أرباع المليون من الفلسطينيين اللاجئين الذين غادروا بيوتهم هناك.

ثم جاء خطأ عرفات التقليدي الذي يميِّزه: دعمه لصدّام حسين بعد غزوه للكويت عام ١٩٩٠. فقد كان ذلك قراراً اتّخذه في حالة انفعال وليس في حالة تعقّل. فصدّام حسين بطل الحرب الإيرانية ـ العراقية، الذي أوقف القبائل الفارسية، والذي لم يخف من ضرب إسرائيل بالصواريخ: أليس شريكاً مقدَّراً في تأسيس الدولة الفلسطينية؟ قد يتساءل المؤرّخون العرب يوماً عمّا إذا كان أجدر بزعمائهم أن يستعملوا انفعالاتهم أقلّ من استعمالهم لعقلهم، عندما يقرّرون مصير شعبهم. وقد انحرف الزعماء الغربيون وغيّروا اتجاهاتهم كثيراً بين هذين القُطبيْن، فقد قدّموا ببرود خططهم الاستعمارية عند انهيار الدولة العثمانية، أجروا حسابات قاسية بقسوة عندما خطّطوا لغزو السويس، وكانوا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

واقعيين عندما قرّروا تحرير الكويت، ومأسورين بالسياسة والشعور بالإثم لدى دعمهم إسرائيل، وانفعاليين إلى درجة الجنون عند غزوهم للعراق. لقد كان عرفات تحت سيطرة الانفعال. كان يمثّل شعباً فلسطينياً سليب الأرض ومحتلاً لأكثر من أربعة عقود، ومع ذلك كانت صورة هذا الشعب في أميركا ـ وفي وسائل التواصل الجماهيري بعامّة ـ شعباً خطِراً، «إرهابياً» لا مُبالياً، يشكّل تهديداً للشعب الآخر الذي استولى على بيوت الفلسطينيين وأملاكهم، واحتلّ كل شبر من أراضيهم بكاملها منذ عام ١٩٦٧.

ولكنّ خطأ عرفات الأكبر، أي دعمه لصدّام حسين، أعطاه انتصاراً كبيراً وفارغاً جدّاً. فقد قطعت عنه بلدان الخليج الغنية ولا سيّما الكويت ـ المعونة المالية؛ وسخر منه العالم؛ فشاطر الملك حسين ملك الأردنّ مصيره: لقد صار ضعيفاً إلى درجة لم تعد تقبل به إسرائيل كشريك لإقامة السلام. وأوّلاً لم يعد يُسمح للفلسطينيين بأن يمثّلوا أنفسهم. فقد سمح الرئيس جورج بوش الأب للفلسطينيين بحضور مؤتمر مدريد حول الشرق الأوسط كجزء من الوفد الأردني الذي لم يُدعَ عرفات إلى المشاركة فيه. ولكن في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٩١، اجتمع العرب والإسرائيليون ـ الذين كانوا برئاسة إسحق شامير، مع كثير من الممانعة ـ في العاصمة الأسبانية تحت رعاية النظام العالمي الجديد لبوش؛ دون أن تكون لدى أيّ منهم رغبة في تدبير الأمر.

وكانت يد جورج بوش الأب هي القاطعة في اتخاذ القرارات في سلام الشرق الأوسط إذ قال: «دعوهم يضعوا حلاًّ... لسنا هنا كي نفرض حلاًّ». ها هو الرئيس الأميركي قبل ٢٤ ساعة من دخوله المبنى الأثري من القرن الرابع عشر «بالاشيو ريل» الذي سيعقد فيه المؤتمر، وهو مبتهج جذلان بتسليمه المسؤولية المستقبلية إلى الشعوب التي تقطن المنطقة التي سمّاها بوش ذاته تكراراً «الزاوية المضطربة من العالم».

ومَن يريد أن يراجع التاريخ طبعاً يتذكّر قصراً آخر ومؤتمراً آخر للسلام، حيث قام المنتصرون بتوزيع أسلاب المهزومين على أنفسهم. فقصر «بالاشيو ريل» في مدريد ليس قصر «فرساي»؛ ولكن كانت هناك تشابهات واضحة

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

متوازية بينهما. وكان ميخائيل غورباتشيف حاضراً أيضاً هناك، ذلك «الخاسر» في الحرب الباردة؛ تلك الشخصية الباسمة المطاوعة، التي توافق برزانة على كل ملاحظات الرئيس الأميركي. لقد كانت المناقشة تدور في هذا الصرح «البوربوني»، حول مستقبل حلفاء غورباتشيف العرب السابقين.

لا يستطيع أحد أن يجادل بشأن الفرق في الحجم والنطاق. فقد حضر مؤتمر باريس حول السلام عام ١٩١٩ أكثر من عشرة آلاف موفد. وكان لأرمينيا، أكثر الضحايا دماً مسفوحاً، أربعون وفداً مستقلاً. وقد دعم الملك فيصل، ملك العراق، القضيّة الصهيونيّة ـ وكان الصهيونيّون يريدون لأنفسهم أمّة تمتدّ أراضيها عُمقاً في ما يُسمّى اليوم الجنوب اللبناني. وفي مدريد، بعد مرور سبعين سنة، كان عدد الموفدين قليلاً، والنظّارة أكبر. فقد وصل إلى مدريد ستّة آلاف صحافي وعضو في فريق تلفزيوني؛ وأكثرهم لن يروا السادة: بوش، وغورباتشيف، ووجهاء الشرق الأوسط شخصياً. بل سيجلسون في خُمّ القاعة الكبرى، ويراقبون صنّاع السلام على شاشات تلفزيون عملاقة، وهو معادل فقير بالنسبة إلى الصورة الأخيرة التي رسمها «وليم أوربن» للويد جورج وكليمنصو في قاعة المرايا بقصر فرساي.

وقد تمثّلت بلدان الشرق الأوسط على الأقلّ في مدريد. فمن باريس، أُخذ فيصل ليَطوف في أرض المعارك التي جرت في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨؛ ثم خُدِع من قِبل البريطانيين والفرنسيين. وكان على الصهيونيين أن ينتظروا ٢٩ عاماً كي يُنفّذ وعد «بلفور». لكنّ ويدرو ويلسون اعتصم بنقاطه التي يبلغ عددها ١٤ ما دام في باريس. وفي مدريد لاحظ الدبلوماسيون الأميركيون رفض جورج بوش التعليق على قراريْ مجلس الأمن في الأمم المتحدة ٢٤٢ و٣٣٨، اللذين يطلبان من إسرائيل الانسحاب من أراض عربية محتلّة، واللذين كانا بالنسبة إلى العرب حجر الزاوية في كل معاهدة سلام. ولم يتكلّم بوش عن «مبادلة الأرض بالسلام»، وكذلك كان موقف المطيع ميخائيل غورباتشيف. والرجل الذي أرسل عام ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ نصف مليون جندي لتطبيق قرار مجلس الأمن ـ الذي طلب من جيش آخر في الشرق الأوسط، جيش العراق، أن ينسحب من أرض

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عربية أخرى محتلّة، أرض الكويت ـ شعر بأنه يستطيع أن يطرد قتامة التاريخ، إذ قال جورج بوش: لا أريد أن أعود إلى أعوام الفروقات(*). وبالنسبة إلى الأميركيين، كان الحاضر هو المستقبل؛ وبالنسبة إلى العرب والإسرائيليين، كان الحاضر أيضاً هو الماضي. لقد كانوا هم، وليس الأميركيون، الذين ذكّروا بأن اليهود والمسلمين كانوا يعيشون بسلام في أسبانيا. وقد بُنيَ قصر «بالاشيو ريل» على أساسات قلعة بناها العرب للدفاع عن طليطلة.

وعلى الأقلّ اتفقت جميع الوفود في مدريد حول «اللّه». فقد ناشد الرئيس بوش الله تعالى في بدء المؤتمر، وطلب منه المساعدة. ومدح شامير رئيس وزراء إسرائيل «اليهودية لأنها أشاعت الاعتقاد بإله واحد». وذكّر «أبو جابر» وزير خارجية الأردن المؤتمر «بأن الله خلق الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا». وبسمل حيدر عبد الشافي «بسم الله الرحمن الرحيم»؛ وصلّى فارس بويز وزير خارجية لبنان قائلاً «ليسدِّدْ الله خطانا ويهدينا». وهكذا، كان الله الشخصية الوحيدة التي نالت الاتفاق والشهادة الصحّية النظيفة في بدء مؤتمر مدريد حول السلام.

لكن اللغة الإنكليزية التي اختار أن يتكلّم بها معظم المؤتمرين لم تكن

(*) إن قرار مجلس الأمن في الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ الصادر بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٧، الذي أكد على «عدم جواز حيازة الأرض بالحرب»، طلب: «انسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من أراض محتلة في النزاع الحديث»، و«إنهاء كل المطالب أو الأوضاع الحربية، واحترام الاعتراف بالسيادة، وسلامة الأراضي، والاستقلال السياسي لكل دولة، وحقّها في العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها». وهذا الجزء الأخير يشير ضمناً إلى اعتراف العرب بحق إسرائيل في الوجود. ولكن إسرائيل التي باتت تحتلّ الضفّة الغربية وغزّة، كرّرت دعواها بأن طلب الأمم المتحدة منها الانسحاب استعمَل كلمة «أراضٍ» دون ال التعريف ـ وبالتالي عنى أنه ليس على إسرائيل أن تنسحب من جميع الأراضي التي احتلّتها عام ١٩٦٧. ومن غير المعقول أن يكون الذين صاغوا القرار ٢٤٢ قصدوا أن تعطى إسرائيل حق انتخاب واختيار أيّ جزء تتركه من الأرض التي احتلتها، وأيّ جزء تحتفظ به. ثم إن ادّعاء إسرائيل بأنه يُسمح لها بأن تحتفظ بأراضٍ عربية لأن حرب ١٩٦٧ كانت عملاً عدوانياً من قبل العرب، وأن تلك الأراضي احتُلّت أثناء حرب دفاعية، هذا الادّعاء تقوّض بتأكيد قرار الأمم المتحدة على «عدم جواز حيازة الأرض بالحرب». ولا يزال الإسرائيليون والعرب يتجادلون حول معاني هذا القرار القصير الصياغة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كذلك. ولو كانت الشعارات والرواسم الشكلية تؤول إلى السلام لوقف الاقتتال في الشرق الأوسط. فالسعي من أجل السلام «لا يلين» (شامير)، و«إن قيود الكره» يجب أن تزول (أبو جابر)؛ وإن هناك «ضوءاً في آخر النفق» (عبد الشافي)؛ وثمّة «فجر جديد» (فاروق الشرع، وزير خارجية سوريا) سيبزغ من «ليل الظلام الطويل» (أبو جابر أيضاً). وكانت الاستشهادات فرجاً وارتياحاً: من القرآن الكريم، وألبرت أينشتاين، والنبي قزحيا وياسر عرفات، ومارك توين، والفيلسوف اليهودي «يهودا هلڤي»، والشاعر الفلسطيني محمود درويش؛ وقد تم الاستشهاد بأقوالهم جميعاً من قِبل الموفدين الملائمين. واستشهد شامير بمؤلّف «هاكلبيري فين» لإثبات أن فلسطين كانت برّية قبل وجود إسرائيل، وشِعْر درويش لشرح أن الوطن الفلسطيني لم يعد يتمثّل بحقيبة لاجئ. وقد لوّح الحاضرون بالمُثل العُليا النبيلة كالسكاكين: «الحقوق الإنسانية»، و«الحرية»، و«العدل»، و«السلام»، و«الوفاق» و«وحدة كلّ أمّة من الأمم»، و«الشرعيّة الدولية».

ويبدو في بعض الأحيان أن درجات العذاب بدلاً من الشرعية يُفترض بها أن تعطي السلام. فقد ذكّر شامير بطرد اليهود (وليس المسلمين) من إسبانيا، وبالمحرقة اليهودية. واعترف العرب بخطايا ألمانيا النازيّة، ولكنهم سألوا لماذا يجب عليهم أن يدفعوا الثمن. وكان هاجس عبد الشافي تهجير الفلسطينيين عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧؛ ومأساة الاحتلال. وذكّر بويز بالحرب الأهلية في لبنان التي دامت ١٦ سنة، والغزو الإسرائيلي المزدوج للبنان. وكان هناك نوع من التوازن في الحذف. فشامير أراد أن يعرف لماذا يتجاهل العرب قرار الأمم المتحدة الرقم ١٨١ الذي أعلن وجود دولة إسرائيل(*)؛ بينما طلب أبو جابر من إسرائيل التقيّد بالقرار ٢٤٢. وبدت تحت مستوى بلاغة الكلام قلقلة أخرى. فالعرب يريدون استرداد أرضهم والسلام مع إسرائيل، والإسرائيليون يريدون

(*) كان من مزاج الغضب النموذجي في مدريد أنه لم يُشر أحد إلى قرار الأمم المتحدة الرقم ١٨١ لعام ١٩٤٧، الذي دعا إلى تقسيم فلسطين - ورفضه العرب - ورسم الحدود، التي تجاهلتها إسرائيل حالما وسّعت أراضيها بعد حرب ١٩٤٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

السلام مع الاحتفاظ ببعض الأرض. قال شامير إن الكلام عن الأراضي هو أسرع أسلوب للوصول إلى طريق مسدودة. ولكن عندما أشار عبد الشافي إلى «حلم إسرائيل التوسّعي» خبط شامير بيده اليسرى على الطاولة.

وكان أول شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٩١ يوم الغضب الشديد في مدريد. فالشيوخ «الملالي» في طهران، نظّموا ضمن الأسبوع ذاته «يوم غضبهم الشديد» ضدّ محادثات السلام في مدريد؛ ولا بدّ أنهم سُرّوا بغضب مدريد. وربّما حاول صدّام حسين أن يفتح تُحفة مُبدعة. فقد كان القسم الداخلي من غرفة الولائم في قصر «بالاشيو ريل» في اليوم الأخير من الحلقة الأولى أكثر من مُخْزٍ. ولو لم أكن هناك، لما فهمت طبيعة السمّ الذي أظهره العرب والإسرائيليون بعضهم تجاه بعض. ولم يكن معظم عيب المشهد راجعاً إلى الاتهامات المتبادلة «بالإرهاب»؛ أو إلى القرار المستغرب لرئيس وزراء إسرائيل بأن يخرج مدموغاً بالاستنكار بعد خطابه الأول، لأنه يريد أن يرجع إلى إسرائيل قبل يوم السبت؛ أو قرار وزير خارجية سوريا بأن يلوِّح بملصق قديم من أيام الانتداب يمثّل «إرهابياً» يهودياً شاباً يُدعى إسحق شامير؛ بل لأن الإسرائيليينِ والعرب استخدموا مؤتمر السلام ليتكلّموا عن الحرب.

وقد اتّهم شامير السوريين بخطف الطائرات، وقتل المدنيين، وإخضاع الطائفة اليهودية في سوريا لـ «إرهاب مستمرّ». وقال: «إن الفلسطينيين كان لهم قائد «تعاون مع النازيّين من أجل إبادة اليهود أثناء المحرقة» ـ حتى الحاجّ أمين الحسيني، كما يبدو، كان له موقع على طاولة مؤتمر مدريد ـ بينما اتّهم فاروق الشرع وزير خارجية سوريا شامير بالكذب، وإسرائيل بخطف طائرات مدنية، وإطلاق النار عليها. ثم أبرز المُلصق القديم لشامير «الإرهابي»: «عمره ٣٢ سنة، وطوله ١,٦٥م...»، كما قرأ الشرع في مُلصق المطلوبين البريطاني. وفي هذه الأثناء، جلس العرب والإسرائيليون، وكأنّ على رؤوسهم الطير، وقد تعرّقت وجوههم تحت مصابيح الإرسال التلفزيوني. لقد كان هناك نوع من التنويم المغنطيسي في هذا الجمود بشأن التاريخ القتّال للشرق الأوسط. ولقد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كان طول شامير ١,٦٥ متر أي أكثر من خمسة أقدام عندما كان عمره ٣٢ سنة، وليس أقلّ من ذلك؛ كما أراد الشرع أن يثبت بدقّة.

وكان وزير الخارجية الأميركي جيمس بيكر قد وصفهم بأنهم يتّخذون أوضاعاً في جلوسهم استجابة للكاميرات التي تصوِّرهم. ولكنّ الأمر ليس كذلك. فمشاهدة وجوههم وهم جالسون إلى الطاولة التي اتخذت شكل (T) أي خطّين متعامدين، تُظهر أنهم متجهّمون، ومرتابون، ويقظون ـ وكأنهم أحياناً صور لغيظ مكبوت ـ وكان واضحاً أنهم يكرهون بعضهم بعضاً. ولو كان لدى الموفدين أسلحة آليّة لهرعوا إلى الأبواب. وحول جدران قاعة الولائم كانت صور نصفية متغطرسة للقياصرة الكبار تنظر ملياً بصلابتها الرخامية إلى الخيبة المؤسفة للنخوة الشجاعة في هذا المؤتمر. فشامير سبق أن انصرف، طبعاً. مع العلم أنه يُسمح لليهودي بأن يخالف التعطيل يوم السبت إذا كانت الحياة الإنسانية هي موضوع المراهنة؛ ولكنه آثر أن يغادر المؤتمر ـ الذي يشمل مفاوضات قد تُنقذ ما لا يحصى من الأرواح ـ دون أن يستمع إلى الموفدين الآخرين. ومهما كانت أسبابه للقيام بذلك صادقة ومخلصة، فقد ظهر كأنه أعذر نفسه للذهاب إلى موعد مع طبيب الأسنان. مع أن عبد الشافي ذكَّر الإسرائيليين بكرامة قائلاً: «لقد اخترنا البقاء في هذا المؤتمر اليوم بدلاً من أن نذهب لنقوم بشعائرنا الدينية».

وكان شامير قد قال إن نقد سوريا لإسرائيل «يوسّع حدود السذاجة إلى اللانهاية». فكيف يتجرّأ الشرع أن ينتقد سجلّ إسرائيل بشأن الحقوق الإنسانية، بينما كانت سوريا «أحد الأنظمة الأكثر قهراً في العالم»؟ فأجاب الشرع «إنها أكاذيب»، واتهامات إسرائيل «مختلقة تماماً»، فالإسرائيليون قتلوا أول وسيط للأمم المتحدة وصل إلى المنطقة. وإذ ذاك، بدأت أفكّر في أن علينا، نحن معشر الصحافيين، أن نصل في المستقبل إلى مؤتمرات السلام ومعنا «قائمة وقائع». أجل كي تُعلّمنا. فيهود سوريا لم يكونوا كلّهم أحراراً في مغادرة البلد ـ وقد عوملوا معاملة سيّئة من قِبل الأنظمة السابقة ـ ولكنهم أحرار الآن في ممارسة شعائر دينهم. أجل، إن الإسرائيليين أسقطوا فعلاً طائرة مدنية ليبيّة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تاهت في الفضاء الإسرائيلي. أجل، لقد أجبر الإسرائيليون طائرة مدنية تحمل موظّفين حكوميّين سوريّين على الهبوط في تلّ أبيب. أجل، إن لسوريا سجلّاً مروِّعاً بشأن الحقوق الإنسانية. أجل، إن شامير وزملاءه في منظمتَي «شترن» و«أرغون غانغز» اليهوديتين قتلوا مدنيّين. أجل، لقد قتلت فرقة إعدام يهودية الكونت «فولكي برنادوت» عام ١٩٤٨. أجل، إن الحاجّ أمين الحسيني شجّع «هتلر وهملر» على منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وربّما ساعد بذلك على جعل آلاف من يهود أوروبا بين الهالكين.

ولكن، كان المفروض أن يكون هذا المؤتمر مؤتمر سلام، ومكاناً للتسوية، وليس محاكمة حول القتل. وقد برز عبد الشافي بحقّ للمطالبة بوقف الاستيطان اليهودي في المناطق الفلسطينية، وقبوله حاجة إسرائيل إلى الأمن، مصرّاً على «أن هذا هو الذي يجلب الأمن، وليست المداورات». وناشد وزير خارجية مصر عمرو موسى الموفدين بأن يتجنّبوا «الخطابات الانفعالية» وأدان «أحلام شامير التوسّعية». ومع ذلك بقيت القضيّة مُحزنة، وكانت الاستجابات لها غير وافية عمقاً.

ومن الناحية الرسمية، كان مؤتمر مدريد معقوداً تحت رعاية الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي ـ ولذلك حضر غورباتشيف ـ فضلاً عن الأمم المتحدة. ولكن في قاعة الاجتماعات الكبرى قرب القصر، لم يكن هناك شكٌّ في مَن يدير هذه العملية. فالأميركيون كان لهم مكاتب عديدة، عامرة بمئات من الموظفين الحكوميين. وكان للأمم المتحدة مكتبان، وبعض البيروقراطيين وآلة فاكس. وكان للروس مكتب واحد، دون آلة فاكس.

وقد أقرّ شامير فيما بعد أن نيّته الوحيدة في مدريد كانت المراوغة والمماحكة. أما العمل الحقيقي، والاقتراحات الحقيقية للسلام فكانت تُدبّج من قِبل العرب في الفنادق الفخمة التي عُيِّنت لهم خارج مدريد.

فسوريا مثلاً، أعدَّت خطّة من ١١ نقطة للشرق الأوسط. وطلبت فيها انسحاباً شاملاً وكاملاً من كلّ الأراضي المحتلّة، مع قبولها بوجود منطقة

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

منزوعة السلاح على الجانبين الإسرائيلي والسوري، وإمكان بقاء عدد معيَّن من المستوطنين اليهود تحت السيادة العربية ضمن فلسطين «المحرَّرة» في الضفّة الغربية. وقد جاءت هذه الخطّة بالمطالب السورية القُصوى، بعد تسلّم الرئيس حافظ الأسد رسالة توكيد من وزير الخارجية الأميركي جيمس بيكر جاء فيها بحسب قول السوريّين، إن الولايات المتحدة الأميركية ترفض قبول ضمّ الجولان من قِبل إسرائيل، وضمّ القدس الشرقية وشرعية المستوطنات الإسرائيلية في الضفّة الغربية.

وقد أُعِدّت المقترحات السورية، التي أكّدت أنه لا محيد عن قرارات الأمم المتحدة ٢٤٢، و٣٣٨، و٤٢٥(*)، بعد زيارة قام بها جيمس بيكر إلى دمشق أجرى خلالها محادثات مع الأسد. وقد قال الرئيس السوري لبيكر إنه «لا يمكن مناقشة قرارات الأمم المتحدة»، إنما يجب أن تُنفَّذ بكاملها، وأردف قائلاً: «لو جرت مناقشة قرارات الأمم المتحدة مع العراق لبقي الجيش العراقي حتى الآن محتلّاً للكويت». وقد تأثر أسلوب الأسد المصرّ على حيازة «كل شيء ـ أو لا شيء» بشأن الانسحاب الإسرائيلي، «برسالة مستقلّة» وُجّهت إلى الحكومة اللبنانية، بحسب قول السوريين أيضاً، وورد فيها أن إسرائيل قد تنسحب من لبنان على مراحل. وأنها «تعيد الأرض مقابل السلام»؛ ولكنها ترفض التخلّي عن الجولان، والضفّة الغربية، وغزّة، وقد نبّه الأسد وفده المتوجّه إلى مدريد بأنه إذا جرى التخلّي عن أيّ من قرارات الأمم المتحدة، فهو يعتبر مؤتمر مدريد «صفراً ولاغياً».

وبينما لم تكن سوريا تقترح بقاء جميع المستوطنات اليهودية في الضفّة الغربية، فقد كانت مستعدّة لدرس إبقاء مُقيمين من اليهود في الضفّة يتمتّعون بحرّية الانتقال من إسرائيل وإليها، دون أن يرفعوا العلم الإسرائيلي في

(*) جاء القرار ٣٣٨ الصادر عام ١٩٧٣ يكرّر جوهرياً محتوى القرار ٢٤٢. أما القرار ٤٢٥ فقد طلب انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان، لكن إسرائيل انسحبت من المنطقة التي احتلتها في لبنان عام ٢٠٠٠، بعد ٢٢ سنة من التصويت على القرار ٤٢٥ في مجلس الأمن بالأمم المتحدة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مستوطناتهم، مع قبولهم للسيادة العربية. وقد قال لي الشرع شخصياً إنه: «إذا لم تقبل إسرائيل هذا، فبوسعنا أن نطلب رفع الأعلام العربية مع السيادة العربية في القرى العربية الواقعة داخل إسرائيل». ولكن يمكن أن لا يقبل السوريون أيضاً بعض التسوية، مثل ما سمّاه الأميركيون «تدابير بناء الثقة» ـ أي وجود مراقبين عسكريين، وإنهاء حملات الدعاية ـ قبل بدء الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة. ولن تنتهي المقاطعة الاقتصادية لإسرائيل، ولن يكون هناك اتفاق حول مصادر المياه، حتى يقوم الإسرائيليّون «بانسحاب شامل من الأراضي المحتلّة».

وفي محادثات السوريين الشخصيّة مع الأميركيّين، أصرّوا على أنهم سيفاوضون أيضاً حول القضية الفلسطينية والجولان معاً، لمنع الإسرائيليين من استغلال ضعف الوفد المشترك الأردني ـ الفلسطيني في المؤتمر، فحقّ الفلسطينيين في «تقرير المصير» ـ العبارة الهامّة جدّاً التي تتضمّن إقامة دولة مستقبلاً ـ يجب أن يكون بالمشاركة مع الأردنّ وليس «ضمن الأردنّ». وقال السوريون إن رسالة خاصّة من بيكر إلى الأسد رفضت الاعتراف بتوسّع إسرائيل في المنطقة الإدارية للقدس. فكل المستوطنات الإسرائيلية المبنيّة حول القدس الشرقية منذ عام ١٩٦٧ ـ التي يزعم الإسرائيليون الآن أنها جزء من المدينة، (وبالتالي جزء من إسرائيل) ـ تُحسب جزءاً من الضفّة الغربيّة، حيث تعتبر الولايات المتحدة إقامة المستوطنات عملاً غير شرعي. فالقدس الشرقيّة ذاتها يجب أن ترجع إلى السيادة العربية، لكنّ السوريين مستعدون لدرس «إجراءات إدارية» ـ تسمح لأتباع جميع الأديان ـ بمن فيهم يهود إسرائيل، طبعاً ـ بدخول المدينة المقدّسة. وتعتقد سوريا بأن ٦٠٪ من مصادر المياه في إسرائيل تأتي من الضفّة الغربية، والجولان، وجنوبيّ لبنان ـ ولذلك أراد الأسد حصول تفاوض بين الإسرائيليين والعرب على أساس التكافؤ في المحادثات بعد الاتفاق العسكري ـ عندما لا تستطيع إسرائيل أن تطالب بما هو غير مقبول ومعقول.

ولم يكن من العسير تبيّن زعامة عرفات عبر الفلسطينيين المشاركين في المؤتمر ضمن الوفد المشترك الأردني ـ الفلسطيني. ولمّا منعوه من حضور

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مؤتمر مدريد، صار الإسرائيليون يسعون إلى أن لا يتأثر عبد الشافي والأكاديمية الدبلوماسية حنان عشراوي بمنظمة التحرير الفلسطينية «الإرهابية» ـ مع العلم أن عرفات قابل الأسد قبل المحادثات، وأعطاه وعداً بالاعتصام بقرارات الأمم المتحدة؛ ثم نقضه خلال سنتيْن. وقد روى موظّف فلسطيني على لسان الأسد قوله لعرفات: «سنحصِّن أنفسنا بالشرعية الدولية، لأن مطالبنا تتوافق مع الشرعية الدولية».

وجاءت خيبة الرئيس بوش في الانتخابات عام ١٩٩٢ فقوَّضت زخم محادثات الشرق الأوسط. وبينما كانت إدارة بوش قد قامت بإنجازات في السياسة الأميركية الخارجية، لم تكن ملاحظات كلينتون الأولى مشجِّعة تماماً. وكان الوعد الوحيد الذي نطق به في مؤتمره الصحفي الأول، تعليقاً جانبياً بمعنى أنه «سيبقي عملية السلام في الشرق الأوسط جارية، مع المحافظة على استمراريّتها». وكان تعبير «عملية السلام» قد سبق أن كُرِّس كرَوْسم شكلي، وصار السلم في السنوات القادمة يشبه حافلة قديمة صرَّارة لسكّة الحديد، تخرج عن مسارها إلى خط جانبي، لتعود فتوضع من جديد على مسارها الأساسي. وكان الحصاد هزيلاً لدى الإسرائيليين، والفلسطينيين، والأردنيين، والسوريين، واللبنانيين، الذين يضيّعون الآن وقتهم في أجنحة فنادق واشنطن. وفي الأسبوع الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٩٢، طغت على اجتماعاتهم بإشراف وزارة الخارجية الأميركية مقطوعة إسرائيلية هزلية، لدى محادثاتهم المتعدّدة الأطراف في «أوتاوا»، عندما رضي الإسرائيليون بمتابعة المفاوضات، ونُمي إليهم أن أحد الموفدين الفلسطينيين ـ الذين اعترضوا على مشاركته، لأنه ينتمي إلى منظمة التحرير الفلسطينية ـ هو عضو في المجلس الوطني الفلسطيني، وبالتالي تحقّ له المشاركة، ولكنّ عضويته كانت قد «انتهت».

وفي واشنطن، وجدتُ رئيس الوفد السوري موفق علّاف مكتئباً لأن كلينتون لم يبدُ يبدو مستوعباً للقضايا الداخلة في المحادثات ـ حتى لو أراد الرئيس الجديد أن يتغاضى عن وعده قبل انتخابه بأن ينقل السفارة الأميركية من تلّ أبيب إلى القدس. واشتكى علّاف من أن إدارة بوش انغمست في هذا الأمر منذ

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أربع سنوات على الأقلّ، وكانت عملية السلام مرتبطة بالجهود الشخصية لبوش وبيكر، ولكن. . . أيّ رئيس، حتى لو جاء إلى الحكم بأفكار مسبقة غير مبنية على معلومات متوازنة، سيدرك عمّا قريب وقائع الوضع من منظور المصالح الأميركية».

وتوجَّس الموفدون العرب الآن خيفة أكثر من أي وقت مضى من أن الوقت الذي يستغرقه الوصول إلى أيّ اتفاق سيكون مُضراً لبلادهم. وقد أسرّ الفلسطينيون في مقابلات غير رسمية إلى الصحافيين بأن الاعتراض على مشاركتهم في المحادثات يقوى في الضفّة الغربية وفي غزّة. وكان السوريون مهتمّين جدّاً بتأثير إخفاق المفاوضات على الأصوليّين الإسلاميّين في سوريا. وكانت المفاوضات حول التفاصيل مؤلمة. فقد استغرق إقناع الإسرائيليين من قِبل الموفد الفلسطيني صائب عريقات، أشهراً لكي يمتنعوا عن تسمية الضفّة الغربية بالاسم التوراتي: «يهودا والسامرة» ـ تلك التعابير التي تُلغي اسم «فلسطين» من الرواية الإسرائيلية. ولم يحصل ذلك إلّا بعد أن انحنى «داني روتشيلد» أحد الموفدين الإسرائيليين، وهمس أنه سيسمّيها: «أراضي» عندما يتوقف الفلسطينيون عن تسميتها «بأراضٍ محتلة». وهكذا حصلت تسوية: وصار الفلسطينيون يرمزون إلى الأراضي الفلسطينية المحتلّة بأوائل حروفها (Palestinian Occupied Territories = POT).

إن استغراق المفاوضات سنة كاملة للوصول إلى هذا المستوى من «تجارة الأحصنة لفظياً» يستدعي تعليقاً غير سعيد عن المحادثات. أراد الفلسطينيون أن يتكلّموا عن الأرض؛ بينما أراد الإسرائيليون أن يتحدّثوا عن «الوظائف المحوّلة». أراد الفلسطينيون أن يتكلّموا عن «الاستقلالية الانتقالية»، بينما أراد الإسرائيليون أن يتحدّثوا عن «الاستقلالية الفاصلة». أراد الفلسطينيون أن يتكلّموا عن بلد اسمه فلسطين، بينما لم يُرد الإسرائيليون سماع ذلك. وبقيت القدس موضوعاً غير مطروق خلال المحادثات البينيّة، ومفتوحاً للمناقشة في المراحل الأخيرة من المفاوضات.

وكانت المشكلة بالنسبة إلى الفلسطينيين أن الإسرائيليين أرادوا أن يتكلّموا

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عن «ازدواجية الأراضي»، والصلاحيات القانونية المتراكبة؛ كما أنهم لا يريدون أن يحكم العرب المستوطنين اليهود في «فلسطين» المستقلّة، أو فصل القدس الشرقية عن إسرائيل. ومع أن سائقي السيّارات العمومية الإسرائيلية لم يعودوا يتجرّأون على العبور في شوارع المدينة ليلاً منذ عام ١٩٩٢، فلا بدّ أن تبقى القدس «عاصمة إسرائيل الثابتة والموحّدة». تقدَّم الإسرائيليون بمقترحات حول «المناطق العربية»، و«المناطق الأمنية»، و«مناطق المستوطنين»، ومنطقة يفترض أن «يتعاون» فيها الفلسطينيون والإسرائيليون. وقد قالت ناطقة إسرائيلية في واشنطن إن حكومتها أدركت أن الأرض التي يملكها العرب موجودة في تلك المناطق، وكانت مستعدّة للاعتراف بهذه الملكية، لو كانت مدعومة بوثائق قانونية. لكنّ معظم تلك الأراضي مختلف عليها. فما هو القانون الذي يُفترض أن يسود هناك؟ القانون الإسرائيلي؟ أم القانون الأردني قبل حرب عام ١٩٦٧؟ قانون الانتداب البريطاني؟ أم القانون العثماني؟».

إن الفلسطينيين لن يقبلوا بذلك. وقد تعذّر على عُريقات الغاضب أن يسيطر تماماً على غضبه عندما كان لا يزال بانتظار معاودة بدء المحادثات في واشنطن. وعندما خاطبته قال: «نحن نريد أن نعطيهم ضمانات أمنية. لكنّ الإسرائيليين هم الذين خلقوا هذه المشكلة في المقام الأول بإنشائهم المستوطنات. وهم الذين أحدثوا ما سمّوه «مناطق أمنية» على أرضنا. ومنذ عام ١٩٦٧ اقتصرت حرية التعامل بالوثائق القانونية والقوانين على الإسرائيليين بخصوص الضفّة الغربية. ولماذا علينا أن نقبل بكل هذا التراكب في الوظائف؟ يجب أن نُعطى مزيداً لا مقداراً أقلّ من النفوذ. وإذ ذاك تكون لدينا السلطة لحكم قومنا، وإعطاء إسرائيل الضمانات الأمنية التي تقول إنها تحتاج إليها».

ولا شكّ في أن الموفدين الفلسطينيين في واشنطن كانوا يمثّلون دور الشعب المقهور، وبالتالي كانوا غير قادرين على تقديم تنازلات تُذكر ـ لأن أرضهم محتلّة ـ ولكنهم حاولوا التوفيق بين تنازلات المحتلّين وتلطيف مطالبهم بالاستقلالية. قال أحد الموظفين الفلسطينيين: «عندما أذهب إلى غرفة الاجتماعات في وزارة الخارجية، وأرى روتشيلد منسّق الأراضي، أشعر كأني

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جالس مع سجّاني». وكردّ فعل قال لي أحد الموفدين الإسرائيليين غاضباً: «لسنا هنا في المحادثات أمام مَن يحاكمنا. إن هذه الجلسات ليست محاكمة، حيث نناقش مَن فعل كذا بمَنْ، إن التاريخ هو الذي خلق هذه المشكلة».

قلت في رسالة من واشنطن في تشرين الثاني/نوفمبر من عام ١٩٩٢، إن العرب خائفون من أن تُضعف إسرائيل قوّتهم عن طريق استفراد الدول العربية واحدة واحدة، وعقد صفقة معها، كما فعلت مع مصر عام ١٩٧٩. ولذلك تخشى سوريا من أن يعقد الأردنّ اتفاقاً منفرداً مع إسرائيل. كما خشي عرفات من أن تفعل سوريا الشيء ذاته... وكان الأردنّ قد سبق أن أعدّ مسودة روزنامة لمفاوضات السلام النهائية مع إسرائيل، تضمن الأمن المتبادل للبلدين... وحلّ مشكلة بُقعتين من الأراضي الأردنية...».

وسيظهر خلال أشهر أن «عقد صفقة هو تماماً ما تحضّر له إسرائيل «ولكن مع الفلسطينيين بدلاً من السوريين أو الأردنيين». وأُعيد الموفدون الفلسطينيون من واشنطن ليجدوا أن عرفات سعى من وراء ظهورهم إلى فتح قنواته السرّية مع الإسرائيليين، وكان يفاوض إذ ذاك حول خطة سلام مستقلّة وإنما مقدّر لها الهلاك أيضاً. وهكذا، تبخّر بين ليلة وضحاها كل ما فعله العرب أو ما سعوا في واشنطن لإنجازه. ولكنّ المشكلات التي جابهتهم والتفاصيل التي شوّشتهم خلال تلك الشهور الطويلة، منذ مؤتمر مدريد الكئيب، ستظهر كلّها عام ١٩٩٣ في اتفاقية «أوسلو» الخاطئة والمقدَّر لها أن تتصدّع. وسيحاول الآن عرفات وموظّفوه غير المدرّبين - والذين ليس بينهم محامٍ واحد - أن يتغلّبوا على الحجج التي أعدّها المفاوضون الإسرائيليون الأكثرُ ثقافة وفطنة يغريهم وَهْمُ دولة فلسطينية، مع عاصمة لها في القدس. وهو شيء لن يُعطَوه أبداً قطعياً.

وليس من العسير أن يرى المرء لماذا رأى الإسرائيليون والفلسطينيون مصلحة مشتركة لهم في عقد صفقة سرّية. فاحتلال إسرائيل يسير إلى مزيد من الوحشية؛ كما تكتسب الفصائل الفلسطينية الدينية مزيداً من القوّة، ولا سيّما «حماس»؛ ممّا كان يخيف الإسرائيليين والقيادة الفلسطينية على السواء. ومنذ سنوات وإسرائيل تشجّع «حماس» على بناء المساجد وتقديم الخدمات

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الاجتماعية كمنافسة لمنظمة التحرير الفلسطينية، وقائدها «الإرهابي الكبير» المنفيّ.

وكما ساعدت أميركا على خلق أُسامة بن لادن وصدّام حسين، كذلك رعت إسرائيل «حماس» وقادتها من الأئمّة ومُحاربيها المؤمنين بصواب مسعاهم، والذين يطالبون اليوم بفلسطين - كلّ فلسطين - للفلسطينيين. وفي آخر الأمر، هؤلاء هم الذين أنقذوا عرفات من الإهمال، بنفوذهم كمنافسين إسلاميين بين الفلسطينيين، وما بلغوه من مدى في استنزاف إسرائيل ضمن الأراضي المحتلّة. ولولا معارضة «حماس» و«الجهاد الإسلامي»، لما كان للإسرائيليين رغبة في الانسحاب. ولولا وجودهم - ووجود تلك المطالب الإسلامية الشاملة التي لا تقبل التسويات، والتي فاقت بكثير مطامح عرفات - لما اهتم الإسرائيليون قيد أنمُلة بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية أو بإرجاع قطعة صغيرة من فلسطين إلى عرفات.

غزّة في ٢٠ نيسان/أبريل ١٩٩٣. لن يسمح الإسرائيليون لسيّارة الإسعاف الصحّية بالمرور. وقد منعوا أيضاً جماعة الأمم المتحدة. كما منعوا أيضاً الأطفائيين، بينما كانت النار تشتعل والدخان يتصاعد من «طوفه» بضواحي غزّة. وكان باستطاعتنا أن نسمع الانفجارات طوال اليوم، تتخلّلها رشقات المدافع الرشّاشة، وهدير المروحيّات التي تحوّم حول تلك الأحياء الفقيرة. إن الإسرائيليين مشغولون بخسارة حربهم في غزّة. ولكن ليس الأمر كذلك بالنسبة إلى الفلسطينيين. فعبد الرحمن الشبكي يتألّم أمام الأشعّة السينيّة في مستشفى «الأهلي» مع جزء من رصاصة إسرائيلية فائقة السرعة استقرّت على بعد ٣ إنشات من قلبه. لقد كان الإسرائيليون يفعلون ما يريدون في «طوفه». قال لي الشبكي بينما كان الدكتور صلاح ساف يضع لفافات من الأربطة في المنطقة الواقعة تحت قلبه: «سرت في الشارع أثناء منع التجوّل، وتصوّرت أنهم سيسمحون لي بالذهاب إلى بيتي».

جاءت الممرّضات بمجموعة من صور الأشعّة السينية، تظهر إحداها لطخة بيضاء مُنذرة بسوء اخترقت الحجاب الحاجز في صدر «الشبكي»، وبدت مرفوعة

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

في الضوء تحت أنظار أفراد عائلته وأصدقائه الغاضبين الذين كانوا يتمتمون مستائين. وقد رأى هذا الشاب الفلسطيني البالغ من العمر ٢١ سنة الجندي الإسرائيلي الذي أطلق النار عليه مباشرة في صدره. وكان غضب الفلسطينيين الشديد بادياً، حتى قبل أن يُنقل الشبكي إلى «طوفه». سألني أحد الفلسطينيين الملتحين: «ماذا تفعل هنا؟»، بينما كنتُ أُلملم نفسي في إحدى الصيدليات، محاولاً الإفلات من قبضة الرائد الإسرائيلي الذي كان قد لوّح أمام وجهي بوثيقة الحظر في هذه «المنطقة العسكرية المغلقة»، وأمرني بالخروج من شارع صلاح الدين.

صاح بي الفلسطيني «نحن نحتاج إلى مساعدة، وأنت تأتي إلى هنا لترانا نرقص». وكنّا قد رأينا لتوّنا أول دفعة من الأسرى، المحتجزين في «طوفه»، يجلسون في سيّارة الجيب الإسرائيلية مطأطئي الرؤوس.

لا يقول الإسرائيليون لماذا يقومون بهذه الغارة على «طوفه»، ولكن لا يشكّ أحد في غزّة في أنهم يفتّشون عن المسلّحين الفلسطينيين الذين قتلوا «إيلان فاينبورغ» بالسكّين والفأس منذ يومين، بينما كان يجلس في مكاتب وكالة التعاون الأوروبي للإنماء. وقد أعلنت مسؤوليتها عن قتل هذا المحامي الإسرائيلي مجموعة من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» ملقّبة «بالنسور الحمر» ـ وكم لدينا من ألقاب في حروب الشرق الأوسط الذاتية المنشأ ـ وربّما قاموا بذلك لاستفزاز الإسرائيليين ليقوموا بعمليّات عسكرية تثير حفيظة آلاف الفلسطينيين. وإذا كان هذا الظنّ صحيحاً فقد نجحوا.

ما هو الإنجاز الحاصل من كل هذه الأمور؟ هكذا سألت الرائد الإسرائيلي، بينما كنّا في شارع صلاح الدين، وكان الأولاد الفلسطينيون على أُهبة أن يشعلوا النار بالإطارات الأولى لذلك النهار، على بعد مئة ياردة عنا. أليست غزّة حالة لا يُرجى منها نفع للإسرائيليين، كحرب سبق أن خسرتها إسرائيل؟ قال الضابط مجيباً: «ماذا تقترح أن نفعل، وماذا نستطيع أن نفعل؟ ـ طيّب، ما قولك بمغادرة غزّة؟ فأجاب: «إنها مسألة سياسية». وكان مصيباً؛ لأنه مهما حرق الإسرائيليون من أحياء فقيرة بائسة ليثأروا لمقتل «فاينبورغ»، ومهما

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أوقفوا من الفلسطينيين، ومهما منعوا سيّارات الإسعاف من المرور وحجزوها خارج «المناطق العسكرية» حيث يسود منع التجوّل، فقد خسر الإسرائيليون الحرب في غزّة. إن جدران غزّة ملأى بخربشات وأقوال الكره والحقد، والمطالبة بإعدام المتعاونين مع إسرائيل، فضلاً عن التهديدات بالنار والدم الصادرة عن مقاتلي «حماس» ومنظمة التحرير الفلسطينية. وحالما يغادر الإسرائيليون شارعاً من الشوارع يقع ذلك الشارع فوراً تحت سلطة الفلسطينيين.

وفي اليوم التالي عرفنا ماذا حدث فعلاً في شارع صلاح الدين، وماذا كان ذلك الرائد يحجبه عنا من حقائق. فقد عثر الإسرائيليون على مسلّح من «حماس» في «طوفه»، يُدعى زكريا شربجي وينتمي إلى «كتائب القسّام»؛ فقتلوه بسلاح خفيف مضادّ للدروع. وأخذ الفلسطينيون رأسه، بينما أخذ الإسرائيليون جسده؛ مما خلق مشكلة لأرملته وأهله في مخيّم «جباليا» للاجئين. وكان دمه لا يزال يلطّخ جدران الكوخ المسحوق الذي قُتل فيه مع صفحات غير معطوبة من القرآن الكريم الذي سقط من جيبه عندما قُتل ـ كما أورد محبّوه الخبر. وقد لاحظ أحد زوّار المزار الجديد «أنهم أخذوا عظام رأسه ودماغه، بينما كان الإسرائيليون قد أخذوا جسده».

لم ينكر أحد أن الشهيد كان ينتمي إلى «حماس»، وأن له طفلاً لم يبلغ بعد السادسة من عمره. وقد كان متوارياً عن الأنظار في «جباليا» و«طوفه» هرباً من الإسرائيليين. ولما كان الإسرائيليون ميّالين عادة إلى إيقاع عقوبة جماعية أيضاً، فقد أحرقوا الشوارع المجاورة وفجّروا ما لا يقلّ عن ١٧ بيتاً فلسطينياً ـ كانت تأوي حوالى ٢٠٠ شخص ـ خلال ١٢ ساعة. وتلك كانت الانفجارات التي سمعتُها من شارع صلاح الدين. والركام حول آخر معقل للشربجي صار مشهداً للصراخ والغيظ من قِبل حوالى ألف فلسطيني تجمّعوا ليروا آثار البطش الإسرائيلي في الجدران والسقوف المتهدّمة، والمفروشات المحروقة، والثياب والأفرشة الممزّقة، والبرّادات المسحوقة، والغسّالات وأجهزة التلفزيون التي تركها الإسرائيليون وراءهم. إن المرء ليعجب ويسأل: «أين ينتهي العِقاب وأين يبدأ التخريب المتعمّد؟».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ولكن ليست هذه هي القضيّة التي يناقشها أهل الفقيد. فمع أنهم لم يحظوا بجسده، قرّروا إقامة المأتم على كلّ حال في مخيّم جباليا. وهي خطوة كان للإسرائيليين ردُّ فعل فذّ عليها؛ إذ أعلنوا أن جباليا «منطقة مغلقة» ويُمنع فيها التجوّل. كما هي العادة في قاموس مفرداتهم.

يجب دراسة هذا التعبير بعناية. فمنع التجوّل في غزّة يسري مفعوله حالما يخرج الضابط الإسرائيلي ورقة و«يخربش» عليها بوضع اسم وتاريخ وساعة؛ كما حدث لي عندما حاولت أن أزور أقارب الشربجي؛ وعندما أوقفت دورية للشرطة الإسرائيلية سيّارتي أصدرت أمرها السرمديّ إليّ: «ممنوع التصوير». فأين هو القانون الذي يمنع أخذ الصور في غزّة؟ جاءني الجواب فوراً، عندما انبرى شرطي يرتدي بِزَّة خضراء، إذ إنه عربي إسرائيلي، ويضع نظّارة قاتمة، وأخرج ورقة مطبوعة من جيبه كُتب عليها بسرعة: «جباليا، ٢١ نيسان/أبريل، الساعة ٦:٠٠»، تحت عنوان «منطقة عسكرية مغلقة». فهل نأخذ له صورة وهو يوقّع هذه الورقة؟ طبعاً، إذ إن «كوفكا» لا يعترض على ذلك.

لكن هذه اللعبة التخمينية ليس لها تأثير يُذكر على شوارع غزّة. فحالما يبدأ رشق الحجارة على الإسرائيليين من وراء دخان الإطارات المحترقة، يعقبه فوراً ظهور الجرحى المصابين بالرصاص، وهم يئنّون من الألم، ويُنقلون إلى مستشفى «الأهلي». وهناك، وصل رجل مصاب برصاصة مكسوّة بالبلاستيك استقرّت في عمق فخذه، بينما وصل آخر يجري الدم من جرح أحدثته رصاصة في كاحله. أما الأطبّاء فيعطون هؤلاء الجرحى مسكّنات، ويفحصون الجروح وينظّفونها، ويُخرجون منها الرصاص، رصاصة رصاصة، ويرمونها في صينية معدنية ترنّ مع كل رصاصة، في مسرح العمليات.

وقبل حلول الظلام، رأيتُ بعض الرجال الملثّمين ـ واثنان منهم يحملان فأسيْن ـ يظهرون في مأتم الشربجي، في برّية من الرمل وسط مدينة غزّة. أخذوني إلى شارع فقير حيث كانت قطعة من الإسمنت قائمة وسط قدم مربّع من الرمل الذي نُبش حديثاً عند أسفل حائط. هناك أسرّ إلينا بوقار موظّف مُلتحٍ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

من «حماس» قوله: «هنا قبرنا دماغه؛ وهناك بعض أجزاء من فكّه» مشيراً إلى ناحية شجرة. وأضاف: «هل تريد أن ننبشها لنريها لك؟».

واستمرّ إطلاق النار ثلاثة أيام في غزّة. وكان الضحايا الفلسطينيون ـ من مسلّحين، وراشقي حجارة، وأولاد، وعابري سبيل ـ تصطادهم الأسلحة، كما لو كانت المعارك المسلّحة عبارة عن عواصف مُمطرة، تحمي نفسك منها داخل البيت إذا شئت؛ إذ لم تعد هذه الحال شيئاً مخيفاً أو غير حقيقي أو حتى غير طبيعي. وفي الفوضى والهستيريا اللّتيْن تسودان مستشفى الشفاء، كان من المتعذّر أن تسأل الأطبّاء عن هويّة كلّ ضحيّة، ما دامت أثوابهم ملطّخة بالدماء، وما داموا مغمورين بالصياح والصراخ. وخلال وقت منع التجوّل بتاريخ ٢٤ نيسان/أبريل، جيء إلى المستشفى بعدد من الفلسطينيين الجرحى بإطلاق النار عليهم يبلغ ٢٧ شخصاً، و١٣ إلى مستشفى الرفاع، و٢٥ إلى عيادة مستشفى «الأهلي»، وصار المجموع ٦٥ شخصاً جرحهم الإسرائيليون خلال ثلاث ساعات من منع التجوّل. وكانت آثار الدماء ظاهرة عبر مدخل مستشفى الشفاء. وكان معظم الجرحى ما زالوا يتظاهرون ضدّ تدمير البيوت في منطقة «طوفه».

وعندما وصلتُ إلى المستشفى بعد الساعة السادسة مساء مباشرة، كان أقرباء الجرحى يصيحون ويبكون عند المدخل. وكان هناك عدد من الشبّان وولد صغير مُستلقين على الأسرّة؛ والدم يغمر سيقانهم أو صدورهم؛ بينما كان شخص آخر مفتوح الثياب، يسيل الدم على صدره، ويلهث بقوّة وهو مُمدّد على طاولة، ويبدو أثر رصاصة اخترقت ذقنه. وعلى شاشة فوق رأسه خط أخضر يؤشر على استمرار الحياة، أو هبوطها، أو تعطّل وظائفها. صاحت الممرّضة: «لقد دخلت الرصاصة إلى دماغه؛ إنه في وضع حَرِج»؛ بينما كان الأطبّاء يدخلون أنبوباً إلى حنجرته، وإبرة تغذية بالمصل في ذراعه. كما كانوا يدخلون أصابعهم في فمه حتى لا يبلع لسانه. ولكنه مات أمامنا، فأغلق عينيه، وتدلّى رأسه إلى اليمين، وصُعِق الأطبّاء لعدم استطاعتهم إنقاذ حياته. وظهرت ضربات القلب على الشاشة كخط أخضر رفيع. وفي أقلّ من دقيقة، عمد الرجال الملتحون من

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أقاربه إلى تكفينه ووضعه على المقعد الخلفي لسيّارة «بيجو» بيضاء قديمة، وهم ينشدون أناشيد دينية. وكان حشد من الناس الواقفين عند مدخل المستشفى يراقبون انطلاق السيّارة ويردّدون: «الموت لليهود». هذه هي فلسطين الذي يُفترض بعرفات الآن أن يرثها.

وجاء اتفاق «أوسلو»، الذي أفرخ في الخفاء، مثقلاً بالأحلام العديمة الضمانات، مبدياً وعوداً كاذبة بإقامة الدولة وبالقدس، وبوضع حدٍّ للاحتلال الإسرائيلي، والاستيطان اليهودي. فتلقّاه زعماء الدول ومعظم صحافيّي العالم ـ كبارقة أمل جديد. وصارت «المصافحة التي جرت في حديقة البيت الأبيض» بين إسحق رابين وياسر عرفات بتاريخ ١٣ أيلول/سبتمبر ١٩٩٣، نوعاً من الإيديولوجية. ولا داعيَ لإعمال النقد هنا. كفى الجميع دماء ودموعاً. سيسكن الذئب مع الحمل ـ ولم يتنازل أحد ليخبرنا مَن هو الذئب ومَن هو الحمل ـ وسيحوّلون سيوفهم إلى سكك للفلاحة. ولم يلاحظ أحد أن بين الرجال الثلاثة الذين اجتمعوا في حديقة البيت الأبيض، واحداً استشهد بالقرآن الكريم، ألا وهو الرئيس بيل كلينتون. ولم يسأل أحد كيف استطاعت مجموعة من السياسيين النرويجيين ـ وبعضهم لا يتمتّع سوى بخبرة عملية بسيطة في الشرق الأوسط ـ أن تساعد في إخراج ما يُفترض أنه أعجوبة. فالسلام يمكن أن يكون واسطة لبيع كثير من الجرائد، مثل الحرب. وكلّ من تجرّأ منّا، معشر الصحافيين، على أن يصف «أوسلو» بمأساة للفلسطينيين ـ وفي النهاية للإسرائيليين أيضاً ـ اتُّهم بأنه معادٍ للسلام ومناصر «للإرهاب».

وفي هذه المرحلة الفاصلة المؤقّتة يمكن أن يُنشئ عرفات وجماعته من منظمة التحرير الفلسطينية «سلطة فلسطينية» في غزّة وأريحا. ثم يخضعون لجدول زمني طويل ومعقّد لانسحاب الجيش الإسرائيلي من سائر المدن الكبرى والضفّة الغربية. لكن «الوضع الدائم» الذي سينشأ بعد خمس سنوات هو الذي سيكفل حلّ مستقبل القدس، والمستوطنات اليهودية، و«حقّ العودة» لثلاثة ملايين ـ وربّما خمسة ملايين ـ من الفلسطينيين اللاجئين. وبتعبير آخر، يبقى إنشاء الدولة الفلسطينية حسبما اعتقد عرفات ـ وأُوهم العالم ـ مسألة لا محيد عنها ومبنية

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

على الثقة. وعلى الإسرائيليين والفلسطينيين أن يعقدوا زواجاً معنوياً، قبل إثبات وفائهم وإخلاصهم، وعليهم أن يتقبلوا كلمة «عمِّهم» بيل كلينتون ـ الذي سيرعى مصالح إسرائيل، بصفته رئيساً للولايات المتحدة الأميركية ـ في سبيل جعل ذلك الزواج ممكناً.

وكان عرفات، قَبْل أن يصافح رابين، قد زار الرئيس مبارك في مصر. وكنتُ قد سافرتُ إلى الإسكندرية لأنظر إلى ذلك الرجل الهرم، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، الذي تحدّث معي يوماً عن خمسين ألف مِيل بعيداً عن فلسطين؛ لكنه يعتقد الآن أنه «سيذهب إلى بيته». وعندما وقف إلى جانب مبارك في الإسكندرية ظهر كأنه يستحقّ الشفقة. فقد تبدّل جذع جسمه الملآن، وانكمش إلى نحولة شديدة، وتحوّلت ابتسامة الاعتزاز التي كانت لا تفارقه في مقابلاته إلى ابتسامة مُصطنعة. وقال: «إن بصمات مصر ظاهرة على هذه الخطّة» التي تمنحه وتعطي منظّمته فلسطينَين صغيرتَين وسط الاحتلال الإسرائيلي. وكان تعبير «بصمات الأصابع» يوحي بأن المشروع هو جريمة ـ كما ظنّ العديد من الفلسطينيين، لكنّ أصواتهم لم تُذعْ في أميركا وأوروبا ـ بينما لم يلقِ عرفات لقولهم بالاً. لقد كان يتودّد إلى مبارك. وفي الواقع، كان يتودّد إلى كل إنسان. فقد قبِل الآن رسمياً وبشكل ممهور على الورق تقسيم فلسطين الذي رفضه دائماً، وانصاع ليصافح «رئيس وزراء الدولة اليهودية التي جعل يوماً إزالتها عن وجه الأرض، رسالته المقدسة»، بحسب قول صحافي الشرق الأوسط دايفيد هيرست.

وقبل عقد من الزمان، ناقشتُ في لبنان مع عرفات مسألة تقسيم فلسطين. قال لي: «سنتّحد، وسنحظى بدولتنا»؛ لكنه لم يقرّ بأنه سيعطي ٧٨٪ من فلسطين الانتداب إلى الإسرائيليين. ذكّرته بأن «مايكل كولنز» الذي ناضل دموياً من أجل استقلال إيرلندا عن بريطانيا، اضطرّ إلى قبول ٢٦ من أصل ٣٢ محافظة من إيرلندا فحسب، وأن يلتزم بقسم ولاء لسيّده المستعمِر السابق؛ وأن الإيرلنديين الذين حاربوا معه من أجل الاستقلال انقسموا بسبب ذلك الاتفاق. قال: «سأمكث على أيّة زاوية من زوايا بلادي»، وكرّرها؛ ثم سأل: ماذا حدث

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لكولنز؟ فأخبرته أن الإيرلنديين الذين حاربوا بريطانيا مزّقوه إرباً. مع العلم أن كولنز كان رجلاً شريفاً أكثر من عرفات بكثير؛ لكن القائد الفلسطيني استمع إلى كلامي بصمت. ثم بدا برود على وجهه عندما وصفتُ له كيف عمد الجيش البريطاني، عندما كان يستعدّ لمغادرة دبلن، إلى توزيع أسلحة ميدان على رجال كولنز ليحاربوا رفاقهم القدامى. وسألت عرفات: ماذا لو أمدّه الأميركيون أو الإسرائيليون بالأسلحة للقضاء على زملائه الذين رفضوا التسوية؟ فصاح: «أبداً، أبداً».

بدت ورطة عرفات لا نهاية لها ـ بالرغم من أنه هو شخصيّاً لا يقدّر مداها. وربّما قاده غروره أو جرّته شيخوخته ليقع في هذا الفخّ. ففي عمر الرابعة والستين، صار عرفات ومَن حوله من الرجال الذين هم في أواسط أعمارهم ـ بدينين، وخطهم الشيبُ في بيروت ـ ووصلوا إلى نقطة شكّوا عندها في أن يستطيعوا العودة ليروا فلسطين، ناهيك بحُكمها، وتساءلوا عن مدى تحقيق الأسطورة التي تخيّلوها عن الرجوع إلى بلادهم، وعن استكمال مسيرة النضال من أجل البقاء والحصول على الاعتراف بحقّهم. فقد انتظروا في منفاهم طويلاً، وترقّبوا نهاية قصّتهم الملحميّة بشكل انتصار لهم، ودخولهم إلى القدس «المحرّرة»، حتى يصل الحُلم الكبير إلى غايته.

أم أنا مخطئ؟ ولو كانت هناك بعض الاستثناءات ـ مثل حالة إدوارد سعيد، وهو الأشجع ـ فإننا نجد أن «خبراء» الشرق الأوسط ومحلّليه والمراسلين القُدامى الذين سلخوا عقوداً من الزمن في تغطية أنباء هذه الحروب الإسرائيلية ـ العربية القذرة، كانوا مقتنعين بأن الجغرافيا السياسية للشرق الأوسط قد تغيّرت إلى الأبد. وقد غضب «تشارلز ريتشاردز» رئيس تحرير قسم الشرق الأوسط في جريدة الإندبندنت، عندما سألته عن إيمانه المطلق باتفاق أوسلو، فقال لي بنزق على الهاتف: «يا رُوبرت، لقد تغيّرت الأمور». عندها انطلقت من مصر إلى الضفّة الغربية المحتلّة في شهر أيلول/سبتمبر عام ١٩٩٣، لأكتشف صحّة هذا الأمر. نزلت في مطار «بن غوريون»، وذهبت بالسيّارة إلى القدس، ثم سرت في الصباح التالي على الطريق الطويلة من «أريحا عبر الخليل

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

(حبرون) إلى حدود إسرائيل الجنوبية الشرقية؛ وهي أقرب ما يمكن إلى قطاع غزة.

وجدت أن العمّال قد بدأوا يبنون طريق عرفات. هناك التقيت عماد عيد أحد هؤلاء العمّال الذين يشتغلون في بناء هذه الطريق، على المنحدر القائظ النازل من بلدة «العبيدية». قال لي متشائماً وهو يجلس في ظلّ شاحنته على الطريق المغطاة بالتراب والغبار: «هذه الطريق هي مقبرة الشعب الفلسطيني، أنظر إليها وإلى موقعها، تعرف لماذا أقول هذا الكلام». وكان هناك إبريق أسود للشاي يهسهس حاقداً على موقد غاز قربه.

ثم أردف قائلاً: «سيسمحون لعرفات بأن يسلك هذه الطريق من أريحا إلى غزّة، وبهذه الطريقة لا يستطيع أن يمرّ عبر القدس»، وهو يومئ بإصبعه إلى تعرّجات طريق الغبار عبر الصخور نزولاً إلى الوادي. «هذا ما يريده الإسرائيليون». فوافق الرجال الخمسة الجالسون قربه على ذلك؛ وكانوا كلّهم فلسطينيين يبنون الطريق التي تستبعدهم وتستبعد عرفات عن المدينة التي حلم يوماً بأنها ستكون عاصمته.

بدت الطريق بشعة مثل الهدف منها: تنحرف بشدّة نحو الصخور خارج «أبو ديس»، ثم تنزل إلى عمق وادٍ حافل بنور الشمس، وتقطع مجرى للمياه المالحة على جسر إسمنت. ويحاول عيد ورفاقه توسيع الطريق وتحسينها، بعدما مرّ عليها عقدان من الزمن وفتّت الصقيع سطحها. وقد أخبرهم الإسرائيليون بضرورة إصلاحها قبل الشتاء وأمطاره، بحيث يستطيع الفلسطينيون في رام الله، ونابلس، وجنين في شمالي الضفّة أن يسافروا إلى الخليل في النصف الجنوبي من الأراضي المحتلّة من قِبل إسرائيل، دون المرور عبر القدس؛ ممّا يحوّل استبعادهم المؤقّت عن المدينة المقدّسة ـ الذي بدأ بعد قيام الانتفاضة الفلسطينية الأولى ـ إلى نفي دائم.

ولمّا كان من القسوة بمكان منع الفلسطينيين في الشمال من زيارة الفلسطينيين في الجنوب، بسبب منعهم من عبور القدس مؤقّتاً من قبل

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الإسرائيليين، بدا إصلاح هذه الطريق عملاً إنسانيّاً، ولكنه في الواقع عمل سياسي تخريبي. فحالما ينهي عماد عيد وعمّاله فرش الزفت على الطريق لا يعود بإمكان سكّان الضفّة الغربية طلب إذن مرور عبر القدس، لأن لديهم طريقاً أخرى بديلة.

كما كان سهلاً نصب الأفخاخ والمصائد. فقطع هذه الطريق بالسيّارة من أريحا إلى الخليل (أي مسافة أقلّ من ٥٠ كيلومتراً) قد يكشف لعرفات كم هو غرَّار هذا «الممشى» السياسي. قطعتُ الجزء الأول من هذه الطريق البالغ ١٠ كيلومترات عبر فلسطين «اليهودية»، في وادٍ يبدأ من مخيّم «عقبة جابر» في أريحا، مروراً بمواقع عسكرية إسرائيلية تحت الأرض، وأحواض بيزنطية مهجورة في «منزل جبر»، وانتهاءً بالمستوطنة الإسرائيلية في وادي «قلت». وكانوا إذ ذاك يوسّعون المشروع الإسكاني هناك عندما وصلت، ويمهّدون مرجات «القرية السياحية» في وادي «قلت»، حيث قابلت مدير الأشغال الجارية؛ وهو من قُدامى العسكريين الذين اشتركوا في حرب لبنان وحاول تدمير عرفات في بيروت منذ ١١ سنة؛ ولم يستنكف عن التنبّؤ بحرب أهليّة بين الفلسطينيين لا غير.

أما الطريق من وادي «قلت» إلى القدس فكانت تمرّ بوادٍ فيه مستوطنات يهودية، منظّمة صفّاً بعد صفّ بالبيوت ذات الطابع الأوروبي ـ كجزء من «حلقة» الإسمنت التي تحيط بالقدس ـ والتي غيَّرت محيط الأرض العربية التي يتذكّرها عرفات. ولكنه لن يصل إلى القدس؛ بل تطالعه طريق متعرّجة قائظة إلى «العبيدية» وإلى سائر القرى الممتدّة جنوباً، حيث نجد صوتاً فلسطينياً مختلفاً على الجدران؛ يقول على جدار أحد محلّات البقالة: «لا للتآمر على بيع فلسطين». و«كلّ من يتخلّى عن القدس لا يمثّل شعبنا». كما بدا قرب إحدى المقابر إنذار أكثر شؤماً يقول: «لن ينجح أولئك الذين يتخلّون عن حقّنا بإعطائه إلى اليهود». ولكن على المرتفعات، قبل أن تصل إلى بيت زعيم قديم جدّاً خشي من الخيانة ـ ألا وهو قصر الملك «هيرودوس» الذي لا يعدو اليوم كونه مجموعة من الحجارة المتراكمة ـ سيُمنح الزعيم الفلسطيني منظراً للقدس

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عن بعد بُعيد يبلغ ٨ كيلومترات، إنها قُبّة الصخرة والجدران العثمانية التي لا تزال تُرى من خلال الشقوق بين التلال التي تبدو قريبة بارتفاعها، وبعيدة تبعث اليأس. وفي ساحة قرية «صير»، حيث لا تُرى معالم المدينة المقدّسة الثالثة في الإسلام، قالت العجوز «عائدة جدور» بلهجة تقرب من الاحتقار: «لا حلّ دون القدس. وإذا جاء عرفات إلى هنا لن نستقبله. لن نقبل أن يموت أطفالنا في الانتفاضة من أجل أريحا وغزّة لا غير».

وعلى طول الطريق جنوباً لم يتكلّم أحد لصالح قبول عرفات «بمرحلة انتقالية». وفي مستوطنة «هارسينا» اليهودية الواقعة خارج الخليل ـ حيث وصلت البيوت الجديدة المتنقّلة على عجلات منذ شهرين، بينما كان عرفات في مرحلة الاقتناع بتوقيع اتفاق مع إسرائيل ـ دخلت قافلة عسكرية إسرائيلية المدينة، تضيء مصابيح شاحناتها في وضح النهار تحت أشعّة الشمس، وجنودها جالسون على شاحناتهم يحملون رشّاشاتهم ويصوّبونها نحو الحوانيت العربية. وعلى الرصيف، قرب مجموعة من حرّاس الحدود الإسرائيليين، جلس ستّة رجال فلسطينيين، بقبّعات منحرفة، يصيحون بكلّ مَن حاول أن يخالف منعاً آخر للتجوّل ـ كانوا كلّهم مُخبرين. حسبما أخبرني الشاب العارف الذي وجّهني إليهم، وكانت عيونهم كلّها صفراء محدِّقة، وكان أحدهم يهذي.

قهقه أحدهم وقال «كوكايين». ربّما؛ فقد قيل عن المُخبرين إنهم «عالقون» بالعقاقير التي يعطيهم إيّاها مراقبو الاستخبارات الإسرائيلية، مع العلم أن الإسرائيليين ينكرون ذلك بطريقة عادية. وحتى هؤلاء المساكين أدانوا عرفات حالاً؛ وتمتم أحدهم «خيانة». لقد أمضى ١٤ سنة في السجون الإسرائيلية قبل أن يلتحق بجهاز «شن بث». في ذلك الوقت القائظ بعد الظهر بالضفّة الغربية لم أتمالك أن أشعر بالأسف لحالة ياسر عرفات؛ بالرغم من أن ذلك كان صعباً عليّ. وجاءت الملاحظة الأكثر تفاؤلاً ذلك النهار من رجل فلسطيني يعرّف عن نفسه بأنه «بسّام»، إذ قال: «إذا كنت متعاوناً صغيراً مع الإسرائيليين، فإنهم يساعدونك قليلاً؛ أما إذا كنت متعاوناً كبيراً مثل عرفات، فإنهم يسمحون لك بزيارة القدس».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولكنّ الوضع كان أسوأ من ذلك ـ إذ لم يُسمح لعرفات أبداً بأن يزور القدس ـ إنما لم تكن لنشاطه المتفائل حدود. فقد كتبتُ مقالاً مبنياً على رحلتي إلى الخليل في جريدة الإندبندنت بعنوان: «طريق عرفات إلى غزّة مقبرة للفلسطينيين». وفي اليوم التالي تلقّيت مخابرة هاتفية في فندق الملك داوود من هارفي موريس، الثرثار نفسه الذي كان رئيس مكتب «رويترز» في طهران، منذ ١٤ سنة، والذي صار رئيس القسم الأجنبي الذي أعمل فيه. قال: «يا فسكي، أنت تضع القطّ بين الحمام بحسب القول المأثور؛ إن الكبار والصالحين هنا يتساءلون عمّا إذا كنتَ مُصيباً». فتصوّرت إذ ذاك كيف كان تشارلز ريتشاردز يُرغي ويُزبد بمقولته العديمة المعنى عن حتميّة السلام. ولكن هارفي بادرني قائلاً: «كلّا، لا يتعلّق الأمر به أو بي يا صاح، إنه رئيس التحرير العامّ الذي يسأل عمّا إذا كنت متعجّلاً». فأخبرته أن أندرياس هويتام سميث «كان دائماً يطبع تقاريري بكل إخلاص، بالرغم من الصواريخ الكلامية التي كانت توجّه إليه. فإذا كان يعتقد ذلك دعه يتفضّلْ بمخابرتي». وبعد دقائق خابرني قائلاً: «أنا لا أشكّ في أنك تنقل بدقّة التشاؤم الذي يعبّرون عنه؛ ولكن هل هذه هي الصورة الكاملة؟ إن أصدقائي اليهود يرحّبون بالسلام الذي سيعقد مع الفلسطينيين». لكنني في هذا الموقف أمسكت عن سؤال ويتهام سميث عمّا يقول له أصدقاؤه العرب.

ولكنّ الإسرائيليين حفظوا ملفّات عرفات داخل «بيت أغرون» ـ معبد الصدق الذي يستقي منه الصحافيون الإسرائيليون الحقائق. فقد جمعوا بعناية من الصحافة العربية كلّ ما يلزم، عندما كان عرفات يجسّد الشرّ ـ تلك الأيام التي اعتبره فيها مناحيم بيغن: «هتلر في المخبأ». كانت هناك صفحات وصفحات عن بلاغة عرفات، ووعوده، ومطالبه، وتهديداته. وكانت هناك كل تصريحاته وبياناته المتعَبة اليائسة التي استمعنا إليها عبر السنين؛ بينما كان رئيس منظمة التحرير الفلسطينية يعرق ويصرخ، ويبكي أحياناً من الانفعال، وهو يخاطب فدائيي فتح، والمُعدمين الفلسطينيين في المخيّمات، قائلاً: «إن فلسطين وطن الفلسطينيين، ووطن الأمّة العربية من المحيط إلى الخليج». وكما قال عام

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

١٩٨٩: «... إن منظمة التحرير الفلسطينية لا تقدّم سلام الضعفاء، بل سلام صلاح الدين»؛ ولا شيء غير ذلك. «لن تقف ثورة الفلسطينيين أبداً حتى الحصول على حقوق الشعب الفلسطيني، بما فيها حق العودة»؛ ولا شيء غير ذلك. «لن يكون هناك سلام... إلّا عن طريق العودة، وتقرير المصير، وإرساء دعائم الدولة الفلسطينية بعاصمتها القدس»؛ ولا شيء غير ذلك.

كان عرفات يحبّ أن يستعمل الأولاد كدعامات. ففي إحدى الأمسيات البالغة الحرّ في لبنان، وفي أجمة من أشجار الزيتون التي تطلّ على ميادين حربه، التقى عرفات مجموعة من الصحافيين ليتكلّم عن مستقبل منظمة التحرير الفلسطينية. سألناه بأدب جمّ، عن تماسك مستقبلها. فما كان من عرفات إلّا أن أمسك بولد ابن ١٢ سنة، يلبس بِزّة المجاهدين، وأطبق بشفتيه على خدّ الولد خلال ثوان، وقال: «إن هذا هو مستقبلنا». فارتبك معاونوه؛ ولم يكن في تلك الحركة أي شيء غير لائق؛ إنما كان هناك خواء، وقلّة تفكير، وعدم ملاءمة في ردّ فعله، ممّا أقلقهم. فلا بدّ أنهم تساءلوا: «إذا كان هذا ما اختاره عرفات ليتكلّم عنه بصدد مستقبل بلاده، فكيف كان ردّ فعله عندما كان عليه أن يفاوض بشأن إنشاء دولة فلسطين؟

إننا نعرف الآن أن عرفات كان أعزب و«متزوجاً الثورة»؛ ثم عقد زواجاً غير سعيد على فتاة فلسطينية مسيحية عمرها ٢٨ سنة، أي أقلّ من نصف عمره ـ كما ندرك أن وعود عرفات كانت أحلام يقظة، وبيانات عن حُسن نيّته لصالح شعبه، وأحدثها ارتطم بقاعات الاستقبال النرويجية، ليحظى بأريحا وأحياء غزّة الفقيرة. فبماذا يستطيع أن يحلم الآن؟

وفي ذُروة حصار بيروت عام ١٩٨٢، تلك اللحظة الحرجة في حياة منظمة التحرير الفلسطينية، عندما انقضّ الإسرائيليون على المدينة المطوّقة بوحشية تشبه وحشية «سراييفو» قدَّم زائر إلى عرفات أُحجية للصور المقطَّعة تمثّل القدس ليقتل بها الوقت في مخبأه تحت الأرض. ورأى عرفات كاميرات التلفزيون، فأمسك بغطاء الأُحجية أمامه، وقال: «أجل، هذه مدينتي، وبيتي، حيث ولدتُ».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في ذلك مزيد من الأحلام. فعرفات لم يولد في القدس، ولا في مخيّم اللاجئين بخان يونس في غزّة، كما يدّعي بعض رفاقه؛ بل ولد في القاهرة عام ١٩٢٩؛ وكان الخامس بين سبعة أولاد لتاجر فلسطيني يدعى عبد الرؤوف القُدوة الحُسيني. وقد قُتل وهو يحارب الإسرائيليين منذ عشرين سنة. ويقول أصدقاء عرفات السابقون إنه كان يصرف ساعات يومياً في دراسة القرآن قبل وفاة والده. وقد استوحى لفترة قصيرة تعاليم الإخوان المسلمين المصريين بينما كان يدرس الهندسة في جامعة القاهرة. لكنه جمع القوميّة مع الدين عندما قرّر ـ بغروره الذي أصبح مألوفاً ـ أن يغيِّر اسمه. فترك اسمه الأول السابق «عبد الرحمن» واختار «ياسر» على اسم رجل قتله الجنود البريطانيون أثناء الانتداب. أما «عرفات» فهو اسم الجبل المقدّس الواقع خارج مكّة المكرّمة.

وهكذا أعاد اختراع اسمه، كما كان عليه أن يعاود اختراع اسم «فلسطين» لملايين اللاجئين، الذين تطلّعوا إليه طلباً للأمل. وأخيراً، أدرك عرفات أن شيئاً ما أفضل من لا شيء. وفي أوائل عام ١٩٩٣ خابره بالهاتف «علي عزّة بيغوڤيتش» رئيس البوسنة، طالباً نُصحه حول خطّة السلام المدروسة في «فانس ـ أوين»، والتي فشلت فيما بعد. فسأله عرفات على الهاتف: «هل قدّموا لكم أرضاً؟» فأخبره «بيغوڤيتش» بأنهم عرضوا أرضاً صغيرة، فأجاب عرفات: «خذْها، خذها، واقبلْ!». ولكن رئيس البوسنة لم يأخذها. ورأى عرفات النتائج المروّعة.

صار عرفات الآن، بكوفيّته المرتّبة مسرحياً(*)، وبزّته «الكاكية»، ومسدّسه الساذج، شخصية عفّى عليها الدهر، وثائراً من أيام زمان لن يطول به الأمر حتى يتخلّى عن الأشياء الطفولية. حتى أن كلمة «ثائر» تبدو غريبة بصدده. لقد انتهت ثورة عرفات الآن. وكانت اتفاقية «أوسلو» بمثابة خيانة بالنسبة إلى نصف مليون فلسطيني لاجئ مقيم في لبنان، لا يستطيعون العودة إلى بيوتهم التي غادروها عام ١٩٤٨، والواقعة في ما يُسمّى اليوم «إسرائيل» ـ إذ إن التسوية

(*) كان عرفات دائماً يرتّب كوفيته بشكل عهد الانتداب، بحيث تغطي «صحراء النقب» على قماشة أذنه اليمنى.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

النهائية في أوسلو لا تكاد تسمح لهم «بالعودة» إلى حيفا وناتانيا والجليل. وقال لي جندي إسرائيلي كان يحاول فرض منع تجوّل آخر في الخليل في أوائل أيلول/ سبتمبر عام ١٩٩٣ «قد أستطيع أن أقبل بعرفات. قارنه مع الآخرين. لم يكن سيّئاً جدّاً كإرهابي». فيا له من رثاء للحياة الثورية لياسر عرفات.

يُفترض بالثورويين أن يكونوا مفكّرين. فـ «روبسبيار» و«لينين»، و«ماركس»، و«تروتسكي»، و«أتاتورك»، و«عبد الناصر»، و«كاسترو»، و«غيفارا»: كانوا كلّهم مفكّرين، ألّفوا كتباً، أو تحدّثوا بفلسفة كبرى أثناء جهادهم. ولكنّ عرفات لم يكن كذلك. فقلّما شوهد وهو يقرأ كتباً، ناهيك بكتابة مؤلّفات. كان ذا عقليّة واحدة. وقد كرّس نفسه لذلك ـ مع كثير من الغرور ـ وكان ذلك مصدر قوّة كبرى له. كانت فلسطين، فلسطين، فلسطين هي الشاغل من البداية حتى النهاية. وبالنسبة إلى الغربيين والإسرائيليين كانت بزّته وكوفيّته تمثلان ذوقاً خيالياً. أما بالنسبة إلى الفلسطينيين الفقراء فكانتا ضروريّتين، وجزءاً من الروابط الروحية في المنفى. ولكنّ تلك المعنويات الروحية شارفت على التلاشي.

كنتُ في مصر عندما سمعت الكلمة الأولى التي رشحت عن اتفاقية أوسلو. فخابرت محمّد حسنين هيكل، ووصفتُ له عرفات بأنه يشبه رجلاً رهن بيته ثم عاد يحاول بيع بيته للمصرف العقاري. فعاتبني هيكل قائلاً: «لقد سبق أن باع عرفات بيته... مرّتين». ومنذ البداية ـ من تلك الخطابات التي تُبودلت في حديقة البيت الأبيض بتاريخ ١٣ أيلول/ سبتمبر ـ كان بالإمكان رؤية تطوّر وانكشاف اتفاقية أوسلو. فقد تكلّم رابين، رئيس وزراء إسرائيل، متأثراً عن «رفقائه الجدد في عملية السلام»، إذ قال: «دعوني أخبركم، أيها الفلسطينيون، أنه مقدَّر علينا أن نعيش معاً على التراب ذاته وعلى الأرض ذاتها». لكن خطاب عرفات كان أكثر تحديداً، كما لو أنه كان يدرك ما الذي سيقود هذا «الأمل التاريخي» إلى الكارثة، إذ قال: «إن المسؤولية مشتركة بين الفلسطينيين والإسرائيليين لوضع الاتفاق موضع التنفيذ، والتقدّم نحو التسوية النهائية بعد سنتيْن، وتنفيذ كل وجوه قراري الأمم المتحدة: ٢٤٢ و٣٣٨ من جميع النواحي، وحلّ كل قضايا القدس، والمستوطنات، واللاجئين، والحدود».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

«كل وجوه» مكرّرة بقوله: «من جميع النواحي»؟ والقدس؟ والمستوطنات؟ واللاجئون؟ لقد كان يطلب من الإسرائيليين تقديم هدايا، ولا يقدّم لهم بالمقابل سوى السلام. وقد سمّاه «سلام الشجعان» ـ وقد أخذ عرفات العبارة من كلينتون ـ وربّما لم ينتبه في البداية أن ذلك كان صدى «لسلام الشجعان» الذي عقده الجنرال ديغول مع الجزائريين في الاتفاق النهائي الذي أعطى الجزائر استقلالها. ولكنّ هذا السلام الموازي كان أكثر إيلاماً مما اعتقد عرفات ـ واعتقد الإسرائيليون.

وفي بيروت، تلقّى شفيق الحوت سفير منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، والذي نظم مأتم الحاجّ أمين الحسيني عام ١٩٧٤، مكالمة هاتفية من عرفات، أخبره فيها صائحاً يائساً: بأنه غيّر الوثيقة التأسيسية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وتخلّى عن حقّ العودة لحوالي ثلاثة ملايين فلسطيني. وجرى كل ذلك في الخفاء. قال الحوت: «لم تُفد هذه منظمتي لتحرير فلسطين. لقد كلّمني عرفات وناداني يا أخي، لكنني لا أستطيع الاستمرار. قلت له: لم يحصل اجتماع للمجلس الوطني الفلسطيني؛ ولا نعرف تفاصيل الاتفاقية. وإن قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة الرقم ١٩٤ لعام ١٩٤٨، أعطى اللاجئين حقّ العودة إلى بيوتهم في ما هو الآن إسرائيل. ولكنّ عرفات تخلّى عن كل ذلك. لقد استقلت؛ ولم أعد سفيراً».

ألقى شكر ياسين مفتاح بوّابة بيته على الطاولة في كوخه بحيّ اللاجئين الفقير، فبدا يلمع في الضوء قليلاً، بينما برت الأيام مقبضه ـ كما كان يلمع عندما هاجرت عائلة ياسين من فلسطين عام ١٩٤٨؛ وكان عمر شكر خمس سنوات عندما صار لاجئاً. سحب شكر من عُلبة لفيفة أوراق وثائقية غليظة من أيام الانتداب البريطاني ـ وعلى رأسها شعار السلاح الملكي ـ بشأن بيت تملكه عائلة ياسين في قرية «عزيب» الواقعة على بعد ١٠ كيلومترات من عكّا، وبساتين من الحمضيات. قال شكر: «احتفظتُ بهذه الوثائق لأني اعتقدتُ أني سأعود إلى بيتي في يوم من الأيام. ولكنني أعرف الحقيقة الآن. لم يشمل عرفات لاجئي عام ١٩٤٨ في خطة السلام مع إسرائيل».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عام ١٩٤٨. هذا التاريخ متغلغل في كل محادثة تجري في المخيّم الكبير، المزدحم، الغاضب، الذي يغلي في «عين الحلوة» بصيدا، عبر كل شكوى وكل خطاب رسمي. إن جميع الفلسطينيين القاطنين في لبنان هم لاجئون ـ أو أولاد أو أحفاد لاجئين ـ منذ الهجرة التي تلت تقسيم فلسطين. وهناك حوالي ٦٥ ألف شخص يعيشون في بؤس عين الحلوة. تمتم محمّد خُضر، وهو يعرج في أزقّة عين الحلوة التي تُعتبر طرقاً: «يتكلّم التلفزيون والجرائد عن سلم رائع؛ ولكنّ هذه الوسائل الإعلامية لا تذكرنا. إن زعماءنا كاذبون. وعدونا بالعودة إلى بيوتنا؛ لكنّ اتفاقية السلام تشمل بعض الفلسطينيين الذين صاروا لاجئين في حرب عام ١٩٦٧. فماذا يفترض بنا أن نفعل؟». كان خُضر في الثامنة من عمره عندما سافر من فلسطين إلى لبنان على الشاحنة الخربة ذاتها التي جاء عليها آل ياسين، قبل إعلان دولة إسرائيل بأربعة أيام.

وتوزّع مليون ونصف مليون من اللاجئين الفلسطينيين الآخرين الذين هاجروا عام ١٩٤٨ على مخيّمات مبثوثة في الأردن وسوريا؛ مع مليون شخص أيضاً في غزّة والضفّة الغربيّة، وبعضهم يجدون أنفسهم أيضاً في دُوَيلتيْ عرفات. لكنهم لن يعودوا. وهكذا، صار هناك الآن حوالي ثلاثة ملايين فلسطيني ـ أي ما يعادل نصف عدد الفلسطينيين الإجمالي ـ ممّن فقدوا «الحقّ في العودة إلى ديارهم»، لأن بيوتهم واقعة في ما هو الآن إسرائيل. وفي عين الحلوة جُمِّدت أسماء المدن والقرى التي جاء منها اللاجئون بإطلاقها على الأحياء التي يسكنونها الآن في هذا المخيّم. فالذين جاؤوا من عكّا يسكنون بضعة شوارع دُعيت «عكا»، والذين قدموا من حيفا يسكنون «حيفا»، وجماعة حِطّين في «حِطّين»، وهلمّ جرّاً. أما شكر ياسين فيعيش في «عكّا» لأنها الأقرب إلى قريته «عزيب». لقد قضى ٢٧ سنة محارباً في جيش فتح، يقطع الحدود الإسرائيلية ليلاً عام ١٩٦٩، وبقي على قيد الحياة بعد الاجتياحيْن الإسرائيليَيْن عام ١٩٧٨ وعام ١٩٨٢، وحتى بعد حرب المخيّمات ١٩٨٥، و١٩٨٦، وهو واثق من وعد عرفات بالعودة إلى «فلسطين».

قال ياسين: «لا يمرّ يوم أبداً نعيشه دون أمل؛ كنا دائماً نعيش بالأمل. قُتل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أحد إخواني عام ١٩٨١، بقذيفة أطلقها أعوان إسرائيل في صيدا. لقد تعذّبنا كثيراً، ولكن لم يكن بوسعنا أن نفقد الأمل. كان أبي يؤمن بالله وببلاده. ولا يسمح لنفسه بأن يعتقد أنه لن يعود إلى دياره. نحن مع السلم. نحن نريد السلم. ولكن يجب أن يكون سلما سليماً، وليس اتفاقاً مُجحفاً بحقّنا. إني من «عزيب» في فلسطين، وأبي من هناك، وجدّي، ووالد جدّي، وأقربائي هناك. يجب أن نعود جميعاً إلى قرانا».

وبالطبع، هذه قضيّة ميؤوس منها. فإسرائيل لن تسمح لثلاثة ملايين فلسطيني بأن يعبروا حدودها. ولا بدّ من تذكير فلسطينييّ عام ١٩٤٨ بأن القرى التي نزحوا منها والتي يبلغ عددها ٤٠٠ قرية دمّرها الإسرائيليون خلال السنتيْن اللّتيْن أعقبتا رحيلهم عنها؛ وأنه في معظم الحالات لم تعد بيوتهم موجودة. إن ياسين يعرف ذلك كواقع قائم؛ ولكنه لا يفهمه. وتذكُر أمّه مريم اليوم الذي هربت فيه مع توفيق وأولادها البالغ عددهم ١٥ ولداً، والثياب والعدس والزيت وسائر اللوازم التي تركتها وراءها في منزلها ـ لأنها ظنّت أنها ستتمكّن من العودة بعد أسبوع، أو شهر في الخارج.

إنها تذكر أنه «كان بيتاً قروياً، مطلياً بالكلس الأبيض؛ له بوّابة كبيرة بنّية اللون، ودرج خشبي. كان جميلاً لوجود أشجار الليمون الحامض حوله. وقد استطاع أحد أصدقائنا أن يعود إلى هناك لفترة قصيرة، ووجد أن جميع بيوتنا قد هُدمت، بما فيها بيتنا. ولم يبقَ منها سوى بيت من حجر في أحد أطراف القرية، حوّله الإسرائيليون إلى فندق». التقط ياسين مفتاحه وقلّبه بيده، كأنه يريد أن يفتح به الباب. وقال: «لقد مرّ عشرون يوماً على سماعنا هذه الأخبار كلّها، ومنذ ذلك الوقت ونحن نعيش على أعصابنا، نحن الفلسطينيين هنا». ثم قال: «لا أدري ما هو مصيري. ولكنني آمل أن يكون في زاوية من زوايا الاتفاق موضع ما للاجئين عام ١٩٤٨، كما يقول أبو عمّار (عرفات)، حتى نستطيع العودة إلى ديارنا». وجلس ياسين يروز المفتاح بيده ـ المفتاح الذي لم يعد له بيت قائم فعلاً ـ وكأنه قد يعطيه جواباً؛ ويقول: «لقد حفظت هذا المفتاح، هذا الكنز، لمدّة تتجاوز أربعين سنة. لقد حافظتُ على هذه الأسطوانة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المعدنية التي تحتوي جميع الأوراق والوثائق القانونية، حتى يتسنّى لنا يوماً أن نجد حلّاً لمشكلتنا... ولم أكن لأحمل معي هذه الأشياء خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن ـ وأرعاها تحت القصف ـ لو لم يكن هناك بصيص من أمل...».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفصل الرابع

الحرب الاستعمارية الأخيرة

وكلَّم الربّ موسى في عربات موآب على أردنّ أريحا قائلاً:
كلِّم بني إسرائيل وقلْ لهم،
إنكم عابرون الأردنّ إلى أرض كنعان،
فتطردون كلّ سكّان الأرض من أمامكم،
وتمحون جميع تصاويرهم، وتُبيدون أصنامهم المسبوكة،
وتُخرّبون جميع مرتفعاتهم،
تملكون الأرض وتسكنون فيها:
لأني قد أعطيتكم الأرض لكي تملكوها
... وإن لم تطردوا سكّان الأرض من أمامكم،
يكون الذين تستبقون منهم،
أشواكاً في أعينكم ومناخِس في جوانبكم،
ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها.

التوراة، عدد: ٣٣ ـ من ٥٠ إلى ٥٥

لا يثق «بن غرينبورغر» بالعرب، ولا بالأميركيين؛ كما أنه لا يثق بكثير من السياسيين الإسرائيليين. فاللّه وحده هو الذي يجمع اليهود بأرضهم. وعليّ أنا كصحافي أن أُقرّ وأعترف بأن «اللّه» يحتلّ مكاناً رحباً في دفتري الخاصّ بالشرق الأوسط. نحن الآن في ربيع عام ١٩٩٢. ولا يبعد عنا اتفاق «أوسلو» سوى ١٨ شهراً. ويهودا والسامرة سليمتان الآن.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إن الأرض التي يعنيها «غرينبورغر» ـ تقع صدفةً في أرض الضفّة الغربية العربية ـ ولكن نائب رئيس البلدية في مستوطنة «معال أدومين»، وهي الأكبر في الضفّة الغربية، لا يقبل ذلك أبداً. وليس هناك أدنى شكّ في ملكيّة المنازل الجديدة المبنية على تلال الصخور والأفيون التي تمتدّ نحو جبل الزيتون. وتصرّفه يدلّ على أكثر من الاقتناع. ومطالبة العرب بها هي أكثر من تعصّب، وهم مخطئون. والكلمة التي ترد على الخاطر هي: إنّك على حقّ.

قال بلهجته، لهجة «نيوجرسي»، وعيناه الخفيفتا الزرقة تتفحّصان وجهي: «طبعاً إنها أرضنا». فكيف السؤال حول هذا الافتراض؟ وأردف قائلاً: «إذا كانت تلّ أبيب يهودية، فالخليل أكثر يهودية. ومن سوء الحظّ أن هناك شعباً يسكنها. ولكن علينا أن نتعلّم العيش مع هذا الواقع». فالعرب هم الذين يرفضون التسوية، وزعماؤهم يطلبون استعادة الأرض العربية ـ «الأرض اليهودية» حسبما يؤكّد «غرينبورغر» ـ كمرحلة أولى لتصفية إسرائيل. وأضاف: «إني لا أثق بهم. دعْهم يحصلوا على «استقلاليّتهم» مهما كلّف الأمر. دعْهم يحكموا شؤونهم وحياتهم. ولكن هذا لا يعني إقامة دولة. فالدولة يجب أن تكون يهودية. كان علينا أن نُلحق هذا المكان بدولتنا عام ١٩٦٧. ولو فعلنا ذلك لما كانت لدينا هذه المشكلات مع العرب الآن».

ولا يسع المرء وهو يستمع إلى «غرينبورغر»، البالغ من العمر ٤٢ سنة، والمحاضر في القانون بالجامعة العبرية، إلّا أن يسأل: هل أنت واثق ومتأكّد؟ ـ ولكنه بالطبع متأكّد أخلاقياً بشكل مطلق لا يُنقض؛ إذ يقول أيضاً: «كل ولد يهودي درس تاريخه والتوراة يعرف أن هذا المكان هو المكان الوحيد الذي يمكن الشعب اليهودي أن يطالب به كوطن له. لو كانت إسرائيل اليوم بحدود عام ١٩٦٧، وكانت تحدِّق بتطفّل إلى الخليل، فإني أوافق على أنه لا داعي لإشعال حرب من أجل ذلك. ولكن الحرب فُرضت علينا عام ١٩٦٧؛ فربحناها؛ والآن أجد نفسي في أرض أعتبرها أرضي. فلماذا أتركها؟».

لا غرابة في هذه الآراء؛ ما دامت مستوطنة «معال أدومين» لا تزال تتوسّع ـ فسكّانها الأقوياء البالغ عددهم ١٦٠٠٠ نسمة، سيزيدون بنسبة ٢٥٪ في العام

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

القادم في شقق مؤلّفة من غرفتين بسعر ٩٠٠٠٠ دولار للشقّة ـ كما أن مستوطنة «إيرفت» الواقعة على طريق الخليل والبالغ عدد سكّانها ٣٥٠٠ نسمة مرشحة للتوسّع بضُعفي تلك السرعة في منطقة تزخر بالمجابهة شبه اليومية بين العرب واليهود. وها هو «بوب لانغ»، المولود في «مانويت» بولاية نيويورك، والمتخرّج من جامعة «ويسكونسن»، والمقيم في مستوطنة «إيرفت» يُسمعني كلاماً يجعل «غرينبورغر» من المعتدلين، إذ يقول:

«إذا كان هناك شعب يهودي، فيهودا والسامرة هما موطنه. وقولك لليهودي أنه لا يستطيع أن يعيش في الخليل هو إنكار لوجود الشعب اليهودي. فتسعون في المئة من الأمكنة المذكورة في التوراة موجودة في يهودا والسامرة. لذلك، يجب أن تشكّل يهودا والسامرة دولة إسرائيل، بدلاً من الشاطئ البحري من حيث جاء الفلسطينيون القدماء (Philistines) الذين أورثوا اسم «فلسطين». و«لانغ» يتكلّم بسرعة ونشاط خارقيْن، شأن المؤمن الحقّ؛ وتأتي لغته انفعالية وتوراتية: «إن الأرض لي. إني أحسّ بها في عظمي. كان جدّي يعتقد أنه وجد موطناً في ألمانيا، خلال الحرب العالمية الأولى، لكنه هرب بعدما بدأ هتلر يحرق كنائس اليهود (Kristallnacht). ولكن هنا أرضنا، سواء أكانت بيوتنا هنا أم لا. إنها أرض يهودية، وأنا أشعر بالتاريخ في عظمي. لا يلزمني أيّ كتاب يوجّهني سوى التوراة. وكلّما عملت «التراكتورات» في بناء منازل جديدة، تبدّت لهم مواقع قديمة. وتلك المواقع القديمة يهودية».

طبعاً، هناك مشكلة. إذ إنّ مليوناً وسبع مئة ألف عربي يعيشون في الضفّة الغربية وغزّة اللتين لم تكونا أبداً جزءاً من إسرائيل الحديثة ـ وترجع انتفاضتهم الأولى إلى وجود ١١٥٠٠٠ مستوطن يهودي بين ظهرانِيهم، بالدرجة الأولى، أكثر مما ترجع إلى أيّة ظاهرة أخرى. ليس هناك دولة واحدة تعترف بحقّ إسرائيل في الاحتفاظ بالأراضي المحتلّة بعد ربع قرن من الاستيلاء عليها. ومع أن إسرائيل لم تُلحقها بدولتها، فقد سمحت لـ «غرينبورغر» ورفاقه من المستوطنين بشراء بيوتهم بالتقسيط على ٤٩ دفعة. فهل من العجب أن يعمد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

جورج بوش ـ ونعني هنا الأب طبعاً ـ إلى اشتراط وقف الاستيطان كي تحظى إسرائيل بقروضها المضمونة؟

يريد «غرينبورغر» و«لانغ» وضع حدٍّ لهذا التردّد؛ وتضييع فرصة المعونة الحكومية الأميركية؛ وتجاهل طلب الإسرائيليين والعرب للأرض مقابل السلام؛ ولا أقلّ من السيادة الإسرائيلية المطلقة على الأرض ـ أي ضمّ الأرض. ويقول «لانغ»: «لا عجب أن تكون لدينا هذه المشكلات. فالوضع القائم ليس جيّداً. وما دام العرب المقيمون هنا يعتقدون أنه سيكون لهم يوماً ما دولة، فهم لا يجدون مُبرّراً للتفاهم معنا. ولذلك، على إسرائيل أن تُنهي احتلالها العسكري وتضمّ الأرض كلّها، وتقول للعرب: «إن حقوقكم القومية على هذه الضفّة من نهر الأردن قد انتهت». وسيقبل العرب هذا الأمر عندما يدركون أننا جادّون فيه. وقد عاش العرب في الجليل بعد عام ١٩٤٨ تحت سلطة الشرطة حتى عام ١٩٥٦، حين توصّلوا إلى نتيجة مفادها أن إسرائيل هنا لتبقى. فقرّروا أن السبيل الوحيد للتقدّم هو أن يصبحوا مواطنين ـ كما فعلوا عام ١٩٥٧».

وإذا كان هناك شيء من الكرم مدفون في هذا الحلّ الوحشي، فما عليك إلّا أن تستمع إلى رؤية «غرينبورغر» لهذا المشهد لكي تفهم معناه الحقيقي، حيث يقول: «عندما مُنح العرب الجنسية في إسرائيل بعد عام ١٩٤٨ كانت تلك العملية متطوّرة. وباليد القوية الثابتة يمكن تكرار تلك العملية في يهودا والسامرة. وإذا ثابرنا على ذلك نحلّ هذه المشكلة ـ عندما يدرك كل امرىء أن لا عودة إلى الوراء». ولكن، ماذا لو لم يدرك العرب ذلك؟ وما هي تلك اليد الثابتة التي يتكلّم عنها «غرينبورغر»؟ وهو يجيب عن ذلك بقوله: «كل بلد له قوّات من الشرطة؛ وإذا نشأت مشكلات نتصدّى لها».

ممّا يُثلج الصدر وجود إسرائيليين يتحلّون بالفصاحة والشجاعة الكافيتيْن لتحدّي هذه العقلية الاستعمارية. ومع أن «ديدي زوكر»، العضو الليبرالي في الكنيست ورئيس حركة الحقوق المدنية لا يزال في صفّ الأقلّية، فهو رجل ـ منفتح واسع التفكير والنظر، وله مظهر أكاديمي ـ يقصده زوّار إسرائيل لسماع ما يريدون سماعه من محامد. إننا نقول لأنفسنا هذه هي «إسرائيلنا» عندما نقابل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أناساً مثل زوكر. هذه هي ديمقراطية الشرق الأوسط التي نريد أن نؤمن بها، تلك التي تمثّل قِيَمنا الغربية، ويكون لها جيش يتقيّد بمعتقد «نقاء السلاح» (Parity of Arms)، تلك التي لا تدعم هذا المشروع الاستعماري الكريه لبناء منازل لليهود على الأرض الفلسطينية العربية المسلمة. ولكن «زوكر» ليست لديه أوهام حول رغبات الحكومات الإسرائيلية في الاستمرار ببناء مستوطنات في الأراضي المحتلّة، وليس لديه شكّ أبداً في ما يمثّله المستوطنون.

ويقول «زوكر» عن هؤلاء المستوطنين: «إنهم النوع الجديد من الإسرائيليين الذين يشعرون بأنهم «ضحايا» ـ بالرغم من أن لدى هؤلاء الضحايا إمكانات لاستخدام أسلحة نوويّة. إن هذا عنصر من عناصر «الرجولة والمرجلة» الإسرائيلية. ولهذا الأمر منشأ آخر يعود إلى إحياء النموذج البدائي القديم للإسرائيلي الرائد الذي يذهب إلى أراضٍ جديدة، ويحاول أن يستولي عليها بالدم، وبالتربية، ويجلب الأولاد إليها. وهذا يلائم المزاج الأميركي للتوسّع غرباً محاطاً بالأعداء... وفي المنظور الضيّق، ترى مستوطناً يعيش ـ ويعيش أولاده ـ في خطر يومي يحيق بهم. ولكن هذا المنظور الضيّق يتجاهل أن المستوطنين أقحمتهم الدولة هناك ليكونوا أصابع للاحتلال. والعنصر الرابع هو «الأصولية الدينية». وهنا، نحن نتكلم عن «عشيرة أو زمرة» من الأشخاص المتوجّهين نحو الكتب المقدّسة ـ إنهم منعزلون عن الحداثة، ومعارضون متغطرسون إزاء الفلسفات والإنجازات الغربية». وبالنسبة إلى زوكر ليس هناك من حلٍّ سوى إعادة تقسيم البلاد، وتشكيل بلدين يحقّقان جزءاً من مطامحهما القومية. ويقول زوكر بصرامة: «إن على المستوطنين أن يقرّروا خيارهم بين «صهيونيّتهم» ـ طموحهم أن يعيشوا في دولة يهودية ـ وبين رغبتهم في العيش في مكان مهمّ دينياً. ومعظمهم سيقرّرون العيش مع الإسرائيليين».

وفي الواقع، نجد أن الإسرائيليين الذين يعتبرون المستوطنين المستعمرين تهديداً لبقاء إسرائيل، هم قلائل؛ مع أن «ييشاياهو ليبوفيتز» كان ينذر منذ انتصار إسرائيل عام ١٩٦٧، بأن الاحتلال الدائم للضفّة الغربية سيفيد بلده. هذا الأكاديمي الذي يبلغ من العمر ٩٠ سنة؛ كان رئيساً لتحرير الموسوعة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

العبرية (Hebraica)؛ ورئيس قسم الكيمياء البيولوجية وأستاذاً للفيزيولوجيا العصبيّة في الجامعة العبريّة، وهو أستاذ زائر في قسم الفلسفة، ويقوم بدور في استعمال المنطق للمناقشة في مكتبته بشرقي القدس.

قال ليبوفيتز:

«يجب أن نبدأ من الأساسيّات الجوهريّة ـ متجاوزين النظريّة، والإيديولوجية، وحتى الإيمان ـ فبالنسبة إلى هذا البلد الذي ندعوه «إيريتز إسرائيل» والذي يدعونه «فلسطين»، هناك شعبان موجودان، وكل منهما يعي بعقله ـ ويشعر بعظمه ـ أن هذا البلد هو بلده. ولكن التاريخ لا يمكن أن يُعدّل أو يُصحّح. ولهذا الوضع الرهيب إحدى نتيجتيْن لا ثالثة لهما». وعند هذه النقطة، توقّف الأستاذ ليبوفيتز طويلاً، منحنياً في كرسيّه، بحيث تكاد طاقيّته تنزلق عن رأسه الأصلع. صحيح أنه لا يتمتّع بنفوذ سياسي، ولكن من اليسير أن يرى المرء سلطته الأخلاقية، التي جعلته كبير التأثير على الإسرائيليين الشباب من الجناح اليساري.

ثم استأنف حديثه قائلاً: «قد ينبري أحد هذيْن الشعبيْن ليستولي على البلد الآخر ويحرم الشعب الآخر من حقّه في الاستقلال الوطني. وقد حاول العرب فعل ذلك عام ١٩٤٨، وخسروا. ولكننا فعلنا ذلك منذ عام ١٩٦٧ ـ وهذا الوضع جرّ علينا كل الأشياء المرعبة المعاصرة. إن سيطرة دولة إسرائيل على شعب آخر لا تدوم إلّا بالعنف. وليس هناك من بديل سوى التقسيم. فعلى الطرفيْن أن يتخلّيا عن مطالبتهما بالبلد كلّه. إنما التقسيم صعب من الناحية الفنّية، بل إنه أصعب نفسياً ـ لأن لدى الشعبيْن وعياً عميقاً بأن هذا البلد هو بلدهم. ولكنّ التقسيم ضرورة مطلقة، إذا شئنا أن نتجنّب الكارثة».

وتجدر الإشارة إلى أن ليبوفيتز لا يرى أن ينفّذ التقسيم تبعاً للحدود التي رسمتها الأمم المتحدة لإسرائيل. ولا ينسى أن الأردن ألحق الضفّة الغربية به عام ١٩٤٨، وأن العرب لم يسمحوا لفلسطين بأن توجد ـ كدولة بحسب تقسيم الأمم المتحدة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ثم قال: «ولكنّني أصرّح بجلاء لا لَبْس فيه بأننا مسؤولون عن الحالة الرهيبة التي نحن فيها اليوم، كما كان العرب مسؤولين عن حرب ١٩٤٨، عندما كان العالم كلّه يقف وراء إسرائيل. وإذا لم يحصل تقسيم، وإذا استمرّت الحالة الحاضرة، لا يمكن تفادي عاقبتيْن: ستصير دولة إسرائيل داخلياً دولة فاشيّة فيها مخيّمات اعتقال، لا للعرب وحدهم، بل أيضاً ليهود من أمثالي. أما خارجياً، فستحصل لنا مع العرب حرب استئصال؛ وسيتعاطف العالم كلّه مع العرب. ولا يمكن تفادي هذه الكارثة إلّا بالتقسيم. ومن الناحية النفسية، سيكون من الصعب التخلّي عن مطالبتنا بالقدس كعاصمة مستقلّة لإسرائيل. فإذا تحقّق التقسيم، لا بدّ من تقسيم القدس أيضاً».

وليس من الصعب أن نرى لماذا يرفض المستوطنون اليهود ـ وربّما معظم الإسرائيليين ـ قول الأستاذ المسنّ الذي هرب من ألمانيا إلى فلسطين الانتداب في السنوات الأولى من حكم «الرايخ الثالث»، قبل أن تسوء حالة اضطهاد اليهود. ويصف «غرينبورغر» الأستاذ «ليبوفيتز» بأنه «فلتة» غريبة لوسائل الإعلام؛ بينما يرى «ليبوفيتز» «غرينبورغر» ورفاقه المستوطنين كأكبر خطر يهدّد دولته. وهكذا يقدّم الرجلان صيغتيْن متعاكستيْن لرؤية الواقع، الذي يحاول أحدهما أن يخلقه، بينما يحاول الآخر مستميتاً أن يتجنّبه. أحدهما يستقوي بالله والمنطق، والآخر بالله و«التراكتور».

انطلق أُسامة حميد ليفجّر نفسه إلى أشلاء بعد أن صلّى في جامع بلال. وقد أجمع أصدقاؤه على أنه ليس من طراز الذين يفجّرون السيارات، ولكن حمدي حميد لم يفاجأ عندما أخبروه بنبأ مقتل ابنه. كان جالساً إلى جانب حافظ المسجد حيث رأى ابنه للمرّة الأخيرة، وقال: «لقد تكلّم كثيراً عن الاستشهاد، وعن الموت في المعركة مع الإسرائيليين. وأخبرني أنه إذا استُشهد في هذه القضيّة فسيعلو مقامه في الجنّة». وكان قد أعدّ نفسه للموت بعد ثلاثة أشهر من اتفاق عرفات مع رابين في حديقة البيت الأبيض.

وكانت ملاحظات حمدي حميد تُقطع كلّ عدّة ثوانٍ بمجيء أحد الأقارب أو الأصدقاء ليقبّله ويعزّيه باستشهاد الفلسطيني الثاني خلال ٤٨ ساعة. وقبل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ذلك بيوم، ساق أنور عزيز سيّارة إسعاف مشحونة بالمتفجّرات لصدم سيّارة جيب ملأى بالجنود الإسرائيليين في قطاع غزّة، فجرح ثلاثة منهم؛ وبقيت جثّته المتفحّمة المتغضنّة ستّ ساعات على الطريق، بينما كان رفاقه يروون كيف حضّر نفسه للموت ـ بالاغتسال والوضوء والصلاة في مسجد المحلّة ـ ويعبّرون عن اعتزازهم بتضحيته بالصراخ المدوِّي.

أما بالنسبة إلى الإسرائيليين، فقد كان ذلك الأسبوع مخيفاً: فأداة التدمير الجماعي المخيفة التي لا تتوقّف ـ المفجِّر الانتحاري ـ والتي أسهمت في استدراج جيش الاحتلال الإسرائيلي إلى جنوب لبنان قبل عقد من الزمن، قد نضجت في غزّة. فهناك اثنان آخران من المفجِّرين الانتحاريين قُبض عليهما خلال ذلك الأسبوع، وعُطّلت المتفجّرات التي يحملانها. لقد فهم إسحق رابين معنى ذلك؛ إذ قال في الكنيست بتاريخ ١٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣: «لقد شهدنا الهجمات الانتحارية منذ أن قويت حركة «حماس؛ فحتى ذلك الوقت لم يُقدم عليها الفلسطينيون؛ كما أن اللبنانيين لم يُقدموا عليها قبل مجيء حزب الله».

وبالطبع، لم يذكِّر رابين جمهوره بأن إسرائيل هي التي شجّعت أصلاً على قيام حركة «حماس» كمناوئة لمنظمة التحرير الفلسطينية. ولم يكن بالإمكان معرفة مقصد أسامة حميد، البالغ من العمر ٢٥ سنة، والصيدلاني في الجامعة الإسلامية بغزّة، عندما سلَّم على أبيه الذي لا يعلم مقصده في جامع بلال، وانطلق بسيّارته، والقنبلة في صندوقها الخلفي ورشّاش كلاشينكوف على المقعد ـ كي ينفّذ المهمّة الانتحارية الثانية خلال ذلك الأسبوع.

وكان إخوة الفقيد وأبناء عمّه الذين جاءوا لتعزية والده ـ وهم مجموعة صلبة من الشباب يرتدون سترات جلدية سوداء ـ يتكلّمون كلّهم عن تعاظم اهتمامه بالدين. وقد وصفه ابن عمّه وليد حميد بصورة من تلك الصور العقيمة التي تظهر بعد كل تفجير انتحاري، بقوله: «كان يقرأ القرآن دائماً، ويخطب في المسجد عن ضرورة الموت في الحرب ضدّ إسرائيل؛ ولم يكن يضحك؛ لكنه كان يلعب بكرة الطاولة من وقت إلى آخر. وكان الإسرائيليون يعتقلونه دائماً.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وقد قضى أربع سنوات في السجن، بصفته عضواً في حركة «حماس». وكانوا يضربونه دائماً». وكانت عائلة أسامة حميد قد ألصقت على جدران مسجد بلال مجموعة من صوره الملوّنة. وهي تظهره شابّاً ملتحياً، يضع نظّارة، ويتأهّب مسرحياً لأخذ الصورة؛ فيركع على رجل واحدة، والكلاشينكوف بيده، ووراء رأسه آيات من القرآن الكريم. ولكنّ مُلصقات حماس التي تعلن عن آخر «شهدائها» ـ المفجّر الانتحاري السابع الذي هاجم الإسرائيليين ـ لم تُشر طبعاً إلى فشل مهمّته.

فقد انطلق أسامة حميد بسيّارته نزولاً في طريق «سجايا» بغزة، ولم يقتل أحداً من أعدائه، إذ كان يأمل صدم شاحنة للجيش الإسرائيلي ـ فوجد نفسه ملاحقاً من قِبل دورية حدود إسرائيلية لاحظت أنه يقود سيّارة مسروقة. وبدلاً من أن يقف، حاول حميد أن يطلق النار ويهرب، لكنه أصيب برصاصتيْن إسرائيليتيْن وقُتل فوراً.

قال أبوه: «كان أسامة ضدّ سلام عرفات»؛ بينما كان صوت المؤذّن ينادي للصلاة عبر الشوارع الملوّثة ببيض الذباب حول خيمة المأتم. ثم أردف قائلاً: «قال إن ذلك السلام لن يُنفّذ؛ لكنه كان قد تكلّم عن الاستشهاد في سبيل تحرير فلسطين قبل ذلك بأسابيع. وعندما شاهدته لآخر مرّة سألني عمّا إذا كنتُ مع والدته بحاجة إلى شيء ما. لم ينم إذ ذاك في البيت. ثم سمعت بما فعل في اليوم التالي». توقّف الرجل عن الكلام، شاعراً بأن ابنه يُعتبر «إرهابياً» ـ بنظر الإسرائيليين ـ قال: «إني فخور به».

ولكن، لماذا ينطلق مثل هؤلاء الشباب بسهولة إلى حتفهم؟ ففي يوم مأتم أسامة حميد، وجدتُ في مستشفى الشفاء خمسة رجال فلسطينيين ينزفون من جروح في سيقانهم. فقد أطلق الإسرائيليون النار عليهم، دون توضيح السبب، وبعد نصف ساعة أوقفني على الطريق وأنا خارج من غزّة جنود يصرخون في مجموعة من الشباب؛ وقربهم جثّة فلسطيني. فأخبرني أحد الشباب أن الإسرائيليين حاولوا أن يوقفوه «لكنه أخرج فأساً وهاجمهم، فأطلقوا النار عليه». ثم أعلن الجيش الإسرائيلي أنه قتل عرفات خليل البالغ من العمر ١٨ سنة، عندما هاجم جندياً بفأس.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

سمّوه «سلام عرفات». ولم يكن أسامة حميد يعتقد أن اتفاق «أوسلو» سينفّذ أبداً؛ وكان مُصيباً. وقد بدت أولى تلك الدلائل في القاهرة بتاريخ ١٢ كانون الاول/ ديسمبر عام ١٩٩٣، عندما وافق عرفات على عقد مؤتمر صحفي مشترك مع رابين، الذي سيعلن أولى الانسحابات، بحسب ظنّه. ولكن حالما رأيت عرفات أدركتُ ماذا حدث؛ إذ كانت حيويّته كلّها قد سُحبت منه. ومع أن عرفات كان يحبّ آلات التصوير التلفزيونية ـ ولا سيّما أنه صار «رئيس فلسطين» ـ فقد حملق فيها دون أن يرمش، وكأنه خائف. في هذه المرّة، لم يكن لديه شيء يخبرنا به، ولا حتى مسحة هتاف عشية اليوم الذي سمّاه «اليوم المقدَّس»؛ إذ لم يكن باستطاعته أن يعلن عن أي انسحاب إسرائيلي من الأراضي المحتلّة، أو عن إطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين، أو عن ممرّات للمستوطنين اليهود في الضفّة الغربية وغزّة، أو عن حجم «المنطقة الفلسطينية المستقلّة» في أريحا؛ حتى أنه لم يتلفّظ بكلمة القدس. وعندما سُئل عن الانعكاسات السلبية على الأراضي المحتلّة، بسبب خيبة منظمة التحرير والإسرائيليين في بدء الانسحاب في موعده، قال عرفات: «أرجو أن لا يحصل ذلك».

عرفنا أن هناك شيئاً ليس على ما يُرام في المحادثات بين عرفات و«رابي» حالما دخل رئيس وزراء إسرائيل الغرفة، تحيط به وجوه متجهّمة لمفاوضيه العازفين عن الابتسام. وجاءت كلماته كما يتشدّق عادة، إنما دون الحيوية التي أبداها منذ الأشهر الثلاثة القصيرة التي مضت على لقاء البيت الأبيض. تكلّم عن «صعوبات» تحقيق الأمن، وممرّات المستوطنين، والحدود التي سترسم بين «المناطق الفلسطينية المستقلّة» والأراضي المحتلّة من قِبل إسرائيل.

وبالطبع، أخبرنا أنه لن يكون هناك فرقٌ يذكر. إنه تأخير عشرة أيام على معاودة المحادثات لجلاء القضايا. قال: «لا أرى سبباً لقيام أيّة صعوبة في تنفيذ «غزّة ـ أريحا أولاً»، ضمن الإطار الزمني للمفاوضات، إذا توصّلنا إلى اتفاق خلال عشرة أيام من الآن...» وبتعبير آخر، ما زال بالإمكان إكمال الانسحاب الإسرائيلي بتاريخ لا يتجاوز نيسان/ أبريل ١٩٩٤. وترك عرفات

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ليتكلّم عن «بعض نقاط التنوّع والاختلاف» ولمّا كان عرفات قد فشل في تأمين ضمانات دولية لاتفاقية «أوسلو»، فقد التجأ إلى مناشدة النرويجيين ليضغطوا على الإسرائيليين كي يبدأوا بالانسحاب بتاريخ ١٢ كانون الأول/ ديسمبر. كما ناشد «وارن كريستوفر» وزير الخارجية في حكومة كلينتون لحثّ إسرائيل على القيام بانسحاب رمزي على الأقلّ في تاريخ ذلك «اليوم المقدّس». ومن جهة أخرى، تعلّمت منظمة التحرير الفلسطينية، أثناء زيادة انشغالها بهذا الأمر، أن الدبلوماسيين الأميركيين في الشرق الأوسط ـ الذين يُعتمد عليهم لمعرفة اتجاه الريح، عندما تُخفق الخطط ـ بدأوا يتباعدون عن تلك الاتفاقية التي شجّعوا العالم على التصفيق لها، كنهاية ممكنة لمئة سنة من الصراع. وقد أشار هؤلاء الدبلوماسيون إلى «ثغرات» في بنود الاتفاق الذي وقّع بتاريخ ١٣ أيلول/ سبتمبر عام ١٩٩٣. وأخبرت سفارات أميركا المراسلين الأميركيين أنه يجدر النظر إلى ذلك الاتفاق كخطوة أولى على درب السلام، وليس كنهاية بحدّ ذاته.

ولم يمنع أي شيء من هذا «خبراءنا» ـ أي كل أولئك الذين يعتقدون أن إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية سيكملان عملية السلام ـ من الاعتصام بتحليلهم الخاطىء الدالّ على أن الإسرائيليين سيفوزون بالسلام. وقد أطلع «تشالز ريتشاردز» رئيس تحرير قسم الشرق الأوسط في جريدة الإندبندنت، القرّاء بتاريخ ١٤ كانون الأول/ ديسمبر على أن «الاختراق التاريخي لا تُعكس مسيرته... فرابين قرّر؛ حاملاً بلاده معه؛ وإسرائيل كالعادة هي التي تأخذ المبادرة، لا الفلسطينيون». ولكن التباطؤ الإسرائيلي صار مَعْلماً من معالم السنوات التالية، وأسهم في انهيار اتفاق «أوسلو». وفي الواقع، لم تمضِ ٢٤ ساعة على ذلك المؤتمر الصحافي الكئيب، حتى قال رابين: «من الخطأ الاعتقاد أن الاتفاق قد يوقّع في الأيام العشرة القادمة».

وعندما عدتُ إلى الخليل، وجدتُ رجال «حماس» يتكلّمون عن تجديد «الانتفاضة»، وعن «تفوّقهم» في فهم «استسلام» عرفات. وكانت هناك كتابات حديثة بالدهان الأسود على الجدران قرب جامعة الخليل، تهدّد المستوطن الذي قتل مدنياً فلسطينياً في تشرين الثاني/نوفمبر، بالقول: «إن حركة حماس

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الإسلامية ستقتل الرجل الذي قتل طلال بكري»؛ وتزيد على ذلك قولها: «إن سلاحنا يتكلّم؛ وسنقضي على بائع بلادنا». و«البائع» طبعاً هو عرفات. وقد صادفت «إبراهيم» وهو يجمع في كيس بلاستيك أرغفة خبز من فرن على الشارع الرئيسي من الخليل ـ ومعظم الفلسطينيين يفضّلون عدم كشف أسمائهم ـ ويدّعي أنه مناصر لحماس، ويقول: «نشكر رابين لأنه رفض أن يساعد عرفات. وكما ترى يريد الجيش الإسرائيلي الآن أن يتفاوض معنا، وليس مع منظمة التحرير الفلسطينية».

ومن الجدير بالملاحظة أن إبراهيم كان مصيباً. فقد أقرّ الجيش الإسرائيلي بفتح حوار مع «حماس» ـ ضدّ عرفات ـ إذ التقى مسؤولين من «حماس» مع العميد «دورون ألموغ» قائد قطاع غزّة. فتكلّم العميد ألموغ عمّا إذا كانت «حماس» تفضّل «استمرارية الاحتلال الإسرائيلي على سيطرة عرفات في إطار الاستقلالية»، وحدّث «حماس» بشأن بذل كل هذا الجهد من قِبل الإسرائيليين لتقويض مركز رئيس منظمة التحرير الفلسطينية. وكانت الحقيقة طبعاً أن في الجيش الإسرائيلي أعضاء كرّسوا أنفسهم لنسف اتفاق «أوسلو» ـ كما أن هناك أيضاً إسرائيليين مجرمين، بلغ بهم غلّهم أن يقتلوا رئيس وزرائهم عام ١٩٩٥، لإطفاء كل أمل في عقد اتفاق مع الفلسطينيين.

وفي هذه الأثناء، كان على عرفات أن يشرح لزملائه العرب عمله الطائش المغامر. وقد سافرتُ من جديد إلى القاهرة لأحضر الأداء المُحْرِج لعرفات في موقفه كرجل واحد، في الدورة المئة من دورات انعقاد الجامعة العربية الضعيفة النفوذ. وقد عبّر عن هذا الوضع موفد مشرقي ـ وللقرّاء أن يخمّنوا من أيّ بلد أتى ـ بقوله: «تهريجات غريبة». وبالفعل ظهر عرفات أمام رفاقه العرب كتلميذ مدرسة عليه أن يشرح الكثير. فقد أرادوا أن يعرفوا لماذا فاوض من وراء ظهورهم، بعدما طالب جميع العرب بأن يفاوضوا إسرائيل معاً؟ وماذا عن السلام «الشامل» الذي طلبه جميع القادة العرب ـ بمن فيهم عرفات ـ ؟

وضع عرفات نظّارته، وقرأ من نصّ مكتوب بعناية. قال إنّ على العرب أن «يجابهوا النظام العالمي الجديد» لئلا يُستبعدوا منه. وإن فلسطين ستبقى دائماً

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جزءاً من الأمّة العربية. وأردف محاضراً: «بالرغم من أننا نحمل شقاء أمّتنا، وأقوالها، وتطلّعاتهم، فإننا نقف على عتبة مرحلة جديدة من تاريخنا». أجل، ستكون هناك دولة فلسطينية مستقلّة وعاصمتها القدس. وستجري مناقشات ومشادّات في المجلس الوطني الفلسطيني. ولكن في آخر الأمر، قرّرت منظمة التحرير الفلسطينية منذ زمن بعيد «إقامة دولة على أي جزء من فلسطين المحرّرة».

ثم جاءت المصيبة الكارثة. «بعد ٢٢ شهراً، لم يحصل تقدّم في المحادثات الفلسطينية الإسرائيلية (في واشنطن)، بينما ازداد القهر الإسرائيلي لشعبنا الفلسطيني في الأراضي المحتلّة». وقد أخذ عرفات على عاتقه القيام بمحادثات سرّية «لكسر ورطة الجمود التامّ، ولتجسير الهوّة عند الطريق المسدود» في محادثات السلام بواشنطن. فإذاً هذه هي القصّة. وكان على العرب أن يكونوا ممتنّين لعرفات الذي أنقذ «عملية السلام» وحده، بالشروع في مفاوضاته السرّية مع إسرائيل. وفي النهاية الأخرى من القاعة، كان فاروق الشرع، وزير خارجية سوريا ـ وشرطي الرئيس الأسد المرتدي بزّة رمادية والمرابط في آخر القاعة ـ يجلس ويدخّن السجاير الفاخرة، بينما يسجّل مساعدوه الملاحظات. وهنا نجد تقريراً مدرسياً، يثير الاهتمام بقراءته، لكن المدير في دمشق سيجده غير مُرْضٍ. إنما لم تكن هناك نهاية لتنازلات عرفات.

واستأنف عرفات قوله: «في سبيل مجابهة التصلّب الإسرائيلي، كان علينا أن نتراجع عن الشروط المرجعية لعملية المفاوضة. فالفلسطينيون كانوا على أُهبة الدخول في عهد جديد». وقد ذكّرنا في درسه التاريخي الذي ألقاه علينا بالمؤتمر الصهيوني الأول المعقود في سويسرا عام ١٨٩٧، ثم أورد أن العالم اعترف أن شعب فلسطين، «عاش على هذه الأرض، منذ بدء الخليقة». كلّا، إن الحلّ الكامل لم يحن وقته بعد. «إن العملية المتمرحلة قد أكسبتنا جزءاً عزيزاً من فلسطيننا في أريحا وغزّة، وتأسيس الحكم الذاتي الفلسطيني. . . والأهمّ ليس النصّ أو بدء الانسحاب الإسرائيلي، بل أن تُشرف السلطة التنفيذية الفلسطينية على كامل الأراضي المحتلّة». فهذا الحلّ وحده ـ أي صفقة عرفات

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ـ هو الذي يكفل تحقيق سلام «شامل». ولم يذكر عرفات مُنتقديه الفلسطينيين من المعارضة الإسلامية المسلّحة... أما بشأن الملايين من الفلسطينيين الذين لم يرد ذكرهم في الاتفاقية، فقد قال عرفات: «سأخبركم فيما بعد ماذا سيحصل للاجئي عام ١٩٤٨»؛ ولكنه لم يخبر أبداً.

وعندما ذهب إلى الأسد في دمشق ليقدّم اعتذاراته، جلس القائد السوري إلى يمين عرفات صامتاً، بينما كان رئيس منظمة التحرير الفلسطينية يشرح اتفاقه السرّي مع إسرائيل. ثم قال الأسد لعرفات بهدوء وبصوت منخفض وإنما قاسٍ: «أنت تجلس الآن على الكرسيّ التي جلس عليها السادات، عندما جاء ليراني قبل عقد معاهدة سلامه مع إسرائيل ـ انظر ماذا حدث له». لقد قُتل السادات عام ١٩٧٩ ـ على يد أحد جنوده ـ وقد ألقى هذا القتل بظلّه على كل زعيم عربي منذ ذلك الوقت. وفي عام ١٩٨٢، عبّر الرئيس اللبناني المنتخب، بشير الجميّل، عن رغبته في عقد صلح مع إسرائيل ـ ثم مات بعد أسابيع بقنبلة انفجرت خلال اجتماع للكتائب في بيروت. وفيما بعد وصف عبد الحليم خدّام، نائب الرئيس السوري، بشكل غير رسمي اتفاق «أوسلو» بأنه «أسوأ وثيقة وقّعها العرب منذ تقسيم فلسطين عام ١٩٤٨».

ومنذ البداية لم نفهم لماذا أصرّ الإسرائيليون اليمينيّون، فضلاً عن الإسلاميين الفلسطينيين ـ الذين يمكن أن ندعوهم يمينيّين ـ على معارضة اتفاق «أوسلو». فدرجة خيانة عرفات غطّت على المدى الذي بلغته خيانة «رابين» بنظر المستوطنين الإسرائيليين في غزّة والضفّة الغربية. ولما قرّر «باروخ غولدشتاين»، ضابط الاحتياط في الجيش الإسرائيلي ببزّته الرسمية، القيام بمجزرة يقضي فيها على المصلّين الفلسطينيين في جامع قبر إبراهيم في الخليل بتاريخ ٢٥ شباط/ فبراير ١٩٩٤ ـ لم نعرف ـ نحن الصحافيين، والأميركيين، والأوروبيين، والإسرائيليين ـ ماذا يجدر أن يكون ردّ فعلنا. فالمفروض في «الإرهابيين» أن يكونوا عرباً. لكن غولدشتاين، كان متعلّماً وطبيباً مولوداً في أميركا ـ ويا اللّه ـ مَن كان يظنّ أنه كان مُقدِماً على عملية انتحارية. والناجون من تلك المذبحة ضربوه وخنقوه ومزّقوه إرباً.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وقد تحدّثت التقارير الأوّليّة حول الحادثة عن أكثر من ٥٠ قتيلاً فلسطينياً في الخليل ـ وكان التقدير دقيقاً. وبعد أن أردى غولدشتاين أكثر من عشرين فلسطينياً وجرح ١٧٠ آخرين في المسجد الملطّخ بالدم، قتل الجنود الإسرائيليون أيضاً ٢٥ مدنياً من الفلسطينيين المغتاظين على الأقلّ في الخارج؛ ممّن ضربوهم بالحجارة وحاولوا اقتحام الشريط العسكري الذي كان مفروضاً فيه أن يحمي المنطقة المقدّسة ـ والذي خاب في أن يحمي المصلّين. ولكن الصحافة المتحدة غيّرت الإحصاءات خلال ٣٦ ساعة. فغولدشتاين ذاته قتل ٢٩ فلسطينياً ـ وكانت تلك الحصيلة الإجمالية لحمّام الدم. أما الباقون البالغ عددهم ٢٥ قتيلاً، فقد ابتكروا لهم قصّة أخرى وقالوا إنهم قُتلوا في أعقاب المجزرة.

كما أنهم غيّروا أيضاً هويّة القاتل الإسرائيلي. قال شفيق الحوت سفير فلسطين في بيروت المستقيل حديثاً: «تصوّر لو ارتكب هذه الجريمة فلسطيني في كنيس يهودي: كأن يُقتل خمسون يهودياً على يد مسلّح فلسطيني واحد، ماذا كان يمكن أن يكون ردّ فعل العالم هذا الصباح؟ أخبرني». لقد كان السؤال صعباً. فبادئ ذي بدء كان العالم قد سمّى المسلّح «إرهابياً»؛ وأسبغ اللقب ذاته على جماعته. وهدّد كل بلد يؤوي مثل تلك الجماعة الإرهابية بالعقوبات. وكان الرئيس الأميركي قد أدان ذلك الفعل واعتبره بحقّ «جريمة شنيعة».

ولكنّ ذلك لم يطبّق في هذه الحال. فغولدشتاين كان إسرائيلياً. وكان ضابطاً إسرائيلياً احتياطياً. وكان مستوطناً يهودياً. لذلك، وصفته نشرتا أخبار غربيّتان فحسب بأنه «إرهابي». وكان هذا القاتل مرتبطاً بحركة «كاخ» اليمينية. ولكن تلك الحركة كانت شرعية في إسرائيل. وكان لها مكاتب في نيويورك. وقد انبرى الرئيس كلينتون ـ سائراً على خطى الإدارة الأميركية السابقة، عندما بدا أن إسرائيلياً هو المسؤول عن المجزرة ـ ليصف المذبحة التي جرت عند قبر إبراهيم عليه السلام بأنها «فعل إجرامي كبير»، كما كانت فعلاً، ولكنها أيضاً «مأساة رهيبة». لقد كان ذلك كلام المراوغة والمداهنة المعهود ذاته. فالضحايا

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ليسوا ضحايا إرهاب بل ضحايا مأساة ناتجة عن كارثة طبيعية، أو موجة مدّ بحرية، أو هزّة أرضية.

وغير بعيد عن منزل الحوت في بيروت، وحول مخيّم «مار إلياس»، رُفعت أعلام الحداد السود على أعمدة الكهرباء وأسلاك التلفون والجدران. وقد صرخت في وجهي امرأة: «أنتم ساعدتم الإسرائيليين، أيها الملعونون... ليس لنا وزن عندكم، إنكم تعتبروننا حيوانات». وفي المكتب الضيّق للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، هدر صوت سهيل الناطور هائجاً: «أتساءل لماذا كان الغرب مستعدّاً لمساعدة أهل البوسنة، عندما قُتل منهم ٦٨ شخصاً في سوق سراييفو، ولم تتحرّكوا أيها الغربيون لحمايتنا عندما قُتل منا حوالى ذلك العدد، في المسجد وحواليه؟ لقد بلغ الضعف بالفلسطينيين مبلغه، بحيث صار الإسرائيليون يكرِّرون جرائمهم ضدّنا».

ويجدر القول: إن الدول العربية ترفع الصوت لإدانة مجزرة الخليل، دون أن يكون لها ما يكفي من السلطة الأخلاقية لتصوِّب إصبع الإدانة. فباستطاعة مصر أن تندّد بذلك القتل، لكنّ شُرطيّيها كانوا يعذّبون مئات من الأسرى المسلمين في القاهرة، بطريقة منهجية. وبإمكان الأردنّ أن يدين حمّام الدم، وينسى عدداً أكبر من الفلسطينيين ذُبح على أيدي الجنود الأردنيين في عام ١٩٧٠. ويمكن سوريا أن تشجب فعل إسرائيل، وتتجاهل الآلاف ممّن أعدمتهم القوّات السورية الخاصّة في حماه عام ١٩٨٢. أما الإسرائيليون فلهم أيضاً قائمة بالفظاعات التي ارتكبها الفلسطينيون ضدّهم: كالقنبلة التي قتلت ١٢ إسرائيلياً في سوق القدس عام ١٩٦٨، وإطلاق النار بوحي فلسطيني في مطار تلّ أبيب حيث قُتل ٢٥ شخصاً، بمن فيهم عدّة إسرائيليين عام ١٩٧٢؛ فضلاً عن مقتل ١١ إسرائيلياً من الفريق الأولمبي الإسرائيلي في ميونيخ في العام نفسه؛ وقتل ١٦ مدنياً في «كريات شمونة» عام ١٩٧٤؛ وقتل ٢١ ولداً في «معلوت» عام ١٩٧٤. وهذا مؤشّر على إمكان انهيار كامل «لعملية السلام» الحمقاء، مع أن هذه الأعداد ستكون معتدلة، إذا قورنت بما سيأتي فيما بعد.

وفي عام ١٩٩٤ ثار هيجان العرب الخاصّ ـ العرب العاديين لا زعمائهم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

غير المنتخبين ـ ضدّ المعايير المزدوجة التي يتعامل بها الغرب. وطالما سئلت: «لماذا فوجئ الغرب بمجزرة الخليل؟ فهل نسينا مجزرة صبرا وشاتيلا التي حدثت عام ١٩٨٢، والتي ارتكبها حلفاء إسرائيل من الكتائب اللبنانية وبوجود القوات الإسرائيلية في بيروت، حيث قتل حوالى ١٧٠٠ فلسطيني؟ وهل نسينا أنه كلّما قَتل فلسطيني إسرائيلياً يُوصم بأنه «إرهابيّ»؛ بينما كلّما قتل إسرائيلي فلسطينياً يُوصف بأنه «مستوطن يهودي مختلّ»، أو أنه «مهاجر أميركي»، أو من «المقاتلين اليهود السرّيين»، ولكنه لا يوصم أبداً بأنه «إرهابي»؛ (إلّا مرّتين).

وفي أعقاب مجزرة الخليل، فتّشتُ في محفوظاتي المبعثرة فوجدت أنه بتاريخ ٩ نيسان/أبريل عام ١٩٤٨، وصفت الصحافة المتّحدة مسلّحي «أرغون» ـ الإرهابيين بأيّ مقياس ـ والذين ارتكبوا مجزرة دير ياسين، بأنهم «مقاتلون يهود سرّيون راديكاليون». وفي تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٥٦، قُتل ٤٣ فلسطينياً في بلدة «كفرقاسم» على يد الجنود الإسرائيليين لأنهم على بساطتهم خرقوا منع التجوّل؛ ثم جاء حمّام الدم في صبرا وشاتيلا. وممّا يثير الفضول، أن مجزرة «صبرا وشاتيلا» لا تظهر في القائمة التي أعدَّتها الصحافة المتحدة عن «المهاجمات بين الإسرائيليين والفلسطينيين» منذ عام ١٩٤٨. بينما ذكرت لجنة «كاهان» الإسرائيلية للاستقصاء، التي اعتبرت شارون «مسؤولاً شخصياً» عن المذابح، أن الجنود الإسرائيليين الموجودين حول المخيّمات شاهدوا بعض أعمال القتل، ولم يفعلوا شيئاً خلال فترة المجزرة التي دامت ٣٦ ساعة. وبتاريخ ٢٠ أيار/مايو ١٩٩٠ صفّ جندي إسرائيلي جماعة من الفلّاحين الفلسطينيين في «ريشون ليزيون»، وقتل سبعة منهم برشّاشه. وقد غطّت الصحافة الدولية هذا القتل تماماً، دون أن تذكر كلمة «إرهابي». وكان التفسير هو أن الجندي كان «مختلّاً». وبعد خمسة شهور، فتحت الشرطة الإسرائيلية النار على فلسطينيين في القدس وقتلت ١٩ رجلاً. وكان من نصيب وزير الخارجية الأميركي جيمس بيكر أن يتكلّم عن هذه المجزرة. ولكنه لم يدْعُها «مجزرة» بل «مأساة»، كما استعمل «كلينتون» فيما بعد الكلمة ذاتها لوصف مجزرة الخليل.

إن قائمة الأهوال ليست شاملة؛ ولكنْ هناك نمط ظاهر منها. فعندما يقتل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الفلسطينيون الإسرائيليين، نعتبر القتلة شرّيرين، ولكن عندما يذبح الإسرائيليون الفلسطينيين، تعتبر أميركا وسائر البلدان الغربية أنه يمكن النظر عملياً إلى هذه الجرائم بصفتها مآسي، وسوء تفاهم، أو من عمل أفراد مجانين. والفلسطينيون ـ بالمعنى الإجمالي الشامل ـ هم المسؤولون مبدئياً عن حدوث هذه الأعمال الشنيعة؛ أمّا إسرائيل فغير مسؤولة. وهكذا، حصل تشويش على مدى الأيام في ردّ فعل الغرب على الأعمال الشنيعة الإسرائيلية، بحيث أصبح ردّ الفعل الغربي في نهاية الأمر مُضرّاً بإسرائيل، كما هو مضرّ بالغرب نفسه. فعندما يقتل جنود أو مستوطنون إسرائيليون الفلسطينيين، تبعدهم التقارير لفظياً عن كونهم إسرائيليين.

فـ «باروخ غولدشتاين» كان ضابطاً كبيراً برتبة رائد في الجيش الاحتياطي الإسرائيلي. ولكنّ هويّته خضعت لتغييرات وتحويلات صارت اليوم معروفة في نشرات الأخبار التي كانت سائدة في تلك الأيام. فلم يعد يشار إليه كجندي وضابط إسرائيلي، مع أنه كان مرتدياً بزّته العسكرية الرسمية وحاملاً رشّاشه العسكري عندما انطلق ليقتل، بل وُصف بأنه «مهاجر يهودي أميركي». وخلال فترة ١٢ ساعة فحسب، حام إثم الرجل بلطف حول سُمعة الولايات المتحدة الأميركية، وأثناء العملية ذاتها تضاءلت أهمّيةُ جنسيّة القاتل الإسرائيلية. ولكن عندما تورّطت إسرائيل كدولة في إزهاق الأرواح العربية ـ في الغارات الجوّية الواسعة الماحقة التي شنّتها على بيروت عام ١٩٨٢ مثلاً، إذ كان السلاح الجوّي الإسرائيلي يقتل أكثر من ٢٠٠ شخص يومياً في أوائل شهر حزيران/ يونيو من ذلك العام ـ جرى أيضاً تجنّب الشعور بالإثم أخلاقياً. فتلك الغارات لم تكن أعمالاً «إرهابية»، بل عمليات عسكرية ضدّ «أهداف إرهابية».

وكذلك الأمر في وصف القصف الإسرائيلي لجنوب لبنان عام ١٩٩٣؛ إذ استُعملت فيه تعابير لغوية معوّجة. فانتقاماً لقتل ٩ جنود إسرائيليين في المنطقة التي احتلّتها إسرائيل من لبنان، قامت إسرائيل بمهاجمة قرى جنوب لبنان، وقتلت أكثر من مئة شخص، من رجال ونساء وأولاد ـ أي ضعف ما قتله غولدشتاين تقريباً ـ وسيَّرت قوافل من اللاجئين يقدّر عدد أفرادها بما يناهز

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

(٣٠٠ ٠٠٠) لاجئ، على طريق بيروت. وكنتُ آنذاك من بين قلّة من المراسلين الأجانب في لبنان. وقد شاهدت بأمّ عيني النساء والأطفال يصرخون من الألم في أروقة المستشفيات، بسبب احتراق أجسادهم بفعل القنابل الفوسفورية الإسرائيلية. وقد كلّفت هذه العملية، بحسب تصريح وزير مالية إسرائيل، ٣٣ مليوناً من الدولارات الأميركية، تكفّلت واشنطن بفاتورتها، وأخذتها على عاتقها. وماذا كان ردّ فعل الرئيس كلينتون؟ لقد ألقى اللوم على «حزب الله» ـ الذي قتل الجنود التسعة ـ وحمّله مسؤولية كل ما حصل من قتل؛ وناشد «جميع الأطراف ضبط النفس».

ومن خلال هذا التعتيم والإرباك رُسم للشرق الأوسط إطار نظري تبريري جديد ـ على نطاق سياسي وجغرافي أكبر بكثير ـ ولا يزال قائماً حتى اليوم. وهو على هذا المنوال: تجري أميركا «عملية سلام». وكل من يدعمها هو صديق. ويشمل ذلك إسرائيل وعرفات ـ إلّا إذا تحوّل عرفات وعاد «سوبر ـ إرهابي» ـ كما يشمل مصر والأردنّ والعربية السعودية. ولكن، أيّ عربي يعتقد أن اتفاق عرفات ـ رابين كان خاطئاً ـ أو يعتقد اليوم أن خطط واشنطن الطموحة جدّاً والتي لا أمل بنجاحها في العراق وسائر الشرق الاوسط، هي خطط تقوم كلّها على أكاذيب أو على خدع ـ وكل امرىء يعارض هذه السياسة، أو يرفضها، أو لا يوافق عليها ـ ولو بغير العنف ـ أو يقول شيئاً يضرّ بها، كان يُعتبر ولا يزال يُعتبر عدوّاً؛ وبعبارة أدقّ، وبحسب تقارير الصحافة الأميركية «عدوّاً للسلام».

وهكذا، وبصورة أوسع، فإن كل مَن يعارض سياسة أميركا في المنطقة ـ ممّا يعني أيضاً كل مَن يعارض إسرائيل ـ هو عدوّ للسلام. وهذه العبارة الشاملة تقود إلى تشويهات غريبة متنافرة، فقد تظاهر أولئك الفلسطينيون ضدّ ما كانت تقوم به إسرائيل من تفجير بيوتهم البالغ عددها ١٧ بيتاً، وضربها بالصواريخ في «طوفه» بمنطقة غزّة عام ١٩٩٣، فعرضت محطة السي إن إن (CNN) شريطاً يظهر أحد الشباب الفلسطينيين يرشق الجنود الإسرائيليين بالحجارة. ولكنّ التعليق وصف ذلك الشاب بأنه «يتظاهر ضدّ عملية السلام».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فما دام يحارب الإسرائيليين، فهو «عدوّ للسلام». وحتى لو كان ذلك سبب تظاهره، فقد كان يُنظر إليه على أنه غير شرعي(*). ولكنّ اتفاقية منظمة التحرير الفلسطينية مع الإسرائيليين في «أوسلو» كانت ـ بنظر العديد من الفلسطينيّين ـ هي التي سمحت لإسرائيل بالاحتفاظ بجنودها ومستوطنيها في الضفّة الغربية وفي غزّة. إن عرفات، بنظر عشرات الألوف من المنتقصين من قدره، هو الذي شرّع المستوطنات اليهودية، التي جاء منها القاتل الجزّار الذي قتل الفلسطينيين في الخليل. ولمّا كانت الجرائد وشبكات التلفزيونات الأميركية لا تريد أن يعتبروها «عدوّة للسلام»، لا يدرك الكثيرون في بلاد الغرب كم كانت اتفاقية عرفات الكوارثية مع إسرائيل عامل تشرذم، ولا سبب لوم إسرائيل مباشرة من قِبل الفلسطينيين لحدوث مجزرة الخليل. لقد نفت حكومة إسرائيل أيّ تورّط في المذبحة. ولكن ذلك لا يعني أنها لم تكن مسؤولة عن المذبحة. وذلك لأن سياسة إسرائيل الاستعمارية، وتسليحها للمستوطنين المستعمرين، وما نتج عن ذلك من مقاومة فلسطينية ضدّ الاحتلال، كل ذلك قاد مباشرة إلى عملية القتل الكبرى في الخليل. وحتى لو كانت عملية القتل عملاً فردياً، فقد كان لا معدى عنها. ففي كلّ بيئة، تُقزَّم فيها إنسانية خصوم إسرائيل، وحيث يعامل المجرمون الإسرائيليون على مستوى أخلاقي مختلف عن معاملة المجرمين الفلسطينيين، ستُرتكب مثل تلك الجرائم. لقد نظر غولدشتاين إلى العرب «كإرهابيين» ـ تلك الكلمة الصدئة التي ساقت الإسرائيليين إلى مغامرتهم في لبنان عام ١٩٨٢، والتي أقنعت الأميركيين بأن يركبوا رأسهم ويرتكبوا حماقتهم في العراق، بعد ذلك بفترة ٢١ سنة ـ وعلى ذلك، مشى غولدشتاين إلى جامع الخليل لطرد الشياطين التي خلقناها كلّنا له.

وعرفات أيضاً لديه شياطينه. وعندما بدا ذلك الساحر المشعوذ المسنّ

(*) عندما استجوبتُ رئيس مكتب السي إن إن (CNN) في القدس حول ذلك التعليق الكاذب الخادع، أجاب بأن: الشريط من النوع العامّ الشائع، واعتبر الفيلم عامّاً شائعاً لأن العنف كان عامّا شائعاً، ولأن الفلسطينيين هم على وجه العموم شعب عنيف. لقد تظاهروا، ورشقوا بالحجارة، واعترضوا على «السلام»، وبالتالي كانوا، كما أظنّ، ضدّ الإسرائيليين، وضدّ الأميركيين، وضدّ السلام، وبالطبع «محبّذين للإرهاب».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

متأخراً كالعادة في غزّة، كان لديه وهمٌ آخر يخدعنا به. كان وجهه هو ذاته، كما كان منذ ١٢ سنة في بيروت، عندما ادّعى أنه انتصر على الإسرائيليين المنتصرين، وتفقّد جنوده على رصيف الميناء قبل أن يهرب من لبنان. لكنه يبدو الآن أكبر سنّاً، وقد برزت عظام خدّيه؛ لكنّ عينيه بقيتا على ما كانتا عليه تماماً بينما كان يشقّ طريقه عبر الحشد المتحمّس، ساعياً بين النشوة والخوف. وقبل ذلك بدقائق، كان أحد المسلّحين يصرخ بمكبّر الصوت أن عرفات سيقودهم إلى القدس، وبدا أن كثيراً من الفلسطينيين يؤمنون بكلامه.

وتكثّفت الأوهام. فقد أنبأنا عرفات في تلك الساحة المكتظّة الحارّة من غزّة أنه جاء «ليبني وطناً للحرية والمساواة والديمقراطية». فمن يستطيع أن ينكر على الفلسطينيين أحلامهم بعد ما قاسوه من ظلم سنوات الاحتلال؟ ومع ذلك، من ينكر أيضاً المشاهد المألوفة على الطريق من نقطة الحدود المصرية في رفح: المسلّحين الصارخين، والشباب المسلّحين الذين يطلقون النار ابتهاجاً من نوافذ السيّارات، والاندفاع خوفاً خارج خان يونس، وتحطّم العربة بين أشجار الزيتون إلى جانب الطريق؟ إنها ذكرى لبنان تمرّ على الخاطر.

وحتى قبل أن يُمسرح عرفات رجوعه إلى بلده، ويقف أمام آلات التصوير التلفزيونية الدولية، كان هناك رجال أمن بدينون مُريبون من مخابراته، منتشرين على الطرقات، ومسدّساتهم مثبّتة على خصورهم. وقد ذكّروني عند إحدى نقاط التفتيش كيف كانوا هم هم ـ أعضاء في الجهاز ذاته الذي كان يحكم بيروت. وقد يتمتّع هذا الوضع ببعض الحسنات. فالصحافيون شُجّعوا على أن يشهدوا كل لحظة من عودة عرفات المظفَّرة إلى «فلسطين»؛ ولكنّ الموظّفين الفلسطينيين، وهم يقلّدون قاهريهم، كانوا يسمحون للصحافيين الذين يحملون أوراقاً ثبوتية إسرائيلية ـ أو أوراقاً صادرة عن السلطة الفلسطينية في غزّة ـ بأن يبلغوا حدود رفح. ولكنّ بطاقتي الصحفية ـ الصادرة عن الحكومة اللبنانية ـ صارت غير نافعة هنا. وكانت المراسلة اللامعة لجريدة الإندبندنت، «سارة هيلم» حاصلة على جميع الأوراق اللازمة. فتلطّفت بقولها لي ولزميل آخر، بينما كنا نقف في الوحل على جانب الطريق: «لا تقلق يا روبرت، فحالما

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أصل إلى رفح سأجد لك موظفاً ينقذك». ولكنها لم تفعل(*). إنما جاءنا شخص فلسطيني نحيف يحمل رشّاش كلاشينكوف يبغي مساعدتنا. وسأل: «سيد روبرت، هل أنت السيد روبرت من بيروت»؟ أنت لا تتذكّرني؟ لقد قدّمتَ لي الشاي أمام منزلك خلال حصار بيروت». فتذكّرت حينئذٍ بشكل مُبهم مسلّحاً شاباً منهوكاً خائفاً، وذراعه معصوبة، يترنّح على مدخل بيتي عام ١٩٨٢، ويطلب ماء. وها أنا مَن يطلب المساعدة الآن. قال: «طبعاً، ستأتي معنا إلى رفح». لقد صار هذا المسلّح ورفاقه جنوداً. وهذه أيضاً حيلة شَعْوذة أخرى، مثل الاستعراض الذي جرى في رفح لرجال البحرية الفلسطينيين بثيابهم الزاهية ـ ومهاراتهم المضبوطة ـ دون أن يكون لهم قارب صيد. لكننا وصلنا في الوقت المناسب لنشهد هذه الشظيّة من شظايا التاريخ.

وها هو عرفات؛ «هتلر» بالنسبة إلى المستوطنين الإسرائيليين القاطنين بالقرب من هنا في «غوش قطيف»، الذين أبطأوا في التعرّف على تطوّره من «إرهابي» إلى «رجل دولة». كان يمكن أن يأتي عبر الحدود ببزّته التقليدية وكوفيّته؛ لكنه أدرك أن الاستقبال المعدّ له ـ من قِبل وجهاء القرية الجالسين في ذلك القيظ ـ لم يكن يليق به أن يهدر وقته عليه. فانسلّ من أمامهم في ثُلّة من رجال الأمن، مسلّماً على زوجة رفيقه القديم أبو جهاد ـ الذي اغتالته الدولة التي أرسلت جنودها الآن لتراقبه من جانب الطريق.

قال لي أحد أولئك الجنود الإسرائيليين ـ من قُدامى حرب لبنان، ويعتمر طاقية اللواء «جيناتي» الحمراء ـ : «لم أتصوّر يوماً في حياتي أكون فيه مساعداً لحماية ياسر عرفات». وعبر تلك الطريق، صادفت أيضاً النقيب «أبو سمرا» أحد قُدامى الفلسطينيين في لبنان، يلبس على رأسه الطاقية السوداء لجيش التحرير الفلسطيني، وقد أصرّ على أنه عندما كان في لبنان لم يراوده الشكّ أبداً

(*) وفيما بعد، وصل إلى صحن الغبار الذي كنا فيه، سائق فلسطيني يحمل كلمة مكتوبة من سارة، ذلك النوع من الرسائل التي لا يرغب المرء في أن يستلمه من زملائه. وفيها: «يبدو أنك لا تستطيع أن تتقدّم أكثر؛ ولذلك سأبقى أنا. ليس لدينا صحافيون هنا، على وجه التقريب. تمتعْ بوقتك. مع محبّتي، سارة».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في أنه «سيعود إلى فلسطين». لقد أربك الساحر المشعوذ الإسرائيليين، ولكنه لم يُربك الفلسطينيين.

لقد اقتضى الأمر عشرة أشهر بعد مصافحة عرفات رابين، كي يفاوض بشأن دخوله إلى فلسطين. إنما كان من اليسير أن يكون المرء صعب المراس في ذلك الصباح القائظ بتاريخ ٢ تموز/يوليو ١٩٩٤. فقد وقف عرفات في سيّارته المسرعة باتجاه غزّة، ورأسه مرفوع من فتحة سقف السيارة؛ يلوِّح له الفلسطينيون من نساء وأولاد بأيديهم من بساتين النخيل. وقال حرّاسه إنه كان يبكي بكاء لا يهدأ. ثم تعالى صوته أيضاً وتردّد فيما بعد عند الواجهات الإسمنتية في مدينة غزّة، مخاطباً أعداءه بين الإسرائيليين والفلسطينيين في حركة حماس على السواء؛ إذ أعلن للإسرائيليين «سلام الشجعان» الخدّاع؛ ومدح شجاعة قائد حماس المسجون الشيخ أحمد ياسين. وحيّا صمود الفلسطينيين في مخيّمات اللاجئين في لبنان، وسوريا، والأردنّ، دون أن يذكر أن اتفاق السلام الذي عقده قضى عليهم أن يبقوا إلى الأبد في هذا البؤس. ثم أخبر الحشود بأنهم «سيصلّون جميعاً في القدس».

ألم يرَ عرفات الجنود الإسرائيليين مبثوثين على طول الطريق حتى مدينة غزّة، وراء سواترهم الترابية وهم بلباس المعركة، ومدافعهم الرشّاشة مصوّبة إلى الطريق العامّ؟ ألم يلاحظ غابة الأعلام الإسرائيلية ـ قبل الأعلام الفلسطينية ـ عندما دخل إلى وطنه؟ ألم يرَ الإعلانات التي تُنبئ بأن دخول المناطق «المستقلّة» الفلسطينية، يحصل بالتنسيق مع جيش الدفاع الإسرائيلي؟

وقد امتدّ حكمه ببطء عبر مدينة غزّة. فجاءته أوّلاً مدائح التجّار الغزيرة التي تقرِّظ الرئيس الفلسطيني الجديد في إعلانات نُشرت على صفحات الجرائد الأولى والأخيرة، ومدائح رؤساء البلديات وأصحاب المطاعم ومديري الشركات، الذين لا شكّ في أنهم كانوا يأملون عقد بعض الاتفاقيات مع السلطة الفلسطينية. وقد جاء مثلاً في إعلان لشركة «راغب مرتجى» التي تصدّر الحمضيات وتستورد المحرّكات ما يلي: «تهانينا إلى الأخ والقائد ياسر عرفات وإخوانه، بمناسبة عودتهم إلى فلسطيننا الغالية. إننا نشكركم لشروعكم في بناء الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وفي فندق «فلسطين»، عقد عرفات اجتماعاً مع أعوانه قادة فتح الذين أداروا معارك المقاومة ضدّ الاحتلال ـ والذين يحتاج إلى ولائهم المطلق في الأعوام القادمة. كما قابل قناصل كلّ من بريطانيا وفرنسا وألمانيا في القدس ـ الذين يحتاج أيضاً إلى مساعدة بلادهم المالية، مثلما يحتاج إلى دعم رجاله المسلّحين. وبمصاحبة عشرات من الرجال المسلّحين، طاف بسيّارته في مخيّم «جباليا» للّاجئين ـ حيث بدأت أوّل انتفاضة ضدّ الحكم الإسرائيلي ـ وخاطب آلافاً من اللاجئين في بناء مدرسة متداعٍ. وجاءه هُتاف المُتعبين: «بالروح، بالدم، نفديك». فأجابهم عرفات: لا، فيِ المستقبل، «ستضحّون بأرواحكم من أجل فلسطين». ولمّا شعر عرفات أخيراً بعدم الرضا العميق والمنتشر بشأن اتفاقيات «أوسلو»، تكلّم عندئذ بأسف وندم قائلاً: «ليست الاتفاقية مُرضيّة لنا. ولكنها أفضل ما استطعنا الحصول عليه أثناء أسوأ ورطة يتخبّط فيها العرب في الوقت الحاضر». وفي غضون ذلك كلّه كان رجال عرفات يُشرفون على الحشود برشّاشات الكلاشينكوف.

وخلال وقت قصير، انتشر رجال عرفات في غزّة. وكان بعضهم من غزّة؛ لكنّ كثيراً منهم كانوا من الفلسطينيين الذين لم يشتركوا في المقاومة، بل كانوا قابعين في بغداد أو القاهرة، أو منغمسين في حروب لبنان الضروس. وقد جاءوا الآن إلى هنا ليحكموا غزّة، محتفظين بخصائص البلدان العربية التي كانوا منفيين فيها. فالجنود والشرطيون الفلسطينيون الذين وفدوا من مصر تبنّوا ذلك المزيج من البيروقراطية العثمانية والغطرسة الاستعمارية البريطانية التي زالت منذ مئة سنة. والفلسطينيون الذين جاءوا من العراق بعد أن قضوا فيه مدّة طويلة، تعوّدوا الصراخ وإعطاء الأوامر؛ وأرادوا «أن يستعملوا العصا»، كما وصفهم أحد الغزّاويين. أما الذين قدموا من لبنان، فكانوا أكثر مطاوعة، ومستعدّين لإغماض العين عن المخالفات، مع تقبّل الرشوة مرّة أو اثنتين.

وفي شارع عمر المختار، كانوا جالسين خارج مخفر الشرطة يعالجون مجموعة من الآلات الطابعة القديمة، ويحاولون تنظيم تسجيل السيّارات. وكان الفلسطينيون إذ ذاك يسلِّمون أوراقهم العسكرية الإسرائيلية، لقاء تسلّمهم وثيقة

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

طُبع في أعلاها: «السلطة الفلسطينية». لكن رموز الدولة وحدها لا تجعل الدولة حقيقة واقعة. وكل من يتجوّل في شوارع مخيّمي «الشاطئ» و«جباليا» في غزّة، يدرك أن معظم رعايا عرفات في غزّة ـ بنسبة تصل إلى ٩٠٪ ـ هم غير غزّاويين.

لقد كانوا من اللاجئين ـ أو أولاد اللاجئين ـ القاطنين في ذلك الجزء من جنوبيّ فلسطين الذي أصبح الآن جنوبيّ إسرائيل، والذين سلخوا من عمرهم نصف قرن تقريباً وهم يعيشون في حُفر غزّة وفقرها، بانتظار أن يفي عرفات بوعده، ويعيدهم إلى «أشكيلون» أو «بئر السبع». وكما أن لاجئي الجليل استُنزفوا في مخيّمات لبنان، وسوريا، والأردنّ، فقد انتهى الأمر بفلسطينيي الجنوب أن يعيشوا في أراضي غزّة القاحلة، ـ المختلفة عن أراضي الشمال ـ والتي جاء عرفات اليوم ليحكمها. ولكن عليهم الآن كذلك، أن يجابهوا الواقع المرّ الذي لا يسمح لهم بالعودة إلى «ديارهم». وفي الواقع، عليهم أن يعيشوا الآن في غزّة بوجود ثُلثي قوّة الاحتلال الإسرائيلية الأصلية، المولجة بحماية المستوطنات اليهودية، وضبط حدود الدولة الفلسطينية التي أغدقت عليها الإعلانات في الجرائد كل ذلك التقريظ المُرائي.

وفي مخيّم «الشاطئ»، وبعد يوم من وصول عرفات إلى غزّة، صادفتُ إبراهيم. وهو سائق سيّارة من «الرملة» التي تقع اليوم داخل إسرائيل، كان يقف أمام منزله الفقير، يحاول أن يلقي نظرة على عرفات. قال لي: «منذ عشر سنوات، ذهبت بسيّارتي ومعي أمّي إلى الرملة، حيث طرقت باب بيتي، فوجدت فيه عائلة إسرائيلية. دعانا الرجل إلى الدخول مرحِّباً: «أهلاً بكم في بيتي». فبكت أمّي بيتها الذي أُخرجت منه. إنما كان الإسرائيليون لطفاء، وفهموا أنه كان دارنا وملكنا. بعد ذلك بعام توفّيت والدتي. وأنا أدري أننا لن نستعيد بيتنا في مستقبل الأيام. وعلى كل حال، دمّروه الآن لإقامة بناء جديد؛ وربّما أحصل على تعويض؛ وتصريح من الإسرائيليين يفيد بأنهم أخذوا منا بيتنا عام ١٩٤٨».

وفي مواقع أخرى، من مخيّم «الشاطئ» تحدّث رجال آخرون قدموا أصلاً

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

من بئر السبع، ويافا، واللّد، عن اعتقادهم فعلاً أنهم سيعودون يوماً إلى هذه البلدات والقرى ـ التي صارت اليوم داخل إسرائيل ـ «بمشيئة الله». ولكن لم يكن ذلك ما يدبّره الإسرائيليون لهم. لقد كان الإسرائيليون يريدون أن يروا أمام دولتهم «منطقة مستقلّة» منضبطة ـ وقد اختاروا ياسر عرفات للقيام بهذا العمل. وبعد عدّة ساعات، وبينما كنت أشقّ طريقي ببطء عبر كُثبان الرمل، عائداً إلى فندقي الذي لا يكاد يعمل، تصدّى لي رجلان بثياب عاديّة وسيّارة عاديّة، بصفتهما من رجال الأمن في منظمة التحرير الفلسطينية، وسألاني بارتياب وفظاظة: «ماذا تفعل هنا؟ ومن أين أتيت؟ أعطنا أوراقك». ففكّرت آنذاك بأن «فلسطين» ستكون في نهاية الشوط دولة أخرى بحسب النموذج العربي.

ووعد عرفات مستشاريه الاقتصاديين بإصدار طوابع بريدية خلال ثلاثة أسابيع، وجوازات سفر خلال ثلاثة أشهر. وقد أخبرني أحد أولئك المستشارين بمزيج من التوق والكآبة أنه «لن تكون هناك مشكلات بهذا الصدد مع الإسرائيليين»، بينما كان يذرع حديقة الفندق بخطى واسعة، ويضيف قوله: «وليس للمتظاهرين أهمّية». لقد أصبح الإسرائيليون الآن «أعداء ـ أصدقاء». وكانت تلك وجهة نظر غير اعتيادية. وبدأ الموظفون الفلسطينيون في منظمة التحرير الفسلسطينية يتكلّمون عن «اليهود الطيّبين»، الذين يمكن التفاوض معهم، والإسرائيليين الشرفاء الذين يمكن الوثوق بهم. ولكن، حالما خرجت من غزّة، وسرتُ في طريقي عبر إسرائيل والضفّة الغربية، إلى ضاحية عرفات الأخرى في «أريحا»، تأكّدت لي المعاملة ذات المستوى المزدوج. فعند تقاطع «أريتز» بين غزّة وإسرائيل، رأيت سيّدتيْن فلسطينيّتيْن مسنّتيْن، أُجبرتا على الجلوس على أرض الطريق تحت أشّعة الشمس، بانتظار التدقيق في أوراقهما، وأيديهما مرفوعة فوق رأسيهما، وهما ترجوان الضابط الإسرائيلي أن يسمح لهما بالمرور. كما ألزم شرطي إسرائيلي أحد الفلسطينيين بأن يقف قرب سيّارته لأن أوراقه الشخصية مرّت فترة صلاحها، وهو يصيح من سوء معاملته.

وقد حافظت «الجيروزاليم بوست» ذلك الصباح كذلك على المستوى المزدوج ذاته في المعاملة. فقد أعلنت في الصفحة الأولى عن جرح يهودي

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إسرائيلي على يد «إرهابيين» عرب؛ بينما نشرت على الصفحة الأخيرة مقالاً أصغر عن «متطرّفين يهود» يمكن أن يكونوا مسؤولين عن مقتل فلسطيني عربي. وقد راقب سائق سيّارة الأجرة التي كنتُ فيها بخوف جماعة من الإسرائيليين الملتحين والمرتدين قلنسواتهم، وهم يرفعون لافتة عند تقاطع طريق «أشكلون ـ تلّ أبيب»، تدعو إلى اغتيال عرفات. ومع ذلك، وخلال أربعة أيام من ظهوره في غزّة، عاد عرفات إلى ممارسة الحيلة ذاتها من جديد، في أريحا هذه المرّة.

كانت تلك أمور مثل الأحلام ـ ياسر عرفات يصل بالطائرة إلى الضفّة الغربية، ترافقه مروحية عسكرية إسرائيلية؛ ياسر عرفات يقبض على المذياع بيده اليمنى مثل أحد المغنِّين، يناشد الجميع أن يستمعوا إليه، بينما يتدافع مؤيّدوه حول المنصّة في «أريحا المحرّرة»؛ ياسر عرفات يعِدُ «بثورة صناعية» في أقدم بلد في العالم؛ ياسر عرفات يَعِدُ جازماً «بحكومة» يكون فيها «وزير الشؤون اليهودية» اليهودي العضو الأوحد الذي لا يعترف بدولة إسرائيل. هل بقي هناك شيء يمكن أن يفاجئنا، ما دام الرجل «الختيار» قد وصل إلى عاصمته المؤذنة بالسقوط؟ لقد أصبحت قسمات وجهه مألوفة، حتى أننا لاحظنا في آخر يوم من رجوعه الأول إلى فلسطين أن لحيته السوداء والبيضاء تتوافق الآن مع كوفيّته السوداء والبيضاء التي يعتمرها. وقد أعطته عادة رفع حاجبيه للتعويض عن صغر عينيه، مظهر الفُقمة البحرية المتفاجئة، وهي خاصّية التقطها بدقّة غريبة وقاسية فنّانو الجدران الهواة في أريحا.

أما بالنسبة إلى صوته الخشن، فقد زادت خشونته بينما كان يناشد الحشود، حتى اختفى تماماً. وقد أظهره شعره المُنسدل على جانبيْ وجهه مظهراً مُفرطاً في التأثّر؛ إذ كان يصرخ: «استمعوا إليّ، استمعوا إليّ. لقد عدت إلى فلسطين... لا تمسّوا أولئك الناس» ـ كان ذلك توجيهاً للشرطة التي تردّ الحشود. ثم أردف قائلاً: «اهدأوا... اسمعوني، استمعوا إليّ كما طلب منكم ذلك الدكتور صائب... استمعوا إليّ... في عام ١٩٤٨، قال الإسرائيليون إنهم وجدوا أرضاً دون شعب، وكانوا شعباً دون أرض... استمعوا إليّ....

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

واليوم نذكِّرهم أنه لا يستطيع أحد أن يمحو الشعب الفلسطيني. . . أريد أن أقول لكم إننا مع السلام العادل، وملتزمون به. . . أريد أن أعرف مَن يمنع الناس من أن يأتوا إلى هنا، إلى أريحا اليوم. . . الوحدة، الوحدة، الوحدة. . . سنصلِّي في القدس ـ إلى أن نصلِّي في القدس، إلى أن نصلِّي في القدس».

كان من المؤلم نقل خطابه ـ وسماع ذلك الصوت المتداعي، والإحساس بأفكاره وجُمله وهي تتصادم ـ بينما تتقدّم امرأة ضخمة وتشقّ طريقها عبر رجال الأمن المسلّحين، وهي تصرخ قائلة إنها تريد أن تعانق «رئيس فلسطين». وقف عرفات مذهولاً، لكنه لان فجأة، ورُفعت السيّدة إلى المنصّة، واندفعت نحوه بسرعة، فتراجع مذعوراً، لكنه عاد بابتسامة جامدة، وطوّقها بذراعيه.

لقد عثر عرفات على مشكلة حقيقية عندما سأل: «أريد أن أعرف من يمنعكم مِن القدوم إلى أريحا؟». فبعدما خرق الجمهور حواجز الأمن، واصطدم بالصحافيين والمصوّرين، صار من الواضح أن الحقل الواقع إلى الوراء فارغ ـ ولا سيّما إذا نظرنا إليه من حيث يقف عرفات على المنصّة فوقنا ـ فلم يأتِ لرؤية عرفات نصف سكّان أريحا أو حتى رُبعهم. وسرَت إشاعات بأن الجيش الإسرائيلي قد صدّ قادمين بالشاحنات من الضفّة الغربية ـ وقد أقرّ جندي إسرائيلي في أقرب نقطة مراقبة بأنه أوقفهم، ثم قال العكس. ولا شكّ في أن المستوطنين رشقوا السيّارات بالحجارة على طريق القدس ـ أريحا. ولكن، هناك مليون فلسطيني يعيشون في الضفّة الغربية، دون منع تجوّل يبقيهم في منازلهم. وأولئك الذين تجمّعوا لتحيّة عرفات كانوا أقلّ من الذين تجمّعوا لوداعه في بيروت بعد حصار عام ١٩٨٢.

لقد استنتج معظم الفلسطينيين سبب عودة عرفات. فقد تبع مجزرة الخليل تفجير دامٍ لباص إسرائيلي في بلدة «العفّولة» ـ وقالت محطة السي إن إن حالاً إنه هجومٌ «إرهابي» ـ وطُلب من الرئيس الفلسطيني بوضوح وقف «الإرهاب». وعلى مرّ الأشهر والسنوات، صارت هذه الحجّة مطلباً دائماً على روزنامة إسرائيل والأميركيين ـ والصحافيين السائرين في ركابهم ـ وصار السؤال نفسه صيغة مبتذلة: هل يستطيع عرفات أن يضبط شعبه؟ أمّا أن يمثّل شعبه بدلاً من

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أن يضبطه، فمسألة لم يتطرّق إليها الصحافيون أو السياسون الغربيون. كما لم يسأل أحد: هل يستطيع شارون أن «يضبط» جيشه الفوضوي، عندما يطلق النار على أطفال الحجارة الفلسطينيين أكثر فأكثر بالرصاص الحيّ.

وتهيّأت «السلطة الفلسطينية» للقيام بالمثل. فحتى تشرين الثاني/ نوفمبر، كان عرفات مشتركاً في مسرحية موازية. فبينما كان شرطيّوه يطلقون النار على الفلسطينيين خلال المظاهرات العنيفة التي نظمتها «حماس» و«الجهاد الإسلامي» في غزّة، كان الإسرائيليون يطلقون النار على الفلسطينيين في غزّة والضفّة الغربية. وخلال أيام تقهقر عرفات إلى مطلب ينادي به كل الحكّام المستبدّين عندما تهاجمهم شعوبهم: إذ اعتبر أن خصومه مشتركون في «مؤامرة أجنبية». وكان ذلك جزءاً أساسياً من قصّة عرفات ـ قوله أيّ شيء لتحاشي مجابهة الواقع المتمثّل بأن الفلسطينيين الذين كرهوا حُكم عرفات كانوا أبناء البلد، ولم يعترضوا على مبدأ السلام بل على ما رأوه من ظلم مستغرب بادٍ في «إعلان المبادئ»، الذي سارع عرفات إلى توقيعه قبل عام. فاتّهام «الأجانب» هو دائماً ورقة في يد أولئك الذين لا يجابهون هويّة خصومهم. وقد استعمل الأميركيون مثل هذا العذر الأعرج في الأعوام ٢٠٠٣ و٢٠٠٤ و٢٠٠٥، عندما واجهوا تمرّداً عراقياً شاملاً. والفخّ الذي وصل إليه عرفات بثقة رسالة الخلاص، لا بدّ أن يكون قد اتّضح له. فإذا كان قد رفض مجابهة الحركات الإسلامية المعارضة لاتفاق «أوسلو»، فهذا يثبت أنه لا يمكن الوثوق به لتسلّم مزيد من الأرض ـ حسبما يخوّله الاتفاق. ومن جهة أخرى، إذا حارب الإسلاميين في حرب أهلية، فلا بدّ أيضاً من حصول فوضى تثبت أنه رئيس لتلك الفوضى ـ ممّا يشكّل كذلك حجّة جيّدة لعدم إعطائه مزيداً من الأرض. وكلّما زاد انتظار الفلسطينيين لحصول الانسحابات ضعف مركز عرفات.

وفي السنوات القادمة انزلق النزاع بين الإسرائيليين والفلسطينيين إلى تفجيرات انتحارية، وغارات جوّية إسرائيلية، وإعدامات غير قانونية، وتدمير بيوت، وتجريد الفلسطينيين من ملكية الأراضي على نطاق واسع ـ كما ألقت إسرائيل والأميركيون اللوم على الفلسطينيين لفشلهم في «ضبط» العنف، وقبول

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

صفقة كان يمكن أن تُعطي الفلسطينيين ٦٤ في المئة من ٢٢ في المئة من فلسطين الانتداب، الجزء الذي تُرك قيد المفاوضة. وهكذا، قبل أن نبدأ برواية قصّة هذه المأساة والخسارة المعيبتين، من الجوهري أن نثبت أن إسرائيل نكثت عهد كل اتفاق أو تفاهم جرى توقيعه في السنوات اللاحقة.

بحسب اتفاق «أوسلو»، تُقسم الضفّة الغربية المحتلّة إلى ثلاث مناطق. تخضع الأولى منها (أ) للسيطرة الفلسطينية حصراً، والثانية (ب) للاحتلال العسكري الإسرائيلي بالمشاركة مع السلطة الفلسطينية، والثالثة (ج) تحت كامل الاحتلال الإسرائيلي. وفي الضفّة الغربية، تتألّف المنطقة الأولى (أ) من ١,١ في المئة من الأرض ـ أما في غزّة المزدحمة بالسكّان وذات التمرّد والعصيان المسلّح ـ فتقع كل المنطقة تقريباً تحت سيطرة عرفات. والمفترض في نهاية الأمر أن يصبح شرطي غزّة. أما المنطقة الثالثة (ج) في الضفّة الغربية فتتألّف من ٦٠ في المئة من الأرض، ممّا يسمح لإسرائيل باستمرار إقامة المستوطنات اليهودية «لليهود» على الأرض العربية. وكان إدوارد سعيد أول من أشار إلى أن عرفات تنازل عن القدس، ووافق على أن تُناقش قضيّتها في محادثات «الوضع النهائي» فحسب. وبذلك صارت القدس خارج نطاق المناطق المذكورة، وبقيت بأيدي الإسرائيليين كلّياً.

والحقيقة هي أن اتفاق «أوسلو» ـ نأى عن إمكان إقامة دولة للفلسطينيين، وسمح لإسرائيل أن تفاوض من جديد بشأن قرار مجلس الأمن في الأمم المتحدة ذي الرقم ٢٤٢. فبينما طلب القرار ٢٤٢ انسحاب القوّات الإسرائيلية من الأراضي المحتلّة في حرب عام ١٩٦٧، سمح اتفاق «أوسلو» للإسرائيليين بأن يقرّروا ما هي الأجزاء التي سينسحبون منها من أصل القسم الباقي من فلسطين والبالغ حجمه ٢٢ في المئة. وقد مثّل التقسيم إلى مناطق هذا النظام الإسرائيلي الجديد. وممّا لا يصدّق أن الخرائط كانت بيد الإسرائيليين، ولم تكن لدى الفلسطينيين الخرائط اللازمة ـ عندما جرت مفاوضات أوسلو ـ وقد قرّر الإسرائيليون أي مناطق ستعطى للفلسطينيين فوراً، وأي مناطق ستبقى قيد المساومة فيما بعد.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وفي الواقع، يُثبت الاستقصاء المفصّل لعام ٢٠٠٠ بشأن الانسحابات الإسرائيلية بموجب بنود الاتفاق، أن الإسرائيليين لم ينفّذوا أيّاً من هذه الاتفاقات، منذ مؤتمر مدريد المعقود عام ١٩٩١(*). وفي هذه الأثناء، زاد عدد المستوطنين اليهود المقيمين بطريقة غير شرعية على الأرض الفلسطينية خلال سبع سنوات منذ عقد اتفاق «أوسلو»، وزاد من ٨٠٠٠٠ إلى ١٥٠ ٠٠٠ مستوطن ـ مع أنه بموجب بنود هذا الاتفاق مُنع الإسرائيليون والفلسطينيون على السواء من اتخاذ «خطوات منفردة».

وقد اعتبر الفلسطينيون بحقّ أن هذا دليل على سوء نيّة، ولا عجب في هذه الحال عام ١٩٩٩، أن ينبري إدوارد سعيد، الذي أظهر لسنوات تعاطفاً مع الدور الشجاع الذي مثّله عرفات كممثّل وحيد لشعب مَنسيّ ومسلوب؛ فيصف إذ ذاك القائد الفلسطيني ليس «كمظهر مأساوي» فحسب، بل بأنه «پيتان» (Pétain) الفلسطينيين.

وكنتُ أسافر من بيروت كل بضعة أشهر عن طريق قبرص أو الأردنّ إلى

(*) إن اتفاق «أوسلو» الثاني (اتفاق طابا) الذي عقده رابين في أيلول/ سبتمبر عام ١٩٩٥ ـ قبل اغتياله بشهرين ـ وعد بإجراء ثلاثة انسحابات إسرائيلية من المناطق الثلاث (أ) و(ب) و(ج)؛ على أن تُستكمل قبل نهاية تشرين الثاني/أكتوبر ١٩٩٧؛ وعلى أن تُستكمل اتفاقات «الوضع النهائي» التي تشمل القدس، واللاجئين، والمياه، والمستوطنات قبل نهاية تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٩٩، إذ سينتهي آنذاك الاحتلال كلّه. ولكن، في كانون الثاني عام ١٩٩٧، أعطيت مجموعة صغيرة من المستوطنين ٢٠ في المئة من الخليل، بالرغم من أن اتفاق «أوسلو» يُلزم إسرائيل بمغادرة جميع بلدات الضفّة الغربية. وقبل نهاية شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٩٨، وبعد مرور سنة على موعد التنفيذ، لم تكن إسرائيل قد نفّذت اتفاقيات «طابا». فقد فاوض رئيس وزراء إسرائيل الجديد «بنيامين ناتانياهو» حول اتفاق جديد عند «نهر واي»، يقسم الانتشار الثاني الذي وعدت به إسرائيل في «طابا» إلى مرحلتين ـ لكنه لم ينفّذ منهما سوى المرحلة الأولى. وكان «ناتانياهو» قد وعد بتقليص النسبة المئوية للأرض المحتلّة كلّياً في الضفّة الغربية من ٧٢ في المئة إلى ٥٩ في المئة، ناقلاً ٤١ في المئة من الضفّة الغربية إلى المنطقتين (أ) و(ب). ولكن حدث في «شرم الشيخ» عام ١٩٩٩، أن «إيهود باراك» رئيس وزراء إسرائيل الجديد نكث العهد الذي قطعه «ناتانياهو» عند نهر «واي»، وجزّأ المرحلتين إلى ثلاث مراحل، تنقل أُولاها ٧ في المئة من المنطقة (ج) إلى المنطقة (ب). وقد توقّفت كل أعمال تنفيذ الاتفاقات عند ذلك الحدّ.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إقطاعة عرفات الصغيرة عبر إسرائيل ـ التي ما زالت في حالة حرب رسمية أو فعلية أحياناً ولا توجد إليها خطوط جوّية مباشرة من لبنان ـ وكانت كل من هذه الرحلات تكشف عن قصّتين متناقضتين تماماً: التفاؤل المذهل للمراسلين الأميركيين والغربيين بشأن كون السلام الإسرائيلي ـ الفلسطيني شيئاً مؤكّداً (بالرغم من معاودة وضع «عملية السلام» على الخط باستمرار)، وتضاؤل كل آمال الفلسطينيين بإقامة دولتهم في يوم من الأيام، ناهيك بكون عاصمتها في القدس الشرقية. وقد كانت الرحلة إلى غزّة بتاريخ ٨ آب/أغسطس عام ١٩٩٥ مجرّد رواية مثل رواية «أليس» أمام المرآة.

صاح رجل يلبس قميصاً أبيض: «اسحبوا سيّاراتكم لئلّا نحرقها. أستحلفكم بدم شهدائنا. أن أبا عمار قادم». كان يُطلب من الفلسطينيين أيام زمان أن يقوموا بأعمال مثيرة من أجل دم شهدائهم. ولكن لم يحصل أن استُدعي دم الشهداء ليحلّ مشكلة وقوف سيّارات. كان ذلك بمناسبة عيد ميلاد عرفات السادس والستّين؛ وقد حُضِّرت له بهذه المناسبة على ميدان السباق قرب الشاطىء، حفلة كاملة بوجود الجياد المطهّمة العربية التي يركبها أعضاء «الجمعية الفلسطينية للفروسية» التي يكون عرفات أمينها الفخري. وعندما جاء تتقدّمه سيّارات الشرطة الزرقاء، وسيّارات الجيب الملأى بالمسلّحين والجنود ورجال الأمن، يجدر القول إن الرئيس بدا في عمره الحقيقي. لقد كان تعباً، مرهقاً، وعيناه منفوختان بسبب قلّة النوم ـ إذ إن الاجتماعات الغاضبة للسلطة الفلسطينية كانت تستمرّ حتى الفجر ـ كما ظهر ضبّاطه الكبار في الرتبة والسنّ ببزّاتهم الباهتة، وشعار النسر والسيفين المتقاطعين على كتفيّاتهم الباهتة أيضاً، وكأنهم رجال من الماضي، يكثرون التدخين، ويمسِّدون شواربهم باستمرار. وفي هذه الحفلة كانت الجياد هي المخلوقات الوحيدة ذات اللياقة في تبخترها وهي تمرّ متقافزة أمام القائد الفلسطيني، بينما هو جالس على أريكة زرقاء وحمراء تحت ظُلّة يحدِّق في الفضاء فوق البحر الأبيض المتوسط. لقد كان يحاول أن يظهر سعيداً.

عانق الأولاد، وقبّل فتاة أربع مرّات على خدّها، وولداً صغيراً يلبس زيّاً

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عسكرياً خمس مرّات على خدِّه ومرّة على يده. وكان قد افتتح حديقة الأطفال العامّة التي سمّاها «زهوة» على اسم ابنته المولودة منذ ١١ يوماً ـ «حديقة ملاهي فلسطين زهوة» ـ كما سمّيت بخجل؛ فضلاً عن افتتاح حديقة حيوانات للأولاد، فيها أسد رثّ الحال، من أجل الترويح عن أولاد فلسطين. وعندما مرّ الأولاد الكشّافون صفوفاً أمامه، انتصب وحيّاهم. كما حيّا مُرشدات البنات، وأعضاء جمعية «كونغ فو»، الذين يلبسون أردية سروالية سوداء مع عصابات بيضاء حول رؤوسهم، وطفلاً بهلواناً. وعندما أقنع الخيّال مطيَّته بأن تنحني أمام رئيس فلسطين، انتصب عرفات على قدميه وحيّا الحصان.

وقد ضحك وابتسم ابتسامات عريضة، عند رقص «الدبكة» مع الموسيقى، وعندما قام بعض الممثّلين بمناقشة صعوبات «عملية السلام». وقالوا كجوقة واثقة من نفسها: «حصلنا على غزّة وأريحا بمسعاكم». ثم «سترجع القدس إلينا بجهود أبو عمار»، بنغمة أقلّ ثقة. وتساءل أحدهم: «هل نبيع هذه الأرض؟». فأجاب رفيقه: «لن أنسى القدس، أو حيفا، أو بيسان». وزمجر الحشد لأن نصف القدس، وحيفا، وبيسان كلها واقعة اليوم ضمن إسرائيل، وليست في غزّة أو في الضفّة الغربية. وأخيراً قبل بدء السباق، عانق الممثّلون أصدقاءهم القدامى الذين اختلفوا معهم حول السلام، وتعاهدوا على أن لا يحارب بعضهم البعض، الآخر أبداً. صفّق عرفات وضحك. وليت الحياة هنا كانت بهذه السهولة، وليس من حاجة إلى المحاكمات الأمنية عند منتصف الليل، وأحكام بالسجن ٢٥ سنة، والتوقيف بعد حلول الظلام، هذه الأمور التي أصبحت جزءاً لا يتجزّأ من الحياة في غزّة لأولئك الذين يختلفون مع عرفات. ثم افتتح رئيس فلسطين السباق، بينما كان رجاله يوزّعون سلالاً من الحلويّات الخفيفة على الشيوخ ورؤساء العائلات الذين جلسوا تحت الظلّة. أكل الناس وتسابقت الأحصنة. أجل لقد أعطى «الختيار» شعبه خبزاً ولهواً بمناسبة عيد ميلاده.

لقد كان عرفات يمارس دكتاتورية صغيرة هنا في غزّة، بموافقة كاملة من إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية. فتحت عذر قمع «الإرهاب»، بالنيابة عن إسرائيل، صار لديه الآن أكثر من عشرة أجهزة استخبارية فلسطينية متنافسة تحت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

قيادته، لا يزايد عليه فيها سوى القادة العرب في بغداد ودمشق. وقد صدرت قوانين للصحافة تكمِّم الصحافيين الفلسطينيين، الذين يُستضاف كثير منهم في القيادة الأمنية في مدينة غزّة، لعقد اجتماعات بعد حلول الظلام مع ضبّاط مخابرات بلباس عادي ينسّقون مع أجهزة الأمن الإسرائيلية.

كان هذا الغطاء الأمني الصلب موجّهاً ظاهرياً نحو حركتيْ «حماس» و«الجهاد الإسلامي» اللّتيْن نفّذتا تفجيرات انتحارية ضدّ الإسرائيليين؛ ولكنه أرخى سدوله أيضاً على كل وجه من وجوه الحياة في غزّة. وهذا يعني أن عرفات تحوّل إلى مستبدٍّ عربي آخر. فقد كانت محاكم منتصف الليل تحكم على أعضاء مزعومين في «حماس» بالسجن مدداً تصل إلى ٢٥ سنة؛ بينما توفّي ثلاثة من الفلسطينيين في السجن. وفي نيسان/أبريل عام ١٩٩٥، قُتل أسير أُطلق سراحه برصاص شرطة عرفات، الأمر الذي اعتبره الفلسطينيون إعداماً غير قانوني؛ ويقال إن جسده أصيب بسبعين رصاصة.

وقد تأسّست الآن حول عرفات وحدات «أمن عسكري»، و«أمن سياسي»، و«أمن وطني»، و«أمن وقائي»، مع استخبارات فلسطينية، وحرس إمبراطوري مؤلّف من ثلاث منظمات أخرى شبه عسكرية: أمن الرئاسة، وحرس الرئاسة، والقوّة ١٧، ووحدة الأمن الخاصّة المسؤولة عن حماية عرفات الشخصية. وبحسب تقاليد عرفات المرعيّة الإجراء، تم تشجيع رؤساء هذه الوحدات على أن يرتابوا بعضهم ببعض، وأن يكرهوا بعضهم بعضاً. فالمقدّم محمّد المصري، الضابط السابق في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مثلاً، يتعاون مع رئيسه الرسمي اللواء يوسف ناصر رئيس قوّة الشرطة الفلسطينية، و«الأمن الوقائي» كان بقيادة المقدّم محمد دحلان الضابط الذي عقد صلات حميمة مع الاستخبارات الإسرائيلية، مع أن رجاله يتألّفون في معظمهم من «صقور فتح» ـ الذين مثّلوا دوراً قيادياً في التمرّد المسلّح الأوّل الذي قام ضدّ الإسرائيليين ـ ومن الذين أمضوا في الأسر الإسرائيلي مُدداً طويلة. وكان على جميع رؤساء الوحدات الأمنية أن يستمعوا كل ليلة إلى حديث عرفات عن واجباتهم والأخطار التي تحيق بدويلتيْه، في الاجتماع الذي يسمّونه الآن: «المحاضرة».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وبدلاً من أن يُدين الإسرائيليون المظاهر المتزايدة للاستبداد على الضفّة الثانية من حدودهم، عمدوا إلى تقريظ التدابير الأمنية «العرفاتية» الجديدة. وتحوّل الناطق باسم وزارة الخارجية الأميركية، بعد أن أشار إلى «اهتمامه» بالحقوق الإنسانية، إلى تهنئة عرفات بمحاكمه السرّية التي تُعقد بعد منتصف الليل - والتي شجبتها «منظّمة العفو الدولية». أما الاجتماعات السرّية الداخلية لوزارة عرفات التي أفضت إلى توقيف خصومه السياسيين بالجملة، فقد تجاهلتها الإدارة الأميركية.

ولم تُكتشف اجتماعات وزارة عرفات السرّية إلّا عندما وقّع القائد الفلسطيني سلسلة من التدابير القاسية ضدّ الصحافة بتاريخ ٢٥ حزيران/ يونيو ١٩٩٥. ومن أصل خمسين مادّة، تنصّ المادّة ٣٧ على أنه «يُمنع منعاً باتاً على الصحافيين أن ينشروا وقائع الجلسات السرّية للمجلس الوطني الفلسطيني ولمجلس الوزراء في السلطة الفلسطينية». ومن أجل فهم هذه القوانين الجديدة بخصوص الصحافة، كان من الضروري زيارة مروان كنفاني المستشار الخاصّ للرئيس - رئيس فلسطين طبعاً - وهو أخ المناضل (المقتول) غسّان كنفاني.

لقد أعلمني أن صحيفة «الوطن» أُغلقت، بسبب مقالها عن الرئيس. «لكن رئيس تحريرها أوقف لسبب آخر» - «نعم، إنه موقوف الآن، وتتم مساءلته. كما أغلقنا «الاستقلال» فقد تورّطوا في سوء نقل المعلومات». ونظر كنفاني إلى شاشة حاسوبه، كما لو كانت تحتوي القانون ذاته الذي طُبّق على عماد الفالوجي رئيس تحرير جريدة «حماس»؛ فأُخذ من منزله صباح السبت على يد رجال الشرطة الفلسطينية بلباسهم العادي. وكانت خطيئة الفالوجي، كما يبدو، أنه نقل خبراً صغيراً على الصفحة الأخيرة عن تقرير نشر في جريدة «الإندبندنت» مُفاده أن عرفات باع شركة فرنسية حقّ استعمال اسم ابنته «زهوة» المولودة حديثاً على منتوجاتها. وفي الواقع، لم تنشر جريدتي أي تقرير عن الموضوع، ولكنّ مصدر الخبر لم يكن ذا أهمّية بالنسبة إلى منظمة التحرير الفلسطينية.

قال كنفاني بازدراء: «نشرت حماس هذا الخبر لتضعف مصداقية الرئيس

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

عرفات. لن يصدّق ذلك أحد. إن الرئيس عرفات رجل كريم ـ ولن يقوم أبداً بمثل هذا السلوك الغبيّ. إن المقصود من هذا الأمر هو النيل من سُمعة الرئيس. أجل، لقد تكلّمت مع الرئيس بهذا الخصوص. وكان ردّ فعله أقرب إلى الحزن منه إلى الغضب. آمل أن يكون التوقيف مؤقّتاً. وآمل أن يفهم كتّاب تلك الجريدة أن مثل هذا النوع من «الأخبار» ليس له علاقة بما يُسمّى «حقّ الناس في أن يعرفوا». إني مطّلع على ثلاث وكالات أخبار رفضت نقل القصّة. إن الكتَّاب في صُحف مثل هذه يُضرّون بالأساس الذي تقوم عليه حرّية الصحافة». ثم قال: «ليس لدينا أيّ ممنوعات هنا؛ نعم هناك محاكم أمن الدولة، هل تعلم مَن يُربكون، ومَن المشتكي غالباً؟ الفلسطينيون. أنا لا أحبّهم. لقد مرّروا كثيراً من العبارات، وبعضها قاسٍ. نعم، هناك قواعد تمنع الجمهور من الحضور. ولكن هذه هي أنظمة تلك المحاكم. وفي الظروف الحاضرة هنا قد تكون بعض قواعدنا غير ديمقراطية. ولكن ألم يكن لدى بريطانيا محاكم استثنائية عندما كانت في حالة حرب؟ نحن تقريباً في حالة حرب ضدّ أولئك الذين لا يريدوننا أن نطبّق السلام هنا. إن الحالة حرجة جدّاً. وعندما يعاقب مليون وربع مليون فلسطيني من أجل عمل قام به شخص (مناضل) أو اثنان، يتطلّب الوضع تدابير استثنائية. نحن نحاول أن نعاقب أولئك الذين يهدّدون الأمن، والملكيّة، وحياة الشعب وحقوقه».

وكان ذلك خطاباً بمعنى الكلمة، آتياً من قِبل المستشار الخاصّ لعرفات. ولكن، هناك المزيد أيضاً:

«كان «إعلان المبادئ» الموقّع في واشنطن قائماً على ثلاث كلمات: الأرض مقابل السلام. سنفعل كل ما يمكن فعله بشرياً لتلبية حاجات أمن إسرائيل. ولكن عليهم أن يفعلوا ما بوسعهم أيضاً لتلبية حاجتنا إلى الأرض. لقد علم الرئيس عرفات عندما وقّع هذا الاتفاق أن فيه ثغرات كبيرة. وقد مُدح الإسرائيليون لإقدامهم على عقد السلام. وتقاسم رابين مع عرفات جائزة نوبل. ولكن عندما نأتي الآن إلى حقيقة الواقع نجد أن الإسرائيليين يريدون السلام مع الأرض. وإذا أرادوا أن يُبقوا جنودهم في الضفّة الغربيّة لحماية المستوطنات

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

والاحتفاظ بأرضنا تحت مختلف الحجج والذرائع فلن يكون هناك سلام. لقد خاطر عرفات بالكثير من أجل ذلك. وأخذ على عاتقه كل القرارات الضرورية، نعم، حتى التوقيفات، والقرارات غير المحبّبة شعبياً، فضلاً عن رفع آمال شعبنا... لقد فعل ذلك لأنه يؤمن بالسلام. إن رؤساء الجمهوريات لا يخاطرون بمثل هذه الأمور، لكنّ قادة الشعوب يفعلون ذلك ـ وهو قائد. إنه يريد للعملية أن تنجح، ولكنه استنفد طاقته، وهو قَلِق. إنه غير راضٍ عن سير عملية السلام».

وهذا تماماً ما فكّر فيه الفالوجي. ولذا قمت بزيارة اللواء يوسف ناصر، قائد الشرطة الفلسطينية، وبطل الجولان، ومقاتل من منظمة التحرير في لبنان، ولاجئ من عام ١٩٤٨. وعندما دخلت باب مكتبه ـ بواسطة بطاقة ممغنطة إسرائيلية ـ قابلت ذلك الرجل الكبير بنظّارته، وابتساماته، وبزّته الرسمية الأنيقة على جسم بدين، ويده الندية الممدودة للمصافحة. إنه رجل متفائل. سألني: «كيف ترى أداءنا في السلطة الفلسطينية؟». فذكرت له التأخير في التطبيق الذي لا نهاية له بشأن الاتفاقات مع إسرائيل، واستمرار وجود الجنود الإسرائيليين في غزّة، والتفجيرات الانتحارية، والموت في السجن، ولجنة العفو الدولية...

قال اللواء مجيباً: «كل معاهدات السلام تُفرض بقوّة النفوذ، وهذه حال الاتفاقية الحاضرة... ولكن انظر بعد عام ١٩١٧، حين أعطى «النظام العالمي» اليهود وطناً وقسّم بلادنا. وفي عام ١٩٤٨، خلق «نظام عالمي» آخر دولة إسرائيل، وألغى الفلسطينيين من الخريطة الجغرافية والديمغرافية. ولكننا استطعنا الآن أن نعيد تمركزنا على الخريطة الدولية، ونعاود إرساء دعائم هويّتنا كفلسطينيين... لقد أصبحت الهويّة الفلسطينية اليوم دولية، بالقرارات ذاتها التي أوجدت إسرائيل».

فقلت له: «إن ذلك غير صحيح بدليل أن الأمم المتحدة اعترفت بإسرائيل؛ وليس هناك من قرارات للأمم المتحدة تضمن اتفاق منظمة التحرير الفلسطينية مع إسرائيل». قال: «أجل، أجل، ولكن لن يأخذ أحد على عاتقه تدمير عملية السلام. وللمستوطنين اليهود خياران: إما أن يغادروا الأرض الفلسطينية، أو أن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يصبحوا مواطنين فلسطينيين. فإسرائيل لا تقدر على حيازة السلام والأرض معاً. . . إن الأمور ليست سهلة؛ وهذا صحيح. ولكنْ هناك واقع: هناك ثلاثة ملايين فلسطيني يعيشون على أرض الضفّة الغربية وغزّة. ولإسرائيل خياران: تحقيق استقلال الفلسطينيين أو الاندماج بهم - ولكنها لا تستطيع الاستمرار في سياستها الإمبريالية. . .».

كان ذلك إيهاماً ذاتياً مقصوداً، تميَّز به عادة الإسرائيليون. إذ إن إسرائيل مدعومة من قِبل القوّة العظمى الوحيدة الباقية في العالم. لن يختار أحد من المستوطنين اليهود أن يصبح فلسطينياً، وقلائل منهم سيغادرون الضفّة الغربية. أما مسؤولية «تدمير عملية السلام» فستأتي من قِبل مناهضي إسرائيل من الفلسطينيين - مثلما سيحصل في السنوات القادمة - عندما تستنكر إسرائيل التفجيرات الانتحارية.

قال لي أحد مناهضي عرفات في برودة أُمسية من أُمسيات غزّة الصيفية في آب/ أغسطس: «إن عرفات يتعرّف الآن إلى المطلوب من كونه الرجل الذي تعتمد عليه إسرائيل. والإسرائيليون يعرفون أنه ديكتاتور، وأنه كلما حاز نفوذاً داخلياً أوسع، انصاع لأوامرهم. ولذلك يوافقون على هذا كلّه. إنهم لا يريدون ديمقراطية حقيقية لأن عرفات قد يخسر في الانتخابات، وقد لا يلبّي قائد جديد رغباتهم. ويحاولون الآن حمل عرفات على أن ينقلب ضدّ سوريا، عن طريق إقناع منظمة التحرير الفلسطينية بأن تطالب بمرتفعات الجولان كأرض فلسطينية. . . وفي هذه الأثناء تستمرّ إقامة المستوطنات اليهودية. . .».

حاولتُ دون جدوى أن أكتشف أصل الاستعمال الصحافي لكلمة «مستوطنات». فهذا التعبير بطبيعته مطمئن. وله معنى البقاء والشرعية (باللغة الإنكليزية) (Settlements). فكلّ بشريّ يطلب الاستقرار (لا الاستيطان باللغة العربية)، وأن يكون له بيت. ولكنّ الكلمة المقلقة - والأكثر دقّة - لمصادرة إسرائيل الأراضي في الضفّة الغربية وغزّة منذ عام ١٩٦٧ هي كلمة «الاستعمار» (Colonization). فالمستوطنون مستعمرون. وجميع الإسرائيليين تقريباً في الضفّة الغربية يعيشون على أرض غيرهم. وقد يقولون إن اللّه أعطاهم الأرض، ولكنّ أولئك الفلسطينيين الذين يملكون تلك الأرض قانونياً - ولديهم أوراق مُلكيّة

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تثبت ذلك، منذ أيام الانتداب البريطاني، ومنذ أيام الإمبراطورية العثمانية - أليس لديهم الحقّ في مناشدة اللّه. وقد دعمت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة سرقة هذه الأراضي، وصار عدد اليهود الإسرائيليين الذين يعيشون في الأراضي الفلسطينية المحتلّة يناهز ٠٠٠ ٤٠٠ نسمة عام ٢٠٠٣، بمخالفة واضحة للمادّة ٤٩ من معاهدة جنيف - التي تنصّ على أن «الدولة المحتلة لا يحقّ لها أن ترحِّل أو تنقل جزءاً من سكّانها المدنيين إلى الأراضي التي تحتلّها».

وخلال المفاوضات الطويلة مع الفلسطينيين، كان الإسرائيليون يعتبرون دائماً أن إعادة أيّ أرض هي «إعطاء» تلك الأرض من أجل السلام - وكأن الأراضي المحتلّة هي ملك إسرائيلي شرعي، تستطيع إسرائيل أن تتصرّف فيه، إذا كانت كريمة. لذا، من المهمّ أن نتذكر دائماً أن سياسة زرع المستوطنين اليهود في الأرض العربية المحتلّة منذ ١٩٦٧ جرى دعمها باستمرار وبحماس من قبل الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة.

ومنذ عام ١٩٧٨، كانت إدارة الرئيس الأميركي جيمي كارتر تدين تكاثر المستوطنات اليهودية في الضفّة الغربية وغزّة، وتسأل لماذا يعيش إذ ذاك ٩٠٠٠ إسرائيلي في الأراضي المحتلّة ضمن ١٣ مستعمرة «غير رسمية»، عندما أراد مناحيم بيغن رئيس وزراء إسرائيل أن يقيم كما هو مفترض، سلاماً مع الرئيس المصري أنور السادات. ثم تكاثرت المستوطنات فبلغت ٣٩ مستوطنة مبنيّة منذ حرب ١٩٦٧. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٧٨ قامت الوكالة اليهودية برسم خطّة - وهنا أستشهد بتقرير «الغارديان» المنحاز إذ ذاك - لإسكان (١٦٠٠٠) عائلة إسرائيلية في بعض القرى الجديدة التي يبلغ عددها ٨٤ في الضفّة الغربية الأردنية؛ فضلاً عن إسكان (١١٠٠٠) عائلة أخرى في القواعد الاستيطانية القائمة... مع العلم أن المشروع يكلِّف ملياراً ونصف مليار من الدولارات الأميركية، ويُستكمل خلال خمس سنوات - وهو الحدّ الزمني المعيَّن لما كان يُقصد أن يكون نهاية «الفترة الانتقالية» للحكم الذاتي الفلسطيني. ويجدر بالقرّاء هنا أن يفهموا أن لغة السلام وآماله في الشرق الأوسط هي تعابير مبتذلة. فهذه «الفترة الانتقالية» لا علاقة لها باتفاق «أوسلو»

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفيّة الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

القادم، بل تتعلّق بقمّة «كمب دايفيد» بين بيغن والسادات عام ١٩٧٧، والتي لم تعطِ أية «استقلالية ذاتية» للفلسطينيين.

وفي أيار/مايو عام ١٩٧٩، كان الرئيس كارتر يناشد الإسرائيليين «ضبط» توسّعهم في إقامة المستوطنات، لأنها «لا تتفق مع القانون الدولي، وتشكل عقبة أمام السلام». ولكنه عاد فقال: «هناك لازمة تتكرّر من قِبل الإدارات الأميركية المتعاقبة، تتجاهلها الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة، ولكن هناك حدود لما يمكن أن نفرضه على دولة ذات سيادة». وفي كانون الأول/ديسمبر من ذلك العام، قام الفلسطينيون بمظاهرة صامتة ضدّ قرار الحكومة الإسرائيلية نقل مستوطنة إلى الأرض العربية قرب نابلس. وفي هذه المظاهرة، فرش العرب سجّادات الصلاة على الطريق القريبة. وكان مراسل «التايمز» اللندنية في تلّ أبيب يشير إلى الضفّة الغربية باسمها اليهودي «السامرة».

وكان هناك في الواقع نوع من الخضوع الغريب في رواية ما تقوم به إسرائيل من سرقة للأراضي الفلسطينية. ففي ١٤ آذار/مارس عام ١٩٨٠ مثلاً، كتب «كريستوفر ووكر» من «التايمز» أن «الاحتكاك زاد بين إسرائيل ومصر حول إقامة المستوطنات في الأراضي المحتلّة، بسبب قرار إسرائيل بمصادرة حوالى ٠٠٠ ٤٠ متر مربّع من الأرض في القدس الشرقية من أجل بناء ضاحية يهودية جديدة. مع العلم أن العرب يملكون ثُلثي هذه الأرض». لقد كان ذلك فضيحة، وليس مجرّد احتكاك أو خلاف حول ضاحية، كما يروَّج له. وعندما أصدرت إسرائيل في العام ذاته «قانوناً أساسياً» يجعل القدس عاصمة لها، أعلن مجلس الأمن في الأمم المتحدة بقراره ذي الرقم ٤٧٦ أن أعمال إسرائيل الرامية إلى تغيير وضع القدس «يشكّل خرقاً فاضحاً لمعاهدة جنيف». ولم يكن لذلك تأثير. وفي شهر آذار/مارس من العام ذاته، أُجبرت آخر عائلة عربية تعيش في الحيّ اليهودي القديم، عائلة «أيوب حميس التوتونجي» ـ التي يشرف بيتها على حائط المبكى والجامع الأقصى ـ على قبول تعويض عن ملكيّتها، والمغادرة. قال «التوتونجي معترضاً باللغة العبرية: «إني من القدس؛ وأريد أن أبقى فيها. عندما يحبّ يهودي القدس، يعطى لحبّه قيمة روحية. وعندما يحبّ عربي القدس،

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

يشتبه به بأنه يدعم منظمة التحرير الفلسطينية». وقد اعترض الكاتب الإسرائيلي «آموس إيلون» على هذا العنف؛ دون جدوى.

وعندما لم يتأثّر العالم «بالقانون الأساسي» الإسرائيلي الذي يدعم مطالبة إسرائيل بالقدس عاصمة لها، واصلت إسرائيل مصادرة الأراضي ـ ٤٠ ٠٠٠ متر مربّع لمستوطنة تكلّف ٦٠٠ ٠٠٠ دولار أميركي (أو الضاحية كما سمّتها جريدة «التايمز» مرّة أخرى) ـ في آذار/مارس ١٩٨٩. والآن، يعيش ٦٠ ألف يهودي في القدس الشرقية «العربية»، أي ما يعادل أكثر من نصف السكّان العرب هناك البالغ عددهم ١٠٠ ألف نسمة. وفي العام التالي، قال إسحاق رابين، رئيس وزراء إسرائيل، إنه سيحتفظ بالأراضي العربية المحتلّة لصالح الموجة الجديدة من المهاجرين اليهود السوفيات الواصلين إلى إسرائيل، شارحاً: «إنّ الزعماء السابقين من حركتنا تركوا لنا رسالة واضحة بأن نحتفظ بأرض إسرائيل من البحر (الأبيض المتوسط) إلى نهر الأردنّ من أجل الجيل القادم...».

وحالما أُعلن اتفاق «أوسلو»، رأى حزب الليكود الإسرائيلي نهاية المستوطنات اليهودية على الأراضي الفلسطينية. وقال بنيامين ناتانياهو رئيس وزراء إسرائيل: «إن هذه الجزر الإسرائيلية، المنعزلة في بحر منظمة التحرير الفلسطينية، لن تدوم طويلاً». ولم يكن عليه أن يقلق. فبتاريخ ٢٧ أيلول/ سبتمبر عام ١٩٩٤ ـ عندما كان في الضفّة الغربيّة ١٤٠ مستوطنة يهودية موجودة، وعندما كان عمر اتفاق «أوسلو» سنة واحدة لا غير ـ وافق إسحق رابين رئيس وزراء إسرائيل على بناء ألف شقّة سكنية جديدة في مستوطنة «ألفي مناخي» القريبة من القدس. وعند نهاية عام ١٩٩٦، كانت نسبة ٨٦,٥ في المئة من القدس الشرقية قد نُقلت من سيطرة المقيمين الفلسطينيين واستعمالهم؛ ونُزعت ملكيّة ٣٤ في المئة من القدس الشرقية، من أجل بناء مستوطنات يهودية. وأعلنت بلدية القدس عن خطط من أجل بناء ٧٠ ٠٠٠ وحدة سكنية جديدة على مدى السنوات العشر القادمة. ثم جاء فتح «النفق الأثري» بدءاً من حائط المبكى ـ بعناية «إيرفنغ موسكوفيتز» المليونير الذي يملك مستشفيات ونوادي للقمار في فلوريدا ـ ذلك النفق الذي يمرّ تحت القدس الشرقية

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المسلمة. وقد قامت مظاهرات عنيفة ضد إقامة النفق، دفعت نفقتها وزارة الشؤون الدينية الإسرائيلية، وخلّفت وراءها من القتلى ٤٣ فلسطينياً، و١١ جندياً إسرائيلياً.

وفي شباط عام ١٩٩٧، وافقت إسرائيل على بناء مستوطنة يهودية كبيرة جديدة عند «جبل أبو غنيم»، قوامها ٣٥٤٦ بيتاً، وسكّانها زُهاء ٢٥ ٠٠٠ إسرائيلي، خلال المرحلة الأولى من المشروع فحسب. وهذه التلّة التي أقيمت عليها هذه المستوطنة تقع خارج القدس الشرقية ـ حيث كان يأمل الفلسطينيون إقامة عاصمتهم. وجرى تجاهل المظاهرات الفلسطينية، واستعملت الولايات المتحدة الأميركية حقّ النقض في مجلس الأمن لإحباط قرار يدعو إسرائيل إلى وقف عملية البناء. وفي الشهر ذاته، بدأت وزارة الإسكان الإسرائيلية بيع الأرض التي تتّسع لخمسة آلاف بيت جديد ضمن المستوطنات القائمة في الضفّة الغربية وقطاع غزّة. وقد ادَّعى بنيامين ناتانياهو أنه في مقابل مستوطنة «جبل أبو غنيم» ـ التي غيَّروا اسمها الفلسطيني إلى «هار هوما» ـ هناك مشروع بناء آخر يضمّ ٣٠١٥ بيتاً للفلسطينيين. وقد شجبت منظمات حقوق الإنسان هذا التصريح الإعلامي غير الصحيح؛ وأشارت إلى أن الأذون البالغ عددها ١٨٠٠٠ الموعود بها منذ عام ١٩٨٠ لبناء بيوت فلسطينية، لم يُنفّذ منها بيت واحد بعد ١٧ سنة.

ولم تبخل الولايات المتحدة الأميركية بتشجيعها هذا التوسّع الاستعماري غير القانوني الهائل ـ الذي استمرّ خلال عملية أوسلو للسلام. فبتاريخ ١٨ نيسان/ أبريل ١٩٧٧، نشرت جريدة «النيويورك تايمز» صفحة إعلانية كاملة موقّعة من قِبل عشرة زعماء روحيين مسيحيين ـ بمن فيهم بات روبرتسن وجيري فالويل ـ وكلّهم يدعمون «استمرار سيادة دولة إسرائيل على مدينة القدس المقدّسة. . . «ونحن نعتقد أن القدس أو أي جزء منها لن يكون قابلاً للمفاوضة في أيّ عملية سلام. يجب أن تبقى القدس غير مقسّمة، كعاصمة أبدية للشعب اليهودي». وتدّعي هذه الرسالة «الروحية» أن إسرائيل «قد أثبتت عملياً إحساسها

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بشواغل وحاجات المقيمين في القدس، بمن فيهم الفلسطينيون»؛ وأن حقّ إسرائيل بالقدس كعاصمة ذات سيادة جاء «بأمر إلهي»(*).

وتحت حكم «ناتانياهو» بدا أن السلطات الإسرائيلية تريد إغاظة جمهور الفلسطينيين وتقويض وضع عرفات أكثر فأكثر. فعندما اتخذت الأمم المتحدة عام ١٩٧٧ قراراً يحثّ الدول الأعضاء فيها على «تثبيط» المساعي لبناء المستوطنات على الأراضي العربية، انبرى الناطق باسم «ناتانياهو»، «دايفيد بار إيلان»، لاعب البيانو، ووصف المقترح بأنه «مُعيب، ومُفلس أخلاقياً»، لأنه يتجاهل الأخطار العالمية بينما يُدين ما يسمّيه بخبث «بناء شقق يسكن فيها الشباب زوجيْن زوجيْن». كما أن «مادلين أولبرايت» وزيرة الخارجية الأميركية عبّرت عن جبن وتحايل إيجابي عندما حثّت إسرائيل في أيلول/سبتمبر عام ١٩٩٧ على «الامتناع عن القيام بأعمال منفردة، بما فيها ما يدركه الفلسطينيون على أنه توسيع للمستوطنات بشكل استفزازي».

وقد اتضحت معاني هذا الكلام، فإذا لم يكن استمرار بناء المستوطنات اليهودية على الأرض العربية المسروقة، خلال عملية أوسلو للسلام، سوى «ما يدركه الفلسطينيون» على أنه استفزازي، إذاً، كيف تدرك الولايات المتحدة الأميركية هذا العمل؟

وعندما لا يبني الإسرائيليون بيوتاً للمستوطنين على الأرض الفلسطينية، ينصرفون إلى هدم بيوت الفلسطينيين، فبين توقيع اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣، وشهر آذار/مارس عام ١٩٩٨، دمّرت جرّارات إسرائيل ٦٢٩ بيتاً، منها ٥٣٥ بيتاً في الضفّة الغربية و٩٤ بيتاً في القدس، ثُلثها خلال حكم حزب العمل والباقي تحت حكم الليكود. وهناك ١٨٠٠ أمر آخر بالهدم؛ بانتظار التنفيذ. هذا الانتهاك بالجُملة لحرمة الفلسطينيين، المتمثّل بمحاولة إخراجهم بالقوّة من

(*) يمكن القرّاء الذين أرادوا اختبار هذا الأمر العودة إلى سفر التكوين ١٢ : ١٧؛ واللاويين ٢٦ : ٤٤ ـ ٤٥؛ والعدد ٧ : ٧ ـ ٨؛ وصموئيل ٧ : ١٢ ـ ١٦؛ والملوك ١٥ : ٤، والمزامير ٨٩ : ٣٤ ـ ٣٧، و١٠٥ : ٨ ـ ١١. ويزيد الإعلان على ذلك قوله: «إن معركة القدس بدأت؛ وحان الوقت للمؤمنين بالمسيح أن يدعموا إخوانهم اليهود...».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

القدس ـ ولا سيّما لأن إسرائيل لا تعطيهم أذوناً للسكن هناك ـ تفاقم أمره عندما اتخذت لجنة وزارية إسرائيلية في نيسان/أبريل عام ١٩٩٩ توصية ببناء ٠٠٠ ١١٦ بيت إضافي للمستوطنين على مدى عشرين سنة قادمة.

وقد عمدت حكومة حزب العمل برئاسة إيهود باراك ـ المعلن عنها أنها أكثر ليبرالية والإدارة الإسرائيلية الأقرب إلى الفلسطينيين منذ حكومة رابين ـ إلى استعمار الضفّة الغربية بأسرع من حكومة ناتانياهو الليكودية بعشر مرّات. وقبل بدء مفاوضات «الوضع النهائي» بين الإسرائيليين والفلسطينيين بيوم واحد في أيلول/سبتمبر ١٩٩٩، زار باراك مستعمرة «معال أدومين» التي صارت اليوم مستعمرة كبرى ـ وأعلن «إننا لن نزيل أية مستوطنة يبلغ عدد سكّانها ٢٥٠٠٠ نسمة... والتي ساعدت كل الحكومات الإسرائيلية في تطويرها... فكل بيت هنا، وكل شجرة، هي جزء من إسرائيل إلى الأبد؛ وهذا أمر واضح». وقبل آخر شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام ٢٠٠٠، اكتشفت جماعة الضغط الإسرائيلية، «السلام الآن»، أن إدارة باراك كانت تخطط لصرف مبلغ ٢١٠ ملايين دولار أميركي على المستعمرات في العام التالي.

وفي جميع الأحوال، لا يمكن تفادي الإحصاءات الأخيرة المُدينة لإسرائيل. فبين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٨٢، دخل الضفّة الغربية وغزّة ٢١٠٠٠ مستعمر. وفي عام ١٩٩٠، صار المجموع ٧٦٠٠٠ مستعمر. وعام ٢٠٠٠، بعد اتفاق أوسلو بسبع سنوات، وصل عدد المستعمرين إلى ٠٠٠ ٣٨٣ مستعمر، بمن فيهم مستوطنو القدس الشرقية المضمومة(*). وبتاريخ ١٧ أيار/ مايو

(*) ولكنّ القادة الإسرائيليين لم يكونوا الوحيدين الذين يحاولون مجابهة هذه العقبة المادّية الواضحة على طريق السلام. في عام ٢٠٠٠، نصح «جان هيوم»، رجل الدولة الإيرلندي الشمالي، الفلسطينيين والإسرائيليين بقوله: «إن التحدّي أمامكم ليس سباقاً جغرافياً، ولكنه بناء مؤسّسات متّفق عليها...» لكن هذه الصيغة من «عملية السلام» لم تذهب بعيداً. وحرب السباق ـ التي تتنافس فيها جماعتان على قطعة عقار ـ تصوّر بدقّة حقيقة نزاع الشرق الأوسط. وأقرب صيغة إيرلندية للصراع الإسرائيلي ـ العربي، هي محاولة التوسّط لوضع حدّ للعنف بعد نزع ملكية الكاثوليك في القرن السابع عشر. ومفادها حثّ الملّاكين البروتستانت وجمهور الكاثوليك الإيرلنديين الفقراء على بناء «مؤسّسات متّفق عليها»؛ ولكنها لم تكن لتعجب أياً من الطرفين.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

٢٠٠١، شعر رينيه كوزيميك رئيس بعثة الصليب الأحمر الدولي إلى إسرائيل والأراضي المحتلّة، بأن من الضروري تذكير العالم بمقتضيات معاهدة جنيف التي تعتبر «إقامة سكّان الدولة المحتلّة في الأراضي التي احتلّتها عملاً غير قانوني، يوصف بأنه خرق فاضح... كما أن سياسة الاستيطان بحدّ ذاتها تُعتبر في القانون الإنساني الخيِّر جريمة حرب». ومع كل ذلك، وحتى عندما كان عرفات على فراش الموت عام ٢٠٠٤، وكان جدار «الأمن» الإسرائيلي ينهب طريقه عبر المزيد من أراضي العرب، بقي الاحتلال الإسرائيلي، واستمرّ نزع ملكية الفلسطينيين.

وكان هذا التوسّع الاستعماري الهائل، أكثر من أي حدث آخر، يثبت للفلسطينيين أن اتفاق «أوسلو» كان خدعة زائفة، وكذبة، وحيلة للإيقاع بعرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية في شرك التخلّي عن كل ما سعوا إليه وصارعوا من أجله خلال أكثر من ربع قرن. لقد كان هذا الاتفاق أسلوباً لتخليق أوهام كاذبة، وإضعاف الطموح الرامي إلى إقامة دولة للفلسطينيين. أما بالنسبة إلى المستوطنين فقد كان اتفاق «أوسلو» طبعاً تهديداً للمشروع الاستعماري الذي دعمته الحكومة، والذين هم جزء منه. وعندما استمرّ إسحق رابين في عمليّة السلام بعد حصول عدّة تفجيرات انتحارية قام بها الفلسطينيون، صار في نظر المستوطنين جزءاً من «الإرهاب» ذاته الذي مثّله عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية. فبتاريخ ٢٤ تموز/يوليو ١٩٩٥، مثلاً، قتل مفجِّر انتحاري سبع إسرائيليين على متن باص في تلّ أبيب، وفي ٢٢ آب/أغسطس فجّرت إحدى الفلسطينيات نفسها في مؤخّرة باص، وحوّلت ذاتها مع أربعة ركاب آخرين إلى أشلاء. وفي ثاني يوم حمّام الدم الثاني، قال رابين إن ذلك لن يثنيه عن «محاربة الإرهاب الإسلامي المتطرّف، والاستمرار في المفاوضات» مع الفلسطينيين. وبعد شهرين بالضبط اتُّهم رابين بأنه «خائن» في تجمّع حصل في القدس وكان ناتانياهو من المتكلّمين الرئيسيّين فيه. ووزّعت منشورات في ذلك التجمّع صوّرت رابين بلباس ضابط نازي؛ كما أظهر فيديو مسجّل لذلك التجمّع امرأة تطعن بالسكّين صورة لرابين.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ولكن سيرة حياة رابين النهائية، لم تُكتب بعد. وقد لاحظ المؤرّخ الإسرائيلي «آفي شليم» بفطنة أن رابين أنزل بالفلسطينيين عقاباً وألماً أكثر من أي قائد إسرائيلي آخر. فهو الذي احتلّ الضفّة الغربية، عندما كان رئيساً للأركان عام ١٩٦٧. وحاول خلال الخمسة وعشرين عاماً التالية الاحتفاظ بها بالقوّة الضارية «التي أكسبته سُمعته في إسرائيل كسياسي مسؤول وموثوق». وعندما كان رئيساً للوزراء، سمح للجنود الإسرائيليين بأن يكسروا عظام المتظاهرين الفلسطينيين، تلك الممارسة التي استمرّت حتى قام مصوّر إسرائيلي بأخذ لقطة تظهر الجنود الإسرائيليين يكسرون ساقَي أسير فلسطيني. إن استمرار رابين في عملية الاستعمار، حتى بعد توقيع اتفاق «أوسلو»، يشير إلى أنه أراد أن يعطي عرفات شرف حُكم تلك المناطق في الضفّة الغربية وغزّة، حيث لم يكن الإسرائيليون فيها بحاجة إلى الأمن أو إلى مزيد من الاستيطان ـ وهذا تأويل مختلف عن تأويل عرفات. ولكن بتاريخ ٤ تشرين الثاني/نوفمبر، وبعد أن أخبر تجمّعاً في تلّ أبيب أن «طريق السلم أفضل من طريق الحرب»، اغتيل رابين على يد طالب إسرائيلي متديّن يبلغ من العمر ٢٥ عاماً ويسمّى «إيغال آمير»، أحد المعجبين «بباروخ غولدشتاين»، قاتل الفلسطينيين في جامع الخليل. وأثناء محاكمته، قال «آمير» إنه حالما وعى أن هناك شيئاً يمثّل وصية دينية «لم تكن هناك مشكلة أخلاقية. فلو كنتُ أحرّر الأرض الآن، كان عليّ أن أقتل الأطفال والأولاد، كما هو مكتوب في (كتاب) جوشوا». وإذا غيَّرتَ الدين هنا، فإنك تكاد تسمع صوت أحد المفجِّرين الانتحاريين الفلسطينيين.

كان التشابه المتوازي سهلاً، بالطبع. فبينما كنتُ أدفع حسابي لأغادر فندق الملك داوود في القدس باكراً في صباح أحد الأيام، تمنّى لي سفراً بالسلامة لدى عودتي إلى بيروت، رئيس المحاسبة في الفندق، كالعادة. وهو يهودي تقليدي طويل اللحية إلى حدٍّ فائق ـ يعتقد أن بيروت هي «مركز الإرهاب». سألني ذاك الصباح عمّا إذا كان شكله يذكّرني بشخص أعرفه، بقوله: «ألا أبدو مثل بعض أعضاء حزب الله؟»، شافعاً قوله بابتسامة عريضة. وكان عليّ أن أعترف أنه يشبه فعلاً بعض المقاتلين المسلمين الشيعة في لبنان. فاللحى لها

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

علاقة بالاتجاه التقليدي، والأصولية بالمعنى الحرفي للكلمة، مثل «حجاب» النساء ـ النساء اليهوديات التقليديات، والنساء المسلمات، والراهبات المسيحيات ـ وكأنها من معالم الأديان الثلاثة في الشرق الأوسط. وكنت أتساءل: «ما الذي يكمن في تطويل الشعر، أو تخبئته، أو كون شعر الرجل رمزاً على الرجولة، أو شعر الأنثى مصيدة جهنمية للرجال، أو طول اللحى، أو أشكالها؟ ولماذا كانت للمسيح لحية دائماً في كل تلك الصور التوراتية؟ ولماذا ينمّي الأئمة الشيعة الشعر حول ذقونهم، فيجيء كالزغب الأبيض، أو قصيراً خشناً، أو متشابكاً؛ لكنّه معقّد مثل تفسير الكتاب المقدّس، أو بحث في الفقه الإسلامي يضع الشيخ في مَصفّ الأئمة التراتبي؟ هل قُصد من اللحية أن ترمز إلى الحكمة، أو الالتزام، أو الرجولة، أو أريد بها اكتساب الاحترام؟

وعندما رحّل إسحاق رابين حوالى ٤٠٠ فلسطيني من مناصري حماس والجهاد الإسلامي إلى لبنان عام ١٩٩٢، أنشأ جامعة إسلامية على منحدرات جبل حرمون (جبل الشيخ). فلمّا لم تسمح الحكومة اللبنانية لهم بأن يسافروا شمالاً ضمن باقي البلد، عُزلوا في قرية «مرج الزهور» في قيظ الصيف وزمهرير الشتاء. وكان العديد منهم أساتذة جامعات، ومهندسين، وكتّاباً. فصاروا يتناقشون في شؤون الإسلام الحديث والفلسفة، وتعلّم القرآن، وحفظه؛ وصاموا رمضان، وصلّوا. وكان تخييمهم قرب طريق متعرّجة شهدت منذ ٩٠٠ سنة، كما يقال، مرور صلاح الدين إلى بيت المقدس. وكان بعض زعماء الجهاد الإسلامي يعقدون اجتماعاتهم هناك، مثل الشيخ عبد العزيز الرنتيسي والشيخ بسّام جرّار وغيرهم. وقد سألني الشيخ جرّار عن الفائدة التي تُرتجى من صفقة «سلام» سرّية لطّخت شرف الذين ماتوا في الانتفاضة الفلسطينية بين عام ١٩٨٧ أو عام ١٩٩٣. وكان هؤلاء المرحّلون يطلبون الحصول على جرائد؛ ولكن بمرور الأشهر لفتت قضيتهم الانتباه، وأمدَّتهم الجماعات المتعاطفة معهم مثل حزب الله وغيره من الجماعات الإسلامية اللبنانية بما يلزمهم، بما في ذلك مولّدات الكهرباء، والتلفزيونات والكتب؛ حتى أنه كانت هناك «مكتبة» جامعية، وخيمة تقوم مقام المسجد، وأخرى كمستوصف صحّي. وهكذا نشأ مجتمع إسلامي ذكوري عند الصخور الدهرية المعطاءة لمرج الزهور.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قال لي أحدهم: «سأفتقد هذا الجمال الطبيعي»، وذلك قبل أن يُسمح لهم بالعودة إلى «فلسطين» ـ وإلى سجن إسرائيلي ـ عام ١٩٩٤. ثم أردف قائلاً: «سيبقى لهذه الصخور مكان خاصّ في عقولنا في مستقبل الأيام». وقد أعطاني بعض هؤلاء الرجال أرقام تلفوناتهم في رام الله والخليل وجنين، وطلبوا مني أن أزورهم عندما أعود إلى «فلسطين». وكثير منهم تفاوضوا مع الموظفين الإسرائيليين؛ حتى أن أحدهم أعطاني تلفون منزل شيمون بيريز.

وهكذا، في يوم من أيام كانون الأول/ديسمبر الباردة عام ١٩٩٥، ذهبتُ إلى جامعة الخليل، ولقيت الشيخ جرّار أحد متخرّجي مرج الزهور. لقد صار أنحف؛ ولم يعد يلبس العباءة التي كانت تقيه من ثلوج لبنان؛ بل يرتدي سترة جلد، وقد قصّ لحيته فصارت قصيرة أنيقة؛ وهو يجلس في مكتب الطلبة. وكان يتحلّق حوله مؤيّدون آخرون لحماس من جماعة مرج الزهور، وقد وخط الشيب رؤوسهم أكثر من السابق؛ لكنهم ما زالوا يصغون إلى أستاذهم بالانتباه الكامل، الذي كانوا يعطونه لدروس التاريخ التي تلقّوها منه في الخيمة الكبيرة الباردة في جامعة مرج الزهور. قال: «إن مرج الزهور غيّرتنا كلّنا. وقد ارتحت عندما علمت أن العالم لاحظ ورطتنا، وأدركت أنه لا تزال هناك قِيَم صالحة في الدنيا».

توقّف عن الحديث تكراراً خلال اجتماعنا في مكتب الطلبة المزدحم. وربّما كان يشعر أن كل أولئك الملتحين يتطلّعون إلى حكمة وإلى هنات أستاذهم في التاريخ. وها هو في آخر الأمر، رجل غربي عرف الشيخ جرّار في المنفى، يأتي كمراسل من ثقافة مختلفة؛ وقد يعرف أشياء لا يعرفونها عن سلوك أولئك الرجال الأربع مئة من الفلسطينيين في منفاهم منذ سنتين. ثم تابع الشيخ جرّار حديثه قائلاً: «بما أن العالم أثبت أنه ليس دغلاً كما كنا نتصوّر، صار لدى العديد منّا تشكّك في تقويم خبرتنا بجنوب لبنان. لقد عدّلنا خطابنا السياسي. وفي مرج الزهور تكلّمت مع أناس من ثقافات مختلفة. وكان علينا أن نجد اللغة التي تُقنع الآخرين. لا أن تقنعنا نحن. ولذلك طوّرنا تلك اللغة».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وماذا عن اتفاق منظمة التحرير الفلسطينية مع الإسرائيليين، الذي نبذه المنفيّون منذ زمن إقامتهم في مخيّم سفح جبل الشيخ، وسط الثلوج. قال الشيخ جرّار: «كل حلٍّ يتصل بمفهوم للعدالة. وإذا حصل خطأ، لا يدوم طويلاً. هناك إمكان في إقامة السلام، ولكن، سيكون هناك أيضاً عنف. يعتقد كل امرئ أن هذا هو حلّ قوّة عظمى وغير قائم على العدالة... لن تتعامل معنا إسرائيل على أساس من العدالة...» وأومأ كلّ الشباب الموجودين في الغرفة برؤوسهم موافقين، عندما عاد جرّار إلى الموضوع المألوف: نفوذ واشنطن الكبير الشامل، المتدخّل في الشؤون الدولية لرعاية المصالح الأميركية - في البوسنة، فضلاً عن الشرق الأوسط. قال: «إن البوسنة قائمة في قلب أوروبا؛ وهي حالة خاصّة. وقد توصّلوا إلى حلٍّ لإبقاء المسلمين تحت المراقبة، ومنع أي طرف ثالث، كالإسلاميين، من اكتساب أي نفوذ. أما فلسطين، فهي في قلب العالم الإسلامي؛ وهنا يتطلّع الأميركيون إلى رعاية مصالحهم في الشرق الأوسط المتمثلة: بالنفط وإسرائيل».

وما كان مني إلّا أن دفعت الشيخ جرّار إلى موضوع القدس، الذي تكلّم عنه عدّة مرّات في مرج الزهور. قال: «قد يسيطر عرفات على بعض مناطق مُلحقة بالقدس. أما الضفّة الغربية فستقسم إلى «كانتونات» على يد الإسرائيليين الذين بنوا كل طرقات المرور هذه للمستوطنين كي يفتّتوا أرضنا. سيغادر بعض المستوطنين ولكنّ آخرين سيبقون، ولا سيّما في وادي نهر الأردنّ، في الشمال الغربي، وفي تلك المناطق كافّة التي صارت المستوطنات فيها مدناً افتراضية». لقد كان الشيخ مصيباً بنسبة خمسين في المئة. سيُعرض على عرفات بعض الضواحي الضعيفة حول القدس. ولن يغادر أحد من المستوطنين - بل سيزيد عددهم - وإنما ستقطّع الطرق أحشاء الأرض الفلسطينية، بحيث لا تقوم للدولة الفلسطينية قائمة.

وفي مماشي الجامعة، تحلّق مئات الطلّاب حول لوحات الإعلانات المختصّة بالجماعات الفلسطينية المقاتلة. فعلى اللوحة الإسلامية، عُلّقت عشرات من صور «الشهداء» المنتمين إلى حماس وإلى الجهاد الإسلامي. وهم يحملون مسدّسات ورشّاشات آلية، ومدافع رشّاشة ثقيلة. وكان هناك أيضاً

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

«بسّام إماسلني» أحد قُدامى مرج الزهور، يشير إلى صورة رجل، خفيف اللحية، ذي عينين سوداوين جدِّيتيْن ويقول: «جاءوه إلى بيته، فوقع في الفخ؛ لكنه خرج إليهم مقاتلاً برشّاشه؛ ولم يُقتل إلّا لكثرة عددهم».

وإني أتساءل: «هل كنّا نخدع أنفسنا أو نتوهّم لاعتقادنا بأن «السلام» معروض؟ ولا أتمالك عندما أراجع تقاريري عن الشرق الأوسط المتمحورة حول النصف الثاني من تسعينيّات القرن العشرين الميلادي، إلّا أن أشعر بالإرهاق والهول. كتبتُ في حزيران/يونيو عام ١٩٩٦: «لقد انتهى شهر العسل، بل انتهى الزواج... فالمسرحية تدرّجت إلى نهايتها منذ زمن طويل. وقد وقع الطلاق النهائي عندما صار «بيبي ناتانياهو» رئيساً للوزراء؛ إذ لم يظهر أيّ اهتمام للحكومة الإسرائيلية الجديدة بالاتفاقات الرسمية المهيبة التي وقّعتها منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل: فلم تنفِّذ إسرائيل انسحابها من الخليل؛ ومحادثات الوضع النهائي المفترض فيها أن تقرِّر مستقبل القدس والمستوطنات اليهودية التي لا تزال تتوسّع عبر الأرض الفلسطينية في الضفة الغربية، صارت غير ذات موضوع».

وفي كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٩٦، وجدت نفسي أكتب: «هناك انفجار قادم في الشرق الأوسط. إنه انفجار كبير قد يغيِّر وجه المنطقة إلى الأبد. لقد اخترنا نحن في بلاد الغرب أن لا نهتمّ بالعلامات الدالّة على الكارثة القادمة، وفضَّلنا الادّعاء بأن «عملية السلام» التي شبعت موتاً وكانت محشوّة بالأخطاء، لا يزال فيها رمق من الحياة... لكن العالم العربي يستعدّ لموجة صادمة من الأحداث الرهيبة». وها أنا أسأل نفسي الآن: «ماذا كنت أتوقّع من أحداث رهيبة؟ لا بدّ أني تخيّلتُ أن الانفجار سيحصل في الشرق الأوسط ضمن إسرائيل أو فلسطين. ولكن، لديّ أيضاً شريط مقابلة مع الممثّل المعتمد لهيئة الإذاعة الكندية في «تورنتو» عام ١٩٩٨، تكلّمت فيه أيضاً عن «انفجار قادم».

كان هناك التعذيب والموت في السجن، وكان التوقيف والاحتجاز تعسّفياً دون محاكمة، وكان هناك إعدامات، ومحاكمات غير عادلة من قِبل الإسرائيليين، والفلسطينيين على السواء: هل يمكن أن يكون هناك، بعد خمس سنوات من اتفاق أوسلو، اتهام بائس «للسلام» أكثر من تقرير منظّمة العفو

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الدولية المنشور؟ لقد تمّت التضحية السريعة بالحقوق الإنسانية خلال التفتيش العاثر عن «الأمن» بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، بحيث كان تقرير تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٩٨ متأخّراً جدّاً في تسجيل الفظاعات الأخيرة: إطلاق فرقة إعدام النار على شخصيْن فلسطينيين بتهمة القتل، وضرب «حسين غالي»، حتى الموت من قِبل بعض أتباع ياسر عرفات؛ وهو الذي جاء إلى مخفر الشرطة لتسجيل شكوى. وقد جاءت كلمات منظّمة العفو الدولية أكثر فصاحة ووضوحاً من تقارير أيّ من المراسلين:

> «... إن قتل الفلسطينيين على أيدي أجهزة الأمن الإسرائيلية أو المستوطنين الإسرائيليين، أدّى إلى التفجيرات الانتحارية وموت المدنيين الإسرائيليين. وأدّى كلّ ذلك إلى موجات من توقيفات واحتجازات انفرادية تعسّفية، وتعذيب، ومحاكمات غير عادلة... وكان الشعب الفلسطينيّ الضحيّة الرئيسيّة لهذه الانتهاكات... كما أصبحت الأراضي المحتلّة أرضاً حافلة بالحواجز التي أقامتها في الأغلب أجهزة الأمن الإسرائيليّة بين القرى والبلدات».

وكانت طرائق التعذيب لدى الإسرائيليين تشمل «الشابح» Shabeh، (أي الحرمان من النوم مع التقييد في أوضاع مؤلمة وتغطية الرأس والرقبة)، و«الغمباز» Gambaz (الإلزام بجلوس القرفصاء لأكثر من ساعتين)، و«التلتول» (Tiltul)، (أي الهزّ العنيف، الذي سبق أن قتل أحد الأسرى الفلسطينيين)(*)،

(*) أكّد اختصاصي اسكتلندي في علم الأمراض عام ١٩٩٥ أن الفلسطيني الذي مات تحت الرعاية الإسرائيلية، «عبد صامد حريزات» من الخليل، مُني بإصابات قاتلة في دماغه، عندما ضُرب رأسه بقوة، أثناء «هزّ عنيف»، على يد عناصر «شين بت» الإسرائيلية بتاريخ ٢٢ نيسان/أبريل خلال ذلك العام. وفي تقرير للجنة الإسرائيلية الخاصّة حول التحقيق، أقرّ القاضي المتقاعد «موشي لاندو» في شهادته باستعمال «الضغط الجسدي الخفيف» ضدّ الفلسطينيين. وفي عام ١٩٩٧، جاءت الاستخبارات العسكرية الفلسطينية إلى مستشفى نابلس بشخص موقوف يُسمّى «يوسف بابا» محروق في ذراعه وفخذيه بأداة كهربائية تُستخدم لغلي الماء. وقد تطوّرت جروحه إلى «غرغرينا»؛ ثم أعيد إلى السجن حيث مات بتاريخ ٣١ كانون الثاني/يناير.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

و«الخزانة» (أي الحبس في خزانة). وتشمل طرائق التعذيب الأخرى الضرب، والضغط على الأعضاء التناسلية، والتعرّض للحرّ والبرد. وقد قالت منظّمة العفو الدولية: «هناك إقرار عام لدى المجتمع الدولي بأن إسرائيل قد شرّعت استعمال التعذيب». أما التعذيب على يد سلطة ياسر عرفات فقد شمل: الضرب، والتعليق بالرسغين، والحرق بالكهرباء أو بالسجاير، مع أنواع التعذيب الأخرى التي تعلّموها من الإسرائيليين، ولاسيّما «الشابح». وقد مات عشرون فلسطينياً في السجن تحت رعاية السلطة الفلسطينية، منذ اتفاق أوسلو، ومعظمهم أثناء التعذيب أو بعده. ومن الذين عُذّبوا بطريقة رتيبة عادية «الموقوفون لأسباب أمنية»، والمتعاونون مع الإسرائيليين المشكوك في أمرهم، والفلسطينيون الذين باعوا أرضاً للإسرائيليين.

وقد اهتمّت منظّمة العفو الدولية بالقتل غير القانوني. وشمل ذلك مصرع هاني عبد، أحد أعضاء حركة حماس المتهم بقتل جنديين إسرائيليين، والذي قُتل في غزّة بانفجار سيّارة. وفتحي الشقاقي، القائد في الجهاد الإسلامي الذي أطلقت عليه النار في مالطا. ويحيى عيّاش، صانع القنابل الذي قُتل بواسطة جهاز هاتف نقّال مفخّخ، وقد أدّى مقتله خلال هدنة ذاتية أعلنتها حماس إلى سلسلة من التفجيرات الانتحارية. وبين العديد من الأبرياء الذين قتلهم الإسرائيليون الطفل «علي جوارش» البالغ من العمر ٨ سنوات. وقد استشهدت اللجنة المذكورة بقول الصحافي «جويل غرينبورغ» من «النيويورك تايمز»، الذي أخبر منظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية «بي تشاليم» (B'Tselem) فيما بعد أنه رأى الجنود الإسرائيليين يطلقون النار على ولد خلال المظاهرة:

> «رأيت أحد الجنود يركع ويصوّب بندقيته نحو الأولاد... وكنت أعتقد أنها كانت طلقة مغطاة بالمطاط... ولكنّي لست متأكّداً من ذلك. وعندما انسحب الجنود لاحظتُ ولداً يرقد دون حراك على الأرض، وهو في حوالى التاسعة أو العاشرة من عمره... رأيت... جرحاً على الجهة اليمنى من جبينه، وكثيراً من الدم ينزف. وفيما بعد، أخبرني الأطبّاء في مستشفى «المقاصد» وفي «بيت جالا» أن دماغ الولد تناثر إلى الخارج».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ومن الغريب تآلف الأمور في هذا الصراع الدموي. فكلّما زاد العنف في إسرائيل ـ وفلسطين، اكفهرّ المستقبل السياسي، وعظم تفاؤل الغرب بشأن «عملية السلام»، التي «توضع على خطّ سكّتها» من جديد. وأفترض أن هذا كان نوعاً من التمرّن اللاشعوري تمهيداً لغزو العراق من قبل الإنكليز والأميركيين عام ٢٠٠٣. وبينما كانت نتائج تلك العملية العسكرية غير الشرعية تتشبّث بشكلها الكوارثي، كان الأميركيون والبريطانيون يكرّرون التعبير عن ثقتهم المطلقة بأن الغزو كان يستحقّ ذلك العناء، وأن عواقبه كانت قابلة للتنبّؤ، وأن النتيجة النهائية هي مزيج من «الحرّية» و«الديمقراطية». وكذلك الأمر بالنسبة إلى فلسطين وإسرائيل عام ١٩٩٨.

وفي أيار/مايو من تلك السنة، سافرتُ إلى لندن لمراقبة المسيرة المستمرّة لعملية خلق أوهام السلام في الشرق الأوسط حول شارع «داوننغ». وقد حوّمت مروحيّة فوقنا ببطء وهي تخرخر، عندما خرج بنيامين ناتانياهو من الرقم عشرة ليخبرنا كم هو ممتنّ من طوني بلير. ثم عادت الطائرة المروحية تتهادى في أشعّة الشمس الربيعية، عندما أطلّ ياسر عرفات من شارع «داوننغ» كي يشكر بلير «لالتزامه بعملية السلام». كم كانا يُحبّان طوني؛ وكم كانا يكرهان بعضهما البعض. وفي تلك الأثناء، كانت تبدو خلفنا البناية المصيرية التي دبَّج فيها اللورد «بلفور» تصريح بريطانيا عام ١٩١٧ الداعم لإقامة وطن يهودي في فلسطين.

أخبرنا «بيبي» ببزّته الداكنة النقيّة وشعره الأبيض الكثيف، أنه يمكن أن يحصل تقدّم، إذا أظهر الجانبان مرونة. وادّعى أن إسرائيل خطت الخطوة الإضافية. وكانت الخطوة الإضافية، هذا الميل الإضافي بنظر الفلسطينيين، هي الخطوة التوسّعية لآخر مستعمرة يهودية أسّستها إسرائيل في قلب الأراضي الفلسطينية المحتلّة. أما عرفات فظهر بسحنته الرمادية، وشفته السفلى ترتجف، وكوفيّته غير مرتّبة على غير عادته ـ وأنذر بأنه «على ناتانياهو أن يتحمّل مسؤوليته. . . بشأن الفوضى التي قد تحدث في المنطقة، إذا جاءت نتائج هذه المحادثات غير إيجابية».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وعلى بُعد ميل واحد، وعبر شوارع مصرف لندن الفارغة في العطلة، كان رئيس وزراء إسرائيل يتكلّم مع وزيرة الخارجيّة الأميركية مادلين أولبرايت، في الأجنحة الفخمة لفندق «غروسفينر بارك». وكانت المدخنة العامرة بما يشبه الحطب المشتعل، وبالرسوم الزيتية للمتزلّجين على الجليد، تشبه بإنذارها غرفة التدخين في سفينة «التيتانيك». وخلال دقائق، جاء الناطق باسم إسرائيل دايفيد بار إيلان، بلهجته الباردة الجامدة المألوفة في مدارس بريطانيا الخاصة، يتمشّى في ردهة الفندق ليقول للصحافيين ـ كردّ على تصريح عرفات ـ إنه «إذا كانت المعادلة «الأرض ـ مقابل ـ الإرهاب»، فإننا لا نستطيع أن نستمرّ في هذا الأمر». كانت تلك لغة الأولاد المتبادلة بين الطرفين، لغة التهديد والوعود الكاذبة. كما كان ناتانياهو وعرفات يحبّان السلام ويسعيان إليه. ولكنهما لم يستطيعا أن يتكلّما فيما بينهما. لقد أُضعف عرفات إلى درجة لم يعد معها قادراً إلّا على قبول طلب واشنطن بانسحاب إسرائيل بنسبة ١٣,١ في المئة من الضفّة الغربية، الذي هو تقزيم مشوّه لما جاء في اتفاقات «أوسلو». وفي فندق «غروسفينر»، كانت مادلين أولبرايت ـ المفترض بها أن تكون وزيرة قاسية الحديث ـ تحاول أن تصبّ كل غضب النعجة على الإسرائيليين لوقفهم عن الاستمرار في تشييد المستوطنات في الأراضي العربية المحتلّة، ولحملهم على الالتزام بروزنامة أوسلو، وإقناع ناتانياهو أن يتخلّى عن أكثر من ٩ في المئة من الأرض الفلسطينية ليمنحها إلى عرفات في المرحلة التالية من تسليم الأراضي؛ دون جدوى ناهيك بالدولة الفلسطينية. ولكن، خارج الرقم ١٠ من شارع «داوننغ»، كانت شبكات الإعلام تبدي آراءها ـ فقد جاء على لسان أحد موظفي هيئة الإذاعة البريطانية ـ أن ناتانياهو لم يكن لديه سوى «مجال ضيّق للتحرّك» لأن وزارته منقسمة على نفسها. ولكن، لم يُذكر في ما أُذيع أن إسرائيل لم تتقيّد بمقتضيات اتفاق أوسلو الموقّع. وقد أوضح بار إيلان الوضع تماماً. فإسرائيل تريد مزيداً من الأمن من عرفات، وتطلب منه تخفيض عدد رجال الشرطة عنده. المزيد من الأمن مع الأقلّ من الشرطة! مَن حلم بهذه المعادلات المعتوهة؟!

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وكانت هناك هُنيهة صورّت اليأس المخيِّم على «عملية السلام» في الشرق الأوسط. فعلى الأريكة خارج المقهى في فندق «تشرشل» بلندن، وفي ثاني يوم من المحادثات، رأيت شخصاً مألوفاً لديّ متهاوياً على تلك الأريكة. لم يكن ظاهراً هناك رجال شرطة أو أمن، بل الناطق باسم وزارة الخارجية الأميركية، الطويل الأسود الشعر، والمرأة الشاحبة المرهقة الجالسة في زاوية الأريكة. لقد بدت مادلين أولبرايت على شفا الانهيار. وكانت قبل ساعات قد تلفنت لعرفات لتقدّم أعذارها؛ إذ لم تستطع أن تأتي لتراه، بحسب الاتفاق. لقد كانت متعبة جدّاً بحيث تعذّر عليها الذهاب إلى «كلاريدج» لمقابلته. انفجر عرفات ضاحكاً بعد انتهاء تلك المكالمة. فحالته الصحّية كانت أسوأ بكثير من صحّتها؛ إذ يصطدم المرء عندما يراه عن قُرب، ويده اليمنى تمسك باليسرى المرتجفة، وشفته السفلى تتحرّك لاإرادياً عندما لا يتكلّم. ولكن عندما جاء دور ناتانياهو بعد ساعات قليلة، ركبت أولبرايت في سيّارتها الليموزين لتقابل رئيس وزراء إسرائيل في فندقه.

•

وما كان أشدّ وقعاً وصدماً من صحّة عرفات، كان خوف أولبرايت من ناتانياهو، بل من إسرائيل في الحقيقة. فقد قبل عرفات ومنظّمة التحرير الفلسطينية شروط أميركا لمقابلة الرئيس كلينتون بتاريخ ١١ أيار/مايو ١٩٩٨. ولكن ناتانياهو لم يستجب بعد. إنه سيطير إلى إسرائيل «للتشاور» مع وزرائه. وعندما تكلّمت أولبرايت معنا كلنا فيما بعد ـ وهي متردّدة، ومرتبكة أحياناً أو ناسية لبعض الأسئلة ـ كانت تمدح القائد الإسرائيلي المستمرّ في تشييد المستوطنات اليهودية على الأرض التي يريدها عرفات كجزء من دولته الفلسطينية. فناتانياهو في وضع «مشجِّع»، يبدي «آراء جديدة»، وهو متحمّس، ومستعدّ «للمساعدة». إنها جدّ ممتنّة من ناتانياهو. قالت: «بالطبع، إن إسرائيل هي التي تحدّد مطالب أمنها» ـ فالوداع إذن لرجال الشرطة الفلسطينيين. وعندما سألناها ما هي تلك «الأفكار الجديدة» التي أبداها ناتانياهو، أنبأتنا بأن «المزيد من التفاصيل لا تساعدنا على المزيد من التقدّم».

كان ذلك كلاماً فارغاً. ولكنها مع ذلك كانت تتكلّم عن «التقدّم» ـ وقد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أحصيت تكرار هذه الكلمة فبلغ ١٨ مرّة خلال عدّة دقائق فحسب. وكذلك فعل طوني بلير عندما ظهر أمام الصحافة. فقد استعمل علامات الوقف في كلامه بكثرة متزايدة، مما يحمل المرء على الاشتباه في ما يقوله. قال عرفات إنه سمع من أولبرايت عن تحقيق «تقدّم»، عندما سألتُه عما إذا كان قد ندم لتوقيعه اتفاقات أوسلو؛ فوسّع حدقيته، واستعاد صوتُه قوّته القديمة، وأردف قائلاً: «إن اتفاق السلام الذي وقعتُه كان سلام الشجعان. وقّعت مع شريكي إسحاق رابين الذي دفع حياته ثمناً لهذا السلام. إن واجبنا الثابت هو أن نستمرّ بالمحاولة التي وقّعناها مع رابين وبيريز. وهكذا، لم يرد ذكر ناتانياهو؛ كما لم يرد ذكر «سلام الشجعان» في كلام ناتانياهو وأولبرايت، مع الاستخفاف غير الملائم. وقد أبدت أولبرايت ملاحظة حول جهود السلام الأميركية مفادها أنه «يعود للطرفين أن يقرّرا إلى أيّ حدٍّ نحن نخدمهما» وربّما يكتب هذا الكلام على ضريح اتفاق أوسلو.

وفي خريف عام ١٩٩٨، تكلّم الرئيس كلينتون قليلاً عن ناتانياهو، بمناسبة عشاء خاصّ في البيت الأبيض مع الأعضاء الشباب في العائلة المالكة الأردنية، ومجموعة من الضيوف لا تتعدّى عشرة أشخاص من الرجال والنساء، من المتعاطفين مع ملاحظاته. قال: «إني أكثر الرؤساء الأميركيين مناصرة لإسرائيل منذ ترومان؛ لكن المشكلة مع «بيبي» أنه لا يعترف بإنسانية الفلسطينيين». فبصرف النظر عن تواضعه المزيّف ـ كان كلينتون ميّالاً إلى إسرائيل أكثر من ترومان ـ وقد وضع إصبعه على العيب الفاضح الضارّ لدى ناتانياهو ألا وهو: عدم اعتبار الفلسطينيين إخوة في الإنسانية، واقتناعه بأنهم لا يخرجون عن كونهم شعباً خاضعاً. وتظهر هذه الصفة أيضاً في كتابه: «مكان بين الأمم»، الذي يمكن أن يكون قد كتبه حاكم استعماري. لقد كان كلينتون على حقّ. لقد فهم القصور النفسي القابع في قلب حكومة ناتانياهو بكاملها، وليس في سياسات ناتانياهو فحسب.

ومع ذلك، لم تمضِ عدّة أيام حتى ترأّس اتفاقاً آخر للسلام في «الواي» ـ وضع الفلسطينيين في دور المستضعفين المتضرّعين المتوسّلين. فالقسم الرئيسي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في اتفاق «واي»، لم يكن حول الانسحابات، بل حول «الأمن» ـ المربوط بغزارة الإشارة إلى «الإرهابيين» و«خلايا الإرهابيين»، و«المنظّمات الإرهابية»، في ما يتعلّق بعنف الفلسطينيين، فحسب. ولم تكن هناك أية إشارة وحيدة إلى القتلة الذين جاءوا من مجتمعات المستوطنات اليهودية.

إن التعذيب الذي فُرض على عرفات كان بمنتهى الروع والروعة. فكل اتفاق جديد يعقد مع إسرائيل يتطرّق إلى معاودة كتابة الاتفاقات السابقة، كتابة أكثر خفّة ورهافة. فاتفاق مدريد ـ بكلّ ما فيه من ضمانات للفلسطينيين ـ انقلب إلى اتفاق أوسلو ـ دون أيّة ضمانات على الإطلاق، وإلى نظام من الانسحاب الإسرائيلي مصوغ بحيث يُعفيه من التنفيذ بمواعيد. ثم انقلب هذا الاتفاق أيضاً إلى اتفاق الخليل عام ١٩٩٧ ـ الذي سمح للمستعمرين اليهود بأن يبقوا في المدينة، وجعل الانسحاب الإسرائيلي مرهوناً بوقف العنف ضدّ الإسرائيليين؛ حتى أنه في عام ١٩٩٨، أسقط اتفاق «واي» شعار «الأرض مقابل السلام». وصارت الفاتورة تُدفع الآن على أساس «الأرض مقابل الأمن»، مع إبقاء السلام غير قابل للتحقيق مؤقّتاً. فالسلام يعني الاحترام، والثقة المتبادلة، والتعاون. والأمن يعني عدم وجود عنف ـ كما أنه يعني أيضاً السجن والكره، والتعذيب، كما سبق أن عرفنا ذلك مما تقدّم. وبالمقابل، يمكن أن يضع الفلسطينيون ٤٠ في المئة من أرضهم تحت سيطرتهم ـ خلافاً لنسبة ٩٠ في المئة التي أعطاهم إيّاها اتفاق أوسلو. أضف إلى ذلك أن وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)، الأكثر مصداقية والأفضل أخلاقية من المؤسّسات، ستكون حاضرة في الضفّة الغربية للتأكّد من أن عرفات يوقف المشتبه بهم العاديين.

لم تمنع السلطة الفلسطينية «حماس» من مهاجمة الإسرائيليين ـ أكثر مما منعتهم إسرائيل من ذلك قبل اتفاق أوسلو ـ ولكنها ستنجح الآن بأعجوبة، لأن وكالة الاستخبارات الأميركية تساعدها. وسيُجَرَّد الفلسطينيون المسلّحون بطريقة غير شرعية من أسلحتهم؛ بينما يبقى الألوف من المستوطنين اليهود على الأراضي الفلسطينية مسلّحين ـ وهم الذين رفضوا صيغة اتفاق «واي» المخفّفة،

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ووصفوها بأنها «خيانة». كان يجدر أن يعيش الإسرائيليون دون خوف؛ وكذلك الفلسطينيون. ولكن الأمن يأتي عن طريق السلام، وليس عن غير طريق. وإن نسبة ٣ في المئة من الأرض الفلسطينية التي تعد إسرائيل بالانسحاب منها يوماً ما ستصبح «معزلاً طبيعياً أو محميّة طبيعية» ـ وربّما كان هذا من أكثر مظاهر اتفاق أوسلو المشوّهة والعبثية؛ شرط أن لا يبني عليها الفلسطينيون بيوتاً لهم. وهكذا يتعجّب المرء ويتساءل أيّ نوع من الحيوانات البرّية يفترض بها أن تجول ضمن تلك المنطقة المحميّة، وأيّ نوع من الحيوانات البرّية ستتجوّل خارج جدرانها!

إذن، ليس في اتفاقية «واي» أيّ إشارة إلى «المنظمات الإرهابية» اليهودية. وليس هناك من أمل في ضبط جماعات المستوطنين الذين سيهاجمون الفلسطينيين في المستقبل. ففي تمّوز/يوليو من عام ٢٠٠١ مثلاً، أطلقت جماعة «إرهاب» من هؤلاء عشرات الطلقات على سيّارة تحمل ثمانية فلسطينيين عائدين من التحضير لعرس في بلدة «إدنا» الصغيرة في الضفّة الغربية. مع العلم أن هذه الجماعة هي جماعة «إرهاب» بحسب تعريف إسرائيل، بالرغم من أن الصحافة الدولية تسمّيهم رجال حرب العصابات، أو أعضاء في لجان أمن أهلية. وكانت النتيجة أن مات «محمد سلامة طميزه» وقريبه «محمّد حلمي طميزه» على الفور؛ وجرح خمسة آخرون. كما أن ثالثة القتلى كانت «ضيا طميزه»، طفلة لم تكد تبلغ الشهر الثالث من عمرها. وليس هذا دفاعاً عن العنف الفلسطيني أو «الإرهاب» ـ فقد سبق أن قتل قنّاص فلسطيني طفلاً إسرائيلياً في مستوطنة بالخليل ـ ولكنّ هناك فرقاً جوهرياً؛ إذ إن الفلسطينيين سيُجرَّدون من السلاح، بينما يحتفظ المستعمرون الإسرائيليون بسلاحهم.

فكيف سمحت الولايات المتحدة بحصول هذا؟ هل كان ذلك عن جهل، أو ضعف تجاه الجماعات الأميركية النافذة التي تسعى لدعم إسرائيل، أو لا مبالاة فكرية عندما تُطرح القضايا الكبرى المعقّدة: قد يكون في كل هذا أدلّة. ولكن، هناك نوع عامّ من التهرّب من حمل المسؤولية في السياسة الأميركية. فقد أراد كلينتون أن يكون صانع «سلام»، لكنه يرفض بعناد أن يَضْمنه. وقد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

سمعنا منه تكرار اللازمة القائلة «إن واشنطن تقدر أن تجمع الطرفين؛ ولكن عليهما هما أن يتّخذا القرارات». ولمّا كانت إسرائيل هي الطرف الأقوى على الإطلاق ـ فالدبّابات الفلسطينية لم تكن تحتلّ تلّ أبيب ـ وهي تتصرّف على هواها داخل اتفاق أوسلو أو خارجه. وخارج الإطار الرسمي المسجّل، يروى لنا ـ كما قيل لضيوف البيت الأبيض الأردنيين ـ عن ضيق صدر كلنتون إزاء ناتانياهو(*)، مع العلم أنه يبقى رسمياً صامتاً، حتى يصيب العنف الفلسطيني الإسرائيليين. عندئذٍ يتّخذ مزاج الأسد، ويصف القتلة بأنهم «رجال أيام زمان»؛ كما فعل في عمّان، وفي «واي»، وهو يحاضر عن «الكره» الذي يحيق بالنجاح الأخير «للسلام».

ومن أكثر الوجوه خطراً في اتفاقات «السلام» الأميركية المتتابعة نوعية اللغة الفضفاضة المستخدمة. وقد كان «كلينتون» حاذقاً في الكلام الشكلي والبلاغة اللفظية، ـ من السخرية أنه يبدي رغبته في إظهار فصاحته بالنسبة إلى علاقته مع مونيكا لوينسكي ـ لكنه يتكاسل عندما يأتي وقت الكلام عن التفاصيل. وبالرغم من جميع المصافحات والتفاهات التي جرت في «واي»، مثلاً، ذهب كلٌّ من الفلسطينيين والإسرائيليين إلى بلادهم، بأفكار متضاربة عمّا تمّ إنجازه. فقد استطاع ناتانياهو أن يؤكّد للمستعمرين الإسرائيليين أنه لن تكون هناك دولة فلسطينية؛ بينما أقنع رجال عرفات من تبقّى لهم من المناصرين أنه سيكون هناك انسحاب إسرائيلي كخطوة أخرى على طريق تأسيس الدولة الفلسطينية. وما كاد ناتانياهو يعود إلى إسرائيل حتى حثّ وزير خارجيته أرييل شارون المستوطنين على «حيازة أيّ قمّة تلّة في الضفّة الغربية، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً».

(*) وليس أقلّه عندما طلب «ناتانياهو» إطلاق سراح الجاسوس «جوناثان پولارد» من أحد السجون الأميركية؛ ذلك الجاسوس الذي كان يرسل أسرار البنتاغون إلى إسرائيل ـ كجزء من مطالبه للنجاح في «واي». وپولارد يهودي أميركي كان يعمل كمحلّل استخبارات في أميركا، حُكم عليه بالسجن المؤبّد في آذار/مارس ١٩٨٧. وفي عام ١٩٩٥، جعله إيهود باراك مواطناً إسرائيلياً. أمّا كلنتون، فقد تدبّر أمر رفضه لطلب ناتانياهو، بعدما قال منقبضاً إنه «سيراجع بجدّية» وضع پولارد.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ولو تشبَّه عرفات بدور ناتانياهو، في معركة الحذاقة المتبادلة معه نداً لندّ، لطلب ما يلي: وقف «عملية السلام» حتى تتخلّى إسرائيل عن مطالبتها الحصرية بالقدس كعاصمة لها ـ مما يلغي محادثات «الوضع الأخير» ـ ؛ وعدم الاستمرار في إنشاء مستوطنات يهودية في الأرض العربية المحتلّة. ولكن عرفات لا يمكنه القيام بذلك ـ ولن تتكلّم معه واشنطن إذا فعل ذلك. وهكذا قضت محادثات «واي» على كل أمل فلسطيني في إقامة سلام عادل. وقد وعد عرفات ـ لقاء حوالى ١٤ في المئة من أصل ٢٢ في المئة الباقية من «فلسطين» الانتداب ـ بأن يحمي الإسرائيليين الذين يشيّدون المستوطنات، ويصادرون أوراق الهويّة الفلسطينية، ويهدمون البيوت.

وفي هذه الأثناء، استمرّ «مبعوثو السلام» الأميركيون بزيارة ناتانياهو وعرفات، كجزء من ضيافة أميركا «غير المتحيّزة» لعملية «السلام» في الشرق الأوسط. وقد علم كل فلسطيني أن أربعة من أعضاء هذا الفريق الأميركي كانوا يهوداً. ولم تناقش الصحافة الغربية علنياً الخلفية «الإثنية» لأعضاء الفريق الأميركي. ولا يجدر أيضاً من حيث المبدأ مناقشة ذلك. فموظّفو وزارة الخارجية الأميركية أو مَن يُعيّنون في هذا المنصب ـ هم ككل المواطنين في دولة ديمقراطية ـ يشغلون وظائفهم بصرف النظر عن أصلهم «الإثني» أو العرقي. ولكن دنيس روس المفاوض الأول، كان رئيساً لأقوى جماعة تسعى لدعم إسرائيل من حيث النفوذ؛ وهي المسمّاة «اللجنة الأميركية ـ الإسرائيلية للشؤون العامة (AIPAC). ونادراً ما جرى ذكر ذلك في الصحافة الأميركية؛ لكنّه كان طبعاً أمراً ذا أهمّية حيوية. ولو كان المفاوض الأول رئيساً سابقاً لجماعة مناصرة للعرب، لأظهرت إسرائيل رأيها فيه فوراً. ولو كان المفاوضون الأربعة الرئيسيون كلّهم مسلمين، لنوقش هذا الأمر بكل تأكيد في الصحافة العالمية. أما في الصحافة الإسرائيلية، فكانت عضوية الفريق الأميركي موضوع تَعليق. وعندما جاء وفد روس إلى القدس، سمّته جريدة «معاريف» الإسرائيلية: «بعثة اليهود الأربعة»، وتكلّمت عن الروابط الإسرائيلية لأولئك الرجال. ولاحظ الصحافيون الإسرائيليون أن أحدهم كان له ابن يتلقّى تدريباً عسكرياً في

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إسرائيل. وكان الكاتب والناشط الاسرائيلي «ميرون بنفنيستي» هو الذي أبرز ذلك في «هآرتس»، إذ كتب يقول:

«قد يكون الأصل الإثني للدبلوماسيين الأميركيين الموفدين إلى الشرق الأوسط لتعزيز السلام غير ذي بال. ولكن من الصعب تجاهل الواقع الذي أوكلت فيه الولايات المتحدة الأميركية تحريك «عملية السلام» بالدرجة الأولى إلى يهود أميركيين، وأن واحداً منهم على الأقلّ في فريق وزارة الخارجية الأميركية اختير لهذه المهمّة لأنه يمثّل نظرة المؤسّسة اليهودية في أميركا. إن التأثير الهائل للمؤسّسة اليهودية على إدارة كلنتون ظهر بأجلى معانيه في معاودة تعريف «الأراضي المحتلّة» على أنها «أراضٍ مُتنازع عليها». ومن المفهوم أن يغضب الفلسطينيون. ولئلا يُتَّهم الفلسطينيون بأنهم معادون للساميّة، فهم ـ لا سمح الله ـ لا يستطيعون أن يتكلّموا عن روابط كلينتون باليهود...»

كما لم نتجرّأ كصحافيين أن نثير هذه القضية. فلو فعلنا ذلك للاحقتنا تهمة المعاداة للساميّة، والعنصرية والتحيّز. وكان من المقبول لدى الداعمين لإسرائيل إثارة قضايا العائلة أو الأصل الإثني، إذا انتقد الآخرون أفعالها. وعندما طلب الأمين العام للأمم المتحدة بطرس بطرس غالي من مستشاره العسكري اللواء الهولندي فرانكلين فان كايين، أن يقوم باستقصاء حول المجزرة الإسرائيلية التي قضت على ١٠٦ لاجئين لبنانيين في قاعدة الأمم المتحدة في «قانا» بجنوب لبنان عام ١٩٩٦، انتقدت جريدة موالية لإسرائيل هذا القرار وأدانته على أساس أن «فان كايين» هو من بلد سلّم اليهود إلى النازيين في الحرب العالمية الثانية. ولكن عندما عُيّن رئيس لجنة «إيباك» (AIPAC) اليهودية في أميركا كمفاوض أول في قضية السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين، لم تجرِ مساءلة حول ذلك. أشكر الله لقيام الصحافة الإسرائيلية بذلك؛ كما ألاحظ غالباً.

وكلّما مضت عدة أشهر في الشرق الأوسط يدقّ ناقوس «تشمبرلن»، معلناً «السلام في زماننا»، فينبري العرب والإسرائيليون إلى التعبير عن تأييدهم له،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

حتى لا يُلاموا على خيبته. وما إن تسلّم إيهود باراك رئاسة الحكومة باسم حزب العمل عام ١٩٩٩، حتى قام موظفو التلفزيون الفضائي من صبيان وبنات ـ بالإضافة إلى هيئة الإذاعة البريطانية السادرة ـ فوضعوا من جديد «عملية السلام» على الخط، مع أن باراك صرّح بكل وضوح أن القدس ستبقى العاصمة الموحّدة لإسرائيل، وأن المستوطنات اليهودية الكبرى ستبقى، وأنه لن يسمح للاجئين الفلسطينيين المهاجرين منذ عام ١٩٤٨ أن يعودوا إلى قراهم العربية الأصلية.

أراد باراك أن يعقد محادثات مع السوريين، فعادت بسرعة عادات المفاوضات القديمة الرتيبة إلى سابق عهدها. وكان السوريون لا يزالون يطالبون بكل الجولان. ولكن لماذا لا يقبل السوريون بجزء من الجولان؟ أو الجولان مع مستوطنات؟ أو جزء من الجولان مع عدد مجهول من الجنود الإسرائيليين لإقامة محطات الإنذار المبكّر؟ مع التذكير بأن سوريا هدّدت إسرائيل من الجولان قبل حرب ١٩٦٧(*). ولكن الأسد اعتبر باراك رجلاً شريفاً وقوياً، لأنه لم يرغب في أن يُلام كذلك بشأن خيبات جديدة. وعندما سافر كلينتون لمقابلة الأسد أثناء وجود حزب العمل الإسرائيلي في الحكم، كانت سوريا تُعتبر آنذاك البلد الذي «يرفض السلام» ويعرقله، ولاسيّما من قِبل مراسل محطة السي إن إن. لكن الواقع لم يتغيّر. فقد أرادت إسرائيل إقامة علاقات دبلوماسية وصلات اقتصادية مع دمشق قبل مناقشة المقدار المرتجع من الجولان إلى سوريا. ولكن الأسد لم يكن يرى في ذلك «فرصة ذهبية» لإقامة السلام، كما كان يعبّر كلنتون عن ذلك؛ ولا سيّما بعدما رأى ما كان من أمر عرفات بهذا الصدد ـ إذ تلوّى في طريق كثيرة الاعوجاج، فاعترف بإسرائيل، وساوم على

(*) وقد أحاق الشكّ بهذا «التهديد» المزعوم، عندما كشف «رامي تال»، أحد المراسلين الإسرائيليين لجريدة «يديعوت أحرونوت» عام ١٩٩٧، أن «موشى دايان»، وزير الدفاع الذي احتلّ الجولان عام ١٩٦٧، أخبره في سلسلة من المقابلات قبل وفاته أن العديد من عمليات إطلاق النار بين الإسرائيليين والسوريين في الجولان، كانت أعمالاً استفزازية مقصودة من قِبل إسرائيل، وأن سكان «الكيبوتز» الذين ضغطوا على الحكومة لأخذ الجولان كانوا طامعين بالأراضي الزراعية، لا بتحقيق الأمن.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إقامة الدولة الفلسطينية، وصارت إسرائيل حاكمة على مستقبل فلسطين. وكان ذلك المشهد هو السيناريو العادي ـ فلو قبلت سوريا بالصيغة الإسرائيلية من السلام لغمرتها ظروف لا تستطيع أن تتحمّلها. أما الرفض، فيبقيها في خانة الملامة لمعارضتها السلام، ويجعلها عدوّة للسلام، وإذاً عدوّة الولايات المتحدة الأميركية.

وهكذا، لم يكن ممكناً أبداً تحويل يقطينة «اتفاق أوسلو» إلى مركبة ذهبية للسلام. ولكن لم يُثبت ذلك إلّا انهيارُ محادثات «عرفات ـ باراك» في «كمب دايفيد» عام ٢٠٠٠. وحتى في ذلك الوقت، كان منطق كلينتون قد آل إلى الادّعاء بأن مفاوضات أوسلو «مبنيّة» على قراري مجلس الأمن في الأمم المتحدة ٢٤٢ و٣٣٨ ـ اللذين لم يُراعيا أبداً في اتفاقيات أوسلو ـ ولا بدّ أن يكون عرفات نفسه قد أدرك أن النهاية جاءت عندما تقدّمت مادلين أولبرايت بعرضها السخيف بشأن «السيادة» على المواقع الدينية الإسلامية في القدس. فلن تكون هناك «سيادة كاملة» لعرفات إلّا على تلك الحفنة من القرى البسيطة حول العاصمة التي يتمنّاها، بحسب منطق الأميركيين. ثم جاءت التسريبات التي تقصد الغشّ والخداع، بشأن أن عرفات رفض ٩٥ في المئة من «فلسطين» وفي الواقع حوالى ٦٤ في المئة من مقدار ٢٢ في المئة الباقي من «فلسطين». إن باراك لن يتخلّى عن القدس، أو المستوطنات. وهكذا اعترف أبناء إبراهيم بما كان يعرفه كثيرون من الإسرائيليين والفلسطينيين: أن أوسلو مسألة خائبة. وقد رأى كلينتون في تنبّؤاته أن من المناسب مدح الطرف الأقوى من الطرفين، فتكلم إذ ذاك عن «شجاعة ورؤية» باراك، لكنه لم يذكر سوى التزام عرفات. وهذا ما كان من أمر أميركا ودورها «كسمسار شريف» في سلام الشرق الأوسط. ولم تحظَ القيادة الفلسطينية ـ الفاسدة؛ وغير المنتجة وغير الديمقراطية ـ سوى بسيادة افتراضية من أجل تحقيق سلام افتراضي. ولذلك آثرت الخيبة على مزيد من الإذلال.

وعاد عرفات إلى غزّة حيث استُقبل كبطل؛ ففي هذه المرّة فقط، لم يقدّم مزيداً من التنازلات. لقد وقف في وجه أميركا وإسرائيل على السواء. لقد كان

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

«صلاح الدين، صلاح العصر»، ويا له من صلاح الدين في هذه القصّة المحزنة! فصلاح الدين هذا لن يمشي في القدس بحصانه، إذ إن المدينة ستصبح مشهداً للمذابح المتكرّرة بين اليهود والعرب المسلمين الذين سيهاجمون بعضهم بعضاً في الأشهر القادمة. وفي أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠٠، نظّم أريل شارون مسيرة إلى الأماكن المقدّسة الإسلامية ـ الواقعة فوق مرتفع الكنيس اليهودي ـ يرافقه حوالى ألف شرطي إسرائيلي. وخلال ٢٤ ساعة، فتح القنّاصون الإسرائيليون النار برشّاشاتهم على المتظاهرين الفلسطينيين الذين يتخاصمون مع الشرطة أمام باحة قُبّة الصخرة التي يرجع تاريخها إلى القرن السابع. فقُتل على الأقلّ أربعة أشخاص، وأكّد فيما بعد رئيس الشرطة الإسرائيلية «يهودا ويلْك» أن القنّاصين أطلقوا النار على الحشد عندما «شعر الإسرائيليون بأن الفلسطينيين يهدّدون حياة الضبّاط»! فجُرح ٦٦ فلسطينياً، برصاص مكسوّ بالمطاط بالنسبة إلى معظمهم. وقد جاء هذا القتل بعدما مرت عشرة أعوام تقريباً على قتل الشرطة الإسرائيلية المسلّحة ١٩ فلسطينياً من المتظاهرين، وجرح ١٤٠ آخرين، في حادث مفتعل مشابه حصل في المكان نفسه، تلك المذبحة التي جعلت الولايات المتحدة الأميركية تخسر دعم العرب في التمهيد السابق لحرب الخليج عام ١٩٩١.

أما شارون، فلم يعذِّبه ضميره. وقد أخبر محطة السي إن إن «أن دولة إسرائيل لن تقبل بأن لا يستطيع مواطن إسرائيلي زيارة جزء من بلده، ناهيك بزيارة أكثر الأماكن قدسية بالنسبة إلى سائر اليهود في العالم». لكنه لم يشرح لماذا اختار هذا التوقيت بالذات ـ بعد انهيار «عملية السلام» ـ ليأخذ على عاتقه القيام بهذا الفعل الاستفزازي. وعلى الأثر، انتشر الرشق بالحجارة وإطلاق النار في الضفّة الغربية. فقرب «قلقيليا» أطلق شرطي فلسطيني النار على جندي إسرائيلي وجرح آخر ـ والظاهر أنهم كانوا جميعهم أعضاء في دورية مشتركة إسرائيلية ـ فلسطينية، نظمت أصلاً بموجب اتفاق أوسلو. وعقّب على ذلك شارون نفسه بادّعائه: «أن كل شيء كان مدبّراً؛ فقد استغلّوا زيارتي إلى مرتفع الكنيس. ولم تكن تلك المرّة الأولى التي جئت بها إلى هناك...».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كان هناك مستوطن إسرائيلي من «إيرفات» يصرخ شاكياً من سوء معاملته أمام مجموعة من الجنود الإسرائيليين، خارج القدس. فسيّارته رُجمت بالحجارة من قِبل أولاد فلسطينيين على تلّة قريبة. وهو يطلب تدخّلاً عسكرياً حالاً. وما لبث أن التفت نحوي وقال: «هل أنت أحد الصحافيين الذين يكذبون مثل محطة السي إن إن؟ أنتم عليكم أن تكتبوا أن الحجر هو مثل سلاح قاتل، مثل الرصاصة. فالذي يرمي حجراً على باص يحاول أن يقتل خمسين شخصاً». وهكذا، نتعلّم من هذا الانفجار الغضبي أن الأولاد الموجودين على التلّة وراء «بيت جالا» انقلبوا إلى قتلة بالجملة، مسلّحين دون أسلحة، يستحقّون الغضب التوراتي المتمثّل بعبارة «مثل سلاح قاتل». وبات من الواضح أن الفلسطينيين ليسوا وحدهم الذين آمنوا «بأيام الغضب الهائج». فقد كان الغضب محسوساً كذلك لدى الإسرائيليين في شهر تشرين الأول/أكتوبر هذا من عام ٢٠٠٠، حتى لو كان «الإحساس بالنسبة - أو بعدم وجودها - أمراً مقلقاً جدّاً. إن وصم الفلسطينيين بالوحشية - والخوف منهم - كشف عن عجز الإسرائيليين عن استيعاب الحقيقة، تكراراً وتكراراً: فقد تظنّ أن إسرائيل واقعة تحت الاحتلال الفلسطيني، وأن النار تُطلق على الإسرائيليين بالعشرات من قِبل «رجال الأمن» الفلسطينيين، وأن دبّابات الفلسطينيين ومروحيّاتهم تُفجّر البلدات الإسرائيلية، حتى أن ياسر عرفات انتهز فرصة أخذها من وقت النشاط الدبلوماسي؛ كما صرّح باراك علناً عن رغبته في أن يفعل ذلك.

وما كان يحصل الآن في الأراضي المحتلّة عبارة عن شكل من أشكال الحرب الخفيفة الضراوة، الذي يتّخذ صيغة صراع مسلّح بين شعبين، أسبوعاً بعد أسبوع. فالفلسطينيون الآن يعتقدون أنهم لم يعد لديهم شيء يخسرونه إذا حاربوا الإسرائيليين. فهم مسجونون في قراهم المستقلّة، ضمن مجتمع كامل موقوف في بلداته. ولم يعد لديهم شيء يربحونه بصمتهم أو مطاوعتهم. وقد عبّرت سيدة فلسطينية شابّة تعمل مع قوى الأمن العرفاتية، بالشرح البريء التالي: «على عرفات أن يستمرّ في قتاله - ولا يجب أن يتراجع الآن. فالانتفاضة ستجبر الإسرائيليين على معرفة أن اتفاق أوسلو مات، وأنه لا بديل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

من الانسحاب الكامل من الضفّة الغربية وغزّة وشرقيّ القدس، لإحلال السلام». وعندما ألمحتُ أمامها أن عرفات لا يقوم بالقتال ـ إذ إن الفلسطينيين وعناصر مختلف المنظمات الفلسطينية المعارضة لاتفاق أوسلو، هم الذين يقدّمون «الضحايا» لفلسطين ـ غيّرت حجّتها قائلة: «يجب أن تتأكّد من أن الشعب ومنظمة التحرير الفلسطينية متّحدان معاً، عندما يبدأ القتال الحقيقي».

«القتال الحقيقي؟» ماذا يعني القتال الحقيقي؟ ـ منذ عشر سنوات ـ عندما كان شارون وزيراً للدفاع ولحقه عار «صبرا وشاتيلا»، قال: إن الدبّابات الإسرائيلية قد يلزمها يوماً ما أن تقصف نابلس ورام الله. كم قهقهنا لدى سماعنا هذا القول إذ ذاك. ولكننا اليوم، بعد عقد من الزمان، وشارون على أُهبة العودة إلى الحكومة الإسرائيلية، صارت تلك الدبّابات تقصف فعلاً البلدات الفلسطينية. فقد قصفت الدبّابات داخل رام الله، والمروحيّات أطلقت صواريخها على البلدات الفلسطينية في أغلب الأحيان، حتى صارت أخبارها لا تحتل مركز العناوين الكبرى. كما أني لم أجد أحداً في تلك البلدات وفي شوارع غزّة النتنة، يريد أن تصل الانتفاضة الجديدة إلى نهايتها. كما لم أعثر على عائلة فلسطينية لا تشاهد محطة «المنار»، محطة حزب الله الفضائية التلفزيونية، التي تبثّ من بيروت، وتبعث رسالة مستمرّة إلى الأراضي المحتلّة مفادها: أن إسرائيل طُردت من أرض محتلّة لأن أهلها قاتلوا من أجل تحريرها، وآمنوا بالله، ولم يخافوا من الموت. وها هو لبنان حرّ الآن. ولماذا لا يحصل الأمر نفسه في الضفّة الغربية وغزّة والقدس؟

لقد كانت تلك رسالة قويّة وخطرة تُرسل إلى الفلسطينيين. وذلك لأن غزّة غير جنوب لبنان، ورام الّله وبيت جالا ليستا صور وصيدا، والقدس ليست بيروت. ولكن تبيّن أن «أوسلو» كانت خيانة كبرى للفلسطينيين، إذ إن ثقتهم بالإسرائيليين قلبتها إسرائيل وشوّهتها، واستمرّت في بناء المستوطنات، ومصادرة الأراضي، ورفض إقامة عاصمة للفلسطينيين في جزء من القدس، بحيث لم يعد المسعى السياسي مُجدياً من أجل التقدّم. فإسرائيل مستمرّة في انتهاج سياستها المفلسة القائمة على ضرب العرب ليخضعوا ـ وهي السياسة التي أهلكت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إسرائيل في لبنان ـ والردّ على الحجارة بالرصاص، وعلى الرصاص بالصواريخ. ولكن فلسطينيي غزّة في أكواخهم يستطيعون أن يستوعبوا هذا القصاص. لقد عرفوا أنه إذا أراد الإسرائيليون غزو كل الأرض الفلسطينية ـ وهي الفكرة التي راودت المستوطنين الأقلّ توازناً، والتي عاد شارون فتبنّاها ـ فسيجابهون حرباً دائمة أبدية.

كما لم يكن هناك شكّ في استمرار التهديد الرهيب الذي يمثّله الجهاد الإسلامي باستئناف حقيقي لحرب القنابل الانتحارية.

فإذا خاب «نبيل عرير» في قتل أي إسرائيلي على درّاجته المجهّزة بالقنابل في غزّة، فهناك كثيرون مستعدّون لأن يحلّوا محلّه. لقد صارت حافلات إسرائيل تسافر برُبع ركّابها. والانتحاريون يضربون ـ حتى قبل أن يجهّزون قنابلهم. و«حماس» تسيطر الآن على غزّة. وغنيّ عن البيان أن علاقات إسرائيل السابقة مع حماس لم يعد لها ذكر في التقارير الإخبارية التي تصدر عن القدس الإسرائيلية.

إذاً، هل «سيطر عرفات على شعبه؟» ـ هذه العبارة الإسرائيلية التي تتناقلها بأمانة محطة السي إن إن وهيئة الإذاعة البريطانية. لقد أصبح هذا السؤال غير ذي موضوع، لأن الفلسطينيين هم الذين يسيطرون الآن على عرفات. إن يأسهم يصوّر اقتناعه هو بأن اتفاق أوسلو قضى نحبه. وإن هياجهم الغاضب إزاء قتل الإسرائيليين للعديد من الفلسطينيين يتلاءم مع غضب عرفات إزاء الأميركيين والإسرائيليين على السواء. إن تفجّرهم السياسي حصل ـ وصار أمراً واقعاً ـ ولا يستطيع عرفات إلّا أن يعترف من خلال تكراره أساس المحادثات التي بدأت في مدريد: «إن السلام العادل الوحيد يكمن في التنفيذ المباشر والكلّي لقرار مجلس الأمن في الأمم المتحدة ذي الرقم ٢٤٢»؛ كما قال أيضاً في نهاية عام ٢٠٠٠. وكان ردّ فعل عرفات على نداء باراك لإقامة «فصل سياسي» بين الفلسطينيين والإسرائيليين أنه يحبّذ «فصلاً سياسياً قائماً على حدود ١٩٦٧ والقرارات الدولية. . . مما يؤدّي إلى إقامة دولة فلسطينية».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ولا بدّ من التساؤل: «ماذا كان ردّ فعل الإسرائيليين بعد مرور شهر على الانتفاضة الجديدة؟ قال صاحب رسالة وصلت إلى «الجيروزالم پوست»: «الفلسطينيون عُنصريّون». تلك الجريدة التي نشرت مقالاً رئيسياً عن «الأولاد الضحايا» تحت عنوان بارز: «التضحية بالأولاد هي وثنية الفلسطينيين. أجل، إن الفلسطينيين وثنيّون، عُنصريون، يضحّون بالأولاد، «إرهابيون»، حيوانات، «أفاعٍ»؛ كما جاء في أقوال باراك عام ٢٠٠٠. ولكنّ المأساة ـ بالنسبة إلى الفلسطينيين والإسرائيليين على السواء ـ هي أنه من المرجّح أن يستمرّوا في التقاتل، حتى لو سلّحت أميركا الإسرائيليين، وأغدقت عليهم دعمها.

بالنسبة إلى الفلسطينيين لا يمثّل هذا الواقع نقطة تُدوَّن في السجلّ السياسي. فبعد حلول الظلام بتاريخ ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠٠، سقط صاروخان على الأقلّ في زاوية بيت عائلة «كسيّة» في «بيت جالا». فتح الانفجار الأول فجوة في الحائط، بينما نفذ الصاروخ الثاني من تلك الفجوة وخرق أرض الممشى لينفجر في مطبخ الجيران. وقد أطلقتهما مروحية إسرائيلية، بحيث ظهر الإثبات واضحاً ليراه الجميع. وكان أحد الصاروخين من نوع «هيلفاير» مصنوع في شركة «لوكهيد مارتن». أما الثاني فكان قذيفة أكثر حداثة تحمل الرقم ٩٣٨٣٥ ـ س ـ ٤٢٨٦، ومصنوعة في حزيران/يونيو من عام ١٩٨٨. ولم يكن عسيراً، بالنظر إلى مؤشّرات الصنع المعدنية على الصواريخ، أن نرى سكّان «بيت جالا» غير حزينين على موت بحّارة سفينة «كول» الأميركية التي هاجمها فدائيون انتحاريون من «القاعدة» في عدن، منذ أسبوعين.

ومع أن القرويين هنا ـ و٦٠ في المئة منهم مسيحيون ـ ليسوا انتقاميين، وأن الفلسطينيين المسلّحين الذين يطلقون النار عبر الوادي على مستوطنة «جيلو» ليسوا من «بيت جالا»، فإن هذه القرية الصغيرة، بما فيها من كنائس أرثوذكسية مبنية بالحجر المشغول، وتصاوير جصّية للقديس جورج (الخضر) والتنّين، والقطط الكبيرة الكثيفة الوبر، لم تكن ساحة حرب تماماً؛ ولكنها الآن واقفة

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

على خط الجبهة في الضفّة الغربية، تتلقّى عقوبات إسرائيل بسبب الرصاصات التي تصفع نوافذ المستوطنين اليهود عبر الوادي. ومنذ أسبوع، أطلق مسلّحون ـ من وحدة ميليشيا «التنظيم» على الأرجح ـ النار على الإسرائيليين. فكان الردّ من دبّابة «مِركافا» ـ التي أستطيع أن أراها راقدة تحت قماش مشمّع على جانب التلّة المقابلة ـ إطلاق ثلاث قذائف على أحد الشوارع الضيّقة في «بيت جالا». فانفجرت إحداها في مرآب «مارغو زيدان» ودمّرت سيارة «فولكسفاغن غولف» جديدة تماماً، وسحقت المدخل الحجري القديم فوقه. والحرب مع مساعدة الربّ تستبعدان دفع تعويضات التأمين. وفتحت قذيفة أخرى فجوة في الطابق الثاني من منزل «جميل سلط» في أسفل المنحدر.

وصارت «المؤامرة» ـ وهي العنصر الجوهري في حماقة الشرق الأوسط ـ تشمل هذه القرية السياحية الجميلة. وجاءت الرواية الفلسطينية المحلّية هكذا: أطلق بعض رجال «التنظيم» النار من بين البيوت؛ كما أرسلت إسرائيل أيضاً فلسطينيين مسلّحين متعاونين إلى داخل القرية ليطلقوا النار على المستوطنة، وليعطوا عذراً للإسرائيليين كي ينشروا أربع دبّابات «مركافا» على التلّة الأخرى.

أما الرواية الإسرائيلية «للمؤامرة» فكانت أكثر براعة: استفزّت السلطة الفلسطينية عن سابق تصوّر وتصميم الإسرائيليين ليطلقوا النار على البيوت المسيحية أملاً في توريط «الفاتيكان» بالوقوف إلى جانب الفلسطينيين في الانتفاضة الجديدة.

لكنّ الحقيقة كانت أبسط من ذلك. فمستوطنة «جيلو» ـ وهي الصيغة العبرية لجالا ـ تقع على مرتفعات فوق «بيت جالا»، على مرأى من القدس. واستهداف بيوتها من قِبل الفلسطينيين يبعث برسالة إلى الحكومة الإسرائيلية مُفادها: أن الاستيطان هو جزء من الحرب الجديدة، بما فيها المستوطنات التي تشكّل جزءاً من القدس «اليهودية». لكنّ القرويين المسيحيين والمسلمين على السواء، ادّعوا أن الهجوم الأخير ـ بالصاروخين على بيت «كسيّة» ـ حصل دون استفزاز، ولم يكن هناك أي إطلاق نار من تلك القرية قبل الهجوم. ولذلك لن يغامروا بعد اليوم. وقد كلّفوا ثلاثة عمّال كي يبنوا ساتراً من أحجار الإسمنت

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حول صندوق توزيع الخطوط التلفونية عند أحد أطراف «بيت جالا». وعلى عمود التلغراف قربه، ألصقت صورة تلميذ مدرسة يبلغ من العمر ١٣ عاماً، اسمه «مراياد جَوارِش»؛ مات قبل أسبوع، عندما كان عائداً من المدرسة إلى بيته في مخيّم اللاجئين المجاور. كان يبتسم عاقداً ربطة عنقه في الصورة. ذلك «الشهيد» الصغير السنّ بين شهداء القضية الفلسطينية، الذي قُتل برصاص أُطلق عليه من مصدر مجهول.

فرقعت «غدير» ابنة «مارغو زيدان» بلسانها، وهي تنظر إلى صورة ذلك الشهيد، قائلة: «أنتم تحمون الإسرائيليين، وتلوموننا من أجل هذا الأمر. كما تقولون إننا مسؤولون عن قتل أولادنا. ولكن ذلك غير صحيح. نحن شعب واحد هنا. وليس هناك فرق بين المسيحيين والمسلمين». وهذه الألفة حقيقية بكل تأكيد. فعندما انتقلنا من بيت إلى آخر في «بيت جالا» أخذتني العائلات المسيحية إلى بيوت مسلمين، كما أن الأولاد المسلمين ذهبوا إلى بيوت أصدقائهم المسيحيين ـ تلقائياً، دون أي ترتيب مسبَّق، أو تعارف. «ولكن هل كان القرويون يدعمون الفلسطينيين الذين يطلقون النار على «جيلو»؟ كانوا يهزّون أكتافهم عند ردّهم على سؤالي هذا، ويقول أحدهم: «أولئك الرجال لديهم أسلحة صغيرة سخيفة؛ وهم يطلقون النار من بين البيوت. فماذا نستطيع أن نفعل؟ ولكن كيف نوقف الإسرائيليين؟ إنهم يعلمون جيّداً بأننا لا نطلق النار عليهم».

الرتابة. لقد أصبح العصيان المسلّح عملاً عادياً رتيباً. وصار العنف عادياً حتى لينفجر فجأة في رتابة جديدة أكثر سفكاً للدماء، لا تُقلَب ولا تُعكس. لقد أمست «رام الّله» ما كان يحبّ الصحافيون أن يسمّوه «مصادمات» أو «اصطدامات». والمصادمات هي، كما ترى، فعل يمكن أن يموت فيه فلسطينيون دون أن يكون أحد مسؤولاً عن موتهم. كأن تقول: «قُتل ثلاثة فلسطينيين في مصادمات جرت البارحة». فربّما قُتلوا من قِبل جماعتهم أو ماتوا بسبب الإجهاد في المظاهرات. أمّا عندما يُقتل إسرائيليون فتمتدّ أصابع الاتّهام إلى المذنبين من الفلسطينيين في العادة. ولا يُتّهم الغير عندما يكون الضحايا من الفلسطينيين، وعلى ذلك، انطلقت بسيّارتي لمراقبة يوم من أيام المصادمات.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

«المُصادمة» (Clashes): كلمة تطرق السمع معدومة الشكل، بليدة، لا مبالية، وحيادية متأدّبة. ولكن كلا الطرفين: الإسرائيلي والفلسطيني يستخدمانها عندما يتكلّمان بالإنكليزية. و«نقطة المصادمة» كانت أيضاً عبارة عن قسم من الطريق تحت فندق «سيتي إن»، الذي احتلّ غرف المنامة فيه جنود إسرائيليون مزوّدون برشّاشات قنّاصة. وعبر الإنشاءات الموحلة الممتدّة شمالاً، هناك صفّ من بنايات الشقق التي لم تكتمل بعد، يحتلّ فيها الفلسطينيون غرف النوم، ومعهم رشّاشاتهم. وعلى الطريق الصاعدة نحو الشمس المائلة إلى الغروب موقع مصادمة اليوم.

ويسمّى هذا الموقع «تقاطع عيّوشة». وهو المكان ـ بالنسبة إلى الشخص المسلم المتديّن المؤمن بالاستشهاد ـ الذي تصعد فيه روح المستشهد إلى الجنّة، خلال جولات إطلاق النار الحيّة. أما بالنسبة إلى الإسرائيليين، فهم يطلقون العديد من الرصاصات المكسوّة بالمطاط ـ أو الرصاص الحيّ في بعض الجولات ـ على مَن يسنح لهم من الأولاد حاملي الحجارة. أما الرصاص الذي يُطلق عبر الوادي على الفلسطينيين المسلّحين، فلا يبدو أن له أثراً يُذكر. فالضحايا في العادة هم من راشقي الحجارة.

ولهذه المشاهد وقع خاص. فهناك صباحاً بضع إطارات مطّاط تُشعل لإغاظة الجنود الإسرائيليين القادمين في سيّارات «الجيب» المقعقعة. ثم تمرّ جنازتان أو ثلاث أو أربع جنازات لأولاد من راشقي الحجارة البارحة ـ فقد أصبح الموت هو القصاص المحتوم العادي الذي لا يُناقش الحساب لمن يرمي الحجارة على الإسرائيليين ـ ثم تحصل مُصادمة أخرى عند تقاطع «عيّوشة». وكانت إطارات المطّاط لا تزال تشتعل عندما شيَّعوا جثمان «حسام سالم» إلى المقبرة قرب بيته، في موكب جنائزي، مشت فيه نساء متّشحات بالسواد، ورجال وقورون يلبسون نظّارات، وسيّارات اختلطت مع قافلة من الشاحنات. وكانوا يحملون التابوت الخشبي المعهود، مع جماعة تهتف: «الله أكبر»، ووراءهم شاحنة تجارية للعصير، ثم جماعة من النساء يحملن لافتات خضراء كُتب عليها: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». وبالطبع، كان كل واحد من

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

هؤلاء الناس يتذكّر الشاب العازب البالغ من العمر ٢٤ سنة، الذي كان يشتغل في دكّان البقالة عند أبيه، ذلك الشاب الذي تلقّى رصاصة في وجهه، منذ حوالى ١٨ ساعة ـ في تقاطع «عيوشة» طبعاً.

قال لي أحد أصدقاء عائلته: «لقد كان متديّناً، وذا لحية كبيرة عندما مات؛ وكان مع «حماس». بقي مؤيّداً لحماس فترة طويلة، ثم صار «ناشطاً» منذ ثلاثة أشهر؛ وكانت كل عائلته مع حماس. وعندما بدأت انتفاضة القدس منذ ثلاثة أسابيع، توقّع إخوته كلّهم أن يصبح شهيداً: كما أكّد هو ذلك. والبارحة، ودّع أمه، وسار إلى عيّوشة، حيث وقعت مصادمة». لقد كان ناشطاً. ولكن هل كان يحمل سلاحاً؟ لا نعرف. ولكنه كان يرشق بالحجارة، وتُظهر صورته الكبيرة المروّعة بعد الوفاة ـ التي أُخذت له في المشرحة ـ تهشّماً تحت أنفه، بينما تكسو اللحية معظم وجهه. سألت رجلاً في أواسط العمر، ذا شاربين أغبرين، ويضع نظّارة مؤطّرة: «هل ذهب إلى الجنة؟»، فقال: «إذا كنتَ مؤمناً تذهب إلى الجنّة. وأعتقد أنه ذهب إلى هناك، إن شاء الله».

تفرّق المعزّون من المسجد الصغير، حيث كانت مجموعة من البنايات الباقية منذ القرن التاسع عشر والمبنية بالحجر الأغبر الشاحب، تتحدّث عن «رام الله» السابقة اللطيفة التي كانت أيام العثمانيين. ولم تمضِ ساعة حتى وصل مرشّحون آخرون ليأخذوا مكان الشهيد «حسام سالم» عند «نقطة المصادمة». كان هناك ما لا يقلّ عن ٤٠٠ شاب يرمون ويرجمون بالحجارة عند أسفل الطريق. ـ فلننسَ الآن الصيغة المبتذلة المعهودة بشأن «رمي الصخور»، فقد كانت هذه حجارة بحجم حجارة الحدائق، بقياس عرض يبلغ ٥ إنشات ـ وكان الجنود الإسرائيليون مختبئين وراء سيّارات الجيب المصفّحة، يطلقون القنابل المسيلة للدموع على الفلسطينيين، بطريقة بطيئة كسولة تقريباً.

وكان أحد الإسرائيليين يجلس في مؤخّرة سيّارته على بُعد ثلاثة أمتار مني، يحتسي بعض «البيبسي كولا» الباردة. وبعد قليل، سحب نفسه من السيّارة، وثبّت قنبلة يدوية في رشّاشه وأطلقها في الهواء فوق سيّارته «الجيب»؛ فارتفعت متألّقة لتسقط على بعد ٤٠٠ متر مع ذيل من الدخان الأبيض، وتنفجر وسط

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الحشد. ثم عمد زميله، باللامبالاة نفسها، إلى إسناد رشّاشه فوق باب السيّارة، وإطلاق رصاصة مكسوّة بالمطّاط راحت تطفر على طول الطريق النازلة. كان الإسرائيليون عند المنطقة (أ)، بحسب اتفاق أوسلو (أي منطقة الاحتلال الإسرائيلي (الكامل)، وكان الفلسطينيون عند حدّ المنطقة (ج) (حيث السيطرة الفلسطينية) من الضفّة الغربية. وكانت المسرحية التي تُمثّل هناك تظهر كم كان اتفاق «أوسلو» مخبولاً. فلو غادر الإسرائيليون لتوقّف الفلسطينيون عن رمي الحجارة. ولو غادر الفلسطينيون لانصرف الإسرائيليون. ولكنّ كل طرف كان هناك، لأن الطرف الآخر موجود ـ ولأنه كان من الواجب حماية المنطقة (أ) والمنطقة (ج).

وكانت عُلب الخرطوش المكسوّ بالمطّاط تُرمى كل عدّة ثوان عند قدميّ. ثم تنفجر قنبلة من نوع «كوكتيل مولوتوف» عند أحد أعمدة التلغراف دون إحداث أضرار تُذكر، وتطقطق على الطريق رشقة الحجارة. وعند منتصف بعد الظهر، جاءت سيّارة إسعاف سريعة إلى عرض الطريق لتنتشل أحد المصابين من راشقي الحجارة. وهكذا دواليك، بمزيد من «المصادمات» التي يندبها كلينتون أمام الميكروفون في واشنطن. أما أنا فقد صُعقتُ وأنا أسمع كلماته على الراديو من رام الله، وما فيها من خواء ـ وعدم ملاءمتها؛ وكأنها قادمة من كوكب آخر ـ كان يريد أن يتصل الشباب من أحد الطرفين بالشباب من الطرف الآخر ـ وكأن هذه «المصادمات» تحصل في فراغ، خلافاً لإرادة الآلاف من الفلسطينيين والإسرائيليين. فقد كانت المشكلة بحسب رأيه، تنحصر بالشباب: أي بالجندي المحتسي «الكولا»، والشاب الذي رمى قنبلة «المولوتوف»، و«حسام سالم»، فهؤلاء هم الشباب. فسالم لم يرغب في الانضمام إلى اجتماع الشباب السعيد؛ بل أراد أن يذهب إلى الجنّة. وكان الإسرائيليون مستعدّين لإرساله إلى هناك. فكتبتُ إذ ذاك لنستمرّ في تسمية ما يحدث «مصادمات»، أو لعب أولاد، أو عنفاً عادياً، ننسحب منه كلّنا، ونركب قطار «أوسلو»، حالما يوضع اتفاق «أوسلو» من جديد على خط سكّة اللعبة الطفولية الصغيرة. أو يمكنك من هناك أن تُسرع ـ إذا كنتَ مؤمناً بذلك ـ في الوصول مباشرة إلى السماء، إلى الجنّة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كانت هناك مأساة في كل قرية. ذهبت بسيّارتي إلى «ياباد»؛ ومن في حياته سمع بـ «ياباد»؟ لم أستطع أن أجدها على الخريطة. إنها قرية صغيرة تقع جنوبي غريب جنين. ولكن من اليسير أن نكتب القصّة المتعلّقة بها. فقد كان هناك شخصان، تربّيا معاً، ودرسا معاً في المدرسة ذاتها، وناما في الغرفة نفسها، وصارا شريكين في المطعم ذاته في القرية. وبتاريخ ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠٠، قُتلا معاً على يد الإسرائيليين؛ وفي اليوم التالي قُبرا في المقبرة الصغيرة الواقعة على تلّة فوق «ياباد»، في مهبّ الريح. لقد قُبر «بلال» و«هلال» صلاح معاً.

وبحسب رواية عائلتهما أُصيب هذان الأخوان برصاص من عيار ٥٠ ملم، بينما كانا يصرخان من سوء المعاملة أمام وحدة عسكرية إسرائيلية على الطريق تحت القرية. وقال شقيقهما الأكبر زُهَير: «إن دماغ بلال انفجر وتناثر على الأرض هنا، على حاجز من تراب النفايات أقيم على طريق المستوطنين اليهود. أخذنا بلال إلى المستشفى، وعندئذٍ فقط تفقّدنا هلال فلم نجده، فعدنا أدراجنا إلى المكان ذاته لنجده ملقى على بُعد عشرة أمتار ومصاباً برأسه أيضاً. لقد ماتا معاً». وقد أصرّ زهير على أن أخويه ـ بلال البالغ ٢١ سنة، وهلال البالغ ١٩ سنة ـ كانا يصرخان على الجنود الإسرائيليين الموجودين على الطريق تحتهما؛ ولكنّ أحد القرويين قال: إن الحجارة كانت تُرمى على الإسرائيليين من قِبل ١٧ شاباً كانوا واقفين على الحاجز. ومن المعلوم أن رمي الحجارة، كما يعلم كل فلسطيني، جريمة كبرى. وقد وُضعت كتل كبرى من الإسمنت حول بقع الدم التي سالت من المغدورين، في الموقع الذي ماتا فيه.

لقد كانت انتفاضة مصغَّرة، ومزيجاً طائشاً من الخوف الإسرائيلي المُسرف، والحزن اليائس. وعلى الطريق التحتانية، حذّرني جنود إسرائيليون ـ وربّما كانوا القتلة الذين فتكوا ببلال وهلال صلاح ـ من أن أزور القرية. وقال ضابطهم ببرود: «لن أذهب إلى تلك القرية، فهناك مأتم». ولكنّ المأتم كان قد حصل قبل ذلك بوقت طويل؛ وكلّ ما وجدته كان عبارة عن حلقة من الرجال في أواسط العمر، يبكون في غرفة ملأى بنسخ موطَّرة من القرآن الكريم، وبعض

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الزهور الحمراء البلاستيكية، ووالدة الأخوين القتيلين «سارة» جالسة على الأرض تبكي تحت حرام ورديّ رخيص. وكان هذان الشابان أول دفعة من «الشهداء» في «ياباد». وقال زهير: «إن الجنود الإسرائيليين يحمون خمس مستوطنات يهودية موجودة بالقرب من هنا، ونحن نتعرّض لإطلاق النار كل يوم، لكن الرصاص من عيار ٥٠ ملم ليس الذخيرة المستخدمة في العادة؛ لأنها تستطيع أن تخرق حجارة البناء. ونحن نضطرّ إلى إغلاق المدرسة عندما يخترق الرصاص جدرانها». كانت قصّة هذه العائلة دنيوية مثلما كانت مأساوية. كان لبلال وهلال صلاح أربعة إخوة وخمس أخوات؛ وكان زهير مثل والده المرحوم عاملاً كادحاً. وكان الأخوان القتيلان قد نصبا قبل وفاتهما بيومين اسماً جديداً لمطعمهما: «مطعم دوّار السير المزهر». وكانت عائلتهما قد طبعت مجموعة من البطاقات البريدية عليها صورة الشهيدين، وحول رأسيهما آيات من القرآن الكريم، وشعار السلطة الفلسطينية.

وعلى أسفل تلك الطريق المميتة، أشعل القرويون إطارات المطّاط احتجاجاً على القتل الذي جرى؛ وتهادى الدخان الأسود في أواخر النهار فوق حقول الرجم بالحجارة، تاركاً على زفت الطريق لفائف أسلاك محروقة. وتحلّقت حول «ياباد» مظاهر المعارضة المخزنة لاحتلال إسرائيل المستمرّ. وعلى مرتفعات التلال حول القرية كانت السطوح الحمراء للمستوطنات اليهودية تتلألأ تحت شمس الزوال؛ وعلى طرقات تلك المستوطنات تخبّ قوافلهم محروسة بقوّة الجيش. فهل يدري هؤلاء السكّان المتطفّلون أن «بلال وهلال صلاح» قد وريا في الثرى، على مقربة منهم؟

ولمّا كان الإسرائيليون أكثر تبصّراً ذاتياً حول تاريخهم من الفلسطينيين، كان من الأيسر عليهم أن ينتقدوا أنفسهم انتقاداً ذاتياً. وهذا الأمر من ترف المنتصر، المحتلّ، السيّد. وعلى منتصف الطريق المؤدّية إلى القدس، وبينما كان باصنا الصغير يتسلّق التلّة صاعداً من السهول شرقي تلّ أبيب، بدأ «سيمون» يحدّثني عن خدمته أثناء الحرب في الجيش الإسرائيلي. والآن في عمر الثالثة والسبعين، انتهت حياته العسكرية. ولكنه قاتل في عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣،

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وانتهى بالنزول على الشاطىء شماليّ صيدا في لبنان عام ١٩٨٢، والتقدّم إلى بيروت. ومن باب الرأفة، لم يجرِ الحديث حول «الإرهابيين» بل حول السلام. وعندما سألت زوجته لماذا لا يكون للفلسطينيين عاصمة لدولتهم الجديدة في شرقيّ القدس ـ وهذا بعد ما لا يزيد عن أربعة أسابيع على موت اتفاق «أوسلو» ـ تساءلت عمّا إذا كانت هناك إسرائيل أخرى لم أكتشفها بعد.

كان باصنا يواجه المنعطفات الحادّة حول «هاريل»، حيث نرى بقايا القافلة اليهودية لعام ١٩٤٨ قرب الطريق؛ إذ تُركت هناك كنُصب تذكاري لنضال اليهود من أجل إبقاء طريق القدس مفتوحة، منذ أكثر من نصف قرن من الزمان. وإذ ذاك، أعلنت زوجة سيمون أن الأمور كلّها ساءت عام ١٩٦٧ بقولها: «تعوّدنا على الأرض التي أخذناها عندئذٍ، تعوّدنا على الاحتلال. وكان ذلك ممّا سهّل لنا غزو لبنان لنصير محتلّين. ما كان يجدر بنا احتلال أرض الغير». ثم سألتني بحدّة عن «محمّد الدرّة»، البالغ من العمر ١٢ سنة، والذي أطلق عليه النار الجنود الإسرائيليون بتاريخ ٣٠ أيلول/سبتمبر، وهو ينكمش مرتعداً بين ذراعي والده في غزّة. «ماذا كان يفعل إذ ذاك، لماذا كان على الشارع؟». والواقع هو أنه رافق أباه لشراء سيّارة، إذ إن أباه كان مُلزماً عند الساعة الثانية من كل صباح أن يمشي إلى حدود غزّة ليحصل على إذن بالعمل في إسرائيل ـ وكانا عائدين عندما دهمهما إطلاق النار(*). ولكني فهمت مغزى هذا السؤال فوراً:

(*) صار شريط «الفيديو» والصور التي التُقطت للصبيّ ابن الثانية عشرة من العمر، وهو يفارق الحياة بين ذراعي والده، صوراً رمزية للانتفاضة الثانية. وقد عمد الإسرائيليون بسرعة إلى محو كل آثار القتل، عن طريق هدم الجدار الذي اختبأ وراءه الرجل وابنه. وجرى استقصاء عسكري كي يحاول أن يثبت أن الفلسطينيين كانوا مسؤولين عن موتهما ـ واستطاعوا إقناع قناة (CBS) الأميركية أن تعرض النتائج المزيّفة التي توصّلوا إليها، في برنامجها المعروف «ستّون دقيقة». وفي هذا المقام أوضح «أوفير باينزباز» عضو الكنيست بشجاعة قائلاً: «يحصل المرء على انطباع مفاده أنه بدلاً من مواجهة الحادث بأمانة، اختار جيش الدفاع الإسرائيلي أن يعاود تمثيله من جديد وهمياً، ليتستّر عليه عن طريق استقصاء وضعت نتائجه مسبقاً، والقصد الوحيد منه هو تبرئة جيش الدفاع الإسرائيلي من قتل الدرّة». وتوصّل المراسلون الغربيون الذين استقصوا جريمة القتل إلى نتيجة تُظهر أن الإسرائيليين أطلقوا النار على الابن وعلى الأب الذي بقي على قيد الحياة؛ مع إمكان تعذّر رؤية الجنود الإسرائيليين المسؤولين عن عملية القتل للابن والأب وراء الجدار.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إذا لم يكن لدى «محمّد الدرّة» سبب وجيه ليكون في شوارع غزّة في ذلك الوقت ـ أي إذا كان مشاركاً في مظاهرة ـ فقد نال الصبي الصغير ما يستحقّه، ليصبح ضحيّة طفوليّة أُخرى من ضحايا «الوثنية الفلسطينية».

ويأتي هذا الانقطاع عن الواقع بأشكال مختلفة. فبعد أن نزلت في مطار بن غوريون في أواخر شهر تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠٠ طلبت مني موظفة الهجرة الإسرائيلية الشابّة بمرح أن أتذكّر أن إسرائيل «دولة صغيرة مهدّدة بشعب يأتي من الخارج ليستولي عليها». فأوضحت لها أن الفلسطينيين عاشوا لأجيال خلت في «فلسطين» ـ أي إسرائيل الحديثة، وبالتالي ليسوا من الخارج (ما خلا الذين طردتهم إسرائيل من أراضيهم)، وأن قرار مجلس الأمن في الأمم المتحدة، ذا الرقم ٢٤٢، قد يجلب لهذه الأرض السلام في آخر المطاف. فأرادت أن تعرف ماهيّة القرار ٢٤٢.

وكان من الغرابة بمكان، أن لا تعرف موظّفة الهجرة الإسرائيلية المثقّفة الشابّة فحوى القرار ٢٤٢ ـ بأرقامه الثلاثة المختصرة الذي يرمز بالنسبة إلى أي فلسطيني يستشهد به إلى قرار الأمم المتحدة الذي يطلب انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة. ولكنّ اتفاق «أوسلو» ذو معنى بالنسبة إليها، تلك العبارة التي يلفظها فلسطينيو الأراضي المحتلّة باحتقار. إنما «دير ياسين» لا تعني لها شيئاً كذلك. إن هذا الانقطاع عن الواقع هو ذاته يجد طريقة أيضاً إلى الصحافة الإسرائيلية والغربية.

والإسرائيليون يُعدمون أو «يُقتلون دون محاكمة» ـ كما حصل لدى ذبح جنديّي الاحتياط في مخفر الشرطة في «رام الله»، ثم قذفهما من النافذة ـ لكن الفلسطينيين أيضاً كانوا يُقتلون في تلك «المصادمات» التي أصبحت مألوفة لديّ. وقد اتّبعت وكالة «رويترز» هذا السرد المعوجّ. فبتاريخ ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠٠، أورد تقريرها عن القتل الذي ارتكبه جنود إسرائيليون في الأراضي المحتلّة، أن فلسطينيين جُرحوا في «مصادمات رمي الحجارة» وقُتلوا في «مصادمات سابقة»، فضلاً عن أن «المصادمات» بدأت بتاريخ ٢٨ أيلول/سبتمبر، وأن «المصادمات قد أوقفت محادثات السلام»، وأن العرب

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الإسرائيليين اشتكوا من قتل إخوانهم في «المصادمات». ولكن عندما أُطلقت النار على حارس أمن إسرائيلي في اليوم ذاته، وصفت «رويترز» قاتله بأنه «مسلّح فلسطيني يُشتبه به». وفي اليوم نفسه، أوردت الصحافة المتحدة خبراً عن «مهاجمات فلسطينية بإطلاق النار على المستوطنات اليهودية»، كما ذكرت أن فلسطينياً قُتل أيضاً وطبعاً في «المصادمات».

إن هذا الازدواج في مستويات نقل الأخبار في الصحافة الإسرائيلية والأجنبية، يجد طريقه إلى أمكنة يصعب التنبّؤ بها. ففي غرفتي بفندق الملك داوود في القدس الغربية، كنتُ أشاهد شريط فيديو تاريخياً داخلياً، مختصاً بالفندق على شاشة التلفزيون. فماذا جاء في شريط الفيديو عن تدمير القيادة العسكرية البريطانية في هذا الفندق ذاته بواسطة رجال مناحيم بيغن الذين فجّروه؟ إن هذا عمل، لو ارتكبه الفلسطينيون لوصفه الإسرائيليون بأنه «إرهاب وحشي». ولكن شريط الفيديو يفتخر ويعتزّ بأن فندق الملك داوود هو «الفندق الوحيد في العالم الذي فجّره رئيس وزراء مستقبليّ»، وأشار إلى مرتكبي هذه المجزرة، بأنهم «ناشطون» كرّسوا حياتهم لقضيّتهم. مع العلم أن هذا التفجير قتل ٤١ عربياً، و٢٨ بريطانياً، و١٧ يهودياً.

ويُدان أرييل شارون «كصقر» في الصحافة الإسرائيلية، وكونه من أهل «اليمين»، وكشخص ضحّى إرادياً بحياة الجنود الإسرائيليين في الحرب ـ ولكن لا تذكر الصحف الإسرائيلية أنه الرجل الأول المسؤول عن مذبحة «صبرا وشاتيلا». وهذا القلب للرعب الأخلاقي ذكرني بالصربيّين الذين يشمئزّون من «سلوبودان ميلوزوفيتش»، ويحمّلونه مسؤولية انهيارهم الاقتصادي وخسارة «كوسوفو» ـ ولكن لا يلومونه لما قام به من التنظيف الإثني لنصف مليون من الألبانيين في «كوسوفو» ـ ناهيك بتنظيف إسرائيل الإثني لثلاثة أرباع المليون من الفلسطينيين عام ١٩٤٨، بحيث ساقت معظمهم إلى قذارة غزّة.

وهكذا صار من عادتنا، نحن معشر الصحافيين، أن نذهب كل يوم لنشهد هذه المعارك الضارية بين راشقي الحجارة والجنود الإسرائيليين ـ تلك «المصادمات» طبعاً ـ وكانت قنابل الغاز المسيل للدموع الإسرائيلية تتساقط مثل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الألعاب النارية الصينية قرب مفترق طرقات «كارني»، عندما رنّ جرس هاتفي الجوّال. لقد فُجّرت قنبلة في القدس. وكان أحد رجال الشرطة الفلسطينيين يستمع إلى مخابرتي. فسألني: «كم مات منهم؟»: قلت: اثنان. فبدت عليه خيبة الأمل. وقال: «هل هذا كل شيء؟!»؛ إذ لم يكن هناك تعاطف في غزّة مع العدوّ «الشريك» مع ياسر عرفات في عملية السلام.

إن غزّة منطقة صغيرة جغرافياً، بحيث لا تكاد تتّسع للمفارقات. وها أنا جالس عند الظهر، بين النباتات المرتفعة، وشجر الليمون والتين والرمّان، فضلاً عن الغاردينيا، أستمع إلى أحد ضبّاط عرفات المؤتمنين يحدّثني عن تهديدات «جورج تنيت». وفي الواقع، يبدو حضور رئيس وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) ـ الذي يزور غزّة غالباً ـ حضوراً غريباً، ويبدو أن مضيفي يعرف أولاد هذه الوكالة معرفة جيّدة. ثم أعود بعد ساعتين إلى مفترق «كارني» لأراقب الجنود الإسرائيليين يهربون من سياج الحدود، ويقرفصون في كُثبان الوحل، ليصوّبوا بنادقهم نحو صبيّ يحمل نقّافة ثم أسمع طقّة عالية النبرة، وصوت ارتطام رصاصة بشيء؛ وها هو الولد قد ارتمى على الطريق، وهُرع إليه شخصان ليحملاه على نقّالة. ثم يلعلع الرشّاش أيضاً، وأشعر بمرور الرصاصة وهي تئزّ إلى يميني. أجل، لقد أخبرني رجل عرفات في البستان، أن وكالة الاستخبارات الأميركية تعرف أن الإسرائيليين يحاولون أن يقتلوا راشقي الحجارة. وقال: «لقد أريناهم الإحصاءات، وأخذناهم ليشاهدوا هذه المعارك غير المتكافئة. وهم يوافقون شخصياً معنا على أن الإسرائيليين يطلقون النار على الجزء الأعلى من الجسم. ولكنهم يطيعون أسيادهم السياسيين الأميركيين».

ومن البستان، ببعوضه وعصافيره، إلى وحول مفترق «كارني»، تبلغ المسافة حوالى ١٥٠٠ متر. ومن المثير للاهتمام المزاوجة بين التهديدات والغضب في «كمب دايفيد»، والدم وزعيق سيّارات الإسعاف على أسفل الطريق. لم يوفّر ضابط عرفات كلامه. لقد وردت إليه القصّة من عرفات شخصياً، في نهاية محادثات «كمب دايفيد»، تلك المحادثات التي جلبت إلينا ـ خلال أسابيع ـ الكارثة التي تحيق الآن «بفلسطين»، وربّما بإسرائيل أيضاً، كما يقول البعض:

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

«ذهب «تنيت» إلى عرفات بتهديد يقول: «نستطيع أن نضع حدوداً جديدة، ونصنع شعوباً، وأنظمة». هذا ما قاله «تنيت» لعرفات في «كمب دايفيد. وعندما لا يخضع عرفات لما يريده كلينتون وباراك، يعود «تنيت» فيهدّد عرفات: «إذن، ستعود إلى الشرق الأوسط وحيداً». وهو يعني أن عرفات سيفقد دعم وكالة الاستخبارات الأميركية. ويجيبه عرفات: «إذا كان الأمر كذلك، فأهلا وسهلاً بكم لحضور جنازتي ـ ولكني لن أقبل عروضكم».

وحولنا، انتقل الذباب مع العصافير عبر الأشجار الحارَّة. وكان موظف عرفات يمضغ حبّة ليمون أفندي، والعصير يسيل من ذقنه، ويتلقّى بعض المخابرات على تلفونه الجوّال؛ بينما كان ابناه يلتقطان حبّات الزيتون من شجرة وراءنا. ثم قال: «عليك أن تدرك أن الأسوأ سيأتي؛ ولو مرَّت علينا بضعة أيام قليلة المشاكل. ولكن هذا هو كل شيء. إننا نعرف كيف نباشر الأمور، ولكننا لا نعرف كيف ستنتهي. إنما نعتقد أنها كلّما طال بها الزمن، جاءت لمصلحتنا. ولا أحد يعرف كيف تتطوّر آليّات الحرب». وكان أكثر اطمئناناً إلى حقّ اللاجئين «المقدَّس» في العودة ـ ربّما مئة ألف منهم في عشر سنوات ـ على يد رئيسه. وأردف قائلاً: «نصحنا الإسرائيليين أولاً بأنه ليس لديهم شريك في السلام سوى عرفات. نعم، إنه يسيطر على فلسطين. وإذا كان باراك يسيطر على الجيش الإسرائيلي، فلماذا لا يكبح جِماح المستوطنين اليهود السارحين بأسلحتهم على هواهم». فذكرتُ له اتفاق «أوسلو». فأجاب: «لقد مات مع وفاة رابين».

وعند مفترق «كارني»، أمر ضابط عرفات بضبط النفس. ومرّت مجموعة من ضبّاط الشرطة ملوّحين بأذرعهم أمام حشد من الشباب عند منتصف الطريق المنحدرة. وحدثت حركة مؤقّتة في الحشد؛ ثم تجاهل الحشد الشرطة. وسار حوالى ٤٠٠ شاب على الطريق الضيّقة، وتقدّموا كلّهم ككتلة بشرية، يداً بيد، وكتفاً بكتف، حتى كاد بعضهم يقع على جانب الطريق لضيقها، مقدِّمين للإسرائيليين هدفاً سهلاً لا يمكن أن يخطئوه، طالبين «الاستشهاد» ـ الذي لا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يفهمه الإسرائيليون ومعظمنا. لقد كان منظراً خارقاً للعادة. تجمّع الحشد دون أن يأمرهم أحد في سبيل هدف مشترك يدركونه. لقد أرادوا أن يكونوا مرمى لإطلاق النار. فأُلزم الإسرائيليون؛ وقذفوهم بمجموعة قنابل مسيلة للدموع أولاً، ثم برشقة رصاص حيّ ففرّقوهم. وتعالى الصياح والصراخ. وجيء بالنقّالات لحمل المصابين إلى سيّارات الإسعاف التي انطلقت عبر الغبار إلى مستشفى «الشفاء».

وكان وراءنا على أعلى الطريق رجل يبيع عصير البرتقال ومناقيش الصعتر لراشقي الحجارة المتعبين ولرجال الشرطة المرتدين بزّات سوداء. وكان هناك أيضاً بين الواقفين طواقم التلفزيون بستراتهم الزرقاء الفضائية الواقية وخوذهم، وطواقم سيّارات الإسعاف، وسائقو شاحنات، وعائلات قادمة من أكواخ الإسمنت عبر الطريق. وكان ذلك مزيجاً من شكسبير و«سكوت جيرالد»، والتمثيل الإيمائي، أخذاً بالثأر وملهاةً. ولا عجب في هذه الحال، كما تصوّرت وأنا عائد إلى القدس بسيّارتي، أن يكون الشِّعْر الفلسطيني بتلك المرارة، كما يقول محمود درويش: «كل ما أملك أمام الموت هو الاعتزاز والغضب».

ولا أحد يفهم هذا الأمر أكثر من حنان عشراوي. انفجرت في بيتها في رام الله بطاقةٍ استمدّتها من الإرهاق والسفر بالطائرة النفّاثة، والغضب، والاحتقار لإسرائيل والصحافيين الأجانب على السواء، مشتكية من ألم في ضرسها، تلتهم الدجاج والبطاطا والأفاويه؛ بينما تجلس قطّتها «لبنة» منعزلة فوق السجّادة. إن المستقبل سيكون عسيراً. قالت: «ليس من العدل، في «ليل الروح المدلهمّ»، وعندما تعود القلاقل، أن يرافقها فقدان الثقة بعملية السلام». لقد مات اتفاق «أوسلو». هذا هو ما عنته؛ ولم يبقَ سوى قرارات الأمم المتحدة.

إنها أشهر امرأة فلسطينية ـ وأشهر مواطنة فلسطينية باستثناء ياسر عرفات وكانت عضواً في فريق مدريد ـ وقد عادت لتوّها من رحلتها إلى الجامعات الأميركية حيث حاضرت عن الكارثة التي تصيب قومها، وحاولت أن تقنع فريقَي «غور»، و«بوش» في الانتخابات الأميركية بفهم حقائق الشرق الأوسط، مُدينةً الصحافة الأميركية لتحيّزها في نقل أخبار الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني. وعملها كأستاذة للأدب الإنكليزي، يسمح لها أن تتكلّم بفصاحة فذّة وباحتقار

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لما يجري. وخارج دارتها، تثور عاصفة، وتضرب الريح الأشجار في حديقتها الخلفية الصغيرة.

وعندما سألت عن انتهاء أمر «أوسلو» أومأت برأسها إيجاباً، وعن أنه لم يبقَ من طريق للسلام سوى قرار مجلس الأمن في الأمم المتحدة، ذي الرقم ٢٤٢، أومأت برأسها إيجاباً مرّتين، بينما كنا نتناول «التبّولة» والأرز. وعندما سألت عمّا إذا كان ذلك يقتضي إزالة المستوطنات الإسرائيلية على الأرض العربية المحتلّة وإرجاع شرقيّ القدس، احتدّ صوتها وقالت: «يجب أن تزال جميع المستوطنات ـ فعندما تقبل بغير ذلك، فأنتَ تشرّع الاستيلاء على الأراضي بالقوّة. إن أساس اتفاق «أوسلو» هو القرار ٢٤٢... ولكن أوسلو خالفته، وأوّلته. ولم يحترم الإسرائيليون أبداً أي موعد من مواعيد الانسحاب بحسب اتفاق «أوسلو». وما يحدث الآن هو نتيجة لاتفاق «أوسلو». وكنا ولا نزال نقول ونحذر من أن ذلك سيحصل، وأنه سيحدث انفجار داخلي أو خارجي. وقد ثبت ذلك الآن. لكن الوقت فات، وحصلت خسارة مأساوية بالأرواح».

إن الاستماع إلى حنان عشراوي ـ صوت الاعتدال والإنسانية ـ يجعلك تمرّ بخبرة صدمة تاريخية لما حدث في الشرق الأوسط خلال الأسابيع الستّة الماضية. قالت غاضبة: «إن الفلسطينيين يعتبرون أنفسهم ضحايا «لعملية السلام»؛ إذ كان يعاد اختلاق تلك «العملية» اختلاقاً لتناسب إسرائيل. وأميركا تعتقد أنه ما دامت هناك «عملية» جارية، فالّله في ملكوته. وقد تورّط الأميركيون الآن في أزمة حكم، وموروثات فردية. لقد وصل الأميركيون المتورّطون في هذا الأمر في واشنطن إلى نهاية مهنتهم»(*).

(*) وبعد أقلّ من أسبوعين كتبت عشراوي رسالة مفتوحة إلى الرئيس بيل كلينتون قالت فيها: «أيها السيّد الرئيس، لقد دلّت خبرتنا على أنه حالما يخرج موظفو الدولة الأميركيون من وظائفهم، يبدأون بمعاناة عذاب ضمير، ودافعية لا نستطيع تفسيرها للتعبير عن ندمهم وأسفهم العميق بشكل اعترافات علنية تتعلّق بالظلم الذي عاناه الشعب الفلسطيني. ونظراً لرغبتنا الشريفة في أن نجنّبك مصير الموظفين الكبار الذين جاءهم الاستبصار بعد وقوع الواقعة، مع السعي نحو العدل والإنصاف، أودّ أن أبرز أنه لا يزال هناك عالم ووقت كافيان للتكلّم ـ والأفضل للفعل». وكانت عشراوي تعرف أنه لن يفعل ذلك. ولكنها لم تكن لتعرف أنه عندما تكلم، بعد مغادرته الرئاسة، لام الفلسطينيين.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ومن الواضح أن عشراوي أرادت أيضاً أن تنتهي مهنة عدّة مراسلين. إذ قالت وهي مرهقة تتكىء على أريكتها: «عندما زرت الواشنطن بوست، سألتهم: ماذا حدث لمبدأ الاستقامة في العمل الصحفي؟ إذ إن هناك الآن انفصاماً كاملاً بين صورة ما يحدث ـ أي الضحايا من الفلسطينيين ـ واللغة. إن ذلك نتاج اللغة الأميركية التي تمّت معالجتها والآلة الإسرائيلية المدوِّمة. إنكم تغذّوننا الآن بالعبارات المعروفة: «عملية السلام». و«وضع عملية السلام على سِكّتها»، و«وقف إطلاق النار»، و«تعليق النشاط مؤقّتاً»، و«وضع حدٍّ للإرهاب»، و«على عرفات أن يضبط شعبه ويسيطر عليه»، و«هل لدينا الشريك الملائم للسلام؟». إن هذا أسلوب تمييز عِرْقي في النظر إلى الفلسطينيين. إنه يعتّم على الواقع الذي يشهد بأن الفلسطينيين عانوا من الاحتلال الإسرائيلي باستمرار. وعندما تسأل الجرائد عمّا إذا كان الفلسطينيون يضحّون بأولادهم، وأنه عمل عِرقيّ لا يُصدّق؛ فإنّما تنتقص من إنسانية الفلسطينيين. إن الصحافة الإسرائيلية جرّدتنا من المشاعر الإنسانية الأساسية بخطاب ساخر، عِرقيّ، يلوم الضحايا. طبعاً، نحن نحبّ أولادنا؛ حتى أن الحيوانات تحبّ أولادها».

ويرنّ جرس الهاتف ـ كقرع مجموعة أجراس في جهاز ساعة ضمن بيت عشراوي في رام الله؛ ويُسقسق الهاتف الجوّال، ويتكرّر الشرح المتعب عن سبب فشل اتفاق «أوسلو» ـ وبعد دقيقة صمت تستأنف عشراوي كلامها قائلة: «قلتُ دائماً إن «أوسلو» ستقود إلى كارثة أو إلى دولة. وكما تتذكّرون، إنها ليست اتفاقاً بل تفصح بدقّة عن «إعلان مبادئ»، وتمثّل الخطر في أن ينقلب «سلام الشجعان» إلى «سلام القبور». إن الانتفاضة الجديدة ستستمرّ ـ بأشكال وأساليب مختلفة ـ ولسنا مولعين بالانتحار الجماعي، ولكننا نريد المحافظة على حقّنا في مقاومة الاحتلال والظلم. وعندما نقول «مقاومة» يسحب الإسرائيليون كلمة «إرهاب» ـ وهكذا يُصبح الولد الذي يحمل حجراً هدفاً «شرعياً» لنار القنّاص الإسرائيلي وللرصاصة الفائقة السرعة».

وعلى أرض الغرفة، تخرخر القطة «لبنة»؛ فقد مضى وقت الطعام. وتكاد عشراوي تنام من شدّة الإرهاق. ويعلن التلفزيون مقتل فلسطينييْن آخريْن

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بالرصاص الإسرائيلي. مع العلم أن الشهر الأول من الانتفاضة الثانية حصد أرواح مئة من الفلسطينيين، بمن فيهم ٢٧ ولداً، قُتلوا على يد الجنود الإسرائيليين وشرطة الحدود. ولكنّ أكثر الإحصاءات إقلاقاً هي المفارقة الكبرى بين خسائر الفريقيْن. فحتّى عام ٢٠٠٢، كان قد قُتل من الفلسطينيين ١٤٥٠ شخصاً في انتفاضة الأقصى؛ وقُتل من الإسرائيليين ٥٢٥ شخصاً، أي حوالى ثلث ما تكبّده الفلسطينيون في الأرواح. والفلسطينيون هم المعتدون؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفصل الخامس

الفتاة والطفل والحبّ

يجب استخدام الدم والدمار أيضاً
وكذلك الأشياء المرعبة المألوفة
ويجب على الأمّهات الابتسام فقط عندما
يحتضنّ أشلاءَ أطفالهنّ المقطّعة من جرّاء الحرب
إنَّ الشفقة، كلَّ الشفقة، مصدومة بعادة الأفعال الساقطة

شكسبير ـ «يوليوس قيصر»

كلّما حاولت أميرة حاس شرح مهنتها كصحفيّة إسرائيلية ـ وكصحفيّة من أيّ جنسيّة ـ استذكرت لحظة عصيبة من حياة أمّها. جرى نقل حنّة حاس في قطار ماشية إلى معسكر الاعتقال في برجن ـ بيسن (Bergen - Belsen) ذات يوم من صيف ١٩٤٤. «ظلّت والنساء الأخريات عشرة أيام في القطار القادم من يوغوسلافيا، وكنّ مريضات وبعضهنّ يحتضر في الطريق. ثم شاهدت والدتي النسوة الألمانيات اللواتي لا يكدن يُلقين نظرة على السجينات وغدت هذه الصورة أساسية في تشكيل وعيها: تلك النظرة الجديرة بالازدراء، «نظرة من طرف العين»... وبدا لي المشهد كما لو أنني كنت هناك ورأيته بنفسي». ثم نظرت أميرة حاس إليّ من خلال نظّارتها بينما كانت تتحدّث، لترى مدى فهمي للمحرقة (الهولوكست) اليهودية في حياتها.

شرحت حاس في كتابها المثير «شرب البحر في غزّة» (Drinking the sea at

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

(Gaza بفصاحة لماذا ذهبت كصحافية إسرائيلية للعيش في دُوَيلة ياسر عرفات القذرة المبعثرة. كتبت:

«في الختام لم تنبع رغبتي في العيش في غزّة من المغامرة أو من الجنون، بل من رهبتي أن أكون متفرّجة ومن رغبتي أن أفهم فهماً دقيقاً حتى آخر تفصيل عالماً كان ـ بحسب فهمي السياسي والتاريخي ـ صنيعة إسرائيلية بشكل مكثّف. بالنسبة إليّ، تجسّد غزّة الرواية الكاملة للصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني؛ إنّها تمثّل التناقض الرئيسي لدولة إسرائيل ـ الديمقراطية للبعض، والحرمان للآخرين؛ إنّها وقاحتنا المكشوفة».

نحن في صيف ٢٠٠١. تجلس أميرة حاس عند أسفل نافذة منزل زميلي فيل ريفيس في القدس وخلفها تسطع قُبّة المسجد الأقصى المصقولة في ضوء الشمس. فهي تعيش حالياً في «رام الله» وليس في القدس، مع الفلسطينيين الذين يعتبرهم العديد من مواطنيها «إرهابيين». كانت تُنصت إلى اللعنات الفلسطينية الموجّهة إلى اليهود بسبب فِرَق المصادرة والتجريد من الملكيّة والقتل، وبسبب المستوطنات ـ ممّا يجعلها من بين أشجع المراسلين. ويتّصف مقالها اليومي في صحيفة «هآرتس» بإدانة سلوك إسرائيل في إساءة معاملة الفلسطينيين وقتلهم. ولم أدرك مدى الزخم ـ والعاطفة القويّة ـ في عملها إلا عندما كنت ألتقيها. وأبلغتني بالنظرة الثاقبة نفسها التي تريد أن تضمن فهمي: «هناك تأويل خاطئ حول إمكانية أن يكون الصحفيون موضوعيّين. يقول لي الفلسطينيون إنني موضوعية. أعتقد أن ذلك مهمّ لكوني إسرائيلية. لكن أن تكون مُنصفاً وأن تكون موضوعياً ليس الشيء نفسه. ما هي مهمّة الصحافة في الواقع ـ إنها مراقبة السلطة ومراكز السلطة».

وفكّرتُ للحظة لو أن الصحفيين الأميركيين كانوا يستمعون إلى أميرة حاس. أولئك الصحافيّون الأميركيون الذين يكتبون تقارير جبانة من الشرق الأوسط، خائفين من الانتقاد الإسرائيلي، بحيث يحوّلون القتل الإسرائيلي إلى «هجمات مُحدّدة» والمستوطنات غير الشرعية إلى «ضواحٍ يهوديّة».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كانت أميرة تكتب كلّ يوم نصّاً حول اليأس، هو سردٌ زمني لا تتخلّى عنه عندما تتحدّث عن حياتها الشخصية. تبدأ من البداية، بوالدتها وهي يهودية من سراييفو انضمّت إلى مؤيّدي تيتو واضطرّت إلى الاستسلام إلى النازيين عندما هدّدوا بقتل كلّ امرأة في مدينة ستنجي Cetinje في المونتنغرو، وبوالدها الذي أمضى أربع سنوات في معسكر اعتقال ترانسينيستْريا (Transnistria) في أوكرانيا، حيث تفشّى وباء التيفوس الذي أدّى إلى مقتل ٥٠ في المئة من اليهود، وفقدَ أصابعه بسبب الصقيع. وعندما جاء إلى إسرائيل انخرط في العديد من الاضرابات والتظاهرات كناشط شيوعيّ بعد الحرب. وفي بداية الخمسينيّات قامت الشرطة الإسرائيلية باعتقاله وأُحضِر أمام قاضٍ طلب معرفة سبب رفضه إعطاء بصماته. «وضع والدي قدمَيه اللتين لا أصابع لهما على مكتب القاضي وقال: «لقد أعطيتُ بصماتي آنفاً». وأضافت أميرة حاس: «جمع أبراهام بين اليهودي القويّ والهويّة العلمانية، كان اشتراكياً ولم يكن صهيونياً أبداً».

تُعتبر قصّة حنّة وأبراهام أساسيّة لفهم أميرة. لقد ناضلا من أجل حقّ المساواة في الشتات «الدياسبورا اليهودية» وأرادا البقاء في الأراضي الأوروبية التي تحوّلت إلى مقابر جماعيّة. وقد عاد العديد من هؤلاء الناس إلى بلادهم بعد الحرب ـ وقبل السكّان هناك محنة اليهود بسهولة. وعادت والدتي إلى بلغراد كواحدة من مجموعة «دجيلاس ميلوڤان» الشيوعية. وكان قد نشأ نظام جديد في يوغوسلافيا . لكن عندما ذهبتْ للتسجيل كمواطنة في بلغراد، قالت لها الموظّفة: لكنّك هاجرت. «أترى، لقد قام الألمان بترحيلها وما زالوا يسجّلون رسمياً أنّ المرحّلين هاجروا. وقد صدّقت الموظّفة أقوال الألمان». كانت تجربة مشتركة. رغم الدمار الكامل، الذي تعرّضت له عائلات بأكملها من قِبل النازيين، وكان الفراغ الناشئ عن «الهولوكست» اليهودية صعب الاحتمال.

«جاء والداي إلى إسرائيل بشكل ساذج وقد غُرِّر بهما. لقد عرضوا عليهما منزلاً في القدس، لكنّهما رفضا قائلين: لا نستطيع أخذ منزل لاجئين آخرين. وكانا يقصدان الفلسطينيين. لذلك ترى أنه ليس أمراً مهمّاً أن أعيش بين الفلسطينيين». أصبحت أميرة حاس صحفية بالصدفة. فقد عاشت قبلاً من خلال

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وظائف غير منتظمة ـ عملت مرّة عاملة تنظيف ـ وسافرت إلى هولّندا «أحسست هناك بغياب الوجود اليهودي ودلّني ذلك على أمور عديدة، وبخاصّة حول موقفي من إسرائيل وكوني غير صهيونية. هذا هو مكاني، إسرائيل، اللغة، الشعب، الثقافة، الألوان...».

تخرّجت حاس في الجامعة العبرية حيث كانت تجري بحثاً عن تاريخ النازيّة والموقف الأوروبي المتعلّق بالمحرقة اليهودية. «كنت عالقة. اندلعت الانتفاضة الأولى ولم أرغب أن أبقى في العمل الأكاديمي في الوقت الذي يجري فيه كل ذلك. استخدمت الواسطة، وأنت تعرف هذه الكلمة العربية، للحصول على وظيفة كمحرّرة في مكتب صحيفة هآرتس، وهي صحيفة ليبرالية حرّة التعبير، والصحيفة الإسرائيلية الأقرب إلى صحيفة الإندبندنت. وعندما اندلعت الثورة الرومانية طلبت حاس إرسالها لتغطية الأحداث هناك ـ وكان لديها العديد من الاتصالات من زيارتها لبوخارست عام ١٩٧٧. وكم كانت دهشتها عندما، وافقت هآرتس رغم أنه لم يكن قد مضى على وجودها في الصحيفة سوى ثلاثة أشهر.

«عندما ذهبت إلى رومانيا سابقاً، شعرت أن لديّ مسؤولية فلسفية لتذوّق الحياة في ظلّ هذا النظام الاشتراكي. كان ذلك أسوأ ألف مرّة ممّا تخيّلت. كان هناك ذلك الضغط الرهيب. فالحياة تحت الاحتلال الإسرائيلي ليست أسوأ من الحياة تحت حكم تشاوشيسكو في رومانيا. كانت اختناقاً غير محتمل. وهكذا غطّيت الثورة طيلة أسبوعين ثم عدت إلى صحيفتي. ولم تكن هآرتس تعرف ما إذا كنت قادرة على الكتابة، وها هي تعلم الآن أنني قادرة. لكنني تعلّمت أيضاً عدم التطلّع الى ما يتطلّع إليه الصحفيون الآخرون».

عام ١٩٩٠، انضمّت بدعم من والديها إلى جماعة تُدعى «خطّ الاتصال المباشر للعمّال» وتساعِد الفلسطينيين الذين يتعرّضون للغشّ من قِبل أصحاب العمل الإسرائيليين. «وصلتُ خلال حرب الخليج إلى غزّة الخاضعة لحظر التجوّل ـ ذهبتُ لإعطاء الفلسطينيين شيكاتهم من أرباب العمل الإسرائيليين. عندها بدأت علاقتي الرومانسية مع غزّة. لم يعرف أيّ صحفي إسرائيلي غزّة أو

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يغطّي أخبارها. وكان رئيس تحرير صحيفتي متعاطفاً جدّاً. وعندما بدأت عملية السلام عام ١٩٩٣ ـ طلبت وضع علامات اقتباس حول الجملة ـ اقترحت هآرتس تغطيتي لموضوع غزّة. وقال أحد المحرّرين: «لا نريد منك العيش في غزّة». وعرفت فوراً أنني أرغب في العيش هناك».

منذ البداية، استذكرت حاس أن هناك شيئاً قويّاً جدّاً حول التصرّف الفلسطيني ـ كان هناك الكثير من الدعابة والحالة النفسيّة الشخصية في هذه الظروف الصعبة. وعندما اقترحت أن هذا شيء ربّما عرفتهُ عند اليهود، وافقت حاس فوراً «بالتأكيد، أنا يهودية أوروبية شرقية وحياة «الشتل» (Shtetl الحيّ اليهودي في أوروبا الشرقية) مغروسة في داخلي. وأعتقد أنّني وجدت مثل هذا «الشتل» وأذكر أنني شاهدت في غزّة لاجئين من مخيّم جباليا، جالسين على الشاطئ ينظرون إلى الموج. سألتهم عمّا يفعلون. وأجاب أحدهم أنه ينتظر أن يبلغ سِنّ الأربعين ـ إذن لديه من العُمر ما يكفي للحصول على تصريح للعمل في إسرائيل. هذه دعابة يهودية بامتياز».

لكنّ حاس لم تجد أيّ دعابة في سياسة المنع الإسرائيلية، وحصار المدن الفلسطينية وتقويض اقتصاد السكّان وشعبهم. «اكتشفت في أوائل ١٩٩١ أن سياسة المنع كانت خطوة ذكيّة من قِبل نظام الاحتلال الإسرائيلي، نوعاً من الضربة الوقائية، ووسيلة تضعف بشكل مُذهل أيّ نوع من التحرّك وردّة الفعل الفلسطينية. وكان الإغلاق هدفاً في حدّ ذاته أيضاً: إنّه فصل ديمغرافي، ممّا يعني أنّ لليهود الحقّ في التجوّل في نطاق فلسطين القائمة. وقد أوصلت سياسة الإغلاق هذا الأمر إلى ذِروته...».

وجدت حاس نفسها مُعجبة بالفارق بين الصورة الفلسطينية المعطاة والواقع. «فقد صوّرت الصحافة الإسرائيلية مدنهم على أنّها «وكر دبابير». لكنّني رغبت حقّاً في تذوّق ما يعنيه العيش في ظلّ الاحتلال ـ ماذا يشبه العيش في ظلّ حظر التجوّل، العيش في حالة خوف من جنديّ. أردت أن أعرف كيف يكون الإسرائيلي في ظلّ الاحتلال الإسرائيلي». لقد استخدمت تلك الكلمة، «تذوّق»، مجدّداً، كما فعلت بالنسبة إلى رومانيا في ظلّ الديكتاتورية. قالت إنها لا تزال

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تفكّر في رحلة والدتها إلى «بيلسن» Belsen : «كانت لديّ تلك الفكرة عن عدم التدخّل، عدم تغيير أي شيء. ولحُسن الحظّ، كان هذا يمتزج عندي مع الصحافة». وتتملّك حاس فكرة أن التغيير يمكن أن يحصل فقط من خلال الحركات الاجتماعية وتفاعلها مع الصحافة ـ صيغة غريبة قد تبدو غير منطقية، لكن ليس هناك شيء غامض حول رسالتها. «فإسرائيل هي بشكل واضح مركز السلطة التي تُملي الحياة الفلسطينية. ولأنني إسرائيلية، فإنّ من واجبي كصحفية مراقبة هذه السلطة. لقد سُمّيت «مراسلة في الشؤون الفلسطينية» لكنّ التسمية الأكثر واقعية هي أنني خبيرة في الاحتلال الإسرائيلي». وتقول إن ردّ الفعل الإسرائيلي كان عنيفاً جدّاً حيالها. «وصلتني رسائل تقول إنني كنت مراقبة لمعسكر الموت اليهودي لصالح النازيّين في تقمّصي الأول .ثم وصلتني رسالة إلكترونية تقول: أحسنتِ، لقد كتبتِ مقالاً عظيماً ـ يحيا هتلر!. وقال لي بعضهم إنهم يتمنّون إصابتي بمرض سرطان الثدي. وقال غيرهم: لن يكون هناك سلام حتى طرد جميع الفلسطينيين».

لكنّ العديد من الإسرائيليين طالبوا أميرة حاس بالاستمرار في الكتابة. «لقد ضلّل الناس أنفسهم من خلال الاعتقاد بأنّ اتفاقية أوسلو مشروع سلام ـ لذلك أصبحوا غاضبين جدّاً من الفلسطينيين. وكان جزء من غضبهم موجّهاً ضدّي. لا يذهب الإسرائيليون إلى الأراضي المحتلّة. لا يشاهدون بأمّ أعينهم. لا يشاهدون قرية فلسطينية أُقيمت مستوطنة على أرضها، وقرية ليس فيها ماء وتحتاج إلى إذن رسمي لزرع شجرة، ناهيك ببناء مدرسة جديدة. لا يفهم الناس كيف يفرض انتشار المستوطنات الإسرائيلية السيطرة على الأرض الفلسطينية».

وبينما كانت والدتها ترقد وهي تنازع في ربيع ٢٠٠١، كانت أميرة حاس جزعة من احتمال بقائها ضمن الحصار الإسرائيلي لرام الله، حيث كانت تعيش، وأن تمضي ساعات لاجتياز بضعة أميال حتى تتمكّن من زيارتها.

الآن، أصبحت وحيدة. قبل شهرين من لقائنا، توفّيت المرأة التي علّمتها احتقار الذين ينظرون من طرف أعينهم. حاليّاً، أصبحت حاس مُلهمة بالنسبة إلى الصحافيين الذين يحاولون قول الحقيقة حول آخر حرب استعمارية عالمية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لقد حاضرت في أميركا، وشاركت في عدّة حوارات إذاعية ومقابلات، وكان عملها الذي لا يفتر أكثر ذكاء وتأثيراً. إنها لحَالة نموذجية أن تكتب امرأة يهودية عن الفلسطينيين بأسلوب أبلغ من أي صحفي آخر. كم هو رائع أن تكون امرأة يهودية أكبر سناً، ولكنّها ملتزمة أيضاً، من نيويورك، هي التي تقاتل من أجل العدالة للمدنيين اللبنانيين الذين يعيشون حيث دُمّرت حياتهم في قصف «عناقيد الغضب» الإسرائيلي لجنوب لبنان عام ١٩٩٦، والتي يُعتبر بحثها حول مجزرة قانا أرقى من أيّ شيء كتبه مؤلّف عربي.

عندما نزل جدّ إيفا شتيرن من وسيلة النقل في معسكر الإبادة في «أوشڤيتز» عام ١٩٤٤، مع والدتها وخالتيها من العائلة اليهودية المتديّنة، كان لا يزال يحمل شال الصلاة. وقد حذّره سجين بولّندي أنه سيموت إذا لم يسلّمه، لكنّه رفض بحسب قول إيفا شتيرن. «عندها أمر ضابط ألماني جدّي بأن يسلّمه الشال بينما كان ينتظر في صفّ الاختيار لغرف الغاز. رفض مُجدّداً. لذلك أطلق الضابط النار على رأسه وهكذا مات».

وفي ردهة فندق في منهاتن الحارّة، تحدّثت شتيرن بسرعة وبصوت خافت نسبيّاً، مستذكرة القصّة الرهيبة التي روتها لها والدتها حول رحلة العائلة من تشيكوسلوفاكيا إلى أوشڤيتز. «كانت في سنّ السابعة عشرة وحاولت إنقاذ إحدى شقيقاتها الصغار بحملها بين يديها. لكنّ سجينة أخرى أبعدتها عنها وأعادتها إلى شقيقتها لأن الجميع سيُقتلون إذا شاهد المدعو منجيل المرأتيْن مع طفل. وهكذا تمّ اختيار شقيقتها وأولادها للموت. ونجت والدتي.

قُتل سبعون فرداً من عائلتها على الأقلّ. ونُقلت إلى معسكر اعتقال راڤنسبروك Ravensbruck وأُطلق سراحها فيما بعد من قِبل الجيش الأحمر. وقد كان لحادثة الطفلة تأثير كبير. وأستطيع القول بنزاهة إن والدتي لم تنم طيلة خمسين عاماً». لكن طريقة وفاة جدّها أهارون هيرش ـ المفكّر التلمودي البالغ من العمر عشرين عاماً والذي أُعدم بعدما رفض تسليم شال الصلاة ـ هي التي رسمت حياة إيفا شتيرن.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فتحت شتيرن ملفّاً كبيراً على المقعد المجاور وعملت على لجم غضبها بألم. كان عنوان الملفّ: عملية إسرائيل «عناقيد الغضب» ومجزرة قانا. وكان هذا العمل من صنعها وهو مزيج من التقارير الجديدة والصور حول قصف إسرائيل عام ١٩٩٦ الذي أدّى إلى مقتل ١٧٠ مدنياً لبنانياً، منهم ١٠٧ في قانا بينهم ٥٥ طفلاً. وجّهت شتيرن إصبعها بغضب إلى إحدى الصور، التي تظهر جنوداً إسرائيليين يقفون أمام دبّاباتهم على الحدود اللبنانية، ويقول كلام الصورة: «أوقف الجنود الإسرائيليون لفترة وجيزة قصفهم وذلك لإحياء ذكرى يوم الهولوكوست» ونظرت شتيرن إليّ بحيث أستطيع رؤية مدى غضبها.

وسألت: «ماذا كان جدّي ليقول عن ذلك؟ ماذا كان تفكير هؤلاء الإسرائيليين بينما كانوا يضعون شالات الصلاة؟ هل كانوا يصلّون: «أبانا الذي خلق الجنّة، ساعدني في قتل أكبر عدد ممكن من العرب؟» أيحقّ لهم الآن أن يقتلوا دون أن يشعروا بأي ذنب؟» تعتبر لفظة «أرابوشيم» Arabushim عبارة عُنصريّة لكلمة عرب باللغة العبرية وقد استُخدمت لاحقاً في مقابلة أجرتها صحيفة إسرائيلية من قِبل جنديّ مدفعيّ أطلق النار على قاعدة الأمم المتحدة في قانا. وقد ضمّنت شتيرن ملفّها ترجمة إنكليزية لمقابلة في صحيفة كول هائير Kol Ha'ir، ومجموعة من الوثائق أرسلتها إلى الأمم المتحدة، وإلى الوفد اللبناني للأمم المتحدة وإلى كبار الصحفيين الأميركيين في نيويورك. كانت تأمل إقناع الأخيرين بإحياء الذكرى الأولى لمجزرة قانا. كان شعورها بالمهانة شجاعاً وفريداً. ورغم أن العديد من اليهود الأميركيين شعروا بالاضطراب نتيجة تصرّف الحكومة اليمينية الإسرائيلية والمغامرات الدامية التي تورّطت بها إسرائيل في لبنان وفلسطين، فإن معظمهم لا يحبّذ اهتمام شتيرن بقول الحقيقة. لكنّها كانت مثابرة:

> «تحرّكت مشاعري ببطء. كانت لديّ مشكلة دائماً مع الطاعة المطلقة للسلطة ـ لذلك كنت أقع دائماً في سلسلة من المشاكل. وعندما فكّرت في الفظائع التي ارتكبها الإسرائيليون، شعرت بواجب التكلّم كوني دافعة ضريبة أميركية ويهودية أميركية. إذا كان من الممكن تحميل الألمان العاديّين الذين يعيشون في ظلّ القمع الكلّي مسؤولية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الجرائم التي ارتكبها النازيّون بسبب عدم رفع أصواتهم، فكم هو حجم مسؤوليتنا نحن الذين نعيش في بلد يسمح بحرية الكلام؟ إذا كان الألمان العاديّون مذنبين بعدم الكلام، فنحن أيضاً مذنبون بسبب صمتنا حول قانا لأننا لا نعيش في حالة خوف من فِرق الموت. ما أقوم به ليس شجاعة، وإنما هو عمل جيّد يجب القيام به. ولو تكلّم عدد كافٍ من الألمان الصالحين في ذلك الوقت لكان من الممكن ربّما تفادي حدوث الهولوكوست. بالطبع لا، لكنّني أعلم أنني سدّدت، كدافعة ضرائب، ثمن القذائف التي سقطت على قانا. وبناء عليه إذا بقيت صامتة، فلن أكون أفضل من أولئك الألمان. لقد ادّعت إسرائيل أنها ممثّلة للشعب اليهودي. ومن المهمّ للعالم معرفة أنهم لا يتحدّثون باسم يهود العالم. إنهم لا يمثّلونني بشكل واضح. إذن لديّ واجب الكلام».

كانت إيفا شتيرن تعمل سكرتيرة في مؤسّسة قانونية في منهاتن، وهي درست في مدرسة بنات بروكلين الدينية وقد حصلت على تشجيع في حملتها من نعوم شومسكي أكثر فلاسفة ولغويي أميركا غضباً وشهرة، ومن المؤلّف الناجي من غيتو وارسو السابق إسرائيل شاحاك الذي كانت تحفظ قصّته عن إسرائيل عن ظهر قلب. «كتب أن أيّ مساندة لحقوق الإنسان بشكل عامّ من قِبل يهودي لا تتضمّن دعماً لحقوق الإنسان لغير اليهود الذين خُرقت حقوقهم من قِبل الدولة اليهودية تُعتبر مُحبطة مثل دعم حقوق الإنسان من قِبل ستاليني. وقد أثّر ذلك بي فعلياً»..

كان والد شتيرن، حاييم، يهوديًّا هنفاريًّا نجا أيضاً من معسكر الاعتقال. «كانت والدتي ابنة عمّه وقد تزوّجا عام ١٩٤٩ وولدت أنا بعد ذلك بسبع سنوات. ما زال والداي حَيّين ويعرفان مشاعري تجاه الفظائع الإسرائيلية. ولديهما مشاعر متناقضة إلى حدّ ما في هذا الشأن. فهما يعتقدان بأنني على حقّ في إدانة ذلك. ونتيجة ما عانياه فإنهما يعتقدان أن العالم بمُجمله مُعادٍ للساميّة ولذلك عندما يحصل عمل إرهابي ضدّ الاسرائيليين لا يضعانه ضمن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

سياق الصراع العربي ـ الإسرائيلي. إنني أندّد بقوّة بأيّ هجوم إرهابي. لكنّ والديَّ يريانه من منظور أنّ العرب معادين للساميّة، ولذلك هناك عمل إرهابي. أرفض التنديد بوالديّ بسبب مشاعرهما. ومن ذلك مثلاً أنهما يعتبران الألمان كلّهم نازيين لأنهما لم يصادفا إلّا نازيّين خلال تجربتهما.

وبالنسبة إلى معظم الفلسطينيين، فإن معظم اليهود الذين عرفوهم من اليهود الظالمين. ومن المؤكّد أن الفلسطينيين لم يصادفوا في مخيّمات اللاجئين أيّ يهودي جيّد ومبدئي».

لكنّ محاولة إيفا شتيرن إقناع الصحفيين الأميركيين إحياء ذكرى مجزرة قانا قوبلت بالتجاهل. ولم تنشر أيّ صحيفة أميركية رئيسيّة واسعة الانتشار فقرة أو تقريراً إخبارياً موجزاً حول قيام الأمم المتحدة في لبنان بإحياء الذكرى الأولى لحمّام الدم. وبعكس إيفا شتيرن، ظلّ الصحفيون الأميركيون صامتين وكذلك رؤسائهم. وقد شجّعت مجلّة المؤسّسة القانونية في منهاتن موظّفيها على الكتابة عن اهتماماتهم خارج أوقات العمل، فكتبت شتيرن قصّة مؤثّرة حول تحقيقاتها المتعلّقة بقانا وبمجزرة عام ١٩٨٢ ضدّ الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا. إلّا أن مسؤولاً في المؤسّسة رفض نشر مقالها بحجّة أنه حسّاس ويمكن إساءة فهمه.

بعد فترة قصيرة من لقائي إيفا شتيرن، وصلت رسالة إلى بريدي في بيروت من نِزار هنداوي. هل تذكرون الاسم؟ كان هنداوي هو الفلسطيني الذي أعطى يوم ١٧ نيسان/أبريل ١٩٨٦ صديقته الإيرلندية البريئة والحامل آن ماري مورفي قنبلة لتحملها على طائرة العال في مطار هيثرو في لندن. وكان يمكن أن يؤدي انفجار القنبلة التي تزن ١,٥ كلغ من السيمتكس إلى تدمير الطائرة وقتل جميع ركّابها بمن فيهم خادمة الغرف الشابّة التي صدّقت أن هنداوي سيصل إلى إسرائيل بعد أيّام قليلة للزواج بها. وكان قد طلب حماية رجال الأمن السوريين في لندن قبل أن يقرّر تسليم نفسه. وقد حُكم عليه بعد ستة أشهر في أولد بايلي **Old Bailey** بالسجن خمساً وأربعين سنة، وهي أطول عقوبة في التاريخ الجنائي البريطاني.

لذلك، كانت رسالته إليّ تحمل عنوان سجن صاحبة الجلالة «وايتمور» في

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

كامبريدج شاير . كانت رسالة مهذبة لكنّها تحمل مغزى واضحاً: «إذا كان يمكن إطلاق سراح قتلة منظّمة إيرا (الجيش الجمهوري الإيرلندي) IRA المعتقلين لجرائم سياسية فعندها يجب إطلاق سراحه. وقد كتب بلغته الإنكليزية الضعيفة: «قضيّتي سياسيّة كما تعلم، لا أحد يذهب لتفجير طائرة ركّاب لأسباب شخصيّة. وأعتقد أنه لو لم تكن الطائرة إسرائيلية ولم تكن في بريطانيا لما عوقبت بهذا القدر الذي يُعتبر الأطول في تاريخ بريطانيا المعاصر». لم تكن مشكلتي الأولى في رسالة هنداوي سياسية. لقد اكتشف العديد من رجال إيرا، وكذلك القتلة شبه العسكريين البروتستانت في إيرلندا الشمالية، إحساساً عميقاً بعدم الراحة والندم حيال الأفعال الرهيبة التي ارتكبوها. وحتى العجوز غاستي سبنس، أوّل القتلة من جماعة الموالين للإنكليز، فقد خرج من السجن مسيحيّاً تائباً. وحتى الآن، لم أجد أي إشارة ندم في رسالة هنداوي إليّ، ولا حتى أدنى دليل على أنه يشعر بالندم على ما حاول القيام به. كانت فقرة، «لا أحد يقوم بتفجير طائرة ركّاب لسبب شخصي»، مرعبة. وقد كتبت في صحيفة الإندبندنت أن تصنيفه لقوى الشرّ واضح جدّاً. فهو يقول إن نسف طائرة لأسباب شخصية ـ إذا افترضت أنه كان يكره الركّاب ـ عمل لا يُغتَفر. ولكنّ الأمر غير ذلك إن كانت الأسباب سياسية، أي في حال كان الركّاب وحتى صديقته الحامل آن ماري مورفي لا أهمّية لهم عنده... مشيراً إلى قضيّته الشخصية بأنّها تاريخية. تابع هنداوي:

> «لقد عقدت منظمة التحرير وإسرائيل معاهدة سلام مع الأردنّ. وحتّى العلاقات بين سوريا وبريطانيا صارت في أفضل حالاتها، لاحظ ماذا حصل بعد اتفاق السلام في إيرلندا الشمالية، لقد أرسلت الحكومة البريطانية جميع معتقلي إيرا إلى إيرلندا الشمالية وتم إطلاق سراح العديد منهم... كتبت إلى رئيس الوزراء البريطاني طوني بلير، وجاك سترو، وروبن كوك، وكين ليفنغستون، وطوني بن ود سكينر، وإلى نوّاب، وغيرهم طالبا منهم إطلاق سراحي ولم أحصل على ردّ حتى الآن».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

لم أُفاجأ. فبالنسبة إلى السلام الإيرلندي الذي تسانده غالبية الشعب في بريطانيا وإيرلندا، فإن السياسة التاتشريّة القديمة بتجريم كلّ الأشرار قد سقطت. كان هناك أطفال قتلة، وزوجات قتلة، وقتلة من المافيا، ورجال مأجورون يجب أن يبقوا في السجن، وهناك سياسيّون قتلة ومأجورون قتلة ذهبوا الآن إلى ديارهم. أحببنا ذلك أم لا، هكذا تنتهي معظم الحروب. هناك نوع من التجاوز للذنوب. فالرجال الذين لقّبناهم بالإرهابيين ـ جومو كينياتا، مناحيم بيغن، الأسقف مكاريوس، جيري آدامز، ياسر عرفات ـ لديهم عادة غريبة في التحوّل، إلى حدّ البروز لاحقاً وهم يجرون محادثات في داوننغ ستريت، ويحتسون الشاي مع الملكة إليزابيت أو يُجرون أحاديث ودّية في البيت الأبيض.

لكن أين يترك هذا كلّ السجناء من الحروب الأخرى؟ نظريّاً، يمكن أن يؤثّر اتفاق السلام الفلسطيني ـ الإسرائيلي على قضيّة هنداوي. لكنّ السلام أصبح الآن ميتاً، وقد أشار هنداوي بشكل مثير إلى اعتقاده بأنه كان يعمل لصالح السوريين(*).

لم أردّ مباشرة على رسالته. لكنّني كتبت مقالاً حول رسالته قلت فيه إنني أريد «الحصول على معلومات أكثر عن نزار هنداوي الحقيقي» ـ وكيف لرجل

(*) التجأ بالتأكيد إلى منزل رجال الأمن السوريين في لندن. وقد وقّع هنداوي اعترافاً عند الشرطة يفيد أنه أُعطيَ الحقيبة التي تحتوي على القنبلة من قِبل ضابط يعمل بإمرة الجنرال محمّد الخولي، رئيس المخابرات الجويّة السوري. وفي المحكمة، تراجع هنداوي عن اعترافه، مدّعياً أنه أُكره على التوقيع دون قراءة الإفادة ويعتقد أنه كان جزءاً من مخطّط وضعته الاستخبارات الإسرائيلية للإضرار بسوريا. وقد حُكم عليه، وقطعت بريطانيا علاقاتها مع دمشق، وندّدت إسرائيل «بالدور الرئيسي لسوريا في الإرهاب». غير أنني أتذكّر حادثاً غريباً حصل بعد أيّام قليلة عندما التقيت السفير البريطاني السابق في سوريا في قاعة الشخصيات في مطار دمشق. قال السفير: «كانت هناك بعض الدلائل على أن الإسرائيليين علموا بوصول القنبلة إلى مطار هيثرو». ولم يصرّح بأكثر من ذلك. هل علم الإسرائيليون بالقنبلة من خلال التنصّت على المخابرات الهاتفية للسفارة السورية؟ هل تمّ تحذيرهم من قبل أجهزة الأمن البريطانية؟ هل شجّعوا السوريين للتورّط في عملية القنبلة؟ لا تقوم أيّ حكومة إسرائيلية بتفجير طائرتها. لكن إذا كان الإسرائيليون على علم بذلك مسبقاً كان بإمكانهم اعتقال آن مورفي لدى وصولها مع القنبلة إلى مطار هيثرو وإثبات أن سوريا هي «مركز الإرهاب العالمي».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

(مهما يكن مَن يعتقد أنه يعمل لصالحه) أن يعطي قنبلة لصديقته الشابّة التي تحبّه، المرأة التي تحمل طفله، مع معرفته أنّ ذلك يعني هلاكهما وهلاك جميع من معهما. أرسلت لهنداوي نسخة من المقال. وبعد أكثر من ثلاثة أشهر وصلتني رسالة أخرى منه. كانت غاضبة وتنمّ عن انزعاج، وقد كُتبت من أعماق أحاسيس الإذلال التاريخي. فالهنداوي على الرغم من ضعف لغته الإنكليزية قام بمحاولة لإعادة تمثيل الخيانات في الشرق الأوسط مستخدماً لغة المجاز ليصف نفسه (التي كان يلومها بقسوة) على أنها كانت أداة «الإرهاب» الذي دعا فرنسا وبريطانيا إلى إنهاء انتدابهما وإلى خلق دولة إسرائيل... قالت الرسالة:

«اعتقدتُ أن من المفيد لك أن تعرف أكثر قليلاً حول نزار هنداوي الحقيقي... يبدو لي أنك لم تعثر على ذلك القليل... أنا نزار هنداوي الذي دعا أباطرة بريطانيا وفرنسا إلى المنطقة العربية ـ الشرق الأوسط ـ لتقطيع الحلوى ولتعليم العرب كيفيّة لعب الكريكت. لكنّ النقطة الأهمّ لهذه الدعوة هي إيجاد أو ملء «أرض بلا شعب بشعب بلا أرض». وهكذا، أحضر إمبراطور بريطانيا في أوروبا «شعباً بلا أرض إلى أرض بلا شعب». وهكذا أُعطيت لذلك الشعب مجّاناً قطعة الأرض التي أسموها «إسرائيل». لكن استمرّت لعبة الكريكت لفترة طويلة وكانت تحتاج إلى وقت لكي تنتهي. ولقد ذهب الحَكم إلى الأبد. هل تعتقد أنه ربّما يعود لوقف اللعبة؟ تلك اللعبة التي كنت مؤسّسها أنا نزار هنداوي، مؤسّس وقائد عصابة هاغانا، وأرغون وشتيرن، المنظّمات الإرهابية، وبأوامري المباشرة انطلقت حملة من الإرهاب والعنف التي استهدفت بشكل خاص المدنيين... أمرتُ بتفجير فندق الملك داود في القدس ممّا أدّى إلى مقتل حوالى ٩٠ بريطانياً. أمرت بغزو لبنان وبيروت الغربية وقمت بمجازر مخيّمات صبرا وشاتيلا. وهاك بعض المعلومات الإضافية لك يا عزيزي السيّد روبرت فيسك حول نزار هنداوي المسؤول عن قتل وتعذيب واختفاء أكثر من ٤ آلاف شخص في تشيلي وليس

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الجنرال أوغستو بينوشيه. أنا المسؤول عن إبقاء العقوبات ضدّ العراق... الآن تستطيع فهم نزار هنداوي وأعماله الشريرة».

إن استخدامي لكلمة «الشرّ»، وقبل أن يتمّ تحوير معناها من قبل جورج بوش الابن، قد أزعج هنداوي. لكن ليس هناك أدنى شكّ في مغزى هذه الرسالة. يَجري سجن المجرمين الصغار مثل هنداوي لفترة خمسة وأربعين عاماً. لكنّ المجرمين الكبار ـ مناحيم بيغن، بينوشيه، بريطانيا وفرنسا بتاريخهما الاستعماري ـ يفلتون بجرائمهم. وهناك فقرة من رسالته المكتوبة بخطّ يده يثني فيها على «سوريا الكبرى»، الولاية العثمانية التي كانت تضمّ أراضي فلسطين وسوريا الحالية ـ الشام ـ بلاد الشام ـ التي وجدت «قبل أن أرسل الدعوة إلى حكّام بريطانيا وفرنسا».

كتب أنه فخور بحبّه لسوريا:

«ولدت في منطقة من سوريا تُدعى الأردنّ. لكن هل تشكّل الأردنّ دولة؟ هل هي حقّاً دولة؟ إنها جزء من سوريا ويوماً ما يجب أن تعود إلى الأمّ، إلى القلب، إلى سوريا ،هذه حقيقة واقعة ويمكن أن تشهدها في حياتك... لديّ تاريخ كبير ساطع وأنا فخور به. لا أريد أن أكتب عن الأشياء الخاصّة، إنها تخصّني وحدي، ولذلك أيضاً لا أريد الردّ على ما كتبته حول الفتاة والطفل والحبّ... أعتبر هذه الأمور شخصية وعندما تسنح الفرصة للكلام عن هذه الأمور، تأكّد أنّك ستكون أحد الذين سأبلغهم...»

وأنهى هنداوي رسالته بالتعبير عن حبّه للرئيس السوري حافظ الأسد.

هناك الكثير ممّا أرغب في معرفته حول هذه القضيّة. ومن ذلك: لماذا صرّح محامي الدفاع عن هنداوي، جيلبرت غراي، في محاكمته عام ١٩٨٦ بأنّ دولة أخرى قد تتّخذ إجراءً ما إذا حُكم على هنداوي (وهذه كانت ملاحظة قال القاضي السير وليم مارس جونز، الذي حكم على المتّهم بخمسة وأربعين عاماً سجناً، إنها ما كان يجب أن تُقال أبداً). هل كانت الدولة المفترضة سوريا؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولدى طبيبٍ نفساني الكثير ليقوله أيضاً حول رفض هنداوي مناقشة موضوع «الفتاة والطفل والحبّ» لأن ذلك بالتأكيد هو الحلّ لمُجمل هذه المأساة. إنّ ما يواجهه هنداوي هو المأساة السياسية للشرق الأوسط ـ (وغباء عالم يُعاقب المجرمين الصغار بالسجن ٤٥ عاماً، لكنّه يسمح في الآن نفسه للذين كانوا مسؤولين عن القتل الجماعي بالبقاء أحراراً) وليس النتاج المباشر والواضح لضميره الأخلاقي. أجل، أنا في انتظار هنداوي ليطلعني على موضوع «الفتاة والطفل والحبّ». وكذلك آن ماري مورفي أيضاً التي أجرت أوّل مقابلة صحفية بعد ١٨ عاماً من محاولة هنداوي تهريبها وطفلها غير المولود بعد على رحلة العال في مطار هيثرو مع قنبلة... وقد اشتكت في تلك المقابلة من أنّ هنداوي حصل على مساعدة قانونية لطلب مراجعة لعقوبته:

> «ذلك الرجل هو شرّ مطلق. أنت تتحدّث عن رجل لم يُظهر أبداً أيّ ندم أو أعرب ولو لمرّة عن أسفه... ماذا عن حقوق الإنسان بالنسبة إلى جميع الأشخاص الذين كانوا على متن الطائرة وحاول قتلهم؟ لقد حملني بين يديه وقبّلني على وجنتي. وفي المرة التالية التي رأيته فيها، قال إننا سنتزوج. وبهذا ابتسم ووقف هناك مودّعاً. حمل الحقيبة طيلة الوقت إلى المطار ومن ثمّ أعطاني إيّاها بينما كنت أستعدّ للدخول. تركني في المبنى رقم ١ للمغادرة مدّعياً أنّ رحلته تنطلق من المبنى رقم ٣. أتذكّر مروري بالكلاب البوليسية وبنقطتَي تفتيش قبل أن يطلب حارس منّي الوقوف جانبا للحظة. وعندما فتحوا الحقيبة ونظروا ما بداخلها انهار كلّ عالمي».

إذا كان عليَّ دخول عالم هنداوي ولست متأكّداً أنني أريد ذلك ـ وأنا في انتظار رسائل أخرى من سجن وايتمور حول هذه المسألة ـ فهل أجد المنطق نفسه الذي استخدمه إيغال أمير، قاتل رابين، الذي سيشير إلى سِفر يوشع لتبرير كيف أنه «إذا غزوت أرضاً، عليك قتل الأطفال والصغار!؟ أليس هذا هو التفكير نفسه ـ أو الافتقار إليه ـ الذي يسمح لانتحاري فلسطيني بأن يرى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ضحيّته قبل ضغط الزرّ وتفجير المتفجّرات؟ يقوم الانتحاري بالقضاء على حياته لكن لديه الخصوصية المرعبة في النظر إلى القتلى اللاحقين، الجنود أو ـ لنتكلّم بصراحة ـ أطفال محلّ البيتزا الإسرائيليين أو الفتيات في الحافلة اللواتي سيختفَين من هذا العالم. حاول الإسرائيليون والبيت الأبيض التقليل من العنصر المدمّر للانتحاريين ووصفوهم بغباء، «بالمفجّرين القتلة»، وهو وصف يُعتبر سخيفاً، لأنّ كل المفجّرين، أكانوا انتحاريين أم لا، هم قتلة. والفارق هو أنّ الانتحاري لا يقتل نفسه فقط ـ هكذا يصبح شهيداً بالنسبة إلى المجموعات الفلسطينية. لكنّه في النهاية قاتل. إنهم يشاهدون الذين سيقتلونهم. إنهم يمسكون بأيديهم، بشكل ما، حياة الأبرياء وموتهم. ويعود الخيار إليهم للضغط على زرّ التفجير. لكنّ هنداوي لم يكن يخطّط بالطبع للضغط على أيّة أزرار. كانت آن ماري مورفي هي الزرّ. وإذا أردنا تصديق رسائله إليّ، فإن التاريخ كان هو المفجّر.

أنا أقف في غُبار مخيّم اللاجئين الفلسطيني ورُكامه في خان يونس في بداية عام ٢٠٠١، ويشير دفتري إلى تاريخ ١٥ نيسان/أبريل مع الكلمات التالية: لو أنّ هذا حصل في أيّ بلد آخر لكان فضيحة وإهانة. «كتبت في تقريري إلى الإندبندنت تلك الليلة: «لو دمّر الفلسطينيون عن قصد منازل ٢٠٠ إسرائيلي، لعنى ذلك: بربرية، إرهاباً، وتحذيرات جدّية لعرفات من الرئيس الأميركي الجديد جورج بوش الابن لكبح العنف. لكن كان اليهود هم مَن دمّر منازل ٢٠٠ فلسطيني على الأقلّ في غزّة صباح أحد الفصح عام ٢٠٠١، وقاموا بجرف أثاثهم وملابسهم ومواقد الطبخ والسجّاد والفراش مع ركام حظائرهم بحيث بدت ناحية من خان يونس كأنّها ضُربت بهزّة أرضيّة. وهذه الأمور بالطبع لم تكن إرهاباً، كانت أمناً.

جلس المسنّون كالتماثيل بين أنقاض منازلهم التي دمّرها الإسرائيليون. وقد طُرد العديد منهم مثل أحمد حسن أبو رضوان (٧٥ سنة) من بيوتهم في فلسطين ـ بالنسبة إليه من بئر سبع ـ عام ١٩٤٨، والآن تمّ حرمانهم للمرّة الثانية من قِبل الأشخاص أنفسهم بعد ٥٣ سنة، وهذه المرّة برعاية أرييل شارون. ربّما

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كان من المستحيل وَصْمُ التاريخ بالعار. فما حصل في خان يونس ـ رغم إرفاق الإسرائيليين تخريبهم بالكلام عن الأمن ـ كان وصمة عار. كان ذلك تدميراً لبيوت ـ لنسمّه تدميراً داخلياً ـ على نحو لا سابق له حيث تمّ إرسال مجموعة من الجرّافات لسحق هذا الجزء من خان يونس عند البحر حيث ـ وفقاً للجيش الإسرائيلي ـ أُطلقت عيارات باتجاه جنود الاحتلال. وعندما انطلقت الآليّات من الطريق عند الشاطئ بعد منتصف الليل، هرب آلاف الفلسطينيّين من أكواخهم ومنازلهم وهم ينتحبون.

فرّ العديد منهم إلى أقرب مسجد، حيث استخدموا مُكبّرات الصوت وطلبوا من جيرانهم حمل السلاح والمقاومة. وأمام المفاجأة الظاهرة للجيش الإسرائيلي، فإن هذا هو ما قام به الجيران. وعندما رُفِعت البنادق في وجه الجرّافات، هُرعت دبّابتان إسرائيليتان على الأقلّ على الطريق نفسها وبدأت بإطلاق القذائف على أقرب الأبنية. وبرزت طائرة هيلكوبتر «أباتشي» من الظلمة وأطلقت صواريخ على تلك الأبنية.

وكما يتذكّر المسنّ أحمد حسن أبو رضوان وعائلته بوضوح فقد تحرّكت فجأة من الظلمة جرّافة مع فصيلة من الجنود الإسرائيليين وعندما رفعت مِجرفتها إلى أعلى مستوى أطلق الجنود النار.

استمرّت المعركة المسلّحة أربع ساعات وأدّت إلى مقتل فلسطينيين وإصابة ثلاثين بجروح، اثنا عشر منهم بحالة خطرة، وبينهم فريق تصوير من «رويترز» كانوا يصوّرون عندما انفجرت قذيفة على الحائط الذي كانوا يقفون خلفه. لقّن أرييل شارون (الجرّافة الكبرى) الفلسطينيين درساً آخر. ولكن إذا شقّ المرء طريقه عبر رُكام ٣٥ منزلاً، فسرعان ما يدرك أن الدرس الذي فهموه لم يكن هو الدرس الذي أرادته إسرائيل. وقد أوضحت مريم أبو رضوان، ابنة عمّ المسنّ أحمد، بفصاحة: «لم تعد عندنا حياة بعد الآن. هذا تدمير لحياتنا. دعوهم يقتلونا ـ رجاءً دعوهم يقتلونا ـ ونحن نستطيع الموت هنا. ودعوا الإسرائيليين يموتوا أيضاً. لا أحد يكترث لنا ـ لا دول عربية ولا دول أجنبية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كان أحد القتيليْن يُدعى رياض إلياس، وهو ضابط أمن فلسطيني، وقد قُتل وهو يقاوم الإسرائيليين. والثاني هو هاني رزق، وكان معروفاً منّي كعامل تنظيفات في مستشفى ناصر المحلّي، المستشفى نفسه الذي أُخذت إليه جثّته قبل دفنها بعد ظهر الأحد. وعلى أحد أسرّة المستشفى يرقد المزارع إبراهيم عامر البالغ من العمر ٣٥ سنة ـ أُصيب في ظهره وجنبه برصاص الأسلحة الرشّاشة من الهيلكوبتر بينما كان هارباً ـ متألّماً من جراحه. قال إنه رأى رزق يركض في الشارع «عندما أصابت زخّة من رصاص الهيلكوبتر حائطاً وارتدّت عليه وأصابته ـ كانت في جسمه ١٢ رصاصة على الأقلّ». هل كان الفلسطينيون يطلقون النار على الإسرائيليين من هذه المنازل؟ ولو سألت أيّاً كان وسط هذا الركام لقال إنه لم يشاهد أحداً، وهذا ليس كالقول بأن لا أحد أطلق النار من هنا. كان ذلك أكثر من نسبيّ، فقد كانت العملية الإسرائيلية هجوماً متعمّداً ضدّ المدنيين.

كان أحمد حسن أبو رضوان، مثل العديد من أولاد عمّه، مزارعاً بدويّاً عندما تقدّم الإسرائيليون باتجاه منزله في بئر سبع عام ١٩٤٨ حيث عاش مع والده حسن ووالدته شيماء وأخوته الأربعة. ومنذ ذلك الحين، عاش فقيراً في خان يونس، وكان ينام في منزله المؤلّف من سبع غرف مع زوجته فاطمة وأولادهما وأحفادهما البالغ عددهم ٢٣ شخصاً عندما سمع صوت الجرّافات الإسرائيلية. قال: «ما حصل لي الآن هو ما حصل لي منذ خمسين عاماً. أشعر بحالة من الغضب. السلام الآن؟ لا أعتقد ذلك. لقد أغدق اليهود الكثير من الوعود لنا لكنهم لا يحافظون على وعودهم».

وكالمعتاد، أُطلقت العيارات النارية في الهواء في تشييع الجنازتيْن بعد ظهر الأحد. وقبل ثلاث ساعات، تمّ دفن وائل الحواتر الطبيب العسكري الفلسطيني، الذي سقط ضحيّة لهجوم الليلة السابقة الذي قامت به طائرة هيلكوبتر على ما أسماه الإسرائيليون «قاعدة بحريّة فلسطينية» ـ وبالطبع ليست لدى الفلسطينيين بحريّة أو سفن ـ وهكذا بدأ النهار وانتهى بالتقليد المألوف في غزّة: بالجنازات. ولا حاجة إلى القول إنّ السيّد بوش ظلّ صامتاً.

وهكذا كان بوش وكلينتون صامتيْن بينما طبّقت إسرائيل نظام الإعدامات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ضدّ الفلسطينيين المحكوم عليهم بالموت لدورهم في «حماس» أو «الجهاد الإسلامي» أو أيّ تنظيم آخر يناهض الاحتلال الإسرائيلي للضفّة الغربيّة وغزّة. وليس هناك شيء جديد في حملة الإعدامات التي تتعدّى القانون. وعندما ذهب الإسرائيليون وراء أبو جهاد ـ خليل الوزير ـ في تونس عام ١٩٨٨، استخدموا حوالي ٤ آلاف رجل لاغتياله. فقد كانت هناك طائرة «أواكس» فوق تونس، وسفينتان حربيّتان في المتوسّط وطائرة «بوينغ ٧٠٧» للتزوّد بالوقود وحوالى أربعين رجلاً للنزول إلى الشاطئ ومحاصرة منزل نائب رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، وأربعة رجال وضابط لقتل ضحيّتهم.

وقد روى لي جهاد الوزير، ابن أبو جهاد، الذي يعيش الآن في غزّة مع الانتفاضة الثانية، بالتفصيل كيف تمّ إعدام والده. «قاموا أوّلاً بقتل الحارس الذي كان نائماً في الخارج داخل سيّارته ـ ثمّ قتلوا البستانيّ والحارس الثاني. وكان والدي يكتب في مكتبه فتوجّه إلى الردهة حاملاً مسدّسه. وأطلق رصاصة واحدة قبل إصابته. تتذكّر والدتي كيف تقدّم كلٌّ من الرجال الأربعة نحوه وأفرغ مخزناً من الذخيرة من سلاح أتوماتيكي بوالدي ـ كما لو كان ذلك نوعاً من الطقس الديني. ثم تقدّم ضابط يضع قناعاً أسود وأطلق النار على رأسه للتأكّد من موته».

وقد أصبحت فِرق القتل الإسرائيلية أرخص الآن: رُقاقة كمبيوتر تُشغّل القنبلة في هاتف خليوي، أو عميل من العائلة، أو رذاذ من الشعاع على سقف سيّارة لإنذار طائرة أباتشي إسرائيلية لإطلاق صاروخ هلفاير Hellfire على السيّارة الفلسطينية. إنه اغتيال بعيد المدى. وإنها حرب دولية غير قانونية كان الفلسطينيون أنفسهم متّهمين بها في الماضي. ففي مرحلة السبعينيّات، كان العملاء الإسرائيليون وعملاء منظمة التحرير يقتل بعضهم بعضاً في أوروبا وفق سياسة الردّ والردّ المضادّ ممّا أغضب قوّات الأمن الأوروبية. وفي بيروت، تورّط اثنان من الإسرائيليين في قتل زعماء فلسطينيين وهما إيهود باراك وآمنون شاحاك. وقد أصبح شاحاك قائداً عسكرياً إسرائيلياً في لبنان عام ١٩٨٢. في حين أن إيهود باراك الذي أصبح رئيساً للوزراء هو مَن يُعيد الآن إطلاق فِرق القتل.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولدى «حماس» و«الجهاد» قتلة خاصّون بهما، ويقتل انتحاريّوهما المدنيين والجنود على السواء، والضحايا المجهولون هم أكثر من ضبّاط المخابرات الإسرائيلية. لكنّ القتلة الإسرائيليين يقتلون أرواحاً بريئة أيضاً. فقد أدّى هجوم هيلكوبتر على مقاتل فلسطيني عام ٢٠٠١ إلى تمزيق امرأتيْن فلسطينيّتيْن أشلاء ولم يقدّم الإسرائيليون اعتذاراً. وقد اعترف ابن أخي فلسطينيّ اغتاله الإسرائيليون في نابلس لاحقاً للسلطات الفلسطينية بأنه هو مَن حدّد مكان عمّه للإسرائيليين. وقال للمحقّقين: «قالوا لي إنهم كانوا سيعتقلونه فقط. ثم قاموا بقتله». وعندما أعطى أرييل شارون الأمر بقتل مسؤول من حماس في غزّة، قامت طائرة إسرائيلية بقصف مجمّع سكنيّ ممّا أدّى إلى مقتل ١٧ مدنياً بينهم تسعة أطفال. ووصف شارون الهجوم بأنه انتصار على الإرهاب.

ويعتقد جهاد الوزير، وهو باحث اقتصادي في غزّة الآن، أن الأشخاص الذين يستبعدون استهدافهم، يجدون أنفسهم الآن عُرضة للهجوم. «هناك جهاز مشترك بين الجيش الإسرائيلي ومخابرات سلاح الجوّ والموساد والشين بيت، يعمل معاً، ويغذّي الجميع بالمعلومات. يستطيعون عبور الخطوط بين المنطقة ج والمنطقة ب في الأراضي المحتلّة. وهم يقومون بعمليّاتهم عادة عندما تكون معنويات جيش الدفاع الإسرائيلي منهارة. عندما قتلوا والدي، كانت معنويات الجيش الإسرائيلي في أدنى مستوياتها بسبب الانتفاضة الأولى. لذلك ذهبوا إلى عمل استعراضي ليظهروا مدى عظمة مقاتليهم. والآن تُعتبر معنويات جيش الدفاع الإسرائيلي متدنّية بسبب الانتفاضة الثانية».

يهتمّ ضبّاط الأمن الفلسطينيون في غزّة بالمنطق الكامن وراء عمليات القتل الإسرائيلية. وقد أبلغني أحد المسؤولين الفلسطينيين: «يجتمع رجالنا مع رجالهم ونحن نعرف ضبّاطهم وفعاليّتهم، أقول لك بصراحة، هم فاسدون وغير منضبطين مثلنا وكذلك قُساة. وعندما استهدفوا موكب محمّد دحلان بينما كان عائداً من مباحثات أمنيّة، تحدّث دحلان إلى وزير الخارجية بيريز وقال له: «انظر ماذا يفعلون بنا، ألا تدرك أنني مَن أخذ ابن شارون لمقابلة عرفات؟».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ويفهم جهاد الوزير بعض منطق فِرق الموت: «لديها بعض التأثير لأننا مجتمع مرتبط بسلطة الأب ونؤمن بفكرة الشخصية الأبويّة. ولكن عندما اغتالوا والدي، لم تتوقّف الانتفاضة، صحيح أنها تأثّرت، لكن فشلت كلّ الأهداف السياسية للاغتيال، وعوضاً عن إحباط معنويات الفلسطينيين فقد عزّزتها. يقولون إن هناك الآن مئة فلسطيني على لائحة القتل. كلّا، لا أعتقد أن الفلسطينيين سيطبّقون أسلوب القتل نفسه ضدّ المخابرات الإسرائيلية. ذلك أن الجيش يُعتبر مؤسّسة، نظاماً، واغتيال ضابط يؤدّي إلى استبداله». كان قُتل معارضين سياسيين أو عسكريين ضمن عمل خبراء إسرائيليّين في لبنان حيث يتمّ قتل قادة الثوّار اللبنانيين بانتظام بواسطة عبوّات ناسفة مخبّأة أو غدراً من قِبل فِرق القتل التابعة لشين بيت كما حصل في قضيّة مسؤول أمل في قرية بدياس بعد استجوابه. وكل ذلك باسم الأمن(*).

(*) هناك خطّ غني بالمعلومات حول سياسة اغتيال الإسرائيليين لمناوئيهم داخل إسرائيل، وفي الضفّة الغربية وغزّة. في عام ١٩٨٤، ضُرب اثنان من أصل أربعة خاطفين للباصات حتى الموت من قِبل عملاء الشين بيت بعد استجوابهما، وقد تم الاعتراف بذلك فقط عندما قدّم مصوّرون صحفيون صوراً للرجلين لدى اعتقالهما أحياء من الحافلة. وقد وصف وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك إسحق رابين عملية القتل بأنها حادث. عام ١٩٩١، بدأ محامون فلسطينيون ومجموعات حقوق الإنسان بإعادة تفحّص عشرات القضايا لفلسطينيين كانوا قد قتلوا خلال الانتفاضة الأولى بعدما كشف التلفزيون الإسرائيلي عن وجود فِرق القتل في الجيش الإسرائيلي. وفي بداية عام ١٩٩٢، أفاد شهود إسرائيليون أنهم رأوا جنوداً إسرائيليين بملابس مدنيّة يفتحون النار على مُقنّعين فلسطينيين كانوا يرسمون شعارات على الجدران في منطقة الدورة في الخليل.
إن تقرير منظّمة العفو الدولية الصادر يوم ٢١ شباط/فبراير ٢٠٠١ حول إسرائيل والأراضي المحتلّة: «عمليات اغتيال الدولة وعمليات قتل أخرى غير قانونية» يُعتبر بحثاً دقيقاً حول عمليات القتل الإسرائيلية التي تتضمّن مقتل الدكتور ثابت ثابت (٤٩ عاماً) وهو ناشط سابق من «فتح» عُيّن فيما بعد ممثّلاً لمنظمة التحرير الفلسطينية في مفاوضات مدريد للسلام، وأقام علاقات صداقة عديدة مع حركة السلام الإسرائيلية. جرى اغتيال ثابت وهو طبيب أسنان من طولكرم داخل سيّارته من قِبل القوّات الإسرائيلية يوم ٣١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠. وقد ادّعى الإسرائيليون لاحقاً أنه كان قائداً لخليّة تنظيم «ترشد الناس كيف يقومون بهجمات»، وهو تفسير غير مُقنع لقتل فلسطيني حضر جنازة جندي إسرائيلي، ابن داعية سلام إسرائيلي صادقه. أصبح قتل قادة حماس والجهاد الإسلامي روتيناً وساعدت في ذلك فتوى أحد كبار=

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أعود إلى مفترق طرق عيّوشه والاشتباكات. تتساقط الحجارة على سطح سيّارات الجيب الإسرائيلية وتسقط على الطريق وتصطدم بالأعمدة المعدنية للوحات الدعاية الملقاة أرضاً منذ وقت طويل. شاهدت جنديّاً شابّاً يفتح باب سيّارة الجيب كلّ دقيقة أو أكثر ويسدّد بندقيته بعناية ثم يطلق النار وينسحب إلى الداخل. كان يقوم بذلك كلّ نصف ساعة ثم يعود وينظر إليّ. سألني: «من أين أنت؟ ربّما التقينا في حانة، أو على الشاطئ، أو تصادفنا في مكتب أحدهم». من بريطانيا! ابتسم الجندي ابن الواحد وعشرين عاماً: «أنا من كوينز، نيويورك. والآن أنا على مفترق طرق عيّوشة رام الله. مجرّد رحلة! هذا أكثر مرحاً من كوينز». مرح؟ هل أسمعه جيّداً؟ مرح؟ «حسناً، على الأقلّ أنت هنا لا تتعرّض للإصابة بينما تنتظر على الإشارات الضوئية». وابتسم. «اسمي إيلان». واستمرّت الحجارة تتساقط على الأسطح المعدنية لسيّارات الجيب.

= حاخامات إسرائيل. لقد ادّعى الحاخام الإسرائيلي «مائير لو» يوم ٢٧ تموز/يوليو ٢٠٠١، أن الشريعة اليهودية تعطي دعمها الكامل لسياسة القتل النشطة التي تخطّط لها وتنفّذها قوّات الأمن الإسرائيلية اليوم لمنع الإرهابيين من التخطيط والقيام بهجمات في إسرائيل. وفي اليوم نفسه، أعلن الزعيم الروحي لحزب «شاس» المتطرّف دينياً، الحاخام أفاديا يوسف في خطبة منقولة عبر إذاعة الجيش الإسرائيلي، أن العرب يتوالدون مثل الحشرات ويجب إرسالهم إلى جهنّم». قال: «في مدينة القدس القديمة، يزحفون كالنمل وعليهم الذهاب إلى جهنّم وسيُسرّع المسيح خطاهم».

وقد ندّدت المجموعة الإسرائيلية لحقوق الإنسان «بيت سلم» " B'Tselme بالممارسة غير الأخلاقية وغير القانونية لقتل المطلوبين الفلسطينيين في الأراضي المحتلّة. وفي عام ١٩٩٣، أحصت منظمة حقوق الإنسان الأميركية مقتل ١٢٠ فلسطينياً من قِبل وحدات إسرائيلية سرّية منذ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧. وعندما حاولت فرقة من الموساد اغتيال خالد مشعل، مسؤول حماس في الأردنّ عام ١٩٩٧ ـ انتقد الإسرائيليون الهجوم ليس لكونه غير قانوني بل لأنّه فشل ـ وحتى الرئيس مبارك كان مجبراً على وصف العملية بأنها غير أخلاقية. وقد صُدمت إسرائيل بالاعترافات المبكّرة لرجال أمنها الذين قتلوا عشرات الجنود المصريين في حرب الشرق الأوسط عام ١٩٦٧، وتمّ اكتشاف قبورهم الجماعية في سيناء، وقد وصف رابين جريمة الحرب هذه بالشاذّة. ويشتمل الموت دائماً على معيارَيْن. ففي عام ١٩٩٨، على سبيل المثال، قال نظام الأمن الاجتماعي الإسرائيلي إنه لا يستطيع التعويض على عائلة فلسطيني قُتل على يد مسلّح إسرائيلي لأنه وفق القانون الإسرائيلي إذا قُتل عربي على يد «إرهابي يهودي» لا يُعتبر ضحية إرهاب، بينما يُعتبر كذلك اليهودي المقتول على يد عربي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

انطلقت قنابل الغاز عبر السماء الحارّة باتجاه الشباب المختبئين خلف هيكل حافلة، مستخدمين مقاليع ـ أستطيع رؤيتهم بوضوح عبر الدخان ـ لإعطاء حجارتهم زخماً. كان الإسرائيليون يطلقون رصاصا مطّاطيّاً معظم الوقت ممّا جعل أُذنيّ تطنّان ـ كان طنين الأذنين من الأسلحة العراقية الممزوجة بالبنادق الإسرائيلية أعلى صوتاً من أيّ إطلاق نار في أفلام هوليوود التي على ما يبدو أخذ إيلان السيناريو منها. تراجعت إلى الخطّ عند الإشارات الضوئية. بالطبع، هناك إمكانية أكبر للموت عند الإشارات الضوئية في الضفّة الغربية منها في نيويورك. قال إيلان: «إسرائيل مكان عظيم». لكن هذه ليست إسرائيل. وتهيّأ لي من خلال مراقبة هؤلاء الشبّان في لباسهم الأخضر الساخر أنهم قد مارسوا طقسهم الديني. وضع جنديان قنابل غاز في بنادق زملائهم. وأشار جندي لزميله إلى شابّ يركض فأطلق هذا طلقة باتجاهه. وتحرّكت سيّارة إسعاف نحو الشاب الملقى الآن على الأرض. ثمّ أصاب أحد الجنود شابّاً آخر في ظهره. ثمّ وصل النقيب شاي في سيّارة جيب أخرى لمراقبة المشهد المزعج (وهو يعمل محاسباً في تلّ أبيب) مع سائقه (موظّف التأمين، عندما لا يراقب رماة الحجارة في رام الله)... وفي مؤخّرة الجيب، يجلس طالب إدارة أعمال مغربي الأصل واضعاً بندقيته على رُكبتيْه، وهو يناقش السياسة بفرح مع «شاي» المهتمّ أكثر بالزواج بصديقته بعد ستّة أشهر من نتيجة العرض المسرحي اليوم في عيّوشة. كانت النقاشات مألوفة. يومئ «شاي» برأسه ـ إنه يصف المواجهة الحالية بالطقس الديني ـ لكنه يعتقد بأن الجيش الإسرائيلي لا يستطيع «إفساح المجال»؟ إفساح المجال؟ لكن هذه ليست إسرائيل. خاطرت بتقديم فكرة هرطوقيّة مُفادها أنه خلال عشر سنوات ستعود إسرائيل إلى ما وراء حدود ١٩٦٧ (ولا أعتقد بذلك الآن) ـ ووافق شاي بذهول. لكنّ الطالب في الجيب لم يوافق. «إذا انسحبنا من هنا، نُظهر أننا ضعفاء. عندها سيطالب العرب بكلّ إسرائيل وسيحاولون استعادة حيفا وتلّ أبيب».

إنّه الجدل المملّ نفسه الذي كنت أسمعه من الجنود الإسرائيليين في لبنان. إذا بقينا فنحن أقوياء. وإذا غادرنا نحن ضعفاء. يفهم العرب أسلوب القوّة فقط.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وفي وقت ما، أشار شاي نحو رُماة الحجارة وقال: «إنهم حيوانات». فسألت: لماذا؟. «لقد شاهدت ماذا فعلوا بجنودنا في مركز شرطة رام الله». أجل لدى كل إسرائيلي تلك الصورة محفورة في ذهنه. ليست صورة الأطفال المسحوقين ولا صورة محمّد الدرّة الذي سقط قتيلاً تحت وابل من الرصاص الإسرائيلي، بل صورة القتل الوحشي لاثنين من جنود الاحتياط الإسرائيلي. وتوجد على الإنترنت صور كثيرة لوجهيهما المشوّهين بشكل بشع. وقد شاهدها العديد من الجنود. وقال شاي: «إن إعلامكم مسؤول جزئياً عن هذه الصور. وتجعلون هذا المكان ساحة حرب نتيجة للحجارة وإطلاق النار». أجبت: «لكنّ شارون هو مَن فعل ذلك. شارون هو الذي ظلّ يُبلغ العالم أن إسرائيل تحت الحصار وأنها تعرّضت للاعتقال من «الإرهاب الدولي».

تلقّى شاي على هاتفه الخليوي اتصالاً من عائلته. قال: «إنهم على الشاطئ حيث يجب أن نكون». وبدا لي أن هؤلاء الجنود لديهم خيار في الحياة.

يستطيع شاي أن يكون على الشاطئ ويستطيع الجندي في مؤخّرة الجيب أن يكون برفقة صديقته. لكنّ الفلسطينيين في الجانب الآخر من خطّ النار لا يستطيعون الذهاب إلى أيّ مكان. إنهم مسجونين وتحت حصار حقيقي. وكان تدهور مستوى العيش عملية متزايدة تماماً كما تحرّكت الحرب بشكل متزايد من الألم إلى حمّام الدم.

أليس هذا هو ما حدث في حرب الجزائر ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢؟ لقد بدأت تلك الحرب كإزعاج ـ قُطعت الأشجار لإغلاق الطرق وخُرّبت سكك الحديد وألقت الجموع الجزائرية الحجارة على القوّات الفرنسية ـ وانتهت بوابل من القذائف ومجازر القرى. كان هناك الكثير من عمليات التعذيب أيضاً قادها شخصيّاً ضبّاط فرنسيون كبار. وحصلت عمليات إعدام جزائريين من قِبل جزائريين. ولذلك أيضاً تحوّلت الانتفاضة الفلسطينية نحو الفوضى. من رُماة للحجارة إلى انتحاريين ومن قنّاصة إلى طيّارين انتحاريين. ويتعرّض الفلسطينيون يوميّاً للتعذيب على يد ضبّاط إسرائيليين في المجمّع الروسي في القدس. ويخضع الفلسطينيون بانتظام وبشكل علنيّ لعمليات تصفية لتعاونهم مع العدوّ.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في أواخر تموز/يوليو ٢٠٠٠، أطلق الإسرائيليون صاروخاً على مكتب مسؤول حماس في نابلس. وأدّى انفجار الصاروخ الأميركي الصنع بالطبع إلى مقتل طفلَيْن فلسطينيَيْن. وقد طالب مئة ألف محزون بالثأر. وحدث أن سائق باص إسرائيلياً يُدعى مناش نورييل توقّف لإصعاد شاب فلسطيني في السابعة عشرة من العمر وهو في طريقه من القدس إلى كريات شمونة. وقد اشتبه السائق بالشابّ ولاحظ أسلاكاً ظاهرة من الحقيبة التي يحملها فتعارك معه في الباص بينما كان ٤٦ راكباً يراقبون بذهول. كانت الحقيبة تحتوي على ثلاث قذائف هاون عيار ٨١ ملم ومتفجّرات كانت ستقتل كلّ راكب في الباص. وأبلغني الشرطي الإسرائيلي خارج بوّابة دمشق أنه «إذا لم يحصل ذلك اليوم فهو سيحصل غداً». سألت الرجل: «لكن إذا كان الردّ الفلسطيني حتمياً فلماذا إذن قُتل مسؤول حماس في نابلس». تململ وقال: «إنها حرب ونحن نعرف ما هي الحرب. لا داعي للقلق فالمكان هنا آمن من لندن» لكنه ليس كذلك.

تُعتبر القدس مدينة أوهام. وعد أرييل شارون شعبه هنا بالأمن وجلب لهم الحرب. على الطريق الرئيسي إلى معال أدونيم داخل حدود إسرائيل البلدية غير الشرعية، يقود الإسرائيليون بسرعة تفوق مئة ميل في الساعة. وفي المدينة القديمة، يوجّه الجنود الإسرائيليون والمدنيّون الفلسطينيون الشتائم بعضهم إلى بعض أمام عدد من السيّاح المسيحيين المذهولين. إنّ حبّ المسيح لا يساعد على تهدئة الصراع العربي ـ الإسرائيلي. وقد وصف جدعون ساميت الأمر بصدق في صحيفة هآرتس: «تبدو القدس مثل بوسنة ستنشأ. وقد أصبحت الطرق الرئيسية داخل الخطّ الأخطر قاتلة وأصبحت ضواحي العاصمة معرّضة مثل رامات راشيل إبّان حرب الاستقلال». ويبالغ ساميت بعض الشيء، إذ تبدو الحياة أكثر خطورة بالنسبة إلى الفلسطينيين منها إلى الإسرائيليين. إرهاب، إرهاب، إرهاب. ويبلغنا شارون: «أقترح أن نردّد لأنفسنا ليلاً ونهاراً أنه لن تكون هناك مفاوضات مع الفلسطينيين حتى الوقف التامّ للإرهاب والعنف والتحريض».

لكنّ ذلك لا يعني أن على فِرق القتل الاسرائيلية التوقّف عن الاغتيال بالثقة بالنفس ذاتها أو أن على المستوطنين الإسرائيليين التوقّف عن قتل المدنيين

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفلسطينيين. إن الانتحاريين الفلسطينيين هم وحدهم الذين يجب أن يتوقّفوا عن قتل الإسرائيليين الأبرياء. وقد وضع محام فلسطيني نسخة من صحيفة «وال ستريت جورنال» أمام نظري. وصرخ بي: «إنّ صحفكم تؤسّس لمعاناتنا». كنت أرغب في التنصّل من أيّ ارتباط ممكن مع صحيفة مانهاتن اليمينية «تمّت تصفية الإرهابيين الأعداء جرّاء سوء أعمالهم... إنها حرب في وضح النهار... بارعة ولكنها ليست أقلّ فتكاً». العدوّ؟ تمّت تصفيته؟ لا إشارة في الـ «وال ستريت جورنال» إلى مقتل الطفلين في الهجوم على مكتب مسؤول حماس.

أوّلاً حدثت تغيّرات في الضغط الجوّي، ثم كان صدى قصف دبّابة. نظرت من النافذة عبر سهل كيدرون إلى قبّة الصخرة التي تشعّ بالأنوار فوق المدينة القديمة. لقد مضى وقت طويل على المغيب لكنّ الحرب الإسرائيلية الفلسطينية صارت الآن صوتاً مألوفاً في القدس بينما تقصف الدبّابات بيت جالا. قبل ساعات قليلة حاول الإسرائيليون اغتيال مروان ديريّة وهو عنصر من القوّة ١٧ في رام الله، فأطلقوا صاروخين أرض ـ أرض على سيّارته في شارع بوغنقيلا المكتظّ وأخطأوه في المرّة الأولى ـ ممّا أعطى ديريّة الوقت الكافي للخروج من سيّارته ـ وأصاب الصاروخ الثاني السيّارة. وعلى الفور اعتبر الإسرائيليون ديريّة إرهابيًّا قيادياً. هل أوقفت محاولة اغتيال ديريّة الهجمات الفلسطينية في بيت جالا؟ وإذا كان الأمر كذلك، فماذا يعني هجوم طائرة هيلكوبتر إسرائيلية على مركز شرطة فلسطيني في مدينة رفح في قطاع غزّة؟

بعد وقت قصير من وصولي لرؤية حُطام سيّارة ديريّة في رام الله، أطلق الإسرائيليون النار بشكل مباشر من معسكر عسكري كبير ومستوطنة غير شرعية على التلّة المجاورة. بعدها قام فلسطيني بالردّ. عُنصر من حماس؟ من الجهاد الإسلامي؟ شابّ يقود سيّارة سوداء مرّ بسرعة قرب إحدى قواعد الجيش الإسرائيلي الرئيسية في تلّ أبيب وأمطر بالرصاص مجموعة من الجنود كانوا يستعدّون للذهاب إلى الغداء. إنه مثل الإسرائيليين يحاول قتل أعدائه. أصاب عشرة رجال بجروح قبل أن يطلق مسلّح إسرائيلي النار على رأسه فيصطدم بعمود إنارة. كانت تلك أوّل محاولة اغتيال بالسلاح من قِبل الفلسطينيين داخل إسرائيل منذ سنة! وهذا عنصر جديد آخر يُضاف إلى الحرب.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في اليوم التالي كنت أقود سيّارتي بسرعة على الطريق السريع شمال تلّ أبيب، الطريق الأسرع للوصول إلى طولكرم إذ لم أشأ التوقّف عند نقاط التفتيش الإسرائيلية خارج رام الله. أبلغني الجندي الإسرائيلي عند حدود الضفّة الغربيّة أنه «إذا استدرت يميناً وسرت ٣٠٠ متر ثم استدرت يساراً، تجد ابن الكلبة عند نقطة التفتيش». لكن «ابن الكلبة» ليس هناك. لا يريد الشرطي الفلسطيني عند تقاطع طولكرم الموت في أيّ كمائن إسرائيلية عن طريق الخطأ، والطريق هي عبارة عن مهرجان منتصف نهار حارّ من الدواليب والحجارة والرصاصات الإسرائيلية الفارغة وأكياس الرمل المتناثرة. كان علم فلسطيني ممزّق يتدلّى فوق نقطة التفتيش المهجورة. وغير بعيد ينتشر الغضب حارّاً مثل الشمس. إنه يوم ٦ آب/أغسطس ٢٠٠١. وهم يستعدّون لدفن عُمر حسن الخُضيري ويبحثون عن الرجل الذي خانه.

كان عُمر الخُضيري الناشط الشابّ من حماس (يمكن تسميته مقاتلاً، إرهابيّاً، متطرفاً أو مناضلاً أو أي شيء) الذي احترق حيّاً عندما قام طيّار إسرائيلي يقود طائرة أباتشي أميركية الصنع، وينفّذ سياسة دولة القتل التي تعتمدها إسرائيل، بإطلاق ثلاثة صواريخ أميركية الصنع على سيّارة الخضيري. لم يكن هناك شكّ حول هويّة الصانع. لكن هل كانت السيّارة سيّارة الخضيري؟ كان رجل أمن «فتح» الواقف خارج مجموعة من المحلّات العثمانية البناء أكثر اهتماماً بالسيّارة منه بالصاروخ.

قال: «لم يبقَ شيء منه، لقد تمزّق واحترق حيّاً. كان مجرّد رماد. لكن لدينا معلومات أنه كان على سقف السيّارة نوع غريب من الطلاء». قال ذلك ورفع نظره كما لو كان ما قاله سؤالاً أكثر منه معلومة صغيرة ومهمّة. سألت عن الصاروخ. ففتح باب سيّارته وأخرج شيئاً من المقعد الخلفي وأعطاني قطعة من الحديد ـ ربّما كان طولها ستة إنشات ـ مع أنبوبيْن معدنييْن مربوطيْن بها ورقم متسلسل: ١٨٨٧٦-١٣٤١١٩٢٣-١٤٠٦٤. لقد شاهدت مثل هذا الجزء من الصاروخ والأرقام المتسلسلة في لبنان. كانت دائماً من صنع لوكهيد، صواريخ تطلق من طائرات أباتشي. إذن للوكهيد دور في مقتل الخضيري مع أن ذلك لم يكن ليهمّ رجل فتح.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

قال: «لم يكن الخُضيري يقود سيّارته الخاصّة. لقد استعار هذه السيّارة، وكان مالكها قد أخذها إلى إسرائيل الأسبوع الفائت. إنه مفقود الآن. ونحاول العثور عليه(*). لقد حلّقت الهيلكوبتر فوق الجسر خارج المدينة وأطلقت ثلاثة صواريخ. ونعتقد أن نوعاً من الطلاء كان قد وضِع على سقف السيّارة». الرسالة واضحة! تعتقد فتح أن الخضيري تعرّض لخيانة من قِبل متعاون، وهو على الأرجح صاحب السيّارة الذي سمح للإسرائيليين برشّ بعض الرذاذ على السطح لتوجيه الصاروخ. أو ربّما كان هناك صفّارة من نوع ما أو شيفرة كمبيوتر.

بعد ظهر اليوم نفسه، أعلنت الشرطة الإسرائيلية أنها اعتقلت فلسطينياً كان يستعدّ لتنفيذ عملية انتحارية في تلّ أبيب. كلّ ما كان يحتاج إليه هو المتفجّرات التي كان من المفترض أن يحضرها عُمر حسن الخضيري. أو هكذا قالوا. علماً بأن روايات الأمن الإسرائيلية تفتقر غالباً إلى الحقيقة. لكن في طولكرم هناك حقائق قليلة تنتشر. الحقيقة الأولى تتمثّل في وجود أكثر من جثّة. إن الجثّة التي

(*) تلافياً للمحاكمات الطويلة التي أصدرت أحكام الموت ضدّ تسعة متعاونين مع العدوّ حتى الآن، تقوم مخابرات عرفات الآن بقتل الفلسطينيين المشتبه بتجسّسهم لصالح إسرائيل،وقد قتلوا حوالى عشرين رجلاً بين كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠ وآب/أغسطس ٢٠٠١. ولم تحقق الشرطة الفلسطينية في عمليات قتل الرجال الذين يُعتقد أنهم تعاونوا مع المخابرات الإسرائيلية والذين يساعدون بشكل ما إسرائيل على قتل مناضلين فلسطينيين. وقد اعترف لي بسّام أبو شريف أحد مستشاري عرفات، «أن هؤلاء الأشخاص الذين أعدموا، قتلتهم المخابرات بناء على أوامر بسبب المعلومات المؤكّدة والاعترافات المسجّلة. وقد جرى قتل هؤلاء على أيدي المخابرات الفلسطينية في مناطق تقع تحت سلطتنا الأمنية. وتمت تصفية الكلّ في المنطقة ب أو ج حيث كانوا محميّين من الأمن الإسرائيلي». وقد وجِد قاسم خلف ميتاً عند نقطة تفتيش قرب الرام يوم ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠ وجرى اتهامه بتزويد «الشين بيت» بمعلومات حول تحرّكات حسين عبيّات الذي اغتيل قبل ثلاثة أيام. وأطلق مسلّحون النار على عدنان فتحي سلطان في العنق والبطن بعدما اقتادوه من منزله في بيت لحم يوم ١٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠ لاعتقادهم بأنه تعاون مع الإسرائيليين لاغتيال يوسف أبو سواي قبل خمسة أيام. وفي ٣٠ تموز/يوليو ٢٠٠١، تلقّى جمال عبد شاهين (٦٨ عاماً)، وهو أكبر الضحايا، اتصالاً في منزله في بيت ساحور من رجال يرتدون لباس الشرطة الفلسطينية وطلبوا منه مرافقتهم إلى الشارع. وهناك أطلقوا النار عليه أحد عشر مرة وقاموا بضرب جثته ببلطة. ومنذ عام ١٩٩٣ حتى صيف ٢٠٠١، توفّي ما مجموعه ١٨ فلسطينياً في السجون الفلسطينية معظمهم تحت التعذيب على يد محقّقين تلقّوا تدريباً من قبل وكالة الاستخبارات الأميركية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

رأيتها تنقل من المسجد الصغير ملفوفة بالعلم الفلسطيني وعصبة حول الرأس، تكشف عن الفم والشارب فقط، لم تكن للخضيري بل لمحمد مَزْيَد وهو عُنصر من فتح عمره ٢١ سنة قتله الإسرائيليون ـ ولم يُعلن عنه ـ قبل أربع وعشرين ساعة. راقبت الفم والشارب والجثمان تنتقل بين الحشود إلى المسجد الثاني حيث وُضِعت بقايا الخضيري التي تنتظر الدفن. ثم خرج من المسجد أربعة أعضاء من حماس يسيرون بخطى عسكرية ويلبسون قُفّازات خضراء وعيونهم شاخصة ـ ويضعون سيوف الاستشهاد على ظهورهم، وهم يرفعون حمّالة خشبية مغطّاة بالعلم الأخضر بدت وكأنّها تحمل القليل المتبقّي من الجثّة...

وكان رجل في منتصف العمر جالساً على الرصيف، يرتجف ويعرق «لقد رأى ما حصل لصديقه بالأمس ـ رآه يتحوّل إلى رماد» كما قال ابن عمه. كان مأتماً معتاداً. كان هناك عشرة آلاف منتحب ومكبّر للصوت يصرخ «اللّه أكبر»، وزخّات غاضبة من رشقات الأسلحة الآليّة للشباب الذين كانوا يطلقون رصاص رشّاشاتهم ومسدّساتهم في آن واحد. شقّوا طريقهم بين البيوت الطريّة والقديمة في طولكرم عبر السوق الذي يقف بائعوه وحميره بين أكوام من الخوخ والقرنبيط والبصل والخسّ والبندورة (الطماطم) والبطاطا والإجّاص والتفّاح والبطّيخ. حياة في وسط الموت.

حصل مزيد من إطلاق النار في المقبرة حيث يتقبّل والد الخضيري منصور التعازي (وهو شخص معروف، أشيب الشعر، وأستاذ في ثانوية طولكرم) من مئات المعزّين. وهكذا كان ابنه الحزين والباكي، شقيق عُمر، الملتحف بشال أخضر حول عنقه بينما كان الجثمان محمولاً على أكتاف المسنّين والشبّان والمسلّحين.

وضِعت الجثّة في القبر وقام مسؤول حماس المحلّي عباس زياد بإلقاء خطبة صغيرة ومؤثّرة. قال: «أحبّ عزيزنا وأخونا عُمر والديه، وقبل مغادرته منزله للمرّة الأخيرة قال لهما: والدي ووالدتي الحبيبيْن، إذا متّ لا تنتحبا عليّ». رفع آلاف المشاركين حول القبر أعينهم وقالوا مجدّدا «الله أكبر». أهو تنبّؤ؟ أم أن عُمر الخضيري كان في مهمّة لا يتوقّع العودة منها، مهمّة قام بها ـ لسوء حظّه المميت ـ في سيّارة شخص آخر؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جاء دويّ الانفجار بشكل صدمة على بعد كيلومتر. كنت أتناول الطعام في حانة في القدس الغربية فالتفتّ إلى النادلة الإسرائيلية وقلت «انتحاري» فأومأت برأسها وتحرّكت يدها اليمنى لاشعورياً نحو فمها. أعطيتها شيكلات تُقدّر بأكثر من قيمة الطعام وانطلقت نحو شارع يافا، نحو دخان بنّي ورماديّ وسخ يتصاعد عالياً. وصلت إلى هناك بينما كانت الشرطة والجنود يخرجون من سيّاراتهم. خارج مطعم سبارو، كانت سيّدة ممددة على الأرض ونخاعها خارج رأسها. وكانت هناك طفلة في الثالثة، وربّما في الخامسة من العمر، مشوّهة وعيناها ممزّقتان جاحظتان. إنها الفظاعة التي كان كلّ إسرائيلي ينتظرها. انتحاري فلسطيني يفجّر نفسه في مطعم بيتزا للعائلات مزدحم قبل الساعة الثانية من بعد ظهر يوم حارّ في القدس الغربية. كانت هناك دماء وزجاج على أرض الشارع وعلى حمّالات سيّارات الإسعاف (نجمة داوود الكبرى) وعلى وجوه الذين نجوا. أحصيتُ قتيلين حتى رأيت امرأة أخرى وفي معدتها رِجل طاولة. ثلاثة قتلى ثم خمسة. وأحصى مصوّر مجلّة شتيرن الألمانية، جينس بالم، عشر جثث خلال دقيقتيْن. ورأى منظّم رحلات يهودي من برشلونة يُدعى يهودا (اسمه الأول مجهول وهذا من الأشياء القليلة التي يرغب الإسرائيليون والعرب في تقاسمها) جنديّاً يطير في الجوّ، وأشلاء وأجزاء جسم تطير في الدخان. وكانت غالبية الجثث صغيرة جدّاً. فقد كان أكثر من نصف القتلى من الأطفال الإسرائيليين.

يافا، أستطيع سماع الصوت الحقيقي ليهود القدس الغربية، الغاضبين والمصدومين والصريحين. صرخ شاب: «رأيت طفلاً ابن سنتيْن على الأرض أشلاء». وقال إن اسمه ألكسندر، وهو سمسار عقارات يهودي أمضى نصف سنة في أنتروب. «كان طفلاً صغيراً، ماذا كان يعرف من الحياة؟ لم يعرف شيئاً. كان أشلاء. شيء لا يُصدَّق». وتجمّع عدد من اليهود المتديّنيين حول ألكسندر، وهم يعتمرون قبّعات سوداء ويرتدون قمصاناً بيضاً، ويرخون ضفائرهم ويومئون برؤوسهم بشدّة. «عندما يُقتل فلسطيني أو اثنين، تقولون أنتم الصحافة للناس بأنها نهاية العالم. لكن الفلسطينيين يُرهبون بلادنا بمُجملها. إذا كنّا سنخوض

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حرباً، فليكن. ماذا يريد الفلسطينيون أكثر؟ عندما نعطيهم إصبعاً، يريدون اليد بكاملها. أعطيناهم ٩٨ في المئة من أرضهم». لاحظت كلمة أرضهم! ليست مئة في المئة؟ في الوقت الحاضر، هذا تفكير ماجن.

تحدّث دايفيد، وهو رجل أعمال من القدس، عن البربرية. ولعب دور المحرّض لحشد من الغاضبين من أصحاب المحلّات المتزاحمين حوله: «إذا لم يستطع عرفات السيطرة على شعبه، عندها علينا الذهاب إلى هناك والاستيلاء على الأرض وتطهيرها... انتهت الحفلة وربّما يجب إعادة وضعهم تحت الاحتلال. نحن نعاود قتال حرب ١٩٤٧. يعتقد العرب بأن لديهم مسؤولية محدودة. لكن إذا خسروا، فإنهم يذهبون للبكاء أمام العالم لمساعدتهم». لا أريد التفكير في ما تعنيه كلمة تطهير. على طول الشارع، انتشرت شرائط الشرطة ترفرف في الهواء الحارّ مثل أطواق حول أرض معرض، وتسطع الشمس فوق ملايين الشظايا من الزجاج، ورجال الشرطة بستراتهم الواقية وقد وصلوا الى أعلى درجات الترقّب بإمرة ضبّاطهم: القنبلة الثانية. لكنّ الانتحاريين يلفّون حزاماً ناسفاً واحداً فقط حول أوساطهم. ولقد تحرّكت الآن السلطة الفلسطينية، ويحاول المتحدّثون باسمها، غير الأكفاء وغير المفهومين، تذكير العالم بالخسائر الفلسطينية التي سبّبها مروّج الحرب المدعوّ شارون.

كانت عبارة «لا يُغتفَر» تراود الأذهان. ماذا فعل الطفل الفاقد العينيْن للفلسطينيين؟.

رنّ هاتفي الخليويّ. وكانت أجهزة الخليويّ ترنّ في الشارع على خصور رجال الشرطة والجنود، وفي أيدي موظّفي المحلّ المنتحبين، وعلى الأرصفة، وعلى الأجساد السليمة بأصوات قاسية وموسيقى بيتهوفن. تحدّثت معي إذاعة بلفاست! بلفاست؟ في وسط هذه المجزرة؟ بلفاست! قنبلة زُقاق تخاطب قنبلة زُقاق آخر. أبلغتني فتاة بلكنة أولستر Ulster أن منظمة «الجهاد الإسلامي» أعلنت مسؤوليّتها عن التفجير. كانت هناك آلة إطفاء حريق تتحرّك عبر الزجاج، وكنت مهموماً جدّاً لكي أتقبّل سخرية أحدهم في شمال إيرلندا وهو يبلغني مَن فجّر المقهى الذي بجانبي في القدس. أجرت «الجهاد» اتصالاً بوكالة الصحافة الفرنسية في عمّان. كنت أتحدّث بالهاتف وأجبرني صوت صفّارات الإنذار

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

والصراخ على رفع صوتي في المقابلة الحيّة بينما كنت أروي ما أرى، ولاحظت أنّ بعض الإسرائيليين بجانبي يُنصتون إليّ بغضب متزايد.

ليست زاوية شارع يافا وشارع الملك جورج المكان المناسب لمناقشة أسباب هذا الرعب. إن التذكير بالطفليْن الفلسطينييْن اللذيْن قُتلا في هجوم هليكوبتر صاروخي على نابلس ـ عُمر أحدهما سنتان والآخر خمس سنوات ـ أو عشرات الأطفال الفلسطينيين من رُماة الحجارة الذين قتلتهم القوّات الإسرائيلية أو أصغر ضحيّة لهذه الحرب، طفلة فلسطينية قتلها المستوطنون اليهود ـ إن من شأن هذا التذكير أن يؤدّي إلى إشعال الغضب . بالنسبة إلى الحشد الإسرائيلي المجتمع الآن خارج المحلّات ومعارض الأحذية في شارع يافا، هذا دليل إضافي ـ وربّما نهائي ـ على أنّ الإرهابي عرفات يريدهم جميعاً قتلى، محترقين أحياء، أمواتاً.

فوقنا كانت طائرتا هليكوبتر إسرائيليّتان تحوّمان في الهواء الحارّ بينما يجري دفع مجموعة من الشباب الهلعين إلى داخل باص للشرطة. هل اعتُقلوا؟ أم كان الأمر من أجل حماية العرب؟ في شارع «الذي يريد الحرب فقط وليس السلام». إنهم يقولون ذلك في الوقت غير المناسب وفي المكان غير المناسب.

ثمّ جاء يوم الحزن. وحتى قبل بدء مراسم تشييع الأربعة عشر قتيلاً، عرّف الإسرائيليّون عن القتلى كما لو كانوا عائلاتهم ـ كما لو أنهم بشكل ما عائلاتهم. وقبل أن يدفن خمسة أفراد من عائلة شكييفسوردر Schijveschuurdr في مقبرة غيفات شاول Givat Shaul خارج القدس ـ (غيفات شاول نفسها، أم تلك التي كانت دير ياسين) شاهد جميع الإسرائيليين الصورة في صحف الصباح: صورة حفلة «بار متسفاح»(*) لطفلتيْن صغيرتيْن كانتا في ثوبيْن أبيضيْن، ومعهما رجل متوسّط العمر يضع نظّارة. وينحدر الوالد مردخاي والوالدة تزيرلي من عائلات الناجين من الهولوكوست، عائلات عاشت فظائع النازية فقط ليُقتل أولادها ويتحوّلوا إلى أشلاء من قِبل انتحاري فلسطيني في القدس الغربية.

(*) «بار متسفاح هو حفل تسليم الأطفال اليهود دينهم وشريعة التوراة والتلمود عندما يبلغون سنّاً معيّنة ـ المترجم

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

خارج مطعم بيتزا سبارو، أضاء الإسرائيليون المئات من الشموع. هناك الكثير من الكلام عن الانتقام ـ كما هو حاصل في الجنازات ـ وتزايد الغضب مع استيلاء شارون خلال الليل على المكاتب الفلسطينية في القدس وقصف مقارّ قيادة الشرطة في رام الله وبدا ذلك ردّاً صغيراً بالنسبة إلى ما كان يتوقّعه الإسرائيليون. وقد أذكت هذه المرارة التقارير في التلفزيون الإسرائيلي حول احتفال الفلسطينيين بالمجزرة في شوارع رام الله. وكانت هذه التقارير صحيحة. وبين بيوت مخيّم عين الحلوة للاجئين في لبنان، كان الفلسطينيون يرقصون الدبكة التقليدية تعبيراً عن رضاهم عن عمليّات القتل.

وجاءت ابنة آل شكييفسوردر، ليا، وعمرها عشر سنوات، رغم جراحها الخطيرة، لتحضر جنازة أفراد عائلتها الخمسة... كانت مصمّمة على رؤيتهم وهم يُنزلون إلى داخل القبور، وقد وصلت على حمّالة وكانت تنظر إلى السماء الساطعة تراقبها ممرّضة وحولها أكثر من ألفيْ إسرائيلي. قُتل مردخاي وتزيرلي وأولادهما، سمدة (عمرها سنتان) وأبراهام (٤ سنوات) وريا (١٤ سنة) بواسطة القنبلة المفخّخة بالمسامير. وقد أصيبت شقيقة ليا حمدة بجراح خطرة في الانفجار. وتضمّنت لائحة القتلى أيضاً جوديث شوشانا غرينبوم من نيويورك، وكانت حاملاً في شهرها الرابع ويوشيفيد شوشان (١٠ سنوات) وتامارا شيمشاويلي (٨ سنوات) ووالدتها ليلي. وكانت الضحية الأكبر سنّاً فريدة ماندلسون البالغة من العمر ٦٢ سنة.

عندما اقتحم الجنود الإسرائيليون في الساعات الأولى من صباح ذلك اليوم المكاتب الفلسطينية في بيت الشرق في القدس ورفعوا العلم الإسرائيلي على سطح المنزل الفخم القديم بنوافذه المزخرفة وسطحه القرميدي، فعلوا أكثر من احتلال رمز عملية السلام الأساسية، المبنى الذي انطلق منه الفلسطينيون عام ١٩٩١ إلى مؤتمر السلام في مدريد. في داخل المنزل، عثر الإسرائيليون على خزائن لحفظ المستندات والخرائط، وملفّات مفاوضات «الوضع النهائي» التي كان يُفترض أن تجيء بالسلام النهائي للشرق الأوسط. وهكذا مات الحلم عندما اقتحم الجنود الباب الرئيسي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وفي مواجهة الخطر الحقيقي للانتحاريين، بدّد رجال شارون عطف العالم بإعلانهم أن بيت الشرق (بمسؤوليه الأبويِّين العجائز وبملفّات معاهدة السلام وبالتدفّق المستمرّ للزوّار الدبلوماسيين الأجانب) وعلى لسان دو غولد المتحدّث الرسمي باسم الحكومة الإسرائيلية، هو «وكر فعلي ومركز رئيسي للإرهابيين». ولم يخدع إقحام غولد الفاضح لكلمة «فعلي» الإسرائيليين الذين تساءلوا (وليس من غير حقّ) إذا كان بيت الشرق مركز إرهاب فلماذا لم تتم الإغارة عليه والتقليل من شأنه وإقفاله واحتلاله أو تدميره منذ سنوات؟ وقال لي صحفي إسرائيلي ساخراً: «نستطيع اصطياد إرهابيّيهم في الطرق الضيّقة لرام الله ولكن لم نعرف سوى الآن أن مقرّ قيادتهم الإرهابية كان على مرمى حجر من مكاتب المخابرات السرّية الإسرائيلية شاباك. ماذا علينا أن نصدّق بعد ذلك؟» ويقع مقرّ «الشين بيت» في المجمّع الروسي في القدس على بعد ألف متر من بيت الشرق. وإذا كان يجب تصديق غولد (وهو أمر مستبعد) فإن رجال الشرطة الإسرائيلية الذين كانوا يقفون خارج المبنى منذ ثماني سنوات، كانوا غير كفؤين، وذلك لسماحهم لجميع هؤلاء الإرهابيين بالدخول والخروج من مركزهم المهمّ طيلة عقد من الزمن. وهكذا انطلق الحسّ المعتاد بوجود عدم تناسب...

جرى دفن فلسطينيّيْن قتلهما الجنود الإسرائيليون في غزّة بعد يوم من تفجير سبارو وسط مشاهد الحزن والغضب. وكان معظم الإسرائيليين غير عابئين بمقتلهما. وبينما كانت صحف غربية عديدة تحثّ حكومة شارون على الانتقام بشكل دموي، كان هناك صحفي إسرائيلي يقدّم الردّ الأكثر كرماً وعقلانية لمجزرة الإسرائيليين. سأل جدعون ليفي في صحيفة هآرتس:

> «بِمَ يجب أن يشعر سكّان قرية عنين حيال مقتل مصطفى ياسين، وهو أحد سكّان القرية ، وذلك أمام أعين زوجته وابنته الصغيرة؟ وفيمَ يجب أن تفكّر عائلة ماجد جلّاد وهو طفل في الخامسة من عمره معلّق بين الحياة والموت، بعدما أصابه الجنود في معدته؟... وماذا عن مصير عشرات آلاف الفلسطينيين الذين أصبحت حياتهم جحيماً بسبب الإغلاق والحصار؟ ما هي المشاعر التي تنتابهم وما هي براعم الكارثة التي سينتجونها؟».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وكتب ليفي أنه حان الوقت لقول الحقيقة: «فضحايا الانتفاضة هم ضحايا مشروع الاستيطان».

كم من الفلسطينيين الانتحاريين ينتظرون الموت؟ بعد سبارو ـ وحرقُ ٢١ شاباً إسرائيلياً في نادٍ ليليّ في تلّ أبيب قبله ـ كان كلّ إسرائيلي يسأل هذا السؤال. يوم ٢١ آب/أغسطس ٢٠٠١، نزل محمّد نصر من سيّارة أجرة وسار نحو سطيحة مقهى «وال ستريت» في كريات موتزكين شماليّ حيفا وفجّر نفسه مصيباً عشرين شابّاً إسرائيلياً بجراح. قال صاحب المقهى أهارون روزمان إنه شاهد نصر يسير نحو السطيحة المحاطة بأشجار البلح. «تقدّم من نادلة ورفع قميصه ليكشف عن المتفجّرات المربوطة بحزامه وسأل المرأة: أتعرفين ما هذا؟ فصرخت بكلمة واحدة: إرهابي! التقطتُ كرسيّاً ورميته عليه وركضت للاِحتماء خلف جدار ـ لذلك نجوت». وبلغة الجهاد الإسلامي المغالية والمخيفة، صرّح أحد المسؤولين الشيخ عبد الله الشامي أن نصر «استطاع اختراق قلب الصهيونية رغم كلّ الإجراءات الأمنيّة ـ وسوف نستمرّ في قتالنا، وصراعنا، وعمليّاتنا حتى نصل إلى هدفنا بالتحرير الكامل».

كانت التداعيات مهيبة. ذلك أن نصر لم يقتل نفسه فقط بعد وقت غير قصير على تفاخر عرفات باعتقاله لأربعة ناشطين من الجهاد. فقد كشف محمود والد نصر في منزله في الضفّة الغربية في قرية قباطيّة، أن ابنه كان يعمل ضمن قوّات أمن عرفات منذ ستّة أسابيع.

أمضيت أكثر من ٤٥ دقيقة أبحث عن قرية قباطيّة في الخريطة ـ (تمّ الآن وضع إشارات حمراء على أسماء عدّة مدن صغيرة في «خريطة» الانتحاري) ووجدت الاسم في النهاية قرب جنين. كانت الشمس تلهب الطريق إلى قباطيّة، وكان ثلاثة شبّان وكلب شارد يراقبونني بريبة عندما أوقفت سيّارتي عند زاوية تلّة من القُمامة. وسأل أحد الأولاد قبل أن أقول أيّة كلمة: «منزل الشهيد؟» وأشار بيده إلى منزل قديم جدرانه من الإسمنت.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لقد جلست من قبل في غُرف كهذه قرب الآباء المحطّمين الذين يحاولون دائماً إظهار الفخر بموت الشبّان الذين تحدّق فيك صُوَرهم من الملصقات اللامعة على الحائط، والذين انطلقوا لقتل الأبرياء. وكان الأقارب متلهّفين لإضافة استحسانهم. كانت كلمة «شهامة» الكلمة التي استمرّوا في استخدامها عن محمّد نصر. وعندما سألت والده بماذا كان يفكر ابنه بحسب اعتقاده عندما كان متوجّهاً نحو مقهى وال ستريت ليفجّر الصاعق على وسطه، رفع يديه بعجز وأجاب: «لا أعرف». وذلك ما يقوله الجميع. وتوافق العائلة على أن الشيء الأكثر حزناً حول موته كان وقت مولده. تقول ابنة عمّه سهام: «كان أوّل صبيّ يولد بعد سبع بنات. فكّر في ذلك. سبع بنات ثم جاء محمّد والآن رحل». كان الحاج محمود نصر المسنّ متربّعاً على الأرض يعتمر غطاء رأس أبيض ويتّكئ على مِسند مزخرف. أفاد أن ابنه كان في المرحلة التعليمية التاسعة وتوقّف عن الدراسة، وقال إنه كان طيّباً وكان يملك بعض الخراف لكن لم يكن لديه مال للزواج. «كلّ ما أعرفه أنه كان نشطاً في الانتفاضة الأولى». لكنّ قصّة حياة وموت نصر تتضمّن درساً للفلسطينيين والإسرائيليين معاً. هو شاب طويل نحيف ذو لحية قصيرة وقد ولِد تحت الاحتلال واليأس، وأصيب في فخذه عندما كان في الخامسة عشرة من عمره بعد إلقائه الحجارة على الجنود الإسرائيليين عام ١٩٨٨. وتعتبر قباطيّة قرية جرديّة، وبيوتها الحجرية القديمة قاسية بقدر قساوة أهلها. وعندما يجد الرجال هناك متعاوناً مع العدوّ من بينهم كانوا يحرقون منزله ويشنقونه على عمود كهربائي. وقد التحق نصر بعمل مع السلطة الفلسطينية ـ مع جهاز المخابرات العسكرية التابع لموسى عرفات ـ كحارس للسجن، يراقب رجال الجهاد الإسلامي وحماس الذين سجنهم ياسر عرفات، ابن عمّ موسى، في جنين بناءً على أوامر إسرائيل.

كان إياد حردان واحداً من هؤلاء السجناء، وكان ذكيّاً وعنصراً قويّاً من الجهاد، أرادت فِرق القتل الإسرائيلية قتله. كان يدرس في جامعة مفتوحة ويريد إطلاق سراحه من السجن لمتابعة دروسه. يوم ٥ تموز/يوليو، ذهب لإجراء اتصال من هاتف عمومي في جنين، وعندما رفع السمّاعة، فجّرت رأسه. وكان

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ذلك نقطة تحوّل في حياة محمّد نصر «كان يحبّ المعتقلين الذين يحرسهم وكان معجباً بحردان»، بحسب قول ابن عمّ محمّد نصر، واسمه محمّد أيضاً، «بقي حزيناً لبضعة أيام بعد استشهاده، وكان غاضباً مثل الجميع. وأذكر أنه استمرّ يردّد: إنا للّه وإنا إليه راجعون، قبل أن يعود ليحدّثنا كيف يريد أن يصبح شهيداً». ويتذكّر آخرون من العائلة كلمات أكثر سوداوية. قال محمّد نصر: «اللعنة على الذين يقفون وراء هذا التفجير». وبعد أيام قليلة، في منتصف تموز/يوليو، ترك عمله مشتكياً أنهم لم يدفعوا له منذ شهر. وربّما كان ذلك هو الوقت الذي التحق فيه بالجهاد الإسلامي. كان، بحسب قولهم، مختاراً، مستعدّاً للشهادة التي يريدها، وقد تمّ تدريبه على كيفية ربط المتفجّرات حول وسطه. وتصرّ عائلته على أنها كانت تجهل ذلك. وهذا أيضاً ما كان يقوله الجميع.

ربّما كانت تلك هي الحقيقة، رغم أن مدرسة جنين للانتحاريين تبدو مسألة غير مُتقنة، فقد ضمّت خليّتها من الجهاد الإسلامي جاسوساً واحداً على الأقلّ. وأعدّ متعاونُ عملية اغتيال حردان، وعلى الأقلّ بدّل أحد عناصر الجهاد الإسلامي الذين أُرسلوا للموت رأيه وسلّم نفسه للإسرائيليين. وليس محمّد نصر. قالت سهام: «صباح يوم الأحد، لم يتناول إفطاره بل شارك في صلاة الظهر. استحمّ وبدّل ملابسه وقال لوالده: هل تريد شيئاً مني؟ ثم طلب رؤية ابن أخيه، إسلام الصغير».

يبلغ إسلام أربعة أشهر من العمر فقط. هل كان محمّد يريد بعض الحبّ من الحياة وقد تخلّى لتوّه عن حياته؟ «كان يحبّ الأطفال». هذا ما قالته سهام مجدّداً. «كان يحبّ اللعب معهم. شرب قهوته لكنه لم يحلق ذقنه ذلك اليوم. وكان يرتدي بنطالاً أبيض وقميصاً بيجيّاً وحذاء أسود. لم يقل إلى أين هو ذاهب. أجل كان معه هاتف خليوي. ولقد أخذه معه».

بعد الثالثة من بعد الظهر بوقت قصير، استقلّ نصر سيّارة أجرة قرب حيفا. وكان الإسرائيليون قد وضعوا حواجز على الطرقات في وقت سابق، ويبدو أن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

متعاوناً آخر أبلغهم أنّ انتحارياً هو في طريقه لتنفيذ عملية ـ لكنّهم لم يجدوا نصر أبداً. وتذكّر السائق لاحقاً كيف كان نصر غير واثق من وجهته. وقال في وقت لاحق: «أجرى اتصالاً ثلاث مرّات على هاتفه النقّال وقال: لم أجد المكان». وعندما سأله عن أجرة السيّارة، أجابه نصر بأنه غير مهتمّ كم تكلّف. ممّا جعل السائق أكثر ريبة بينما كان ينزله قرب مقهى وال ستريت. هل كان يفكّر خلال تلك الثواني الأخيرة في أن الإسرائيليين الذين يحاول قتلهم ربّما كان بينهم أطفال، صغار بعمر إسلام، ابن الأربعة أشهر؟ هل طرح تساؤلاً حول أخلاقية محاولة إزالة أرواح الأبرياء؟ إن سنواته الثماني والعشرين على الأرض كانت على وشك الانتهاء؟ وأجاب ابن عمّه محمّد عن هذا السؤال قائلاً: «لم يكن لديه أي تفكير في نفسه. كان يمكن أن يفكّر في أمور عدّة باستثناء شخصه ـ لا يستطيع التفكير في نفسه لأنه أراد الموت. إنّ أيّ شخص يوافق على هذا النوع من التضحية لا يفكّر في نفسه».

نفّذ الإسرائيليون انتقامهم بالإغارة على جنين بعد يومين ودمّروا مركز الشرطة متجاهلين (أو مُقصّرين في الفهم) أن قتلهم لحردان هو الذي دفع محمّد نصر إلى هذه المهمّة المرعبة. وكان لقتل حردان ـ وقد هدف إلى زرع الرعب في الجهاد الإسلامي ـ تأثير معاكس. فقد حوّل محمّد نصر إلى انتحاري.

سألت مرّة زعيم تنظيم حزب الله اللبناني إذا كان يستطيع أن يفسّر لي ماذا يدور في عقل انتحاري؟ وكانت تلك أوّل مقابلة تلفزيونية غربية له. كان السيد حسن نصرالله مرتدياً عِمامته السوداء ورداءه الأسود. وكان سابقاً القائد العسكري لحزب الله في جنوب لبنان ومن قوّاته انطلق أوّل الانتحاريين العرب الذين ـ بعد أكثر من عشر سنوات ـ حطّموا معنويات جيش الاحتلال الإسرائيلي المنسحب. طلبت منه بصفتي غربياً أن يشرح لي كيف يستطيع إنسان أن يُضحّي بنفسه. قال:

> «هناك صفات يتميّز بها مقاتلونا. إن الذي يقود شاحنته إلى داخل قاعدة لجيش العدو ليفجّر نفسه ويصبح شهيداً، يتوجّه بقلب ملؤه الأمل، مبتسماً وفرحاً لأنه يعلم أنه ذاهب إلى مكان آخر. الموت، وفق عقيدتنا، ليس النسيان... ليس النهاية. إنه بداية لحياة حقيقية...

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إن التعبير المجازي الأفضل بالنسبة إلى غربيّ لمحاولة فهم هذه الحقيقة هو التفكير في رجل موجود في حمّام سونا لفترة طويلة. إنه عطشان وتَعِب وحارّ ويعاني من تأثيرات الحرارة المرتفعة. ثم يقال له إنه إذا فتح الباب يستطيع الذهاب إلى غرفة هادئة ومريحة، وشرب كوكتيل ممتع وسماع موسيقى كلاسيكية. عندها سيفتح الباب ويخرج بدون تردّد، علماً بأنّ ما يتركه وراءه ليس جديراً بالثمن العالي الذي يدفعه، وأنّ ما ينتظره ذو قيمة أكبر بكثير... لا أستطيع أن أفكّر في مثال آخر لتقريب الفكرة إلى غربيّ».

استمتع نصرالله بالمجازات والتشبيهات، تماماً مثل ملصقات شهيد حزب الله التي تُظهر غالباً الميت في الجنّة، محاطاً بالأنهار وأزهار الزنبق وأشجار الصفصاف. هل هذا هو حقّاً المصير الذي يعتقد الانتحاريون أنهم ذاهبون إليه؟. إلى الأنهار والعسل والأشجار ـ وبالطبع ـ إلى الحور العِين؟ أو إلى غرفة هادئة ومريحة مع كوكتيل وموسيقى هادئة؟.

تُعتبر فكرة التضحية قُدوة نبيلة (ولنترك جانباً للحظة لاعدالة قتل أطفال في مطعم بيتزا في القدس) يشترك فيها المجتمعان الغربي والشرقي على حدّ سواء. وتُغطّى أضرحة ضحايا الحرب العالمية الأولى في فرنسا بعبارات تمجيد لذكرى الرجال ـ رفاق بيل فيسك القتلى ـ الذين ضحّوا بحياتهم أو ماتوا في سبيل بلادهم (ولو أن معظمهم قد مات بعد عذاب أليم، وهو يدعو فقط للبقاء على قيد الحياة). بعد سنوات من لقائنا، عندما قُتل ابن نصرالله في هجوم انتحاري على موقع للجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان، أصرّ زعيم حزب الله على القول بأنه لا يتقبّل التعازي بل التهنئة.

ظهر نصرالله على شاشة التلفزيون اللبناني، ضاحكاً ومبتسماً، مليئاً بالفرح بينما كان يتحدّث إلى مؤيّديه. وقد عبّرت خطيبة ابنه الشابّة عن فخرها بموت خطيبها، إلا أنها لم تبتسم.

وإذا كانت فكرة التضحية بالذات بهذا الوضوح، فإنها بشكل واضح أيضاً ليست ظاهرة طبيعية. ففي مجتمع طبيعي، ضمن جماعة يشعر أهلها بأنّهم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وَقفيّة الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يُعامَلون بشكل متساوٍ وبعدالة، ننظر إلى الانتحار على أنه انحراف مأساوي، وأنه موت يحصل ـ بحسب تفسير الطبيب الشرعي ـ عندما يكون العقل مضطرباً. لكن ماذا يحصل عندما يكون توازن عقل مجتمع بكامله مختلّاً؟ عندما كنت سائراً مع صديق عبر رُكام مخيّم صبرا وشاتيلا للّاجئين الفلسطينيين في بيروت عام ٢٠٠٠، استعطت فقط التساؤل عن مدى صلابة الناجين الذين ما زالوا يعيشون هناك في البيوت الإسمنتية وفي الغُرف الصغيرة. كان العديد منهم مشرّدين منذ حرمانهم من وطنهم الأصلي منذ ٥٢ عاماً. قلت لصديقي: «لو عشت هنا لانتحرت». وهذه هي المسألة.

عندما يكون مجتمع ما محروقاً، وعندما تكون المظالم التي تحيط به دائمة، وعندما يكون العدوّ قويّاً، وعندما يكون شعب أحدهم يُعامَل كالحشرات والصراصير أو حيوانات برجليْن، عندها يتخطّى العقل الصواب. يصبح مأخوذاً باتجاهين: بفكرة ما بعد الحياة وبإمكانية أنّ معتقده سيزوّده بسلاح أقوى من السلاح النووي. عندما كانت الولايات المتحدة تحوّل بيروت إلى قاعدة لحلف الناتو عام ١٩٨٣ واستخدمت قوّتها الناريّة ضدّ المقاتلين المسلمين في الجبال إلى الشرق، كان حرّاس الثورة الإيرانية في بعلبك يَعِدون الناس بأنّ الّله سيخلّص لبنان من الوجود الأميركي. كتبت في ذلك الوقت ـ ليس بصمت كلّي ـ أن ذلك يشبه معركة جبّارة: التكنولوجيا الأميركية في مواجهة الله. من سيربح؟ ويوم ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٣ قاد انتحاري شاحنة محمّلة بالمتفجّرات إلى داخل مجمّع مُشاة البحرية الأميركية في مطار بيروت وقتل ٢٤١ جندياً أميركياً في ستّ ثوان. أنا متأكّد أن هذا هو الانتحاري الذي كان نصرالله يشير إليه، الانتحاري الذي اقتحم قاعدة عسكرية «باسماً وفرحاً». وفي وقت لاحق أجريت مقابلة مع أحد الناجين القلائل من البحرية الأميركية الذي رأى الانتحاري. أبلغني: «كلّ ما أستطيع تذكّره أن الشابّ كان يبتسم».

أمضيت شهوراً أدرس موضوع الانتحاريّين في لبنان. كانوا غالباً غير متزوّجين، ونادراً ما كانوا من النساء، وفي أغلب الأحيان كانوا من ضحايا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

التعذيب الإسرائيلي أو من أقارب العوائل التي قُتل أفرادها في الحرب ضدّ إسرائيل. قد يحصلون على أوامرهم بينما هم يصلّون في المسجد في قراهم في جنوب لبنان. يُطلَب من الإمام استخدام جُملة محدّدة في خُطبته ـ إشارة إلى ورود أو حدائق أو ماء أو نوع من الشجر. وليس على الإمام فهم الهدف من هذه الكلمات، لكن خلال خطبته يفهم شابٌ ما أنّ يوم «الشهادة» قد حان.

في غزّة، وحتى قبل اتفاق أوسلو، اكتشفت نموذجاً شبه مماثل. فكما في لبنان، كان الذي سيصبح شهيداً يُمضي آخر ليلة وهو يقرأ القرآن. لن يودّع أهله أبداً وداعاً نهائياً. لكنه يقبّل والده ووالدته ويطلب منهما عدم البكاء إذا مات في يوم ما. ثم ينطلق لتسلُّم المتفجّرات. كما فعل محمّد نصر في قباطيّة(*).

والحال أن الأمر مختلف إلى حدّ كبير مع انتحاريي فلسطين. فعلى الرغم من أنّ الكاميكاز اليابانيين من طيّاري الحرب العالمية الثانية ـ الريح الإلهيّة ـ كانوا مُرعبين، فقد هاجموا السفن الحربية وحاملات الطائرات وليس المستشفيات. وقد اتّبع اللبنانيون هذا النمط بشكل واسع! إنهم يذهبون عادة إلى الأهداف العسكرية.

كنت محتاراً لماذا كان اللبنانيون يقفون في الطابور لمشاهدة فيلم «بيرل هاربر» عندما عُرض في بيروت في تموز/يوليو ٢٠٠١ ـ حتى شاهدت الشبّان يدرسون الصور السينمائية للطيّارين اليابانيين الشبّان الذين يشبهونهم وهم يضعون عصبات الاستشهاد حول رؤوسهم. بهذا النمط نفسه، وغالباً بعصبات رأس تتضمّن عبارات قرآنية، استهدف حزب الله الجيش الإسرائيلي والميليشيات الحليفة. قاموا بتفجير مواقع بكاملها وقتلوا عدداً كبيراً من الجنود. وتعلّم الفلسطينيون من ذلك كلّه.

لكنّ انتحاريّيهم ـ بمن فيهم النساء الانتحاريات اللواتي برزن في السنوات

(*) أبلغتني أميرة حاس، مراسلة هآرتس، أنها رغم زيارتها لبيوت الانتحاريين في غزّة، لم تختر القيام بذلك خلال السنة الأولى من الانتفاضة الثانية لأنها «لا تستطيع أن تكون موضوعية كونها إسرائيلية». فهي ذهبت فقط، ونادراً، إلى بيوت «الشهداء».
«كتبت قصّة حول طفل ـ أردت فعلاً إظهار كيف قُتل، وأنه لم يكن تهديداً للجندي الذي قتله. ولم تكن العائلة مسرورة لمقابلة صحفية إسرائيلية».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الأخيرة ـ استهدفوا أكثر فأكثر المدنيين الإسرائيليين. في حين أن سفينة حربية أو دبّابة إسرائيلية شيء، وطفلاً يبلغ ثلاث سنوات كان ينتظر أمّه الشابّة لتقطع له البيتزا شيء آخر تماماً(*).

أفردت منظّمة العفو الدولية تقريراً كاملاً حول استهداف المدنيّين من قِبل الانتحاريين الفلسطينيين. بين أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٠ وتموز/آب ٢٠٠٢، قُتل ٣٥٠ مدنياً على الأقلّ معظمهم من الإسرائيليين بواسطة ١٢٨ هجوماً من قِبل مجموعات فلسطينية مسلّحة أو أفراد. «يجب أن لا يكون المدنيّين أبداً هدف الهجمات، لا باسم الأمن ولا باسم الحرية» بحسب قول منظّمة العفو الدولية، و«ندعو قادة كلّ المجموعات الفلسطينية المسلّحة إلى التوقّف عن مهاجمة المدنيين فوراً وبدون شروط». وكانت أكبر ضحيّة في هجوم انتحاري وفق منظمة العفو الدولية، شاناع روغان التي قُتلت في تفجير فندق ناتانيا يوم ٢٧ آذار/مارس ٢٠٠٢. وكان عمرها ٩٠ سنة(**).

اتصلت بصديقة فلسطينية في رام الله أستفسرها عن ذلك، وأسألها كيف

(*) كان التفسير الأكثر خِزياً في فهم الانتحاري الفلسطيني ما لفّقه توم فريدمان، وهو صديق قديم صار مؤخّراً مُعلّقاً مؤمناً بالمسيح المنتظر بشكل متزايد، ويعمل في النيويورك تايمز. كتب: «لم يقم الفلسطينيون باختيار الأسلوب الانتحاري نتيجة اليأس بل لأنهم جميعاً يستطيعون الموافقة كجماعة على ما يريدون تدميره». وبحسب ادّعائه، لقد فقدوا الرؤية حول قُدسيّة الحياة البشرية لأنهم أصيبوا بالعمى نتيجة «الغضب النرجسيّ». ونصح الفلسطينيين بتبنّي «المقاومة السلميّة على طريقة غاندي». لكنّ تظاهرات الاحتجاج السلميّة للفلسطينيين تمّ تجاهلها وقمعها دائماً. وعندما تقدّم الفلسطينيون والدول العربية الأخرى بشكواهم ضدّ جدار الفصل الذي أنشأه أريل شارون إلى المحكمة الدولية في لاهاي عام ٢٠٠٤ ـ بالتأكيد وفق تقنية غاندي لطلب العدالة ـ رفضت إسرائيل ببساطة تنفيذ حُكم المحكمة. ولم يعلّق فريدمان على ذلك.

(**) في تسجيل لهذه التفاصيل حول «فريق العمل الدولي الخاصّ بالصراع العربي ـ الإسرائيلي، قالت مجلّة الكوايكرز (طائفة الكوايكرز أو الفرندز ـ المترجم):
«لقد انزعجنا لاكتشافنا وجود خيار الترانسفير داخل إسرائيل ـ وهو التطهير العِرقي لأعداد كبيرة من الفلسطينيين في الأراضي المحتلّة أوالمواطنين الفلسطينيين داخل إسرائيل ـ والذي يُناقش الآن بشكل علنيّ من قِبل السياسيين، والمثقّفين، والزعماء الدينيين والعديد من قطاعات المجتمع الأخرى... نحن نشجب هذه الفكرة أو أي اقتراح آخر يفشل في احترام القيمة المتساوية لكلّ أبناء الله».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يستطيع الشباب الفلسطيني الابتهاج في الشوارع نتيجة مجزرة مطعم البيتزا. أبدت امتعاضها مما حصل ـ كانت صادقة في ذلك ـ لكنّها حاولت التفسير قائلة: «إنّ الفلسطينيين عانوا من إصابات مدنية عديدة منذ بدء الانتفاضة الأولى ولذلك يشعرون بالفرح لأيّ معاناة يُصاب بها العدوّ». وأضافت: «كان هناك شعور بأن عليهم معاناة العذاب هم أيضاً». وهذا بالطبع ـ مع تطبيق المبدأ دون تفاصيل المقارنة التاريخية ـ ما قيل بالضبط في بريطانيا لتفسير قصف الماريشال في سلاح الجوّ السير أرتور هاريس لمنطقة مليئة بالمدنيين الألمان. عليهم المعاناة أيضاً. وباستثناء بعض الأشخاص مثل أسقف شيشستر، فإنّ البريطانيين المكلومين دعموا هاريس حتى النهاية. لكنّني أعود إلى ردّة فعلي الشخصية عندما وصلت الى مطعم بيتزا سبارو المحطّم: «شيء لا يُغتفر!». سألت مجدّداً: ماذا فعل هذا الطفل الإسرائيلي المقتول الذي فقد عينيه للفلسطينيين؟ ألم يكن باستطاعة الانتحاري الفلسطيني في لحظاته الأخيرة النظر إلى هذه الطفلة على أنها طفلته، أخته الصغيرة، ابنة عمّه الصغيرة؟ للأسف كلّا. كان مُتّجهاً في الشارع إلى موته، منغمساً كلّياً بمأساة شعبه. لم يكن عمله «عملاً إرهابياً بدون تفكير»، وتلك كانت الكلمات التي استخدمها المتحدّثون الإسرائيليون بينما كانوا يحاولون خداع العالم وشعبهم على السواء. إنه النتاج المنطقي لشعب تمّ سحقه، وحرمانه، وخداعه، وتعذيبه وقتله بأعداد كبيرة. كانت طنجرة الضغط العربية حمّام السونا له وقد عبر الباب(*).

(*) إذا كان حزب الله هو الذي ساعد في بناء ذلك الممرّ، فقد نقله الفلسطينيون بالتأكيد لاحقاً للمتمرّدين العراقيين عام ٢٠٠٣ و ٢٠٠٤. وكان الانتحاريون يبرزون يومياً في شوارع المدن الكبرى في العراق، البلد الذي لم يكن لديه حتى الآن أي سجلّ في تدمير الذات خلال انتفاضاته المتعدّدة ضدّ الحكم الأجنبي. وقد فقدت أرواح المدنيّين في العراق أيضاً قُدسيّتها عند الطرفيْن. وقد يكون الانتحاريون أو قادتهم تعاطفوا مع مئات الأبرياء من الرجال والنساء الذين تحوّلوا إلى أشلاء في الهجمات على القوافل الأميركية والبريطانية، ومراكز الشرطة والثكنات والفنادق ومراكز قيادة الاحتلال، إلا أنّهم لم يعبّروا أبداً عن أيّ أسف. لم تكن المقاومة السنّية، بحسب قول أحد المتحدّثين باسمها، قلقة أبداً حيال الخسائر المدنية لأنّ المتمرّدين كانوا مستعدّين لدفع أيّ ثمن لتدمير الاحتلال. لكنّ الثورات في حرب العصابات مهما كانت عنيفة فإنها لا تتعدّى الحدود إلّا إذا كانت لدى الأشخاص الذين يرغبون في تبنيها قضيّة...

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لو ـ كم نستخدم هذه العبارة حول الشرق الأوسط ـ لو أنّ الإدارة الأميركية واجهت بصورة جدّية الصراع العربي ـ الإسرائيلي عام ٢٠٠١، عوضاً عن تبديد قدراتها في إطلاق حرب أخرى في المنطقة، كم كان ليكون مقدار الربح؟ وكم كان مقدار المعاناة المخفّفة أو الملغاة؟، وكم كُنّا تجنّبنا من الألم في التاريخ المستقبلي؟

في شباط/فبراير ٢٠٠١، كان الفلسطينيون والإسرائيليون يخوضون حرباً أهلية. وماذا فعلت الولايات المتحدة؟ قصفت العراق. ماذا فعل وزير الخارجية الأميركي الجديد كولن باول؟ وصل إلى الشرق الأوسط ليس لمواجهة سعير الحرب بين إسرائيل وفلسطين، بل لتقوية العقوبات ضدّ العراق وإعادة بناء التحالف العربي المناهض للعراق الذي اضمحلّ منذ أكثر من عشر سنوات. هناك رواية ـ محتمل كذبها ـ تقول بأنه بينما كان الجيش الأحمر يقتحم برلين عام ١٩٤٥، كان الموظفون الألمان ما زالوا يحاولون حساب ميزانية الرايخ الثالث للعام ١٩٤٦ من مشابك الورق، وكان باول الآن هو رجل المشابك.

في ذلك الحين، كان باول قد أرسل تعليمات إلى السفارات الأميركية في المنطقة تقول بأنه لا يجب الإشارة بعد الآن إلى الأراضي الفلسطينية المحتلّة بكلمة «المحتلّة». كان يجب الإشارة إليها من الآن فصاعداً «بالمتنازع عليها». وعلى الفور تبعت وسائل الإعلام الأميركية وعدد من مثيلاتها البريطانية هذه التعليمات. وأتذكّر مقابلة تلفونية مع محطة البي بي سي العالمية في أوائل ٢٠٠١ ـ اتصلوا بي على هاتفي الخليوي بينما كنت عالقاً في ازدحام سير في بيروت الشرقية ـ وتمّ وصلي مع متحدّث باسم الحكومة الإسرائيلية في القدس. وفي اللحظة التي أشرت فيها إلى «الأراضي المحتلّة من قِبل إسرائيل»، ردّ صوت إسرائيلي مدوّياً: «لكن يا مستر فيسك، الأراضي ليست محتلّة من قِبل إسرائيل!». انتظرت لحظة، ثم أجبت: «آها، تعني أن الجنود الذين أوقفوني على الطريق بين رام الله وجنين الأسبوع الماضي كانوا سويسريّين! أو بورميّين؟». لكن المسألة ليست هزليّة. فالأرض المحتلّة تولّد مقاومة عنيفة قد تطالب بشرعية دولية. لكنّ العنف المستخدم حول خلاف (مشكلة عقارية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حقيقية، أو أيّ أمر من الممكن تسويته في المحاكم) هو بوضوح غير شرعي، إجرامي، غير منطقي، وبالفعل يمكن تصويره كنتاج «للعنف المجنون». كان باول والإسرائيليون يرمون طبعاً إلى جعل الانتفاضة غير شرعية.

إن ذلك كلّه قد حجب من ناحية ثانية تحوّلاً مرحلياً في المجتمع العربي: هو التحوّل الأكبر الذي شهدته أنا خلال الثلاثين سنة من عملي الصحفي في الشرق الأوسط. عندما زرت الضفّة الغربية بعد تسع سنوات تقريباً على حرب ١٩٦٧، كان في الأراضي المحتلّة ميليشيا فلسطينية مسلّحة بإشراف إسرائيلي، أي جيش من العملاء ـ كانوا يضعون أيضاً قبّعات سوداء ـ يسيطرون على شعب فلسطيني مقموع ومذلول. وإلى الشمال من الحدود الإسرائيلية، كان يعيش سكّان لبنانيون في حالة خوف من اجتياح عسكري إسرائيلي. وما كان على القوّات الإسرائيلية إلّا أن تعبر الحدود وتدفع بربع مليون مدني لبناني إلى الهرب بحالة فوضى نحو بيروت. وفي الشرق، كان يعيش ملايين العراقيين في خضوع تامّ لحزب البعث.

اليوم، لم يعد العرب خائفين. كانت الأنظمة خائفة كالعادة، كانت تمثّل حلفاء مخلصين ومعتدلين يطيعون أوامر واشنطن، ويأخذون المساعدات الضخمة من الولايات المتحدة ويجرون الانتخابات البالغة السخف، ويرتجفون من الخوف إذا قرّر شعبهم أخيراً تغيير النظام ـ من خلال مجتمعاتهم وليس وفق الصيغة الغربية المفروضة من قِبل الغزو ـ إن العرب كشعب (مقموع ومسحوق لعدّة عقود من قِبل طُغاة فاسدين) لم يعودوا هاربين بعد الآن. تعلّم اللبنانيون في بيروت، تحت الاحتلال الإسرائيلي، رفض الانصياع لأوامر المحتلّ. وقد أثبت حزب الله أنه يمكن إذلال الجيش الإسرائيلي القويّ. وأظهرت الانتفاضتان الفلسطينيّتان أن إسرائيل لم تعد قادرة على فرض إرادتها على الأراضي المحتلّة دون دفع ثمن مروّع. وانتفض العراقيون أوّلاً ضدّ صدّام، وبعدها ضدّ قوّات الاحتلال بعد الغزو الأنغلو ـ أميركي. لم يعد العرب يهربون بعد الآن. إنّ السياسة الشارونيّة القديمة التي وضع المحافظون الجُدد الأميركيون أنفسهم ضمنها قبل غزو عام ٢٠٠٣ للعراق ـ أي ضرب العرب حتى يخضعوا أو

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يتصرّفوا بشكل مناسب أو حتى يتمّ إيجاد زعيم عربي «للسيطرة على شعبه» - أصبحت مفلسة الآن مثل الأنظمة العربية المستمرّة في العمل لصالح القوّة العظمى العالمية الوحيدة.

لا يعني ذلك التوصية بالثورات الاجتماعية والعسكرية الشعبية التي حدثت في الشرق الأوسط. لكن في لبنان، وفلسطين والعراق، أصبح الانتحاري رمزاً للشجاعة الجديدة. فعندما يتخلّى شعب محتلّ عن خوفه من الموت، يهلك المحتلّ. وعندما يكفّ رجل أو امرأة عن الخوف لن يخاف مجدّداً. ليس الخوف مُنتجاً يمكن إعادة ضخّه في شعب عبر إعادةِ غزو أو معاملةٍ أقسى أو هجمات جوّية أو جدران أو تعذيب...

بينما كانت بقايا اتفاق أوسلو تهترىء كانت المبادرات المتاحة في وقت ما قد سقطت هي أيضاً. ولسنوات عدّة، أشارت الانتقادات الموجّهة إلى اتفاق أوسلو، إلى قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢ الحيوي والذي لا يمكن إنكاره. لكنّ هذه المبادرة بدأت الآن تفقد قوّتها أيضاً. ورحتُ أسمع أكثر فأكثر في أوساط الفلسطينيين الكلمات التي ترعب الإسرائيليين، من أنّ عليهم استرجاع كلّ فلسطين وليس فقط الأراضي التي احتلّتها إسرائيل عام ١٩٦٧. في غزّة، في خريف عام ٢٠٠٠، واجهت فعلياً تزايد هذا التحوّل. بدأ متدرّب فلسطيني على الكمبيوتر بإبلاغي أنّ قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ لم يكن الممرّ الوحيد للتسوية الحقيقية والسلام. وفي ختام خطابه المليء بالمرارة المتزايدة، بدأ الكلام عن حيفا وعكّا وعسقلان وهي مدن موجودة في إسرائيل وليس ضمن الدولة الفلسطينية التي يقبل بها عرفات.

وطيلة الوقت، بينما كنت أراجع تقاريري وأنا أُحرّر هذا الكتاب، مررت ببعض العلامات الصغيرة المخيفة. وجدت نفسي أتساءل في مقال أمليته على صحيفة الإندبندنت يوم ٢٥ شباط/فبراير ٢٠٠١ «هل يدرك الأميركيون الكارثة التي ستغمر المنطقة؟». «هل لديهم أيّ فكرة عن القوى الأساسية التي ستنطلق في الأشهر القادمة؟» وتساءلت مجدّداً لماذا أكتب هذه الكلمات؟ ماذا كنت أتوقّع قبل أقلّ من ستّة أشهر ونصف شهر من انفجار هذه القوى الأساسية؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وتذكّرت ذلك الصديق في رام الله، الصديق الذي حاول أن يشرح لي ردّة الفعل الفلسطينية تجاه الانتحاريين بالقول إن الفلسطينيين شعروا «بضرورة معاناة عدوّهم أيضاً»...

وهكذا، بينما كنت أخرج ملفّاتي من فوق الرفوف، وملاحظاتي من بيروت وإسرائيل وفلسطين، سمعت الساعة تدقّ باتجاه ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، والرزنامة تلفظ التواريخ. ولديّ نسخة قاسية لتقرير طويل مرسل من القدس يوم ٢٨ آب/ أغسطس ٢٠٠١. ولم يكن قد بقي غير أسبوعين فقط للانطلاق...

لم يبقَ ثمّة أثر لإيناس أبو زيد. كان عمرها سبع سنوات وملصقات الشهداء التي انتشرت في ذلك الوقت في خان يونس أظهرتها فتاة مميّزة. لكن ليس لها أثر بين أجزاء الحديد والبلاستيك المجعّد، ولا على تراب غزّة الناعم. تبخّرت إيناس وتحوّلت إلى غبار خلال ثوان. وأبلغني صبيّ مشيراً إلى البعيد عبر الرمل إلى حيث توجد أكواخ من الإسمنت ونوافذ من القماش ماثلة في الأفق: «سوف أدلّك من أين جاء الصاروخ. أطلق الإسرائيليون الصاروخ من خلف تلك المنازل. كانت دبّابة».

هل كانت كذلك؟ قلت ذلك لنفسي، ليس كسؤال بل كملاحظة أخرى من تلك الملاحظات التي تجد نفسك تقولها في غزّة؟ كذب؟ أم حقيقة؟ تصبح تلك الأمور مهمّة عندما تتطوّر حرب ما إلى مثل قساوة هذه الحرب وسوئها. مات والد إيناس، سليمان، معها وكذلك ابنه البالغ ستّ سنوات والمدعوّ سليمان أيضاً. لا أعتقد أنني صادفت حرباً يُقتل الأطفال فيها بهذه السرعة. وإذا لم يكن ثمّة طفل إسرائيلي وقع في خطّ نار قنّاص فلسطيني، فإن طفلين فلسطينيّيْن كانا غافليْن إلى حدّ الوقوف خارج مكتب لحماس عندما اختار الإسرائيليون تفجير المكان، أو أطفال مدارس قرّروا تناول بيتزا في وقت مبكّر بعد الظهر، أو إيناس وسليمان الصغير حين كانا في الطريق أو ـ إذا كانت حماس تكذب والإسرائيليون يقولون الحقيقة ـ تحوّلا إلى رماد بسبب قنبلة والدهما.

قامت السلطة الفلسطينية بمسح شامل لحديقة أبو زيد الخلفية. فإذا كان

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يصنع قنبلة فقد اختفت مثل إيناس. فتّشت بين الركام. كيف يمكن لصاروخ إسرائيلي التحليق فوق الأكواخ الأخرى والتسلّل عند الزاوية خارج حديقة أبو زيد الخلفية، والمرور فوق جدران الحديقة ثم تحت السقف البلاستيكي لتحويل العائلة الى أشلاء؟ لكن مَن يصنع قنبلة بينما يقف طفلاه بقربه؟ أو ربّما كانت هناك قنبلة مخبّأة في الحديقة الخلفية ولمستها إيناس أو سليمان الصغير!؟

تجمّع حشد من الناس حولي، وكانوا عابسين ومُرتابين. وليس من السهل الآن التحقيق في هذه الوفيات. قالت لي موظفة إغاثة نرويجية: «أنا نرويجية لكنّ الفلسطينيين بدأوا ينظرون إليّ في الشارع ويتحدّثون عنّي على أنني أميركية، إنهم يلومون الأميركيين على ما فعله الإسرائيليون. والآن يلومون الأوروبيين لأننا لا نفعل شيئاً لمساعدتهم». هذا بالضبط ما حصل في لبنان. كانت السيدة النرويجية على حقّ. كنت مُراقباً وأنا أسير في الشارع في مدينة غزّة وتمّ التدقيق بملامحي من قِبل الشباب في رفح عند نقطة في الخالدية ـ خارج القدس في الطريق إلى رام الله ـ ونظر طفل فلسطيني من بين حوالى اثني عشر طفلاً من أترابه إلى لوحة سيّارتي الإسرائيلية والتقط قضيباً من الحديد وضربه بقوّة على دفاع مؤخّرة السيّارة. ونظر رجلان في شاحنة إليّ بازدراء بينما كنّا ننتظر جميعاً عند إحدى نقاط التفتيش الإسرائيلية المذلّة.

في كلّ مكان كانت تُلاحظ علامات الانهيار لسلطة ناشئة. وكانت جدران غزّة تُستخدم لرسم صور عرفات بتكشيرته المشعّة البشعة، وصور المسجد الأقصى. والآن هي مليئة برسوم الحافلات المتفجّرة وعلى متنها الأطفال والجنود الإسرائيليّون القتلى والدماء تتدفّق من رؤوسهم. وقال لي صاحب مقهى فلسطيني بينما كانت تمرّ بقربنا ثلاث عربات تنقل ماء وتجرّها ثلاثة جياد مُنهكة: «لم يعودوا يتحدّثون عن عرفات. هناك فقط دُعابة منتشرة عنه في المحيط تقول: عرفات في كامب دايفيد واليهود يطلبون منه «وقف العنف». فيردّ عرفات: لا أستطيع وقف العنف إلّا عندما أتمكّن من وقف ارتجاف شفتيّ».

وقد أصبح عجز عرفات المتزايد مصدراً لاهتمام عميق. ليس بعيداً عن الخليل، التقيت مسؤولاً فلسطينياً كبيراً، مهمّاً إلى حدّ أنه طلب إبقاء شخصيّته

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مجهولة، حرّك رأسه بيأس، وقال: «ماذا يستطيع عرفات أن يفعل الآن؟ لقد تحطّمت حياته الزوجية ـ التقى زوجته لثلاث دقائق فقط خلال الشهور العشرة الأخيرة. تحتاج طفلته إلى والد وهو غير موجود هناك. وهو يسمح لهذا المكان بالتحوّل إلى القبليّة والتفكّك. توجد هنا حالة تفكّك كاملة».

إنّها حقيقة. ففي الطريق إلى نابلس، أصيبت سيّارة أجرة فلسطينية صفراء بحجر ـ قذفه على ما يبدو سائق إسرائيلي في السيّارة القادمة من الجهة الأخرى، أو هذا ما اعتقده رجال الشرطة الإسرائيليين، ومالت السيّارة بسرعة خارج الطريق، فقُتل سائقها كمال مسلم على الفور. لكن عندما وصل جثمانه إلى مستشفى رفيدية، ظنّت عائلته أنّه تعرّض للقتل من قِبل عائلة فلسطينية معادية بزعامة علي فريج. وقد كمنت عائلة فريج لآل مسلم المحزونين برشّاشات الكلاشينكوف. وكان بين القتلى الفلسطينيين الأربعة علي فريج ومسؤول في فتح كان عضواً في وحدة الأمن الوقائي المحلّية التابعة لجبريل الرجوب، وأُصيب ستّة آخرون بجراح. هؤلاء هم رجال عرفات وهم يقتتلون وما انفكّ عرفات صامتاً.

حتى الآن هذا هو الأمر الواقع: يستمرّ أرييل شارون في القول بأن عرفات قاتل، إرهابي كبير، زعيم الإرهاب العالمي، مرتبط بأسامة بن لادن، رجل يعطي أوامر لقتل الأطفال في مطعم البيتزا. ويصدّق الرأي العامّ الإسرائيلي ذلك، ويضع صحفيّوهم ذلك في الصفحة الأولى ويردّده شعبهم بشكل مستمرّ. وفي أحاديثي مع الإسرائيليين ـ في سيّارات الأجرة، وعلى متن الطائرات، وفي المطاعم ـ كنت أسمع دائماً الكلام نفسه: إرهاب، قتل، قذارة. مثل شريط تسجيل. أين سمعت ذلك من قبل؟.

في غزّة، لا أتمالك نفسي من تذكر بيروت عام ١٩٨٢. غزّة الآن هي عبارة عن نموذج مصغّر لبيروت: تحت الحصار الإسرائيلي، مقصوفة بطائرات «أف١٦» وبنيران مدافع الدبّابات والسفن الحربية، محرومة من الموادّ الغذائية وضعيفة (وهناك الآن ستّ ساعات قطع للكهرباء كل يوم في غزّة). كان الأمر كما لو أنّ عرفات وشارون يعاودان لعبة الأيام الدامية في لبنان. كان شارون

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

حينها يُسمّي عرفات قاتلاً جماعياً. من المهمّ ألّا نصبح متسلّطين خلال الحروب. وكل يوم في القدس، أشتري صحيفة الجيروزالم بوست، وأجد في الصفحة الأولى كالعادة شارون آخر يندّد: قتلة منظّمة التحرير، السلطة الفلسطينية الإرهابية، إرهابيون قتلة.

كلّ يوم، أسافر إلى أماكن وقوع غارات إسرائيلية جديدة. ويقوم الإسرائيليون بقصف مراكز الشرطة الفلسطينية، ومراكز الأمن الفلسطيني ونقاط تفتيش الشرطة الفلسطينية. لماذا الشرطة؟.

تجوّلت في قطاع غزّة مع صديق قديم من حرب بيروت، موظّف إغاثة أوروبي مازال يحمل أثر جرح رصاصة لبنانية في يده ومعدته ـ وقد أصابت الشظيّة طِحاله وكبده. قال: «الآن إذا نظرت إلى يمينك يا بوب، ترى هناك مركز الشرطة الذي دمّره الإسرائيليون الأسبوع الماضي». وثمّة المزيد من المباني القديمة. «وفي أسفل الشارع تستطيع رؤية المكاتب الفلسطينية التي دُمّرت في تموز/يوليو». بعد الغارات الأولى، قام الفلسطينيون بعملية إعادة بناء وطلاء سريعة. والآن لم يعودوا يهتمّون. لكن كيف يستطيع عرفات اعتقال القتلة إذا كان الإسرائيليون سيدمّرون كلّ مراكز شرطته؟.

هناك قصّة رواها لي أحد الرجال الذين يحقّقون حول مسؤولية شارون في مجزرة صبرا وشاتيلا، والقصّة تتلخّص في أن وزير الدفاع الإسرائيلي أعلن لحلفائه الكتائب قبل إرسالهم إلى داخل المخيّمات، أن الإرهابيين الفلسطينيين هم الذين قتلوا زعيمهم، الرئيس المنتخب بشير الجميّل. ونُقل عن شارون لاحقاً أنه لم يتصوّر أن الكتائب سيقتلون الفلسطينيين. لكن كيف يمكنه قول ذلك إذا كان قد ادّعى سابقاً أن الفلسطينيين هم الذين قتلوا زعيم الكتائب؟ في الواقع، لم يكن أيّ فلسطيني متورّطاً في مقتل الجميّل. وفي هذه الحرب الجديدة يبدو مستغرباً التفكير في تلك الفظاعة السابقة. كنت مذهولاً من اللغة المستعملة: قتلة، إرهابيون. هذا ما قاله شارون حينها وهذا ما يقوله الآن. هل صرّح بذلك حقاً عام ١٩٨٢؟.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بدأت بإجراء اتصالاتي من القدس، واتّصلت بمكاتب الأسوشيتدبرس الذين ربّما لا تزال لديهم ملفّاتهم العائدة لتسع عشرة سنة خلت. ربّما ألقى هذا الخطاب ـ وهل استخدم هذه الكلمات فعلاً ـ في ساعة ما من يوم ١٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢.

بعد ظهر يوم أحد، رنّ هاتفي في القدس. كانت المخابرة من إسرائيلي في يافا التقيته بعد تفجير سبارو حين كانت امرأة يهودية أميركية توجّه إهانة إليّ ـ كان الصحفيون الأجانب يتعرّضون للإهانة من الطرفيْن بلهجة أعنف ـ وتدخّل هذا الرجل فجأة لحمايتي. كان مبتسماً ولطيفاً وتبادلنا أرقام الهاتف. ويقول الآن على الهاتف إنه متوجّه على رحلة طائرة العال الليلية إلى نيويورك مع زوجته. وسألني إذا كنت أرغب في الحضور لتناول الشاي.

بدا أنه يملك شقّة فخمة قرب فندق الملك داود ولاحظت عندما قرأت اسمه على الجرس الخارجي أنّه حاخام. كان غاضباً لأنّ جاره قام لتوّه بتنفيس إطارات سيّارة صديق في المرآب تحت الأرض، وقال إنه شعر برغبة في تحطيم زجاج سيّارة جاره. أحضرت زوجته الشاي والبسكويت وقالت إن زوجها ـ الذي طلب إبقاء اسمه مجهولاً مجدّداً ـ يغضب بسرعة. كان هناك نوع من اللطف والإنسانية في المكان. كم هو سهل اكتشاف زوجيْن ما زالا في حالة حبّ ـ هذا مثير للإعجاب. لكن عندما بدأ الحاخام بالكلام عن الفلسطينيين، أخذ صوته يتردّد في أنحاء الشقّة. قال عدّة مرّات إن شارون صديق حميم له، ورجل جيّد، وجاء لزيارته في مكتبه في نيويورك.

قال: «ما علينا القيام به هو الذهاب إلى أوكار الحشرات وإخراج الإرهابيين والقتلة. أوكار الحشرات، أجل أقول حشرات، حيوانات. أقول لك ما يجب علينا عمله. إذا أُلقي حجر من مخيّم لاجئين، علينا إحضار الجرّافات وتدمير أوّل عشرين منزلاً قريبة من الطريق. وإذا أُلقي حجر آخر، يتمّ تدمير عشرين منزلاً أخرى. وسيتعلّمون بسرعة عدم إلقاء الحجارة. انظر، سأقول لك ذلك. الحجارة مميتة. إذا ألقيت حجراً عليّ، أقتلك. لي الحقّ في قتلك».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

والحال، أن هذا الحاخام يُعتبر رجلاً كريماً. جاء إلى إسرائيل للتبرّع بمركز طبّي، مهمّ جدّاً وباهظ الكُلفة. ويمكنك جيّداً قراءة ما يفكّر فيه. وقد أحببت واقع أنه بعكس العديد من الإسرائيليين والفلسطينيين الذين يقولون «إننا نريد السلام فقط» بشكل روتيني لإخفاء المزيد من الأفكار المتوحّشة - كان على الأقلّ يقول ما في ذهنه. لكنّ الأمر أصبح خارج السيطرة. لماذا عليّ إلقاء حجر على حاخام؟ صرخ مجدّداً. «إذا ألقيت حجراً عليّ، أقتلك». قلت له: ولكن إذا ألقيت حجراً عليّ فأنا لن أقتلك. لأنّ لديّ الحقّ في عدم القتل. قطّب جبينه. ثم قال: «إذن، سأقول وقتها إنك فقدت عقلك».

كنت أقود سيّارتي عائداً إلى البيت عندما صعقني الأمر. فجأة، تصادم العهد القديم والعهد الجديد للتوّ. لقد علّم والد الحاخام ابنه مبدأ العين بالعين - أو عشرين منزلاً مقابل حجر - كما علّمني بيل فيسك مبدأ إدارة الخدّ الآخر. اليهودية تتصادم مع المسيحية. إذن هل هناك أيّ مفاجأة في تصادم اليهودية والإسلام؟ إذ بمعزل عن كلّ الحديث عن المسيحيين واليهود «كأهل كتاب» بدأ المسلمون يعبّرون بشكل أشدّ قسوة عن وجهات نظرهم حول اليهود. إن إشارات حماس المزعجة عن اليهود أنهم أبناء خنازير وقِردة لقيت صدى عند الإسرائيليين الذين يتحدّثون عن الفلسطينيين كصراصير وحشرات، والذين يقولون لك - كما أخبرني الحاخام - بأنّ الإسلام دين مقاتل، دين لا يقدّر الحياة البشرية. وتذكّرت عدّة مرّات مستوطناً إسرائيلياً قال لي عام ١٩٩٣ - في غزّة، قبل توقيع اتفاقيات أوسلو - «إننا لا نعترف بقرآنهم كمستند صالح».

خرجت من مكتب صحيفة الإندبندنت في ضاحية أبو طور المقدسيّة لأجد سيّارتي محطّمة الزجاج. الآن جاء دوري لأغضب. فقد جرى تحطيم نافذة السائق وكذلك الراديو. وكان الملصق الذي يحمل علامة التلفزة TV واضحاً على النافذة - على أمل أن لا يُطلق المسلّحون الفلسطينيون والجنود الإسرائيليون النار على السيّارة. كان معظم سكّان أبو طور من العرب، ويقع مكتب صحيفة الإندبندنت على الخط الأخضر القديم، حيث العرب إلى يمين الباب الأمامي ومعظم اليهود إلى اليسار. قدت سيّارتي إلى مكتب وكالة هآرتس

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

للتأمين وأنا أجلس على كومة من كِسَر الزجاج. وهناك أبلغتني الموظفة أنه للحصول على كفالة هآرتس عليّ إبلاغ الشرطة عن السرقة. وطلبت مني الذهاب إلى المجمّع الروسي.

كنت أعرف عن المجمّع الروسي من خلال تقارير منظّمة العفو الدولية. هنا يحصل معظم التعذيب الإسرائيلي للإرهابيين الفلسطينيين السيئي السمعة. إذن هذه رحلة مهمّة. وما كدت أوقف سيّارتي عند المجمّع حتى تحدّث إليّ مكبّر صوت بالعبرية، وأبلغني شرطيّ أنه لدواعٍ أمنيّة عليّ إيقاف سيّارتي عند المنعطف. لا مشكلة بهذا الخصوص. شاهدتُ سيّارتيْ شرطة كبيرتيْن نوافذهما محصّنة تمرّان عبر الحاجز الأمني. ولما أوقفت سيّارتي وعدت إلى الباب. سُئلت: «أين سُرقت سيّارتك؟ أجبت: خارج المكتب في أبو طور. تنهّدت الشرطيّة وسألت: حسناً، ماذا تتوقّع؟ فهمت ماذا تقصد. العرب يسرقون، ألا يفعلون؟، يسرقون أجهزة الراديو من السيّارات ويفجّرون محلّات البيتزا أيضاً؟.

انتظرت ساعة. لم يكن هناك أيّ شرطي ليكتب التقرير، مع أنّ أكثر من مئتيْ شرطي يحاصرون بيت الشرق على بعد بضع مئات من الأمتار في الطرف الآخر من المدينة.

كلّ يوم تجري تظاهرة في الشارع قرب بيت الشرق. وهناك كانت كاميرات التلفزيون لكن ذلك لم يمنع ستّة من رجال شرطة الحدود من مهاجمة عدّة شبّان فلسطينيين، وضربهم أمام الكاميرات ستّة من رجال على رؤوسهم وأجسادهم. وجرى اقتياد أحدهم إلى سيّارة الشرطة وظلّ متماسكاً حتى ضربه شرطي آخر على خُصْيتيْه. ولم يستطع رجل أمن إسرائيلي إشاحة نظره عن هذا العمل الشنيع، فكان ينحني أمامي ليرى أين استقرّ حذاء الشرطي الإسرائيلي الآخر بين فخذي الشاب. كيف يستطيعون القيام بذلك أمام الكاميرات؟ رحتُ أسأل نفسي هذا السؤال، ثم راودتني الفكرة السوداوية بأنّ الشرطة الإسرائيلية تريد أن تصوّر الكاميرات ذلك، يريدون أن يشاهد الفلسطينيون ما يحصل لهم عندما يعارضون إسرائيل، عندما يتظاهرون، عندما يعترضون ـ من خلال رفع علم فلسطيني من ورق، تماماً كما يفعل طفل صغير.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أعتقد أن الصدمة النفسية التي يحدثها العنف هي التي تصيبك أولاً، فتدرك فجأة أن البشر ينوون إيذاء بعضهم البعض. إنها تؤثر على الجميع في هذا الصراع.

كنت أشارك في جنازة رجل من حماس في طولكرم وعدت إلى سيّارة الأجرة المتوقّفة في الجانب الإسرائيلي من الخطّ. على خارطة الضفّة الغربية وغزّة (فُسيفساء من طرق المستوطنين والحدود) تُعتبر طولكرم منطقة أ، أي تحت إشراف فلسطيني، ومكان توقّف السيّارة يُعتبر منطقة ج، أي تحت إشراف إسرائيلي. وعندما ذهبت في الصباح من المنطقة ج إلى المنطقة أ كانت الطريق مليئة بالنفايات والحجارة. لكن عندما عدت، كانت هناك معركة محتدمة يخوضها الأطفال الذين كانوا يلقون الحجارة على المواقع الإسرائيلية ويحرقون الإطارات بينما تنطلق الطلقات المطّاطية عبر الأشجار.

كنت تَعِباً وجائعاً ومُتلهّفاً للعودة إلى القدس. لذا أمسكت بالفتيان قرب الإطارات المحترقة وأبلغتهم أنني صحفي وأنّ عليّ العبور عبر الخط. وجدت وجهيْن آخريْن كئيبيْن متوارييْن في حافلة محطّمة. أبلغتهما الشيء نفسه. ثم سرت بين الإطارات المحترقة نحو الإسرائيليين المختفين، سرت ببطء مثل المتسكّع. ثم حطّ حجر قرب قدمي.

كان حجراً صغيراً جدّاً لكنه سقط مُحدثاً صوتاً مزعجاً. وعندما استدرت أوشك حجر آخر أن يلامس وجهي. وبدأ أحد الأولاد الفلسطينيين بالضحك. حجارة، لم أفكّر فيهم أبداً كأعداء من قبل. وخلال أشهر قليلة، سوف تُصيبني الحجارة، يُصيبني العديد منها ـ حتى أنها كادت مرّة تقتلني ـ لكنّ هذا سيكون لاحقاً، عندما تصل الرزنامة إلى اليوم الذي ينتظرنا جميعاً والذي أستطيع بشكل مُبهم تأكيده الآن على أنه «انفجار».

تابعت السير ببطء وأدركت أن عليّ أن أتلقّى كلّ حجر بهدوء كما لو أن من الطبيعي لمراسل الإندبندنت أن يتعرّض لحجارة الفلسطينيين بعد ظهر يوم صيفيّ حارّ. كانت الطريق موازية للمنطقة أ الآن وجاء شاب يحمل مِقلاعاً واختبأ بين الأشجار ـ أستطيع سماع صرير الحبل ـ ثم اندفع الحجر بسرعة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كبيرة نحوي بحيث أني لم أستطع تجنّبه في الوقت المناسب لكنّه أخطأني بحوالى قدم واصطدم بالجدار الحديدي لمصنع إسرائيلي. جعلني الاصطدام أنظر حولي. أنا في وسط محلّ نباتات مهجور، محاط بالأوعية والنسور الإسمنتية والغزلان والأواني الضخمة. كان هناك أحد النسور بدون رأس وثلاثة أحجار أخرى طولها ثماني إنشات تقريباً. أدركت ما حدث. عرف الفلسطينيون أنني مراسل أجنبي ـ وقد أطلعتهم على بطاقتي الصحفية اللبنانية، لكن في اللحظة التي عبرت فيها الخطّ، أصبحت إسرائيلياً. وفي اللحظة التي لم يعودوا قادرين فيها على تمييز وجهي، لم يعودوا مهتمّين. أنا إسرائيليّ لأنني في الجانب الإسرائيلي من الخطّ. أتساءل ماذا كان ليفعل صديقي الحاخام؟

لدى عودتي إلى القدس، شغّلت هاتفي مجدّداً، محاولاً اكتشاف تلك العبارة المراوغة. إذا سمّيت الناس حيوانات، وإرهابيين، وحشرات، فهل تفاجأ إذا تصرّفوا بعنف؟ أمن العجب إذن أن يكون عرفات شخصيّاً يحرّك المناطق التي يسيطر عليها قبلياً، مؤلّبا آل المصري والنابلسيين في نابلس بعضهم ضد بعض، وداعماً آل الشقّار في نابلس والشوّا في غزّة، ومؤيّداً حماس والجهاد الإسلامي من خلال عدم إصدار موقف؟.

في الطريق إلى جنين، أوقفنا، أنا وزميلي من الدايلي تلغراف، حرس الحدود الإسرائيلي. وعلى الطريق الرطبة، اتصلنا بالمكتب الصحفي للجيش الإسرائيلي لطلب إذن بالمرور. وهناك على التلّة، مستوطنة يهودية صغيرة، كلّ أسطحها حمراء ومليئة بالنبات الطيّب الرائحة. غريب كيف نعامل بشكل طبيعي عمليّات سلب هذه الأراضي الصغيرة الآن. وكان حرّاس الحدود يشعرون بالملل. قام أحدهم بفتح مكبّر الصوت في سيّارة الجيب ووصل الميكروفون بهاتفه الخليوي وبدأ يلعب بزرّ الموسيقى. ثلاث وصلات من مطلع ١٨١٢، ثلاثة مقاطع من سيمفونية بيتهوفن الخامسة، وثلاثة من موسيقى الماء لهاندل، وكلّها تزعق بصوت مرتفع، محرّفة وهابطة، قاذفة تدميرها العالي التقنية لأكبر مؤلّفي الموسيقى في العالم على الطريق الحارّة مع كلّ سِحْليّاتها وأدغالها وقُمامتها. كم هو جميل ومريح أن تجد أنّ ثمّة عقلانية ما.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في الرحلة إلى تلّ أبيب، وجدت نفسي جالساً إلى جانب ضابط إسرائيلي احتياطي. صرّحت له عن وجهة نظري ـ الانتفاضة تستمرّ حتى عام ٢٠٠٤. قال إنها ستستمرّ حتى عام ٢٠٠٦. «وفي النهاية، سوف نعود إلى حدود ٦٧ ونعطيهم القدس الشرقية». ثم أضاف: «لكن استناداً إلى الطريقة التي نعاملهم بها، سأكون مندهشاً إذا اكتفوا بذلك». سألت فلسطينياً من رفح عن رأيه فقال: «٢٠٠٥، ٢٠٠٦ ما الفرق؟ لكنّني أبلغك شيئاً واحداً، بعد انتهاء هذه الانتفاضة، ستكون هناك ثورة ضدّ عرفات. كيف يسمح بحصول ذلك؟ كيف يستطيع التفكير أنه سينتصر؟». بالطبع لن تكون هناك ثورة، سوف يحاصر شارون عرفات في رام الله، وسوف يموت عرفات.

أقود سيّارتي مجدّداً في أنحاء غزّة. إلى جانب الطريق رأيت مجموعة من الرجال متوسّطي العمر جالسين تحت مِظلّة خضراء من القماش، بعضهم يضع يديه على رأسه وآخرون ينظرون إلى الرمال. إنهم ينتحبون على محمّد أبو عرار الذي أُصيب في رأسه من قِبل جندي إسرائيلي بينما كان يلقي الحجارة. كان عمره ١٣ عاماً. لقد أصبح كلّ جدار فسيفساء من الملصقات ترى فيها: شبّاناً قتلى، رجالاً مُسنّين قتلى، أطفالاً قتلى، نساء قتيلات، انتحاريين قتلى، وتوجد عادة صورة ملوّنة للمسجد الأقصى خلفهم، مبنى لم يشاهده معظمهم أبداً.

خارج خان يونس، قام الإسرائيليون بجرف عدّة دونمات من أشجار الليمون والبيوت ـ لأسباب أمنية بالطبع ،طالما هناك مستوطنة إسرائيلية منشأة في الجوار ـ وتركوا جزءاً آخر في فلسطين يبدو مثل القبر. «حسناً، يقولون إنه من أجل الأمن». قال لي موظّف أوروبي، «لكن عندي سؤال. هناك ثلاثة منازل مشيّدة، أحدها مكتمل ومسكون والاثنان الآخران مازالا قيد البناء، جدران وسقف فقط. قال الإسرائيليون إنه يمكن استخدامهما من أجل الكمائن. لذلك جاءت جرّافة ودمّرت المنزل بالكامل ثم دمّرت أدراج المنزلين غير المكتملين فقط. الآن، كيف يمكن أن يكون ذلك من أجل الأمن؟».

في رفح، كان اللامعقول الحقيقي!!. خرج رجل في الأربعين من العمر من خيمته على الحدود ـ خلفه العلم المصري يلامس العلم الإسرائيلي ـ وسألني

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إذا كنت أرغب في رؤية أنقاض محلّه المخصّص لبيع الألعاب. وكان إلى جانب الخيمة رُكام من الحجارة الإسمنتية، وهواتف من مختلف الأنواع، وأغطية مصابيح، وساعات، وألعاب من طائرات هيلكوبتر، وحفرة ضخمة. قال: «لقد دمّره الإسرائيليون في أيار/يونيو وبقيت حتى اللحظة الأخيرة أركض في الزقاق عندما وصلت الدبّابات». وخرج محمّد الشاعر وهو فلسطيني يحمل جواز سفر مصرياً وأشار عبر الحائط الحدودي ـ «عندي بيت خلف شجرة النخيل هناك، وأنا هنا لحماية أرضي». لديه إذن بالذهاب والمجيء مثل كلّ سكان رفح المزدوجي الجنسية وفق اتفاق ١٩٠٦ بين الإمبراطورية العثمانية وبريطانيا والذي عمد إلى شرحه بتفصيل معقّد لا نهاية له.

خلفه، كان الأطفال يطيّرون طائرات ورقيّة ـ وكلّما طارت طائرة فوق الخطّ الحدودي، يطلق جندي إسرائيلي طلقة رصاص. تسقط الطائرة في الروث والرمل ويصرخ الأطفال فرحين، وتسقط طائرة مجدّداً. ويقول محمّد الشاعر «إنهم يطلقون النار على الطائرات الورقية أو الأطفال». وأخبرني أنه تعلّم اللغة الإنكليزية كمُبرمج كمبيوتر في القاهرة. وشرح بإسهاب أن السبب الرئيسي لبقائه أن لديه قريباً لا يثق به وأن هذا القريب يعيش في الجانب الفلسطيني من رفح وربّما عمد إلى إعادة تسجيل الأرض التي يقع عليها المحلّ لصالحه لو عاد محمّد إلى مصر.

كلّ ليلة، يطلق الفلسطينيون النار على الإسرائيليين من هذه الطرقات ـ ولهذا السبب دمّر الإسرائيليون محلّ محمّد الشاعر. قال: «هذه الفجوات من الرصاص الذي أُطلق الليلة الماضية»، وأراني ثلاث فجوات بحجم القبضة في جدار أقرب مبنى. وتابع: «أستطيع سماع العيارات النارية تمرّ فوق خيمتي». وإني أتساءل كيف يمكنني كتابة الصورة التي وصفها لي الشاعر: فلسطيني في حالة حرب مع قريبه، يجلس في خيمة قرب محلّ ألعاب مدمّر، يراقب الإسرائيليين وهم يطلقون النار على الطائرات الورقية.

اتصلت بإيفا شتيرن في نيويورك . فقد كانت موهبتها في مراجعة الملفّات موضع ثقتي بأنها تستطيع معرفة ما قاله شارون قبل مجزرة صبرا وشاتيلا. أعطيتها التاريخ الذي يدور في مخيّلتي ١٥ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢ . وعادت إلى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الاتصال بي في الليلة نفسها. قالت إيفا: «افتح جهاز الفاكس وسترغب في قراءة هذا».

بدأت الورقة تخرج من الجهاز. تقرير لوكالة أسّوشيتدبرس يوم ١٥ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢. ربط وزير الدفاع الإسرائيلي أرييل شارون في تصريح له مقتل رئيس الكتائب بشير الجميّل بمنظمة التحرير الفلسطينية قائلاً إن ذلك: «يرمز إلى الإرهاب القاتل لتنظيمات منظمة التحرير الفلسطينية الإرهابية ومؤيّديها».

ثم، بعد ساعات قليلة، أرسل شارون مسلّحي الكتائب إلى داخل المخيّمات الفلسطينية. ولدى مراجعتي الورقة مرّة تلو أخرى، شعرت بقشعريرة تنتابني. هناك إسرائيليون اليوم يحملون الغضب نفسه تجاه الفلسطينيين كما فعل الكتائب منذ تسع عشرة سنة. وهذه هي الكلمات ذاتها التي أسمعها اليوم من الرجل ذاته حول الشعب ذاته.

لكن مَن هم هؤلاء القوم؟ في عالم الصحافة الغربية المتحرّر من المحرّمات، يستمرّ بذل كل جهد ممكن ليس من أجل إظهار هؤلاء القوم غير إنسانيين فحسب بل لتجهيلهم أيضاً، لتجريدهم من وطنهم، من هويّتهم.

يشرح مقال طويل لدايفيد مارغوليك في «ڤانيتي فَير» Vanity Fair سياسة إسرائيل في «القتل الهادف» (اغتيال الفلسطينيين الذين يختارهم الإسرائيليون كتهديد أمني) ومع ذلك لا يورد أبداً كلمة «القتل العمد» ويقول مارغوليك: «إن بعض عمليات إسرائيل في القتل الهادف باهرة». وعلاوة على ذلك، خلا المقال من أيّ إشارة تفسّر من أين جاء الفلسطينيون، ولماذا هم خاضعون للاحتلال ـ أو لماذا شُيّدت المستوطنات الإسرائيلية على أرضهم. وكتب ستيوارت ستيفن في صحيفة «مايل أُون صنداي» Mail on Sunday أنه «لا توجد لغة تُعرف بالفلسطينية، وليست هناك ثقافة فلسطينية مميّزة، وليس هناك لباس فلسطيني مميّز، ولا يمكن تمييز الفلسطينيين عن بقيّة العرب». وأضاف: «لم يقم محمّد بزيارة القدس أبداً». والواقع أن الفلسطينيين يتكلمون العربية ولكن بلكنة فلسطينية مميّزة، وهناك ثقافة فلسطينية في الشعر والنثر، كما في اللباس الوطني

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الخاصّ بالنساء. وجسدياً، يتميّز العديد من الفلسطينيين بطولهم، ولونهم القاتم ـ إذا جاؤوا من الجنوب ـ وبقسمات وجوههم الجميلة. ويمكن القول بالمقياس نفسه (الذي اعتمده ستيفن) أنه لا توجد لغة أميركية، وأن الثقافة الأميركية إنكليزية المنشأ، وأنه لا يوجد لباس أميركي مميّز، وأنه لا يمكن تمييز الأميركيين عن بقيّة الغربيين. (ولقد جاء في القرآن الكريم أن الله تعالى أسرى بالنبيّ محمّد من مكّة إلى بيت المقدس) إن الرواية تقول إن النّبي محمّداً زار القدس. وأياً كان الأمر، فإن المسيحيين مثلاً لا ينفون الطبيعة المقدّسة للفاتيكان أو لكنيسة كانتبري لأن المسيح لم يقم بزيارة إيطاليا أو بريطانيا أبداً. على أنّ النماذج الأكثر إزعاجاً وقساوة لهذا الإزدراء بالفلسطينيين إنما تظهر بشكل منتظم في الصحف الغربية. في صحيفة الأيريش تايمز، على سبيل المثال، شعر مارك شتاين بنفسه قادراً على وصف حنان عشراوي المتميّزة كواحدة من «المدافعين عن الإرهاب». وفي زيارة للضفّة الغربية عام ٢٠٠٣، كتب شتاين: «أشعرتني بالنفور». إنها «بيئة مريضة بكاملها»، «ثقافة تمجّد الشرّ»... ممّا قاد الكاتب الى الاستنتاج أن «لاشيء جيّداً ينبت في أرض سامّة».

حالما تمّ إسقاط هويّة الفلسطينيين أصبحت أرضهم موضوع «خلاف» وليس «احتلال»، وحالما سمح عرفات للأميركيين والإسرائيليين بالتقليل من أهمّية القدس، والمستوطنات وحق العودة، وتأجيلها إلى مفاوضات المرحلة النهائية (وهكذا فإنه لا يجب الحديث عنها في الوقت الراهن لأن ذلك سيهدّد السلام) صار ممكناً تعريف أية مقاومة فلسطينية بالإرهاب. وفي هذا المجتمع يوجد «مرض»، «وباء»، «شرّ»، «أرض سامّة»، مدفونة في قلوب الفلسطينيين ـ سِرّاً ـ ويجب أن يظلّ شعورهم بالغضب والإحباط والاستياء حيال جُملة من المظالم(*).

(*) في كوريا، وهي بلد لديه مخزونه الخاص من الحزن والخيانة، يترجم هذا الشعور بكلمة: هان han. وقد استنتج كاتب حول كوريا أن ذلك يشبه سوء حظّ كلّ الدول الصغيرة التي تخضع لتجربة الظلم على يد جيران أكبر وأقوى. وقد وجّه الإيرلنديون ترجمتهم لكلمة han نحو الإنكليز، ووجّه الـ han البولندي نحو الجيران الروس والألمان الذين قاتلوا لفترة طويلة من أجل السيطرة على الأرض التي تقع بينهما.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بعد ساعات من هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ ضدّ الولايات المتحدة، حوّل شارون إسرائيل إلى حليف لأميركا في «الحرب على الإرهاب» وجعل من عرفات فوراً الترجمة الفلسطينية لبن لادن، والانتحاريين الفلسطينيين أخوة في الدم للانتحاريين التسعة عشر ـ لم يكن بين أولئك الذين خطفوا أربع طائرات ركّاب أميركية فلسطينيّ واحد ـ وضمن الروح الجديدة والانتقامية التي شجّعها الرئيس بوش في أوساط الأميركيين، شعر مساندو إسرائيل في الولايات المتحدة بأنهم صاروا أحراراً الآن في تصعيد طلب العقوبات ضدّ مناوئي إسرائيل، إلى حدّ أنها لامست الدعوة إلى الدفاع عن جرائم الحرب.

دعا ناثان لوين، وهو مدّع عامّ بارز في واشنطن وزعيم لمجموعة يهودية ـ ومرشّح لمنصب قاضٍ فيديراليّ أحياناً ـ إلى إعدام عائلات الانتحاريين. وقد كتب في صحيفة Sh'ma، «إذا كان إعدام عائلات الانتحاريين يُنقذ عدداً مماثلاً من الضحايا المدنيين المحتملين، فالمقايضة، بحسب اعتقادي، جائزة أخلاقياً».

يستطيع المرء التساؤل فقط كيف يمكن وضع خطّة لوين موضع التنفيذ. هل يحكم على زوجة الانتحاري ـ أو زوجها ـ بالموت أوّلاً؟ أو المولود الأوّل؟ أو الابن الأصغر؟ أو ربّما تُؤخذ الجدّة من كرسيّها وتُعدم بينما تشاهدها بقيّة العائلة. يرتكز منطق لوين، بشكل يمكن التنبّؤ به، على الكتاب المقدّس. «صار الأمر التوراتي بالقضاء على قبيلة العماليق القديمة يشكّل سابقة في اليهودية لاتخاذ إجراءات كانت غير مقبولة في الحالات الطبيعية، في وجه تهديد قاتل». قال آلان دورشويتز، أستاذ القانون في كلّية القانون في جامعة هارفرد والذي يحبّذ الاستخدام المحدود للتعذيب للحصول على معلومات، إنّ اقتراح لوين مشروع إذا كان محاولة لإقامة توازن بين مواجهة الإرهاب والحفاظ على الديمقراطية. وقد ندّد زعماء يهود أميركيون آخرون بوجهة نظر لوين وشجبوها، كما أشاروا إلى أن العلماء قالوا بأن دروس العماليق لا يمكن تطبيقها على الأحداث المعاصرة إلا إذا ذهب المنطق إلى نهاية الطريق ورأى بأن الشعب الفلسطيني بمجمله يستحقّ مصير العماليق... ولا يمكن القول بحال من الأحوال إن الفلسطينيين أنفسهم كانوا كارهين لعقوبات الموت بحقّ مواطنيهم، مع أن الأشخاص المستهدفين كانوا عُملاء إسرائيل.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يوم ٩ آب/أغسطس ٢٠٠٠، على سبيل المثال، احتاج القاضي فتحي أبو سرور إلى عشرين دقيقة فقط للحكم بأن مُنذر حفناوي يجب أن يُعدم. في الساعة العاشرة تماماً، جلس حفناوي في كرسيّه البلاستيكي، ويداه مربوطتان بين ركبتيه، فيما نظره يتحرّك بثبات بين الحشد الغاضب في محكمة نابلس الفلسطينية، وقد تفادت عيناه العسليّتان والدة الشابّ الفلسطيني الذي كان قد دبّر هو عملية اغتياله من قِبل الإسرائيليين. جلس محاميه، سمير أبو عوده ـ المعيّن من السلطة الفلسطينية ـ بوداعة خلف الطاولة، مطأطئ الرأس، صامتاً. في الساعة ١٠:٢٠، أمر القاضي أبو سرور بإعدام المتهم وكان حفناوي يصرخ كالحيوان عند أقدام حرّاسه.

لم تكن تلك عدالة أوّلية... لم تكن حتى رواية مأساوية. كانت مهمّة استعراضية تسمح للجمهور بالصراخ والصفير باستهجان على المتهم الأبيض اللحية البالغ من العمر ٤٣ سنة لحظة إعلان القاضي أنه استناداً إلى القانون الجنائي الأردنيّ رقم ١١١ لعام ١٩٦٠ ـ ذي اللمسة القضائية الهاشمية اللطيفة ـ كانت العقوبة «إعدام المجرم». وبينما كان الحرّاس يسوقون حفناوي نحو باب المحكمة، انحنى عدّة رجال نحو المحكوم ليضربوه بقبضات أيديهم على رأسه. «فخامة الرئيس»، صرخ الحشد ـ والمقصود كان الرئيس عرفات ـ «أعدم الجاسوس على الفور!» لم ينس أحد في محكمة نابلس البسمة على وجوه الرجال عندما طلب المدّعي العامّ «الإعدام رمياً بالرصاص» وصيحات الازدراء تجاه الخائن، المخلوق الذليل الذي يرتدي قميصاً أبيض وبنطلوناً أسمر، والمتعلّق بأقدام سجّانيه.

بدت القرية في ظاهرها مدينة. كان حفناوي، بحسب قول المحكمة، عضواً في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ثم في فتح وبعدها في حماس حيث قام بخيانة رفاقه لصالح الإسرائيليين. وقد أقرّ في اعتراف مكتوب بأنه عمل لصالح الإسرائيليين منذ عام ١٩٧٩. لكنّ اغتيال عضو حماس محمود مدني البالغ من العمر ٢٥ سنة يوم ١٩ شباط/فبراير عام ٢٠٠٠ فضح أمره. كان حفناوي يملك متجراً للألبسة وقام بتوظيف مدني عنده، وقد تعرّض هذا للقتل بينما كان في

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

طريقه إلى متجر حفناوي قادماً من المسجد. وقد استند القاضي إلى اعتراف حفناوي المدوّن في ١١ صفحة ـ يستطيع المرء تصوّر العدالة الثابتة التي حصل الاعتراف بموجبها ـ ووفقاً لهذا الاعتراف فإن الإسرائيليين طلبوا منه جمع معلومات عن مدني، وقد أبلغ المحقّقين أنه «لم يكن يعلم أن الإسرائيليين سيقتلون مدني».

بدأ المتهم يتصبّب عرقاً. وبدأت قطرات العرق تظهر حول عينيه. ثم تدفّق سيل من العرق من مؤخّرة أذنيه وسال على رقبته، فيما كان شرطيان يمسكان بيديه. كان رجلاً مقضيّاً عليه. وقال القاضي بكآبة إنه لولا مساعدة حفناوي لما استطاع الإسرائيليون اغتيال مدني. وأبلغ القاضي الحشد الغاضب من الحضور ووالدة مدني أنه «من غير المنطقي القول إنه لم يكن مسؤولاً لأنه لم يكن في موقع الجريمة. لقد لعب دوراً رئيسيّاً في ارتكاب الجريمة نتيجة ارتباطاته بالإسرائيليين». وكانت هناك إفادات لشهود عيان ودليل قدّمته القوى الأمنية (طلب حفناوي من زوجته إلغاء الأرقام المسجّلة على هاتفه الخليوي عندما حضرت الشرطة لاقتياده بعد ساعات من الاغتيال)، وكانت هذه الجلسة الثالثة والأخيرة للمحكمة.

كان الحشد صامتاً كالحجارة بينما كانت لحظة الحكم تقترب. رافع القاضي أبو سرور بهذه الكلمات: «إن هذا المتهم الذي كان مواطناً من الوطن، لكنّ ولاءه كان ضدّ الوطن، باع نفسه ـ عينيه وأذنيه ـ لمغتصبي وطنه. أيّ نوع من الرجال هو؟ ألم يفكّر في جذوره؟ لم يكن لديه احترام لذلك». لم يكن هناك صمت في القاعة عندما غادر القاضي وزميلاه أحدهما عقيد في الجيش والآخر نقيب. وعند منتصف النهار الساطع في الخارج، أبلغتني نهاد والدة محمود مدني أنها كانت سعيدة جدّاً للحكم لكنها أرادت أن يُنفّذ في الحال. قالت «كان ابني بطلاً. فقد خطّط لعمليتين انتحاريتين في تلّ أبيب وكان يخطّط لستّ هجمات أخرى. كان نقيباً في كتائب عزّ الدين القسام (حماس). أشكر الله. قلبي مرتاح الآن». قاطعها أحد الجيران ليهاجم القاتل المحكوم قائلاً: «فليمتْ يمت ببطء». التفتت السيدة مدني نحوه وقالت: «أفضّل أن أقتله بنفسي».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وأضافت أن حفناوي ومدني كانا معتقلَيْن معاً عند الإسرائيليين. «سَلْح حمام، عميل، خائن». وبحسب ما قيل، لم تكن عائلة حفناوي في المحكمة. لكنّ هذه المسارح القانونية لن تستمرّ طويلاً، فإن الرعاع الفلسطينيين هم الذين سيقرّرون بشكل كامل العدالة إثر سقوط آخر بنود اتفاقية أوسلو.

في الخليل، بعد أربعة أشهر. كنت أقود سيّارتي على طريق المستوطنين ـ بلوحة إسرائيلية طبعاً ـ ثم مررت بنقطة تفتيش إسرائيلية مهجورة وسرت خلف كل الرجال والنساء والأطفال الفلسطينيين الذين كانوا يتحرّكون مثل التيّار داخل المدينة. كانت أوّل جثة معلّقة بالمقلوب، القدم اليسرى الداكنة مربوطة إلى عمود الكهرباء بشريط والقدم اليمنى تتدلّى بشكل مشين والرأس يتأرجح تحت ما تبقّى من قميص أسود. كان هذا موسى الرجوب من قرية الدورة. كانت الجثّة الثانية أكثر فظاعة، ذبيحة لحّام، معلّقة أيضاً من القدم اليسرى لكنها عارية مع علامات ضرب حيث كان أطفال بعمر العاشرة والثانية عشرة يضربونها أو يطفئون السجائر فيها. كان هذا هو زهير المحتسب. كان رأسه شبه مفصول عن جسده يتأرجح ببطء في الهواء، ملتحياً، مرعباً.

إنه يذكّرني بتلك الصور المرعبة للقدّيس، بجسده المليء بالسهام والجراح المفتوحة. لكنّ زهير المحتسب كان شرّيراً، غير محترم، حسبما كان يصرخ الأطفال والرجال الفلسطينيون المتوسطو العمر بفرح عندما كانت الحجارة تنهال على جثة العميل الدامية. «هذه أمثولة للجميع هنا». التفتّ لأجد رجلاً ذا لِحيَة بنّية يشير إلى كيس من اللحم خلفي. «كان هذا محمّد دبابسي. إنه أمثولة لكل الناس. على الجميع مشاهدة ذلك». وبينما كنت أراقب، ألقت مجموعة من الشبّان الغاضبين الجثّة في شاحنة القُمامة.

ماذا تفعل عندما يفرح الناس إزاء وحشية كهذه؟ لا أستطيع أن أصِف ما أشاهده كتابةً في دفتر ملاحظاتي، وعوضاً عن ذلك رسمت صوراً لما أشاهده. وصرخ الحشد المرعب: «اللّه أكبر».

كانت هناك فتيات على السطوح، وشبّان يرتدون بذلات وربطات عنق

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يحدّقون في الجثث عن بعد ثلاثة أمتار فقط، وأطفال يلقون الحجارة لإنهاء عملية شنق زهير المحتسب. وكان الشارع حيث حصل ذلك الشيء ولنسمّه: المجون الإباحي، هو شارع السلام.

كان الرجال الثلاثة قد سُجنوا في السجن المحلّي ـ وحُكم عليهم منذ فترة طويلة بحيث لا يتذكّر الحشد متى ـ لتعاونهم مع قوّات الاحتلال الإسرائيلي. هل كانوا يعرفون مصيرهم، قبل ساعات قليلة، عندما سمعوا مروحيّة أباتشي تُطلق صواريخها الأربعة التي كانت قوّة انفجارها مسموعة في سجن السلطة الفلسطينية على بعد مئات الأمتار؟.

كان الإسرائيليون قد أرسلوا فِرقة قتل بالهليكوبتر لاغتيال مروان زلّوم، أحد قادة كتائب الأقصى في الخليل، وقد حوّلت الصواريخ الأربعة (وهي هديّة أخرى من مارتن لوكهيد في فلوريدا استناداً إلى الأجزاء التي عثرت عليها) سيّارته الميتسوبيشي إلى كُتلة من نار. وعلى الفور قُتل زلّوم البالغ من العمر ٤٣ سنة ـ متزوّج وأب طفلة تُدعى سُجى ـ وسط فيض من الفرح لدى الجيش الإسرائيلي. قالوا: «كان يعادل ميليشيا مسلّحة كاملة» (مبالغة سخيفة)، وأشاروا إلى العمليات الانتحارية ومئات الهجمات المسلّحة التي خطّط لها رجاله، ومن ضمنها حوادث شلهيفات باس، حيث قُتل طفل يهودي برصاص قنّاص فلسطيني في آذار/مارس ٢٠٠١، ومدني إسرائيلي (مستوطن). بعد ثلاثة أشهر، تحدّثت فِرقة الموت في الجيش الإسرائيلي ثلاث مرّات عن «المجموعات اليهودية» عندما كان ذلك يعني «المستوطنات اليهودية» على الأرض العربية. وكانت أمينة لأخلاقيةِ مثل هذه التصريحات حين فشلت في الإعلان أن سمير أبو رجب، صديق زلّوم، قُتل معه أيضاً بصواريخ إسرائيلية من صُنع أميركي.

على الرغم ممّا حصل، وفي الساعة التاسعة والنصف، قرّرت كتائب الأقصى وحماس أيضاً، وبالتأكيد عدد كبير من أولاد الحيّ الفلسطينيين الانتقام بإعدام ثلاثة متعاونين مع إسرائيل كانوا ينتظرون ساعتهم في السجن المحلّي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وأبلغني مهندس مدنيّ كان يراقب الحشد أنهم اقتادوهم إلى مكان حصول الانفجار وضربوهم بدون رحمة ثم أعدموهم. وهكذا وصل سكّان ضاحية عين سارة في الخليل للاحتفال بهذا الحدث المثير. لمس بعضهم الجثث، ووقف آخرون إلى جانب الطريق لإلقاء الحجارة. كان هذا بمثابة دكّان لحّام. تسلّق الأطفال أعمدة الكهرباء لأخذ صور لهم مع أصدقائهم قرب ذبيحة الجزّار... وكم ابتهجوا عندما تحرّكت شاحنة القُمامة بين الحشود أمام سيّارة إطفاء تقدمة من ألمانيا. وبعدما أُلقيت بقايا دبابسي الدامية في مؤخّرة الشاحنة تحرّكتْ نحو العمود حيث تتدلّى جثّة المحتسب. كان رأسه شبه مفصول عن جسده عندما أُلقيَ في الشاحنة الرمادية يرافقه صراخ رضى من الحشد.

هكذا تصرّف مواطنو الدولة الفلسطينية الناشئة بغضب وعنف ومتعة رهيبة بانتقامهم من إسرائيل لاغتيالها زلّوم وأبو رجب. وفي طريق العودة إلى القدس كان المرء يستطيع تصوّر ردّة فعل سكّان هذه المستوطنات اليهودية غير الشرعية في إفرات ونيفي دانيل وغوش أتسيون بسطوحها الحمراء النظيفة ورشّاشات المياه. وحشية، بربرية، حيوانات تتصرّف مثل الحيوانات. وعرف أحدهم كيف يفكّر الفلسطينيون. لقد عمل هؤلاء الرجال الثلاثة لإسرائيل، للدولة التي احتلّت أرضهم طيلة ٣٥ سنة. وهمس لي سائق فلسطيني: «لقد فعلوا ذلك حتماً من أجل المال». كان المتعاملون الثلاثة متزوجين. وقيل في الخليل إنه لم يُسمح لهم بمدفن إسلامي. وتساءل أحدهم كم يصبح الفلسطينيون قُساة قبل أن يحصلوا على دولة.

لكنْ أيّة دولة هناك ليحصلوا عليها؟ يوم ٢٩ آذار/مارس ٢٠٠٢، شنّ الإسرائيليون هجوماً على الضفّة الغربية أطلقت عليه الصحافة اسم «عملية الدرع الواقي»(*). قبل يومين دخل انتحاري من حماس فندقاً على شاطئ مدينة ناتانيا

(*) مثل الجيوش الأميركية والبريطانية، يعلن الإسرائيليون أحياناً عنواناً إعلامياً لعمليّاتهم لا علاقة له باسم العملية العسكرية الجارية. وهكذا فقد سُمّيت عملية غزو لبنان عام ١٩٨٢ رسميّاً «عملية السلام من أجل الجليل» ـ أسطورة دعائية بثّها الصحفيون المخدوعون بسرور ـ بينما كان رمزها «عملية كُرة الثلج». بعكس السلام، يزداد حجم كرات الثلج وقوّتها بينما تتدحرج نزولاً.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الإسرائيلية وفجّر قاعة مكتظّة بأشخاص يحتفلون بعيد الفصح اليهودي وقتل ٢٨ مدنياً معظمهم من المسنّين، وبعضهم من الناجين من المحرقة اليهودية. كانت أسوأ عملية قتل جماعي من نوعها ضدّ المدنيين الإسرائيليين منذ انطلاقة الانتفاضة.

بالإجمال، قُتل أربعون إسرائيلياً بين ١ آذار/مارس و١ نيسان/أبريل ٢٠٠٢. لذلك كان السبب المعلن للهجوم الإسرائيلي، استناداً إلى الجيش الإسرائيلي، هو استئصال الإرهاب. وبشكل حتميّ، كانت ضربتهم الأولى ضدّ عرفات شخصياً، المتحصّن في قلعته البريطانية القديمة في وسط رام الله. ولعدم قدرتي على شقّ طريقي عبر الحواجز الإسرائيلية على الطريق السريع في القدس، توجّهت نحو مستوطنة بساغوت غير الشرعية، حيث شاهدت من منطقة إسرائيلية تلك المعركة الجديدة لتدمير السلطة الفلسطينية.

كانت تلك، مرة أخرى، النظّارة المكبّرة إياها... إنه يوم ٣١ آذار/مارس، وأنا في وسط مستوطنة مسلّحة ومكتظّة بالقوّات المسلّحة التي كانت تعرض عليّ بودّ جميل أن أشاركها طعامها وأنا أنظر إلى أسفل، إلى مأساة فلسطين الأخيرة. ارتفع دخان رمادي كستار فوق مقرّ قيادة عرفات، وتحرّك عالياً فوق مئذنتيْن ثم غطّى السماء جنوب رام الله.

قال مجنّد إسرائيلي بازدراء: «أعتقد أنه فجّر نفسه، لقد انتهى ذلك الرجل». وقفنا على طرف المستوطنة ـ على بعد ٤٠٠ متر من المنازل الأولى للمدينة الفلسطينية التي أعيد احتلالها حديثاً ـ تحيط بنا دبّابات ميركافا وناقلات جند ماغاه Magah وسيّارات جيب وشاحنات ومئات الجنود الاحتياطيين الذين يُنزلون البطّانيات والفرش والأسلحة من الشاحنات. قال المجنّد: «إنها البداية فقط، هل تعرف ذلك؟ إنهم مغفّلون هناك في الأسفل. كان عليهم أن يعرفوا أن إرهابهم قد انتهى. لن نعود أبداً إلى حدود ٦٧. بكلّ الأحوال، يريدون تلّ أبيب». لطمَ صدى صوت آذاننا، فقد انفجرت قذيفة على الجانب الآخر من التلّة حيث تقع رام الله. اقتربتُ أكثر من المدينة عبر حديقة من النرجس وأزهار الأرجوان القاتمة وحيث كان يقف جندي إسرائيلي شابّ. قال بحيرة: «أريد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الذهاب إلى بيتي». قلت له: «إنّ عمر العشرين يبدو صغيراً لتكون جندياً». أجاب: «هذا ما قالته لي أمّي». كان يأكل خبز ماتزو مع السجق، محدّقاً في شوارع رام الله الخالية. قال: «لقد سجنوا أنفسهم في بيوتهم. هل تلومهم؟» لا ألومهم. لكنّه كان صباحاً غريباً، وأنا أجلس مع الجنود الإسرائيليين فوق رام الله، مثل مراكز المراقبة الفظيعة التي كان يحضّرها الجنرالات لضيوفهم في الحروب النابليونية، حيث يُقدّم لهم الطعام والنبيذ بينما هم يشاهدون تطوّر المعركة. كان هناك أيضاً زوجان من المستوطنين يقدّمان الطعام الساخن والقهوة بلطف للجنود الاحتياطيين. كانت المرأة تحمل إناء من الخُضر والجبن وتقدّمه لي عندما قالت ببهجة: «ابنتي في جامعة كامبريدج، إنها تدرس تاريخ الصليبيين». علّقت قائلاً: «تلك كانت قصّة دموية» ووافق زوجها بسرور. هكذا هي الحروب الدينية. عندها شاهدت الفلسطينيين الأربعة.

تحتنا مباشرة، قرب حديقة أزهار النرجس والأرجوان، كان ثلاثة منهم راكعين على العشب أمام مجموعة من الضبّاط الإسرائيليين وكانوا جميعاً معصوبي العيون وأيديهم مربوطة خلف ظهورهم بقيود من البلاستيك والمعدن، وكانت سترة أحدهم متدلّية على ظهره بحيث لا يستطيع تحريك كتفيه. كان الإسرائيليون يتحدّثون إليهم بهدوء، وكان أحدهم راكعاً على ركبة واحدة كما لو كان أمام مذبح وليس أمام أسير. ثم شاهدت الرجل الرابع، وهو متوسّط العمر، مربوطاً كالدجاجة، ممدّداً على العشب معصوب العينين قرب مجموعة من الزهور. قال المجنّد باستخفاف: «يقولون جميعهم إنهم لم يفعلوا شيئاً، إنهم أبرياء، وإنهم أُخذوا من بيوتهم بدون سبب. حسناً هذا ما يقولونه».

ذكرتُ الأسرى للمستوطنين الودودين، فأومأوا برؤوسهم كما لو كان طبيعياً اكتشاف أربعة رجال مربوطين ومعصوبي العيون في الحديقة. وعندما سألت ابن العشرين عنهم، أومأ برأسه مثل المجنّد. قال «إنهم ليسوا أسرى» وفكّرت في أميرة حاس واحتقارها للذين «ينظرون من طرف العين». مشيت من زاوية المبنى إلى المرجة حيث كان الفلسطينيون يخضعون للاستجواب. كان أسير آخر يُحني

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

رأسه تكراراً على باب وكتفاه يهتزّان كما لو كان يبكي. ولم يكترث الجنود لشيء من هذا. ففي حربهم «الفريدة على الإرهاب» كان هؤلاء الأسرى إرهابيين. وقال جندي آخر يأكل طبقاً من الخُضر أنه كان يعتقد بأن جميع الناس هناك إرهابيون. إرهابيون، إرهابيون، إرهابيون. مرّت أمامنا دبّابة مركافا متجهة إلى أسفل التلّ تحتنا مصحوبة بغيمة من الدخان الأزرق ترتفع ماسورتها وتنخفض فوق بدنها. وصلت قوّات أخرى في شاحنات أخرى وبأيديهم أسلحة هجومية. ونُصبت هوائيات أجهزة الاتصال وتمركزت العربات المدرّعة فوق رام الله.

في طريق العودة إلى القدس، مررت بحافلة قديمة صدئة مقابل معال أدونيم، وكانت نوافذها مشبكة بالأسلاك. كانت الأيدي تمسك بالأسلاك، وخلفها كان يمكن رؤية عشرين أو ثلاثين وجهاً عبر الشباك. كان الأسرى الفلسطينيون صامتين، ينظرون من النوافذ إلى المستوطنة اليهودية الكبيرة، يراقبون بوجوه داكنة في الظلّ، تحرسهم سيّارة جيب تحمل جنوداً إسرائيليين.

بعد دقائق قليلة، توقّفتُ لشراء خبز وشوكولاتة من محلّ بقالة فلسطيني في القدس الشرقية. كان المشترون ـ معظمهم من الرجال مع امرأتين محجّبتين ـ يقفون تحت جهاز تلفزيون في المحلّ، وأكياس الطعام البلاستيكية تتدلّى من أيديهم. لا يُحجم التلفزيون الإسرائيلي عن قول الحقيقة حول خسائره، فقد أعلن المعلّق أن «عدد القتلى وصل حتى الآن الى أربعة عشر». وسمع ذلك فلسطينيو القدس الذين يفهمون العبرية. كانت كاميرا على متن طائرة هليكوبتر تصوّر سطح مطعم في حيفا، مكشوفاً مثل عُلبة سردين نتيجة لمتفجّرات انتحاريّ حماس. حرّك صبي رأسه لكنّ رجلاً التفت نحوه وقال مشيراً إلى الشاشة: «كلّا، هذه هي الطريقة للقيام بذلك».

وفكرّت في الفتاة التي تدرس في كامبريدج عن الصليبيين وفي التاريخ الذي وافقنا كلّنا على أنه كذلك، وكيف أن الحروب الدينية تتجه لتصير الأكثر دموية على الإطلاق.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كلّما أراد الجيش الإسرائيلي منعنا من رؤية ما سيفعله، كانت تظهر تلك الممارسة البالغة السخف في القانون العسكري الفظّ: «المنطقة العسكرية المغلقة» كما في لبنان عام ١٩٨٢ وفي غزّة عام ١٩٩٣. وكما في كلّ الحملات الإسرائيلية للاحتلال ـ كذلك عام ٢٠٠٢ ـ فإن أفضل ردّة فعل تمثّلت بالذهاب للنظر إلى ما لم يرغب الإسرائيليون في إطلاعنا عليه. في رام الله، تصوّرت لماذا لم يرغبوا في وجود مراسلين في الجوار. فأن تنحدر على تلّة مليئة بالحصى، ليس بعيداً عن نقطة تفتيش إسرائيلية، وأن تتسلّق الصخور وتخوض في الوحل سائراً بتطفّل إلى مخيّم العماري للّاجئين الفلسطينيين على الجانب الآخر من رام الله، فهذا يعني أن تحكي قصّة المدنيين المرعوبين والدبّابات الهادرة والأطفال الذين يلقون الحجارة على سيّارات الجيب الإسرائيلية، تماماً كما فعلوا قبل أوسلو وقبل كل الآمال الكاذبة التي أحضرها الأميركيون والإسرائيليون وعرفات إلى المنطقة.

كان يوماً رمادياً، بارداً، رطباً، من أجل حرب شارون على الإرهاب، وكان مَن أقلّني في سيّارة الإسعاف إلى وسط رام الله طبيباً يقود ببطء إلى الطرق الفرعية، متوقّفاً عندما يلمح مدفع دبّابة ظاهراً من خلف البنايات، وينظر إلى أعلى باتجاه طائرات الأباتشي التي كانت تحلّق كالزنابير، اثنتين اثنتين فوق المدينة. كان في وسط المدينة سيلٌ من الدبّابات المتحرّكة بسرعة وحاملات الجند المصفّحة، وكوّاتها مغلقة، يرافقها إطلاق نار كثيف من الإسرائيليين والفلسطينيين. وبينما كانت الطلقات تئزّ في الشوارع، قاد الجيش الإسرائيلي دبّابات APC ومركافا ـ وبعض دبّابات سونتوريوس Centurious الإنكليزية، ما لم تخدعني عيناي ـ في الشوارع بسرعة فائقة تجعلهم لا يكادون يرون إرهابياً، ولو وقف، يلوّح لهم من فوق درجات السوق المحلّي. هذا ما وصلت إليه أوسلو. وكلّما شاهدوا غربياً، صحفياً أو «ناشط سلام» (والأخير يتميّز بلبس الكثير من الحلق، والكوفية الفلسطينية، وفي حالة واحدة حلقة أنف) يخرج الفلسطينيون في رام الله من أبواب بيوتهم ويلوّحون لنا ويقدّمون لنا القهوة. ركض طفل عبر بستان، يلاحق حصاناً، وكان رجل عجوز يقود بغلاً نحو طريق فرعي وعلى وجهه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ابتسامة عريضة. وأدركت عندها، حسبما أعتقد، أن هؤلاء الناس العاديين ـ العائلات والرجل العجوز والطفل والحصان ـ هم الذين يشكّلون المقاومة الحقيقية للإسرائيليين، هؤلاء هم الذين يرفضون الإذلال، انطلاقاً من حياتهم العادية جدّاً، أكثر من المدّعين في كتائب الأقصى وفتح.

وهنا جاء سيل من الشكاوى الفلسطينية عن التخريب والسرقة التي قام بها الجنود الإسرائيليون. وكان الردّ الإسرائيلي: أن هذا تحريض لا أساس له لفّقته السلطة الفلسطينية!. لكنّه كان صحيحاً بمعظمه. لقد تغوّط الجنود الإسرائيليون على أرض المكاتب، ودمّروا أجهزة فاكس وآلات تصوير ثمنها آلاف الدولارات في الوزارات الفلسطينية والمدارس ـ والأخطر أنهم سرقوا مجوهرات ونقوداً تساوي عشرات الألوف من الدولارات من البيوت الفلسطينية الخاصّة حيث تُعتبر رام الله مدينة تقطنها الطبقة الوسطى. ولسوء حظ الجيش الإسرائيلي فإنّ العديد من الفلسطينيين الذين سُرق مالهم يحملون أيضاً الجنسية الأميركية. وبسبب تقريري عن هذه السرقة التي اقترفها جيش يُفترض أنه يؤمن بنقاء السلاح، تمّت مهاجمتي بصفتي كاذباً ومعادياً للساميّة من قِبل ما يُسمّى أصدقاء إسرائيل. والحال، أنه بعد بضعة أيام اعترف الجيش الإسرائيلي بأنه «حصلت بالفعل وبشكل واسع ظاهرة بشعة من التخريب... وكان حجم النهب أكبر بكثير ممّا يمكن توقّعه»... وشمل ذلك في رام الله التدمير المنظّم لأجهزة الكمبيوتر. وقد نشر الصحفيون الإسرائيليون تقارير مشابهة دون أن يتعرّضوا لتهجّم عنصري.

وفي الأيام القليلة التالية، تدفّقت القوّات الإسرائيلية إلى طولكرم، ونابلس ومدن أخرى(*). لكنّ الإسرائيليين واجهوا أشرس مقاومة في جنين وارتكبوا ما

(*) أظهرت إحصائيات منظمة العفو الدولية أنه في الفترة بين ٢٧ شباط/ فبراير وحزيران/ يونيو ٢٠٠٢ التي تضمّنت هجومَين إسرائيليين رئيسيّين وإعادة احتلال للضفّة الغربية، قُتل حوالي ٥٠٠ فلسطيني، سقط العديد منهم خلال مواجهات مسلّحة ومع ذلك فإن ١٦ في المئة من الضحايا ـ أكثر من سبعين ـ كانوا من الأطفال. ومنذ العمليات الإسرائيلية الأولى في آذار/ مارس وحتى حزيران/يونيو، قُتل أكثر من ٢٥٠ إسرائيلياً بمن فيهم ١٦٤ مدنياً منهم ٣٢ طفلاً. وقد تم اعتقال أكثر من ٨ آلاف فلسطيني خلال هذه الفترة، استناداً إلى منظمة العفو الدولية، وكانوا عُرضة لمعاملة سيّئة، وتمّ تدمير ثلاثة آلاف منزل فلسطيني.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يمكن وصفه بجرائم الحرب الفردية. ومنعوا مجدّداً كل الصحفيين من دخول جنين بينما كانوا يشقّون طريقهم داخل السوق القديم والمخيّم الذي يشكّل جزءاً من وسط المدينة. وقد دافع المقاتلون الفلسطينيون بشراسة. ولم يكن هناك أدنى شكّ في أن جنين مركز للانتحاريين ـ فقد أجريت مقابلات عدّة مرّات مع عائلاتهم في المنطقة ـ وليس هناك أدنى شكّ أيضاً أن الإسرائيليين واجهوا مقاومة رائعة(*). وبحلول ٩ نيسان/أبريل كان الإسرائيليون قد فقدوا ٢٣ جندياً في القتال. وكانوا هم الذين أعطوا أوّلاً الانطباع بأن هناك مجزرة ضدّ المدنيين في المدينة.

وقد صرّح المتحدّث باسم جيش الدفاع الإسرائيلي العميد رون كيتري في وقت سابق خلال المعركة بأن هناك على ما يبدو مئات القتلى. وأعلنت «مصادر إسرائيلية» ـ الستارة المجهولة التي يتحدّث من خلالها جنرالات إسرائيل ـ أنه كانت هناك خطّة لنقل الجثث خارج المخيّم ودفنها في «مقبرة خاصّة». وقد تمّ إرسال شاحنات مبرّدة إلى جنين. وعندما طالبت مجموعتان لحقوق الفلسطينيين المحكمة الإسرائيلية العُليا بمنع نقل الجثث لأنه سيجري دفنها في مقبرة جماعية في وادي الأردن، مما يُعتبر إهانة للقتلى، أصدرت المحكمة أمراً قضائياً يُساند المدّعين.

طيلة هذا الوقت، أُبقيَ الصحفيون خارج جنين، بالإضافة إلى موظّفي الإغاثة والصليب الأحمر الدولي(**). وفي مؤتمر صحفي أعلن قائد وحدة إسرائيلية، الرائد رافي ليدرمان أنه ـ خلافاً للتقارير الصحفية ـ لم تُطلق القوّات المسلّحة الإسرائيلية صواريخ من طائرات هليكوبتر كوبرا الأميركية الصنع. وكان

(*) غير أن المقاتلين الفلسطينيين الذين صمدوا ستة أسابيع خلال حصار بيروت عام ١٩٨٢ لم يحظوا بأيّ إعجاب. وقد سألني أحدهم في لبنان بعد شهر: «لماذا لم يقاتلوا؟».

(**) قال الإسرائيليون إنه كان مسموحاً لرجال الصليب الأحمر بالدخول إلّا أنهم رفضوا ذلك. وقال الصليب الأحمر إن ذلك غير صحيح. ثم ادّعى الإسرائيليون بأنّ لديهم شريط فيديو يظهر فيه مسؤولو الصليب الأحمر وهم يرفضون العرض. ولكن حين طلبنا رؤية ذلك الشريط فشلت السلطات الإسرائيلية في تقديمه. والقليل من الصحفيين صدّقوا وجوده.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ذلك كذباً واضحاً. فقد كانت أنقاض جنين، عندما دخلها الصحفيون في النهاية، مليئة بأجزاء صواريخ جوّ ـ أرض ـ صنع الولايات المتحدة بالطبع ـ وقد صرّح الملحقون العسكريون الغربيون الذين زاروا المنطقة بأن الإسرائيليين يكذبون حول طائرات كوبرا. عندها، وكما كتب مراسلنا فيل ريفيس في القدس «أعلنت القيادة الفلسطينية فوراً وبدون دليل أن مجزرة حصلت في جنين قُتل فيها أكثر من ٥٠٠ شخص. وقد جعلت مجموعات حقوق الإنسان الفلسطينية الأمور أسوأ من خلال نشر قصص غير صحيحة».

وأصبح هذا الكلام هو الأهمّ لإسرائيل في ردّها على عمليات القتل في جنين. فقد صرخ بنيامين ناتانياهو أثناء تظاهرة مؤيّدة لإسرائيل في ميدان الطرف الأغرّ: «لم تكن هناك مجزرة». ومنذ ذلك الحين، لم يتمّ تسليط الضوء في رواية الهجوم الإسرائيلي الشامل والقاسي داخل جنين على ما حصل بالفعل في تلك الحقبة الرهيبة من التاريخ الفلسطيني والإسرائيلي بل على الكذبة المفترضة للمجزرة. وأصبحت الكذبة، وليس الوقائع، هي القصّة. لقد «كذبَ» الصحفيون، لقد «كذبتَ» ـ خلال سلسلة محاضرات في أنحاء الولايات المتحدة في أواخر ربيع ٢٠٠٢، اتّهمت مراراً بالكذب حول مجزرة جنين ـ حتى عندما كنت في لوس أنجلوس في ذلك الوقت، ولم أشهد عمليات القتل ولم أستخدم أبداً كلمة «مجزرة». لقد كانت هناك مجازر حقيقية كافية منسوبة إلى إسرائيل دون حاجة إلى اختراع المزيد.

لكنّ زميلَيّ في صحيفة الإندبندنت، جاستين هوغلر وفيل ريفيس، استمرّا في تحقيقاتهما الدقيقة حول عمليات القتل في جنين. لم يصفاها بالمجزرة بل استخلصا أن حوالى نصف القتلى الفلسطينيين الخمسين المعروفين كانوا من المدنيين بمن في ذلك النساء والأطفال والمسنّون.

لقد حدثت فظائع فردية بحسب استنتاج الإندبندنت، وهي فظائع تحاول إسرائيل إخفاءها من خلال حملة دعائية واسعة:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

«هاني رميلي، مدني عمره ١٩ سنة، قُتل بينما كان يحاول النظر من بابه الرئيسي. فدوى جُمعة، ممرّضة تعيش مع شقيقتها في منزل مجاور، سمعت هاني يصرخ وذهبت للمساعدة. وقد أصيبت شقيقتها رفيدة دمج التي هُرعت أيضاً للمساعدة لكنها نجت. ومن سريرها في مستشفى جنين، روت لنا ماذا حصل. قالت: «استيقظنا في الساعة ٣,٣٠ صباحاً على صوت انفجار كبير. سمعت أن رجلاً أصيب خارج بيتنا. لذلك توجّهت مع شقيقتي للقيام بواجبنا ومساعدة الرجل وإعطائه الإسعافات الأوّلية. كان هناك بعض الشباب من المقاومة وكان علينا سؤالهم قبل أن نتحرّك إلى أيّ مكان... وقبل أن أُنهي كلامي مع الشباب بدأ الإسرائيليون بإطلاق النار. أُصبت برصاصة في قدمي وسقطت على الأرض وكُسرت ركبتي. حاولت شقيقتي المجيء ومساعدتي. أبلغتها «إنني مصابة». قالت: «أنا مصابة أيضاً». كانت مصابة في خاصرتها ثم أطلقوا النار عليها ثانية في قلبها... أصدرت صوتاً رهيباً وحاولت التنفّس ثلاث مرّات».

كانت الآنسة جُمعة ترتدي لباس ممرّضة أبيض مرسوماً عليه علامة الهلال الأحمر بوضوح، شعار المُسعفين الفلسطينيين، عندما قتلها الإسرائيليون. قالت السيدة دمج إن الجنود كانوا قادرين بوضوح على رؤية النساء لأنهنّ كنّ واقفات تحت الضوء الساطع وكانوا قادرين على سماع صراخهنّ طلباً للنجدة لأنهم كانوا قريبين جدّاً. وعندما صرخت السيدة دمج للمقاتلين الفلسطينيين طلباً للمساعدة، أطلق الجنود الإسرائيليون النار مجدّداً، وانطلقت رصاصة ثانية اخترقت قدمها صعودا لتستقرّ في صدرها...

مات جمال فايد بعدما دفن حيّاً في الركام. وأبلغنا عمّه صائب فايد أن جمال وعمره ٣٧ سنة كان متخلّفاً عقلياً ومُعاقاً ولا يستطيع المشي... وعندما شاهد السيد فايد جرّافة إسرائيلية تتقدّم نحو المنزل

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

حيث ابن أخيه، ركض لتحذير السائق. لكنّ الجرّافة اخترقت جدار المنزل الذي انهار على جمال...».

على طريق مهجورة في أطراف مخيّم اللاجئين، وجدنا بقايا كرسيّ متحرّك مسطّحة. كانت مُحطّمة كلّياً، وحديدها مسطّح كما لو كانت في فيلم كرتون. وفي وسط الركام علم أبيض ممزّق. أبلغنا ضرار حسن كيف قُتل صديقه كمال زغير بينما كان يحاول الانتقال بالكرسيّ المتحرّك عبر الشارع. ويبدو أن الدبّابات الإسرائيلية سحبت الجثّة إذ عندما وجده السيّد حسن قال إن القدم واليدين كانت مفقودة والوجه مقسوماً إلى نصفين.

كان السيد زغير، البالغ من العمر ٥٨ عاماً، قد أُصيب وجُرح في الانتفاضة الأولى. ولم يكن قادراً على السير أو العمل. وقد عرض لنا السيد حسن الغرفة المفردة المحزنة حيث كان يعيش صديقه، وكان الأثاث الوحيد فراش قذر على الأرض... كان السيد حسن يغسل له، وكان هو الذي وضع العلم الأبيض على الكرسيّ المتحرّك لزغير... قال حسن: «بعد الساعة الرابعة بعد الظهر دفعته إلى الشارع كالمعتاد. ثم سمعت الدبّابات قادمة، وكانت أربع أو خمس دبّابات. وسمعت إطلاق نار واعتقدت أنهم يطلقون طلقات إنذار لإبلاغه بالابتعاد عن وسط الطريق». لم يذهب السيّد حسن للتحقّق ممّا حدث إلا في صباح اليوم التالي. وقد وجد الكرسيّ المتحرّك محطّماً على الطريق وجثّة السيد زغير مقطّعة على مسافة قريبة في العشب.

إذن، متى يصبح حمّام دم فظاعة؟ ومتى تصبح الفظاعة مجزرة؟ كم يجب أن يبلغ حجم المجزرة قبل أنّ تصنّف بالإبادة؟ كم يجب أن يكون عدد القتلى قبل أن تصبح الإبادة هولوكوست؟ أسئلة قديمة تصبح أسئلة جديدة عند كل ساحة قتل.

كتب الصحافي الإسرائيلي آري غاسبي مقالاً لاذعاً في أواخر نيسان/أبريل تناول الإجابة الغبيّة عن عمليات قتل جنين بدقّة مؤلمة:

«حسناً إذن، لم تكن هناك مجزرة. قتلت إسرائيل فقط بعض الأطفال،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ودمّرت منزلاً فوق رجل مسنّ، وأسقطت حجارة الإسمنت فوق مُعاق لم يستطع الخروج في الوقت المناسب، واستخدمت السكّان المحلّيين كدروع بشرية ضدّ القنابل ومنعت المساعدة من الوصول إلى المرضى والجرحى. هذه ليست مجزرة بالفعل، وليست هناك حاجة بالفعل إلى لجنة تحقيق أكانت بإشرافنا أم مرسلة من غير اليهود. يبدو أن الجنون الذي استحوذ على إسرائيل تخطّى أخلاقيّاتنا... يؤمن العديد من الإسرائيليين بأن مكاننا محفوظ في الجنة. ما دمنا لا نمارس القتل الجماعي المنظم. وفي كلّ مرّة يصرخ فلسطيني أو اسكنديناڤي مجنون: «هولوكوست»! نردّ بانزعاج مُفرط: هل هذا هولوكوست؟.

إذن، قُتل القليل من الأشخاص، ٢٠٠، ٣٠٠، بعضهم صغير جدّاً، وبعضهم الآخر مسنّ. هل رأى أحدكم غرف غاز أو محرقة؟».

ليست هذه أسئلة تافهة أو ساخرة. بعد فترة ليست طويلة من محاولة شارون الفاشلة وقف انتحاريي حماس والجهاد الإسلامي، اقتحم مسلّحون فلسطينيون يوم ٢٧ نيسان/ أبريل ٢٠٠٢ مستوطنة يهودية غير شرعيّة مبنيّة على أرض عربية في الدورة في الضفّة الغربية الفلسطينية.

أُصيبت دانييل شافي، ابنة الخمس سنوات، في سريرها مع والدتها وشقيقيها. قُتلت دانييل ونجت الأم. في أعلى الطريق، أُمطرت كاتيا غرينبرغ وزوجها فلاديمير بالرصاص بينما كانا نائمين. في غرفة نوم الطفلة الصغيرة، بقع دم وثلاثة ثقوب لرصاصات فوق سرير دانييل. وقد أُصيبت والدتها بينما كانت تهرع لحمايتها. وكانت الحصيلة مقتل أربعة إسرائيليين ـ بمن فيهم مستوطنان مسلّحان قاتلا دفاعاً عن النفس ـ وإصابة ثمانية آخرين.

يجب أن يكون لدى المرء قلب من حجر حتى لا يتأثر بالمصير الرهيب لدانييل شافي. كان عمرها خمس سنوات فقط. لكن إذا لم يكن مقتل ٢٤ فلسطينياً على الأقلّ في جنين مجزرة، فكيف نصف القتلى الإسرائيليين الأربعة في مستوطنة الدورة؟ حسناً، قال المتحدث الرسمي باسم الجيش الإسرائيلي، الرائد أفنير فوكسمان حول عمليات قتل الدورة: «بالنسبة إليّ، الآن أعرف ما

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

هي المجزرة. هذه مجزرة». ووصفت صحيفة ناشيونال بوست الكندية إلى الهجوم الفلسطيني بأنه «بربري»، وهي كلمة لم تستخدمها حيال عمليات قتل المدنيين الفلسطينيين. لا أحبّ العمليات الحسابية هنا. إنّ سقوط أربعة قتلى إسرائيليين، من ضمنهم مستوطنان مسلّحان، يُعتبر مجزرة. سأقبل هذا. لكنّ مقتل ٢٤ مدنياً فلسطينياً، من ضمنهم ممرّضة ومعاق، ألا يُعتبر مجزرة. (إنني أدعُ جانباً بوضوح ثلاثين فلسطينياً مسلّحاً أو أكثر قُتلوا أيضاً في جنين). ماذا يعني هذا؟ ماذا يخبرنا حول الصحافة، حول مهنتي؟. هل أصبح تعريف حمّام الدم الآن يعتمد على دين المدنيّ القتيل أو عِرْقه ليتمّ تصنيفه بالمجزرة؟ كلّا، لم أصف عمليات القتل في جنين بأنها مجزرة، لكن كان عليّ القيام بذلك.

مع ذلك، فإن مسؤوليتنا لا تنتهي هنا. كم من كلامنا الالتفافي فتح الطريق أمام هذه الهجمات؟ كم من الصحفيين شجّعوا الإسرائيليين ـ من خلال تقاريرهم أو من خلال نصائحهم التافهة ـ على القيام بهذه الهجمات القاسية ضدّ الفلسطينيين؟ يوم ٣١ آذار/مارس ٢٠٠٢ ـ قبل ثلاثة أيام فقط من الهجوم على جنين ـ كتب توم فريدمان في صحيفة نيويورك تايمز أن «إسرائيل تحتاج إلى القيام بعملية تفجير عسكري تُظهر بوضوح أن الإرهاب لا يُجدي». حسناً، شكراً يا توم، قلت ذلك لنفسي عندما قرأت هذه القطعة من الصحافة القاتلة بعد أيام قليلة. لقد اتّبع الإسرائيليون بالتأكيد نصيحة فريدمان.

عندما بدأ شارون عمليّته «الدرع الواقي»، طلب مجلس الأمن الدولي بمشاركة ودعم الولايات المتحدة النشط، الإنهاء الفوري لعملية إعادة الاحتلال الإسرائيلي للضفّة الغربية. أصرّ الرئيس جورج بوش أنّ على شارون اتّباع نصيحة «أصدقاء إسرائيل الأميركيين» والانسحاب.. (وكان طوني بلير مع بوش بعد ذلك بثلاثة أيام)، و«عندما أقول انسحاب أعني ذلك». لكنه لم يَعنِ شيئاً من هذا. وعوضاً عن ذلك، أرسل وزير الخارجية الأميركي كولن باول في «مهمّة عاجلة للسلام»، رحلة إلى إسرائيل والضفّة الغربية استمرّت ثمانية أيام مستحيلة ـ الوقت الكافي، بحسب اعتقاد بوش من أجل السماح لصديقه شارون بإنهاء مغامرته الدموية الأخيرة في الضفة الغربية؛ على افتراض أنه كان غير مدرك أن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

رئيس الأركان الإسرائيلي شاوول موفاز أبلغ شارون أنه يحتاج إلى ثمانية أسابيع على الأقلّ لإنهاء عملية سحق الفلسطينيين. قام باول بجولة في الشرق الأوسط متسكّعاً في المغرب، وإسبانيا، ومصر والأردن قبل أن يصل أخيراً إلى إسرائيل. ولو أن رجال الإطفاء في واشنطن أخذوا هذا الوقت الطويل للوصول إلى اللهب، لكانت العاصمة الأميركية تحوّلت إلى رماد منذ وقت طويل. لكن من المؤكّد أن سبب تباطؤ باول هو إعطاء الوقت الكافي لجنين حتى تتحوّل إلى رماد. مهمّة، أعتقد أنها أُنجزت.

وعندما وصل أخيراً إلى القدس، كان أول شيء يجب على باول القيام به هو طلب زيارة جنين. لكن عوضاً عن ذلك، وبعد مزاحه مع شارون، أخذ يناور طالباً أن يشجب عرفات العملية الانتحارية الأخيرة في القدس التي قُتل فيها ستّة إسرائيليين وأصيب خمسة وستّون بجراح، بينما فشل في إعلان أكثر من كلمة «قلق» حول جنين. هل كان باول خائفاً من الإسرائيليين؟ هل كان حقّاً بحاجة إلى التقليل من قيمته بهذه الطريقة؟ لأن موقفه بدا وكأنه نهاية اللعبة في الصراع العربي ـ الإسرائيلي، والدليل النهائي على أن الولايات المتحدة لم تعد جديرة بعد الآن بأن تكون صانعة السلام الشرق أوسطي. لكن لا! إذ سيحصل هذا عام ٢٠٠٤، عندما يدمّر بوش فعلياً قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢.

بدا أن ليست هناك حواجز لا يمكن تحطيمها. وقد كتبت في صحيفتي في ذلك الربيع الشنيع أن هذه كانت حرباً على الإرهاب. وبعد، فإنّ المسيح لم يولد في بيت لحم. وعندما تحصّنت مجموعة من المقاتلين الفلسطينيين في كنيسة المهد، قاد الإسرائيليون حصاراً ضدّهم وتحوّلت مدينة بيت لحم إلى ساحة قتال. وكان أوّل مَن قُتل رجل فلسطيني عمره ثمانون عاماً لم تصل جثّته أبداً إلى المشرحة. ثم أصيبت سيّدة وولدها بجروح خطرة نتيجة النيران الإسرائيلية. وتصاعد دخان أسود مع الرياح العاصفة من الجانب الآخر من ساحة المِزود، من عربة مصفّحة إسرائيلية تحترق ولذلك، وبينما كنّا نهرع للنجاة بأنفسنا والرصاص يئزّ حولنا، لم يكن لدينا وقت للنظر إليها. وكان هارفي موريس ـ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المتجسّد الآن، ليس كمحرّري للأخبار الأجنبية، بل كمراسل للفايننشال تايمز، ذلك المجدّف عديم الرحمة وغير المراقبة كلماته» ـ برفقتي عندما انطلقنا تحت المطر الذي كان يهطل على شكل موجات فوق الدبّابات الإسرائيلية التي كانت تهدر بين البيوت الحجرية العثمانية، ويُحطّم السيّارات ويمزّق سياجات الإعلانات التابعة للمحلّات.

تم إعلان «منطقة عسكرية مغلقة» مرّة أخرى من قِبل الإسرائيليين. افترضنا أنه كان على المسيح التعامل مع ترجمة رومانية للمناطق العسكرية المغلقة، لكنه لم يكن وحده فقد كان الله إلى جانبه، إنما لم يكن مع أهالي بيت لحم أحد. انتظروا تصريحاً ما من البابا، من الفاتيكان، من الاتحاد الأوروبي. وكان ما حصلوا عليه غزواً مدرّعاً. وقال هارفي بمبالغة جديرة بالمديح: «لقد أرسلوا كلّ الجيش الكريه». وطيلة الصباح راقبنا دبّابات المركافا وAPC تشقّ طريقها متسلّلة عبر الشوارع القديمة، تبحث عن وحوش «الإرهاب» الذين أبلغ شارون العالم عنهم لتوّه. جلسنا في منزل سيدة فلسطينية مسيحية، هي نورما حزبون، نراقب التلفزيون الذي استطعنا من خلاله مشاهدة فلسطين تتهاوى حولنا.

هوجمت مكاتب المخابرات الفلسطينية في رام الله. وبدأت القذائف تتساقط على مخيّم الدهيشة. عرفنا ذلك فوراً ـ كان مخيّم الدهيشة قريباً لدرجة أن النوافذ اهتزّت. وكان شارون يعرض على التلفزيون السماح للأوروبيين بأخذ عرفات خارج رام الله شرط أن لا يعود أبداً إلى الأرض المسمّاة «فلسطين». لكنّ العرض رُفض.

كان هناك إطلاق نار متزايد خارج نافذتنا. وجاءت دبّابة على الطريق، يشقّ مدفعها المرجة الخضراء ثم يرتفع ليوجّه مباشرة إلى نافذتنا. تسلّلنا نحو أسفل الدرج. هل رأونا نراقبهم؟ وقفنا على الدرجات الباردة الرطبة ثم اختلسنا النظر عبر النافذة. كان جنديان إسرائيليان يركضان قرب المنزل بينما اهتزّت دبّابة أخرى على الطريق مُبتلعة سيّارة صغيرة داخل سكّتها الحديدية ثم لفظتها أجزاء في مؤخّرتها المدرّعة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عرفنا جميعاً هذه الدبّابات، سرعتها القصوى، وصوت محرّكاتها الضخمة، وحجم نيرانها. احترمناها وكرهناها بالقدر نفسه.

أمضينا حوالي ساعة نسير في الشوارع الخلفية لتجنّب «المنطقة العسكرية المغلقة»، شوارع قذرة، باردة سوداء، مع دبّابات غاضبة على الطرقات السريعة المجاورة. وعند تقاطع طرق ركض أحدهم بينما وقفنا بسترات زرقاء وسوداء عليها علامة TV بأحرف كبيرة، أيدينا مرفوعة مثل البطّ لنظهر أننا لا نحمل أسلحة.

جلسنا مرتاحين دافئين الآن قرب مدفأة نورما حزبون، محبوسين في منزل أستاذة علم الاجتماع في جامعة بيت لحم. تعثّر قارئ الأخبار بكلماته. من الممكن أن توقف إيران والعراق صادرات النفط لإجبار الأميركيين على طلب انسحاب إسرائيلي من الضفّة الغربية. سعلت أنا وهارفي بازدراء متزامن، لن تفعل إيران والعراق مثل هذا الأمر. كانت مقارّ قيادة عرفات في رام الله تحترق. وقُتل جندي إسرائيلي في دبّابة APC على الجهة الأخرى من ساحة المهد بعدما أُصيب بقذيفة صاروخية. وكانت هذه العربة المحترقة التي رأيناها على الأرجح منذ ساعة. قال كولن باول إن الأميركيين سيستمرّون في الاعتراف بعرفات كزعيم فلسطيني، حتى لو كان في أوروبا. ضحك هارفي مجدّداً قائلاً: «لكن إذا كان في أوروبا، لن يكون الزعيم الفلسطيني، هل يكون؟».

خارج المنزل ،وقرب مجموعة من شجر البرتقال، برزت حاملتا جند إسرائيليّتان، كانت طواقمها تحاول ملء الفيول بيأس بواسطة خرطوم من سيّارة أخرى قبل أن يصيبهما القنّاصة الفلسطينيون.

مرّت الطلقات حولهم خلال ثوان وألقى جنديان هلعان نفسيهما عن السطح للاحتماء بمحلّ. ثم رنّ هاتفي الخليوي. صوت إنكليزي، سيّدة من واترينغبوري Wateringbury في كينت (عاش بيل وبيغي في القرية المجاورة أعلى شرق فارليغ Farleigh، عند إشارة التوقّف بعد غابة ميدستون Maidstone في بادوك Padock إلى الغرب من خط سكّة الحديد) لكنّ ليز واتيس لم تكن في كينت،

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ولكن في مخيّم عايدة للاجئين مع تسعة غربيين آخرين، تحاول مساعدة أربعة آلاف فلسطيني هناك من خلال مطالبة قنصليّاتهم بالضغط على الإسرائيليين للانسحاب. كان ثمّة بعض الأمل. في النهاية، كان على القنصليات إنقاذ الغربيين.

كان حوالى عشرين مدنياً فلسطينياً الآن يسعون للاحتماء مع عشرين مسلّحاً في كنيسة المهد(*). تلقّيت اتصالاً آخر، هذه المرّة من سامي عبده. أبلغني أن الجنود الإسرائيليين حضروا يوم الثلاثاء إلى منزله في وسط بيت لحم ـ ورغم تحذيرهم من قِبل جار أن منزله مليء بالنساء والأطفال ـ فقد زعم الإسرائيليون أن الإرهابيين كانوا في المبنى وأطلقوا النار على عائلة عبده. كان سامي عبده يبكي بينما كان يتحدّث معي وهذه كلماته الدقيقة:

«أطلقوا ثماني عشرة طلقة عبر بابنا الرئيسي. أصابوا والدتي سميّة وشقيقي يعقوب. كانت أمي في الرابعة والستين وشقيقي في السابعة والثلاثين من العمر. وقع الاثنان على الأرض. اتصلت بكل إنسان يمكنني الاتصال به لأخذهم إلى المستشفى. لكن لم يكن هناك أحد لمساعدتنا. كانا يحتضران. وعندما جاءت سيّارة إسعاف، رفض ضابط إسرائيلي السماح لها بدخول الشارع. لذلك بقينا ثلاثين ساعة مع جثثهم. وضعنا الأطفال في الحمّام حتى لا ينظروا إلى الجثث. ساعدنا أرجوك».

هذا السؤال الملحّ: ما هو المقدّس؟ كان يمكن أن يسأله أيّ شخص في الأراضي المقدّسة في ربيع ٢٠٠٢، أو أيّ شخص يقرأ صحيفة جيروزالم بوست. لقد أفردت صفحة كاملة لصور صغيرة لعشرات المدنيين الإسرائيليين الممزّقين أشلاء على يد انتحاريين فلسطينيين خلال شهر فقط. كانت بينها صورة فتاة إسرائيلية شابّة بعُمر الفتاة الفلسطينية التي دمّرت حياتها.

لقد كانت صفحة رعب وتعاسة! أجل، كانت الحملة الانتحارية الفلسطينية

(*) أتاح حصار بيت لحم سابقة أخرى عندما استخدم تلفزيون «بي بي سي» BBC للأخبار العالمية، بسبب عدم قدرته على تغطية القتال حول الكنيسة بآلات تصويره الخاصة، بشكل متكرّر مقاطع من تسجيلات الجيش الإسرائيلي ـ دون الإعلان عن مصدرها.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

غير أخلاقية، لا تُغتفر (وهي الكلمة التي قيلت لي خارج محلّ البيتزا في القدس) ولا تحتمل! يوماً ما، يتعيّن على العرب (وهم ليسوا من النوع الذي ينظر عن قرب إلى نفسه في المرآة حين يتعلّق الأمر بجرائمه هو) الاعتراف بالقسوة المحض لخططهم. لكن بما أن الإسرائيليين لا يحاولون مواجهة لاأخلاقية قتلهم لرماة الحجارة الأطفال أو شرور فِرق الموت المتهوّرة التي تتجوّل وتقتل الفلسطينيين على لوائح المطلوبين ـ إضافة إلى قتلها مجموعة النساء والأطفال المعتادة التي تقع في طريقهم ـ فهل بعد ذلك من داعٍ للعجب؟.

وهكذا عدت إلى غزّة، لأجلس في خيمة أخرى من خِيَم العزاء نُصبت هذه المرّة من أجل طلّاب مدارس، تراوح أعمارهم بين ١٤ و١٥ سنة، من روّاد مقهى الإنترنت المحلّي حيث يمضي أحدهم وقته في رسم أفلام الأطفال، وجميعهم من هواة كرة القدم. بعد ساعات على قتلهم من قِبل الجيش الإسرائيلي قرب مستوطنة نيتساريم اليهودية، تسلّم آباؤهم جُثثهم، وكانوا جميعاً مصابين بالرصاص. وقِيل إنهم سُحبوا بواسطة عربة مصفّحة مما أدّى في حالة إسماعيل أبو ندى ـ إلى قطع جثته نصفين.

كانوا انتحاريين حملة سكاكين يتسلّلون إلى مستوطنة يهودية بحسب قول الجيش الإسرائيلي ـ وطبعاً ـ النيويورك تايمز. لكن حتى حماس المخطَّطة لحملة الانتحاريين الآثمة، اعترفت بأنّ الطلّاب الثلاثة ـ جميعهم في المرحلة التاسعة في ثانوية صلاح الدين في مدينة غزّة ـ خطّطوا بسذاجة لمهاجمة المستوطنة من تلقاء أنفسهم وبواسطة سكاكين. ممّا استدعى قيام الدعاة وأساتذة المدارس بإبلاغ الطلّاب أنه لا يجب أبداً أن ينجرفوا في مثل هذه الأعمال الخطرة مجدّداً.

وعندما تحدّث الآباء الثلاثة معي، أخبروني قصّة ضياع ومأساة وغضب أطفال نتيجة الاجتياح الإسرائيلي الدموي لمخيّم جنين للّاجئين. أبلغني محمّد أبو ندى بينما كنّا نجلس بين المعزّين خارج منزله: «أمضيت ليلة أمس بكاملها أسأل نفسي لماذا فعل ابني ذلك، هل كان إسماعيل بحاجة إلى المال؟ كلّا.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

هل رسب في المدرسة؟ كلّا. كان الأوّل في صفّه. هل كانت لديه مشاكل مع العائلة أوالأصدقاء؟ كلّا. سألت نفسي مراراً لماذا؟ هل تستطيع أن تقول لي لماذا؟».

سؤال مؤلم يسأله أب مكلوم. هل أراد إسماعيل الموت؟ قال والده إن ذلك كان مستحيلاً حتى «ثلاثة أو أربعة شهور ماضية». كان ذلك عندما بدأ الطالب، المولود في أبو ظبي والمتحدّث للإنكليزية بطلاقة، يسأل والده لماذا لايحصل الفلسطينيون على دعم خارجي في نضالهم من أجل إقامة دولة؟ «سألني: لماذا الفلسطينيون فقط ليست لهم دولة؟».

اعتقد باسم زقّوت، والد يوسف ابن الخامسة عشرة (لم يتقابل أيّ من الآباء من قبل مع أن أولادهم يدرسون معاً في المدرسة نفسها) أنّ حمّام الدم في جنين أثّر على ابنه: «كان يرسم صوراً وأفلام كرتون ويكتب الخطّ العربي. لم أفكّر أبداً أن ذلك يمكن أن يحصل. لكن شاهدنا جميعاً الأخبار حول إعادة الاحتلال الإسرائيلي ـ التلفزيون الفلسطيني، والجزيرة من قطر والسي إن إن ـ وربّما شاهد شيئاً ما... وعندما عدت من صلاة العشاء يوم الثلاثاء، كان قد غادر المنزل. لم أعرف لماذا الآن. أعتقد أن الأولاد كانوا يسيرون نحو المستوطنة اليهودية وفي ذهنهم فكرة مهاجمة الإسرائيليين هناك. لكنّه لم يمسك بسلاح من قبل. وعندما تسلّمنا جثّته أمس، كانت في حالة مرعبة. كانت الكلاب تنهشها طيلة الليل وكان وجهه غير معروف المعالم لأنه تعرّض للسحق من قِبل سيّارة ثقيلة مرّت فوقه».

أُعيد ابن عادل حمدونة، أنور البالغ من العمر ١٤ سنة، إليه بحالة مماثلة. كان وصف الوالد بارداً غير انفعالي. «لم يبقَ له وجه، وقُطعت رجلاه. لقد تعرّض للدهس عدّة مرّات وكان بدون خُصيتيْن».

تعرّضت جثّة أنور أيضاً لنهش الكلاب. «كان مجرّد ولد، طفل. أنا أستاذ في مدرسته. عند الخامسة مساء، قال لوالدته إنه ذاهب إلى مقهى الإنترنت للّعب. وعندما لم يرجع إلى البيت عند التاسعة، شعرت بأن هناك خطباً ما. ثم سمعنا إطلاق نار من نتساريم...».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وهناك لُغز حول لماذا شعر عادل حمدونة بأن «هناك خطباً ما» إذ إن أنور كان قد بدأ الحديث مع عائلته عن «الاستشهاد». كان للأحداث هنا تأثير على الصبيّ. كان يرغب في أن يصبح شهيداً. «كنت أشكّ أنه بعد سنوات قليلة، عندما يكبر، يمكن أن يقوم بذلك ـ لكن ليس الآن». وقد ثبت أن إسماعيل أبو ندى ترك على ما يبدو رسالة وداع لأهله. اعترف والده: «أحضر لي أحد أصدقائه رسالة كتبها بخط يده ويقول فيها: «والدي، والدتي، أرجو أن تصلّيا للّه وتطلبوا منه أن أنجح في دخول نتساريم وأقتل الجنود الإسرائيليين وأطردهم من أرضنا». لم أستطع تصديق ذلك. في سنّه، أيّ صبيّ آخر (وأنا كنت في بريطانيا، والولايات المتحدة، والهند وباكستان)، أجل أيّ صبيّ آخر يريد أن يتعلّم وأن يكون سعيداً... أن يحصل على مال، أن يعيش بسلام. لكنّ أولادنا هنا لا يستطيعون إيجاد السلام».

أما في ما يتعلّق بحالة الجثث، فلم يرغب أيّ من الآباء التفكير في الأسباب. هل قام الإسرائيليون بتشويههم عن عمد؟ يبدو الأمر بعيد الاحتمال. أو أنهم بعد إطلاق النار على الطلّاب الثلاثة ولتجنّب المجازفة بأن يكون أحدهم مازال حيّاً ـ وبواسطة قنبلة معدّة للتفجير ـ قاموا بقيادة سيّارة فوق جثثهم؟ وعندما سُحقت أجسادهم هل كانوا جميعاً موتى؟ أرسل والد إسماعيل أبو ندى رسالة بسيطة ـ لا جدوى منها لتوم فريدمان على ما أظنّ ـ حول مقتلهم: «إذا لم يكن هناك مستقبل، فليس هناك أمل. إذن ماذا تتوقّع من صبيّ أن يفعل؟».

لكنّ عبدالله الرنتيسي زعيم حماس في غزّة كان أيضاً متلهّفاً لتحييد حركته عن مقتل الأولاد رغم أن كلماته لم تكن خالية من رسالة مُزعجة خاصّة بها. «أعتقد أن جرائم الإسرائيليين دفعت الأولاد إلى القيام بأعمال انتقامية بدون وعي. كانوا صغار السنّ، لم يدركوا أنهم لا يستطيعون عمل أي شيء في المستوطنة... اتصلت بالدعاة في المساجد والأساتذة ليشرحوا للأطفال أن دورهم في كل ذلك لم يحن بعد...» .

كان الرنتيسي يُمسك بلحيته باستمرار. تعوّدت الحديث معه في مرج الزهر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وفي جنوب لبنان لكنه الآن هارب من فِرق القتل الإسرائيلية، وكان رنين الهاتف يقطع حديثه باستمرار وهو جالس في مكتبه في غزّة، وحارسه الشابّ يضع رشّاش كلاشينكوف على ركبته ويعطيه جهاز هاتف لاسلكي عسكري لاقط بالاتجاهين. أعتقد ـ لكن لا أقول ذلك ـ أن ذلك كان من أجل حماية زعيم حماس. فأجهزة الهاتف الخليوية سهلة التعقّب على بعد أقدام قليلة. وتُعتبر فِرق القتل الإسرائيلية سيّدة في التكنولوجيا العادية والمبرمجة. هل هو مُراقَب من مروحيّة أباتشي؟ هل يرى ضحايا إسرائيل عادة الصواريخ وهي تطلق نحوهم؟.

ليست لدى الرنتيسي أيّ أوهام: «إنه أمر متوقّع ما دام الأمر متعلّقاً بنا. لكنّ الشيء الوحيد الذي أستطيع قوله هو ما يمكن أن يفهمه فقط شخص لديه عقيدة إسلامية مثلي. نحن نؤمن بأن حياتنا محدّدة دائماً وأن موتنا محدّد سلفاً من الله تعالى، ولا يمكن تغيير ذلك. هناك أسباب عديدة متنوّعة يمكن أن تقود إلى إنهاء حياة إنسان ـ حادث سيّارة، سرطان، سكتة قلبيّة ـ لذلك لا أقول إنني أقوم بخيار لتقصير حياتي. لكن الطريقة المُثلى لإنهاء حياتي ستكون الاستشهاد». وسيحقّق الرنتيسي أمنيته.

نظرت مجدّداً نحو النافذة. لقد أمضى الرنتيسي من سنوات عمره الخمسة والخمسين حوالى ستّ وعشرين سنة في السجن أو المنفى في المنطقة الجبلية اللبنانية. في تلك الأيام، كان مازال يحاول التعلّم كيف يقود حماس. وهو الآن يتكلّم بشكل مريح ـ بارد وغير خائف ـ عن الانتحاريين والموت. لدى حماس فِرق القتل الخاصّة بها. إنهم يقتلون الجنود، وأيضاً النساء والأطفال، والمسنّين والمرضى. «حتى الآن، قتل الإسرائيليون خلال الانتفاضتيْن أكثر من ألفَي فلسطيني. وبعد عمليات القتل في نابلس وجنين، وصل عدد الأطفال القتلى إلى أكثر من ٣٥٠. هذا يثبت أن الجانب الإسرائيلي يرتكب عن قصد مجازر ضدّ المدنيين». مررت بهذه المرحلة من قبل. فكلّما سألت مسؤولاً في حماس عن قتل المدنيين من قِبل الانتحاريين، يقودك ذلك في اتجاه الإحصائيات... ماذا عن الأطفال في قاعة مطعم البيتزا، والرجل المسنّ في عشاء الفصح؟.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أجاب بسرعة: «نحن نحارب أشخاصاً اغتصبوا أرضنا. إنهم جميعاً جنود أو جنود احتياط. كان جنود الاحتياط في جنين هم الذين قتلوا المدنيين ـ هؤلاء أشخاص يعملون في الحياة العادية، أطبّاء ومحامين. كانوا مدنيين قبل ساعات من ذهابهم إلى جنين. لكن بالطبع، لدى مقاتلينا أوامر بعدم قتل المدنيين، وبخاصّة الأطفال».

أوامر لتجنّب قتل الأطفال؟ أو أن ذلك فقط لُعبة أرقام؟

رنّ الهاتف العسكري مجدّداً وتحدّث الرنتيسي لعدّة دقائق. هل هو على اتصال بقادة حماس في الضفّة الغربيّة؟ ابتسم ببرود. «أجل، هناك بعض الاتصالات على المستوى السياسي مع زعماء في الضفّة الغربيّة. لكنّهم رجال مطلوبون ومحاصرون ومختبئون». دوّنت على الهامش في مفكّرتي، هذه هي المرّة الأولى التي تعترف فيها حماس بتأثيرات إعادة الاحتلال الإسرائيلي. «خُذ على سبيل المثال حسن يوسف، وهو زعيم سياسي في رام الله ـ لقد كان يتصل بي من أجل معلومات حول ما يجري. لكن في النهاية، لن يستطيع شارون وضع حدّ للمقاومة. عندما قام الإسرائيليون بترحيل ٤٦٠ مُبعداً منّا عام ١٩٩٣ واعتقلوا ١٥٠٠ آخرين من عناصر حماس في اليوم نفسه، قالوا إنهم «وضعوا حدّاً» للمقاومة ولحماس. بعدها أدّى مقتل يحيى عيّاش (صانع القنابل في حماس) من قِبل الإسرائيليين إلى تصعيد المقاومة».

تبدو مرج الزهور، جامعة الإسلام، بعيدة جدّاً. اعترض الرنتيسي: «كانت مرحلة غيّرت النضال الفلسطيني. بدّلت تاريخ حماس إلى الأبد. قبل ذلك، كانت حركة محلّية. بعد نفينا إلى تلال لبنان، أصبحت حماس منظمة دولية معروفة في جميع أنحاء العالم. استفدنا من أخطاء إسرائيل».

كان الرنتيسي يتحدّث بثقة كبيرة بالنفس. وليس هناك أدنى شكّ في من هو عدوّه الرئيسي. «أراد شارون تمزيق اتفاقيات أوسلو. إنه يمارس سلطته على الشعب الفلسطيني مدمّراً وقاتلاً عن عمد الفلسطينيين بهدف إجبارهم على

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الرحيل. يريد أن يحطّم عزيمتنا بحيث نرضخ لشروطه المذلّة. يريد أيضاً خلق صراع بين السلطة الفلسطينية والشعب». وماذا عن غزّة؟، ضحك الرنتيسي: «أودّ أن أذكّرك بشيء قاله رابين مرّة ـ إنه يتوق إلى النهوض يوماً ما ليجد غزّة مغمورة بالبحر».

غريب كيف يتحدّث مناوئو عرفات أحياناً عن رابين (الذي اعتقد عرفات أنه وقّع معه «سلام الشجعان») وعن عرفات، خصمَي شارون، في الجملة نفسها. كان رابين قائد الوحدات الإسرائيلية التي احتلّت اللدّ والرملة في تموز/يوليو ١٩٤٨ والذي أعطى الأمر بترحيل ٦٠ ألف عربي فلسطيني، معظمهم من النساء والأطفال، وعدد غير معروف منهم مات خلال الرحلة. نشر رابين مذكّرات يستذكر فيها الاحتلال الإسرائيلي للدّ:

> «تمشّينا في الخارج. كان بن غوريون (رئيس الوزراء الإسرائيلي المعيّن قبل شهرين) برفقتنا. أعاد إيغال آلون قائد الهاغانا ترداد السؤال: «ماذا نفعل بالسكّان؟» حرّك بن غوريون يده بإشارة تعني: «اطردوهم جميعاً».

> «أجريت مع آلون مشاورات. ووافقت على طرد السكّان. أخذناهم سيراً على الأقدام إلى طريق بيت هارون مفترضين أن الفرقة العربية ستكون مُجبرة على الاهتمام بهم ممّا يزيد من المصاعب اللوجستية التي تُضعف قدرتها القتالية، ممّا يجعل الأمور أسهل بالنسبة إلينا... لم يغادر سكّان اللدّ طواعية. لم يكن هناك أيّ طريقة لتجنّب استخدام القوّة والطلقات التحذيرية لإجبار السكّان على السير ١٠ ـ ١٥ ميلاً إلى النقطة حيث التقوا بالفرقة العربية».

بالتأكيد، حدّد الرنتيسي بدقّة ازدراء شارون لأوسلو، وكأنه اطّلع عن قُرب على سجلّ شارون. منذ انتخابه عام ٢٠٠١، حاول مؤيّدو شارون في الغرب تحويله إلى براغماتي، إلى ديغول آخر ، وتمّ اللعب على الفكرة مجدّداً عندما اقترح في عام ٢٠٠٤ أن على إسرائيل التخلّي عن المستوطنات في غزّة، وهي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

خطوة اعترف المتحدّث باسمه صراحة بأنها تجعل أي خطط لإقامة دولة فلسطينية لا طعم لها ولا لون. في الحقيقة، يبدو شارون أكثر شبهاً بالجنرالات الفرنسيين العاصين في الجزائر. هؤلاء استخدموا أيضاً التعذيب وقتلوا مناوئيهم العرب. ويدلّ عمله على أي شيء إلّا السلام. فقد صوّت شارون ضدّ معاهدة السلام مع مصر عام ١٩٧٩. وصوّت ضدّ الانسحاب من جنوب لبنان عام ١٩٨٥. وعارض مشاركة إسرائيل في مؤتمر مدريد للسلام عام ١٩٩١. وعارض تصويت الكنيست على اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣. وامتنع عن التصويت على السلام مع الأردنّ عام ١٩٩٤. وصوّت ضدّ اتفاق الخليل عام ١٩٩٧. وندّد بطريقة انسحاب إسرائيل من لبنان عام ٢٠٠٠. وفي عام ٢٠٠٢ فقط، شيّد شارون ٣٤ مستوطنة يهودية جديدة على الأرض الفلسطينية.

استمرّ تورّط شارون في مجازر صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢ يلاحق الرجل الذي يتحمّل، استناداً إلى تقرير لجنة كاهان الإسرائيلية الصادر عام ١٩٩٣، مسؤولية شخصية في المجزرة الكتائبية. وكانت السلطات الإسرائيلية خائفة من أن يُتّهم قادتها بجرائم حرب ممّا دفعها إلى وضع قائمة بالدول التي يمكن أن تجري فيها محاكمات ـ والتي يجب عليهم تجنّبها ـ وذلك بعد أن طوّرت الدول الأوروبية قوانينها لتشمل المواطنين الأجانب الذين ارتكبوا جرائم في الخارج. كان القضاة البلجيكيون قد أخذوا بعين الاعتبار شكوى الناجين في صبرا وشاتيلا (بينهم امرأة كانت ضحية للاغتصاب) بينما جرى تصعيد حملة في الخارج ضدّ شخصيات إسرائيلية أخرى مرتبطة بهذه الفظائع. كانت إيفا شتيرن إحدى اللواتي حاولن منع تعيين العميد أموس يارون ملحقاً عسكرياً في واشنطن لأنه سمح لميليشيا الكتائب اللبنانية بالدخول إلى المخيّمات الفلسطينية يوم ١٦ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢ وأنه عرف ـ وفق تقرير لجنة كاهان ـ بأن النساء والأطفال كانوا يُقتلون، ولم يُنهِ عملية القتل إلّا بعد يومين. وقد رفضت كندا قبول يارون كملحق عسكري.

وقد جمعت سترن ملفّاً قانونياً حول يارون لتشنّ لاحقاً مع جماعات حقوق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الإنسان حملة يائسة لإلغاء تعيينه ـ من قِبل رئيس الوزراء إيهود باراك ـ مديراً عامًّا لوزارة الدفاع الإسرائيلية(*).

وقد غيّرت الحكومة البلجيكية قانونها، وأسقطت اتهامات جوهرية ضدّ شارون ـ بعد زيارة لوزير الدفاع الأميركي رونالد رامسفيلد إلى بروكسل، وهو الرجل الذي أشار بشكل بارز يوم ١٦ آب/أغسطس ٢٠٠٢ إلى سيطرة الإسرائيليين على «ما يُسمّى الأراضي المحتلّة» التي كانت «حصيلة حرب ربحوها». وهدّد رامسفيلد بأنّ مقرّ قيادة الناتو سوف يُسحب من الأراضي البلجيكية إذا لم يسحب البلجيكيون الاتهامات ضدّ شارون.

حتى الآن، وطيلة الوقت، كان يُفترض بنا التصديق بأن الرجل الفاسد، ياسر عرفات، المصاب بمرض الباركنسون، هو الملام بالنسبة إلى الحرب الجديدة. لقد تعرّض للتجريح من قِبل جورج بوش بينما كان الشعب الفلسطيني يُعامَل كالحيوانات من قِبل القيادة الإسرائيلية .

وقد وصف رئيس الأركان الإسرائيلي السابق رفاييل إيتان الفلسطينيين «بالصراصير في وعاء من زجاج». ونعتهم مناحيم بيغن «بالحيوانات من ذوات القدميْن». أما رئيس حزب شاس، الذي قال إن على الله إرسال «النمل» الفلسطيني إلى جهنّم، فوصفهم أيضاً «بالأفاعي». وفي آب/أغسطس ٢٠٠٠، وصفهم باراك «بالتماسيح». ووصفهم رئيس الأركان الإسرائيلي موشي يعالون «بالظاهرة السرطانية»، وقارن العملية العسكرية في الأراضي المحتلة «بالعلاج الكيميائي».

وفي آذار/مارس ٢٠٠١، وصف وزير السياحة الإسرائيلي، رحافيم زيفي، عرفات «بالعقرب». ونعت شارون عرفات تكراراً «بالقاتل» وقارنه ببن لادن، وساهم في إظهار صورة غير إنسانية عن الفلسطينيين وذلك في مقابلة أجراها

(*) مُجدّداً من دون طائل؛ ففي كانون الثاني ٢٠٠٣، كان يارون في واشنطن يعرض احتياجات إسرائيل الدفاعية لتبرير طلب ٤ مليارات دولار «مساعدة دفاع خاصّة».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عام ١٩٩٥، عندما صرّح بأن فتح تعاقب أحياناً الفلسطينيين «بقطع أعضاء أطفال بعمر سبع أو ثماني سنوات أمام أهليهم كنوع من العقاب». ومهما كانت فتح قاسية، فليس هناك أيّ سجلّ لأيّ فظاعة من هذا النوع اقترفوها. لكن لو أن عدداً كافياً من الأشخاص يمكن إقناعه بتصديق مثل هذه التفاهة، لأصبح الاستخدام الإسرائيلي لفِرق القتل ضدّ هؤلاء الفلسطينيين طبيعياً أكثر منه غير قانوني(*).

وأمام كراهية شارون «للإرهاب» فقد نسي الناس انتقاده لحرب الناتو ضدّ صربيا عام ١٩٩٩ عندما كان وزيراً للخارجية. قبل ١١ سنة تعاطف شارون مع الهدف السياسي لسلوبودان ميلوزوفيتش: لمنع إقامة دولة ألبانية في كوسوفو. قال: «إن ذلك سيقود إلى ألبانيا كبرى ويؤمّن ملاذاً ـ وعلى القرّاء حبس أنفاسهم هنا ـ للإرهاب الإسلامي». وفي مقابلة مع صحيفة من بلغراد، قال شارون: «إننا نقف معكم ضدّ الإرهاب الإسلامي». وبينما كان قصف الناتو لصربيا على وشك البدء، فإن السبب الحقيقي لدعمه للصرب بدا واضحاً. قال: «من الخطأ أن تعطي إسرائيل شرعية لهذا النوع القاسي من التدخّل الذي تقوم

(*) الويل والثبور نصيب أيّ صحفي أو ديبلوماسي يشير إلى هذا الأمر. في عام ٢٠٠١ اتّهم مركز سيمون ويزنتال في باريس الرئيس السويدي للاتحاد الأوروبي بأنه يشجّع «العنف المعادي لليهود». وكتب المركز في رسالة إلى رئيسة الوزراء السويدية أنه يرى أن تنديدها بإسرائيل «لتصفيتها الإرهابيين» يشبه تماماً حجج الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية والتي كانت تقول بأن قصف خطوط سكة الحديد المؤدّية إلى أوشڤيتز، كان من شأنه تشجيع مشاعر العداء للساميّة بين الألمان». ورأت الرسالة أن السويد تقوم «بهجوم من جانب واحد ضدّ دولة الناجين من الهولوكوست»... ولكن ماذا عن جريمة الرئيس السويدي للاتحاد الأوروبي؟ لقد تجرّأت على القول بأن «ممارسة التصفيات تشكّل عائقاً في وجه السلام وقد تؤدّي إلى استثارة عنف جديد»... حتى أنها لم تسمّ وحدات القتل الإسرائيلية باسمها: «فِرق الموت». لم يعتذر السويديون. كما أنهم لم يصمّموا سوء استخدام الحقائق التاريخية. ذلك أن الحجج الرئيسية للحلفاء لتبرير عدم قصفهم معسكرات أوشڤيتز وبيركيناو تحدثت عن «مصاعب تقنية»، والاعتقاد بأن العملية كانت من اختصاص القوة الجوّية السوفياتية، والاقتناع بأنّ كل القوى كان يجب أن تتوجّه نحو إسقاط ألمانيا النازية، الأمر الذي كان ليشكّل «الحلّ الإيجابي لهذه القضية». إن الأسباب الأخيرة (الضعيفة والمخزية في ضوء وقائع التاريخ) لم تكن بالطبع لتجعل رسالة مركز ويزنتال إلى ستوكهولم أقلّ ممّا كان مقصوداً أن تكون عليه.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

به دول الناتو... في محاولة لفرض حلّ للخلافات الإقليمية، ففي اللحظة التي تعبّر فيها إسرائيل عن دعمها لمثل هذا النوع من التدخّل، فإنها ستكون هي الضحية التالية. تخيّل أن يطالب عرب الجليل يومًا ما أن يتمّ الاعتراف بالمنطقة التي يقطنونها كمنطقة مستقلّة، مرتبطة بالسلطة الفلسطينية». وقال شارون: «إن قصف الناتو تدخّل وحشي». وقد صرّح الصحفي الإسرائيلي يوري أفنيري الذي تلقّف هذه القطعة النادرة من الازدواجية، بأن الإرهاب الإسلامي في كوسوفو يمكن أن يوجد فقط في «مخيّلة شارون العنصريّة». وكان أفنيري أكثر فظاظة في ترجمة ما هو مخفيّ وراء تهجّم شارون على عملية الناتو أكثر من شارون نفسه. «إذا تدخّل الأميركيون والأوروبيون اليوم في قضيّة كوسوفو، فماذا يمنعهم من القيام بالشيء نفسه غداً في قضيّة فلسطين؟ وقد جعل شارون الأمر شديد الوضوح للعالم بأن هناك تشابهاً وربّما توافقاً أيضاً بين تصرّف ميلوزوفيتش تجاه كوسوفو وتصرّف ناتانياهو وشارون تجاه الفلسطينين». إضافة إلى ذلك فإن الرجل الذي أدّى تدخّله الوحشي في لبنان عام ١٩٨٢ إلى حمّام دم لا مثيل له في الشرق الأوسط، كانت ملاحظاته منافقة(*).

وبينما أرسل شارون فرقة مدرّعة لإعادة اجتياح نابلس، ظلّ متجاهلاً طلب

(*) كانت الاختلافات في موضوع شارون هذا تبرز في الصحافة الإسرائيلية. ورغم قيام إسرائيل بإرسال مساعدة إنسانية لألبان كوسوفو (وهو تحرّك قال شارون إنه يؤيّده) فقد ظلّ الخوف من أن تنتقل حملة الناتو إلى الشرق الأوسط قائماً. «هناك شيء ما في السؤال الذي طرحه وزير الخارجية أرييل شارون حول ردّ إسرائيل المستقبلي إزاء إمكانية قيام العرب في الجليل بطلب كيانهم الانفصالي».. هذا ما كتبه دان مارغاليت مضيفاً: «يستطيع المرء الافتراض أن إسرائيل لن تتصرّف أبداً مثل الصرب وتقوم بالمجازر فيما يتمّ طرد السكّان بالقوّة عبر الحدود. لكن ما هو بالضبط مستوى الشرّ الذي يسمح للناتو بمهاجمة دولة مستقلّة تقوم بحماية سيادتها؟» وبصفتي صحفياً كان في صربيا في ذلك الوقت، فقد طرحت السؤال نفسه حول سيادة صربيا، على الأقلّ لأن الناتو كان قد أدخل فقرة مؤذية إلى مقترحات السلام ما قبل الحرب الموجّهة إلى ميلووفيتش تفرض عليه القبول بقوّات الناتو في جميع أنحاء صربيا. لكن وصف مارغاليت لمجازر صربيا «فيما يتمّ طرد السكّان بالقوة» هو العبارة الصحيحة لوصف تصرّف إسرائيل عام ١٩٤٨. كان هناك أيضاً انتقاص شبه مقصود للتاريخ في ملاحظة مارغاليت العابرة «أن المجازر ضدّ الألبان التي قام بها سلوبودان ميلووفيتش كانت بشكل ما ردّاً على مجازر الأتراك ضدّ الأرمن... جرائم رهيبة لكنها ليست هولوكوست».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بوش سحب قوّاته من الضفّة الغربيّة، وتحوّل كولن باول إلى عرفات محذّراً إيّاه بأنها فرصته الأخيرة لإثبات زعامته. لم تكن هناك أيّة إشارة إلى المستوطنات اليهودية غير الشرعية. وليست هناك «فرصة أخيرة» لتهديد شارون. لقد سمح الأميركيون له أيضاً برفض فريق تقصّي حقائق تابع للأمم المتحدة في الأراضي المحتلّة. وكان شارون مجتمعاً بالرئيس جورج بوش الابن في واشنطن عندما قتل انتحاري خمسة عشر مدنياً إسرائيلياً على الأقلّ في نادٍ ليلي في تلّ أبيب، فقطع زيارته وعاد فوراً إلى إسرائيل وعلى الأثر دعا الزعماء اليهود الأميركيون البارزون، بمن فيهم إيلي وايزيل وألان ديرشوويتز البيت الأبيض، لعدم الضغط على شارون للمشاركة في محادثات السلام الشرق أوسطية الجديدة. وأعلن وايزيل: «هذه فترة عصيبة، ليس الوقت وقت الضغط على إسرائيل. إن أيّ رئيس وزراء كان ليتصرّف كما تصرّف شارون. إنه يفعل ما بوسعه. عليهم الوثوق به». كان وايزيل غير قلق. وقبل شهر فقط، أنتج الأميركيون أولى طائرات الهليكوبتر S-70A-55 بلاك هوك حاملة الجنود لبيعها للإسرائيليين. وقد اشترت إسرائيل ٢٤ من هذه الآلات الجديدة تبلغ قيمتها ٢١١ مليون دولار - تدفع الولايات المتحدة معظم ثمنها - مع أنها حصلت على ٢٤ طائرة بلاك هوك من الطراز السابق. وقد أعطيت كاتالوغات طائرات الهليكوبتر الجديدة الأولى بمراسم رسمية لمدير عامّ وزارة الدفاع الإسرائيلية، أموس يارون ليس غيره، ومن قبل ألكسندر هيغ شخصياً (الرجل الذي أعطى بيغن الضوء الأخضر لغزو لبنان عام ١٩٨٢).

ربّما كان الرجل الوحيد الذي لديه الوقت الآن لإيجاد تسوية منطقية للصراع القائم، هو الزعيم الفلسطيني الجالس الآن في مكتبه المحاصر، المدمّر، المضاء بشكل ضعيف، وغير الصحّي في رام الله. إن الصفة المشتركة التي يتقاسمها عرفات مع شارون، إضافة إلى كِبر السنّ والمرض، هي رفضه التخطيط المسبق... ما قاله، ما فعله، ما اقترحه، تقرّر فقط في الوقت الذي اضطرّ فيه إلى التحرّك. كان ذلك جزئيّاً، يعود إلى تدريبه القديم في حرب العصابات، وهذه صفة يتقاسمها مع صدّام. إذا كنت جاهلاً ما ستفعله غداً،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فيمكنك أن تطمئن إلى أنّ أعداءك لا يعلمون أيضاً. اتخذ شارون وجهة النظر نفسها.

وبينما كان يستولي على مكاتب السلطة الفلسطينية، قام الجيش الإسرائيلي بنهب المعدّات والأرشيف. وأفادت هآرتس أن الجنود كانوا يتقاتلون على غنائم عمليّاتهم في الضفّة الغربيّة بعد استيلائهم على العشرات من سيّارات لاندروفر البريطانية الصنع. وقد تمّ تحويل السيّارات إلى الوحدة اللوجستية في الجيش الإسرائيلي بناء على أوامر من رئيس الأركان شاوول موفاز. وكان من غير الواضح ما إذا كانت السيّارات قد دُفع ثمنها من قِبل الاتحاد الأوروبي. واستولى الإسرائيليون أيضاً على آلاف المستندات التي تُظهر إلى أيّ مدى فقد عرفات السيطرة على التنظيمات المقاتلة التي كانت تنمو في أوساط الفلسطينيين في الضفّة الغربيّة. لكنّ الإسرائيليين نشروا الترجمات والروايات التي تضمّنتها والتي كانت مشوّهة عن قصد، وفي إحدى الحالات غير صحيحة. وقام الصحفيون طواعية بإعادة طبع الترجمة الإسرائيلية للملفّات ـ التي تظهر دور عرفات في الإرهاب واستخدامه أموال الاتحاد الأوروبي لتمويل الإرهاب ـ لكن عندما قامت الإندبندنت بنشر ترجمة دقيقة للأوراق، أصبح واضحاً أن الإسرائيليين قدّموا رواية مزيّفة عن محتوياتها(*)، ولكن في اليوم التالي قدّم شارون بوقاحة «ملفّ عرفات الإرهابي» لبوش أمام الكاميرات في البيت الأبيض ـ وقد شكره الرئيس الأميركي على هذا «الدليل».

وبمعزل عمّا وصفته الكاتبة الفلسطينية جاين مقدسي بدقّة بأنه «علم الإرهاب» (كانت شقيقة إدوارد سعيد تشير إلى الترجمة المعقّدة لواقع الشرق الأوسط التي رغب أكاديميو الجناح اليميني مثل ستانلي كيرتز فرضها على الجامعات الأميركية) لم يكن من المفاجئ معرفة أن ضابطاً إسرائيلياً نصح رجاله

(*) في مستند فلسطيني يشرح بالتفصيل موضوع محمود فريح، البالغ من العمر ١٧ سنة، والذي زرع قنبلة لدبّابة إسرائيلية في غزّة، أشارت الترجمة الإسرائيلية إلى أنه كان بحماية السلطة الفلسطينية. في الواقع، أشار المستند العربي الأصلي بوضوح إلى أن السلطة الفلسطينية منعت تفجير الدبّابة بقطع سلك الصاعق قبل إقناع فريح بالانضمام إلى قوّات عرفات.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قبل إعادة احتلال الضفّة الغربيّة بدراسة الخطط العسكرية التي اتّبعها النازيّون في الحرب العالمية الثانية. واستناداً إلى صحيفة معاريف الإسرائيلية، قال الضابط: «إذا كانت مهمّتنا الاستيلاء على مخيّم للّاجئين مكتظّ أو الاستيلاء على محافظة نابلس، وإذا أُعطيت هذه المهمّة لضابط إسرائيلي للقيام بها دون خسائر على الجانبين، فإن عليه قبل أي شيء تحليل وجمع دروس المعارك السابقة، وحتى ـ مع أن ذلك يبدو مثيراً للصدمة ـ تحليل كيف تصرّف الجيش الألماني في غيتو وارسو».

ماذا يعني ذلك على الأرض؟ هل يشمل الأرقام التي وضعها الإسرائيليون على أيدي وجباه المعتقلين الفلسطينيين في أوائل آذار/مارس ٢٠٠٢؟ هل يعني أن على الجندي الإسرائيلي اعتبار الفلسطينيين الآن أقلّ من البشر، وهذا بالضبط ما فعله النازيّون بالنسبة إلى اليهود المعتقلين واليائسين في غيتو وارسو عام ١٩٤٣؟ هل كانت لدى الأميركيين أفكار عن ذلك كلّه؟ مَن كانت قوّات الإرهاب في وارسو منذ ٦٢ سنة؟ أكان اليهود يقاتلون من أجل حياتهم أو ضدّ قوّات الصاعقة SS التابعة العميد الفيوهرر جيرغن ستروب؟.

إجمالاً، قدّرت جماعة حقوق الإنسان الإسرائيلية B'Tselem أنه بين عام ١٩٨٧ وأيار/مايو ٢٠٠٣، قُتل ٣٦٥٠ فلسطينياً و١١٤٢ إسرائيلياً، ووصل عدد القتلى ككلّ إلى ٤٧٩٢. لكنّ الإحصائيات وحدها لا تستطيع تبرير عذاب الأطفال. ففي عام ١٩٩٣، قُتل ٢٣٢ طفلاً فلسطينياً تتراوح أعمارهم بين ستّ عشرة سنة وأقلّ خلال الانتفاضة الأولى. وخلال ١٢ شهراً تنتهي يوم ٣٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢، قُتل ٢٥٠ طفلاً فلسطينياً و٧٢ طفلاً إسرائيلياً. ففي واحد من أكثر التقارير إثارة للصدمة حول الحرب الإسرائيلية ـ الفلسطينية، ندّدت منظمة العفو الدولية بالطرفيْن لقلّة اهتمامهما بأرواح الأطفال. وأظهرت اللائحة الخطيرة التي جمعتها منظمة العفو كيف أصبح قتل الأطفال متجذّراً. كان هناك سامي جزّار، الذي أُصيب في رأسه من قِبل جندي إسرائيلي عشية عيد ميلاده الثاني عشر في غزّة، وقتل قنّاص إسرائيلي في غزّة خليل مغربي البالغ من العمر ١١ سنة ـ وقد عاش أحد أصدقائه بعدما أصيب في خُصيته بشظيّة كبيرة ـ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وكانت هناك رهام الورد، التي قُتلت في ملعب مدرسة في جنين بواسطة قذيفة دبّابة إسرائيلية. ثم ريّا وحمده ـ ١٤ سنة وسنتان ـ اللتان قُتلتا مع أهلهما على يد انتحاري فلسطيني هاجم مطعم بيتزا سبارو في القدس، وشلهفيت باس وعمرها عشرة أشهر تقريباً التي قُتلت على يد قنّاص فلسطيني في الخليل، وقتلت أفيامالكا على أيدي فلسطينيين أطلقوا النار وألقوا قنابل يدوية على سيّارات في ناتانيا. وكان عمرها تسعة أشهر.

كان الحادث الأكثر فظاعة ـ الممدوح من قِبل شارون في وقته على أنه نجاح كبير ـ هو الهجوم الإسرائيلي على صلاح شحادة (قائد من حماس) الذي قُتل فيه أيضاً تسعة أطفال وثمانية راشدين فلسطينيين. وقد أضفت أسماؤهم حقيقة مخيفة على هذه المذبحة بحقّ الأطفال: أيمن مطر (١٨ شهراً)، محمّد مطر (٣ سنوات) ديانا مطر (٥ سنوات)، صبحي حويطي (٤ سنوات)، محمّد حويطي (٦ سنوات) آلاء مطر (عشر سنوات)، إمام شحادة (١٥ سنة)، مريم مطر (١٧ سنة). ودينا مطر (عمرها شهران). وقد ألقى طيّار من سلاح الجوّ الإسرائيلي قنبلة زنتها طنّ على منازلهم من طائرة «أف١٦» أميركية الصنع يوم ٢٢ تموز/يوليو ٢٠٠٢(*).

ما هي الحرب التي يعتقد شارون أنه يخوضها؟ ولأيّ غرض يحارب؟ خلال الفوضى الدموية الأخيرة، كان المظهر الوحيد المميّز للصراع ـ الاستيطان غير الشرعي والمتواصل للأرض العربية المحتلّة ـ مجدّداً موضوعاً محرّماً، يجب تجاهله أو الإشارة إليه عرضيّاً فقط عندما يُقتل المستوطنون اليهود. إن هذا

(*) لا تربح الحقيقة دائماً في مواجهة الدعاية. أفاد تقرير منظمة العفو لعام ٢٠٠٢ أنه رغم الادّعاءات المتكرّرة بالتعارض، «لا يوجد تحقيق قضائي معروف حصل حول أيّ من عمليات قتل الأطفال من قِبل عناصر من قوّة الدفاع الإسرائيلي في الأراضي المحتلّة، حتى في القضايا التي صرّح مسؤولون حكوميون بأن التحقيقات حولها ستنجز». حتى أنه خلال السنتين التاليتين، شعر مايكل ويليامز، وهو محرّر في «إندبندنت أون صنداي» Independent on Sunday وجد نفسه قادراً على الإشادة بالحزم الذي تطبّق به إسرائيل أحكام القانون على أعمال قوّاتها العسكريّة...»

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

هو آخر صراع عالمي استعماري، تساند الولايات المتحدة فيه المستعمرين، وهو غير قابل للجدل، وموضوع محرّم، وشيء يتعدّى القسوة بين الفلسطينين والإسرائيليين، وهو يُعتبر الآن، كما علينا أن نتذكّر، جزءاً من حرب أميركا على الإرهاب. هذا ما ادّعاه شارون بطريقة غير شريفة منذ ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١. مع ذلك، أصبحت الحقيقة واضحة في مقابلة صريحة لشارون مع مجلّة فرنسية في كانون الأول/ ديسمبر تلك السنة حيث استذكر محادثة تلفونية مع جاك شيراك. قال شارون إنه أبلغ الرئيس الفرنسي بالتالي:

«كنت أقرأ حينها كتاباً رهيباً حول الحرب الجزائرية. إنه كتاب يقول عنوانه بالعبرية: «الحرب المتوحّشة من أجل السلام». أعلم أن شيراك قاتل بصفة ضابط خلال هذا النزاع وأنه حصل على وسام الشجاعة. لذلك أبلغته، بطريقة ودّية مطلقة: «سيّدي الرئيس، على كلّ منا أن يفهم الآخر، نحن هنا كما لو أننا في الجزائر. ليس عندنا مكان آخر نذهب إليه. وإضافة إلى ذلك، ليست لدينا النية للرحيل»...

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفصل السادس

«أيّ شيء للقضاء على الشرّير»

هذا اللصّ الذي يتسلّل على الجدران ليلاً للذهاب إلى منزله، هو الشخص المقصود. هذا الشخص الذي يحذّر أولاده من الحديث عن عمله الشرّير، هو المقصود.

هذا الشخص الشرّير الذي يتسكّع في المحاكم منتظراً الحكم، هو الشخص المقصود. هذا الشخص المقبوض عليه خلال غارة في الضاحية والمدفوع ببندقيّة إلى مؤخّرة الشاحنة هو الشخص المقصود. إنّه الشخص الذي يخرج من منزله في الصباح غير واثق من الوصول إلى مكتبه وهو أيضاً الذي يغادر عمله مساءً غير متأكّد من الوصول إلى بيته.

هذا الرجل الذي يتمنّى ألّا يموت وبُلعومه مقطوع، هو الشخص المقصود. هذا الشخص الذي خاطوا عليه رأساً مبتوراً هو الشخص المقصود. إنّه الشخص الذي لا تعرف يداه أيّ مهارة سوى كتابته الهزيلة.

إنّه كلّ هؤلاء، وهو صحافيّ فقط.

سعيد مقبل، «المسار الصدئ» ١٩٩٤

كان روجيه ترتوش يبتسم من تحت خوذته المعدنية العائدة للجيش الفرنسي، ورأسه مائل قليلاً إلى اليسار، وبذلته القتالية مزرّرة حتّى الرقبة. وقد كُتب على قبره: «مات من أجل فرنسا: ٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٠». وتُظهر الصورة المطبوعة على الحجر الرخاميّ شاباً واثقاً من نفسه، مدركاً لحظة وفاته أن شارل ديغول سيصل دون ريب خلال خمسة أيام إلى مدينة الجزائر ليؤكّد حِرصه على

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

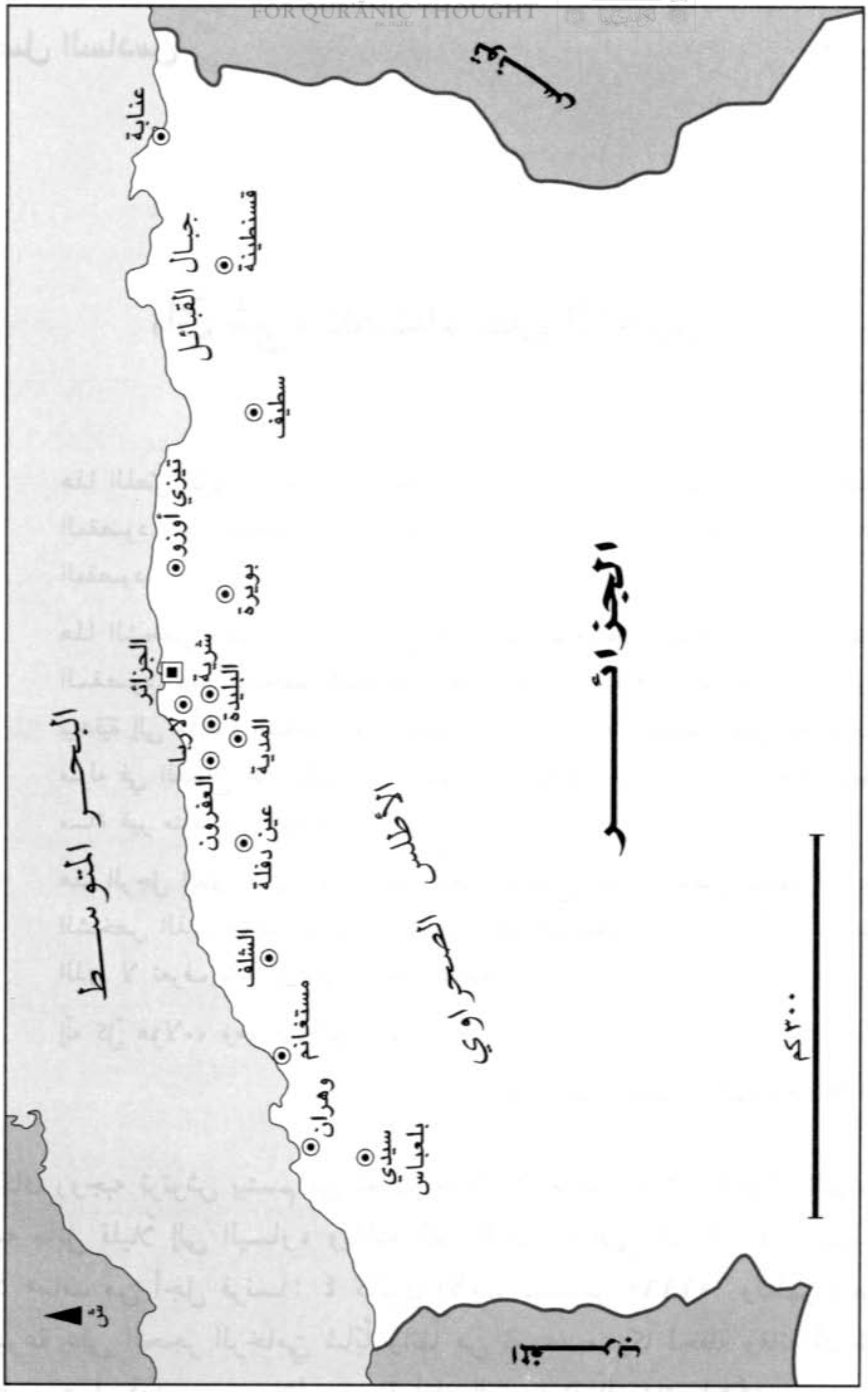

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مستقبل الجزائر الفرنسية. وعلى الأبواب الحديدية للمقبرة الفرنسية القديمة في سانت أوجيني كُتب «أنا اليوم وأنت غداً». والجزائريون خارج حائط المقبرة يُحسنون التصرّف لزيارة هذا المكان المدعاة للفخر والمأساة، وكذلك العرب الآخرون ـ ويهود إسرائيل.

إنهم جميعاً راقدون هنا آل صافي وزواف، والخيّالة المنسيّون للجيش الكبير، وأساتذة المدارس والمهندسون الذين اعتقدوا أن الجزائر فرنسيّة إلى الأبد، وأساتذة الجامعات والموظّفون المدنيّون مع زوجاتهم الموقّرات في «ميتز» و«ليل»... و«زوين». صورهم ـ التي يبتسمون في بعضها ويفكّرون بالموت في البعض الآخر ـ مثيرة للشفقة بكل المعنى الأخلاقي للكلمة: حكّام موتى في لباس الأحد. ما زالوا سالمين من التخريب الذي سيكون له قريباً مبرّر وجيه لانتهاك حُرمة هذا المكان الأبدي... يرقد كولونيل القيادة العليا ألكسندر إدوارد كونستانت فورشو (المولود في أورليانز يوم ١٩ آب/أغسطس ١٨١٧) تحت صخرة ثقيلة من الرخام تمجّد ذكراه في إخضاع المسلمين الذين تجرّأوا على معارضة الحكم الفرنسي. ويُظهر تمثاله النصفي رجلاً مرعباً ذا خدّين نحيلين مع شارب كثيف وقبّعة عسكرية موضوعة بفجور على جهة من رأسه، وقد دُوّنت حملاته في الأسفل: معركة القبائل الكبرى ١٨٥٤، معركة جرجرة ١٩٥٧، معركة المغرب عام ١٨٥٩، معركة ألما بالسترو ١٨٧١، معركة العمارة ١٨٧٦، بطل حرب سباستبول والحرب الفرنسية البروسية، توفّي في بلده فرنسا في مدينة اسمها الجزائر.

خرج من المدينة نفسها أتباع فورشو في وطنه للموت على تراب فرنسي آخر. قُتل رينيه وإدغار غيديسللي معاً على الجبهة الغربية، رينيه بينما كان يهاجم المواقع الألمانية على المارن يوم ٢٥ أيلول/سبتمبر ١٩١٥ وإدغار بقذيفة مدفع في أرض المعركة نفسها بعد ثلاث سنوات. كان الرجلان يحدّقان بخجل من صورهما، وكلاهما باللباس الرسمي، «يتذكّرهما إلى الأبد والدهما ووالدتهما». تدفع السفارة الفرنسية للحارس في سانت أوجيني، كما تدفع للمقبرة المجاورة غير المسيحية، لقبور آلاف المواطنين من الديانة اليهودية وليس للمواطنين من

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الديانة الإسلامية الذين آمنوا أيضاً بأن الجزائر فرنسية، وكانت شواهدهم ـ بالعبرية والفرنسية أيضاً ـ لا تزال غير متضرّرة ومحميّة في هذه العاصمة المسلمة.

كم من المآسي مطمورة في هذه البقعة الصغيرة من الأرض؟ «مات وليم ليفي من أجل فرنسا في ١٦ حزيران/يونيو ١٩٤٠ في أرباجون (سين إي واز) المآسي مطمورة عن عمر ثلاثين سنة». كان على الأرجح يواجه هجوم هتلر الأخير على بقايا الجيش الفرنسي. وكانت نظراته ساخرة في الصورة، في تعبير واثق لرجل اعتقد أنه سيعيش حتى سنّ متقدّمة. ويضمّ معبد يهودي صغير «شيّدته الجالية اليهودية لأبنائها في الجزائر الذين ماتوا في ساحة الشرف» عشرات الصور لشبّان بائسين بلباس عسكري فرنسي، قُتل معظمهم قبل أن يعلموا بأيّ نكران للجميل ستعامل بلادهم مواطنيها اليهود.

في آخر الممرّ الضيّق، يصبح التاريخ أوضح للزائر. «هنا يرقد يوليوس روجيه ليفي، ضحيّة الإرهاب، ٣ حزيران/يونيو ١٩٥٧، عمره ٣٤ سنة». هنا يرقد ألبير سارفاتي، ضحيّة الإرهاب، ٢٠ شباط/فبراير ١٩٦٢ عمره ٤٢ سنة... والأكثر إيلاماً من الجميع: «هنا ترقد جوزيت سماجا (٢٤ سنة) قرب خطيبها بول بيريز، قتلا طعناً حتى الموت يوم ٩ حزيران/يونيو ١٩٥٧». كان مواطنو فرنسا ما وراء البحار يعتبرون أنفسهم ممّن يُسمّون «أقداماً سوداء»، أو ذوي الأقدام السوداء ....Pieds noirs"(*). وفي هذا اليوم البارد والعاصف من شهر كانون الثاني/يناير عام ١٩٩٢، تعتبر قبورهم تحذيراً رهيباً للجزائر التي أصبح ضبّاطها وسلطاتها متشدّدين الآن في معارضة قيام جمهورية إسلامية كما كان الفرنسيون في معارضتهم لجزائر حرّة.

(*) هناك نظريات كثيرة حول أصل عبارة pieds noirs. كتب أليستر هورن في كتابه حول تاريخ حرب الاستقلال الجزائرية، أن العبارة جاءت من الأحذية المطلية بالأسود التي كان ينتعلها الجيش الفرنسي، أو من الفكرة الفرنسية أن الشمس الإفريقية أحرقت أقدام المستعمرين فأصبحت سوداء. ومؤخّراً، أبلغني جزائري أن الاسم أُعطي للمهاجرين الإسبان الفقراء الذين عاشوا في حيّ من أحياء العاصمة المغربية الرباط والذين اتُّهموا أنهم لا يغسلون أقدامهم أبداً. وعندما انتقل الفرنسيون إلى المنطقة نفسها، ورثوا الاسم ثم أحضروه معهم إلى الجزائر.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

تشرف كنيسة نوتردام دي مير (سيّدة البحر) الكئيبة العائدة للقرن التاسع عشر على المقابر وتمثال السيد المسيح البرونزي المقتلع والمحطّم قبل عيد الميلاد عام ١٩٩١. وعلى الفسيفساء فوق المذبح كُتبت صلاة معبّرة وشبه استعمارية: «يا سيّدة أفريقيا، صَلّي لنا وللمسلمين». كان هناك رجل دين فرنسي من قساوسة مونبلييه لخدمة رعيّة من ثلاث مئة أو أكثر من الكاثوليك القدماء ذوي الأقدام السوداء لم يغادروا البلاد. ويتجمّع في كنيسة سانت تيريز في «باب الواد» في مدينة الجزائر، خمسة عشر منهم كلّ سبت لتناول القربان ولطمأنة بعضهم بعضاً أنهم لن يغادروا أبداً.

قالت لي سيّدة عمرها ٦٩ سنة من سومور Saumur، لم تصرّح باسمها لأنها تعيش هنا، إنّها «تتقبّل التاريخ بقدريته». إنها امرأة قصيرة، وجهها مستدير، وشعرها الأبيض كثّ ومجعّد. قالت: «لم يكن ديغول رجلاً سيّئاً. قال في البداية إنه يتفهّم موقفنا وأعتقد أنه كان يعني بقاء الجزائر فرنسية. لكن عندما تجوّل في المنطقة وشاهد الوضع بأمّ عينه، أدرك أن فرنسا لا تستطيع البقاء هنا. لم يخنّا، لكنّه بدّل رأيه فقط. بقيت مع زوجي لأن هذا بلدنا. توفّي بعد ثلاث سنوات من الاستقلال لكنّ الجزائر ما زالت وطني، بمينائها وبحرها وجبالها التي أحبّ. تزوّجت ابنتي جوزيت من جزائري واعتنقت الإسلام. تحمل الآن اسماً إسلامياً، ضياء. أجل أنا سعيدة في سنّي المتقدّمة. ولديّ العديد من الأصدقاء حتى في الجبهة الإسلامية للإنقاذ».... ابتسمت بحرارة بدون التوتّر أو الخوف الذي أراه الآن على وجوه الجزائريين. ثم قالت بلطف شديد: «لكلّ إنسان قدره». جنون من الذبح والإرهاب، حرب أهليّة ستقضي على حياة ١٥٠ ألف نسمة تنتظرها وتنتظر كلّ أجنبيّ في الجزائر وكلّ صحافيّ، وكلّ مسؤول حكوميّ، وكلّ إسلاميّ، وكلّ شرطيّ، وكلّ صاحب محلّ، وكلّ زوج وزوجة وطفل.

عاشت تلك السيّدة السنوات الأخيرة من حُلم فرنسا الاستعماري الذي تحوّل إلى كابوس، علماً بأن الحلم دام أكثر من مئة سنة. وهو لا يزال حيّاً حتى الآن في مكتبات الأثريّات في باريس. هنا تستطيع شراء بطاقات تذكاريّة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

للجزائر من القرن التاسع عشر حيث كانت البيوت الفرنسية مشيّدة خلف أشجار الزان في أحياء تعجّ بالفتيات الفرنسيّات المرتديات ملابس طويلة والشبّان الفرنسيين المعتمرين قُبّعات من القشّ. وتُظهر بطاقة ملوّنة محلّ بِقالة في مدينة سوق أهراس حيث يتنزّه المواطنون الفرنسيون في شارع فيكتور هيغو. وفي المدن الصغيرة كنائس فرنسية مملّة ومهيبة ونوافير حجرية مربّعة وقطارات فرنسية جميلة تتّجه إلى محطات سكّة الحديد الفرنسية المُزخرفة. وفي العديد من البطاقات، تبدو المدن الفرنسية الصغيرة في الجزائر مهجورة، معابدها وبلديّاتها ومكاتبها جزء من مسرح سيظهر عليه الممثّلون. وعندما يظهر الجزائريون في الصورة، يجلسون أو يقفون عادة إلى جانب عدسات الكاميرا، ملتحين أو مُعتمرين كوفيّات كجزء رومانسي من المشهد الطبيعي، مثل أشجار النخيل أو المساجد البعيدة. وتظهر صورة ضخمة أخذت في وهران عام ١٩١٠ أكثر من مئة رجل وامرأة وطفل فرنسيين واقفين أو جالسين على رصيف مقهى الكونتيننتال الكبير، وثمّة شخص واحد ـ صبيّ المقهى على ما يبدو إلى أقصى اليسار في الصورة ـ ربّما كان جزائرياً. في تلك السنة، كان سكّان الجزائر مؤلّفين من ٤٠٠ ألف فرنسي (٢٠٠ ألف أجنبي معظمهم من الإسبان والمالطيين والإيطاليين) وأربعة ملايين وخمس مئة ألف جزائري مُسلم. وعلى كلّ بطاقة طابع فرنسي بقيمة خمس سنتيمات يحمل صورة ماريان، المربّية الأمّ للأمّة الفرنسية.

في باريس، تستطيع اليوم شراء مجلّة شهرية مزيّنة بالرسوم مخصّصة لذوي الأقدام السوداء وعائلاتهم، تأسّست بمساعدة الجنرال الانقلابي إدموند جوهاد وناشر مجلّة «الجزائر الفرنسية» جاك سوستل، وتمتلئ صفحاتها بصور الأحياء النظيفة والمنظّمة التي بناها الفرنسيون في عاشر أكبر مدينة في العالم واعتقدوا أنها جزء من فرنسا. وتعتبر المجلة مختصّة بشؤون ذوي الأقدام السوداء القدامى والمعاصرين وبالحركيين وأصدقائهم(*).

(*) كان الحركيون أتباعاً من الجزائريين الموالين للجيش الفرنسي الذين خانهم أسيادهم عام ١٩٦٢ وتركوهم وراءهم ليُقتَلوا على يد أبناء وطنهم ويُطردوا للعيش في البؤس في جنوب فرنسا.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

من خلال إلقاء نظرة سريعة على الصفحات الكئيبة الواحدة تلو الأخرى، يسهل التعرّف على الطبيعة الانفصامية للجزائر الفرنسية. ففي سيدي بلعباس، على سبيل المثال، كانت الشوارع تحمل أسماء ألكسندر دوما، بونيه، لي ترومبل، دلنيي أي بوليه (Les Trembles , Deligny et Boulet) وأيضاً وادي سفيونة الصلاح، وادي إمبرت، (Oued Imbert) , (Oued Sefioun, Tessalah, Sidi Yacoub) وسيدي يعقوب . وفي بسكرة ينتصب تمثال ضخم للمونسينيور شارل لافجري Charles Lavigerie في وسط المدينة تكريماً لأُسقُف الجزائر الذي حاول تنصير الجزائريين وأسّس جمعية الآباء البيض. وعلى الرغم من أن غزو فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠ كان يهدف إلى صرف الأنظار عن المشاكل المحلّية للبوربون والثأر للقنصل الفرنسي ـ ضربه الداي حاكم مدينة الجزائر على وجهه بمنشّة الذباب ووصفه بالوغد الشرّير، الكافر، عابد الأصنام ـ فقد أصبح الأمر بسرعة حرباً صليبية مسيحية.

وانتهى ذوو الأقدام السوداء لاحقاً إلى الاعتقاد بأن مهمّتهم في الجزائر تمدين بلاد بربرية، ومن هنا التشديد المستمرّ على الإدارة والعدالة والتعليم والتقنية الحديثة. لكنّ الدليل المعاصر والأدب المنشور في السنوات الأولى للغزو الفرنسي يرويان قصّة مختلفة. فعندما وصل الكونت دو بورمان، القائد الذي قاد قوّة الحملة الفرنسية على الجزائر، إلى ساحل شمال أفريقيا مع ٤٢ مدمّرة وفرقاطة وزورق دوريّة وستّين سفينة أخرى في أيار/مايو ١٨٣٠، أصدر بياناً مملاً:

> «أيّها الجنود، إن الأمم المتمدّنة للعالَمين الجديد والقديم تنظر إليكم، ومشاعرها معكم. إن قضية فرنسا هي قضية الإنسانية، أثبتوا أنكم جديرين بهذه المهمّة النبيلة. لا تدعوا أيّ تجاوز يلطّخ شعار أعمالكم البطولية، كونوا عديمي الشفقة في القتال، ولكن عليكم أن تكونوا رُحماء ونبلاء بعد النصر، هذا لمصلحتكم كما أنه واجبكم. وبسبب اضطهاده من قِبل العسكر المغتصب والقاسي، سيجد العربي فيكم محرّرين وسيطلب التحالف معكم».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قبل ٨٧ عاماً من إعلان الجنرال مود Maude الموجّه إلى الشعب العراقي والذي أكّد فيه أن الجيش البريطاني قام بغزو العراق محرّراً أكثر منه غازياً، وقبل ١٧٣ سنة من غزو الرئيس الأميركي جورج بوش الابن ورئيس الوزراء البريطاني طوني بلير للبلد نفسه وللأسباب عينها ـ واعتقادهم القويّ أنهم سيكونون موضع ترحيب من قِبل السكّان المحلّيين، تدفّق الفرنسيون على الشاطئ في خليج سيدي فريج الهادئ وهم يحملون أوهاماً مشابهة، ليبدأ تاريخ الجزائر المستعمرة، الطويل والمظلم. وسوف يمضي الجيش الفرنسي الخمسين سنة القادمة في قمع الثورة، خمس عشرة منها في محاربة قائد المقاومة الجزائرية البارز والقويّ عبد القادر. وارتكب الطرفان فظائع. وكان المجتمع الفرنسي مصدوماً أيضاً لدى معرفته أن قوّاته قامت بقتل ٥٠٠ جزائري من الرجال والنساء والأطفال من خلال إشعال حريق على مدخل مغارة لجأوا إليها ـ مقدّمة مرعبة للمصير نفسه الذي أعدّه الأتراك ضدّ ألوف الأرمن خلال عملية الإبادة عام ١٩١٥.

بين عامي ١٨٣١ و١٨٣٩، خسر الفرنسيون ١٤١٢ جندياً في معركة الجزائر. وأشبهت الحالة كابوساً وصفه دبلوماسي فرنسي عام ١٨٤١ للعالم بقوله:

> «أصبحت البلاد بدون اقتصاد، وتوقّف تنقّل القوافل، وجُرفت الحقول... وتحوّل العرب إلى عمليات إراقة الدماء والذبح، ووصلوا إلىَ مداخل مدينة الجزائر»....

أكان نتيجة هوس شخصي أو تفاؤل مزيّف، ما قام به ليون غاليبر بكتابة تاريخ الجزائر بعد ثلاث سنوات فقط، حيث وصف بإعجاب أعمال الكنيسة الكاثوليكية التبشيرية الفرنسية ـ «لأنهم أظهروا بقوّة تعزيز سلطتنا في الجزائر» ـ ورغبتها في قهر الإسلام:

> «يوم ٢٤ كانون الأول/ديسمبر ١٨٣٢، تمّ تحويل واحد من أجمل مساجد الجزائر في شارع ديفان للعبادة الكاثوليكية. وبدأت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الخدمات الدينية بمهابة خلال قدّاس منتصف الليل... وبدأت هنا حقبة جديدة لكنيسة أفريقيا. إنّ الاحتفال المهيب وعظمة الكنيسة الكاثوليكية لم يجعلا السكّان الأصليين يدركون أن الغازي يؤمن بالله وعنده دين فحسب، بل جعلتهم أعمال الكنيسة الخيرية المتزايدة التي استفادوا منها يفهمون أن هذا الدين رحوم وصديق للإنسان»... وكتب الكاردينال باكّا Pacca في صحيفته الموجّهة إلى العالم الكاثوليكي مادحاً الجهود التي بذلتها فرنسا لنشر المسيحية في ممتلكاتها. «رأيت على شواطئ أفريقيا الأمّة الفرنسية نَشِطة تعيد رفع راية المسيح، رأيتهم يعيدون المذبح إلى مكانه ويحوّلون المساجد الكافرة إلى معابد مسخّرة للخالق ويبنون كنائس جديدة. إضافة إلى ذلك، رأيت على شواطئ أفريقيا رجل دين مقدّس تتبعه رعية متحمّسة، موضع ترحيب بالأهازيج وصيحات التمجيد من قِبل الكاثوليك كما أنها محترمة وموقّرة من قِبل الكفّار والعرب والبدو. في القسنطينة حيث يمكن إيجاد حوالى خمسة آلاف كاثوليكي... جرى تحويل مسجد جميل إلى كنيسة وأعيدت تسميته بسيّدة الأحزان... وبفضل التدخّل الفرنسي استعادت المسيحية القوّة التي تمتّعت بها في العصر الأوّل للكنيسة في هذا الجزء من أفريقيا».

نظرت الكنيسة إلى هذا التبشير على أنه إعادة تأسيس للمسيحية في بلد شُيّدت فيه كنيسة القديس فانسان دي بول لأوّل مرّة عام ١٦٤٦. غير أن الأمر تطلّب مشاعر مسيحية أقلّ تجاه الأراضي التي قرّر الفرنسيون استيطانها. كان خطاباً سعيداً ذاك الذي أُلقيَ بحضور مميّز أمام الجمعيّة الوطنية عام ١٨٤٠: «حيثما وجِد ماء عذب وأرض خصبة، يمكن للمرء اكتشاف المستعمرين دون الاهتمام بموضوع مَن يمتلك هذه الأراضي». وأدّى تطوّر فرنسا كديمقراطية إلى تطوير وإعادة تطوير سياساتها في الجزائر، وكان وضعها الإمبريالي موضع تحدّ باستمرار من قِبل ليبراليّتها. وإذا كان الجزائريون لا يتمتعون بحقّ التصويت في برلمان الوطن الأمّ، فقد كان عليهم القيام بتضحية مماثلة في مواجهة أعداء فرنسا. لم يكن ذوو الأقدام السوداء وحدهم الذين ذهبوا للقتال والموت على

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الجبهة الغربية في الحرب العالمية الأولى. ففي مقابر الحرب الواسعة في شمال فرنسا، يمكن إيجاد مدافن جزائرية تحمل علامة الهلال الإسلامي بالآلاف، مفصولة عادة عن قبور القتلى الفرنسيين لكن في محيط المقبرة ذاتها. وقد أثار مصيرهم حالة من البلبلة في الجزائر، مع أن ذلك بقي غير معلن في ذلك الوقت. بالطبع، على المرء التفتيش في الملفّات الفرنسية العائدة لفترة ما بعد الحرب للعثور على أيّ تدقيق جدّي بهذه الثورة. ورغم انتصار عام ١٩١٤ في المارن، تحوّلت مصادر القلق والمظالم إلى قصص رهيبة لمعركة شارل روا.

وقد كتب مؤلّف في الذكرى المئوية للغزو الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠:

«بشكل خاصّ، قيل إننا ضحّينا بقوّاتنا المسلمة ولم يتبقّ لنا أيّ جنود في الجزائر، وأن قُدرتنا على تعزيز قوّاتنا اضمحلّت وأن المجنّدين سيصبحون عُرضة للنيران حالما يفرزون». وقد انطلقت حوادث المقاومة في ثلاث مناطق. وفي بداية تشرين الأول/أكتوبر، في منطقة بسكرة المختلطة كان تمرّد بني شكران (قبيلة) الذي حصل بعد أيام من المظاهرات التي قام بها أهالي سيدي داحو تعبيراً عن عداء المنطقة ورفضها تجنيد عناصر جديدة».

يبدو أن الجزائريين كانوا جديرين بالموت من أجل فرنسا ولكن ليس للمشاركة في ديمقراطيتها، وهذه وجهة نظر عبّر عنها دون غموض عام ١٩٢٦ أحد الجنرالات الحاكمين الأكثر خبرة: «ليس هناك أدنى شكّ في أنّ إعطاء الجميع الحقّ في التصويت ـ الأمر الذي يهتمّ به قلائل بالفعل ـ لن يحلّ بحدّ ذاته المشكلة الوطنية. وإنه لجدير بالمديح الكامل مِن قبل الذين هم أصلاً رجال القرن العشرين، المطالبة بهذا الحقّ، لكن علينا القلق من أن البقيّة الذين اختاروا الحفاظ على تقاليد محترمة، لم تكد تبلغ مستوى النضج العائد للقرن الثالث عشر».

وقد اتّسمت السنوات الأخيرة للحكم الفرنسي بالقسوة والقمع. ومن يزور متحف الشهداء في مدينة الجزائر اليوم، خلف الأجنحة الإسمنتية للنصب التذكاري لأكثر من مليون جزائري قتلوا في حرب الاستقلال ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ضدّ الفرنسيين، يمكنه أن يشاهد على جُدرانه كلّ ما يرغب في رؤيته من هذا الصراع الرهيب. قام المشرف على المتحف بوضع سيمفونية بيتهوفن الرعوية وموسيقى برامز على الكمان على جهاز التسجيل كما لو كان ضرورياً تلطيف دليل البربرية. هناك ملفّات عسكرية فرنسية تطالب بالقبض على زعماء المقاتلين. وهناك أصفاد وسياط وأسلحة. وتشير ملصقات قديمة عمرها ٤٣ سنة، طبعتها جبهة التحرير الوطني الجزائرية إلى أن حركة المقاومة هي «منارة الاشتراكية الأفريقية». وهناك صور بالأبيض والأسود لشهداء جزائريين ولرجال معذّبين، وجوههم مهشّمة ودماؤهم سائلة على يد وحدة المظلّيين العاشرة التابعة للجنرال جاك ماسّو. وهناك خزانة عرض مليئة بمعدّات صغيرة للشرطة العسكرية الفرنسية، ونماذج من الذخيرة ومخازن الذخيرة وأداة معدنية بحجم ثمرة أناناس مكتوب عليها: «قنبلة انشطارية دفاعية أميركية طراز رقم ٢».

يوافق معظم المؤرّخين أن مجزرة سطيف عام ١٩٤٥ ـ عندما قتل المستوطنون الأوروبيون والدرك والقوّات الفرنسية حوالى ستة آلاف مسلم انتقاماً لقتل المسلمين ١٠٣ أوروبيين ـ ساعدت على اندلاع الصراع الأساسي من أجل الاستقلال. ويوافق الجميع أيضاً على أن محاولات فرنسا اللاحقة إدخال إصلاحات جاءت متأخّرة جدّاً، وليس فقط لأن الانتخابات الديمقراطية خضعت بشكل فاضح للتزوير من قِبل السلطات الفرنسية بحيث لا يستطيع المسلمون أبداً تحقيق المساواة مع الجزائريين الفرنسيين. وعندما أُعلنت جبهة التحرير الوطني عام ١٩٥٤، تمّ إسكات المسلمين الجزائريين المعتدلين بواسطة مناوئيهم الوطنيّين، بمن فيهم حركة استقلال إسلامية مَنسيّة بشكل واسع، هي «جماعة العلماء» التي رأت أن الصراع هو ديني أكثر مما هو سياسي. كانت أولى هجمات جبهة التحرير الوطني صغيرة، حيث جرى قتل بعض الدرك الفرنسيين في خراج قرية بلد أو في جبال القبائل. وبدأت الجبهة حملة تدمير خطوط التلغراف ووضع قنابل صغيرة في مكاتب الطيران والمكاتب الحكومية. وعندما اشتدّت الحرب، كان أكثر من خمس مئة ألف جندي من القوّات الفرنسية يقاتلون في المدن والجبال، وبخاصة في الأخضرية، شرق مدينة الجزائر،

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

مستخدمين الغارات الجوّية وطائرات الهيلكوبتر للقضاء على مجموعات المقاتلين. وكان مقاتلو حرب العصابات ناجحين أحياناً. ويقبع حُطام طائرة هيلكوبتر فرنسية أسقطت في قرية بلد اليوم على منصّة عرض في «متحف الشهداء».

يزعم بعض الجزائريين أن مليوناً ونصف مليون جزائري قتلوا خلال الثماني سنوات من الحرب التي انتهت عام ١٩٦٢، مع أن خمس مئة ألف من هؤلاء ربّما قُتلوا من قِبل زملائهم في حرب داخلية.

كان الصراع يتعلّق بخيانة المسلمين الجزائريين بعضهم بعضاً، وخيانة الجزائريين الفرنسيين من قِبل حكومتهم خاصّة ـ في ذهن العديد من ذوي الأقدام السوداء من قِبل ديغول. ولقد قتل رجال حرب العصابات واغتصبوا وشوّهوا الجنود والمدنيين الفرنسيين المعتقلين. وقتل الجيش الفرنسي المعتقلين وقضى على سكّان قرى بأكملها. وقام أيضاً بعمليات اغتصاب.

أصبحت حرب الاستقلال دعامة للسياسات الجزائرية الحديثة، وموضع انتقادات عنيفة من كلا الطرفين للسلطة الاشتراكية المفترضة والفاسدة وللذين يعارضون الحكومة. كانت الحرب قذرة لكن يمكن تسميتها دائماً بأنها عامل تطهير في الحياة الجزائرية. وقد فوّضت الحكومة الثورية في الجزائر جيلّو بونتكورفو إخراج فيلم حول الانتفاضة بين عامي ١٩٥٤ و١٩٥٧، وبقي «معركة الجزائر» أحد الأفلام الكلاسيكية لحرب العصابات والتضحية. وهناك لحظة مأساوية في الفيلم، عندما قاد الكولونيل ماتيو، وهو الشخصيّة التي جسّدت في الواقع دور الجنرال ماسّو، قائدَ جبهة التحرير الوطني العربي بن مهدي المعتقل إلى مؤتمر صحفي طرح فيه الصحفيون أسئلة حول أخلاقية إخفاء القنابل في سلال تسوّق النساء. سأله صحافي: «ألا تعتبر أن من الجبن استخدام سلال تسوّق النساء وحقائبهنّ لنقل المتفجّرات التي قتلت العديد من الأشخاص؟». أجاب بن مهدي: «أفلا يبدو لك أكثر جبناً أيضاً إلقاء قنابل النابالم على القرى الآمنة، حيث يوجد من الضحايا الأبرياء عدد أكبر بآلاف المرّات؟ أعطونا قاذفاتكم ويمكنكم الحصول على السلال؟ وسأل: «هل عليكم البقاء في

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الجزائر؟ إذا كانت الإجابة بنعم، عندها عليكم قبول كلّ التبعات الضرورية». ويتضمّن الفيلم عدّة دروس لمحتلّي العراق الأميركيين والإنكليز. ألم يكن مفاجئاً أن ينظم البنتاغون في أوائل ٢٠٠٤، عرضاً سينمائيّاً للخبراء العسكريين والمدنيين في واشنطن الذين جرى سؤالهم ببيان يتضمّن: «كيف يتمّ كسب معركة ضدّ الإرهاب وخسارة حرب المبادئ؟».

إذا كانت الحرب عنصر تنشيط مستمرّ للجزائريين، فإنها أُزيلت خلال ثلاثة عقود تقريباً من الذاكرة الفرنسية الجماعية.

ولعدّة سنوات، تم منع فيلم «معركة الجزائر» في فرنسا، وعندما جرى عرضه في النهاية، تعرّضت دور السينما للهجوم بالقنابل الحارقة.

وتطلّب الأمر ثلاثين عاماً قبل أن يقوم مخرج أفلام فرنسي بإجراء مقابلة مع المجنّدين المنسيّين للصراع الذي قُتل فيه ٢٧ ألف جندي فرنسي. وأظهر فيلم برتران تافرنيه «الحرب التي لا اسم لها» La guerre sans nom قُدامى الحرب يُجهشون بالبكاء بينما كانوا يعبّرون عن أسفهم لعمليات قتل الجزائريين. في السنة نفسها، ١٩٩٢، أقام متحف التاريخ المعاصر معرضه الأوّل عن الحرب ونشر في ٣٢٠ صفحة دليل معلومات لم يحاول فيه إخفاء الوحشية. وفي عام ٢٠٠٠، رفض الرئيس جاك شيراك الدعوات إلى تقديم اعتذار رسمي حول استخدام التعذيب من قِبل الجنود الفرنسيين خلال الحرب. وعندما نشر الجنرال بول أوساريس، الذي كان منسّقاً لنشاطات الاستخبارات الفرنسية في الجزائر عام ١٩٥٧، مذكّراته عام ٢٠٠١ وتفاخر بشأن الجزائريين الذين أعدمهم شخصياً، طلبت منظمة العفو الدولية إجراء تحقيق من قِبل الحكومة الفرنسية. وادّعى أوساريس أن فرنسوا ميتران، الذي كان وزير داخلية اشتراكياً في ذلك الوقت، أعرب عن قلقه المطلق لعمليات التعذيب والقتل التي قامت بها القوّات الفرنسية في الجزائر. لكنّ الحكومة الجزائرية المعاصرة حافظت على ما أسماه صحافي جزائري «الصمت الجبان» حيال تصريحات أوساريس، على الأقلّ لأنّ بعض أعضائها مارسوا لفترة طويلة عمليات تعذيب ضدّ مواطنيهم تشبه تلك التي مارسها أوساريس ورجاله ضدّ الجزائريين. وحتى في باريس، مات الجزائريون

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

بالمئات عندما احتجّوا في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦١ على حظر التجوّل الليلي الذي فرضته عليهم الشرطة. وهاجم رجال الشرطة الفرنسيون بوحشية المتظاهرين وقتلوا أكثر من ثلاث مئة منهم، أُلقيت جُثثهم في اليوم التالي في نهر السين.

وحتى يومنا هذا، لم تفتح السلطات الفرنسية كلّ الملفّات حول هذه المجزرة، مع أن قائد الشرطة المسؤول عن هذا القمع كان موريس بابون الذي أُدين في نيسان/أبريل ١٩٩٨ بجرائم ضدّ الإنسانية ارتكبها خلال الاحتلال الألماني.

كما كان لادّعاء فرنسا الأساسي أنها غزت الجزائر لتحرير شعبها صدى معاصر مؤلم، وكذلك الدعوات لتقديم الدعم للحكومة الفرنسية من قِبل الإدارة الأميركية خلال حرب استقلال الجزائر. وقيل للأميركيين إن فرنسا تحارب دفاعاً عن الغرب ضدّ الجهاد، ضدّ «التطرّف الإسلامي الشرق أوسطي».

وادّعى الفرنسيون أن هذا صراع حضارات. وكانوا بالطبع مُخطئين ـ كانوا يحاربون ضدّ ثورة وطنية في الجزائر كما وجد الأميركيون أنفسهم يحاربون ضدّ ثورة وطنية في العراق ـ لكنّ المضمون الإسلامي لحرب الاستقلال ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢ تم تجاهله منذ وقت طويل، على الأقلّ من قِبل الحكومة الجزائرية التي وجدت نفسها تحارب عدوّاً إسلامياً في التسعينيّات.

أخرج محمد بو يعلي صورة فوتوغرافية لأخيه الراحل وعرضها عليّ. «لقد التقطت عندما كان مصطفى طليقاً. لم تحصل الحكومة أبداً على صورة له وهو ملتحٍ. كنا نتحدّث في تموز/ يوليو ١٩٩٢ وكانت الجزائر آنذاك على وشك الوقوع في حرب جديدة مُرعبة، في صراع إنساني مخيف. استردّ محمّد الصورة مني. وعندما عدت إلى الجزائر، كان منزل محمّد بو يعلي في منطقة تسيطر عليها الجماعة الإسلامية المسلّحة GIA وقد رفض سائقي الجزائري زيارة المنزل. وهكذا كانت صورة مصطفى بو يعلي على مكتبي عندما كتبت هذه الكلمات. إنها صورة محبّبة وقويّة، وجه كبير ولحية كثيفة وعينان حادّتان تحدّقان بقوّة في الكاميرا عينا شخص مطلوب. عام ١٩٩٢، كنت جالساً مع

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

شقيقه في منزله الجبلي المرتفع والجيّد التهوية في قرية عاشور التي تركها مصطفى بو يعلي منذ عشر سنوات ولم يرجع إليها أبداً.

كانت الصورة غير واضحة تماماً، وكان الورق المطبوعة عليه مجعّداً ووسخاً. ويبدو أنها عُرضت عدّة مرّات على أصدقاء العائلة المقرّبين، صورة شهيد مكرّم منذ تلك الليلة الماطرة من ٣ كانون الثاني/يناير ١٩٨٧ عندما كمن الجيش الجزائري لبو يعلي على طريق لاربا Larba حيث أطلق جنديّ النار على رأسه. ومع أنها صورة فوتوغرافية ضعيفة، غير مؤطّرة، فإنّنا لن نكون مبالغين مهما تحدثنا عن تأثير هذا الرجل على التاريخ المعاصر للجزائر.

وقد رويت قصّته كثيراً في الغرب، فيما لم تعد تطرح قضيّته علانية في الجزائر. حينها كان هو الرجل الذي ألهم الجماعات المسلّحة التي هاجمت الحكم الجزائري في التسعينيّات. وكان الحافز وراء حركة الجهاد الإسلامي التي قامت بعد ذلك باغتيال ضبّاط الشرطة في أنحاء الجزائر؛ ١٢٠ شرطياً في الأشهر الستّة الماضية وحدها. وهنا في قرية عاشور، في هذا المنزل ذي النسيم والمقعد الدافئ المخملي والطاولة المغطاة بالبلاستيك وأشجار الخوخ خارج الفناء الخلفي، يكمن الرابط التاريخي المفقود بين حرب الجزائر المتوحّشة من أجل الاستقلال والحرب الأهلية عديمة الشفقة بشكل متزايد في التسعينيّات، نقطة مهمّة لخيانة الجزائر واستمراراً لمأساتها. ولأنّ بو يعلي مقاتل مخلص لجبهة التحرير الوطني ضدّ فرنسا ومقاتل إسلامي ضدّ حكومة جبهة التحرير الوطني التي أخذت مكان الحكم الفرنسي، فقد طرحت نشاطاته تساؤلاً حول معنى التاريخ الجزائري. كيف يمكن لرجل سجنه الفرنسيون، وفدائي في جيش جبهة التحرير الوطني، أن يكون قائداً لجيش فدائي آخر ضدّ رفاقه القدامى؟.

وِلِد مصطفى بو يعلي في عاشور يوم ٢٧ كانون الثاني/يناير ١٩٤٠ وانضمّ إلى جبهة التحرير الوطني في سنّ السادسة عشرة، وقام بجمع تبرّعات في قريته، وهي جزء من المنطقة السادسة في الولاية الرابعة لجبهة التحرير الوطني. عام ١٩٥٨، اعتقلته الشرطة الفرنسية في المنزل الصغير في قريته عاشور وسُجن لمدّة سنتين. عند إطلاق سراحه، حاول الفرنسيون إجباره على الانضمام إلى

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الجيش، لكن بعد ثلاثة أشهر فرّ من ثكناتهم في بليدا وعُيّن ضابطاً في جبهة التحرير الوطني في مدينة الجزائر. ويتذكر رفيقه القديم أيام الحرب فيقول إن بويعلي كان أيضاً مناضلاً إسلامياً. واستناداً إلى صيّاح، فقد وجد بويعلي داخل جبهة التحرير الوطني مجالاً لممارسة الجهاد ضدّ الفرنسيين ـ كان يحمل هذا المفهوم الإسلامي حتى عندما كان في جبهة التحرير الوطني.

أيّد محمد بويعلي ذلك عندما قدّم صورة أخرى قديمة لشقيقه تظهر مصطفى في زيّ مقاتلي جبهة التحرير الوطني، يرتدي سترة مموّهة وقبعة بانشو وينتعل حذاء عسكرياً ويقف بطريقة مثيرة كما لو كان على وشك مهاجمة عدوّ، حاملاً بندقية قديمة. جرى تلوين الصورة بطريقة ذلك العصر: اللباس أخضر فاتح، والسماء زرقاء صافية، والوجه أصفر شاحب. وكان زجاج الصورة محطّماً. آنذاك كان ثمّة مؤيّدون آخرون مجهولون أيضاً لجبهة التحرير الوطني. وكان أحدهم هو الذي خطّط لتفجير مبنى الحكومة الفرنسية، ويدعى عبّاسي مدني. وقد أمضى معظم فترة الحرب في السجن.

ليس هناك أدنى شكّ في المرارة التي ولدتها الحرب. وقد اكتشف الفرنسيون أن المئات من المسلمين الموالين هربوا إلى جهة جبهة التحرير الوطني مصطحبين معهم أسلحتهم ممّا أثار خوفهم. ووجد الأسرى الفرنسيّون لدى جبهة التحرير الوطني عيونهم منزوعة وأعضاءهم التناسلية موضوعة في أفواههم. وردّ الفرنسيون بعمليات اعتقال واسعة النطاق، وسجن آلاف الرجال الجزائريين في معسكرات صحراوية بدون محاكمة. وقد طبّقت عقوبة الإعدام على المقاتلين المعتقلين، وكانوا يعدمون عادة على المقصلة إلا إذا أصبح مفيداً سياسياً تطبيق عقوبات أخفّ. وبعدما عاد ديغول إلى السلطة من منفاه في «كولومبي ـ لي دو زغليز» انتقل إلى الجزائر حيث قدّم ظاهرياً دعمه لذوي الأقدام السوداء وأبلغهم أنه يتفهّمهم ـ ثم عمد إلى التفاوض مع جبهة التحرير الوطني وانقلب على الجيش الفرنسي الذي ساعده في الوصول إلى السلطة. عام ١٩٦٠، تفاوض ديغول شخصياً مع ثلاثة زعماء من جبهة التحرير الوطني في الولاية الرابعة ـ قطاع بو يعلي ـ وقد نفّذ معظم محاولات الاغتيال التي تعرّض

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

لها ديغول لاحقاً، ومجموعها ٢٤ محاولة خلال ثلاث سنوات، فرنسيون بعضهم من القوّات المسلّحة.

كانت التشابهات التاريخية غير ذكيّة، لأنها جميعها، باستثناء حادثة واحدة، تكرّرت بشكل ما في الجزائر في الأشهر السبعة الأولى من عام ١٩٩٠. وقد اتّبعت الحكومة الجزائرية أكثر فأكثر الأسلوب المأساوي للإدارات الفرنسية السابقة. ولم يكن ذلك من باب الصدفة. فقد تعلّم الجزائريون من الفرنسيين أن الانتخابات يمكن تزويرها. وقد وصفت المؤرّخة الفرنسية آني راي ـ غولذيغر كيف كان الجزائريون فاسدين بالفعل. «علّمناهم أن بإمكانهم اللعب بالديمقراطية وتزوير الديمقراطية... كنّا أساتذة من الدرجة الأولى في معاداة الديمقراطية». وبينما لعب الجزائريون دور حكّامهم الفرنسيين السابقين، قام المناوئون الإسلاميّون لنظام الحكم الجزائري بتقليد نشاطات جبهة التحرير الوطني أكثر فأكثر.

لقد تمّ خداع الجزائريين بثمار الاستقلال من قِبل زعماء زمن الحرب. ففي الأشهر الأخيرة قبل التحرير، قام فدائيّو الداخل ـ الرجال الذين كان عليهم محاربة أكثر الوحدات العسكرية الفرنسية قسوة ـ بالاعتراض على الأسلوب الذي حاولت من خلاله قيادة الخارج في تونس وليبيا ـ رجال مثل أحمد بن بلّا وهوّاري بومِدين ـ فرض سياسة معيّنة بالنسبة إلى مستقبل الدولة الجزائرية. كان حكم بن بلّا المفرط في الشهامة في السنوات الثلاث الأولى للاستقلال مثار غضب بويعلي، الذي صار يعمل الآن مندوباً عن جبهة التحرير الوطني في شركة الإلكترونيات الجزائرية الوطنية SoNalec. وكان مصطفى معارضاً لحقّ رجال الخارج في تقرير مستقبل الجزائر، كما قال محمد بويعلي، وكان ذلك أوّل خلاف له مع النظام. ولم يرغب في الانصياع لميثاق طرابلس.

كان يريد مؤتمراً لجبهة التحرير الوطني داخل الجزائر. وفي نهاية عام ١٩٦٣، انضمّ إلى الفدائيين مجدّداً، مع جبهة القوى الاشتراكية، وحسين آيت أحمد ومهنّد الحاج وكريم بلقاسم. لكن بعد ستّ سنوات من القتال، وعده بن بلّا أنه سيكون هناك تمثيل منصف داخل الحكومة لرجال الداخل والخارج معاً.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وفي عام ١٩٩٢، كان حسين آيت أحمد زعيماً لجبهة القوى الاشتراكية. وتجنّب الحاج، وهو مقاتل قبائلي قديم، مصير رفيقه بلقاسم، الذي خُنق لاحقاً في فندق في فرانكفورت على ما يبدو بناء على أوامر بومدين.

عاد بويعلي إلى الحياة المدنية، متبوِّئاً مركزاً سياسياً في جبهة التحرير الوطني في مدينة الجزائر ـ حتى حصول انقلاب بومدين ضدّ بن بلّا عام ١٩٦٥. واستناداً إلى صديقه في زمن الحرب ورفيقه صيّاح، رفض بويعلي إرسال برقية التهنئة التقليدية إلى المجلس الثوري الجديد الذي أنشأه بومدين. «قال إنه رفض دعم الانقلاب. لكن جبهة التحرير الوطني دعمت الانقلاب. وأيّدتُ أنا صديقي مصطفى بويعلي. اعتقدنا معاً أن الثورة الجزائرية انتهت. ورأينا أن الشعب الجزائري عانى ما فيه الكفاية. وأن الوقت حان لاستشارة الجميع في الجزائر حول مستقبلهم. كنا نريد الديمقراطية».

تذكّر صيّاح كيف أنّ بويعلي ورفاقه القدامى الآخرين في جبهة التحرير الوطني الذين عارضوا ديكتاتورية بومدين كانوا يجتمعون سرّاً في بيوت خاصّة ـ أحياناً في منزل صيّاح في ضواحي الجزائر ـ للبحث في مستقبل الجزائر وإمكانية إقامة دولة إسلامية. وصيّاح الذي كان يتعافى من التهاب معويّ عندما التقيته وتحدثت معه لفترة قصيرة كان يتحدّث بعبارات لاهثة، ولا يزال في حالة انفعالية في ذلك الوقت: «يجب أن ترى ما يجري الآن في الجزائر فهو النتيجة المباشرة للمعارضة التي بدأها بويعلي عام ١٩٦٥. كانت معارضتنا تهدف إلى العمل من أجل مستقبل ديمقراطي بدون إراقة دماء. وكان الإسلام جزءاً أساسياً من إيماننا ـ حتى عندما حاربنا الفرنسيين. في حالتنا، كانت مشاعرنا الوطنية غير قويّة مقارنة بمشاعرنا الإسلامية. جاء الفرنسيون عام ١٨٣٠ ودمّروا مساجدنا ومنعونا من التحدّث بحرّية بلغتنا، لغة القرآن. وتحت حكم بومدين ليست لدينا حرّية. أجل كانت اجتماعاتنا دينية. كانت محادثاتنا السرّية تبدأ دائماً بقراءة آيات من القرآن الكريم وكنا نقول «اللّه أكبر» كما كنا نفعل عندما نذهب إلى المعركة خلال الحرب ضدّ الفرنسيين. كان المَيل الإسلامي قويّاً جدّاً

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

داخلنا... لم نُعطِ حركتنا اسماً عن قصد لأنّ قوّات بومدين الخاصّة كانت قويّة جدّاً وكان من الأسهل لهم اعتقالنا جميعاً لو استطاعوا معرفتنا في وقت واحد».

كان الشيخ محفوظ نحناح الذي قاد حزب حماس عام ١٩٩٢ (لاعلاقة له بالاسم الفلسطيني)، والشيخ أحمد سحنون، آخر الناجين من تجمّع العلماء القديم والذي يشغل الآن منصب إمام مسجد مدينة كونكورد خارج الجزائر العاصمة، وهما شخصيّتان دينيّتان توفّيتا تحت الإقامة الجبرية ـ وعبد اللطيف سلطاني والشيخ مصباح ـ جميعهم شركاء بو يعلي في هذه الاجتماعات السرّية وهكذا أعطوا حركتهم بسرعة اسم «جماعة القِيَم». وقد حظرت السلطات الجزائرية هذه الحركة عندما عارضت بشكل علني إعدام عبد الناصر للمفكّر الإسلامي سيّد قُطب في مصر ـ إدانة أحرجت حكومة بومدين. واستناداً إلى محمّد بويعلي، بدأ شقيقه أيضاً بإلقاء محاضرات للمسلمين في المسجد المحلّي في عاشور، تعاونه شخصية بارزة، هي عبد الهادي دودي، الذي كان عام ١٩٩٢ إمام مسجد مرسيليا. وقد تحدّث مصطفى عن الإسلام كنظام حكم ـ وهذا يعني أنه تحدّث في السياسة. وكانت خطبه تدور حول التثقيف السياسي في الإسلام وشجب الفساد، وعمد أيضاً إلى إعلان أسماء الأشخاص الفاسدين في النظام. وجرى إغلاق القرية أيّام الجمعة لأنّ العديد من الناس جاؤوا للاستماع إلى مصطفى وعبد الهادي.

في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٨، توفّي بومدين ليخلفه الشاذلي بن جديد الذي كان حكمه أيضا ديكتاتورياً وأكثر فساداً بشكل علنيّ من سلفه.

بدأت الشرطة بمراقبة مصطفى بويعلي. وقال شقيقه محمّد: «جاء رجال الحكومة إلى المسجد وبدأوا بتسجيل أرقام السيّارات، وإهانة الأشخاص الذين كانوا يستمعون إلى مصطفى. قاموا بتصوير الحشد. وطلبوا مراراً من مصطفى التوجّه إلى مركز الشرطة للاستجواب. كانوا يفعلون ذلك يومياً ـ حتى ٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨١. وعندما ذهب إلى العمل ذلك اليوم، حاول رجال شرطة بلباس مدنيّ اختطافه فأنقذه رفاقه في العمل. وفرّ إلى منزل جدّه. كان متأكداً أن الشرطة تريد اختطافه وأنه سيختفي».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وقد عمل الأصدقاء وسطاء لترتيب اجتماع بين الشرطة وبويعلي. وقيل له إن الحادث كان غلطة. وأضاف محمّد: «اتّهم قائد قوّات الأمن الوطني الجزائري مصطفى بويعلي بأنه متورّط في السياسة. عندما تتنفّس، عندما تأكل، فهذا كلّه سياسة». في شباط/فبراير ١٩٨٢، واستناداً إلى عائلة بويعلي، كان تحويل ملفّ مصطفى من الشرطة إلى الاستخبارات العسكرية، نذير شؤم. وفي ٢٨ نيسان/أبريل، قفز عن سور منزله في عاشور ولاذ بالفِرار بينما كان رجال مسلّحون يرتدون ملابس مدنية ينتظرون عند البوّابة لاعتقاله لدى خروجه لإمامة صلاة الفجر في المسجد.

تذكّر محمّد بويعلي: «هكذا أصبح مصطفى في حالة فرار وبدأ بإجراء اتصالات من أجل العمل العسكري. تحدّث إلى معظم العلماء ـ إلى الشيخ نحناح، وعلي بلحاج والشيخ أحمد سحنون وعبّاسي مدني ـ وقال إنه سيلجأ إلى العمل العسكري وإن عليهم التحدّث في المساجد. والتقى مئات من أصدقائه الفدائيين القدماء في الجبال، وشكّل منهم مجموعات مسلّحة. كما اتصل بشباب باب الواد وبدأ يصنع قنابل». وقد لعب نحناح دوراً غير عسكري. ومع أن سحنون كان الأكبر سنّاً، فقد أصبح بلحاج ومدني قائدين للجبهة الإسلامية للإنقاذ (FIS).

في أواخر عام ١٩٨٢، أطلق بويعلي النار على ضابط شرطة وجرحه عند نقطة تفتيش على الطريق فتحرّكت الحكومة ضدّ أنصاره جميعاً، وجرى اعتقال ٤٧ منهم بين منتصف كانون الأول/ديسمبر وبداية كانون الثاني/يناير ١٩٨٣، و١٠٣ آخرين في أيار/مايو. وفي السنوات التالية لجأ بويعلي إلى عمليات السلب لجمع الأموال. وقامت مجموعته بمهاجمة كلّية الشرطة للحصول على أسلحة. وقد ادّعى صيّاح، الذي ترك بويعلي بحزن عندما تحوّل صديقه إلى الثورة المسلّحة، أن الشرطة بدأت انتقامها من بويعلي في وقت سابق خلال قتل أحد أشقّائه أمام أولاده ـ وكان ذلك ما دفع بويعلي إلى التخلّي عن الحوار لصالح الحرب. «فانتقل إلى الجبال... في ميتيجا والمدية والأخضرية، وفي أنحاء البلاد حتى سطيف. وجرت هناك معارك ضارية، حرب حقيقية».

كانت حرباً سرّية لم يسمع العالم بها أبداً، وكان هناك الكثير من الكمائن

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الحكومية. وجرى اعتقال أحد قادة بويعلي الرئيسيّين، عبد القادر شيبوثي، وحُكم عليه بالإعدام ـ لكنه حصل على عفو من الشاذلي بن جديد وعاد إلى القتال مع فدائيّي بويعلي بعد وفاة زعيمه. وكان العشرات من رفاق بويعلي يخوضون «حرباً إسلامية» ضدّ الجيش السوفياتي في أفغانستان، حيث أُعجبوا بعبدالله عزّام (قائد فدائي فلسطيني إسلامي اغتيل بواسطة سيّارة مفخّخة عام ١٩٨٩). وكان أحد أبطالهم الآخرين في أفغانستان مقاتل مصري يُدعى شوقي الإسلامبولي، شقيق الرجل الذي اغتال الرئيس المصري أنور السادات في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨١.

وعندما اغتيل مصطفى بويعلي أخيراً، اكتفت الصحف بإيراد خبر موت إرهابي. قال محمّد بويعلي: «وشى به سائقه. كان مصطفى يتنقّل في الجبال قرب لاربه، في وقت متأخّر من الليل أثناء عاصفة مُمطرة. وكان سائقه قد اعتُقل قبل بضعة أيام وتعرّض للتعذيب ثمّ أُطلق سراحه بعد بضعة أيام ـ وكان من عادة مصطفى أن يبقى بعيداً عن الأشخاص الذين يتعرّضون للاعتقال خوفاً من انقلابهم عليه. كانوا مُنطلقين على الطريق عندما لاحظ مصطفى قيام السائق بتحويل أضواء السيّارة إلى أعلى وإلى أسفل مرّة أخرى وسمعه أصدقاؤه يصرخ: «خائن» وفي تلك اللحظة أُطلقت العيارات الناريّة من جانبي الطريق وقُتل مصطفى مع خمسة من رجاله». واستناداً إلى صيّاح، كان آخر عمل قام به بويعلي على الأرض أنه أعدم سائقه بإطلاق النار على رأسه قبل ثوان من إصابته هو أيضاً برصاصة في الرأس.

لكن إرث بويعلي بعد وفاته كان أكثر عنفاً. فعندما قتلت قوّات الشاذلي بن جديد أكثر من ٥٠٠ متظاهر يطالبون بالديمقراطية في مدينة الجزائر عام ١٩٨٨، ساعد الحدث على ولادة الجبهة الإسلامية للإنقاذ التي كان من قادتها مدني وبلحاج رفيقا بويعلي القديمين. وكان الحدث بحجم مجزرة سطيف التي وقعت منذ زمن طويل، ولكن بأسلوب أشد مأساوية.

وجد الرئيس بن جديد نفسه في مواجهة ضغط من أجل الإصلاح، لم يكن مختلفاً عمّا واجهته السلطات الفرنسية قبل حرب الاستقلال. وعندما ألغى

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

العسكريون الجولة الثانية من الانتخابات الوطنية عام ١٩٩٢ ـ بعد جولة أولى أظهرت أن الجبهة الإسلامية للإنقاذ ستكسب ـ كان هذا القمع للديمقراطية مثيراً للسخرية في كل تفاصيله، كما كان الفرنسيون يزوّرون انتخاباتهم في الجزائر. ثم جرى إقصاء بن جديد من قِبل الجنرالات، وتمّ حظر الجبهة الإسلامية للإنقاذ وبدأت حرب عصابات بالغة العنف.

كان هؤلاء الفدائيّون الجُدد عام ١٩٩٢ مؤلّفين أساساً من الرجال الذين قاتلوا مع بويعلي في الجبال، واستخدموا أساليب جبهة التحرير الوطني القديمة ضدّ الفرنسيين. قاموا بقطع خطوط الهاتف والكهرباء وزرعوا قنابل في مراكز مكاتب الطيران والمباني الحكومية، واغتالوا رجال شرطة. وردّت الحكومة ـ كما فعل الفرنسيون في مواجهة جبهة التحرير الوطني ـ بتسمية أعدائها إرهابيّين. وبدأ ألوف من الجنود الجزائريين بمن فيهم قوّات المظلّيين ـ تدرّب العديد منهم في فرنسا على يد أسيادهم الاستعماريين القُدامى ـ بتصفية رفاق بويعلي القُدامى وتلامذته الشباب في الأخضرية، وجميلة، وسيدي بلعباس، وجيجل، كما فعل فوج المظلّيين الفرنسي بتصفية جبهة التحرير الوطني في تلك الأماكن نفسها منذ أكثر من ثلاثة عقود. وخلال هذه العمليات التي لم تحظ فعلياً بأيّ إعلان عنها في داخل الجزائر أو خارجها، هرب عشرات الجنود وانضمّوا إلى المقاومة الإسلامية مع أسلحتهم كما فعل القنّاصة الجزائريون الفرنسيون عندما انتقلوا إلى جبهة التحرير الوطني.

وهكذا قادت خيانة الثورة ضدّ فرنسا إلى تكرار تاريخي. ففيما أفسد طُغاة جبهة التحرير الوطني بلادهم، اعتُبر انتصارهم الأساسيّ خيانة، وكذلك فرانكوفونيّتهم، وزمرتهم الغربية (على النمط السوفياتي أساساً) اعتُبرت نسخة ضعيفة عن النظام الاستعماري الفرنسي القديم. ودلّت ثقافتهم الفرنسية ـ التي يصفها الجزائريون «بالإرث اللعين» ـ على أن لا شيء تغيّر. ونشأ شباب الجزائر العاطل عن العمل تَعِباً من الوعود المزيّفة لحرب الاستقلال، مريضاً من كثرة ما سمع عن الثورة، شاعراً بالملل من تذكّر الأبطال الموتى الذين جلبوا له الفقر والتشرّد. وبحلول عام ١٩٩٢، كان أكثر من ٧٥ في المئة من سكّان الجزائر ممّن

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولدوا بعد حرب الاستقلال. هل كانت مفاجأة والحال هذه أن الناجين المسنّين من تلك الحرب شكّلوا الأهداف الأولى للإسلاميين؟ وفي كلّ يوم كانت تظهر إعلانات وفاة في الصحافة الجزائرية المصدومة... وغدت قبور شهداء جبهة التحرير الوطني مفتوحة، وعظامهم ـ الممزّقة بالعيارات النارية الفرنسية منذ ثلاثة عقود ـ مهشّمة بالحجارة من قِبل الجزائريين المفترض بهم احترام ذكراهم.

لم يفاجئني كون الحكومات الجزائرية اللاحقة أُجبرت على الاعتراف بخطورة التهديد الذي كانت تواجهه آنذاك. وعندما سألني رئيس الوزراء الجزائري مقداد سيفي عام ١٩٩٥ ما إذا كنت أعرف مَن كان بويعلي، كان ذلك نوعاً من المنعطف ينحو إلى فهم دور بويعلي التاريخي، والعلاقة التي ربطته بالماضي والمستقبل. كان صراع ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢ حرباً أهلية وفي الوقت نفسه حرب استقلال ضدّ الفرنسيين في ما بعد.

وكانت الجزائر داخل سور فولاذي طيلة سنوات من ديكتاتورية ما بعد الحرب، كما أطبق تيتو على يوغوسلافيا بقبضته الحديدية بعد الحرب العالمية الثانية. وعندما يصدأ الحديد، يستعيد التاريخ عافيته حيث توقف. من هنا، نظرت الحكومة الجزائرية ومناوئوها المسلّحون إلى الوراء عوضاً عن النظر إلى الأمام. فقد قدّمت السلطات وعوداً شبيهة بوعود بومدين حول الرخاء المستقبلي والديمقراطية والدعم الشعبي. وهاجم الإسلاميون الثقافة والفنون وتحدّثوا عن الخلافة. حتى أنّ حسن الترابي، رجل الدين السوداني البارز الذي ادّعت الحكومة الجزائرية أنه أثّر بشكل كبير على الإسلاميين، اعترف لي عام ١٩٩٢ بأنه لا يستطيع فهم القيادة الإسلامية في الجزائر. وعبّر عن أسفه قائلاً: «إنهم لا يتكلّمون عن المستقبل. لقد تحدّثت إلى عبّاسي مدني قبل الانتخابات وسألته: ما هو برنامجكم؟ ماذا ستفعلون بعد الانتخابات؟ هل بدأتم حواراً مع الفرنسيين؟..» فاكتفى بالقول: «كلّا، كلّا، نحن نريد كسب الانتخابات فقط».

في غضون شهور من الانتفاضة الأخيرة، تشكّلت الحكومة الجزائرية التي تقودها فعلياً مجموعة من الضبّاط الكبار والواسعي النفوذ في الجيش الذين تجوّلوا في الشرق الأوسط لتكوين فكرة عن صراعهم ضدّ «الإرهاب الأصولي».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وأصدروا كتباً وكُرّاسات حول جذور النشاط الإسلامي لإقناع الدبلوماسيين والصحفيين الأجانب بأنّ جذور الإرهاب الجزائري تعود إلى الأخوان المسلمين في مصر، وباكستان والسعودية. وفي عام ١٩٩٥، ادّعى وزير الداخلية أن حزب الله اللبناني والإيرانين وحركة حماس الفلسطينية أجروا اتصالاً مع الجماعات الإسلامية الجزائرية في اجتماع عُقد في مدينة طرابلس شماليّ لبنان. وكانت الرواية من نسج خيال كاتب فرنسي ـ زعم أن المخابرات السورية مصدر معلوماته ـ وأعيد تركيبها في رواية للنيويورك تايمز من باريس. ولقد بحث الجزائريون في كلّ مكان ـ أيّ مكان ـ عن طريقة ما لإثبات أن الانتفاضة الجزائرية ليست جزائرية. كما فعل الأميركيون في العراق بعد عشر سنوات، إذ إنّ أعداءهم يجب أن يكونوا أجانب، من الفضاء الخارجي، داكني الوجوه عبروا الحدود لقتال قوّات الديمقراطية.

كانت لدى الطرفين أوهام متمّمة. فقد اعتقد العديد من الفرنسيين أنهم يحاربون الشيوعية في الجزائر بينما كانوا في الواقع يحاربون القومية ـ أو الإسلام، إذا أردنا تصديق رفاق بويعلي والدعاة الفرنسيين في ذلك الوقت. وتؤمن المقاومة الإسلامية الآن بأن حرب الاستقلال كانت جزئياً جهاداً دينياً، على أن الأمر ـ وفقاً لحجم الدليل المضادّ الموثّق الكبير ـ لم يكن كذلك بشكل واضح لمعظم المشاركين. وما زال مؤيّدو بويعلي السابقون ـ الذين تركوه عندما ذهب إلى الجبال ـ يعتقدون أنه لو تحدّثت الحكومات الجزائرية المتعاقبة مع مناوئيها بدلاً من سجنهم لكان من الممكن التوصّل إلى تسوية للأزمة. وعوضاً عن ذلك حوّل الذين اختاروا القتال بالسلاح ذكرى مصطفى بويعلي إلى مصدر إلهام لمزيد من الكفاح. وكانت لدى شقيقه محمّد صورة أخرى له. إنها صورة ملوّنة لبويعلي في الأشهر الأخيرة قبل مصرعه، جالساً متربّعاً على الأرض في مغارة جبليّة، يقرأ القرآن المفتوح أمامه ـ ومعه رشّاش فرنسي مسنود إلى الحائط عن يمينه. وبالطبع، أتذكّر اليوم إسلامياً آخر مسلّحاً يجلس على الأرض في كهف ويقرأ القرآن وبجانبه سلاح.

هل حكم بويعلي على شعبه بإعادة تحريك الحرب المُرعبة التي انتهت عام

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

١٩٦٢؟ في تموز/يوليو ١٩٩٢، أُلقيَ القبض مجدّداً على رفيق بويعلي القديم، عبد القادر شبوثي، مع أحد أنصاره السابقين، منصوري ميلاني، بعد معركة بالسلاح في عاشور. قُبض عليهما على بعد مئات الأمتار فقط من قبر بويعلي المجهول.

بلغت الديمقراطية ـ التي يجب أن تكون دائماً مثل فلسطين في السياق الجزائري مُستَخدمة في نقاط الاقتباس ـ نهايتها يوم ١٢ كانون الثاني/يناير ١٩٩٢، عندما طبّقت الحكومة القانون العُرفي وجرّدت جبهة الإنقاذ الإسلامي من فوزها الانتخابي الديمقراطي عبر إلغاء الجولة الثانية من التصويت المقرّرة بعد أربعة أيام. وكنت قد وصلت إلى مدينة الجزائر بتأشيرة لتغطية الانتخابات التي لن تجري بعد الآن. وتملأني الحماسة لمشاهدة «تجربة الجزائر في الديمقراطية»، نزلت في فندق السان جورج الفرنسي القديم، الذي كان مقرّ قيادة الجنرال دوايت أيزنهاور في الحرب العالمية الثانية ـ واسمه الآن فندق الجزيرة ـ لأجد الرئيس الشاذلي بن جديد يعلن استقالته من على جهاز التلفزيون القديم في بار الفندق. وكان يجب إعادة برمجة المفكّرين الحكوميين، الذين تولّوا إطلاعنا على أعاجيب الديمقراطية الجزائرية لشرح كيف يمكن حماية الديمقراطية بتعليق الديمقراطية. كان هذا عملاً شاقّاً. كما لو كان تدمير قرية فيتنامية بهدف إنقاذها شيئاً وتدمير الديمقراطية بهدف إنقاذها شيئاً آخر تماماً.

أقصى الجيشُ الشاذلي بن جديد عن الرئاسة وأعلن أن مجلس رئاسة مؤلّفاً من خمسة رجال بمن فيهم الجنرال القوي خالد نزار سيدير البلاد. ومع أنه لم تكن لهذا المجلس شرعية دستورية، فقد كانت ثمّة حاجة إلى شخصية رمزية تجلس على عرشه، وبيأس استدعت السلطات بطلاً من الماضي، رجل أقدار عاد من المنفى لقيادة الجزائر في وقت الحاجة. وكما عاد ديغول من كولومبي لي دوزغليز عاد محمّد بوضياف، وهو من قُدامى حرب ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢ وأحد مؤسّسي جبهة التحرير الوطني، إلى الجزائر. وأبلغ شعبه أنه يتفهّم احتياجاته، كما قال ديغول إنه يتفهّم الجزائريين الفرنسيين، ولن تكون الجزائر جمهورية إسلاميّة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حذّر الزعماء الإسلاميّون الجزائريّون ـ المصعوقون من رؤية الجيش يسيطر على البلاد التي اعتقدوا أنهم سيحكمونها ـ من أنهم لن يتسامحوا مع أيّ محاولة لإلغاء الجولة الثانية من الانتخابات. لكنّ انقلاباً عسكرياً هادئاً جعل الجنرالات وليس السياسيين مسيطرين على الجيش وأُقيمت نقاط التفتيش التابعة للشرطة شبه العسكرية على جميع الطرقات الرئيسية في العاصمة. وتمركزت القوّات وناقلات الجند المصفّحة حول المباني الحكومية ـ مكتب رئيس الوزراء، وزارة الخارجية، مكتب البريد، وزارة المالية، محطة الإذاعة ـ وقامت قوّات الكوماندوس الجزائرية شاهرة الحراب بأعمال الدورية في شوارع العاصمة الجنوبية. وندّد الزعيم النشط للجبهة الإسلامية للإنقاذ الشيخ عبد القادر حشّاني بحكّام البلاد الجدد ووصفهم باللصوص «الذين سلبوا الشعب الجزائري حرّيته». وقال: «يجب أن يقف الجيش إلى جانب الشعب». حتى الشيخ نحناح، الذي أمّن له موقفه المعتدل النجاة من الاعتقال، شعر بأنّ من الضروري القول إن «العنف الأكبر يحصل عندما تهاجم الدولة شعبها». وقال: «إن النظام الجديد ديكتاتوري».

ركبت إحدى سيّارات الأجرة الصفراء في وسط المدينة في أول صباح للديكتاتورية متوجّهاً إلى غرفة رخيصة في طابق أرضي في شارع العربي بن مهيدي حيث يقوم معرض كل جزء منه محزن مثل «متحف الشهداء» الذي يشبه منزلاً مكتظّاً. هنا جرى استبدال بيتهوفن وبرامز بصوت مرتفع عبر مكبّر للصوت يتلو آيات من القرآن. وقد تضمّن عرض للتاريخ المعاصر نظّمته الجبهة الإسلامية للإنقاذ بعض المقارنات المتجهّمة مع متحف آخر على التلّة. هنا تبدو مجدّداً الوجوه المحطمة للقتلى والرجال المضروبين ـ بالألوان هذه المرّة وهؤلاء ليسوا ضحايا حرب ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢ ضدّ الفرنسيين بل عشرات الجزائريين الذين قُتلوا في شوارع مدينة الجزائر على يد القوّات الجزائرية في اضطرابات ١٩٨٨. هناك أيضاً خزانة عرض تتضمّن عيارات نارية والخرطوش الذي أطلقه الجيش الجزائري. وكان مكتوباً بوضوح على إحدى الرصاصات: «المختبرات الفيديرالية المتحدة ـ سالزبورغ، بنسلفانيا ١٥٦٨١ الولايات المتحدة الأميركية».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

لم يكن المصدر الغربي لهذه الأسلحة هو المهمّ ـ مع أن الشعور المعادي للغرب في أوساط الجبهة الإسلامية للإنقاذ كان يزداد يومياً ـ بل نموذج القمع الذي تمثّله. بدا وكأن الحكم الاستعماري الفرنسي أورث الجزائريين القوّة العسكرية وليس الحرّية. ففي ظلّ حكم جبهة التحرير الوطني الديكتاتوري، بعد الاستقلال، مارست قوّات الأمن الجزائرية العديد من عمليات التعذيب المماثلة لتلك التي كان يمارسها أسلافهم الفرنسيون ـ «الكهرباء بتهذيب شرقي» كما وصفها لي أحد الضحايا ـ وقد تعلّم الفرنسيون أنفسهم كيف يجعلون الرجال والنساء يتكلّمون في أقبية الغستابو خلال الحرب العالمية الثانية. كانت سلالة من الرعب واحدة ستتسع إذا واجهت الجزائر ثورة إسلامية.

كان مؤيّدو الجبهة الإسلامية للإنقاذ يشرحون سبب غضبهم ببساطة. لقد تمّ تشجيعهم على المشاركة في هذه الانتخابات. ولقد ردّد الغرب تكراراً أن السلطة تأتي عبر صناديق الاقتراع أكثر منها عبر الثورة ـ إسلامية أو غيرها ـ وقد لعبت الجبهة الإسلامية للإنقاذ بأمانة البطاقة الديمقراطية، والتزمت بالقوانين ـ وارتكبت خطأ كسب الانتخابات. لم يكن ذلك ما يريده النظام أو مؤيّدوه الغربيون.

كانت فرنسا مسرورة بمنع كابوس الكارثة الإسلامية على الساحل الجنوبي للمتوسّط. ولم يكن الأميركيون راغبين في رؤية ثورة إسلامية أخرى تسير على خُطى إيران. فهذا كثير بالنسبة إلى الديمقراطية.

بالطبع، لم يكن الأمر بهذه السهولة. وذلك أن الجبهة الإسلامية للإنقاذ تصرّفت بدون مسؤولية. فقد أدّت مطالبتها المتكرّرة بجمهورية إسلامية إلى حصولها على تأييد ٢٦ مليون جزائري عليها تمثيلهم عندما تتسلّم السلطة. ويمكن أن يكون تسليمها بمبدأ العدالة ـ وإيمانها غير القابل للنقاش بخطّها الإسلامي بكل قوانينه الشرعية الاجتماعية ـ رائعاً، وكذلك تمسّكها بالتاريخ. وقد أبلغني رجل دين شابّ من الجبهة الإسلامية للإنقاذ خارج مسجد باب الواد: «كل شهدائنا ضدّ الفرنسيين ماتوا من أجل الإسلام. كانت حرب الاستقلال نضالاً إسلامياً». وكانت هذه عقيدة بويعلي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في الواقع، لم يكن الكيان السياسي للجزائر مهدّداً بالطريقة المثيرة للشفقة التي أظهرها الشاذلي بن جديد في مقابلته التلفزيونية. فقد كان الدستور الجزائري مصمّماً بحيث أنه حتى لو سيطرت الجبهة الإسلامية للإنقاذ على البرلمان فلن تكون قادرة على الاستيلاء على الحكم. لأن الرئيس كان هو من يختار الوزراء ـ والوزراء هم مَن يحدّدون البرنامج السياسي. وإذا رُفض البرنامج مرّتين من قِبل المجلس النيابي، تجرى انتخابات عامّة جديدة. بعبارة أخرى، تستمرّ الحكومة نفسها ـ التي يؤيّدها الجيش ـ في السيطرة على الجزائر. ولذلك لم ترغب السلطات مرّة أخرى في التفاوض مع المعارضة. وذلك أنهم لا يريدون الديمقراطية إلا إذا استطاعوا أن يكونوا هم الرابحين. وأرادوا سجن مناوئيهم مؤقّتاً. وبعد ثلاثة أيام من إعلان الحكم العسكري، أعلنت الجبهة الإسلامية للإنقاذ أن الجيش اعتقل ٥٣ من أعضائها ـ بمن فيهم ثلاثة نجحوا في الجولة الأولى من الانتخابات ـ.

تبنّى حشّاني بذكاء الدور الدستوري، مقترحاً أن يشكّل كل النواب البالغ عددهم ٢٣١ ـ بمن فيهم ١٨٨ عضواً من الجبهة الإسلامية للإنقاذ انتخبوا في كانون الأول/ديسمبر في الجولة الأولى ـ مجلس نوّاب متوازناً وقال: «يجب البدء بعمل سياسي»، غير أن كلمات حشّاني تم تجاهلها بظهور عمّار براميه، وهو رئيس فريق الجزائر الرياضي الوطني، في مؤتمره الصحفي الذي عرض فيه رواية غير سارّة حول اعتقاله والمعاملة السيّئة التي تلقّاها على يد الجيش يوم ١٣ كانون الثاني/يناير. وصرّح بأنه اقتيد إلى وزارة الدفاع في مدينة الجزائر لأنه تم التعرّف عليه في مهرجان للجبهة الإسلامية للإنقاذ، وأُجبر على خلع سرواله قبل تعرّضه للضرب بوحشية. وقال: «هدّدوني باغتصاب زوجتي إذا أبلغت أحداً بما حصل. وأنا أُبلغ ذلك للصحافة حتى يعرف الشعب الجزائري أيّ نوع من الأشخاص يحكموننا».

لكن أيّ نوع من الأشخاص ساندوا الجبهة الإسلامية للإنقاذ؟ من الخارج، تُعتبر مُجمّعات باب الواد السكنية أقفاص عصافير، نوافذها مستطيلة صغيرة محشوّة بأغطية الأسرّة الجافّة والفرش القديمة، ومؤلّفة من ثمانية طوابق، وهي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ثلاثون مجمّعاً تصطفّ جنباً إلى جنب، جدرانها الخارجية متّسخة، ويقطنها أكثر من ٣٥٠٠ شخص يعيش كل عشرة منهم في غرفة. تمشي في الردهات الكئيبة الرمادية، فاقداً السمع من صراخ الأطفال، وتستطيع مشاهدة أسرّة متراكبة من الأرض حتى السقف في كل غرفة كما لو أن السكّان يعيشون في ثُكنات، وهم كذلك من الناحية المنطقية. وقد شُيّدت مراكز شرطة حديثة في الأحياء خارج باب الواد، وأصبحت قوّات الأمن جيش احتلال دائم. فليس مستغرباً والحال هذه أن السكّان هناك لم يعتبروا الجمهورية الديمقراطية الشعبية، شعبية أو ديمقراطية. وكانت شعارات الجبهة الإسلامية للإنقاذ في شهر كانون الثاني/يناير البارد والرطب من عام ١٩٩٢ على كل حائط. تحدّثت إلى صاحب محلّ مُلتحٍ عمره ٣٩ عاماً، يرتدي كنزة رمادية قديمة وينتعل حذاء ـ آثر أن يبقى مجهولَ الاسم في ظلّ القانون العرفي المخيف ـ أشار إلى الشرق باتجاه مطار الجزائر، حيث سيصل محمد بو ضياف رجل حرب الاستقلال الكبير بعد ٢٨ سنة من المنفى في المغرب وقال: «لماذا أنتم الأجانب مندهشون لأنّنا اقترعنا للجبهة الإسلامية للإنقاذ؟ لو كنت في المطار ومعي مسدّس لقتلت بوضياف. كيف يجرؤون على فرض هذا الرجل العجوز علينا بعد انتصارنا الانتخابي؟ ماذا يريد منا؟ لم أسمع عنه أبداً حتى قالوا إنه سيكون القائد الجديد للجزائر». وليس متوقّعاً أن يعرف صاحب المحلّ بوضياف. فقد كان عمره تسع سنوات عندما غادر الفرنسيون الجزائر وأطلقوا سراح بوضياف من السجن.

مع ٧٠ في المئة ممّن هم تحت سنّ الخامسة والثلاثين من مواطني الجزائر البالغ عددهم ٢٦ مليون نسمة ـ ٤٤ في المئة تحت سنّ الرابعة عشرة ـ لا يستطيع سوى ربع السكان تذكّر حرب العصابات ضدّ فرنسا.

لكنّ تحوّل الجزائر نحو الإسلام كان مُلتبساً. فالعلم الجزائري يتضمّن هلال الإسلام، والكلمات الأولى من القرآن مطبوعة فوق البند الأول من الدستور الجزائري. وينصّ البند الثاني على أن «الإسلام دين الدولة». لكنّ الصحوة الدينية التي اختبرها ملايين الجزائريين خلال العقد السابق لا تحمل أيّ تشابه بين الموالاة الشكلية لجبهة التحرير الوطني الحاكمة والعقيدة. وقد ذكر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أعضاء الجبهة الإسلامية للإنقاذ أنهم بدأوا بتطبيق الإسلام فعلياً قبل عشر سنوات ـ عام ١٩٨٢ ـ عندما فرّ بويعلي وبدأ حرب عصابات، وعندما ظهرت مجموعة جديدة من الدعاة الشباب في مساجد الجزائر، وهم رجال رفضوا الحفاظ على التكتّم السياسي في مواجهة سوء الإدارة الاقتصادية للحكم. وفي المقابل أمّن هبوط أسعار النفط والفقر المتزايد للشباب الجزائري صعود الأصولية ـ لذلك رفضت الجبهة الإسلامية للإنقاذ عبارة الأصولية باعتبارها اختراعاً غربياً.

على سبيل المثال، قال لي «عقلي» في «مسجد كابول» في بلكور إن حضور المقاتلين السابقين الذين حاربوا السوفيات في أفغانستان هو السبب في تسمية المسجد باسمه الحالي.. وتذكّر متى بدأت عقيدته الدينية بالتأثير على حياته. «بدأتُ مناقشة الإسلام في أواخر السبعينيّات، في المقاهي والطرقات ـ وأيضاً في الحانات ـ وقد ملأت فراغاً في المجتمع الجزائري. كان شعبنا يزداد فقراً. وكنت أفكّر دائماً في الجمهورية الإسلامية كحلم، وأصبحت حقيقة بالنسبة إليّ. يُبلغنا الغرب أن مشاكل العالم الثالث اقتصادية، لكنني أدركت من خلال الإسلام أن ذلك غير صحيح، وأن على الشعب في الواقع أن يتغيّر».

كان «عقلي» عالم بيولوجيا. ويميّز الافتتان بالعلوم معظم تفكير الجبهة الإسلامية للإنقاذ، وكان كثير من أنصار الجبهة الإسلامية للإنقاذ من المثقفين مهندسين متخصّصين وتقنيّي اتصالات. وبدون استثناء، أفردت كلّ مكتبة في مدينة الجزائر قسماً خاصّاً للأدب الإسلامي، وإلى جانب كلّ قسم هناك رفوف للأعمال العلمية. وكان جميع مرشّحي الجبهة الإسلامية للإنقاذ إلى الانتخابات النيابية في كانون الأول/ديسمبر من المتخرّجين، وخمسة عشر منهم علماء. وفي جمهورية إسلامية جزائرية، ستكون الحكومة على الأرجح بقيادة تكنوقراط وليس رجال دين. وزعم مؤيّدو الحزب أن الإسلام والعلوم ليسا متوافقين فحسب بل متكاملان، فالاثنان يحملان الحقيقة المطلقة والفهم المطلق.

يمكن للعلوم أيضاً أن تُستخدم للتضليل. ففي تموز/يوليو ١٩٩١، هرّبت الجبهة الإسلامية للإنقاذ جهاز ليزر إلى داخل الجزائر بواسطة حقيبة دبلوماسية

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

لسفارة عربية وكتبت ليلاً في السماء على الغيوم فوق المدينة كلمة «الله أكبر»، وزعم العديد من الحاضرين أنهم شهدوا معجزة. لكن لم تكن الجبهة الإسلامية للإنقاذ حزباً رجعياً. ولم يستطع رجل آخر من باب الواد (وهو عاطل عن العمل ومجهول الهويّة مجدّداً، بما أنّه توقّع بحقّ حرباً أهلية واعتقالات واسعة) إخفاء غضبه إزاء محاولات الرئيسيْن السابقيْن بومدين وبن جديد قمع الشعور الديني العميق. قال: «ظنّوا أنهم يستطيعون الحفاظ على ولائنا ببناء المساجد ـ عشرات المساجد في جميع أنحاء الجزائر وجامعات إسلامية أيضاً في مدينَتي الجزائر ووهران. وبدأت زوجة بن جديد تظهر في الصور مرتدية الحجاب قبل أن تختفي من المشهد العلني. لكن أنت لا تحبّ الإسلام بسبب بناء المساجد، وعلينا ممارسة عقيدتنا في حياتنا اليومية. كنّا نجد الشجاعة عندما كان داعية، داعية مناضل، يتقدّم ويتخلّى عن التقيّة في الثمانينيّات. كان اسمه مصطفى بويعلي. وقد قتلته الشرطة».

بويعلي. كان ذلك قبل فترة طويلة من مقابلتي عائلة بويعلي أو إجرائي بحثاً عن حياته. كانت تلك إحدى المرّات التي سمعت فيها باسمه. وكانت الجبهة الإسلامية للإنقاذ قد نفت قيامها بأي دور عسكري. ومع ذلك، كانت هناك تقارير تفيد بأن عدّة خلايا مسلّحة موجودة بشكل حرّاس حول مقارّ الحركة. وقيل إن إحدى المجموعات مؤلّفة من أبناء القبائل الذين قاتلوا في أفغانستان. وثمّة مجموعة أخرى يُعتقد أن اسمها لواء القدس. لكنّ الجبهة الإسلامية للإنقاذ لن تتحدّث عن ذلك.

«لا تستفزّ أحداً، ابقَ هادئاً. لن يحدث عنف»، كان هناك حوالي ٣٠ ألف مصلٍّ في الشوارع الضيّقة، المحطمة، حول مسجد السنّة المصنوع من الخشب وهم يطيعون التعليمات حرفياً بحيث لا يكادون يتبادلون الحديث عندما ينهون صلاة الجمعة. وقد أبلغ الشيخ عبد القادر حشّاني أتباعه ـ كان الألوف منهم جالسين على حُصر في الطرقات وعلى الأرصفة في باب الواد ـ أن خمس مئة شابّ على الأقلّ اعتُقلوا من قِبل الشرطة والجيش. وعلى طول الشاطئ، كان

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

رجال شرطة مكافحة الشغب بخُوَذهم الواقية والهراوات في أيديهم منتشرين منذ أربع ساعات.

ولقد شاهدت شاباً مُلتحياً في الخامسة عشرة من العمر على الأرجح، يصرخ مُحتجّاً بينما كان مسحوباً من ياقته على الطريق السريع خارج مقرّ قيادة شرطة الأمن، وكان كلامه شاكياً وغاضباً. ثم دفعه شرطي شبه عسكري إلى داخل باص صغير ممتلئ بشباب مُلتحين. بدا الأمر وكأنّ الشرطة تحاول استفزاز الحشد الكبير. لكن بالنسبة إلى حشاني فإن تخلّيه عن خطبته سوف يُعتبر انتصاراً لمحمّد بو ضياف. ومع أن هذا كان لا يزال في المغرب، بعد أن تمّ تعيينه رئيساً لمجلس الدولة الجزائري، فقد أعلن أنه لن يسمح «باستخدام الإسلام للاستيلاء على البلاد».... وبالمناسبة كرّر حشاني ـ الذي كان صوته يرتفع من عشرات مكبّرات الصوت عبر الشوارع المتداخلة ـ ادّعاءه أن بوضياف رئيس غير دستوري، زاعماً أنّ المتحدّثة باسم الإدارة الأميركية أعطت موافقتها على النظام الجزائري الجديد.

يبدو أنها المرّة الأولى في التاريخ التي يُعلن فيها اسم مارغريت توتويلر في مسجد جزائري. لقد خطّط نظام جورج بوش العالمي الجديد بعد حرب الخليج لانقلاب بوضياف بُغية منع إقامة جمهورية إسلامية. وهو ما أكّده حشّاني. كان الجمع الساجد باللباس القرمزيّ والأزرق يستمع بصمت مُطبق وبانتباه شديد بحيث كان من الممكن سماع الصلوات من المساجد الأخرى بين كلمات حشّاني التي تتردّد في فضاء المدينة. من خلال مراقبة هذه الآلاف من الوجوه بنظراتها الحادّة والدموع ـ دموع حقيقية ـ التي تتساقط طواعية على وجوههم بينما هم يصلّون، يستطيع المرء السؤال فقط ما إذا كان باستطاعة بوضياف المسنّ مواجهة هذا الهدف الجامع، المخيف والحسّي.

أبلغ بوضياف مواطنيه قبل ساعات قليلة: «الجزائر مهدّدة، سأفعل كل ما بوسعي لحلّ مشاكل الشباب... الإسلام في هذا البلد ملك للجميع، وليس لفئة قليلة... سأدعو الله أن يوحّدنا ويخرجنا من هذه المحنة». لكن في مسجد السنّة، كان جمهور حشّاني يدمدم أيضاً بدعوات مُخلصة. همس أحد مؤيّدي الجبهة

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الإسلامية للإنقاذ بينما كان يراقب شرطة مكافحة الشغب في أسفل الشارع: «الإسلام سينتصر، سوف يموت بوضياف ورجال الحكومة، وسوف يذهبون إلى الجحيم». لم يقل ذلك بمجرّد الكلام بل بتصميم كما لو كان يستطيع تأكيد مصير أولئك الذين يتمنّى زوالهم.

لم يكن جميع أولئك الذين احتشدوا في شوارع باب الواد مؤيّدين للجبهة الإسلامية للإنقاذ. فقد كان على بعض الشرفات المصنوعة من الحديد فتيات بدون حجاب، شعورهنّ طويلة فوق أكتافهنّ وفي معاصمهنّ بعض الأساور. كنّ جريئات يرفضن القبول بما يمكن أن يطلبه منهنّ العديد من الرجال في أحيائهنّ دون وجل في دولة إسلامية. ولقد تجاهلهنّ آلاف الرجال من الجبهة الإسلامية للإنقاذ الذين اختاروا عدم النظر إلى الشرفات، ولم يكترث المصلّون أيضاً عند مغادرتهم بإلقاء نظرة على الجنود المزوّدين بالخُوَذ ودروع مكافحة الشغب أمامهم والذين يقفون قرب حواجز التفتيش ذات الأسلاك الحديدية الشائكة. لقد تمت محاصرة منطقة باب الواد من قِبل قوّات بوضياف وشرطته، بحسب تسمية حشاني، ولكن يبدو كما لو أن سلطة بوضياف الغائبة هي المحاصرَة.

مدينة الجزائر، الجزائر البيضاء. إذا كانت جدرانها البيضاء ملطّخة بالرطوبة الآن، فقد مارست جاذبية غير عادية على كل الذين وصلوا إلى المدينة. كانت شبيهة بمكان كنت تعرفه من عالم سابق. وكانت طرقاتها ذات الطبيعة الجبلية والفيلّات المغلقة والأشجار ـ وحتى رائحة السمك في المسمكة في آخر الرصيف الفرنسي القديم ـ تنتظر كلّها زيارتك. كتب وزير الحرب الفرنسي إلى إمبراطوره يوم ١٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٢٧ بعد الهجوم الخاطف على القنصلية الفرنسية قائلاً: «سيّدي، هناك حرب مع الجزائر. كيف يمكن أن تنتهي بطريقة مفيدة ومجيدة لفرنسا؟». كانت الجزائر دائماً مدينة مُستولى عليها أكثر من كونها محبوبة من قبل الذين لا يملكونها. وبعد أن سيطر جيش بن بلّا المنتصر عام ١٩٦٢، هاجم قلب هذه المدينة المتوسّطية الناعم بتشييد الأبنية الإسمنتية من الطراز الاشتراكي والمكاتب الواسعة التي تهزأ من باريس الصغيرة، وسط جادة هوس في المدينة القديمة التي استثمرها الفرنسيون طيلة ١٣٢ سنة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يذكّرني التجوال في أنحاء المدينة القديمة بتلك الزيارة الأولى التي قمت بها لفرنسا مع بيل وبيغي عام ١٩٥٦. آنذاك كانت شوارع القرن التاسع عشر الفخورة الجامدة، والشوارع المليئة بالحُفر، والسيّارات المبعّجة، ومجاري الصرف الصحّي المهترئة والنتنة، ومحطّات سكّة الحديد بجدرانها الحجرية المقطّعة وسقوفها المرتفعة الشديدة الانحدار وأيضاً عربات سكّة الحديد الرخيصة غير المطليّة بجوانبها المعدنيّة الفضّية المحزّزة، مرآةً لمدن المقاطعات الفرنسية في أواخر الخمسينيّات، المزيّنة فقط ببيوت ما بعد الحرب، تلك الحرب الرديئة التي خاضتها الجمهورية الرابعة. بدا الأمر تقريباً وكأنّ الزمن توقّف عندما كان المليون جزائري فرنسي من ذوي الأقدام السوداء يتكدّسون كالقطعان على متن طائرات شركة عبر الأطلسي المصادرة على عجل والتي نقلتهم إلى فرنسا قبل ثلاثة عقود. في فندق السان جورج، كان المضيف يصل كلّ صباح حاملاً إفطاراً فرنسياً تقليدياً مؤلّفاً من عصير برتقال وكرواسّان وإبريق فضّي من القهوة. لكن لا يأتي العصير الآن من بساتين البلاد المثمرة وإنما من عُلبة إيطالية بديلة، ومذاق الكرواسان مثل الكرتون والقهوة لا طعم لها البتّة.

ربّما كان هذا ما يحصل عندما تصبح حضارة بلد محصورة في صناعة مدنية لم تعد تملكها.

لا تزال المكتبات تبيع أعمال زولا وجيد وكامو، وهذا الأخير من ذوي الأقدام السوداء، وقد كتب روايته المميّزة «الغريب» في الجزائر. ولا يزال بعض كبار المؤلّفين الجزائريين يكتبون بالفرنسية، وبشكل نموذجي. وكتب أكثر المؤلّفين شهرة، رشيد ميموني، أحدث رواياته «مشقّة العيش»، Une peine à vivre، في منفاه الطوعي في فرنسا، وتدور الرواية حول الديكتاتورية وحبّ السلطة وقوّة الحبّ.

قُم بزيارة لمطعم «برنيه» في شارع «بوردو» تجد الزبائن يناقشون رعبهم من الحكم الديني وخوفهم على ديمقراطيّتهم المقصومة الظهر، على الطريقة الباريسية الفرنسية. ولائحة الطعام باللغة الفرنسية وليس العربية، والصحن اليومي ستيك بالفلفل. والنبيذ الأحمر المفضّل جزائري، واسمه مشروب الرئيس

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

Cuvée du Président، الذي اتخذ معنى جديداً منذ استقالة بن جديد . كان الصحفيون من صحيفة Algérie Actualité، وهي واحدة من ثلاث وسبعين صحيفة جزائرية جديدة ـ تُطبع كلّها في مطبعة حكومية ممّا يجعل من السهل إغلاقها ـ محتشدين حول طاولة يدخّنون ويشربون البيرة. وهم ينظرون إلى خطر الجبهة الإسلامية للإنقاذ بافتتان المثقّفين. وإحدى توريات هذا الحزب أنه يستخدم الحروف الأولى لاسمه بالفرنسية (FIS).

قال رئيس تحرير الصحيفة زواوي بن عمادي: «هناك أمر واحد عليك فهمه حول الجبهة الإسلامية للإنقاذ. إن الحركات الإسلامية هي وحدها القادرة على تحطيم أنظمة الحكم القائمة في العالم العربي. لكن مَن هم هؤلاء الناس؟ ما هي هذه الملابس الغريبة التي يرتدونها؟ إنهم يُطلقون لحاهم ويعتمرون الطواقي البيضاء ويرتدون سراويل قصيرة ليظهروا ولاءهم لجبهة الإنقاذ الإسلامي. لكن لدينا ملابس وطنية جميلة في الجزائر. لدينا البُرنس، والجلباب الحريري الكبير. من أين جاء هذا اللباس الغريب الخاصّ بهم؟» كان بن عمادي، رجلاً قصيراً، كستنائيّ الشعر يلبس نظّارة كبيرة، وهو حليق الذقن، يرتدي سترة رياضية ويضع ربطة عنق، ويبدو شبيهاً باشتراكيّ فرنسي. وعندما عاد إلى مكتبه الكائن في مبنى من القرن التاسع عشر على بعد مئة متر من المطعم تنمّ سقوفه العالية وطلاؤه الأصفر اللامع وأرضه الفُسَيفسائية المحطّمة عن نوع من الذوق الرديء، أحضر له محرّر ثانوي الطبعة الأولى لافتتاحية اليوم التالي وتفحّص بن عمادي النسخة بتركيز رجل دين. كتب: «من يوم إلى يوم، يفترض أن يصبح الريف الجزائري «الجزائر المعادية للبربر على الطريقة الأفغانية»، علينا تغيير ملابسنا، وعادات طعامنا، وتقاليدنا، بما في ذلك طُرق دفن موتانا... والنتيجة: هروب بالجملة للطبقات الوسطى، من الذين قدّموا خدمة كبيرة لحياتنا الوطنية».

زرت مسجد القبّة أثناء صلاة الجمعة ووجدت الأجوبة عن بعض أسئلة بن عمادي. صحيح أن الجبهة الإسلامية للإنقاذ ضدّ الكحول، وضدّ الغناء في الأعراس، وضدّ تناول المعزّين أطعمة خاصّة في اليوم الأول والسابع والأربعين

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بعد الموت، وضدّ تلاوة صلوات في المآتم. وصحيح أن الجبهة الإسلامية للإنقاذ طوّرت نمطاً من اللحى والسراويل القصيرة. ومن المفترض أن ترمز هذه الأخيرة إلى رغبة المسلم الصالح في الوضوء قبل الصلاة من دون أن يمسّ الماء أسفل الرداء. لكن تلاحظ على رؤوس المصلّين بينما هي ترتفع وتنخفض مئات القبّعات الأفغانية، تلك القطعة من القماش الملفوفة التي تغطّي رأس المقاتلين المجاهدين. وبالنسبة إلى الارتباط الأفغاني ـ الملاحظ وغير المعترف به بشكل كافٍ من قِبل بقيّة الجزائريين ـ فهذا أمر حيوي لإظهار التعاطف مع الإسلاميين.

اركبْ سيّارة أجرة في باب الواد ترَ المغزى واضحاً، للسائق وأصدقائه لحى. وتروي أحاديثهم الارتجالية القصّة. قال السائق: «أردنا الذهاب إلى أفغانستان للقتال. إن الغالبية هناك من المسلمين السنّة وليس من المسلمين الشيعة. والأهمّ أنهم يحاربون، يريدون دولة إسلامية. إن الحزب الإسلامي جيّد جدّاً.

نريد القتال لصالحهم. لقد ذهب عدّة مئات من أصدقائنا إلى أفغانستان للقتال. والآن تحاول حكومتنا منعهم، وجرى اعتقال جزائريين وثلاثة فلسطينيين في مطار الجزائر لدى عودتهم من أفغانستان. من السهل الذهاب إلى أفغانستان. نذهب إلى ذلك المبنى للحصول على تأشيرات». كنّا في جادة سويداني بو جمعة، نمرّ قرب مكتب سيّىء الطلاء عليه لوحة حديدية غير مطليّة مكتوب عليها: «سفارة باكستان».

اشتكى قلب الدين حكمتيار، زعيم الحزب الإسلامي، من فتور حماس الحكومة الجزائرية المفاجئ تجاه حركته. لكنّ الخطر الحقيقي لحرب الجبهة الإسلامية للإنقاذ في أفغانستان ليس دينياً. وإنما هو التعلّم من جمهورية إسلامية فعلية. والأكثر جدّية أن شبابهم يتعلّمون كيفية القتال. في أفغانستان، يتعلّمون استخدام رشّاشات الكلاشينكوف، ومدافع الهاون وحتى الدبّابات ـ يمكنهم تعلّم قيادة دبّابات T55 وT62 أنواع الدبّابات نفسها التي يستخدمها الجيش الجزائري.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

صرخ رجل جبهة التحرير الوطني المسنّ: «فاشيّون». إنه رجل لطيف ولا يراوده الشكّ حول ضرورة حرمان الجبهة الإسلامية للإنقاذ من مكسبها القوي، ألا وهو انتصارها الديمقراطي الحقيقي في الجولة الأولى من الانتخابات. نجلس الآن إلى مائدة طعام، ونتحدّث إلى رجال ليست لديهم هواجس أخلاقية حول وقف محرّك الديمقراطية من أجل مصالح النظام العامّ. شربنا النبيذ الأحمر، وكان لديهم عصير برتقال. وتم تقديم الطعام ـ الشوربا الجزائرية ـ من قِبل مضيفين يرتدون بدلات. كان مضيفونا يتكلّمون الفرنسية بطلاقة، وبدأت كلماتهم تنساب ببطء عندما أصبحوا أكثر غضباً. قال رجل جبهة التحرير الوطني العجوز: «تريدون الحديث عن الديمقراطية ـ كان طالباً عند بدء حرب الاستقلال ـ لكنّ هذا ليس درس فلسفة بالنسبة إلينا. إذا وصلت الجبهة الإسلامية للإنقاذ إلى السلطة سوف تنشب حرب أهلية في الجزائر. سوف يحدث حمّام دم رهيب. علينا التعامل مع مشكلة حقيقية. يمكن أن تفكّر كم هو رائع أن تقوم جمهورية إسلامية في الجزائر. ويا له من أمر ديمقراطي! لكن لا يمكننا السماح بحصول حرب أهلية. لدينا مسؤولية تجاه بلدنا وتجاه شعبنا».

تنقّل مرافقه الشابّ عبر معادلات هذا المبدأ. «فمن أصل ٢٦ مليون جزائري، حصلت الجبهة الإسلامية للإنقاذ على ٣,٢ مليون صوت فقط في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩١. كان هناك مليون ورقة انتخاب غير صحيحة ومليون أخرى تعبّر عن تراجع في الأصوات. ففي الانتخابات البلدية عام ١٩٩٠، حصلت جبهة الإنقاذ الإسلامي على ٤,٣ ملايين صوت. ألا يمكننا لهذا السبب رؤية مدى انخفاض التأييد؟ فمن أصل ١٣ مليون ناخب مسجّل، شكّل انتصار الجبهة الإسلامية للإنقاذ في كانون الأول/ديسمبر ٢٣ في المئة فقط من مجموع السكّان. كيف كان يمكن السماح لهم بكسب جولة ثانية من الانتخابات؟ يريد هؤلاء الناس جمهورية إسلامية حقيقية وشعبنا لن يقبل ذلك. سيكون رجال الجبهة الإسلامية للإنقاذ ديكتاتوريين. إنهم يستخدمون أسلوب النازيّين».

إنّها تورية مطلقة ورهيبة. والوضع معكوس في بقيّة العالم العربي. ففي مصر، والأردنّ، وسوريا، إن النخبة الليبرالية الديمقراطية هي التي تندب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الافتقار إلى الديمقراطية في بلادها، وجموع الكادحين المسلمين الواسعة التي تعاني من تبعاتها بصمت. في الجزائر عام ١٩٩٢، كانت حركة شعبية إسلامية هي التي طالبت بالديمقراطية بينما كانت الطبقة الوسطى المثقّفة تطرح أسباباً معقّدة لوقفها. كانت المأساة أن بو ضياف ربّما كان على حقّ. فلم تظهر الجبهة الإسلامية للإنقاذ أيّ رغبة في التسامح مع ملايين الجزائريين الذين لا يرغبون في إقامة في جمهورية إسلامية، وهم من الطبقة الوسطى المولعة بكل ما هو فرنسي ولا يستطيع العديد منهم التحدّث بالعربية بطلاقة، ومن سكّان المدن من النساء المتحرّرات ومن جماعات المسلمين البربر ـ ٢٥ في المئة من السكّان ـ الذين يتحدّثون اللغة الأمازيغية وليسوا عرباً.

يوم ٢٣ كانون الثاني/يناير، قدّمت محطّة الإذاعة الثالثة الجزائرية للموسيقى الشعبية صورة مُنصفة لسياسة الحكومة. كان الخبر الأول في نشرة أخبارها التي تُذاع كلّ ساعة، الطلب الدولي الذي قدّمه رئيس الوزراء للحصول على ٨ مليارات دولار من القروض لتخفيض البطالة في البلاد البالغة ٢٠ في المئة ولدعم الموادّ الغذائية. وبعد الحدث مباشرة، ورد خبر قصير حول اعتقال عبد القادر حشّاني. كانت خطّة الحكومة واضحة. تشجيع الشعب، والحديث عن أوقات اقتصادية جيّدة قادمة، وإيلاء قمع الجبهة الإسلامية للإنقاذ اهتماماً ثانوياً، نتيجة غير سارّة وضرورية لغباء هذا الحزب في كسب ١٨٨ مقعداً في المرحلة الأولى من الانتخابات.

وعلى أيّ حال فقد جرى اعتقال حشّاني بناء على أوامر الجنرال خالد نزار وزير الدفاع بسبب دعوته الجيش الجزائري إلى التمرّد ضدّ الحكومة.

لقد فعل حشّاني ذلك قبل يومين فقط من اعتقاله. وقد تسلّمتُ نسخة عن الدعوة العاصفة الموجّهة إلى «الجيش الشعبي الوطني» والموقّعة بخطّ يد حشّاني. واستناداً إلى قانون الطوارئ، تحرّكت قوّة الشرطة والجيش إلى داخل مكاتب صحيفة «الأخبار» اليومية التي نشرت النداء الرسالة واعتقلت الصحفيين العاملين في الصحيفة. وجرى اعتقال حشّاني شخصيّاً من قِبل رجال شرطة باللباس المدني بينما كان يقود سيّارته في حيّ بلكور في مدينة الجزائر ونُقل إلى

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

سجن بليدا لينضمّ إلى عبّاسي مدني وعلي بلحاج الزعيمين الرئيسيين للجبهة الإسلامية للإنقاذ. في تلك الأثناء، أعلن رئيس الوزراء سيّد أحمد غزالي أنه لن يسمح في المستقبل بأيّ خُطب ذات طابع سياسي في مساجد البلاد ولن يسمح بتظاهرات في محيط المساجد. وكالعادة، كانت هناك سوابق تاريخية وراء هذه الاعتقالات الأخيرة. ففي عام ١٩٣٠، قامت فرنسا بحلّ أوّل مجموعة استقلالية جزائرية في القرن العشرين ـ نجمة شمال أفريقيا ـ التي سمّى زعيمها مصالي الحاجّ نفسه «الوطني الإسلامي» وأصدر صحيفة أسماها «الأمّة» للتبشير بـ «الصحوة الإسلامية». وقد جرى سجن الحاجّ لمحاولته إعادة تشكيل جمعية منحلّة وحُكم عليه لاحقاً بالسجن سنة في سجن فرنسي «لتحريضه الجنود على عصيان الأوامر بُغية خلق فوضى».

يتحدّث الناطق باسم الحكومة الجزائرية يومياً عن الهدوء والأمن. وفي الشوارع، يتحدّث أصحاب المحلّات عن الانفجار القادم. شعرنا جميعاً باليقين المطلق أنك لا تستطيع إلغاء الديمقراطية دون إثارة العنف. يوم ٢٠ كانون الثاني/يناير، قُتل عريف في الدرك الجزائري. كان العريف عمّاري عيسى (٤٣ سنة) متزوجاً وأباً لأربعة أولاد. وقد قامت جموع الشباب بإلقاء الحجارة على نقاط التفتيش العسكرية خارج مدينة الجزائر وكان على الجنود إطلاق عيارات تحذيرية في الهواء لتفريقهم. وعندما طلبت بعض الإيضاحات حول موقف الحكومة أجاب أحد المسؤولين إجابة فظّة قائلاً: «أيّ إنسان يستطيع قتل شرطي. الناس يقتلون الشرطة من نيويورك إلى نيبال. إنه عمل إجرامي وينعكس على أيّ حال بشكل سيّىء على الجبهة الإسلامية للإنقاذ. في كلّ مرّة يُقتل شرطي، تخرج قريته في جنازته وينقلب الناس ضدّ الجبهة الإسلامية للإنقاذ». إنها إذاً قضية إجرامية فقط. وليست أمراً لا يمكن حدوثه في الولايات المتحدة. لكن لا أحد يُعلّق الانتخابات في أميركا. والعريف عيسى لم يُقتل من قِبل المافيا. وخلال ثلاثة أسابيع، حصلت مواجهات طيلة سبعة أيام بين الشرطة ومؤيّدي الجبهة الإسلامية للإنقاذ ـ يُعتقد أن خمسين شخصاً قُتلوا خلالها وجُرح مئتان ـ مما دفع مجلس بو ضياف الذي يسيطر عليه العسكريون إلى إعلان حالة الطوارئ. وفي أزقّة مدينة الجزائر، انتشرت دعوات سرّية إلى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

«حرب مقدّسة» ضدّ سلطة بو ضياف. وكانت قيادة جبهة الإنقاذ الإسلامي في غالبيتها قد أصبحت قَيد الاعتقال، وتمّ إغلاق المقرّ الرئيسي للحزب في مدينة الجزائر واعتُقل حوالَي ستّين من أئمّة المساجد.

حصل الانهيار بأسرع ممّا توقّعنا. وفي مكان ما من مدينة الجزائر يوم ١٥ شباط/ فبراير ١٩٩٢، وسط منزل هادي بوزناد المحروق ـ بين ملابس النوم النظيفة والأسلاك الكهربائية المحترقة، والدرج الحجري المشوّه ـ كانت تكمن الحقيقة. كانت النساء الجزائريات المحجّبات يبكين في الأزقّة الضيّقة خارج المنزل وهنّ على يقين من أنهنّ عرفن ما حدث. لذلك كان ابن عم هادي بوزناد يحمل فانوساً بيده اليمنى بينما يروي كيف احترق القاطنون الأربعة الأبرياء بصاروخ أطلقه الجيش الجزائري. هذا هو حال الحكومة الجزائرية التي أعلنت أن جنودها هاجموا المنزل فقط لأن طلقات نارية أُطلقت عليهم من المبنى. يمكنك رؤية المشاهد نفسها في بلفاست أو الضفّة الغربيّة، لكن تداعياتها في مدينة الجزائر أكثر خطورة، لأن التناقضات بين الحقائق هنا ترمز إلى الهوّة بين الشعب والحكومة الخائفة من الحرب الأهلية. هل يصدّق الناس أن هادي بوزناد وأصدقاءه كانوا شهداء أم إرهابيين؟.

يقع منزل بائع الفاكهة في وسط المدينة حيث تنساب الدرجات الحجريّة المتعرّجة بين الجدران الخشبية والطينية وحيث تقود الممرّات الضيّقة إلى المنازل ذات القُبب القديمة المدفونة بين الطبقات المسكونة بحيث تبدو تقريباً تحت الأرض. لا أحد يجادل في أن خمسة رجال كانوا في المنزل في الساعات الأولى من اليوم السابق. ولا أحد يجادل في أن المظلّيين الجزائريين ـ شاهد الجيران قبّعاتهم الحمراء في الظلمة ـ كانوا يحاصرون منزل هادي بوزناد الصغير في وقت ما بين الساعة الثانية والثالثة بعد منتصف الليل.

هنا، مع ذلك، تصبح الحقيقة مراوغة نوعاً ما. قالت الحكومة إن الجنود وقعوا في مرمى النيران من المبنى، لكنّ المدخل منخفض جدّاً بحيث لا يظهر من أقرب ممرّ ولا توجد نوافذ مواجهة للممرّ الوحيد الذي يمكن أن يسلكه الجنود. هناك فجوة فوق الباب، ناتجة على ما يبدو عن قذيفة صاروخية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وكانت الحكومة مسرورة بالإعلان أن خمسة مناضلين من الجبهة الإسلامية للإنقاذ قتلوا في الداخل.

حدّد طريقك في الظلام على الدرجات الحجرية في الداخل وفي غرفة تضمّ عدّة أسرّة بعضها فوق بعض تجدْ ابن عمّ هادي بوزناد. لا أسماء متوفّرة لدى الشاب الملتحي، المفكّر الذي وصل عند الصباح. قال: «كانوا جميعاً أبرياء. لم يحصل أيّ إطلاق نار. كان الرجال نياماً. لقد تزوّج ابن عمّي مؤخّراً وزوجته حامل في شهرها الرابع. عندما وجدنا القتلى كانوا مشوّهين. لقد احترقوا كلّياً». كانت هناك مراسلة إذاعة فرنسية، وضعت المذياع أمام وجه ابن العمّ وسألت بحدّة: «هل تقول الحقيقة؟».. لستُ متأكّداً أنه كذلك، لكن ليست هذه طريقة يُعامل بها رجل فقد قريبه للتوّ. والوقت غير مناسب لكي يمارس الصحفي فنّ التحقيق القاسي هنا في منزل القتلى.

لكن لا أحد يستطيع تفسير لماذا لم تكن الزوجة الحامل والقريبات الأُخريات في المنزل في ذلك الوقت. وصل رجل آخر، صهر هادي. قال: «كان بإمكان السلطات أخذهم أحياء. كان المنزل محاصراً. لكنّ الجنود اقتحموه وقتلوا رجلاً في الممرّ ثم ألقوا قنبلة داخل الغرفة. كان اثنان من الرجال القتلى ممدّدين على الأرض. كانوا جرحى سابقاً». جرحى سابقاً؟ هل كان هذان الرجلان بين المهاجمين الذين قتلوا ستّة رجال شرطة في المدينة الأسبوع الماضي، وجُرح أحدهم على الأقلّ عندما هرب؟ «قطعاً لا»! قال الصهر على الفور: «جُرحوا خلال التظاهرات» لكنّ الجنود عرفوا بوضوح أن الجرحى كانوا هناك. لقد تعرّضوا لخيانة. وأقرّ الصهر بأسف «أنّ أحدهم أبلغ الجنود بأن الجرحى كانوا هنا». ثم وصل الرجل الملتحي، وقال بصوت رقيق، خطير: «كان انتقاماً من قِبل الجيش، عندما دخلوا المنزل، صاح أحد الجنود: سنفعل بكم ما فعلتموه بنا في غيمار. وهي المركز الحدودي حيث قتل المسلّحون المسلمون أكثر من ١٥ جندياً جزائرياً عام ١٩٩١. كانت المسألة واضحة بالنسبة إلى الرجل الملتحي الواقف في الظلّ متمتماً بعبارة انتقام: «بالطبع كان بإمكانهم أخذهم أحياء. لكن أرادوا قتلهم جميعاً بمن فيهم الجرحى. لا يمكننا أخذ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

جرحى مُلتحين إلى المستشفى لأنهم سيُعتقلون ويُعذبون. لذلك كانوا مختبئين هنا».

في الخارج، في الأزقّة، تجمّع العديد من النسوة وهنّ يبكينَ بهدوء، وانضمّ إليهنّ عشرات من الشباب الحذرين. شقّ التاريخ طريقه بلطف نحونا، كما بدا دائماً في الجزائر، وسأل أحدُ الرجال إذا كنّا نعرف مغزى هذا المنزل، فعلى بعد ثلاث مئة متر فقط في الشارع الرهيب نفسه، يقع منزل «شهداء» آخرين. ففي ذلك المنزل الآخر فضّل مقاتلو جبهة التحرير الوطني ـ بمن فيهم الهارب علي لابوانت بطل معركة الجزائر ـ وبعض أطفالهم التحوّل إلى أشلاء على يد المظلّيين الفرنسيين عوضاً عن الاستسلام. وفي وقت مبكر من صباح ١٤ شباط/فبراير ١٩٩٢، عاد حُماة من جنسية مختلفة إلى المدينة ووِلِدت أسطورة أخرى.

لا أحد اكتشف كم من الملائكة يمكن أن يرقصوا في طرف المشبك. لكنّ سؤالاً مُلحّاً رمى بثقله بين مؤيّدي الجبهة الإسلامية للإنقاذ يوم عاد بوضياف إلى الوطن: كم من الوقت تستغرق حلاقة لحية رجل؟ في صالون حلاقة عليّ في آخر شارع رحموني الطيّب، يستطيعون حلاقة ذقن إسلامي في خمس دقائق. لكن كما قال لنا المالك ابن الخمسة والسبعين عاماً، يتحدّث رجال الجبهة الإسلامية للإنقاذ كثيراً أحياناً خلال الحلاقة الضرورية. وهذا يمكن أن يطيل مدّة الحلاقة إلى عشر دقائق لكنها تكلّف ١٥ ديناراً جزائرياً فقط، أي حوالي ٦٠ سنتاً أميركياً، وهي جديرة بالسعر لتجنّب الاعتقال العشوائي والسجن. من أجل ذلك فإنّ الرجال الشجعان وحدهم هم الذين احتفظوا حتى الآن باللحى الطويلة التي كانت حتى أسبوع مضى رمزاً للجبهة الإسلامية للإنقاذ. وهكذا كانت للتغيير الجذري تبعات سياسية خطيرة ـ وحتى عسكرية ـ بالنسبة إلى الحكومة الجزائرية. فمن خلال حلاقة ذقونهم، تحوّل الإسلاميون إلى العمل السرّي.

يكمن الدليل على أرض عليّ، كومة من الشعر البنّي والأسود الكثيف، سجّادة من الفرو البشري، الذي يلقيه بسرعة في الزبالة بمِقشّة صناعية. كان عليّ يخشى إعطاء اسم عائلته لكنّه كان فخوراً في الإعلان عن عمله بينما كان واقفاً أمام محلّه حيث كانت قطّتان رماديّتان تصدران خريراً تحت ضوء الشمس. لم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تلعب صنعته أبداً دوراً بارزاً من قبلُ في سياسات الجزائر. قال: «حلاقة ذقن تشبه قيادة الطائرة» أو... ـ وهنا بدا مزيج من السخرية والمكر في ابتسامته ـ أن الأمر يشبه كتابة مقال. توجد المهارة بأيدينا. أقوم يومياً بحلاقة خمس ذقون مع أنني لم أستطع فتح المحلّ يوم الجمعة الفائت بسبب إطلاق النار. لكنّ معظم هؤلاء الناس يحلقون لحاهم في المنزل». بحكمة أيضاً. ولكن بالنسبة إلى الاستخبارات الجزائرية فإن زوال اللحية خلق مشكلة أخرى، فمن أجل التسكّع في الشوارع زيّن معظم عملائهم وجوههم بلحى طويلة. ومنذ أسبوع تقريباً اشتهر عميل أمن مُلتحٍ يرتدي قميصاً طويلاً بأنه قبض على إمام جامع قرب مسجد باب الواد. وفي مركز الشرطة المحلّي قام العميل بحلاقة النصف الأيمن من لحية الإمام مضيفاً ـ استناداً إلى الداعية ـ «سوف نقبض عليكم جميعاً في النهاية». إنه عمل واعد الآن فحلّاقي الجزائر العاصمة حصلوا على أرباح إضافية.

طُلب من سكّان مدينة الجزائر القيام بترحيب صاخب بالمبذّر العائد. لكن عندما وصل محمّد بو ضياف الطويل، والضعيف والمسنّ، إلى المطار الذي يحمل اسم خصمه السابق والمكروه هوّاري بومدين، كان هناك عدد قليل من سائقي سيّارات الأجرة، والصحفيين ومسؤولي جبهة التحرير الوطني لاستقباله. وجاءت إشارة الحماس الوحيدة من ثلاث مجموعات من البربر في لباسهم البنّي التقليديّ وقفوا على مقربة من قاعة الوصول وضربوا بفرح على الطبول أمام عيون الشرطة السرّية. تم اقتياد بوضياف عبر الشوارع الخالية إلى مكتب الرئاسة الخالي حيث قبل المنصب غير الدستوري لرئيس مجلس الدولة ويده على القرآن. وقد وعد بمتابعة ما أسماه «المسار الديمقراطي» من دون أن يشرح كيف يمكنه القيام بذلك في حين لم يعد العمل الديمقراطي ـ مثل الرئاسة والبرلمان ـ موجوداً.

طُرحت الأسئلة من قِبل الصحافة على متقاعد مسنّ عمره ٧٢ سنة، كان حتى شهر مُنصرم صاحب مصنع طوب مغربي.... و طيلة ساعتين، أثبت محمّد بوضياف صلابته: رجل أعقف الأنف، امتصّ أضواء الكاميرات مثل نور

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الشمس، معنّفاً الصحفيين الذين تجرّأوا على الحديث عن القمع، داعياً الدول الغربية لمساعدة الجزائر في وقت الحاجة. وندّد بأسلافه في الحكم، طالباً الخضوع للقانون، واعترف بسجن ستة آلاف شابّ جزائري على الأقلّ في معسكرات اعتقال صحراوية ـ عمل آخر منسوخ عن الاعتقال في أيام الاستعمار الفرنسي ـ وزعم أن احترام الديمقراطية يجب أن لا يؤدّي إلى دمار الديمقراطية(*).

وخلال أربعة أيام، قُتل خمسون متظاهراً إسلامياً على يد الشرطة في المدن الجزائرية. وقد سُجن عبدالقادر مغني، أهم مرشّحي الجبهة الإسلامية للإنقاذ، وكان قد انتخب في كانون الأول/ديسمبر، وهو الرجل الذي ربّما كان قادراً على إعادة مناقشة موقعه في المؤسّسة السياسية، وحتى الحديث مع الحكومة.

لكن بوضياف لم يكن راغباً في الحديث مع الجبهة الإسلامية للإنقاذ . كان هناك شكّ متزايد في الجزائر أن مجلس الدولة يفضّل دفع الجبهة الإسلامية للإنقاذ نحو ثورة مسلّحة ـ وهكذا يثبت أن الحزب لم يكن مهتمّاً أبداً بالسياسات الدستورية وأن إلغاء انتخابات كانون الثاني/يناير منع انقلاباً من قِبل الإسلاميين لا من قِبل الجيش. بالتأكيد بدأ يظهر العديد من مجموعات

(*) ليست هناك لغة تحمي السياسيين من التجاوزات الوهميّة عن الديمقراطية والإسلام. وأترك للقرّاء اكتشاف الأكاذيب في المقتطفات التالية من المؤتمر الصحفي لبو ضياف في مدينة الجزائر في ١٦ شباط/فبراير ١٩٩٢ ـ الذي أجراه بالعربية والفرنسية ـ وأيضاً تفاؤله الوهمي وعدم فهمه لما دفع العديد من الجزائريين لدعم الجبهة الإسلامية للإنقاذ. قال: «كان من الضروري وقف العملية الانتخابية بهدف حماية الديمقراطية. تمّ إيقاف العملية الانتخابية لأنها أصبحت تمثّل خطراً على الجزائر. لكنّ حالة الطوارئ لا علاقة لها بأيّ تقييد للحرّيات الأساسية. الوضع يتحسّن يوماً بعد يوم. لقد سئمت الجزائر من جماعات الإرهاب والشكّ... في الإسلام، التسامح والتفاهم والاعتدال تتماشى كلّها مع الديمقراطية. لا يستطيع إسلام منغلق يعود إلى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر العمل مع الديمقراطية. في إيران، هل هناك ديمقراطية أم لا؟ أترك ذلك لكم لتقرّروا... الناس لا يُعدمون هنا. إذا اتّبعنا مبدأ الانتخاب، نعدم الجزائر... يجب على الإسلام أن لا يتبنّى التطرّف. يجب أن تكون المساجد مكاناً للوعظ، للراحة والاعتدال. للدين مكانته، لكنّ الديمقراطية هي مسار نحو مجتمع عصري يتضمّن التعدّدية السياسية».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المسلّحين السرّية. ودعت منظّمة سمّت نفسها «الأمناء على العهد» إلى الجهاد، مدّعية أنه استمرار لحرب الاستقلال على طريقة بويعلي. وركّز بو ضياف غضبه على هدفين: الجبهة الإسلامية للإنقاذ والفساد الذي دفع العديد من الجزائريين إلى اليأس من الديمقراطية التي وعِدوا بها. وقد استهزأ منه أوّل أهدافه وقتله الثاني.

وعندما قُتل بوضياف، في ٢٩ حزيران/يونيو ١٩٩٢، فهمنا ذلك جميعاً بشكل خاطئ. كنت في موسكو، جالساً في غرفة الفندق المطلّة على حائط الكرملين بعد عودتي من حرب نغورني ـ كاراباخ على طرف أرمينيا عندما رنّ الهاتف وكان على الخطّ من لندن هارفي موريس الذي كان لا يزال محرّر الأخبار الدولية. قال بحساسيّته المعتادة: «لقد تغلّبوا على بو ضياف. يبدو أن أصدقاءك المسلمين فعلوها». وصدّقته.

في الواقع، اعتقدنا جميعاً عندما سمعنا أن ثلاث طلقات أردت بو ضياف قتيلاً بينما كان يخاطب اجتماعاً عامّاً في مدينة عنّابة الشرقية الجزائرية أن الجبهة الإسلامية للإنقاذ ـ أو مجموعة مسلّحة متعاطفة مع الحركة ـ نفّذت التهديد بالقتل الذي نطق به العديد من المسلمين. وقد أنذرت منظمة واحدة على الأقلّ، هي الجهاد الإسلامي، بأنّ حرباً شاملة ضدّ الحكومة الجزائرية ستبدأ يوم ٣٠ حزيران/يونيو. ووعدت بقتل ألف شرطي وجندي ـ لذلك كتبتُ منذراً في الإندبندنت: «لكنهم ضربوا في يوم مبكر وقطعوا عوضاً عن ذلك البنية الكاملة للسلطة الحاكمة التي أُسّست لتدميرهم».

لم تكن لديّ أيّ شكوك في هويّتهم، ولم أسأل نفسي لماذا لم نسمع أبداً من قبل عن جهاد إسلامي جزائري مع أن الاسم استُخدم من قِبل مجموعات أخرى في لبنان وفي الأراضي الفلسطينية المحتلّة في الضفّة الغربيّة وغزّة. لم أستطع العودة إلى دفاتر ملاحظاتي الجزائرية ـ لأنها كانت في بيروت وكنت في موسكو ـ التي ربّما دوّنت فيها بعض المؤشّرات على معاداة بوضياف، ليس من قِبل الجبهة الإسلامية للإنقاذ فقط وإنما أيضاً من قِبل الأعضاء الأغنياء في السلطة، وحتى في أوساط العسكريين الذين خافوا من حملته المعادية للفساد.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وعندما عدت إلى مدينة الجزائر بعد أسبوعين، اكتشفت فقط أن هناك دليلاً متزايداً على أن الرئيس المسنّ ربّما لم يقتل في النهاية من قِبل الإسلاميين. ففي الأسابيع التي سبقت مقتله، صنع بوضياف أعداء علمانيين أقوياء داخل الجزائر ـ واحد منهم على الأقلّ مرتبط وفقاً للتقارير بالرئيس السابق الشاذلي بن جديد ـ وحتى أرملة بوضياف تعلن الآن أنها لا تصدّق أن الجبهة الإسلامية للإنقاذ ارتكبت الجريمة.

بعد أقلّ من ثلاثة أسابيع على جريمة القتل، أُقصيَ وزير الداخلية الجنرال نزار الرجل الثاني القويّ في مجلس دولة بوضياف ـ من قِبل رئيس الوزراء الجديد بلعيد عبدالسلام لخطأ في الأمن. بعض الخطأ.

قُتل بوضياف على يد أحد حرّاسه، الملازم المبارك بو معرفي. كانت كاميرات تلفزيون الدولة تسجّل خطاب الرئيس لحظة مقتله وأُعلن في الخبر أن بومعرفي عمل وحده. وقد أطلق رصاصتيْن على رأس بوضياف والثالثة في ظهره. وما لم يكن معروفاً في حينه أن حملة الرئيس لمكافحة الفساد أصابت أساساً جنرالاً متقاعداً في الجيش الجزائري ورجل أعمال بارزاً ومعاوناً للشاذلي بن جديد في المدينة الجنوبية تامانراست. وقبل أيام فقط من اغتيال بوضياف، اغتيل ضابط كبير مسؤول عن أحد التحقيقات بشكل غامض.

كذلك كانت هناك شائعات تفيد أن بوضياف ـ على غرار السابقة التي وضعها ديغول في التفاوض مع جبهة التحرير الوطني ـ كان يحاول فتح حوار خاصّ مع المسؤولين المعتدلين في الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

وقد أثبتت زيارة هادئة لأحد المعارف في التلفزيون الجزائري الرسمي أن مقطعاً من تسجيل فيديو مقتل بوضياف حُذف من قِبل السلطات. وادّعى شهود عيان في عنّابة أن أربع كاميرات تلفزيونية منفصلة سجّلت الحادث لحظة الاغتيال. كان المقطع ، الذي شاهده العالم، والذي يمكن رؤية بوضياف فيه يلقي آخر كلماته ثم يقع ميتاً على الأرض والدم على صدره، ملغى. وكان مصدري واضحاً.

صوّرت الكاميرات اللحظة الفعلية للاغتيال واقتطعوا المشهد عندما أصابت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الطلقات بوضياف. وأظهر الشريط دماغه ينفجر عندما أصابته الطلقات في رأسه ـ لا يمكنك عرض شيء فظيع على التلفزيون. وهذا شريط آخر يظهر اعتقال بومعرفي. في هذا الشريط قال بومعرفي أمام الكاميرا: «قتلتُ بوضياف مع علمي بماضيه البطولي وأنه كان رجلاً صالحاً. لكنه لم يفعل ما فيه الكفاية ضِدّ المافيا وعارض خيار الشعب. لا أنتمي إلى أيّ حزب سياسي لكنني أنتمي إلى الحركة الإسلامية». كان بومعرفي واثقاً جدّاً من نفسه، واثقاً ـ تحدّث جيّداً وكان موهوباً ـ بحيث خشيت السلطات أن يصبح بطلاً إذا عُرض الشريط على التلفزيون.

إذا كانت هذه الرواية صحيحة، عندها يكون الإسلاميون متورّطين في اغتيال بوضياف. لكن الظروف المحيطة باعتقال بومعرفي كانت محيّرة ـ خاصّة إذا صدّقت السلطات فعلاً أنه قاتل أصولي ـ وجاء في رواية أخرى أنه استطاع الفرار من قاعة مؤتمر عنّابة وفي وقت لاحق استسلم بهدوء للشرطة. والمستغرب، أن الجيش ـ الذي حاكم زعماء الجبهة الإسلامية للإنقاذ في محكمة عسكرية مصحوبة بدعاية في بليدا بعد أسبوعين ـ رفض تحمّل بومعرفي المسؤولية، وادّعى عوضاً عن ذلك أنه يجب محاكمته من قِبل محكمة مدنية. علماً بأن بومعرفي كان مسجوناً في السجن المدني في عنّابة ـ وهي للمصادفة، موطن الشاذلي بن جديد ـ بينما استطاع الصحفيون المحلّيون الحصول على معلومات قليلة حول حياته. كان عمره ٢٦ سنة. وسرت شائعات أنه كان حارس الرئيس بن جديد. وكان قد تدرّب على عمله ضمن وحدة الأمن الرئاسي من قِبل الدرك الإيطالي Carabinieri.

لم يكن الخوف بادياً على بوضياف في الأشهر التي سبقت اغتياله مع العلم أنه لم يكن محبوباً. وقد فاجأ الرجل المسنّ جبهة التحرير الوطني، وقيادة الجيش التي ساندته في الأساس، عندما أمر في أيار/مايو باعتقال اللواء المتقاعد مصطفى بليوسف الذي أُدين أمام محكمة عسكرية بإساءة استخدام أموال الدولة. كذلك أمر بوضياف باعتقال رجل أعمال مرموق بتهم الفساد. والرجل بحسب ما زعموا كان متورّطاً في التجارة غير المشروعة بالموادّ الغذائية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المدعومة والتهريب. وكان أحد الضبّاط الذين كُلّفوا إجراء التحقيق ملازماً في قوّات الأمن، وقد اغتيل في أحد شوارع الجزائر قبل أيام فقط من اغتيال بوضياف.

وصف معلّق صحفي جزائري اغتيال بوضياف «بالمخرج الجزائري» وألمح إلى أن تفاصيل مقتله ربّما طُمست مثل اغتيال المرتدّين في جبهة التحرير الوطني محمّد قدير الذي قُتل في أحد شوارع مدريد عام ١٩٦٧، وكريم بلقاسم الذي قُتل خنقاً في فرنكفورت عام ١٩٧٠. وذكّر ليث زغلاني في صحيفة «الوطن» اليومية بأن تفاصيل مقتل وزير الخارجية الجزائري محمّد بن يحيى ـ الذي أُسقطت طائرته مع الوفد المرافق فوق الحدود العراقية ـ الإيرانية عام ١٩٨٢ خلال محاولة لوقف الحرب ـ بقيت سرّية لحماية مصالح البلاد العليا». حصل ذلك على ما يبدو لحماية صدّام حسين ـ لكنّ هذه رواية أخرى.

أصبح شائعاً الآن في الجزائر ربط اغتيال بوضياف بالمافيا، وهي عبارة غامضة استُخدمت للإشارة إلى الطبقة الاجتماعية والسياسية التي اغتنت على حساب الوطن خلال حكم الشاذلي بن جديد طيلة ١٢ سنة. وقد ادّعى رئيس وزراء سابق هو عبد الحميد الإبراهيمي أن رُشًى بقيمة ٢٨ مليار دولار ـ ما يوازي ديون الجزائر الخارجية ـ دُفعت لمسؤولين حكوميين خلال عقد من الزمن ودخلت في الفولكور الشعبي. وزعم مؤيّدو بوضياف أيضاً أنه كان هناك تحالف بين المافيا والحركات الإسلامية. ومع ذلك فإن الشيء الوحيد الذي يريدونه، يجب أن لا يحصلوا عليه أبداً.

«نطالب بمعرفة كلّ الحقيقة حول اغتيال شهيدنا محمّد بوضياف ـ ارفعوا أيديكم معي وقولوا إنكم تريدون الحقيقة». انسابت العبارات فوق كومة التراب وأكاليل الزهور التي ترقد تحتها البقايا المخترقة بالرصاص للرئيس المقتول. وقد رفع رفاق بوضياف من المناضلين القدامى ـ المسلّحين ورجال المدفعية والمراسلين الذين حرّروا منذ أكثر من ثلاثين عاماً بلادهم من رجال ماسّو ـ أيديهم اليمنى قرب الضريح وقالوا بحزم وبصوت عال: «نريد ذلك».

يمنح العمر الاحترام واللطف تجاه أكثر الرجال والنساء فظاظة. فقد بدا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عمر بوداود بشعره الأبيض ورأسه المطأطئ احتراماً للزعيم الميت، مثل جندي آخر مسنّ.... من ذلك النوع من الشخصيات المنحنية التي يمكن أن تراها يوم الأحد في مراسم إحياء ذكرى حربٍ بريطانية. والحال أن بوداود كان الرجل الذي قاد جبهة التحرير الوطني داخل فرنسا، والذي دبّر تفجير خزّانات الوقود وانحراف قطار عن خطّه في كايني ـ سور ـ مير» وقتل أربعة من رجال الدرك الفرنسيين في ليون، وقاد محاولة اغتيال الحاكم العامّ للجزائر جاك سوستيل. هل يستطيع رجال يحملون إرثاً دموياً توقّع الحقيقة؟ كان هناك أيضاً أبو بكر بلقائد، وهو على سبيل المثال، مناضل قديم من أجل الحرية، ورفيق لبوضياف في سجن «فريم» عام ١٩٥٦، وكان يندب الفرص الضائعة للجزائر: «كان في المنفى، بعيداً عن المؤسّسة قبل أن يصبح رئيساً. جاء إلى هنا لتحديث بلدنا، ليمنحنا مساراً واضحاً. أجل، أتمنّى أن نعرف الحقيقة عن استشهاده. لكن هل نعرف؟ هل نعرف من قتل كنيدي؟ هل نعرف؟».

أمّا السيدة بوضياف فقالت إنها لا تعتقد للحظة واحدة أن جبهة الإنقاذ قتلت زوجها. كانت ترتدي لباساً أخضر وأبيض وتغطي معظم وجهها بنظارّة شمسية، وقد وقفت قرب كومة التراب، ثم حضنت بلقائد وانتحبت بين ذراعيه متجاهلة الشاهد الرخامي إلى جانب قبر زوجها والمكتوب عليه: «هوّاري بومدين ١٩٣٢ ـ ١٩٧٨».

رفض بوضياف عرض بومدين أن يصبح رئيساً بعد التحرير عام ١٩٦٢ لأنه لم يرغب أن يكون شخصية رئيسية، وعارض بومدين في منفاه المغربي. كانت هناك قبور أخرى مشابهة في الصفّ نفسه مثل قبر بوضياف، تحتوي محاربين مُكرّمين، كُتبت أسماؤهم على شواهد قبورهم دون تعليق أو تكريم شفوي، ويحتاج المرء إلى كتاب مذكّرات أو تاريخ لفهم معانيها. كان هناك العربي بن مهيدي (قتلته قوة المظلّيين الفرنسية في آذار/مارس ١٩٥٧)، وفرحات عبّاس (نفته جبهة التحرير الوطني)، وعبّان رمضان (اغتيل بوحشية ـ خُنق على الأرجح ـ عام ١٩٥٧ من قِبل زملائه في جبهة التحرير الوطني قرب طنجة)، وكريم بلقاسم، الضحية المقتول في فرانكفورت، وآيت حمّوده حمروش وسيّد الحواس

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

(من قادة جبهة التحرير الوطني في الولاية الرابعة ـ قطاع بويعلي ـ قُتلا كلاهما على يد الفرنسيين عام ١٩٥٩). ومع وجود عظام عديدة محطّمة بالرصاص وأعناق مكسورة داخل هذه المقابر، هل يستطيع أحد توقّع معرفة الحقيقة حول الشهيد الجديد في المقبرة؟.

هكذا كانت المطالبة بالحقيقة الشفّافة والمكتشفة في المقبرة الرطبة في العالية. لم يوجّه أحد إصبع الاتّهام إلى أحد بالطبع. لم يلم أحد الإسلاميين أو المافيا أو جبهة التحرير الوطني القديمة. وقفت مجموعة من الجنود خلف القبور وبعض رجال الشرطة باللباس الأزرق ومجموعة من الشبّان الملتحين الذين يرتدون سراويل الجينز ويحملون رشّاشات ومخازن ذخيرة في أحزمتهم، من أجل الأمن بالطبع، وكانوا شبيهين بالحرّاس الشخصيّين الذين أمّنوا حماية محمّد بوضياف في عنّابة، والذين أطلق أحدهم النار على رأسه وظهره.

كان موت بوضياف اللحظة التي أصبحت فيها حرب الجزائر وحشيّة. وكانت محطة تلفزيون بي بي سي توجّه تحذيراً لمشاهديها حول ما تسمّيه عرضاً مثيراً، عندما ترغب في عرض فيلم منفّر. وها أنا أوجّه إلى القرّاء بالطريقة الصحيحة التحذير نفسه قبل الإبحار في صفحات هذا الكتاب التالية الملطّخة بالدم. فخلال سنتيْن، حصلت مأساة واسعة غير مصرّح عنها في أنحاء الجزائر، طبيعتها ـ ثورة من قِبل الإسلاميين المسلمين الذين حُرموا من النصر الانتخابي ـ معروفة جيّداً، لكنّ أبعادها ازدادت بشكل مرعب يومياً مع إراقة دماء على مستوى لا مثيل له منذ الاستقلال عن فرنسا. وبحلول عام ١٩٩٤، تمّ رسمياً تسجيل أربعة آلاف عملية موت عنيف، وكانت مناطق واسعة من الجزائر تسقط كلّ ليلة تحت سيطرة تنظيم عسكري متماسك جدّاً، «الجماعة الإسلامية المسلّحة».

إذا كانت السنتان السابقتان قد شهدتا إعادة للحرب الجزائرية المتوحّشة من أجل السلام ضدّ فرنسا، فإنّ حمّام الدم الذي انطلق الآن يشكّل سابقة رهيبة للاحتلال الأنغلو ـ أميركي للعراق بعد عقد من الزمن. كانت عائلات قوّات الأمن ـ وفي بعض الحالات الضبّاط أنفسهم ـ قد أصبحت مُجبرة على الانكفاء

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كلّ ليلة إلى داخل المجمّعات الحكومية تأميناً لسلامتهم الشخصية. وبالرغم من المعارك الضارية ضدّ الإسلاميين كان الجيش الجزائري والشرطة شبه العسكرية غير قادرين على حماية العدد المتزايد من الضحايا الذين كانوا يُذبحون بوحشية ـ كانت عبارة مذبوحين دقيقة جدّاً. كان العديد من الذين قتلهم الإسلاميون مقضياً عليهم بواسطة السكاكين ومتروكين في مستوعبات القمامة أو على جوانب الطرق ورؤوسهم شبه مفصولة عن أجسادهم. وكان الأساتذة والصحفيون والجنود والمقاتلون الإسلاميون ورجال الشرطة والمسؤولون الحكوميون المحلّيون يذبحون يومياً. وغدت مفكّراتي حول الزيارات المرعبة التي قمت بها للجزائر مليئة بتفاصيل عمليات القتل الواضحة والفظيعة.

يوم ٢٧ كانون الثاني/يناير ١٩٩٤، كان رجل عاطل عن العمل عمره ٢٤ سنة في قرية قصر البخاري مذبوحاً كلّياً ورأسه ملقًى على درج قاعة سينما مهجورة. قال قاتلوه في بيان مُلصق على جدران القرية: «أمثولة لكلّ مَن يخرق مبادئ الإسلام». وعشية انعقاد مؤتمر وطني للأحزاب السياسية (لا حاجة إلى القول إن جبهة الإنقاذ استُبعدت عنه) ضُرب شرطي حتى الموت أمام مجموعة من الأطفال في عنّابة. وعشية انتهاء المؤتمر، اغتال الإسلاميون سبع مدنيّين في ولاية جيجل، أحدهم فرحات شيبوت (دكتور في التاريخ) الذي أُعدم أمام والديه وزوجته وطفليه.

وكالعادة، كان العالم الخارجي أكثر اهتماماً بضحايا الحرب الأجانب منه بالضحايا المحلّيين، وهي حقيقة تلقّفها القتلة بذكاء. وتنفيذاً لوعدهم بإعدام كلّ مواطني الدول الصليبية ارتفع عدد ضحاياهم في أوائل كانون الثاني/يناير ١٩٩٤ إلى ٢٦ قتيلاً أجنبياً في الجزائر. وأدّى مقتل امرأة فرنسية مسؤولة في القنصلية إلى وقف كلّ التأشيرات إلى فرنسا. وتلا اغتيال مونيك آفري مقتل ريمون لوزوم وهو تونسي يهودي عمره ٦٢ سنة كان يعيش في مدينة الجزائر طيلة ثلاثين سنة. وكان لوزوم اختصاصيّ نظّارات، تزوّج بامرأة مسلمة وكان يسعى للحصول على الجنسية الجزائرية، ولعب دور ضبّاط فرنسيين في سلسلة أفلام حول حرب الاستقلال. وقد أصيب بعياريْن ناريّيْن في رأسه في شارع ديدوش مراد في وسط مدينة الجزائر.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

لم يكن التمرّد الإسلامي مُحتكراً للقتل. ففي أواخر ١٩٩٣ كانت مجموعة حقوق الإنسان الجزائرية أوّل من أعلن أن الحكومة كانت تستخدم فِرق الموت في صراعها ضدّ الإسلاميين. وقدّمت رسالة مُعترضة للمخابرات الفرنسية حول هجوم الشرطة الجزائرية على معقل إسلامي الدليلَ على أنّ ضابطاً أعطى أوامر لرجاله بعدم أخذ أسرى. وفي كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٣، قتل إسلاميون ـ وهنا ربّما كان علينا البدء بوضع علامات اقتباس حول تلك الكلمة ـ اثني عشر مجنّداً في معسكرهم قرب سيدي بلعباس. وفي أوائل كانون الثاني/يناير ١٩٩٤، تم توقيف جندي عند نقطة تفتيش روتينية للشرطة خارج مدينة الجزائر، وعندما قدّم إذن الجيش بالمرور تمّ ذبحه على الفور. كانت نقطة التفتيش مزيّفة وكان المسلّحون عنده متنكّرين بلباس الشرطة. أو هل كانوا كذلك فعلاً؟ أصبحت هذه الحواجز المزيّفة ظاهرة متكرّرة وتقترب من العاصمة كلّ أسبوع. وأصبح كل شيء واضحاً بسرعة للصحفيين القلائل الذين كانوا ما زالوا يسافرون إلى مدينة الجزائر وتبيّن لهم أن القتلة كانوا أحياناً رجال شرطة حقيقيين ـ يعملون للحكومة نهاراً وضمن حركات التمرّد ليلاً.

قبلاً، كان الجيش يستخدم الدبّابات والهليكوبتر ضدّ الوحدات الإسلامية في جبال الأخضرية. وكان الخيار ضئيلاً لأنّ المتمرّدين كانوا يتحرّكون في أنحاء الجزائر مدجّجين بالسلاح. وعندما ذُبح عدد من العمّال الكرواتيين الوافدين إلى البلاد في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٣، لم تكن لديهم فرصة للفرار، إذ كان قاتلوهم حوالَي خمسين رجلاً مسلّحاً وكانت أكواخ سكنهم خارج وهران. في ذلك الوقت، كانت مدن الجزائر قريبة من الفوضى الشاملة. وكانت طوابير طالبي الخبز لا تحصى في مدينة الجزائر ناهيك بآلاف الجزائريين المستميتين لمغادرة بلادهم والذين كانوا يقفون خارج السفارة الفرنسية ليلاً ونهاراً، حتى أدّى مقتل مونيك آفري إلى إغلاق قسم التأشيرات. وكان التلفزيون الرسمي يكرّر يومياً بثّ فيلم إخباري عن المذبحة في كابول بعد خروج السوفيات، وعن طائرات الميغ التي تقصف العاصمة الأفغانية وعن جُثث النساء والأطفال المطروحة في الطرقات. وتقول الرسالة غير الناطقة: إذا لم تبقوا موحّدين حول

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حكومتكم، عندها ستكون الجزائر ووهران والقسنطينة وكل مدن الجزائر الأخرى على هذا الشكل. لكن إلى أيّ حدّ تستطيع السلطات من خلال التخويف دفع الأهالي إلى دعم الحكومة؟ بعد سنة، أرسلت الحكومة وفداً رفيع المستوى من ضبّاط مخابرات الجيش الجزائري في جولة على العواصم العربية وبخاصة القاهرة ودمشق، على أمل تعلّم كيفية محاربة مسلّحي حرب العصابات الإسلامية. في مصر ـ حيث قتل الإسلاميون الحقيقيون الرئيس السادات ـ تعلّموا كيف اقتحمت قوّات الأمن المركزي المصرية مخابئ المتمرّدين المسلّحين في حقول قصب السكّر حول أسيوط وبني سويف قبل استجواب الناجين تحت التعذيب أو إعدامهم بعد إدانتهم في المحاكم العسكرية. في دمشق، تعلّموا بالدرجة الأولى كيف قتلت القوّات الخاصّة السورية بواسطة المدفعية والدبّابات آلاف المسلمين في تمرّد مدينة حماه عام ١٩٨٢، مدمّرة شوارعها ومساجدها القديمة. وفي أواخر كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٤، شنّ الجيش الجزائري هجوماً مركّزاً على المعقل الإسلامي حول عين دفلة ـ الذي يوازي مدينة حماه بالمساحة ـ بواسطة المدافع والدبّابات وقتل أكثر من ثلاثة آلاف رجل من الجماعات الإسلامية المسلّحة. مرّة أخرى، لم يكن هناك أسرى.

ليس من المستغرب معرفة كم من المرّات استخدمت هذه الصراعات الشرق أوسطية مدارس للآخرين في حملاتهم العسكرية لاحقاً. فخلال حرب الجزائر ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢ أعطى الفرنسيون الحكومة الإسرائيلية معلومات لا سابق لها عن حربهم ضدّ جبهة التحرير الوطني. وجرى اصطحاب إسحاق رابين الذي كان حينها رئيس أركان الجيش الإسرائيلي وعوزي نركسيس الملحق العسكري في باريس وحاييم هرتزوغ الذي كان حينها مدير المخابرات العسكرية الإسرائيلية، في زيارة إلى وحدة كوماندوس بحريّة في جنوب فرنسا، مركز تدريب الكوماندوس الفرنسي في كورسيكا، وإلى الجزائر نفسها حيث، استناداً إلى هيرتزوغ «راقبنا الصراع المرير ضدّ جبهة التحرير الوطني». بعد أربعين عاماً، أرسل البنتاغون وفداً إلى إسرائيل لدراسة خطط الجيش الإسرائيلي خلال الانتفاضة الفلسطينية لكي يطبّق هذه الدروس في معركته ضدّ المتمرّدين العراقيين

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ـ والتي نفّذتها القوّات الأميركية وأسفرت عن نتائج كارثية يمكن التنبّؤ بها. وبطريقة مشتقّة وغير واعية، ربّما كان الأميركيون يطبّقون أيضاً في العراق ـ ما هو مستخدم فعلاً ـ أساليب فرنسا الفظيعة في حرب الاستقلال الجزائرية.

اتخذت المؤامرة ـ الكامنة في فكر كلّ الجزائريين وكلّ العرب ـ وكذلك في تصوّر الإدارة الأميركية لجورج بوش منذ عام ٢٠٠١ ـ شكلاً مزعجاً الآن. فقد أقنعت الجماعات الإسلامية المسلحة نفسها بأن المساعدة العسكرية الفرنسية والتشجيع السياسي للنظام الجزائري ـ بشكل بارز من قِبل محبّ المؤامرات والمتسلّط، وزير الداخلية الفرنسي شارل باسكوا ـ يمثّلان إعلان حرب ضدّ المسلمين الجزائريين من قِبل الدول الصليبية القديمة في أوروبا. واقتنعت الحكومة الجزائرية بأن الولايات المتحدة تساند الآن الجماعات الإسلامية المسلّحة. تساءلت: لأيّ سبب تسمح واشنطن لناطق باسم الجبهة الإسلامية للإنقاذ، أنور هدّام، بالإشراف على مكتب في واشنطن؟ ولأيّ سبب يُلحّ الأميركيون لإجراء حوار مع الإسلاميين، وهو أمر لن يفعلوه أبداً مع أعداء إسرائيل المسلمين؟. تريد واشنطن بشكل واضح إقامة أنظمة إسلامية معتدلة في شمال أفريقيا عوضاً عن ديمقراطيات لن تكون قادرة على السيطرة عليها. أو اقرأ المؤامرة إذن.

في الجزائر بحدّ ذاتها، أصبح الخوف مرضاً. «ذهبتُ إلى جنازة قريب في وهران في كانون الأول/ديسمبر ـ مات بشكل طبيعي ـ لكن في الجنازة ذكر شيخ أن امرأة جزائرية اغتيلت حينها مع زوجها البلجيكي». خيّم الصمت على مائدة الطعام، فلم يكن الوقت مناسباً لتحريك سكاكيننا وشوكنا فوق الفلفل الحارّ والبندورة الساخنة. «لم يتحدّث الشيخ عن مقتل البلجيكي ـ تجاهله. أما عن المرأة فقال: «لو لم تتزوّج بأجنبي لما حصل ذلك».

توقّف الرجل عن الكلام من هول التصريح ليفهم. ثم قال: «كيف نستطيع التفاهم مع أشخاص من هذا النوع؟ كيف يمكن أن نترك أشخاصاً شبيهين بهذا الشيخ يصلون إلى السلطة؟ يُعتبر نظامنا التعليمي السبب الرئيسي لمشاكلنا. لقد علّمت جبهة التحرير الوطني الأطفال أن التاريخ يبدأ عام ١٩٦٢، بعد حرب

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الاستقلال. لم يتعلّموا شيئاً من مناضلنا عبد القادر الذي حارب الفرنسيين. لكنّ الشعب نبذ جبهة التحرير الوطني وقراءتهم للتاريخ. إذن الشيء الوحيد الذي كان صحيحاً بالنسبة إليهم هو القرآن ـ الذي أعطى الزعماء الأصوليين قوّة متزايدة. كانوا مثل الشيخ في مسجد وهران، يستطيعون أخذ أي جملة من القرآن لإشعال حريق كبير بها». الحرائق الكبيرة منتشرة في كل مكان. لم أُبلغ مضيفي أنني شاهدت صورة للرجل البلجيكي وزوجته المقتولة بعد موتهما. لقد أصدرت الحكومة الجزائرية ملفّاً حقيراً عن الجثث المقطوعة الرأس، صوراً ملوّنة واحدة تلو الأخرى لرقاب مقطوعة وجثث ممزّقة بالرصاص في مشارح الجزائر. كانت المرأة البيضاء الشعر ممدّدة على أرض المشرحة، وبدت فجوة طلقة إلى الجانب الأيمن من فمها، وكانت عيناها شبه مفتوحتين، وثديها الأيمن مكشوفاً فوق غطاء أبيض. كان زوجها بملابسه الداخلية فقط، وظهرت فجوات رصاص في بطنه وكتفه ووجهه. كانت عيناها شاخصتين إلى الكاميرا كما نظرت إلى القتلة عندما جاؤوا إلى منزل العائلة في البويرة يوم ٢٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣. في الجانب الآخر يتمدّد شاب فرنسي، قُتل في بير خادم يوم ٢٣ آذار/مارس ١٩٩٤، وكان شعره الأسود القصير لا يزال مفروقا بعناية، وهو ينظر إلى أسفل حيث فجوتا الرصاصتين في بطنه. تساءلت، هل هذا ما فعله لحظة موته؟ هل شعر بالمعدن يخترق بطنه ونظر إلى أسفل بدهشة ليرى ما مزّق قلبه؟.

أقلب الصفحات ويصبح الأمر أسوأ. كانت بلاعيم العمال اليوغوسلاف الضيوف المغمورين خارج وهران مقطّعة. ليست شقوقاً صغيرة في العنق، بل شفرة حلاقة جعلت الموت أسرع وبدون رحمة. كانت بلاعيمهم مفتوحة، مرئية من الداخل، والدم يتدفّق على بطونهم. كان أحدهم شابّاً متجهّماً من الألم، عذابه مكتوب على وجهه الميت، وشفتاه مطبقتان بقوّة كما لو كان يحاول التعامل مع الألم. كان أحدهم قد شقّ طريقه إلى بلعومه واستمرّ في الذبح حتى وصل إلى طرف عظم الظهر. تستطيع رؤية بياض العظم في مؤخّرة عنقه.

كانت جثث أخرى تبدو وكأنها مجزرة من الدم واللحم، وجوهها مقطّعة، وأيديها مسلوخة. في بعض الحالات، ظهرت الرؤوس المشوّهة فقط في الصور.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كانت العين اليسرى لجلالي نوري، المقتول يوم ٢٨ آب/أغسطس ١٩٩٤ في عين دفلة، جاحظة، تنظر إلى الغطاء الذي يوجد عليه رأسه برعب كما لو كان يحدّق في سكّين قاتله. وبعد فترة أصبح هذا المجون من الفظاعة سخيفاً. كان رأس أحمد حدّاد المقتول يوم ١٣ أيار/مايو ١٩٩٤ موضوعاً على رفّ حجري، والدم يسيل من قاعدة الجمجمة، ويد بشرية أمسكت الرأس بإصبعين حتى تدحرج إلى الأرض. كانت حليمة ميناد شابّة، قُتلت في عين دفلة يوم ٢٣ تموز/يوليو ١٩٩٤، وكان شعرها الأسود الطويل وعيناها نصف المفتوحتين لا تزالان توحيان بجمال غارب، وخصلات شعرها غارقة في فتحة عنقها المقطوع. يمينة بن عمارة، سيّدة أخرى شابّة ذُبحت قرب وهران يوم ١١ نيسان/أبريل ١٩٩٤، وتُركت مطروحة على أرض منزلها بملابس النوم. كانت جثتها ممدّدة على سجّادة برتقالية وزرقاء رخيصة، مغطاة جزئيّاً بمِخدّة؛ وما زال رأسها، جزء من عنقها متصل بالذقن، مرمياً على سجّادة أخرى والعينان مغمضتان. وتظهر صور أخرى مصانع محترقة، وركام المدارس والحافلات والشاحنات.

انضمّ الجميع إلى سوق الموت الداعر. في «ميدِلسَكس»، نشرت منظمة الجبهة الإسلامية للإنقاذ صورها السخيفة: إسلامي ذو لحية كثيفة مليء بالثقوب، ضحية التعذيب؛ يقول العنوان، ثُقب جسده وعنقه بآلة حادّة. ضحّى بحياته وبكل غالٍ لديه. كانت عينا الرجل مفتوحتَين بطريقة طبيعية، تنظران مباشرة إلى الكاميرا كما لو أنهما متلهفتان للقول كم كان عذابه رهيباً. وكانت هناك جثث متفحّمة: فتاة في العشرين من العمر غارقة في الدماء، ورجل أصلع ظهرت فجوة رصاصة في جمجمته. وعوضاً عن ركام المصانع، يتضمّن الكُتيّب صوراً ملوّنة لمعسكرات الاعتقال الخالية التي سُجن فيها آلاف الشبّان الجزائريين، وصوراً لرجال شرطة يحققون مع شبّان في شوارع مدينة الجزائر. ويزعم كتاب الحكومة حول الذبح أن ١٥ ألف رجل وامرأة قتلوا، قُطعت رؤوس معظمهم.... ويقول منشور الجبهة الإسلامية للإنقاذ أنه «منذ انقلاب الجيش قُتل ٦٠ ألف مسلم». وكُتِب فوق صورة جثّة شابّ ممددة في بركة من الدم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران].

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وقد انقضت عشر سنوات قبل أن أرى هذا النوع من المجزرة مجدّداً، وذلك أنّ كلّ صورة من هذه الصور كان يمكن أخذها في مشارح العراق عام ٢٠٠٣ وبعده، وكذلك صور الشاحنات المحترقة والمعامل المدمّرة.

قبل أن أبدأ بالسؤال حول من ارتكب هذه الجرائم ضدّ الإنسانية ـ لأنّها لا يمكن أن تكون كلّها من صنع الجماعات الإسلامية الجزائرية أو المنشقّين عن الجبهة الإسلامية للإنقاذ ـ كان من الطبيعي أن أسأل أيّ نوع من الرجال ـ إذ إن القتلة جميعهم رجال ـ يستطيع إمساك نبيلة رزقي، بشعرها القصير وأنفها الصغير ووجهها الجميل على أرض منزلها في عين دفلة يوم ٢٣ تموز/يوليو ١٩٩٤ وذبحها من عنقها كما لو أنها خروف أو دجاجة؟ ماذا عن صرخات الرعب، وصرخات الألم، ونداءات الرحمة اليائسة التي صدرت قبل تحرّك السكّين؟ ماذا عن «الفتاة والطفل والحبّ؟».

وبعد دقائق قليلة، ظهر لي أنّ الاهتمام الذي أبديه بهذه الفظاعة، والتفاصيل التي أجدها في الصور، تجعلني شريكاً في هذه الجرائم. تذكّرت كيف كان حرّاس الثورة الإيرانيون يتناقلون صور القتلى من ركّاب طائرة الإيرباص في مخازن بندر عبّاس المبرّدة عام ١٩٨٨، ويدرسون التفاصيل الدقيقة للمعاناة: بُقع الدم على الجثث، والعيون التي ما زالت تنظر بذهول من الوجوه. ومرّة أخرى، ذكّرتني تلك الصور برسوم القرون الوسطى، بجثث حيرونيموس بوش المشكوكة بالأسياخ، وضحايا غويا المغتصبين والمنزوعة أحشاؤهم نتيجة الوحشية الفرنسية، وبالقدّيسين المختَرَقين بالسهام أثناء الصلاة. ذات يوم، وجدت رأس رجل ألبانيّ في حقل في كوسوفو، ملقى على العشب، مقطوعاً نتيجة قنبلة ألقاها سلاح الجوّ الأميركي على قافلة لاجئين تنظر إلى السماء... وتساءلت ببرود: هذا مشهد مشترك نراه في تودُر Tudor البريطانية أو أيّ مكان آخر في القرن الخامس عشر في أوروبا. وفيما بعد التقيت السيدة الشابّة التي وجدتِ الرأس ووضعته على العشب لأنها حسبت أن ذلك سيعطي الرجل المقتول كرامة أكثر إذا كان وجه الرأس المشوّه قادراً على النظر إلى السماء.

آنذاك كنّا نسافر، نحن الصحفيين القلائل، إلى الجزائر خائفين. وقد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وضعنا، أنا ولارا مارلو من مجلّة التايم، نظاماً رتيباً. إذا زرنا محلاًّ، يجب أن نبقى أربع دقائق فقط لشراء الفاكهة أو الشاي أو الكتب، فقد حسبنا أن خمس دقائق ستعطي أحدهم الوقت الكافي لجلب القتلة. وكنا نُخفي وجوهنا بالصحف عندما نقع في ازدحام وسط المدينة. وكنا نعبر ما بين السيّارة والباب الأمامي بجنون، بسرعة مونتي بايتون ـ الصحفيون في سيرهم الغبيّ شخصيات في فيلم صامت قديم ـ يدفعنا رعبنا إلى التحرّك بسرعة غير عادية. اقرع الباب، وراقب الطريق بطريقة عرضية لاهثة، لاعناً أصحاب المنزل لعدم الردّ عندما تقرع. عند الغداء، ننظر إلى ساعاتنا. يبدأ حظر التجوّل الساعة ١١:٣٠. وعقرب الدقائق الذي يتحرّك بعد الحادية عشرة يجعل ابتساماتنا تتجمّد ويزيد رغبتنا في الهرب. يريد رجال الشرطة مواكبتنا في أنحاء المدن، وهم يعتمرون قبّعاتهم أحياناً ويقولون: «من أجل حمايتكم». أجل، لكن مَن يرغب أن يشاهد مسافراً برفقة شرطي يضع خوذة، وسترة واقية، لتمييزه مع الرجال الذين يعتقلون شباب مدينة الجزائر، هؤلاء الذين يخضعون للتعذيب ـ بدأ الدليل يتأكّد بشكل أكثر فظاعة ـ ويتعرّضون للموت في أغلب الأحيان؟.

سافرنا إلى بليدا، المدينة القديمة التي سندعوها قريباً «مثلّث الموت». أجل نحن نحبّ هذه الأسماء النشيطة. بعد عشر سنوات في العراق، سنبدأ الحديث حول المثلّث السنّي ـ الذي لم يكن سنّياً بالكامل ولم يكن مثلّثاً على الإطلاق ـ وعندها سنخلق بشكل حتمي، مثلّث موت عراقياً في صفحاتنا. وقد استغرق الوصول إلى بليدا نصف ساعة فقط. يوم ٣٠ كانون الثاني/يناير ١٩٩٤، اعتمر رجال الشرطة هناك الخُوَذ وحملوا الرشّاشات. وكانت الجدران مليئة بشعارات الجبهة الإسلامية للإنقاذ. وكان جثمان الشيخ محمّد بوسليماني ـ المدفون طيلة شهرين في معبر جبلي قبل اكتشافه ـ تنبعث منه رائحة كريهة وقد لُفّ بغطاء بنّي وأصفر ومُمدّد في ساحة المدينة الاستعمارية تحت جبال الأطلس.

كانت والدته زهرة البالغة من العمر ٨٤ عاماً جالسة على الأرض في منزل العائلة المؤلّف من طابق واحد، والواقع في سفوح الجبال فوق سهل ميتجا، والدموع تسيل على خدّيها المجعّدين من خلف نظّارة قديمة، وكانت تحاول أن

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تعلم لماذا قُتل ابنها. قالت: «أشكر الله أنني استطعت رؤيته في المستشفى واستطعت تقبيله. أتمنّى أن نراه في الجنّة. كان ابناً مطيعاً. الله برحمته وهبنا إيّاه والله برحمته أخذه منّا. يجب أن أتقبّل ذلك».

في الجزائر، أصبح القبول ـ بالخطف والقتل والذبح والموت ـ هو نمط حياة الآن. لكن مَن قتل بوسليماني؟ مَن يريد أن يخطف ثمّ يقتل أستاذ اللغة العربية الذي كان رئيس جمعية الإرشاد والتجديد الجزائرية، وسافر قبل عام إلى سراييفو وأحضر معه عشرات المسلمين البوسنيين الجرحى للاستشفاء في الجزائر؟ «اغتالته يد الغدر»، كان ذلك هو تفسير الشيخ محفوظ نحناح زعيم حزب حماس الذي كان بوسليماني عضواً تأسيسيّاً فيه، والذي كان يخطب في تلك الساحة الاستعمارية الصغيرة، باكياً أمام ثمانية آلاف مُعزٍّ.

مَن كان الخونة؟ القتلة هم بالتأكيد: الرجال الأربعة الذين أخذوا الشيخ الشجاع الملتحي من منزله المؤلّف من طابق واحد يوم ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٣، وسمحوا له باتصال هاتفي قصير مع عائلته بعد بضعة أيام قبل إسكاته إلى الأبد. في استطلاعنا لمنزله رأينا الكتب الدينية التي كان يقرأها عندما استدُعي إلى الباب الأمامي، وقد أعيد خطّ الهاتف ـ الموصول الآن بشريط أسود لاصق ـ الذي قطعه الخاطفون قبل أخذهم الشيخ في سيّارته الرينو المضروبة. لقد أبلغوا زوجته غثام أنهم يأخذونه لإجراء محادثة، كلمات قليلة، ولا شيء يدعو للقلق. وسيرجع قريباً، بحسب الرواية المعادة.

بين مئات النساء المحجّبات اللواتي جلسن تحت أشجار الأوكاليبتوس والحي المتداعية بيوته الذي عاش فيه بوسليماني، روى صديق قديم الحدث القاضي: «سمحوا له بإجراء اتصال هاتفي واحد. سألته عائلته: «مَن يعتقلك؟» وكان صامتاً. ثم سمعوا صوتاً خلفه يقول: «أبلغهم أنها الجماعات الإسلامية المسلّحة». ثم قال: «سمعتم». سألته عائلته كيف صحّته، وأجاب: «في بعض الأحيان عليك شكر الله حتى في أسوأ الظروف». وكان هذا آخر ما سمعوه منه.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لكنه لم يكن الأخير الذي شوهد. قبل عشرة أيام من مؤتمر وطني ميؤوس منه حول الجزائر كان يُفترض به حلّ أزمة البلاد، انتشرت إشاعة أن جثة الشيخ وجِدت في أعالي الجبال، مدفونة بجانب أشجار قرب مقبرة في العفرون. لم يعلن المزيد حتى انتهاء المؤتمر، الذي حضرته حماس لفترة قصيرة وقاطعته الجماعات السياسية الرئيسية كافّة. وفي لحظة ما، أعلنت السلطات الجزائرية فجأة أن جثّة الشيخ وجدت بالفعل في المنطقة الجبلية. وبالنبرة ذاتها تقريباً، تم الإعلان أن الرجلين المشتبه بهما في عملية خطفه ـ غيتون ناصر ورشيد زيراني ـ اعتُقلا. وقيل إن ناصر وزيراني تلقيا أوامر من جعفر الأفغاني، وهو عضو في الجبهة الإسلامية للإنقاذ لعب دوراً فعلياً في قيادة الجماعات الإسلامية المسلّحة، لخطف الشيخ بغية إقناع حماس بمقاطعة المؤتمر.

كانت الحكومة مسرورة بلوم الجبهة الإسلامية للإنقاذ حول كل مآسي البلاد. وكان عشرات الآلاف من المناضلين الإسلاميين ـ وأعضاء من الجماعات المسلّحة المتحاربة مع النظام ـ يقيمون في بليدا. لذلك كانت جدرانها مغطاة بشعارات الجبهة فيما يراقب شباب البلدة الأجانب مراقبة دقيقة. ولذلك يقف أفراد الشرطة العسكرية الذين يرتدون اللباس الكاكي والمسلّحون بالكلاشينكوف في الشوارع حولنا ويغطون وجوههم بأقنعة من القماش ذات شقوق واسعة تسمح للعيون بالمراقبة. وكانت لديهم أوامر بالقتل.

لكن كان هناك أصدقاء للشيخ ـ أصدقاء دراسة من أيام ثانوية بليدا حيث علّم العربية ـ يشكّكون في الرواية. قال عضو في حماس: «فجأة وجدت الحكومة الجثّة والمذنبين بعد انتهاء المؤتمر. ماذا أظنّ حيال ذلك؟ إن حماس أكثر اعتدالاً من الجبهة الإسلامية للإنقاذ، لكنّ للجبهة مؤيّدين في حزبنا». إذن، لماذا يجب على جبهة الإنقاذ قتله؟ لا أعلم ـ مع أنني أرغب في سماع جبهة الإنقاذ تشجب الاغتيال، أرغب في سماعهم يقولون إنهم لم يقتلوه. لكن هناك مَن يقول إن الحكومة تريد القضاء على حماس ـ إنه الزعيم الثاني الذي يُقتل ـ حتى تتمكّن من شنّ حرب مفتوحة بين الجيش وجبهة الإنقاذ. وهناك أحزاب أخرى مثل حزب الثقافة والديمقراطية الذي يرفض أي حزب مثل حماس لأنها

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تُظهر أن الإسلام يستطيع أن يكون إنسانياً ومعتدلاً. إن الناس مستعدّين للموت عندما يجد الجميع أن موتهم لمصلحتهم. وقد خسرت الجبهة الإسلامية للإنقاذ خصماً معتدلاً. وكانت السلطات قادرة على توجيه اللوم إلى الجبهة الإسلامية للإنقاذ بينما لم يعد للذين يتعاملون مع الدين في السياسات الجزائرية ـ أمثال بوسليماني المشهور جدّاً ـ مجال للنضال معها.

كان الشيخ رجلاً معروفاً في بليدا. وكانت جنازته في ظلّ الجبال المكلّلة بالثلج محزنة وعظيمة. وقد بكى المعزّون حتى أُغميَ على بعضهم، وسقطوا بين أيدي أصدقائهم بينما كان الشيخ نحناح يعلن أن بوسليماني «فعل كل شيء من أجل تراب الجزائر والآن يستردّه تراب الجزائر». لم يكن لبوسليماني أولاد ـ قُتل شقيقه في الحرب ضدّ الفرنسيين التي سُجن الشيخ خلالها لمدة خمس سنوات ـ لكنه مع غثام كانا يربّيان ابنة شقيقه وكأنّها ابنتهما. وكانت أسماء تبكي أمام أمّها المتبنّية وتلطم بيديها حزناً، بينما نُقل الجثمان إلى مثواه الأخير في البلدة أسفل حيّ العائلة الفقير في سيدي الكبير. وقد سُمّي أحمد الكبير هاملت المهزوم ثمّ مؤسّس بليدا في القرن السادس عشر، وكان قد أحضر معه من إسبانيا عرب الأندلس ـ مزارعي البساتين وسُقاتها ـ قبل وقت طويل من وصول الفرنسيين إلى الجزائر لاستعمار أمّة لم تنتهِ مأساتها بعد.

كان رئيس الجزائر التالي جنرالاً سابقاً لا صبغة له شهد الفوضى قبل الحرب الأخيرة. وبصفته سفيراً في رومانيا، شهد الجنرال الأمين زروال الفوضى التي تلت سقوط الرئيس تشاوشيسكو. وشغل سابقاً مناصب قائد مدفعية في سيدي بلعباس، وضابط قيادة للوحدة المؤلّلة السادسة في تامنارست، ومدير كلّية تشرشل العسكرية، ووزير دفاع. وهو الآن رئيس الجمهورية السادس بعد الاستقلال. كان زروال يمثل آخر فرصة للجزائر. وقد سار بلباسه الرمادي وربطة العنق الداكنة، إلى داخل نادي المشاة المجاور لمقرّ جبهة التحرير الوطني، مروراً بمراتب محاربي السباهي Spahi باللباس القرمزي والأخضر، راسماً ابتسامة باردة على وجهه، مومئاً برأسه لصف الجنرالات والأميرالات الذين تسطع سيوفهم المذهّبة وشارات النخيل على أكتافهم تحت أضواء التلفزيون.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وقد لاحظت عدم وجود تغطية حيّة لهذه المناسبة. فلا تغطية تلفزيونية حيّة لرئيس بعد اغتيال بوضياف. لذلك استمعنا جميعاً بصمت يوم ٣١ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٤ إلى قسم زروال وهو يضع يده على نسخة من القرآن الكريم ويعد «بإيجاد مخرج لأزمة البلاد عبر الحوار».

هل صدّق أحد ذلك؟ عندما دخل زروال القاعة، ربّما سمع بما حصل. قبل ثلاث ساعات ونصف ساعة فقط، وصل سياسي آخر إلى بوّابة منزله في مدينة الجزائر حيث فاجأه رجل يحمل سلاحاً قاتلاً، ثمّ يقطع رقبته ويتركه ميتاً على الرصيف ـ ومثل كلّ قتلة الجزائر استطاع الإفلات. كان رشيد زيغاني، الأمين العام لحزب يميني صغير دعا منذ فترة طويلة لانقلاب عسكري، يغادر منزله متوجّهاً إلى مكتبه في وزارة الأشغال العامّة عندما وجد نفسه وجهاً لوجه مع قاتله. لم يكن هناك شهود بالطبع.

في اليوم التالي، كان المراسل التلفزيوني الفرنسي أوليفيه كيمنير يصوّر في مدينة الجزائر عندما اغتاله مسلّح، ووجِد إلى جانبه الصحفي الجريح ممدّداً وهو يبكي. وفي مقرّ زروال ساعدت في نقل قاعدة كاميرا كيمنير وعدنا معاً في الباص نفسه إلى مدينة الجزائر، ونحن نتحدّث عن مصاعب العمل في هذه الدولة البوليسية الديمقراطية وعن المخاطر التي تنتظرنا. وقد أُضيف كيمنير الآن إلى لائحة القتلى الأجانب. وفي فندق الجزيرة قال شرطي باحتقار: «لم يأخذ معه مرافقة من الشرطة». كلّا، بالطبع لا، كان كيمنير يحاول القيام بعمله، بشجاعة وبدون حماية في قلب حرب الجزائر.

داخل مكتب وكالة الصحافة الفرنسية المحصّن في وسط المدينة القديمة، كانت الإحصائيات معلّقة على الجدران. وأظهر الإحصاء الأخير مقتل ٢٤٣ رجلاً من قوّات الأمن و٨٨١ إسلامياً و٣٣٥ مدنيّاً ـ مع إجماليّ قتلى رسمي وصل إلى ثلاثة آلاف شخص لا أحد يصدّقه سوى رجال الحكومة(*).

(*) عام ١٩٩٥، اعترفت الحكومة الجزائرية رسمياً بأن ١٥ ألفاً من مواطنيها قُتلوا وأنّ هناك ستّة آلاف جريح و ٢١٤٣ عملية تخريب. في الواقع، يُعتقد أن عدد القتلى الحقيقي وصل إلى ما يقارب ٧٥ ألف شخص.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حكمت محاكم الدولة على مئات الإسلاميين بالإعدام؛ ٢١٢ في مدينة الجزائر، و٦٤ في وهران و٣٧ في القسطنطينية. وعن عمليات القتل الفردية التي كان صحفيّو الوكالة قادرين على اقتفاء أثرها، كُتب بالحبر الأحمر: «عمليات اغتيال»: «يوم ١٦ آذار/مارس ١٩٩٣، قُتل جيلالي عبّاس وزير التربية السابق خارج منزله في ثبّة؛ يوم ١٧ آذار/مارس ١٩٩٣ قتل معادي فليسي، طبيب وكاتب وعضو في المجلس الوطني الاستشاري...، يوم ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٣، يوسف سبتي، شاعر وكاتب فرانكوفوني وأستاذ، قتله «مجهولون». وحتى نائب رئيس مفوضية الجودو الجزائرية كان ضحيّة ما أسمته الصحف «اغتيال جبان».

عند الغداء، أعطتنا امرأة صديقة رسالة من تحت الطاولة، مثل شخص يعرض أدباً إباحياً. كيف لا، والمضمون مُعيب بشكل كافٍ. فقد كتب إليها مراسل مجهول بقلم عنكبوتي: «بسم الله الرحمن الرحيم، لا عمل بعد الآن، أنت عاهرة. بسم الله الرحمن الرحيم، لا شرطة بعد الآن... الله أكبر». كانت المرأة طبيبة أسنان ومن بين زبائنها رجال شرطة. سألت: «ماذا أستطيع أن أفعل، يجب أن أستمرّ في العمل. ربّما أغادر الجزائر». كان التهديد باللغة الفرنسية، والعبارة القرآنية بالعربية. لم أستطع سوى الملاحظة أن لغة الكاتب الفرنسية أفضل من لغته العربية؛ تفكير غريب حول الكراهية للغرب يعبّر عنه الإسلاميون كثيراً ـ ذلك في حال كانوا هم من أرسل الرسالة. وقد أُرسلت هذه الرسالة إلى مكتب بريد سكّة حديد مدينة الجزائر بتكلفة دينارين. إنه إرهاب بالبريد بقيمة ١٤ سنتاً.

وزير تربية سابق، خبير جودو، شاعر، طبيب أسنان، صحفي. ضمّ بيان إسلامي أسماء ٣٠ صحفياً فرانكوفونياً محكومين بالإعدام، تمّ اغتيال تسعة منهم حتى الآن. عام ١٩٩٣، اغتيل طاهر دجاوت، الروائي المحرّر الحائز على جوائز، والمحبّذ للأدب الفرنسي، وقد أصيب برصاصة في رأسه خارج منزله ومات في حالة الغيبوبة. عام ١٩٩٤، اغتيل سعيد مقبل، الذي يمكن اعتباره أفضل صحفي جزائري، والذي يكتب تعليقه «مسمار جحا» ـ المسمار الصدئ ـ في صحيفة «لوماتان» اليومية، وقد قُتل على يد رجل أنيق دخل إلى مطعم البيتزا

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

حيث كان يتناول الغداء وأطلق النار على رأسه مرّتين. لم يعترض أحدٌ القاتل لأنه زبون دائم. وقد هُرع أحد موظفي الصحيفة إلى محلّ البيتزا. قال: «كان سعيد في مؤخّرة المطعم، جالساً خلف الطاولة، وما زال ممسكاً بالسكّين والشوكة بيديه، رأسه منحن قليلاً إلى الأمام كما لو كان ينظر إلى الطعام في الطبق، وكان لا يزال يتنفّس. قلت له: سعيد انتظر. سوف نأخذك إلى المستشفى. ومددتُ يدي لألمس شعره لكنني سحبتها مغطاة بالدم».

ترك مقبل الذي قاتل جدّاه لأبويه مع فرنسا في الحربيْن العالميّتيْن الأولى والثانية، مقالاً غير مُنجز في مكتبه جاء فيه: «أرغب حقّاً في معرفة مَن سيقتلني».

وقد حكم أيضاً على الأكثر براءة؛ كانت كريمة بَلهاج البالغة من العمر ٢٠ سنة تعمل سكرتيرة في مكتب تقاعد شرطة الجزائر. كانت امرأة جميلة خُطبت لسائق باص محلّي. وتمّت خيانتها مقابل ١٨ دولاراً من صبيّ يسكن في مجمّع الفقراء نفسه القائم في ضاحية أوكاليبتس. وبينما كانت عائدة ذات مساء إلى البيت، أمسك بها رجل من شعرها وجذبها من الخلف إلى الأرض وأطلق رصاصة في بطنها، وبينما تأرجحت إلى الأمام بألم، أطلق رصاصة أخرى على رأسها. وقد سمع شقيقها إطلاق النار. وكانت آخر كلماتها له: «خذني إلى المستشفى،أريد أن أعيش»، ثم ماتت.

من المهمّ فهم هذه الأفعال الرهيبة في ظلّ الوحشية التي ردّ بها الجيش والشرطة. هناك الآن دليل قويّ على أن الشرطة في أحياء بلكور والقبّة في مدينة الجزائر اختارت سجناء سابقين لإعدامهم كلّما قُتل شرطي. وأصبح التعذيب روتينياً في ثلاثة مراكز شرطة متفرّقة في العاصمة. وكانت غرف التعذيب مجهّزة في ملاجىء تحت الأرض مخصّصة للاختباء من الغارات ومبنيّة أساساً تحت مراكز الشرطة الفرنسية من قِبل جيوش الحلفاء عام ١٩٤٢. وراجت شائعات دائمة تفيد أن جثثاً ملفوفة بأغطية بلاستيكية أُحضرت من هذه البنايات خلال ساعات منع التجوّل لدفنها سرّاً. وقد وصف معتقلون سابقون من سجن سكارجي ما عانوه طوال شهور من الوحدة في الزنازين الصغيرة المظلمة. من

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

هؤلاء سجين التقيته وهو في طريقه إلى المحاكمة وبدا كرجل كهف، شعره طويل متدلّ حتى الكتف، وأظفاره طويلة والقروح تُغطّي جلده والقَيح يسيل من أذنيه. وعندما انطلق معتقلو سكارجي في إضرابهم عن الطعام للاحتجاج ضدّ هذه الظروف في خريف ١٩٩٣، أطلقت الشرطة قنابل مسيلة للدموع داخل السجن، ممّا أدّى إلى اختناق سجين حتى الموت.

كانت لدى نشطاء حقوق الإنسان داخل الجزائر تقارير أشدّ رُعباً. يوم ١٥ كانون الثاني/يناير ١٩٩٤، ادّعوا أن عملية تمشيط للجيش في مدينة لاربا انتهت عندما قرأ الجنود لائحة بأسماء سبع رجال ـ الطيّب بلعروسي، محفوظ سلامة، حليم جيداوي، عزّ الدين غنيم، محمّد قادر، والشقيقان مجادني ـ وضعوهم مقابل الجدار وأطلقوا النار عليهم. والجنود الذين عادوا إلى المدينة لاحقاً خلال النهار أطلقوا النار على حشد، وقتلوا طفلة عمرها سنتان وجدّتها. ويوم ٢٤ كانون الثاني/يناير، واستناداً إلى المصادر نفسها، دخل الجنود مدينة بودواو التي تبعد ٣٥ كلم عن الجزائر واختاروا أربعة رجال ـ محمّد سعيد تيغالمانين، وعبدالله لانواني، وعلي بوشنتوف، ومسعود بوتيش ـ وأعدموهم على الحائط. هل هي مفاجأة والحال هذه أن يشكّ العديد من الجزائريين الآن أن السلطات الأمنية تحاول خلق جوّ من الإرهاب؟ وهل من المفاجىء أن يساعد الإسلاميون في انتشار مثل هذه الإشاعات؟.

ومع توالي سنوات الدم، علمنا أن قوّات الأمن الجزائرية كانت شديدة التورّط في الفظائع أكثر مما نستطيع تصوّره وأنها قامت بالفعل بتنفيذ بعض المجازر المتفرّقة التي وجّهت اللوم فيها إلى الإسلاميين. وما زالت مفكّرتي عندي ـ من مقابلة عام ١٩٩٥ مع أحد أفراد الشرطة العسكرية الجزائرية في مركز حدّاد للحرس في حراش ـ حيث دوّنت ما أبلغني به ضابط طلب عدم ذكر اسمه:

> «إن حرب عصابات عاديّة شبيهة بهذه الحرب لن تنجح أبداً. لم تنجح بالنسبة إلى الفرنسيين ولن تنجح بالنسبة إلينا. الحلّ الوحيد هو في اختراقهم بارتداء ملابس شبيهة بملابسهم، والعيش مثلهم واستخدام جماعتهم».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في دفتر ملاحظاتي في ذلك الوقت، دوّنت الجُمل الثلاث الأخيرة، مُضيفاً تصوّري في الهامش.

كانت علامات الانهيار موجودة في جميع أنحاء الجزائر. ففي الأسبوعين الأخيرين من شهر كانون الثاني/يناير ١٩٩٤، جرى اغتيال ١١٦ شرطياً أكثر ممّا هو مُعلن رسمياً. وكانت مناطق واسعة من البلاد تحت سيطرة المتمرّدين فعلياً. أما الحكومة فكانت تسيطر فعلياً على مدن الجزائر ووهران وعنّابة فقط وحتى أن قسنطينة كانت تحت سيطرة المسلّحين في ساعات الليل. وخلال رحلة مسافتها ٢٥٠ كلم في جبال القبائل، اكتشفت أن السلطات الأمنية انسحبت من الطرقات. وكانت نقاط تفتيش الجيش والشرطة مهجورة. وكان الشرطي الوحيد الذي رأيته بين مدينة الجزائر «وتيزي وزو» يقف حاملاً رشّاشاً خلف حاجز رملي خارج مركز شرطة مرشوش بالرصاص في عسير. وفي تيزي وزو نفسها، التقيت رجالاً ونساء خائفين تحدّثوا عن غزو إرهابيّ من القرى المجاورة كلّ ليلة.

في طريق العودة إلى مدينة الجزائر، مررت بدورية عسكرية واحدة، مؤلّفة من عربتيْن مصفّحتيْن فيهما جنود ملثّمون يعتمرون الخوذ وأسلحتهم مصوّبة إلى السيّارات العابرة. وكانت هذه المشاهد بالضبط هي التي شهدتها بعد عشر سنوات على الخطوط السريعة جنوب بغداد، حيث لمست فقدان السيطرة الحكومية نفسه، وكذلك الهجرة والخوف.

كانت تقاريري من الجزائر شبيهة بمخزن مليء بالجثث: فتيات مقتولات بسبب رفضهنّ ارتداء الحجاب، وأبناء قُطعت رؤوسهم لأن أهلهم رجال شرطة أو نساء شرطة، ونساء اغتُصبن حتى الموت في أقبية الشرطة. وعندما جاءت تقارير مُرعبة من الريف الجزائري في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٤ ـ عن شابّتين قُطعت رقبتاهما لأنهما رفضتا زواج المتعة مع مقاتلين إسلاميين ـ كان كثيرون خارج الجزائر يرفضون تصديق ذلك. وعندما أبلغت مسؤولي حزب الله المحلّيين في بيروت عن ذلك، أومأوا برؤوسهم غير مصدّقين، وصرّح أحدهم: «الحقيقة،

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أعتقد أننا المجموعة الإسلامية الأكثر نضجاً». وكونه من حزب الله فإنه يعبّر عن وجهة نظره.

قبل سنوات قليلة، ربّما كان ادّعى أن كلّ القوى الإسلامية متّحدة وراء هدف واحد. لكنّ حرب الجزائر بدّلت ذلك. وقد مضى وقت حاولت فيه السلطات الجزائرية إخفاء أخبار الفظائع التي ارتكبها الإسلاميون، لكنّ الوحشية المفرطة التي استُخدمت في التصفية دفعت المسؤولين إلى تغيير سياستهم، وباتوا يرغبون الآن في إعلان الفظائع. لقد ذُبحت الفتاتان ـ وفُصل رأساهما لاحقاً عن جسديهما ـ لأنهما رفضتا «زواج المتعة»، وكان عمر إحداهما ٢٥ سنة، والأخرى ٢٢ سنة، وقد خُطفتا مع أعضاء آخرين من عائلتيهما من منازلهم في بليدا. وقد تحدّث ضابط في الجيش الجزائري متمرّد عن ٥٠ ألف جندي متورّطين الآن في «الصراع ضدّ الإرهاب» وفي التصفية الجسدية السرّية للعديد من الإسلاميين المشتبه بهم.

كان محمّد معتاداً الذهاب إلى مدرسة قرآنية، ويخطب في مسجد في مدينة الجزائر. وكان يجلس على أريكة في منزل آمن في مدينة الجزائر حيث دُعيت مع لارا مارلو الصحفية من مجلّة التايم. إنه يوم ٣ شباط/فبراير ١٩٩٤، بعد أربعة أشهر على مجيء ثلاثين عنصراً من القوّات الخاصّة ملثّمين إلى منزل محمّد الساعة الثانية صباحاً. كان عمره لا يتعدّى التاسعة عشرة. وكان يحدّق في أعلى طاولة نحاسية بينما كان يتحدث:

> «ضربوا والدتي البالغة ٤٨ سنة وعصبوا عينيّ واقتادوني مباشرة إلى غرفة تعذيب. كانت تقع أسفل ثلاث أو أربع مجموعات من الدرجات وكانت باردة جدّاً. قاموا بتعريتي، وكانت هناك فتحة في الأرض فقاموا بتغطيس رأسي مراراً في المرحاض، وسألوني تكراراً: «أين الأسلحة؟» أجبت بالنفي. أصرّوا بسبب قيامي بإلقاء خطب الجمعة في المسجد. وعندما نزعوا العصبة عن عينيّ رأيت أنهم يرتدون جميعاً ملابس شرطة زرقاء وقبّعات. كان عددهم ثمانية عشر وكنت أسمع صراخ أشخاص آخرين. رأيت على الجدران أضواء ساطعة وبقع دم. ربطوني على دكّة من الإسمنت وقرصوا

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فتحات أنفي ثم أدخلوا خرقة مبلّلة بالماء والصابون في فمي، وصبّوا المزيد من الماء عبر الخرقة حتى امتلأت معدتي بالماء والمسحوق، ثم ركلوا معدتي حتى تقيّأت. ودام الأمر ثلاث ساعات».

اقتيد هذا الشاب إلى سرداب كلّية شرطة شاتونوف في حيّ البيار. وأشار محمّد إلى جروح حمراء داكنة على قدميه، وقال إنه «أُخضع لصدمات كهربائية على قدميه بواسطة آلة تشبه المسدّس». وبعد عشرة أيام، اقتيد إلى مركز الشرطة الرئيسي قرب مبنى الخطوط الجوّية الفرنسية في وسط مدينة الجزائر:

«كان في مركز الشرطة ضابطان أحدهما يُسمّى قرعة والآخر عبد الصمد، قاما بتعذيبنا أمام بعضنا البعض، للتأثير النفسي. وعرضا علينا أمواتاً معلّقين بأصفاد في السقف، وكانوا أشخاصاً ماتوا من التعذيب والعطش. كانوا في الزنازين معي. من بلكور رأيت خمسة أشخاص موتى في مركز الشرطة. اثنان منهما متدلّيان من السقف والثلاثة الآخرون عُذّبوا وأُحرقوا بالنار حتى الموت. هدّدوا بإحضار زوجتي إذا لم أعترف بالحقيقة. وكان معي في السجن رجل يدعى سيّد أحمد شبلة من بَرَكي أبلغني أنهم أحضروا زوجته وعذّبوها. وأحضروا والدته وعذّبوها واغتصبوها أمامه. كنت خارج الغرفة عندما قاموا بذلك وعندما خرجت والدته كانت عارية ومضرّجة بالدم. كان عمرها ٥٥ سنة، وطلبت منا أن نكون شجعاناً وأن نصمد. وقد حُكم على سيّد أحمد بالإعدام. قاموا بتعذيبي بقسوة في مركز الشرطة بحيث ندّدت بشقيقي كونه في المقاومة. أوثقوا يديّ وقدميّ وسحبوني على بطني على الأرض. وضربوا رأسي بالأرض حتى سقطت أسناني».

أجهش محمّد بالبكاء، فجلسنا وانتظرنا حتى يستعدّ لاستئناف حديثه:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

«أحضروا شقيقي إلى مركز الشرطة ووضعونا وجهاً لوجه في غرفة، فأبلغته أن ما قلته غير صحيح وقلته بسبب التعذيب. وكان شقيقي يبكي ويقول: «سامحك الله». وقد حطّموا ضلوعه وتركوه يذهب... تحت التعذيب اعترفت بأنني كنت أجمع الدواء والمال للمقاومة. ولم يكن ذلك صحيحاً. قلت ذلك فقط لأنني أردت منهم التوقّف عن تعذيبي. كنت حافي القدمين أمام القاضي وكان جسمي ما زال مغطى بالعلامات. صرخت أمامه وقلت إنني تعرّضت للتعذيب. قال: «أجل، أعرف، ليس هناك ما أستطيع عمله... في سكارجي وضعوني في زنزانة ضيّقة ورطبة في السرداب طيلة ٤٥ يوماً... لم يكن هناك ضوء، وكان في الزنزانة العديد من الفئران. عذّبوني مجدّداً من خلال الضرب على قدميّ. وأعطوني إناء صغيراً للشوربا مليئاً بالصراصير وقطعة خبز صغيرة يومياً.

سمّى معذبيه بالملازم أبو عمرة وسعيد حدّاد، وكان السجناء يسمّون الأخير بهتلر بسبب شاربه. وتم اقتياد أحمد إلى المحكمة مجدّداً وجرت تبرئته هذه المرّة. قال لي إن الحرّاس أبلغوه: «إذا عدت ثانية، سوف نقضي عليك». وهو الآن مُتوارٍ عن الأنظار لأن فِرق الموت تتجوّل وتقتل كلّ مَن يخرج مِن السجن»... والآن هاكم رواية من الدرجة الأولى، أعطانا إياها رجل أسميته ليث - من أجل سلامته - في تقريري:

«في هضبة «دوق دي كار»، عاش ولدان كانا يذهبان معاً إلى المدرسة ويسكنان في البناية نفسها. أصبح أحدهما أصولياً والآخر شرطياً. تم إرسال الأصولي إلى معسكر اعتقال في الجنوب. وعندما خرج أراد الانتقام فقتل الشرطي صديق المدرسة. وقتل والد الشرطي ذلك «الإسلامي». لقد عرفهما الجميع في الحيّ. وإذا ذهبت إلى جنازة شرطي، تقول الجبهة الإسلامية للإنقاذ إنك مع الحكومة. وإذا ذهبت إلى جنازة «إسلامي» تلاحقك الشرطة. لذلك قدّم سكّان بنايتنا التعازي للعائلتين»....

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وحتى الجنرال السابق جاك ماسّو أعطى نصيحته للحكومة الجزائرية الجاهزة للقتال. فقد أعلن القائد السابق للقوّات الفرنسية الشرسة بتفاخر: «تتحمّل قوّات الأمن المسؤولية الرئيسية في ما يتعلّق بمستقبل بلادها. وبمساعدة الغرب فإن قوّتها ستكون ناجحة حتماً(*)».

لم يطلب الجزائريون أبداً نصيحة ماسّو، لكنه ربّما كان موافقاً على ترقية قائد فرقة الإبادة في الجيش الجزائري الجنرال محمد لمعاري إلى رتبة قائد الجيش وليس لديه اعتراض على تعيين عبد الرحمن مزين شريف وزيراً للداخلية، وهو واحد من السلالة النادرة من رجال الجزائر الأقوياء الذين يتحدّث عنهم الجزائريون، والذي يؤمن بأن الحلّ العسكري وحده قادر على جلب السلام إلى الجزائر. لذلك وجّهت إليه السؤال القاتل بينما كان متوجّهاً

(*) كان ماسّو يُسدي النصيحة فقط ـ فيما كانت الحكومة الفرنسية تقدّم مساعدة جدّية للجيش الجزائري. وخلال معظم عام ١٩٩٤، كانت فرنسا ترسل طائرات هيلكوبتر، وأجهزة رؤية ليلية للمراقبة الجوّية للمخابئ الجبلية ومعدّات أخرى معظمها عبر شحنات جوّية عسكرية فرنسية إلى مطار الجزائر. وقيل إن ابن مسؤول حكومي فرنسي يدير شركة أمنية خاصة خارج باريس، باع معدّات قيمتها ملايين الفرنكات لقوّات الأمن الجزائرية ـ كما باع الأميركيون طائرات هيلكوبتر لصدّام خلال الحرب الإيرانية العراقية على قاعدة أنها ستُستخدم لأغراض مدنية ـ متجنّبين بذلك تحقيقاً قانونياً من قِبل لجنة وزارية فرنسية داخلية لمراقبة الصادرات العسكرية (CIEEMG)، وقد جُهّزت طبعاً بصواريخ وعدسات ليلية لتصبح أسلحة هجومية. وكان الفرنسيون يستمعون أيضاً إلى البيانات العسكرية الجزائرية في سفينة شحن سابقة، تبحر على طول الساحل الجزائري ومجهّزة بطاقم مؤلّف من عناصر الإدارة العامة للأمن الخارجي (DGSE، المخابرات الفرنسية) ورقمها A646. وكانت السفينة البيضاء تراقب القوّات الجزائرية في جبال الأخضرية. وكان عملها خاضعاً بشكل متزايد لاعتراضات طائرات سلاح الجوّ الفرنسي وضبّاط المخابرات داخل السفارة الفرنسية في مدينة الجزائر. وعشية عيد الميلاد ١٩٩٤، اختطف مسلّحون إسلاميون طائرة للخطوط الجوّية الفرنسية في مطار الجزائر، وبعد إعدام عدّة مسافرين طاروا بها إلى مرسيليا للتزوّد بالوقود وهدّدوا بتحطيمها في برج إيفل. ولم يكن الأمر المفاجئ متعلّقاً بعملية الخطف التي حصلت بل باستمرار رحلات الخطوط الجوّية الفرنسية إلى بلد انحدر فيه مستوى القانون والنظام وحيث أصبح مجرّد ذكر اسم فرنسا حكماً بالإعدام على المواطنين الفرنسيين الذين لا يزالون في الجزائر. ولم يسأل أحد ما إذا كان المسلّحون ينوون الطيران للاصطدام ببرج إيفل جدّياً ـ أو أن خططهم ربّما ألهمت خاطفين آخرين في المستقبل، كان لديهم مشاريع أكثر طموحاً تورّط فيها ركّاب طائرات نقل وأبنية عالية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

إلى مكتبه في الطابق الثاني من القصر الحكومي مرتدياً بدلة زرقاء ومدخّناً سيكار هافانا: من هم الاستئصاليون؟ وهل هو أحدهم؟.

أخذ مزين شريف نفساً طويلاً من دخان سيكاره قبل أن يجيب. ثم قال: «الفلّاح يمكن أن يكون استئصالياً عندما يقتلع الأعشاب من الحقول، وأحياناً على الرجل تنقية الماء وتطهير الأشياء من الحشرات والجراثيم. هناك حالة متقدّمة من العنف والإرهاب في الجزائر. هل تسمّي ضابطاً يطبّق القانون ويقوم بواجبه استئصالياً؟ يدعو الناس عادة الذين يرتكبون الخيانة والفرار بالمستسلمين. وإذا كان عليّ الاختيار بين الاثنين، سأفعل كل ما بوسعي لتأمين استمرار الجزائر مجتمعاً عصرياً». وبعبارة أخرى، فإن مزين شريف استئصالي، مستعدّ للقتال حتى النهاية ضدّ الإرهابيين والمجرمين، والفيروس - عبارته إضافة إلى الحشرات الصدامية - الذين يهدّدون البلاد. كان الوزير أحد الرجال المتشدّدين، وقد حُكم عليه بالإعدام من قِبل الفرنسيين إبّان حرب الاستقلال، وكان حاكماً لجلفة وعين دلفة، وجلبة، وبجّاية، ومدينة الجزائر، ومن ذلك النوع من الرجال الذين لا تؤمّن سجونهم تكييفاً. وعندما سألت إذا كان من العدل التنديد بمبادرة غربية حديثة في روما حيث دعا الجزائريون بمن فيهم الجبهة الإسلامية للإنقاذ إلى السلام ونبذ العنف، تمتم مساعد الوزير وهو رجل مصدوم يده قوية: «إنها تشجب العنف بأسلوب فلسفي». هذا كثير من أجل المصالحة.

انزلقت الحرب الجزائرية نحو نمط من الاستفزاز الذاتي حيث يجري الانتقام ردّاً على كلّ فظاعة. في كانون الثاني/يناير ١٩٩٥ أعلن جيش الإنقاذ الإسلامي المعروف بالجناح العسكري للجبهة الإسلامية للإنقاذ أنه سيشنّ هجوماً دموياً يصادف شهر رمضان حيث ستتكثّف هجماته ضدّ المرتدّين والأتباع. وقبل أيام قليلة وعد البيان رقم ٣٣ لجيش الإنقاذ الإسلامي المعنون بالفتح المبين بأن عمليات الجماعة ستصل إلى العاصمة. وتأكيداً لذلك، أدّى انفجار سيّارة مفخّخة في وسط المدينة إلى مقتل ٣٨ شخصاً وإصابة ٢٥٦ آخرين بجراح. وهذا ما سيفعله المتمرّدون العراقيون بعد عقد من الزمن، من خلال تحديد شهر رمضان شهراً للهجوم العسكري - ومن ثم يهاجمون المحتلّين الأميركيين وأعوانهم من الشرطة العراقية دون الاكتراث بالأبرياء الذين يموتون. وقد وضِعت العبوّات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الناسفة في مدينة الجزائر خارج مقرّ قيادة الشرطة في شارع عمروش ـ مبنى مؤلّف من أربعة طوابق زعم العديد من الإسلاميين أنهم تعرّضوا للتعذيب داخل أقبيته ـ وانفجرت عندما كان الجزائريون يشترون الطعام قبل بدء شهر الصوم... وفقد العديد من الجرحى البالغ عددهم ٢٥٦ شخصاً أطرافهم.

كان الأبرياء الأكثر تضرّراً بشكل متزايد هم ضحايا أشدّ الهجمات قسوة. ففي كانون الثاني/يناير ١٩٩٥، جاء مسلّحون إلى منزل صلاح زوبار وهو مناضل في حرب الاستقلال، قرب شليف في غرب الجزائر، وخطفوا ابنته البالغة ٢٤ سنة وأبناءه الثلاثة ـ أصغرهم يبلغ ١٣ سنة ـ وقاموا بقتلهم جميعاً برصاصة في الرأس. وفي شباط/فبراير، اغتال الإسلاميّون عزّ الدين مدجوبي مدير المسرح الوطني الجزائري وهو ممثل مشهور، شاربه متدلّ بشكل مضحك ـ معروف في مدينة الجزائر بتقديمه مسرحية وليامز «عربة اسمُها اللذة» ـ وكان خارجاً من مسرحه بعد تقديمه عرضاً للأطفال عندما أطلق شابّان عدّة طلقات على رأسه(*).

(*) كان شهر رمضان ١٩٩٤ الأكثر حزناً بشكل خاصّ بالنسبة إلى المثقفين الجزائريين. فقد قُتل الكاتب الدرامي عبد القادر علّولة، مدير المسرح الوطني في وهران وهو في طريقه لإلقاء محاضرة درامية. بعد أربعة أيام، أصيب عزيز صماتي وهو منتج تلفزيوني إصابة بالغة وهو مقعد الآن. وفي أيلول/سبتمبر من تلك السنة قتل مسلّحون شابّ حسني أهمّ مغنّي موسيقى الراي. وكان لتهديد البربر بإعلان الحرب على الإسلام الأثر في إنقاذ حياة المغنّي لينوس متوب، وقد أطلق سراحه بعد ١٥ يوماً على اختطافه. ومن خلال اتهامهم المثقّفين بالاستخفاف وبإهانة الدين الإسلامي، اعتبرت الجماعات المسلّحة الوسط الفني ـ وليس بدون مبرّر ـ خطّ المواجهة الأمامي للحرب الثقافية ضدّ قيام جمهورية إسلامية. وكان أشهر المؤلّفات كتاب رشيد ميموني عن «البربرية بشكل عام والأصولية بشكل خاصّ»... وكان الإعلان الوحيد حول موته في شباط/فبراير ١٩٩٥ أنه مات نتيجة عوارض طبيعية. وفي مصر، كان الكتّاب أيضاً عُرضة للقتل حيث اغتيل الكاتب فرج فودة، وقامت جماعة إسلامية بطعن الكاتب نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل في القاهرة لكنها فشلت في قتله. وقد شرح كريم الراوي، الكاتب المَصري الذي قدّم الكثير لحركة حقوق الإنسان في القاهرة أن الصراع الإسلامي هو بشكل محدّد ثقافي بطبيعته، «لأن الإسلام هو دين الكتاب، والقرآن هو كلمة الله الناطقة باللغة العربية، وبناء عليه فإن اللغة العربية هي اللغة المحكية لكل يوم واللغة المقدّسة... وحين تكون كاتباً يعني أن تكون مؤلّف نصوص وتدّعي حقيقتها الأمر الذي ليس بالضرورة هو الحقيقة الوحيدة للنصّ المقدس. لهذا السبب فالكتّاب هم الهدف وليست كلماتهم فقط».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تسارعت الأحداث في الجزائر بحيث كان الذين يسافرون منّا بانتظام إلى البلاد أن يصبحوا معارضين. في شهر شباط/فبراير، حصل تمرّد في سجن سكارجي السجن الفرنسي البربري القديم في مدينة الجزائر المركزية حيث كانت المقصلة تسقط على أعناق الأسرى من جبهة التحرير الوطني ـ وانتهى بموت ٩٩ سجيناً من ضمنهم مسؤولان كبيران في الجبهة الإسلامية للإنقاذ. وقد سيطرت الشرطة العسكرية الجزائرية على السجن بعد مقتل أربعة من الحرّاس استناداً إلى السلطات. ولم يعرف أحد ما إذا كان السجناء يحاولون الهرب ـ كما فعل ٩٠٠ إسلامي في سجن تازولت ـ لمباس العام الفائت ـ أو أنه حمّام الدم الذي وصفته الجبهة الإسلامية للإنقاذ بأنه مجزرة طوعية قامت بها السلطات. وأفادت صحيفتان جزائريّتان أن ١٤ سجيناً قُتلوا على أيدي زملاء لهم في السجن. في البداية، قيل إن المبارك بومعرفي ـ المتهم باغتيال بوضياف ـ كان بين القتلى. لكنه ظهر فجأة بعد ذلك على شاشات التلفزيون بإصابة في ركبته وبشارب حديث، مبتسماً ومحيّياً مشاهدي شريط الفيديو قائلاً: «هذا أنا بومعرفي وأنا حيّ». ثم سرت شائعة أن الذي في شريط الفيديو ليس بومعرفي.

كانت الحرب الجزائرية تُخاض في الظلام. وتمنّى كلا الجانبين أن تغطّي هذه الظلمة صراعهما، ورغم ذلك كانت النتائج تُنشر دائماً بشكل مرعب. وقد أمضيت عدّة أيام مع القوّات الجزائرية المجنّدة التي تحوّلت إلى وحدات شبه عسكرية مع الوقت، أراقب رجال الشرطة الذين يرتدون الخُوَذ والأقنعة وهم يعتقلون الشبّان من الأحياء الفقيرة لاستجوابهم. وكان من الممكن أن نتسلّل عبر فقر مدينة الجزائر، في قافلة سيّارات «لاند كروزر» خضراء وبيضاء، ورشّاشات الكلاشينكوف مصوّبة من الأبواب الخلفية للسيّارات بين جموع من الرجال الواقفين وسط أكوام القمامة، التي تنتشر مكدّسة على طول الطرقات عبر Gaid Gassem ,Eucalyptus ,Houaoura ,Chateau Rouge ,Cherarba. وأحياناً كنّا ننطلق في الريف مع رجال الدرك بلباسهم الأخضر وهم يهرعون في بساتين البرتقال حول بليدا ويفتشون الشبّان الذين كانت أيديهم مرفوعة عالياً

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ووجوههم مليئة بالرعب، وفوّهات رشّاشات الشرطة تلامس رقابهم. ظللت أتساءل، ماذا يحصل عندما لا نكون نحن الصحفيين برفقة الشرطة؟.

أصبح المقدّم محمّد ـ عرفت اسم عائلته لكنّني وعدت بعدم الكشف عنه أبداً ـ دليلاً سياحياً، وهو يشير إلى الأماكن الجاذبة للخطر: سوبرماركت مدمّر من الداخل، ومصنع غاز محروق، ومجموعة من الشاحنات المتفحّمة عائدة لتعاونية رسمية، ومدرسة مدمّرة ونوافذ متناثرة. وعندما مررنا بقطار سكّة حديد كامل، كانت مجموعة مقطوراته الفضيّة محترقة وملقاة جانباً... وبملاحظة رجال الشرطة بأقنعتهم وخُوَذهم، أطلق عليهم سكّان الجزائر منذ زمن بعيد اسم نينجا، وهو لقب كانوا سعداء باستخدامه. وكلّما مررنا بشارع كنا نستطيع رؤية الشباب في الجانب الآخر يركضون للاختباء في المحلّات والأزقّة. كان الشباب الذين لم يهربوا ينظرون إلينا بحقد بحيث اخترقتنا نظراتهم كما لو أنهم هزموا الحكومة التي يمثّلها رجال المقدّم. لكنّ الوقائع مضت قُدماً مع محمّد. وبحسب قوله فإن الجماعات الإسلامية المسلّحة تحمل أسلحة تشيكية أو إسرائيلية ـ سكوربيون أو عوزي ـ يعتقد أنه تم تهريبها عبر حدود الجزائر مع المغرب وليبيا وتونس أو مالي. وكانوا يضعون القنابل في قوارير الغاز المليئة بالمتفجّرات، والزجاج، والغاز، والفُسفور والحديد، ويدفنونها في الطرقات ويتمّ تفجيرها عن بُعد.

قال: «إنهم منظّمون ووراءهم عقل مدبّر وهم أشخاص يتكيّفون مع الوضع ويتغيّرون. كانوا يستخدمون بنادق صيد مسروقة، والآن يستخدمون أسلحة رشّاشة ومتفجّرات. إنهم يشنّون الهجمات عندما يرغبون وبيدهم المبادرة. ولديهم مرشدون في أساليب العمل. ويعرف القادة بعضهم بعضاً لكن الذين يشنّون الهجمات لا يعرف بعضهم البعض الآخر. إنها بنية هرميّة». قام الإسلاميون بحلاقة لحاهم، وتخلّوا عن الجلابيب، وعملوا أحياناً قاطفي فاكهة، بنادقهم موضوعة جانباً في بساتين البرتقال. يستريحون في الأزقّة ليلاً ويخرجون في الوديان المحيطة عبر المجاري عند الفجر. وأبلغنا المقدّم محمّد بينما كان يرتاح في مكتبه في حراش «أن الجماعة الإسلاميّة المسلّحة في مدينة الجزائر أكثر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

عدداً من الحركة المسلّحة للجبهة الإسلامية للإنقاذ» في هذه الأثناء كانت آلة تسجيل تبثّ أغنية قديمة لرولنغ ستونز ـ «أنا مقاتل حرب شوارع» موضوعة على الطاولة المستديرة. «عندما تقاتلهم، يقاتلون حتى النهاية. ولا يستسلمون أبداً». وهذا ما سيقوله بعد ستّ سنوات ضبّاط القوّات الخاصّة الأميركية عن رجال القاعدة الذين يقاتلونهم في غرب أفغانستان.

في باب الواد، أقوى معاقل الإسلاميين على الإطلاق في أيّ مدينة جزائرية، جهّز المقدّم محمّد ورجاله أنفسهم على طول الطريق، يراقبهم حوالى ألف شابّ. تمتم المقدّم: «إن الحي يعجّ بالمراقبين، انظر إلى طريقتهم في النظر إلينا». صوّب رجال الشرطة بنادقهم إلى السطوح والشرفات بينما زادت الحشود وأصبحت أكثر إزعاجاً. وفجأة، أراد محمّد الرحيل ولم يمضِ على وجودنا هنا أكثر من دقيقتين. تمتم: «علينا المغادرة الآن». كم من المجنّدين الجُدد أوجد رجاله لدى الجماعات الإسلامية المسلّحة؟ إنّ دعم السلطة من خلال فوّهة بندقية لا يقضي على العنف. وتقريباً كان كل شارع مررنا به خارجاً عن سيطرة الحكومة الفعلية. ومن المؤكّد أن هناك مناطق محظورة في مدينة الجزائر. ولكن كانت هناك مناطق غير آمنة أيضاً.

أحببت التنقّل مع هؤلاء الرجال وأحبّوا رفقة الغربيين بسبب شعور الحماية الذي يمنحونهم إيّاه. كان هذا شعوراً مزيّفاً. وعلمت أنني إذا بقيت معهم الوقت الكافي سأشهد الحرب، وعرفت أنه مع مرور الأيام سيحصل إطلاق نار، وعملية مواجهة أراها بأمّ عيني عوضاً عن كتابة تقرير بعد ساعات أو أيام. لكن لم أصدّق أن ذلك سيحصل سريعاً.

كانت أشجار الصنوبر تسطع في ضوء الصباح الباكر، وأشجار البرتقال تلمع كالذهب، وامتدّت بساتين الزروع نحو سلسلة رمادية من الجبال. لا تستطيع إيجاد جدول أكثر هدوءاً يتدفّق عبر أشجار السرو من السواقي التي امتلأت من أمطار الليل. هكذا كانوا يظهرون الجنّة في كتب الأطفال. كانت الشيبية بلدة الشارع الواحد، بداراتها الفرنسية القديمة القليلة ومجموعة من البيوت الإسمنتية الرخيصة. ونوافذها المشرّعة. في الواقع كانت النوافذ مفتوحة في هذا الصباح

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

البارد المنعش والشوارع خالية من الناس. وفي مكان ما في رأسي ـ وكنت في داخل سيّارة اللاندكروزر المكيّفة التابعة للمقدّم محمّد ـ كان جزء من عقلي يسأل جزءاً آخر سؤالاً. ربّما كان الطقس بارداً في الخارج، وكان الناس في بيوتهم. لكن لماذا فتح الجميع نوافذهم؟ أيّ عمل غريب يحصل؟ عندها تعرّضنا للهجوم. لا أحبّ كلمة «نحن». لكنّك لا تستطيع وضع علم صحافي على سيّارة شرطة جزائرية، أضف إلى ذلك أنّ مفجّري القنابل سيكونون أكثر من سعداء لمعرفة أن هناك أجنبيّاً مع ستّة عشر شرطياً هدفاً لهم. وعندما انفجرت العبوّة الأولى تردّد صداها داخل عربة القيادة المصفّحة مثل إطار ينفجر خلفنا. عرف رجال الشرطة المقنّعين ماهيّتها. وعندما انفجرت العبوّة الثانية على بعد مئة متر بينما كنت أفتح الباب الخلفي، وارتفع جدار من الصوت وغطاء من الإسمنت والدخان خلف سيّارة الشرطة الثانية.

وعندما أخرجت آلة التصوير ونظرت من خلال العدسة إلى السيّارة الثانية ـ لالتقط صورة الدخان المنبعث خلفها ـ حصل انفجار ثالث وشعرت كما لو أن أحدهم يلطم أذني بيديه، ورأيت عبر العدسة طبقة من الإسفلت والعشب والحديد والنفايات تتصاعد ببطء في الهواء.

ركض شرطي من أمامي وأطلق النار إلى داخل الحقل المزهر إلى يساري، وخرجت امرأة من منزل مدمّر ـ دارة قديمة عائدة لذوي الأقدام السوداء، على ما أتذكّر ـ وهي تبكي وتصرخ وتطلب من الله والشرطة وقف الضجيج. وتساقط وابل من الحجارة الإسمنتية على الطريق حولنا وطار الغطاء الواقي لسيّارة الشرطة الثالثة وتدحرج على الطريق ومرّ قرب وجهي. حصل ذلك عندما انفجرت العبوّة الرابعة.

صرخ المقدّم محمّد: «انبطحْ، انبطحْ قد تنفجر عبوّة أخرى». نظرت حولي. كان إلى جانبي فندق بائس، ومحلّ حلّاق مهجور على الجانب الآخر من الطريق مع عبارة «حلّاق للشباب» مطبوعة بوضوح على زجاج الباب. كنّا منبطحين أرضاً عندما كانت الشظايا تتساقط، كمطر مجنون في هذا الصباح الجميل في الجنّة. وساد صمت خرقه صراخ المرأة المرعوبة وأصوات رجال

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يتنفّسون ويسعلون وصوت على جهاز الراديو يسأل هل وقعت إصابات وشرطيّ يتردّد بهدوء: «الّله أكبر». في هذه اللحظة، شرع رجال الشرطة في تمشيط الأشجار بالرصاص، وسقطت القذائف داخل الأغصان، وعادوا إلى إطلاق النار على الحقول مجدّداً وكانت رصاصاتهم تضرب بشدة وتئزّ منطلقة نحو حاجز سكّة حديد. ما عدت أكتب تقريراً حول الحرب الجزائرية من الدرجة الثانية بعد الآن.

كان كميناً مُتقناً. فقد وضعت الجماعة الإسلامية المسلّحة التي يقودها الآن أمير جديد في قرية بليدا ـ يُدعى سعيد مخلوف ـ عبوّات ناسفة على جانب الطريق تبعد الواحدة منها مسافة ٥٠ متراً عن الأخرى، وقد أصابت أربع منها أربع سيّارات من الدورية. قال محمّد: «إنهم محترفون. انتظروا حتى خرجنا من سيّاراتنا وفجّروا العبوّة الرابعة، لكنّ سيّاراتنا كانت موزّعة. ثم فرّوا. ربّما كانوا هناك. . .» وأشار إلى قرية الشيبية البريئة، المهجورة مرّة أخرى، «ليس هناك أي شخص في الطرقات، فقد تمّ تحذير سكّانها من قِبل الجماعات الإسلامية المسلّحة بحيث لا تحطّم القنابل زجاج نوافذهم لذلك ـ لم أفهم المعنى بدقّة ـ فتحوا تلك النوافذ في هذا الصباح الربيعي البارد». قال محمّد موجّهاً إصبعه نحو الأفق حيث تسطع الشمس الآن بحبور على جدران القرى الصغيرة المخفيّة تقريباً خلف الأشجار. تقدّمنا داخل الحقول بحذر ورجال الشرطة يطلقون النار أمامنا باحثين عن الأسلاك المبثوثة في العشب المبلل بالماء والأشجار المتأخّرة النموّ. عبر قطار سكّة حديد قربنا، القطار المحلّي بين بليدا والجزائر العاصمة، وكان الركّاب ينظرون إلينا وبأيديهم صحف الصباح من العربات النعسة كما لو كنا في حقل تدريب متطرّف. عندها وجدنا أسلاك التفجير الكهربائية وأربع بطاريّات سيّارة مغطّاة بالتراب بشكل غير مُتقن ومجموعة من المصابيح الضوئية المهشّمة نتيجة للتفجير قرب الحُفر الضخمة على الطريق. كانت واجهة إحدى سيّارات الشرطة محطّمة ومقابض الأبواب مخلوعة والشظايا منتشرة في الهيكل، لكن لم يُصب أحد.

كانت الأسلاك الكهربائية ممتدّة في الحقول وقام رقيب في الشرطة بتتبّعها

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مخرجاً إياها من الوحل والماء مثل مشهد من فيلم «جسر على نهر كواي» عندما اكتشف أليك غينيس أن أحدهم يخطط لتفجير جسره. وجدت الأسلاك طريقها إلى خارج الطين وتشابكت مع شريط سياج حيث يمرّ شريط صيد سمك أخضر باتجاه سكّة الحديد حيث انتهى الشريط على خطّيها، هناك كان ينتظرنا ثلاثة أو أربعة منهم، يستمعون إلى ـ أجهزة المسح بحسب المقدّم محمّد أجهزة الشرطة. وكان رجل عجوز يقطع العشب على جانب الحقول. قال: «كان هناك بعض الرجال هذا الصباح ومعهم أسلحة صيد، كانوا يصطادون الطيور». لكن في الواقع، كان الجميع في شيبية يعلم ماذا يحدث. ربّما احتاج الأمر إلى ساعات لنشر قوارير الغاز المليئة بالمتفجّرات، وأسلاك الكهرباء والبطّاريات وصواعق التفجير. ولعلّهم كمنوا هناك منذ أيام بانتظارنا.

عندما غادرنا شيبية، لم ينظر السكّان إلينا ولم يلقوا حتى نظرة على سيّارة التويوتا المتضرّرة بالانفجار، وكأننا لسنا موجودين، وكان ذلك هو المصير الذي أعدّته لنا الجماعات الإسلامية المسلّحة. أما الخطأ الذي حصل فيعود إلى المسافة بين العبوّات. وجّه المقدّم محمّد نداء عبر جهاز الإرسال قائلاً: «مسافة ـ ابقوا متباعدين عن بعضكم» ثم صاح مجدّداً: «الّله أكبر». وتمتم الشرطي الذي بجانبي بعبارة «محمّد رسول الله»، فردّدها الجميع معه وقد حيّرني هذا الدعاء الذي لم أفهمه في البداية. واستمرّ الأمر لدقائق قاربت الساعة بعد الكمين. كان رجال الشرطة يشكرون الله على رحمته. ولم يكن عندي شكّ أنه على الجانب الآخر لخطّ السكة الحديد، ربّما استخدم مفجّرو القنابل العبارات نفسها، طالبين الرحمة من الله ومستحضرين اسم النبي في محاولتهم قتلنا جميعاً. في طريق العودة إلى مدينة الجزائر التفت إليّ المقدّم محمّد وقال: «كان الحظّ إلى جانبنا اليوم».

كان حظّي جيّداً أيضاً. أردت أن أرى الحرب وحصلت على تقريري من الدرجة الأولى وعدت إلى فندق الجزيرة الآمن. لكن في الساعة ٥:٣٨ من صباح اليوم التالي ـ أصبحت لديّ عادة تفحّص ساعتي في كلّ مرة يحصل فيها

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

انفجار ـ دوّى انفجار هائل وارتفعت سحابة ضخمة من الدخان فوق مساكن عائلات رجال الشرطة في القبّة. وقبل الانفجار، كان منفّذو التفجير يغادرون مسرح الانفجار هاتفين ـ بشعار الإسلام ـ الّله أكبر، الذي يؤمن به رجال الشرطة أيضاً. ولم يودّ الانفجار المفترض أن يدمّر المبنى بكامله على رؤوس عائلاتهم إلّا إلى تدمير الجدار الأمامي فقط. كان معظم الجرحى الواحد والعشرين من النساء والأطفال وأصغرهم طفل عمره سنة. في السابق كان شرطيان يقومان بحراسة المباني في الخارج. وقد أبلغني شرطي خارج الخدمة: «لقد تمّ اغتيالهما معاً العام الماضي ومنذ ذلك الحين ليست هناك حراسة للمباني».

كان نوعاً من التثقيف أن تراقب قوّات الأمن الجزائري وهي تتفحّص مسرح التفجير. كان هناك رجال شرطة باللباس الأخضر والأقنعة ورجال شرطة مرور باللباس الأسود مع أحزمة ذخيرة وأقنعة سوداء لا تظهر فيها سوى العينين والفم، يقفون بين الحشد يراقبوننا جميعاً. «مَن هم؟» قال شاب ووضع راديو ترانزيستور عند أسفل النافذة وموسيقاه الصاخبة تعطّل أي جهاز تنصّت يمكن أن يكون رجال الأمن الجزائريون قد وضعوه قرب المنزل. كانت القصّة التي استمعنا إليها إحدى القصص السرّية التي تتحدّث عن الخوف، والإعدام العشوائي وفِرق القتل الحكومية السرّية، وزعيم إسلامي قُتل «بينما كان يحاول الهرب»، فضلاً عن المقابر الجماعية والجثث التي لا تُحصى في أكياس البلاستيك. وقد أدّت مذبحة سجن سكارجي إلى مقتل ٢٢٣ عنصراً من الجبهة الإسلامية للإنقاذ، واستناداً إلى الرجال في الغرفة، قتلوا جميعهم انتقاماً لتفجير مركز قيادة شرطة مدينة الجزائر.

لا يراود هؤلاء الرجال أدنى شكّ، ولا لحظة تردّد في روايتهم... بالنسبة إليهم، لا تُعتبر الجماعات الإسلامية المسلّحة إرهابيّة ولكن معارضة مسلّحة. وبالسؤال عن الروايات ـ المدعومة بالدليل الحسّي ـ التي تتحدّث عن اغتصاب رجال الجماعات الإسلامية المسلّحة للنساء، يجيب أحد الرجال: «إنها مجرّد محاولة لتشويه سُمعة المقاومة». وإذا عبّرت عن عدم تصديقك، يصبح الردّ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ألطف، نوعاً من الإجابة القذرة التي تعطيها الحكومات عندما تُدعى للمحاسبة. «هناك مبالغات من قِبل الجماعات الإسلامية المسلّحة بالطبع». الأمر الذي يعني بشكل ما القول بأن الجماعات الإسلامية اغتصبت النساء.

لكن كان هناك إفراط من قِبل الحكومة، وهو ما يجري الحديث عنه ووصفه بالوحشي والمستمرّ ـ بحسب ادّعاءاتهم في مدينة الجزائر ـ حين يتطرّق الحديث إلى وحدة خاصّة لمكافحة الإرهاب متمركزة في مقرّ شرطة شاتونوف، مركز التعذيب حيث تؤخذ النساء للاغتصاب المنظّم والإعدام على ما يقوله هؤلاء الرجال. ويقول المحامون الذين يمثّلون رجال الجبهة الإسلامية للإنقاذ إنه في العديد من القضايا لا ينزعج رجال الشرطة الجزائرية من تعذيب السجناء للحصول على اعترافات قبل سوقهم إلى المحكمة. إنهم يقتلونهم فقط.

يحاول محامٍ من مدينة الجزائر تفسير ما يحدث. منذ شهر ونصف شهر لم تعد هناك محاكَمات قضائية في مدينة الجزائر. فقد شكّلت الحكومة محاكم خاصّة في وهران، والجزائر والقسطنطينية في أيلول/سبتمبر ١٩٩٢، لكنها لم تنفع بسبب عدم تعاون المحامين. وقد ألغت الحكومة المحاكم الخاصّة هذه السنة ـ وقيل إنه عمل ليبرالي جيّد. لكن لم تحصل أي محاكمات منذ ذلك الحين. كانت تجري اعتقالات فقط.

وأورد المحامي قضيتيْ أستاذيْ فيزياء إسلاميّيْن من بليدا، الدكتور فؤاد بوشلاغم والدكتور أحمد نولاريس، اللذين اعتقلتهما الشرطة الجزائرية. يحمل أحدهما شهادة دكتوراه من جامعة تولوز، وتدرّب الثاني في معهد التكنولوجيا الأميركي الشهير MIT. وأعلنت الشرطة بعد اعتقالهما أنهما «قُتلا بينما كانا يحاولان الهرب». ماذا يفترض بنا الاستنتاج من ذلك؟. وكانت قضيّة الدكتور نورالدين عمّور رئيس وحدة جراحة العظم في مستشفى حراش في مدينة الجزائر، وقضيّة والدكتور شريف بلحراش رئيس قسم الأعصاب في مستشفى قسنطينة، أكثر رعباً. اقتادتهما الشرطة المسلّحة من المستشفييْن اللذين يعملان فيهما عام ١٩٩٤، واختفيا ببساطة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وهناك قضيّة عزّ الدين علوان، وهو محاسب في شركة المياه الوطنية، «قُتل شرطي العام الفائت وجرى اتّهام موكّلي بالجريمة» بحسب قول محام ثان». كان والد علوان مجاهداً، بطل حرب الاستقلال ضدّ فرنسا. وقد عذّبوا علوان في السجن بشكل قاس ثم قاموا بخصيه. وتدخّل والده لإخراجه من السجن وحصلنا على البراءة في المحكمة ـ كان رجال الشرطة الآخرون يبكون في قاعة المحكمة عندما سمعوا الدليل على ما تعرّض له ـ وقد ذهب والده إلى وزير الداخلية مزين شريف طالباً منه المساعدة لكن الوزير أبلغه بعدم استطاعته المساعدة لأن الرجال المذنبين ليسوا تحت إمرته».

عندما أجريت مقابلة مع مدخّن السيكار الاستئصالي مزين شريف، نفى وجود فِرقة مكافحة الإرهاب لكنه وافق على «أنهم نظّموا مجموعات داخل الجيش، والشرطة والدرك» لمحاربة الإرهاب. واستناداً إلى الرجال في الغرفة، بلغ عدد أفراد هذه المجموعات نحو ستة آلاف شرطيّ قويّ وعامل في مراكز الشرطة في ضواحي مدينة الجزائر في سيدي داي، والقبة، وبن عكنون وفونتين فريش. وكما في شاتونوف قال أحدهم إن طبيب سجن سكارجي أبلغهم بمقتل ٢٣٠ سجيناً. «كانت تصفية. ومن بين كوادرنا المقتولَين خلف شراتي، وهو إمام وأستاذ في مدرسة القرآن الصغيرة، ونور الدين حويك أستاذ التربية». وقد دُفن جميع الضحايا في مدافن جماعية في مقبرة العالية، ثلاثين أو أربعين في الحفرة ووضِعت أرقام على الأضرحة. وقد أعلنت الحكومة الجزائرية فتح تحقيق حول الفضيحة. ومَن الذي عُيّن رئيساً للتحقيق؟ مزين شريف بالطبع.

ومع مرور الوقت، أصبحت الحرب أكثر ضراوة والكتابة عنها أصعب ـ ليس بسبب المخاطر الجسدية فقط بل لأن تفاصيلها المرعبة كانت منفّرة، ومَن منا يعمل على تأريخ وحشيتها؟ ـ قامت الصحف الجزائرية بما تستطيع ـ بتشجيع من الحكومة بالطبع ـ لترويع القرّاء بصور لهذه الجرائم ضدّ الإنسانية. فهذه طالبة جزائرية في الخامسة عشرة من العمر مذبوحة وممدّدة في مشرحة في بليدا، تنظر بعينيها المفتوحتين نظرة اتهام للقارئ. وتُظهر صورة أخرى جثّتها، مغطاة بالدم، ويديها مقيّدتين بشريط خلف ردائها المدرسي. وتُظهر صور في

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

صحيفة يومية جزائرية أخرى جثّة مقطوعة الرأس لشابّة أخرى. وفي اللحظة التي أفتح فيها صحيفة كلّ صباح، أشعر أن عليّ النظر خلفي لأرى إذا كان هناك من يراقبني. إن مجرّد النظر إلى هذه الصور المرعبة عمل إجرامي بحدّ ذاته. هل باستطاعة الجزائر إنتاج المزيد من الرعب؟ باستطاعتها ذلك. كانت فاطمة غضبان ترتدي حجاباً في غرفة الصفّ في مدرسة «محمّد الأزهر» عندما جاء لأخذها في آذار/مارس ١٩٩٥، ستّة رجال مسلّحين ببنادق صيد ومسدّسات. واستناداً إلى زميلاتها، فقد بكت وتوسّلت إلى المسلّحين الذين أخذوها إلى خارج بوّابة المدرسة حيث مزّقوا حجابها وأوثقوا يديها وصفعوها على وجهها ثم ذبحوها. قال شاهد إن المسلّحين وضعوا رأسها المشوّه خارج باب غرفة صفّها حيث أُصيب العديد من الأطفال بالإغماء، ووجدت الشرطة الجزائرية العديد منهم فاقدي الوعي ومرعوبين. وقد حفر الرجال على إحدى يدي فاطمة أحرف "GIA". كان والد فاطمة غضبان مفتّش أشغال عامّة متقاعداً ويصعب تصنيفه بأنه عميل للحكومة. وقد استنتجت صحيفة «الوطن» أن جريمة فاطمة ترتبط بجمالها.

قبل يومين من مقتل فاطمة، اقتحم المسلّحون منزل عائلة مزارع في رغاية عند الصباح وحبسوا الابنة الصغرى في الحمّام ووضعوا الأُختين آمال البالغة ١٨ سنة وكريمة غودجالي البالغة ٢١ سنة ـ إلى جانب والدهما. ثم أطلقوا رصاصتيْن على رأس آمال ورصاصتيْن على قلب كريمة. كانت آمال مخطوبة لضابط شرطة جزائري. وفي الليلة نفسها اقتحم المزيد من المسلّحين منزلاً في تسالة المرجة قرب بليدا وقتلوا يمينة عمراني وهي امرأة حامل في شهرها التاسع وتبلغ من العمر ٢٦ سنة وكان زوجها خارج البيت. وقد اغتيلت نساء أخريات ـ اثنتان في العقد الثاني من العمر ـ أيضاً قرب بليدا في الأسبوع نفسه، وبعد أيام قليلة أقدم مسلّحون على اختطاف شقيقتين تبلغان من العمر ١٦ و١٧ سنة من من منزلهما في جبال أوراس وذُبحتا على بعد ٢٠٠ متر من المنزل.

أيّ طاقة بدائية تحرّك هذه الساديّة؟ مع أن الثمن كان رهيباً، فقد ربح

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الجزائريون حربهم ضدّ الفرنسيين. وهم جميعاً مسلمون على المذهب السنّي. وتقع بلادهم الشاسعة على أرض تحتوي مخزون نفط وغاز طبيعي بقيمة مليارات الدولارات. والجزائر هي الدولة الثامنة عشرة في تصدير النفط، والسابعة في تصدير الغاز. وتُعتبر بعد فرنسا وكندا، ثالث دولة فرانكوفونية. ويفترض أن تكون غنية بقدر غنى دول الخليج العربي، وباستطاعة أهلها شراء الأملاك والاستثمار في أوروبا وأميركا مثل السعوديين والكويتيين. على أن الجزائر تعاني حالياً من البطالة بنسبة ٢٥ في المئة ومن الأميّة بنسبة ٤٧ في المئة، ومن أفظع الصراعات الداخلية في العالم. في وزارة الداخلية، ينتجون الآن أشرطة فيديو حول المجازر أكثر إثارة وسُخفاً من كتب صوتَ الموت الإباحية الحكومية. وفي كلّ أسبوع يموت أكثر من ٢٠٠ رجل وامرأة الآن في المدن حول العاصمة الجزائر، ويعتقد الصحفيون الجزائريون بشكل خاصّ أن أكثر من مئة ألف قتلوا حتى الآن.

بدا في العديد من المجازر الأخيرة أن الجماعات الإسلامية المسلّحة تنتقم من هذه القرى التي أنشأت ميليشيات مدعومة من الحكومة لمحاربتهم ـ مبادرات أخرى صغيرة من صُنع مزين شريف. وكانت الشاحنات والباصات تتوقّف خارج هذه المدن عند حواجز مزيّفة مخيفة، وكان ركّاب هذه الحافلات يتعرّضون للذبح ـ عشرين أو ثلاثين ضحيّة في كلّ مرّة.

في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٦، توقّفت خارج لاغاويت سيّارة إسعاف تحمل امرأة مريضة وزوجها ومُسعفاً خلف باص عند نقطة تفتيش للشرطة، واستناداً إلى صحيفة ليبرتيه (Liberté)، المصدر الصحفي الوحيد الموثوق به على الأرجح والمتبقّي في هذه الحرب ، ذبحت «الشرطة» / المسلّحون، المسعف والسائق والزوج تاركين المرأة المريضة وحيدة في السيّارة. وقُتل جميع ركّاب الباص الأمامي بالطريقة نفسها. وقد توقّفت عدّة سيّارات خلف سيّارة الإسعاف حتى أدركوا ماذا يحصل، فاستدار الناس بسيّاراتهم وعادوا أدراجهم إلى لاغاويت للنجاة بحياتهم.

في سيدي الكبير، لم يكن هناك مثل ذلك الهروب. كان رجال القرية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المسلّحون في التلال المشرفة على منازلهم يوم ٦ تشرين الثاني/نوفمبر يبحثون عن الإرهابيين الذين تسلّحوا ضدّهم من قِبل الحكومة. خلفهم، كان أكثر من ثلاثين رجلاً من الجماعات الإسلامية المسلّحة يَدخلون قرية سيدي الكبير، ويبدو أنهم قاموا مرّة أخرى وبشكل منظّم بقتل مَن وجدوه في القرية. وقد أفادت التقارير أن طفلاً ذُبح بعد مناقشة بين المهاجمين حول أخلاقية قتل الأطفال، وتمّ ذبح عشر نساء على الأقلّ. وجرى الإجهاز على زوجين في منزلهما، الزوج في السرير، والزوجة على عتبة غرفة النوم بعد أن طلب منها ـ وبدون تبرير ـ ارتداء ثوب الزفاف. وقد وجد طفلهما الصغير مقيّداً في الغرفة نفسها.

وصل المسلّحون إلى أعالي جبال الجزائر، إلى دير تِبرهين Tiberhine حيث أخذوا سبعة من الرهبان. وقد فزعت فرنسا لذلك. فهؤلاء الرجال الروحيون يقدّمون المساعدة بلطف حتى لجرحى الجماعات الإسلامية المسلّحة. بعد سبعة أشهر، كنت جالساً قرب الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية الصغيرة في هيدرا في مدينة الجزائر مع المونسنيور هنري تيسيه، أسقف الجزائر وأستاذ اللغة العربية الفرنسي الجنسيّة. كان يضع نظارة. وكان قد حصل على الجنسية الجزائرية بعد الاستقلال. روى أنه تلقّى يوم ٢١ أيار/مايو ١٩٩٦ اتصالاً هاتفياً أبلغه أنه جرى ذبح الرهبان السبعة:

> «صحيح أننا وجدنا رؤوسهم فقط. كانت ثلاثة رؤوس متدلّية من شجرة قرب محطة وقود، والرؤوس الأربعة الأخرى مُلقاة تحتها على العشب. لكن الرائع أن عائلات هؤلاء الرهبان حافظوا على صداقتهم لنا ولجميع الجزائريين. لقد قاموا بزيارة الدير. وتقبّلوا خسارة أولادهم. كانوا يعلمون أن الذين قاموا بهذا العمل لا يمثّلون كل الجزائريين».

إذن، مَن قام بهذا العمل؟ قالت الحكومة الجزائرية إن الجماعات الإسلامية المسلّحة بقيادة صيّاح عطيّة الذي تعرّف عليه أحد رهبان الدير عندما فتح الباب ـ من صورة صحفية تصف عطيّة بقاتل اليوغوسلاف الذين ذُبحوا قرب الدير.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لذلك هل يستطيع الأسقف معرفة ما كان يدور في أذهان القتلة عندما استلّوا سكاكينهم؟ «باستطاعتهم قتل صبيّ أو اثنين أو كهل عمره ٨٥ سنة. أعتقد أنهم بحالة اللاوعي. إنهم يعملون وفق فهمهم هم للشريعة الإسلامية ـ «علينا قتل أعداء الله» ـ وانتهى الأمر. نحن لا نفكّر في حياتنا فقط بل في حياة كل الناس في الجزائر... إن الأمر الأكثر صعوبة يتعلّق بمعرفة أن بعض الأشخاص يموتون كل يوم، والأمّهات يبكين أبناءهنّ وبناتهنّ. نحن لسنا الآن في الوضع الذي كنّا عليه قبل الأزمة. عندما تحيي شعائر القربان المقدّس، لا تستطيع سوى التذكّر أن المسيح قُتل بواسطة العنف البشري ـ وباسم الدين. الآن علينا فهم الخطر في هذا المجتمع. إننا نسير على خطى المسيح. لا نستطيع النظر إلى صليب المسيح كما كنا ننظر من قبل. سابقاً، كان أمراً نظرياً في السابق، والآن أصبح حقيقة يومية».

كان الأسقف قد أقام قُدّاساً لمجموعة مؤلّفة من ستّ راهبات ورهبان في مدينة الجزائر، وكان القسّ يقرأ من إنجيل متّى ـ الفصل ٢٥ الآية ١٣: «لذلك توخى الحذر، لأنك لا تعرف اليوم أو الساعة التي يأتي فيها ابن الانسان». لقد جاءوا لإحياء ذكرى أول شهداء فرنسا الدينيين في الجزائر، الفيكونت شارل دو فوكو، الجندي الذي تحوّل إلى راهب واغتاله إسلامي في تمانراست عام ١٩١٦ والذي شكّل مقتله سابقة للرهبان والراهبات الذين ما زالوا يرفضون مغادرة الجزائر. في أوائل عام ١٩٩٦، قُتل أسقف وهران المونسينيور بيار كلافري نتيجة انفجار قنبلة في اليوم الذي قابل فيه وزير الخارجية الفرنسي هرفيه دي شاريت قال الأسقف تيسيه: «انفجرت القنبلة في الشارع وقد ارتطم الأسقف بباب الكنيسة ووجِد دماغه على أرض الكنيسة. كان عملاً أحمق غبيّاً وغير واعٍ».

كان زائري شابّاً، أنيقاً، يرتدي سترة جلدية ثمينة فوق كتفيه. وكنت قد تلقّيت اتصالاً من لندن، لكن لم أتوقّع أبداً أن يأتي ممثّل للقوّة الفدائية الإسلامية في الجزائر إلى فندقي في مدينة الجزائر المحروس من قِبل قوّات الأمن والشرطة المسلّحة في البهو الأمامي وقوّات الميليشيا عند المداخل. قال الشاب بينما جلسنا على شرفة غرفتي وأشجار النخيل تتمايل مع الريح خلفنا:

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

«تستطيع مناداتي أبو محمّد». اعترف صراحة بعضويّته في الجناح العسكري للجبهة الإسلامية للإنقاذ وأعلن بشكل مطلق أنه بعد شهور من الحرب المدمّرة، اتّحد جيش الإنقاذ الإسلامي التابع له مع الجماعات الإسلامية المسلّحة ـ قال إنه كان المفاوض في الاجتماع الثالث في شليف أوائل تشرين الأول/ أكتوبر حيث تم اتخاذ القرار النهائي لدمج القيادتين.

لكنّه زعم أن الجماعات المسلّحة مخترقة بعمق من قِبل أجهزة المخابرات العسكرية. وادّعى أيضاً أن أسوأ الفظائع في الحرب حصلت على يد عملاء الحكومة. كانت كلماته فظّة ومطلقة. وعندما سألته لماذا تذبح الجماعات الإسلامية أعداءها. أجاب:

> «إنها الوسيلة الفُضلى للتقرّب إلى الله، الوسيلة الفُضلى لقتل الطاغوت (عدوّ الله). إذا كان لديك أحد قادر على قتل أطفال بعمر خمس سنوات ماذا تفعل به؟ أتقتله بالرصاص؟ الرصاص عزيز بالنسبة إلينا ـ فهو غالي الثمن. خذ على سبيل المثال طلقة كلاشينكوف عيار ٩ ملم، إنها كما لو أنك ترميها بعيداً. أي إنسان يحاول تدمير الإسلام، تدمير السيّد الخيّر، ويتجاهل اسم الله هو شرّير».

هناك نوع آخر من التحوّلات في العمل. يعتقد أبو محمّد أن الشرطة وعملاء الحكومة هم قتلة الأطفال. ويعتقد رجال الشرطة والحكومة أن الجماعات الإسلامية المسلّحة هم قتلة الأطفال. أو كما يقولون. لذلك مَن يقتل الأطفال؟ في وقت ما، أعطاني أبو محمد كرّاساً إسلاميّاً وسلسلة مفاتيح مكتوباً على قبضتها خالد. وأضاف أن خالد هو اسم قائده العسكري المحلّي أو أميره. وأشار مراراً إلى الحاجة إلى القضاء بعون الله على الحكم الجزائري بُغية إقامة دولة إسلامية شرعية وبرّر ملاحظاته مستشهداً بالقرآن بأسلوب حماسي. قال: «لقد فقدت مئتي صديق لكنّ هذا غير مهمّ لأنني أعلم أنني سألقاهم مجدّداً يوماً ما. لأنه عوضاً عن المئتين الذين قتلوا، أصبح هناك ٦٠٠ أو ٧٠٠ آخرون مجاهدين». وصف لي كيف جرى اعتقاله في كانون الثاني/يناير ١٩٩٦ ـ نحن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الآن في شهر كانون الأول/ديسمبر من السنة نفسها ـ وتعذيبه من قِبل رجال الأمن بالكهرباء:

«أحمد الله أنني لم أُدل بأيّ معلومات. فحالما تدلي بمعلومة، يُقضى عليك لأنهم سيعذّبونك من أجل معلومات أخرى حتى تموت... كانت هناك عدّة نساء عملن لصالح الإسلاميين... في بعض الأحيان كنّ يتصلن بالمجاهدين ويُبلغن عن أزواجهنّ بأنهم يعملون لصالح الدولة. حصل ذلك معي، جاءت امرأة إليّ منذ سنة وأبلغت عن زوجها وقالت إنه يعمل لصالح الأمن العسكري. كان علينا التحقّق للحصول على دليل. قتلته الجماعات الإسلامية المسلّحة ـ الجماعات الإسلامية المسلّحة الحقيقية التي لم تتعرّض للاختراق. قامت قوات الأمن العسكري باعتقال نساء وتعذيبهنّ واغتصابهنّ ثم إلقائهنّ في السجن. أتعلم ماذا يطلبنَ منا؟ يطلبنَ منّا إلقاء قنبلة في زنازينهنّ. أتعرف لماذا؟ لأنهنّ عانين كثيراً وهنّ يعشنَ كابوساً. كلهنّ حوامل».

كانت هناك عدّة تقارير مؤكّدة جمعتها صحيفة الإندبندنت وكذلك مجموعات حقوق الإنسان حول اغتصاب المعتقلات في الجزائر.

كان أبو محمد متشدّداً أيضاً في وجهة نظره حيال الدول العربية الأخرى. «المسلمون منتشرون في كل مكان لكنّ جميع رؤسائهم أشرار... كل المسلمين في حالة حرب مع الدولة ـ في مصر، في تونس، في ليبيا. يقولون إن السودان دولة إسلامية لكن عندهم أخطاء هناك. إيران دولة شيعية ـ ليسوا مسلمين حقيقيين». لم يكن أبو محمد على علم بأنّ قنبلة انفجرت للتوّ في ميترو باريس، لكنّ ردّه كان فورياً: «هذا مشروع، ففرنسا هي السبب لكلّ ما يجري في الجزائر. لقد ساعدت الحكم الجزائري ـ لماذا اختاروا فرنسا بالتحديد بحسب اعتقادك؟ «عليك أن تسأل نفسك هذا السؤال».

بدا أبو محمّد كفتى لمجلّة بلايبوي أكثر منه إسلاميّاً بسترته الجلدية وذقنه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المحلوقة وعطر الحلاقة الذي تفوح رائحته بقوة. لذلك بدت كل ملاحظاته حول الاستشهاد أكثر غرابة: «وعدنا القرآن بالنصر أو الشهادة. ويقال إن الشهداء الحقيقيين لا ينزفون الكثير من الدم. عندما يموتون، تفوح منهم رائحة المسك. هذا صحيح. عندما يموت شهيد، تلقاه في الجنّة ٧٢ من الحُور العِين».

لكنّني بدأت أتساءل إذا لم تكن كلّ النساء الجميلات قد قُتلن وإذا لم يكن بعض هؤلاء النسوة الاثنتين والسبعين يحملن ندوباً دامية حول أعناقهنّ. عام ١٩٩٧، تميّز شهر رمضان المبارك بمجموعة من حمّامات الدم التي تتضمّن الذبح وقطع الرأس والسيّارات المفخّخة وخنق الأطفال أيضاً. قُتل حوالي ثلاث مئة شخص. واعترف وزير الداخلية بمقتل ٨٠ ألف جزائري حتى الآن. وفي بن عاشور على بعد ٥٠ كلم من الجزائر العاصمة، جرى بقر عائلات بكاملها انتقاماً لدعم القرويين الميليشيا المحلّية الموالية للحكومة. وكان من بين القتلى طفل عمره ستّ سنوات، وطالبتان بعمر العاشرة وامرأة حامل أُخرجت أحشاؤها قبل قطع رأسها. وفي حروش تراب، ذُبح عشرة مدنيين بينهم سبعة نساء وصبي في العاشرة من العمر. كانت إحداهنّ في الخامسة والعشرين من العمر وقد قُطع رأسها وعُلقت من شعرها على حربة ـ تُركت إلى جانب الطريق بحيث ترحّب بزوجها عندما يعود من دورية الميليشيا. وكتب القتلة على جدران قرية: «حرب بعد حرب، دمار بعد دمار. كوكا سيعود». كوكا هو الاسم العسكري للقائد المحلّي للجماعات الإسلامية المسلّحة ـ اسمه الحقيقي هليلة كوك ـ وقد أردته قوّات الميليشيا «الحرس المشترك» قبل عام.

أبلغتنا شابّة نعرفها برعب أن صديقتها كانت في باص متوجّهة إلى عملها عندما مرّ الباص بشارع رأت فيه رأس شرطي معلّقاً على عمود في أعلى بوّابة. ووصف مواطن آخر في مدينة الجزائر آلة جديدة للجماعات الإسلامية المسلّحة هي نموذج بدائي للمقِصلة، بديل مُرتجَل للمقصلة متصل بشفرة جديدة تُستخدم ضدّ الضحايا بعد سوقهم من بيوتهم. واستناداً إلى السكّان توضع المقصلة على شاحنة. ويؤخذ المحكوم عليهم بالإعدام من قِبل الجماعات الإسلامية المسلّحة من بيوتهم، وتملأ أفواههم بالجرائد وتقطع رؤوسهم في الشاحنة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

بن طلحة وريس: قريتان أخريان وبائستان في الريف. هذه المرّة تُميّز الساديّة ومستوى الهجمات بُعداً جديداً للوحشية، شيئاً لم نشهده من قبل، قرى بكاملها قُضي عليها بالسكّين، وذُبح سكّانها بشكل جماعي مثل الحيوانات، ونُزعت أحشاؤهم، وقطّعوا إرباً. عندما تم اصطحابنا إلى هاتين القريتيْن الصغيرتيْن ـ رأيناهما على النمط البوسني، بلدتي أشباح جدرانهما مهدّمة وأسقفهما ـ حتى رجال الشرطة والجنود خيّم عليهم الصمت. من الخجل أو الذنب؟

من على سطح منزل عليّ في ريس، أستطيع رؤية ثكنات الجيش المحلّي على بعد كيلومتر عبر الحقول، مطليّة بالأزرق يرفرف على سطحها العلم الجزائري الأبيض والأخضر مبتهجاً. قال عليّ إنه لا يعرف لماذا لم يتدخّل الجنود عندما بدأ القتلة ـ الذين يرتدون جلابيب وقبّعات أفغانية ـ بذبح عائلته. على جانب رقبة عليّ نُدبة حمراء وحشية عميقة في الجلد مُقطّبة بخشونة ـ لأنهم حاولوا جزّ رقبة عليّ أيضاً. قال ورأسه منحنٍ إلى اليمين: «كان هناك أكثر من مئة رجل جاؤوا إلى قريتنا من ثلاث اتجاهات وظلّوا هنا ثلاث ساعات على الأقلّ. حدث إطلاق نار وصراخ. لم يساعدنا أحد». حوله، في الدور الرخيصة المبنيّة بالطوب وفي مزارع الدجاج والمرائب المحروقة ما زالت هناك طبقة كثيفة من الدم القديم... في قرية واحدة: ذُبح ٣٤٩ جزائرياً ـ معظمهم من النساء والأطفال ـ في وقت متأخّر من ليل ٢٩ آب/أغسطس ١٩٩٧. وعندما سألت عليّ أن يَصِف لي تلك الليلة، حدّق إليّ بصمت مشيراً بيده اليسرى الملفوفة بالضمادات التي تظهر ندبة حمراء أخرى مخيفة عند الرسغ. وهمس جار له في أذني: «ذبحوا زوجته أمامه». وكان هذا ما دفع عليّ إلى الكلام:

> «كانت معظم عائلتي هنا. زوجتي وأولادي الثلاثة وشقيقي وزوجته وأبناؤه وابنته وعدّة من أبناء العمّ. اختبأنا في المنزل لكنّهم ألقوا قنابل عبر النوافذ واقتحموا الباب بالبلطات».

مال عليّ واتكأ على حائط الشرفة بينما كان يقول هذه الكلمات.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تجوّلت داخل المنزل المحترق ووجدت قرب نبات البغونيا والعنب على الشرفة منفضة قديمة عليها كلمات: «لا إله إلا الله محمّد رسول الله». إلى جانبها، بقعة داكنة من الدم على الحائط كما لو كان مطلياً تحدّياً لكلّ الأديان. تنهّد عليّ. وكان على وشك الغوص عميقاً في بحر من الألم:

> «كان طفلي محمّد في الخامسة من عمره ذبحوه وألقوا به من النافذة العليا. ثم ذبحوا ابني الأكبر ربيع ثم شقيقي لأنه شاهدهم وهم يخطفون زوجته وحاول منعهم. وأخذوا بعض الفتيات الأخريات».

> ثم رفع عليّ يده وقال: «دم». هناك المزيد من الدم في الطابق الأرضي وبُقع بنّية في غرفة الجلوس حيث حدثت جلجلة عليّ الأخيرة: «قطعوا عنقي وأحسست بالسكّين داخله لكنني حاولت حماية نفسي فجرحني الرجل في ذراعي. كانت زوجتي شجاعة. حاولت مساعدتي ومقاومتهم لإنقاذي، لذلك اقتادوها إلى عتبة الباب حيث كنت ممدّداً وذبحوها أمامي. كان هناك طفل آخر، حاولت الأمّ إخفاءه خلف بعض الحجارة لكنهم ذبحوها ثم ذبحوا الطفل فوق الحجارة. تعرّفت على الرجل الذي استخدم السكّين ضدّي. رأيته في شوارع قريتي».

هناك أوقات في هذا المكان المليء بالفظائع يصاب فيها المرء بالعمى من هول ما حدث أمام الأسئلة الواضحة. لماذا لم يتوغّل الجيش في البساتين؟ لقد سمعوا الصرخات تنطلق من الأبنية على الطريق الرئيسي. لقد رأوا النيران على الأسطح. لقد سمعوا انفجار القنابل. ومن هم أولئك المدعوون مسلمين، الذين يقومون بهذه الأفعال من الذبح غير المبرّر؟ لماذا يقتل الإسلاميون القرويين أنفسهم الذين اقترعوا للجبهة الإسلامية للإنقاذ بصدق والذين عارضوا تاريخياً الحكم الجزائري؟.

في قرية بن طلحة المجاورة ـ حوالي ٢٤٠ قتيلاً ـ كانت لافتات الجبهة الإسلامية للإنقاذ لا تزال موجودة على الجدران وعلى أعمدة الإضاءة. وهنا

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أيضاً، أبلغني رجل عمره ٥٤ عاماً عرّف نفسه باسم سعيد فقط، أن رجال القرية هربوا لتحذير الجيش، تاركين نساءهم وأولادهم خلفهم. كلّما مررت بهذه الشوارع الحزينة تذكرت ما حدث هناك. قبل سنتين، اصطحبنى المقدّم محمد من الحرس الوطني إلى هذه القرى. في بن طلحة، أوقفت قوّات الشرطة التابعة له رجلاً حاول الفرار ـ قرب قناة المجارير التي رأيتها عندما تجوّلت في القرية. كان الرجل خائفاً من تصفيته فقد ساند كل الناس الإسلاميين. بعد ذلك قال لي المقدّم في سيّارته اللاندكروزر إن سكّان القرية كانوا يساندون الإرهابيين .كانت منطقة إرهابية. إذن، لماذا يريد الإرهابيون الآن قتل كل هؤلاء الناس الذين ساندوهم بحسب زعمه؟ كانت بن طلحة، وهي قرية ليست بعيدة عن السياسة، معقلاً للجبهة الإسلامية للإنقاذ.

أُحرقت فيها البيوت الكبيرة ـ من البيوت المتداعية الفقيرة إلى البيوت الأوسع التي تحتاج إلى الحماية عند وصول المسلّحين وحاملي الفؤوس ـ وغرقت باحتها الخلفية بالدماء. اعترف سعيد بأسى: «هرب الرجال ـ كانت غلطة. لقد عرفوا ما سيحصل وحاول بعضهم إلقاء الحجارة والطوب من سطوح المنازل. كان لدى أحد رجالنا بندقية وقتل أحد الوحوش. وصادف أن الرجل القتيل من القرية نفسها. مرّة أخرى استمرّ الصراخ طويلاً خلال الليل. ومرّة أخرى وصل الجنود من الثكنات المحلّية بعد فرار القتلة. وتذكّر سعيد أن الإسلاميين كانوا يشتمون وهم يندفعون في الشارع غير المرصوف مرتدين الجلابيب والعمامات. تابعوا الصراخ «سوف تموتون وتذهبون إلى جهنّم ـ سنقتلكم وسنذهب إلى الجنّة».

هرب معظم سكّان بن طلحة بعد المجزرة. والآن عاد البعض عند الصباح. وجدت اثنين منهم يحاولان إصلاح داخل بيتهم المحروق، ويقومان بتثبيت الأضواء نصف المحترقة في الجدران، متجاهلين أسئلتي، بينما كانت مجموعة من الأطفال ـ الذين اختبأوا على السطح خلال المجزرة ـ تراقبهما بصمت. ورفض رجل آخر إعطاء اسم زوجته المقتولة. قال وهو يبكي: «اسمها ملكي».

يثير الناجون البائسون من العائلات مشاعر تتعدّى الشفقة. إنهم خائفون من

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المستقبل كما كانوا خائفين من الماضي. في المطبخ، أصبحت الأطباق المعدنية صعبة التمييز، الصحون محطمة والأدوات ملقاة على الأرض. في أحد البيوت، أُلقيت قنبلة على قفص عصافير محوّلة قاطنيه إلى كتلة من الريش المحروق في الغرفة. أي نوع من الرجال يلقي قنبلة على قفص عصافير؟ وتظهر كومة من الكتب المدرسية في مرآب قرب ثلاث برك كبيرة من الدم المتجمد كيف أنّ صاحبها الراحل حاول بجدّية ـ بالرغم من الفقر المدقع في هذه القرية ـ تحسين وضع المجموعة.

تحمل الصفحة الأولى من دفتر تمارين الصبي اسمه: قريشي لقد مارس الصبي تصريف الأسماء وكتب بامتثال سيرة عائلته الميتة. «عبدالقادر هو والدي ويعمل كهربائي. زهور اسم والدتي وهي خيّاطة. حميد هو عمّي ويعمل شرطياً. سليمة عمّتي وتعمل ممرّضة». وتساءلت ما إذا كان عمل حميد قد أدّى إلى موت العائلة. لكن الناجين نفوا وجود أيّ تمييز. لقد عوملت كل الضحايا بشكل متساوٍ: قتلوا جميعاً. قال أحدهم إنه سمع المسلّحين الذين دخلوا القرية يصرخون أن أعداءهم «يهود».

قال رجل طلب مني عدم ذكر اسمه أنه شاهد العائلات الأكثر فقراً في بن طلحة تسعى للاختباء في أكبر منزل في شارع هجيلالي «لم يكن الأمر جيّداً بالنسبة إليهم. وقفت هنا خلف النافذة وكنت أستطيع سماع الناس الفقراء يصرخون ويموتون. وعندما نظرت من نافذتي استطعت رؤيتهم يذبحون النساء فوق السطح». قُتل سبعة عشر شخصاً على الأقلّ في ذلك المنزل. في إحدى زواياه، اكتشفت كتاباً عن الفنّ الأوروبي ـ صورة ملوّنة لبِيَتا Pieta مايكل أنجلو ملقاة على الأرض ـ وآخر يتحدّث عن مزايا شهداء الحرب ضدّ الفرنسيين، وبدت فيه وجوههم مشوّهة بالطلقات النارية والشظايا. إلى أيّ حدّ تغيّرت معاناة الجزائر؟ بعد أيام، أظهرت صورة لامرأة مضطربة من بن طلحة أن عائلتها قُتلت، وستصبح هذه صورة المأساة. وسوف يعطون الصورة اسم «بِيتا» Pieta.

لذلك أتساءل: مَن قتل كل هؤلاء الأشخاص الفقراء؟ يوم ٢٠ آب/ أغسطس، أي قبل يومين من مجزرة ريس، أعلن الرئيس زروال «أن الإرهاب

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يعيش ساعاته الأخيرة في بلادنا». وأن الأفعال العنيفة الآن تعتبر ما «تبقّى من الإرهاب». كانت بن طلحة القرية التي قام بحراستها بوّاب الفندق الجزائري في باريس، الفندق الذي طُلب فيه من والدي إعدام الجندي الأسترالي الذي قتل رجل الشرطة العسكرية البريطاني عام ١٩١٩.. لاحظ ذلك الجزائري أيضاً كيف امتنع الجيش عن دخول القرى حتى رحيل القتلة. استخدم عبارة سلطة ـ السلطات ـ واختار عندها قول المزيد.

عرفنا جميعاً أن ذلك حصل في الجزائر. لأكثر من أربع سنوات، أخبرنا المعتقلون المحرّرون عن التعذيب بالماء والضرب، والخنق والاختناق بالقماش وسحب الأظفار من قِبل المحقّقين، واغتصاب النساء بالجملة من قِبل رجال الشرطة، وعمليات الإعدام السرّية في مراكز الشرطة. كان الدليل مقنعاً بشكل كافٍ حتى عندما صدر عن الأعداء المعلنين للنظام الجزائري أو أعضاء التنظيمات المسلّحة المعارضة له. لكن في منتصف عام ١٩٩٧، وحتى عندما كانت مجازر القرى تحصل ـ والمتهمة بها طبعاً الجبهة الإسلامية للإنقاذ والجماعات الإسلامية المسلّحة، الإرهابيين، البرابرة ـ جُمعت المئات من الصفحات التي تقدّم البراهين، من قِبل المحامين الجزائريين وناشطي حقوق الإنسان، وتُثبت بشكل مطلق أن قوّات الأمن الجزائرية مسؤولة عن عمليات الاختفاء، والتعذيب وجرائم القتل ضدّ الإنسانية. والأمر الأكثر حساسية أنني وجدت، بعد أسابيع من الاتصالات، عناصر من قوّات الأمن الجزائرية الذين طلبوا اللجوء السياسي في بريطانيا وكانوا مستعدّين الآن للحديث عن الفظائع التي عايشوها.

سافرت إلى لندن للحديث مع أندي مارشال، محرّر الأخبار الدولية الجديد في صحيفة الإندبندنت. وأحضرت معي من الجزائر صوراً لنساء اختفَين ـ علمت ذلك من خلال مقابلاتي مع ضبّاط الأمن الجزائريين ـ أعطيته إياها. قال: «أصدّق ذلك، يبقى أن نطلب من رئيس التحرير نشرها في الصفحة الأولى». أعلم ما يعني هذا. باتت الفرصة ضئيلة الآن في الحصول على سِمات الدخول إلى الجزائر الصعبة المنال. فلا ينفع أي إنصاف من قبلنا في جعل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

سُمعتي نظيفة لدى السلطة بعد التشهير بها بتهمة الشرّ الإنساني. بدأ تقريري في مدينة الجزائر.

قدّر الأستاذ محمّد طاهري، وهو رجل قصير ذو شارب صغير، عدد المفقودين بحوالي ١٢ ألفاً. ولكن في اللحظة التي بدأت فيها مناقشة هذه الشخصيّة المرعبة، دخلت شابّة ترتدي حجاباً أبيض بهدوء من الباب وهمست في أذن الأستاذ طاهري. أنصت المحامي البالغ من العمر ٤٦ سنة بدون انفعال محدّقاً إلى الأرض. ثمّة من رجال جاؤوا إلى مكتبه. نظرت إليهم لفترة قصيرة؛ كانوا رجالاً طوال القامة ضعفاء يحدّقون عبر الباب الأمامي وتُسمع من خلفهم ضوضاء ضاحية القبّة الجزائرية. وكانت ملابس المحكمة تتدلّى على الحائط خلف الأستاذ طاهري، سوداء وأطرافها من الفرو الأبيض، الرمز الخاصّ للقانون النابوليوني الذي حكم الجزائر في وقت ما. لكن السلطة بعيدة الآن بضعة أمتار عنه.

تمتم طاهري: «تقول إن الرجال جاؤوا من مركز الشرطة ويريدون رؤيتي». كان على مكتبه ملفّ كبير يحتوي آلاف الصور، لرجال ونساء، أحياء وأموات جميعهم اختفوا بواسطة الشرطة الجزائرية ـ من قِبل هؤلاء الرجال أنفسهم الواقفين الآن عند الباب. أخرج طاهري صورتين ملوّنتين ليعطيني إيّاهما، إحداهما لامرأة شابّة ترتدي كنزة سوداء عليها مِشبك بشكل قلب، ولها غرّة من الشعر في مقدّمة رأسها، والأخرى لامرأة جالسة في استديو مصوّر ترتدي لباساً أحمر طويلاً وقصّة شعرها أقصر لكن مع الوجه الناعم نفسه.

نعيمة ونجوى بوغابة شقيقتان تبلغان من العمر، ٢٣ و٢٩ سنة، اعتقلتهما الشرطة الجزائرية يوم ١٢ نيسان/أبريل ١٩٩٧. كانتا موظفتين في المحكمة، وإحداهما تعمل عند قاض في مدينة الجزائر يحقّق لسوء الحظ في لائحة من الإسلاميين المشتبه بهم وضعتها الشرطة السويسرية ـ وباعها شرطي سويسري للاستخبارات الجزائرية. جرى اختطاف المرأتين من قِبل عملاء للسلطة خارج المحكمة. ويعتقد أنهما على قيد الحياة. وأخرج طاهري صورة أخرى من ملفّه لفتاة جميلة وجهها مشرق، وشعرها المنفوش مرفوع بربطة قرنفلية اللون، وهي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

تبتسم للمصوّر. إنها الجزائرية أمينة بوسليمان المتهمة بالتقاط صور للمقابر والأبنية المفجّرة، ربّما لوجود دليل لديها على العنف الرسمي ضدّ المدنيين. كان عمرها ٢٨ سنة عندما اعتقلتها الشرطة يوم ١٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤ ولم تُشاهد بعدها. وقد نصح أصدقاء لوالدتها لديهم اتصالات في السجون بأن لا تأمل رؤية ابنتها مجدّداً. وقيل لها إن أمينة عُذّبت حتى الموت.

في كل مرّة يعرض الطاهري صورة، ألمح مئات من الصور لرجال دمثين متوسّطي العمر من الإسلاميين الملتحين المشتبه بهم ولفتيات ورجال مسنّين . والمفقود الأكبر سنّاً هو أحمد عبود، عمره ٧٤ عاماً وقد جرى اعتقاله يوم ٢٣ شباط/ فبراير ١٩٩٧ . والمفقود الأصغر هو إبراهيم مغراوي يبلغ الخامسة عشرة من العمر. وتظهر صورة موسى مدني مُقعداً في كرسي متحرّك، جرى اعتقاله يوم ٣ أيار/مايو ١٩٩٧، ولا أحد يعلم السبب. وهذه سعيدة خيروي، شابّة جذابة ترتدي لباساً أحمر وشعرها شبيه بشعر الأميرة ديانا وهي ـ أو كانت ـ شقيقة عضو مطلوب من الجماعة الإسلامية المسلّحة، وصورتها أصغر من الصور الأخرى. اختفت بواسطة عملاء السلطة في ٧ أيار/مايو ١٩٩٧. وكل ما هو معروف عن مصيرها أن الشرطة كسرت عظام إحدى قدميها أثناء التحقيق معها .

في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧ شعر محمّد طاهري بالخوف من أن يضاف إلى اللائحة. فقد دعا إلى اجتماع لأمّهات المفقودين أمام مركز البريد المركزي في مدينة الجزائر، قامت الشرطة بإفشاله. قال لنا بصوت خافت، قلقاً من استمرار وجود رجال الشرطة عند الباب: «نصحوني بعدم السير وراء المحتجّين، وأبلغوني بالذهاب إلى شارع فرعي حيث كان رجال شرطة فقط وخفت من الاختطاف». لذلك بدأت بالصراخ: «أنا محامٍ أدافع عن حقوق الإنسان ـ لا يحقّ لكم إعاقة تحرّكاتي». أخرجت بطاقتي المهنية لكن كان هناك ضابط شرطة كبير يدفعني لمنعي من المغادرة. «حاصرني رجال الشرطة. قلت: «أنا محامٍ» لكنّ الضابط قال: «لست محامياً ـ أنت خائن لأنك أجريت اتصالاً مع أجانب ومع تنظيمات ما يُسمّى بحقوق الإنسان» وعندما قلت إنني أرفض الذهاب أمر الضابط باعتقالي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أخذوني إلى مكتب في مركز شرطة كافينياك حيث أعرف أن أشخاصاً ماتوا تحت التعذيب. قالوا لي: أنت مَن أعطى معلومات لمنظمة العفو الدولية والمنظمات الأخرى. أنت مَن نظم التظاهرات التي سبّبت الاضطراب في هذا البلد». وقبل إطلاق سراحه، اقتيد طاهري إلى مركز شرطة حي عمروش حيث أبلغ: «لديك اتصالات مع صحفيين».

إذا كانت أدلّة طاهري مُدانة، فقد وفّرت الاجتماعات التي رتّبتها مع رجال الشرطة الجزائريين الفارّين وضبّاط الجيش في لندن أدلّة أكثر إقناعاً حول تورّط حكومتهم في الجرائم ضدّ الإنسانية. كانت كلّ مقابلاتي باستثناء واحدة مع هؤلاء الرجال الشجعان، المرعوبين ـ وامرأة واحدة ـ تجري على ساحة سياسية مختلفة، ليس في ضاحية من مدينة الجزائر بل في قاعة اجتماعات في فندق شيراتون بلغرافيا في وسط لندن، في غرفة غطّتها سحب دخان السجائر التي كان يدخّنها الشهود المتوحشون على الوحشية.

كانت داليا معتادة على مشاهدة الدم. عندما تصفّ السجناء نصف العُراة والمقيّدين إلى سلالم في مرآب مركز شرطة كافينياك فإنها تفعل ذلك بلامبالاة غريبة. ولاحقاً، بعد أن أمضيت أكثر من ساعة أستمع إلى شهادتها حول الوحشية والموت، التفتت نحوي بخضوع مرعب. وقالت: «لقد خضعت للعلاج على يد طبيب نفساني لأنني تعرّضت لأحلام سيّئة. حبّي الكبير اليوم يتمثل بالذهاب لمشاهدة أفلام الرعب ـ إنه الشيء الوحيد الذي يحظى باهتمامي. أرغب في رؤية الدم».

إنها ملاحظة غير عادية تصدر عن امرأة جذّابة في الثلاثين من العمر، وشعرها أسود كثيف مضفور برباط، بينما تداعب طفل صديقة جزائرية على رُكبتيها. انضمّت داليا إلى الشرطة كتحرّية في الوحدة الخاصّة الجزائرية عام ١٩٨٥ ـ «كنت أرغب أن أصبح شرطية لخدمة شعبي منذ سنّ الثانية عشرة»، وليس لأنّ والدها كان شرطياً. لكن بدأت الأمور تزداد سوءاً بالنسبة إليها بعد إلغاء الانتخابات:

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

«جرى نقلي إلى مركز شرطة كافينياك قرب مكتب البريد وكرهت ما كان يحدث هناك، وما كان يحدث للشرطة. كانوا يعذّبون الناس ـ رأيت ذلك. شاهدت شباباً أبرياء يُعذّبون مثل الحيوانات. أجل، شاهدت شخصياً عمليات التعذيب. ماذا كان باستطاعتي أن أعمل؟ كانوا يعدمون الناس الساعة الحادية عشرة ليلاً، يعدمون أشخاصاً لم يفعلوا شيئاً. كان هؤلاء الناس قد تعرّضوا لوشاية من آخرين لا يتّفقون معهم. بمجرّد أن يقول الناس «هذا إرهابي» يتعرّض الرجل للإعدام. كانوا يقيّدون شبّاناً بالحبال على سلالم، وكانوا دائماً بدون قمصان وأحياناً عُراة. كانوا يغطّون وجوههم بالقماش ثم يصبّون عليها ماء مالحاً. وكان هناك قِمع مزوّد بقسطل يدخلونه في جوف السجين ثم يصبّون الماء حتى تنتفخ بطنه. وعندما أتذكر ذلك، أفكّر كم من المؤلم رؤية إنسان بهذه الحالة ـ من الأفضل قتل الرجال عوضاً عن رؤيتهم يتعذبون هكذا».

تتحدّث داليا عن التعذيب مثل الإنسان الآليّ بصوت رتيب. قالت إنها رأت خلال شهور حوالَي ألف رجل يخضعون للتعذيب بمعدّل ١٢ رجلاً يومياً، وكان محقّقو الشرطة يبدأون العمل الساعة العاشرة صباحاً ويعملون بالتناوب حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً. لكنها بكت عندما وصفت ما رأته:

«تقضي عمليات التعذيب بأن على السجين أن يعترف بقتل هذا وذاك، ويجبرون السجناء على توقيع اعتراف وعيونهم معصوبة ـ لا يحقّ لهم قراءة ما وقّعوا عليه. كان هناك سجناء يبكون ويقولون: «لم أفعل شيئاً ـ يحقّ لي استدعاء محامٍ وطبيب. وعندما يتفوّهون بذلك يتلقّون ضربة على الفم. والذين ماتوا نتيجة التعذيب بالماء كانت بطونهم منتفخة جدّاً. وبينما يحدث ذلك، يقوم المعذّبون أحياناً بوضع عصا مِكنسة في مؤخّراتهم. وكانوا يستمتعون بفعل ذلك. كان بعض السجناء ملتحين والبعض الآخر حليق الذقن. كانوا جميعاً فقراء. وكان كبار الضبّاط يعطون الأوامر بالتعذيب ـ أعتقد أنها كانت

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تُعطى بالهاتف. لكنّهم لم يكونوا يستخدمون عبارة تعذيب ـ كانوا يستخدمون جملة (nakdoulou eslah) ـ الاهتمام بالضيف. كان السجناء يبكون ويصرخون: «واللّهِ لم أفعل شيئاً» أو «نحن جميعاً مسلمون». كانوا يصرخون ويبكون كثيراً.

رأيت رجلين يموتان هكذا على السلّم. كانت الجثتان معلّقتين على السلّم. كانا ميّتين وكان المعذّب يقول: «خذوهما إلى المستشفى وقولوا إنهما ماتا في معركة». كانوا يفعلون الشيء نفسه بالذين يعدمونهم عند الساعة الحادية عشرة ليلاً ـ كان يتم ذلك بعد فرض منع التجوّل عندما يكون باستطاعة الشرطة والدرك التجوّل وحدهم. وكان عليّ كتابة شهادات الوفاة بحيث يمكن أخذ الجثث من المستشفيات. كان عليّ التوقيع أنها جثّة وجِدت في الغابة بعد تحلّلها ـ كان الطقس حارّاً حينها». قالت داليا إنها حاولت الاحتجاج لدى ضابط أعلى أسمته حميد:

قلت له: «يجب أن لا تقوم بهذه الأفعال لأننا كلّنا مسلمون ـ يجب أن يكون هناك دليل ضدّ هؤلاء الناس قبل أن تقتلهم» قال لي: «يا ابنتي، أنت لا تصلحين للعمل في سلك الشرطة ـ إذا اشتبهت بأحد عليك قتله. عندما تقتلين الناس تتمّ ترقيتك». كان يمكن لأي شرطي ضرب السجناء بعقب رشاشه. ويصبح بعض السجناء مجانين كلّياً نتيجة التعذيب. كان كلّ من يُؤتى به إلى كاڤينياك يخضع للتعذيب ـ شهد حوالي ٧٠ في المئة من رجال الشرطة هناك كل ذلك، وشاركوا فيه. ومع أن التعذيب كان وظيفة الشرطة القضائية فقد انضمّ إليهم آخرون. كان عدد السجناء بين عشرين وثلاثين في الزنزانة وكان يتم إحضارهم واحداً تلو الآخر إلى السلّم حيث يتعرّضون للركل باستمرار. هذا غير إنساني».

واستناداً إلى داليا كانوا يأخذون النساء السجينات إلى قسم خاصّ في مركز شرطة شاتونوف يُدعى «المنظمة الوطنية لمكافحة الجريمة». حيث تمنع الشرطة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العسكرية الجزائرية الجميع من الدخول باستثناء الذين لديهم تصاريح. «يجب أن تكون ضابطاً كبيراً حتى تدخل إلى هناك بسبب الطريقة التي يعاملون بها النساء. إنهم يقتلون هناك أيضاً. . . .» كانت مأساة داليا شخصية. «لا أستطيع النوم في الظلام لأنني أخاف. ليس ذنبي أن يُقتل خطيبي خلال شهر رمضان عام ١٩٩٣. كان الذين قتلوه متنكّرين بلباس رجال الشرطة ـ وقتلوه لكونه شرطياً سألت: «مَن هم؟» وأجابت: «هذا هو السؤال الكبير». لكن كان التعذيب هو الذي حطّم حياة داليا ـ والذي يثبت ارتدادها:

> «كان هناك مجموعة من المسنّين تعرّضوا للتعذيب. لم أستطع تحمّل رؤية رجل عمره ٥٥ عاماً كانت ذراعه مصابة بالغنغرينا ورائحته كريهة. لم أستطع تحمّل ذلك فذهبت واشتريت له بعض البنسلين ووضعته على ذراعه لأنني اعتقدت أن ذلك يساعده. كان في الزنزانة ستّة أشخاص آخرون خضعوا للتعذيب ـ وكانت الرائحة هناك تشبه رائحة الموت. لكن رآني شرطي آخر وطلب منه عدم قبول أيّ شيء. أترى، كان ممنوعاً علينا مخاطبة السجناء ـ كان يحقّ لنا ضربهم فحسب. لكنّ الشرطي كتب تقريراً إلى المفتّش الذي استدعاني وقال: «قد تذهبين إلى السجن بجرم مساعدة الإرهابيين. لقد تمّ إطلاق سراح الرجل الذي ساعدته فيما بعد مما يدلّ على أنه كان بريئاً».

كان المسلّحون الإسلاميون ـ أربعة شبّان جاؤوا إلى منزل والدتها ـ يستهدفون داليا حينها، وقد طلبوا منها أن تسلّم سلاحها العسكري خلال خمسة عشر يوماً. وعندما طلبت حماية الشرطة رُفِض طلبها. فكانت تنام في مراكز الشرطة ليلاً. ثم تسلّلت من منزلها ودفعت رشوة للذهاب إلى أوروبا على متن سفينة هرباً من أجهزة الأمن الجزائرية ومن رجال العصابات الإسلاميين.

كان رضا يستريح طويلاً خلال حديثه. كان آمناً في لندن تأخذه ذاكرة الجندي إلى طريق تبعد ٣٠ كلم عن مدينة الجزائر. روى أنه كان في الخدمة العسكرية عضواً في وحدة خاصّة خارج بليدا:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

«أعطونا لقاحاً في ظهورنا ثم طلبوا منا تلقيح بعضنا البعض قبل الخروج بمهمّات. كان اللقاح سائلاً أبيض وكان يجعلنا نشعر مثل رامبو. وعند نقطة التفتيش كنّا نوقف أي شخص نشتبه بأنه إرهابي. إذا كان يشبه إرهابياً، أو كانت له لحية طويلة يُقتل. مرّ رجل ملتح قرب نقطة الدورية، فطلبت منه التوقّف. أجاب: «لماذا عليّ التوقف؟». كان الرجل فظّاً لذلك قتلته. حدث ذلك كما لو كنت أحلم ولم أكن أنا. لم أتذكّر الأمر حتى أخبرني أصدقائي أنه أصيب في بطنه. وعندما مات، صرخ: «لا إله إلّا الله». أرجو من الله أن يغفر لي وأن يغفر لكلّ البشر».

قد لا تكون نايتسبريدج المكان المتوقّع لطلب المغفرة، لكن من وقت لآخر كان رضا يبكي ـ بالنسبة إلى عمليات القتل والتعذيب التي شهدها، والجنود الذين يعتقد أنهم قُتلوا من قِبل الجيش. بدأ خدمته العسكرية في مدينة سكيكدة ثم انتقل إلى بسكرة للتدرّب على السلاح. «قيل لنا إن كل الناس ضدّنا. وجرى تدريبنا على كيفية معرفة الإرهابيين ـ من لحاهم وجلابيبهم ولباسهم الإسلامي».

يوم ١٢ أيار/مايو ١٩٩٧، طار رضا إلى بليدا للخدمة الفعلية في الحرب المناهضة للعصابات. وفي مهمّته الأولى في قرية سيدي موسى يوم ٢٧ أيار/مايو أمر هو ورفاقه عائلات بالخروج من بيوتها وبينما كانوا يفتشون المنازل سرقوا ما وجدوه من الأموال والذهب:

«أخذنا ١٦ رجلاً للتعذيب. قيل لنا من قِبل المخبرين إن هناك إرهابيين. ومهما قالوا لنا، علينا تنفيذه. كان هؤلاء الرجال ملتحين. وكانت في ثكنة بليدا غرفة تحت الأرض تسمّى «غرفة القتل» ـ وكان جميع السجناء يُنادون بأسماء مُستعارة من قِبل المحقّقين، أسماء مثل زيتوني. وكانوا يخضعون للتعرية وعصب العيون والتقييد بالكرسي أو الرشّ بالماء البارد. ويقف جنديان أمام كل سجين ويطرحون عليه الأسئلة. ثم يبدأون تعذيبه بالمثقاب الكهربائي».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كان رضا يحرّك يديه وهو يروي القصّة المروّعة. قال إن المثاقب كانت تُستخدم على أرجل السجناء. وقد رأى أحدهم يثقب بطن رجل. كان الأمر يستمرّ أربع ساعات مع كل سجين ـ وإذا عاش يتمّ إطلاق سراحه بعد أسبوع. في إحدى نقاط روايته، سأل رضا أخاه الأصغر أن يغادر الغرفة، لم يشأ أن تعرف عائلته ما رآه:

«كان هناك شريط كهربائي قُطره حوالي ٥ سم، يضعونه في آذان أو مؤخّرات السجناء، ثم يلقون الماء عليهم. بدأ اثنان من الرجال بشتمنا. وكان المعذَّب يصرخ: «الله يلعنك». ويستمرّ التعذيب ٢٤ ساعة يومياً. كنت مجنّداً فقط. كنت أراقب لكنني لم أشارك. لقد جرى ثقب بطن الرجل لأنه مشتبه به مئة في المئة على أنه إرهابي».

في حزيران/يونيو ١٩٩٧، طُلب من رضا الانضمام إلى قوّة الحماية حول سيدي موسى خلال غارة للقوّات النظامية: «كان علينا التدخّل عند احتدام المعركة ـ لكن المعركة لم تحتدم وعدنا إلى بيوتنا بعد ساعتين. في اليوم التالي... سمعنا أنه حصلت مجزرة في القرية نفسها وقُطعت رؤوس ٢٨ قروياً. وقادنا ذلك إلى التفكير في مَن فعل ذلك. وبدأت أعتقد أن رجالنا هم القتلة».

بعد يومين، قال رضا إنه كان ورفاقه المجنّدون ينظّفون الثكنة ويفتّشون ملابس القوّات النظامية بحثاً عن سجائر عندما عثروا على لحية مزيفة وقناع وعطر يستخدمه الإسلاميون. «تساءلنا ماذا كان يفعل الجنود بهذه اللحية؟». واستنتج رضا أن وحدة من الجيش نفّذت مجزرة سيدي موسى لكنّ خوفه ازداد عندما نُقل رفاقه الستّة والعشرون إلى ثكنات أخرى في «شْريعة» Chréa. «أعادوا جثثهم إلينا لاحقاً وزعموا أنهم قُتلوا في كمين، لكنني واثق أنهم أُعدموا لأنهم لم يعودوا موضع ثقة بعد الآن، ولم يقتلوا في كمين. ربّما ثرثروا كثيراً. وقد عرف جميع جنودنا أنه تمّت تصفية هؤلاء الرجال ـ لأنه طُلب منّا في وقت سابق لأخذهم عدم التحدّث إليهم». لم تكن نهاية خدمة رضا العسكرية بطولية. قال إن أسنانه وقعت بسبب زملائه، وسُجن أسبوعاً بعدما شوهد يعطي السجناء

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

خبزاً. بعدها تعرّض لهجوم بينما كان في الخدمة عند حاجز على طرف بليدا وتم التعرّف عليه من قِبل إسلاميين مسلّحين. «كانوا أصدقائي وشاهدوني بلباسي القتالي وقبّعتي الخضراء. صرخ أحدهم: «هناك متّسع من الوقت خلال السنة للنيل منك. انتبه لنفسك ولزوجتك وطفلك». هربت مع ثلاثة من المجنّدين بمساعدة الأهالي الذين أعطونا ملابس مدنية. وأنا الآن بين نارين - بين الإرهابيين والسلطة الجزائرية».

وصل رضا إلى مطار هيثرو بعد بضعة أسابيع وطلب الحماية . زعمت السلطات الجزائرية أنها تعرفه - وأنه لفّق قصّة الفظائع العسكرية للحصول على اللجوء في بريطانيا. لكن لماذا يطلب رضا اللجوء إلى بريطانيا أساساً مع عشرات من عناصر أجهزة الأمن الجزائرية الآخرين؟ كانت آخر معلومات رضا عندما تحدّث إليّ في الجزائر مُرعبة جدّاً: ذُبح ثمانية من أقاربه في ضاحية بوفريق قرب بليدا.

جرى الاستماع إلى عناصر أمن جزائريين آخرين من قِبل صحيفة الإندبندنت. تحدّث إليّ المفتّش عبد السلام، الذي كان مسؤولاً عن الانضباط العسكري في مركز شرطة دار البيضا قرب مطار الجزائر، وأخبرني كيف راقب المشتبه بهم من الإسلاميين وهم يخضعون للتحقيق من قِبل الجلّادين، وقد زوّدني بأسماء بعضهم أيضاً، أسماء كانت مؤكّدة لرجال الأمن العاملين. قال: «أحياناً كان يجري إجبار السجناء على شرب الأسيد أو كانت توضع خرقة مربوطة بأفواههم ويجري صبّ الأسيد عليها. كان السجناء مُجبرين على الوقوف بجانب الطاولات وخُصاهم فوق الطاولة، وكان الجلّادون يضربونهم على خصاهم... وقد أعطى عدد قليل من السجناء معلومات، بينما فضّل بعضهم الموت، ومات البعض الآخر تحت التعذيب بالماء». وقد نشرت صحيفة الإندبندنت، التي كانت تستخدم صفحة جديدة خاصّة وتنقل تقاريرنا على الصفحة الأولى بدقّة ومطوّلاً، صور أربع شابّات مفقودات: أمينة بوسليمان، ونعيمة ونجوى بوغابة وسعيدة خيروي - مع ختم «مفقودات» مطبوع على وجوههنّ.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بدأت سلسلة مقالاتنا يوم ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧ مع عنوان للصفحة هو: «الأرواح المفقودة في الليل الجزائري: الآن يعترف جلّادوهم بالحقيقة». لم نكن الصحيفة الوحيدة التي تحاول كشف دور السلطة الجزائرية في الجرائم ضدّ الإنسانية ـ فقد راودت الشكوك العديد من الصحفيين الفرنسيين لسنوات ـ لكنّ تقاريرنا عوملت من قِبل الحكومات بالاحتقار الذي قوبلت به تقاريرنا حول عمليات تعذيب صدّام في الثمانينيّات، وتحقيقاتنا حول عمليات القتل الإسرائيلية في الفترة نفسها، وتحقيقاتنا حول الذخائر المشبعة باليورانيوم المستهلكة في العراق، وإعادة فتحنا لقضية الإبادة الأرمنية في تركيا عام ١٩١٥.

كتب السفير الجزائري في لندن رسالة مهينة وحقودة لرئيس تحرير الإندبندنت متهكّماً على سعيدة خيروي، الشابّة التي حُطّمت قدمها تحت التعذيب، لأنني أشرت إلى شعرها الشبيه بشعر الأميرة ديانا، وأفاد أن آلاف المفقودين ـ بمن فيهم النساء الأخريات اللواتي خضعن للتعذيب حتى الموت انضمّوا في معظم الحالات إلى «العصابات الإرهابية».

من المتوقّع أن يكذب السفراء لصالح بلدهم. ولكنّ ردّ الدول الغربية بالنسبة إلى الدليل المتنامي حول تورّط السلطة الجزائرية في فظائع هذه الحرب مدعاة للشفقة ومُعيب. في أيار/مايو ١٩٩٨، بعد أكثر من ستة أشهر من تخصيص حيّز كبير لكشف شهادة عناصر قوّات الأمن الجزائري السابقين ومحامي حقوق الإنسان، نشرت وزارة الخارجية البريطانية بياناً سياسياً حول الجزائر. قال البيان إنه بينما كانت هناك تقارير حول تورّط السلطة الجزائرية في المجازر «ليس هناك دليل حسّي وجوهري يدعم هذه الاتهامات». وزعم التقرير أن العنف المنتشر على مستوى واسع والوحشية ـ وليس تعليق الانتخابات الديمقراطية ـ كانا منشأ الأحداث الرهيبة في الجزائر.

بعيداً عن الاعتراف بشجاعة رجال الشرطة السابقين الذين فضحوا جرائم دولتهم، رفضت بريطانيا في أوائل ١٩٩٧ طلب لجوء من شرطي جزائري سابق آخر وأعادته بالقوّة مكبّلاً إلى الجزائر. وجرى توقيفه في مطار الجزائر وتم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

التحقيق معه بوحشية من قِبل رفاق سلاحه السابقين حول اتصالاته الجزائرية في لندن وبعدها اغتيل على أيدي رجال الأمن، وسُلّمت جثّته إلى والدته لدفنها بعد أسبوعين على ترحيله من لندن. كان قد بدّل عنوانه في بريطانيا ولذلك لم يتسلّم إشعار المغادرة ليستأنف رفض طلب اللجوء. وعلى نحوٍ شائن، زوّدت السلطات البريطانية السلطة الجزائرية بالتفاصيل التي تظهر أنه ضابط شرطة - الأمر الذي قضى عليه فوراً(*).

عندما حاولت مفوّضة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة ماري روبنسون الاهتمام بأسباب أعمال العنف في الجزائر وليس بأعمال العنف، قام وزير خارجية الجزائر أحمد عطاف بتوبيخها، وطلب معرفة «أية ذرائع تبرّر قتل النساء والأطفال». عندها سكتت السيّدة روبنسون. وكانت لجنة الأمم المتحدة، التي يرأسها ماريو سواريس رئيس وزراء البرتغال السابق والتي ذهبت في مهمّة جمع معلومات إلى الجزائر في خريف ١٩٩٨، أكثر ضرراً. فقد قدّمت تقريراً يُعتقد أنه كُتب من قِبل الحكومة الجزائرية. ففي بادرة جبن غير عادية، سمح سواريس للمسؤولين الجزائريين بقراءة تقرير الأمم المتحدة قبل نشره، ويوافق التقرير بالكامل على ادّعاء السلطة الجزائرية أنها تحارب الإرهاب واستخلص «أن الجزائر تستحقّ دعم الأسرة الدولية في جهودها لمحاربة هذه الظاهرة». واستخدم التقرير كلمة «إرهاب» أو «رعب» ٩١ مرّة في ١٩ صفحة دون السؤال مَن هم هؤلاء الإرهابيون أو لماذا يعارضون الحكومة. ويتّفق التقرير مع الشهود الذين قالوا إن التجاوزات المرتكبة من قِبل قوّات الأمن لا تضاهي «جرائم الإسلاميين ضدّ الإنسانية». ورغم أن حوالَي ٢٠ ألف جزائري ما زالوا معتقلين بتهم الإرهاب، استمعت لجنة الأمم المتحدة إلى واحد منهم فقط. وليس

(*) لم يكن البريطانيون وحدهم هم الذين يرحّلون الجزائريين إلى بلادهم لإعدامهم. فقد قامت السلطات البلجيكية بترحيل زعيم شابّ من الجبهة الإسلامية للإنقاذ، هو بن عثمان بوسرية، إلى الجزائر يوم ١٥ تموز/يوليو ١٩٩٦ بادّعاء كاذب أنه لن يكون في خطر إذا عاد. وبعدما حاول مرّة أخرى الهرب من الجزائر، اعتُقل وهو يحاول عبور الحدود الليبية ومات في سجن الشرطة في مستغانم. وأفاد تقرير للشرطة أنه انتحر بإلقاء نفسه من مكتب قوّات الأمن بينما كان ينتظر المحاكمة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مستغرباً قيام عطاف بتوزيع تقرير سواريس على الصحافة الجزائرية المحلّية لنشره. وعندما اتهمت منظمة العفو الدولية تقرير الأمم المتحدة بأنه هزيمة كاملة، كذّب عطاف التهمة بشدة.

وقد تصرّفت لجنة أوروبية سابقة للأمم المتحدة باهتمام أقلّ تجاه دليل التعذيب والقتل من قِبل السلطات الجزائرية. وخلال ثماني عشرة ساعة في مدينة الجزائر، لم تغادر أبداً الدور والمكاتب الرسمية للسلطات الجزائرية. وحثّ نائب رئيس اللجنة الأوروبية، مانويل مارين، الأوروبيين على «التصرّف برويّة»، ولم تكن هناك أسئلة حول التعذيب أو الحاجة إلى تحقيق دولي في ما يتعلق بالمجازر. وقبل بضعة أيام، أبلغ وزير الخارجية الإيرلندي مستمعي الإذاعة أن الوقت قد حان «لتوقّف الدخلاء عن مهاجمة الجزائر عن بُعد».

وقد عبّر عن الشعور نفسه الرئيس الفرنسي جاك شيراك. فعندما سُئل ماذا باستطاعة فرنسا القيام به لوقف المجازر أجاب: «لاشيء من خلال التدخّل. علينا إيجاد وسيلة للعمل بفعالية من الخارج». كانت تلك سياسة تلائم السلطات الجزائرية تماماً. كانوا متلهّفين لقبول الأسلحة الفرنسية والمعدّات العسكرية لخوض حربهم الأهلية لكنّهم رفضوا أيّ مطالب بإجراء تحقيقات على قاعدة أن ذلك سيشكّل تدخّلاً في شؤونهم الداخلية. ولفترة من الوقت، صدّق أكثر مثقّفي فرنسا شراسة، برنارد هنري ليفي، موقف السلطة الجزائرية. وقال إنه أمر مُشين وإهانة لذكرى ضحايا المجازر أن يُطرح السؤال مَن كان يقتل من في الجزائر ـ لأن من الواضح أنّ الأصوليين المسلمين هم الملامون. بهذه الطريقة المشينة والمخزية تجاهل ليفي الآلاف من ضحايا التعذيب الحكومي. وقال عبد الحميد الإبراهيمي وهو رئيس وزراء جزائري سابق يُتّهم الجيش بقتل ٣١ من أقاربه في المديه إنه «يرفض إجراء تحقيق دولي» ـ يدافع ليفي والمثقفون الفرنسيون الآخرون عن النظام بنفي مسؤولية العسكر في هذه المجازر.

ظلّت الولايات المتحدة بعيدة عن التدخّل في الشؤون الجزائرية، لحماية العديد من الدبلوماسيين الأميركيين في مدينة الجزائر الذين أعطوا بعض الشابّات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الجزائريات تأشيرات مقابل خدماتهنّ. ورغم قيام الجزائر بتقديم مساعدة مالية لمنظمة التحرير الفلسطينية خلال الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ ـ أرسلت أسلحة بقيمة ٢٠ مليون دولار عن طريق الاتحاد السوفياتي ـ كانت البلاد مؤيّدة دائماً لأميركا. وخلال أزمة الصواريخ الكوبية، كان بن بلّا في نيويورك وحمل رسالة سرّية إلى فيديل كاسترو من الرئيس جون كنيدي، يحذّره فيها من خطورة المواجهة مع السوفيات. ولم ينس بن بلّا أن كنيدي كان يدعو وحده في الكونغرس إلى استقلال الجزائر خلال الحرب ضدّ الفرنسيين.

لكن كان لادّعاءات السلطات الجزائرية المتكرّرة بأنها تحارب إرهابييّ الجبهة الإسلامية للإنقاذ تأثيرها. فقد حاولت وزارة العدل الأميركية ترحيل المتحدّث باسم الجبهة الإسلامية للإنقاذ أنور هدّام ـ الذي تحدّث عن الحاجة إلى السلام والمصالحة في مؤتمر روما ـ واستخدمت عشرات التقارير الواردة في الصحافة الجزائرية التي تُشرف عليها الحكومة، كما عمدت إلى تحريف مضمون مقالاتي في الإندبندنت. ورغم أن وزارة الخارجية الأميركية اعترفت بأن هناك دليلاً مُقنعاً على قيام قوّات الأمن الجزائرية بعشرات عمليات القتل دون محاكمة وأنها عذّبت المعتقلين وأساءت إليهم، فقد استندت وزارة العدل بشكل واسع على مؤيّدي السلطة الجزائرية في ملفّها ضدّ هدّام المتعلّق بالجرائم ضدّ الإنسانية والتي لم يكن هدّام مسؤولاً شخصياً عن أيّ منها(*).

(*) في دليلها الكاذب بامتياز، اقتبست الحكومة الأميركية مقالاً لي في الإندبندنت ـ كُتب في الجزائر يوم ٨ آذار/مارس ١٩٩٥ ـ حيث أوردت أن صور المثقفين الجزائريين القتلى «كافية لكراهية الإسلاميين، ولاحتقارهم، وحرمانهم من أيّ صفة إنسانية ناهيك بحقوق الانسان ـ وتلك كانت بالطبع النيّة ـ بحيث تنسى كم هو عدد الأشخاص الذين اقترعوا لصالح الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الانتخابات التي ألغتها الحكومة». وقد فشلت وزارة العدل الأميركية في اكتشاف السخرية في السطر الأخير ـ والمعنى الضمني الواضح الذي أظهرته الصور كجزء من الحملة الدعائية الحكومية الجزائرية. وكان التوثيق الأميركي غير متقن أيضاً. فقد كانت عناوين صحيفتين جزائريتين على الأقلّ مهجّاة بشكل خاطئ ـ وليست هناك إشارة لتشديد السلطة الجزائرية على طبع الصحف الجزائرية أخبار الإرهاب وفق تعليمات السلطة. وقد أوردت عدّة مقالات المجازر التي شجبتها الجبهة الإسلامية للإنقاذ. وبعدما كتبت عن سوء استخدام الإدارة الأميركية لمقالاتي في الإندبندنت، اختفت كل إشارة إليها بشكل غامض من لائحة وزارة العدل الأميركية للتهم الموجّهة ضدّ هدّام.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وقد أوردت إحدى الصحف الأميركية عمليات القتل الجماعي للمقاتلين الإسلاميين التي قامت بها قوّات الأمن متسلّلة عبر المنطقة الغربيّة المدمّرة خلال المجازر الأخيرة، دون السؤال كيف قُتِل هذا العدد الكبير في مدّة وجيزة ـ وقد ورد ذلك في الأسوشيتدبرس يوم ١١ آذار/مارس ١٩٩٨ ـ وأقنعت قرّاءها بتصديق أن ذبح المدنيين شجّع بطريقة ما الجزائريين على دعم السلطة التي كانت مسؤولة جزئياً عن عمليات القتل. وعلى ما يبدو، هذا ما اكتشفه جون لانكستر في الواشنطن بوست عام ١٩٩٧ من «أن العنف أدّى إلى تعزيز ردّة فعل معاكسة ضدّ المناضلين وحتى بين الذين دعموا في وقت ما قضيّتهم». وقد وردت إشارة عرضيّة واحدة في مقاله تشير إلى أن السلطات ربّما كانت متورّطة في المجازر.

في أواخر التسعينيّات، عندما أصبح تورّط الجيش الجزائري في عمليات القتل موضع شكّ بشكل واسع، قامت البحرية الأميركية بمناورات مع السفن الحربية الجزائرية في المتوسّط بينما كان الدبلوماسيّون الأميركيون يتشجّعون لزيارة مدينة الجزائر. وحلّ روبرت بلّيترو ضيفاً على الحكومة الجزائرية عام ١٩٩٦. وفي عام ١٩٩٨، أرسلت وزارة الخارجية الأميركية شخصية بارزة إلى العاصمة الجزائرية هي مارتن أنديك ، الرجل الرئيسي في فريق مبادرة سلام الرئيس كلينتون للمحادثات الإسرائيلية ـ الفلسطينية ومدير سابق للأبحاث في أكبر مجموعة لوبي إسرائيلي في واشنطن. وبشّرت الإذاعة الجزائرية بوصول أنديك بالإعلان أن السياسات الأميركية قد تغيّرت الآن وأن البيت الأبيض قرّر دعم الصراع ضدّ الإرهاب وأن الكونغرس الأميركي ندّد مرّات عديدة بالجماعات الإسلامية المسلّحة.

أمام اللامبالاة بالطبيعة الحقيقية للمجازر ـ ومَن يمكن أن يكون مسؤولاً عنها ـ شعر المسؤولون الجزائريون الآن بالقدرة على استبعاد مسؤولية قوّات الأمن عن الفظائع بشبه ارتياح.

وقد اعترف رئيس الأركان الجزائري والمستأصل الرئيسي الجنرال محمّد لمعاري بدماثة أنه: «ليس مستحيلاً في الوضع الذي كنا فيه، أن تكون قد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حصلت تجاوزات من قِبل أفراد تصرّفوا بعكس أوامر رؤسائهم». وجاءت قفزة أبعد داخل أعماق عدم الإحساس من وزير التعليم العالي السابق عبد الحقّ بريرحي الذي أعلن عام ١٩٩٨ أن مقارنة الاغتصاب في مركز شرطة مع الاغتصاب من قِبل إرهابي في الجماعات الإسلامية المسلّحة منافية للأخلاق.

لم تكن الجماعات الإسلامية المسلّحة بحدّ ذاتها صنيعة السلطة الجزائرية، مع أن أصولها الأفغانية غير واضحة. ولمّا كان ألوف الجزائريين قد سافروا للانضمام إلى المجاهدين المعادين للسوفيات، وقدّم بعضهم الدعم لأسامة بن لادن ـ فقد قابلتُ جزائريين من «القاعدة» خلال زياراتي لبن لادن في أفغانستان، وجلست إلى جوارهم عام ١٩٩٧ بينما كان المذنّب الشهير يحلّق فوقنا قرب معسكر بن لادن. وأفاد أحدث بحث أن يد السلطة كانت حاضرة هناك أيضاً. وأُفيد الآن أن الأمن العسكري الجزائري أرسل رجاله إلى أفغانستان لمتابعة مراقبة الجزائريين الأفغان الذين شرعوا في الجهاد ـ طارحين كمقاتلين مسلمين عند عودتهم إلى الجزائر فكرة الجيش الإسلامي الذي سيدخل حتماً البلاد لخوض صراع ضدّ أعدائه الاشتراكيين الفاسدين. كان اختراق عناصر الجيش الجزائري قد تحقّق في مرحلة سابقة.

وعندما قُتل زعيم الجبهة الإسلامية المسلّحة جمال زيتوني، في كمين للجيش الجزائري على ما يبدو، أعلنت السلطات بزهو أنها حققت نصراً استراتيجياً ضدّ أعدائها الإرهابيين. لقد انتقل ابن مزارع الدجاج البالغ من العمر ٢٩ سنة والذي عمل في محلّ والده في مدينة الجزائر قبل أن يقع تحت تأثير مصطفى بويعلي إلى العمل السرّي عام ١٩٩١. وقد أُنيطت به، بحسب زعمهم، قيادة فرقة كتائب الموت التابعة للجماعة الإسلامية المسلّحة، وأصبح أمير التنظيم عندما توفّي زعيمه السابق شريف غصمي عام ١٩٩٤. وقد ادّعى زيتوني شخصياً مسؤوليته عن خطف طائرة الخطوط الجوّية الفرنسية وعن موجة هجمات القنابل في فرنسا عام ١٩٩٥، وألّف كتاباً من ٦٢ صفحة ـ من المحتمل أنه كُتب من قِبل رفاقه ـ «حول واجبات المقاتلين المؤمنين». لكن استناداً إلى الجماعة الإسلامية المسلّحة، طُرد زيتوني من الحركة يوم ١٥ تموز/يوليو ١٩٩٦ وحوكم على نشاطاته.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

كان بيان من مجلس شورى الجماعة الإسلامية المسلّحة هو الذي أعلن وفاته في اليوم التالي، مضيفاً أن عنتر زوابري تسلّم القيادة. لذلك يمكن السؤال هل قتل الجيشُ زيتوني أو تمّ إعدامه من قِبل الجماعة الإسلامية المسلّحة؟ أو أن الفرضيّتين ترجعان إلى الشيء نفسه؟

فعلى سبيل المثال، اتهمت الحكومة الجزائرية زيتوني بالمسؤولية عن قطع رؤوس الرهبان الفرنسيين السبعة من دير تبهرين عام ١٩٩٦. لكن بعد سنتين، أثبت تحقيق مطوّل في صحيفة «لوموند» أن قوّات الأمن الجزائرية كانت متورّطة في عمليات القتل بعد تعرّضها لوشاية من قِبل المخابرات الفرنسية ـ عمل أدّى إلى استياء قائد زيتوني الذي كان ضابطاً سابقاً في القوّات العسكرية الخاصّة الجزائرية. وأشار المقال نفسه إلى أن الدبلوماسيين الفرنسيين يعتقدون أن القنبلة التي أدّت إلى مقتل بيار كلافري أسقف وهران ربّما وضِعت من قِبل السلطات الجزائرية ـ لأنه عَلِمَ بالمفاوضات السرّية بين السلطات الجزائرية والفرنسية حول قضية خطف الرهبان. وقد وصل عدد الجزائريين الذين قُتلوا في هذه الحرب إلى ٢٠٠ ألف شخص عام ٢٠٠٢. واغتال الجيش عنتر زوابري خليفة زيتوني، ـ مشوّهاً جثته كلّياً هذه المرّة مع رصاصة في الرأس كبرهان.

لكنّ جماعات حقوق الإنسان الدولية نفّذت الآن المهمّة التي تهرّب منها كلٌّ من الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي ـ وكذلك الولايات المتحدة الأميركية والدول الأوروبية الأخرى ـ بشكل معيب جدّاً:

فقد اتهمت هيومان رايتس واتش Human Rights Watch السلطات الجزائرية بأعمال خطف وتعذيب وإعدامات بدون محاكمة قضائية. وبعد سنة، فعلت منظمة العفو الدولية الشيء نفسه معدّدة ثلاثة آلاف ضحيّة ـ وردت أسماء مجموعة صغيرة منهم في تحقيق سابق نشرته الإندبندنت اغتيلوا من قِبل السلطات بمن فيهم عمّال المستشفيات والموظّفون وطلّاب المدارس وأمناء عامّون ومزارعون ومحامون. وبينما كان الجنرال خالد نزار، أحد قادة الانقلاب العسكري عام ١٩٩٢ ووزير دفاع سابق، يقوم بزيارة لفرنسا عام ٢٠٠١ للترويج لكتابه الجديد حول الجزائر، فتحت محكمة فرنسية تحقيقاً ضدّه ـ بطلب من

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أقارب الضحايا ـ حول تعذيب المعتقلين. وغادر نزار فرنسا بعدما أقفل التحقيق(*).

وقد أوصلت انتخابات متتالية في الجزائر، مخصصة كلّها لتعزيز فكرة أن البلاد حافظت على ديمقراطيتها رغم سيطرة العسكر، وجهاً آخر قديماً من قيادة جبهة التحرير الوطني هو عبد العزيز بوتفليقة إلى سُدّة الرئاسة.

وأدّت سياسة بوتفليقة في العمل للسلام والتفاهم الأهلي إلى حصوله على ٩٨,٣ في المئة في تصويت على الطريقة الصدّامية ـ استفتاء لم يستطع الغرب مجابهته ـ وجرت تظاهرات واسعة النطاق عندما تحوّل التمرّد البربري في تيزي أوزو إلى انتفاضة شعبية ضدّ الفقر والفساد. وأراد أن يتناسى الجزائريون ما فعلوه بعضهم ببعض ـ بما في ذلك ما فعلته الحكومة ضدّهم ـ والتمتّع بالرفاهية بعدما اختار العسكر سبعة رؤساء وزراء وأربعة رؤساء جمهورية منذ عام ١٩٩٢. لكنّ دلائل الحرب القذرة في الجزائر تراكمت ضدّ السلطة.

وعندما نشر ضابط القوّات الخاصّة الجزائرية السابق حبيب سويدا كتابه «الحرب القذرة» في باريس عام ٢٠٠١، كان يُفترض أن يُحدث كارثة . فقد كانت المرّة الأولى التي يُصرّح فيها ضابط باسمه الكامل ـ وصورته ـ ليظهر في الصحافة. كتب الضابط: «شاهدت زملاء يحرقون صبيّاً في الخامسة عشرة من العمر حيّاً. رأيت جنوداً يقتلون مدنيين ويزعمون أن جرائمهم ارتُكبت من قِبل الإرهابيين. شاهدت عقداء يقتلون مشتبهاً بهم بدم بارد. شاهدت ضبّاطاً يعذّبون إسلاميين حتى الموت. شاهدت العديد من الأشياء. ولا أستطيع البقاء صامتاً بعد الآن». وذكر أسماء وتواريخ وأماكن ـ على الأمل الضعيف المتبقّي أن تجري يوماً ما محاكمة هؤلاء المسؤولين بتهمة ارتكاب جرائم حرب. وكتب

(*) يوم ١٦ كانون الأول/ديسمبر عام ٢٠٠٤، اعترف محقّق معيّن من الحكومة الجزائرية أن عناصر في جهاز الأمن الجزائري قتلوا ٥٢٠٠ مدني. قال فاروق كسنتيني: «عملاء للسلطة بهذه الأعمال غير القانونية بشكل فردي. كانت الحرب رهيبة وكانت هناك خروقات. لكن السلطة بحدّ ذاتها لم ترتكب أيّ جريمة». وبعد أسبوعين، أبلغ كسنتيني وكالة «رويترز» أن عملاء للسلطة قاموا بتصفية ٦١٤٦ مدنيّاً.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

القاضي الإيطالي فريناندو في مقدّمة الكتاب أنه «كان في الجزائر دائماً تمركز خفّي للسلطة... سجن الشعبَ وقام بتصفية مناوئيه».

ليس هناك دليل أكثر إدانة ضدّ النظام. وقد عرف الفرنسيون صحّة ذلك ـ وكذلك عرف قرّاء الإندبندنت البريطانيين أن الجزائريين الذين تحدثوا بشجاعة إلينا قالوا الحقيقة ـ لكن كان الأمر مشابهاً للحقيقة الكامنة وراء الحرب العراقية عام ٢٠٠٣. كانت الأكاذيب والمعلومات المغلوطة والمبالغات الفاضحة والتحريف المقصود مفهومة كلّياً من قِبل الذين اهتموا بمعرفتها ـ كانوا يشكّلون الأغلبية في أوروبا على الأقلّ ـ لكنّ العالم الرسمي تجاهل الدليل، فلم تتجاوب فرنسا الرسمية مع اعترافات الملازم سويدا، واستمرّت في دعم النظام الجزائري ـ كما فعلت الإدارة الأميركية والاتحاد الأوروبي. ورأت بريطانيا الرسمية عدم المصداقية ودقّة الدليل حول تورّط الجيش في المجازر.

عام ٢٠٠٤، دعت منظمة العفو الدولية إلى تحقيق حول اكتشاف ١٢ مقبرة جماعية على الأقلّ في الجزائر منذ عام ١٩٩٨، كان آخرها يوم ٢٩ تموز/يوليو «لتبيان الحقيقة حول هذه المجازر».

تجاهل العالم دعوة منظمة العفو الدولية. وفي الوقت نفسه، بدأت القوّات الخاصّة الأميركية عملياتها في الصحراء الجزائرية الجنوبية ضدّ القاعدة ـ بالتعاون مع القوّات الجزائرية. وبات الأشخاص المشتبه بهم في ارتكاب جرائم حرب يعملون الآن مع الأميركيين للقضاء على أولئك المسؤولين عن جرائم ضدّ الإنسانية. وأعلنت وزارة الدفاع الأميركية أن هذا التعاون العسكري جزء من «الحرب ضدّ الإرهاب».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفصل السابع

لعنة الكوكب

بدأت الحرب! ذلك حدثٌ وقع ويقع على الرغم من تناقضه التامّ مع العقل ومع الطبيعة البشرية. ولقد اقترف ملايين البشر جرائمَ وأعمال خداع وغشّ وسرقة وفِتن لا حصر لها بعضهم ضدّ بعض ممّا لم تسجّل القرون مثيلاً له في السجلّات التاريخية للمحاكم القضائية في العالم.. لكنها لم تُعتبر جرائم وقت اقترافها.

ليو تولستوي، «الحرب والسلام»

كنت جالساً مُتقوقِعاً في المقعد الإضافي لطاقم الطائرة ٧٠٧ الملتصق بسقفها بينما كانت الأضواء مطفأة والليل مهرجاناً من النجوم والهواء المكيّف يسري بصمت عبر الفتحات. نظرت إلى أسفل حيث صحراء السعودية الحارّة والمظلمة وحيث تمرّ أسراب ذباب سراج الليل مسرعةً قربنا بألوانها البيضاء والصفراء المخطّطة بلون الذهب؛ وكانت تدور حولنا بسرعة ألف ميل في الساعة تقريباً كانت سرعتها القصوى وسرعتنا متعاكستيْن أو أنها كانت تطير مواكبة تقدّمنا شرقاً. كانت الأصوات تصل إلى مسامعي منهكةً مُملّة، آتيةً في بعض الأحيان من رجال مُتوتّرين يتكلّمون بلهجات تكساس، والقاهرة، وغلوسسترشاير، والحجاز.

«مايك ٢٠٠٥» ... صوت أميركي من خارج الكوكب الأسود الكبير يطلب التوجيه بشكل يائس من المراقب الأرضي السعودي. صاح مايك مجدّداً: «أطلب تردّداً أعلى للمجال التقني». صوت المكيّف يهدر. استدار قبطان طائرة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

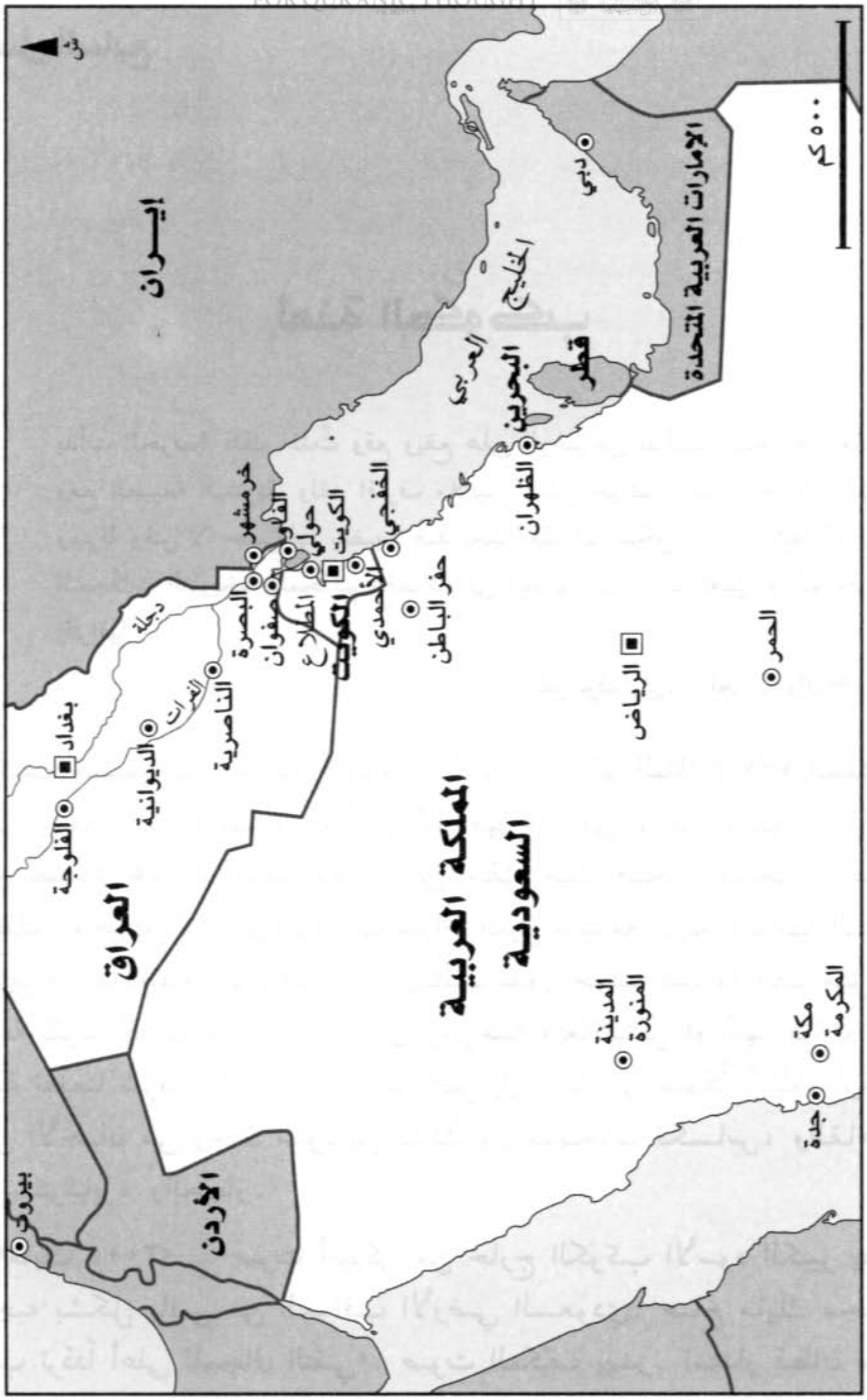

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

طيران الشرق الأوسط (MEA) نحوي وابتسم قائلاً: «يريد التوجّه نحو قاعدة الظهران وأراهنك أن السعوديين منعوه». أجاب صوت سعودي بلُكنة ثقيلة: «لا تردّد أعلى متوفراً بل درجة «ط» متوفّرة».. وتحوّلت التعليمات إلى أمر. عندها انفجر طاقم ٧٠٧ بالضحك. «ماذا تتوقّع!» قال الأميركي: «ردّد مجدّداً»؟ ردّد مجدّداً»؟ مزيد من الضحك. في هذه الأثناء تقدّمت مني مضيفة طيران الشرق الأوسط، المرتدية لباساً ذهبياً يميل إلى البياض على ضوء مقصورة القيادة، وقدّمت لي كأس شمبانيا. وقال القبطان اللبناني: «أعتقد أنك بحاجة إليه يا روبرت لأنك ستبقى هنا لفترة طويلة بحسب اعتقادي». ارتشفت الكأس الباردة، وسرح بي الخيال: شمبانيا فرنسا وجادات باريس. ثم نظرت إلى الشمال صعوداً داخل الظلمة حيث كما يقال تبدأ الحضارة حين يلتقي نهرا الفرات ودجلة ويشقّان طريقهما نحو الخليج ونحو تلك الإمارة الهائلة الغنى حيث وصل المتحدّرون من السومريين والأمويّين والسلاجقة والعبّاسيين ومن المغول أيضاً، بدبّاباتهم T72 ومجنزراتهم ZSU23 والمضادّات الأرضية الموجّهة بالرادار وصواريخ سكود ومدافع الـ ١٥٥ ملم ورشّاشات الكلاشنكوف وادّعاءاتهم بأن الكويت كانت وما زالت المحافظة التاسعة عشرة من العراق. زادت كثافة ذباب السراج على بعد ٥٠٠ كلم إلى الجنوب من حدود الكويت.

Ascot! أسكوت شيء طريف! إنه اسم مقاطعة قرب لندن (فيها ملعب شهير لسباق الخيل ـ المترجم). كم هو نموذجيٌّ لدى الإنكليز تشفيرُ دعواتهم الهوائية لحمل السلاح بعد مباراة سباق الخيل. هؤلاء هم المتحدّرون من رجال الجنرال مود (Maude) ورفاق تشارلز ديكنز يستعدّون لتحرير المزيد من العرب، من أحفاد الشعوب التي «حرّروها» عام ١٩١٧..

وطلب «أسكوت ٢١٠٠» تسليط الضوء على التوسّعات الأميركية المذهلة الهادرة أمامنا بسرعة «دارث ڤايدر» Darth Vader. «هل تراه يا روبرت»؟ أجل لقد رأيته ونظرت إلى شاشة الرادار التي تتوهّج أمامي في قعر بحر أخضر ولمحت نقطة ضوء متّجهة نحو أكروتيري Akrotiri (أسماء أماكن من لعبة حرب النجوم ـ المترجم).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

حتى قبرص بدت مشابهة للوطن... كنت قد بدأت لتوّي عطلة في باريس عندما اجتاح صدّام الكويت. ولم أكن أرغب حتى في الشمبانيا. قلت لنفسي إلى الجحيم يا صدّام. لقد فشلت آلة روبرت فيسك القديمة في التنبؤ. لم تُظهر لي الكرة البلّورية شيئاً في بيروت بينما كنت أدوّن بنفاد صبر قصص ما قبل العطلة عن نزاع صبيانيّ آخر بين العراق والكويت حول سرقة النفط وزيادة الإنتاج. ألم تموّل الكويت حرب صدّام ضدّ إيران؟ في الواقع كنت قد سألت في عام ١٩٨٨ على إحدى الصفحات الرئيسية الطويلة التي أَحبّ محرّرو التايمز استهلاكها عندما انتهت النزاعات: كيف ينوي صدّام الآن استخدام فيالقه القويّة؟. ثم انتقلت بعدها إلى صحيفة الإندبندنت، وعدت إلى تغطية أخبار صراع حزب الله ضدّ الاحتلال الإسرائيلي للبنان وأخبار الانتفاضة الفلسطينية الأولى. وكنت قد وضعت نُسخاً من تقاريري السابقة في حقيبتي قبل الصعود إلى رحلة طيران الشرق الأوسط هاكم بعض ما جاء فيها: «الإندبندنت، بتاريخ ١٩ تموز/ يوليو ١٩٩٠، من روبرت فيسك ـ بيروت:

«ردّ حكّام الكويت بخوف على تهديدات العراق المتجدّدة ضدّهم داعين إلى اجتماع طارئ للبرلمان، وقاموا بإرسال وزير الخارجية الكويتية لطلب مساعدة من السعودية... واستناداً إلى طارق عزيز ـ وزير خارجية العراق ـ فقد خرقت الكويت الحدود العراقية ـ الكويتية وسرقت نفطاً بقيمة ٢,٤ مليار دولار. وقال عزيز: «كانت الكويت تتلاعب بنظام حصص الإنتاج في منظمة أوبك وفق خطّة متعمّدة ومعدّة سلفاً لإضعاف العراق وضرب اقتصاده وأمنه».(*) إذاً، كانت المؤامرة متعمّدة ومُعَدّة مسبقاً. لقد تغذّى جهاز البعث القمعيّ على المؤامرات والتواطؤات والشره وعدم التسامح وغذّى جشعه بالشكّ. وعلى ما زعم صدّام

(*) وفق قوانين الأوبك تحافظ الكويت على حصّة إنتاج تبلغ ١,٥ مليون برميل يومياً لكنها كانت تنتج مؤخّراً ١,٩ مليون برميل يومياً. وقد انخفض سعر الأوبك للبرميل من ١٨ إلى ١٤ دولاراً، وزعم صدّام أن انخفاض قيمته دولاراً للبرميل سيكلّف العراق مليار دولار خسارة سنوية في الدخل وأن انخفاض الأسعار العالمية كلّف العراق خسارة ١٤ مليار دولار حتى الآن. لا أحد جادل في زيادة الإنتاج لكنّ العراقيين ادّعوا أن الكويت كانت تأخذ النفط من حقول النفط العراقية الجنوبية عبر الحفر شمالاً على طول الحدود المتبادلة. بعبارات أخرى كانت الكويت تسرق موارد الأمّة التي ساهمت آلتها العسكرية في إنقاذها من الثورة الإيرانية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فقد «قامت الكويت بتخريب اقتصادي ضدّ العراق». وكان عليّ قراءة تقاريري لأرى كم كنت غبيّاً حين قرّرت الذهاب في إجازتي الباريسية: فيسك ١٩ تموز/ يوليو، موثقاً في بيروت.

«ألاحظ الآن بندم شديد أنه كانت لديّ كلّ الأدلّة. تحدّث الرئيس صدّام حسين عن وسيلة أخيرة ضدّ جيرانه، مضيفاً «إن قطع الأعناق أفضل من قطع الأرزاق». ويواجه العراق ديوناً خارجية مستحقّة للدفع تبلغ قيمتها ما بين ٣٠ و٤٠ مليار دولار. . . وأضفت (يومها): «لا تعتقد أيّ من دول الخليج أن أميركا سوف تتدخّل عسكرياً لحمايتها من العراق. وفي الوقت الراهن توجد سبع سفن حربية أميركية فقط في الخليج. ولكننا نعرف الآن ما ينويه صدّام أيضاً»... لذلك سافرت إلى باريس!! لأكون في المكان الخطأ في الوقت الصحيح .

ألستُ أنا ذلك الشخص الذي قيل له إن الإسرائيليين سيقومون باجتياح غرب بيروت في أيلول/سبتمبر ١٩٨٢ وستكون هناك مجازر في المخيّمات ومن ثمّ سافرت بإجازة إلى إيرلندة لن يهاجم الإسرائيليون لأن فيسك ذهب بإجازة إلى إيرلندة، ولن يجتاح صدّام حسين الكويت لأن فيسك سافر إلى باريس. في ٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠ «القوّات العراقية تجتاح الكويت»، إذاعة «البي. بي. سي» BBC الساعة ٨ صباحاً، بينما كنت أسخّن الكرواسّان بالشوكولاتة. ربّما وقعنا جميعاً تحت تأثير صدّام حسين أو سحر واشنطن في الأيام الأخيرة الحرجة قبل الغزو. وحتى بعد كلّ تهديدات صدّام ضدّ الكويت فلا يزال الأميركيون يعتقدون أن دِكتاتور العراق رجلهم. ولدى سؤال ريتشارد مورفي، مساعد وزير الخارجية الأميركي لشؤون الشرق الأوسط، في مقابلة قبل أربعة أيام من الغزو، عمّا إذا كانت تهديدات صدام مشابهة لتهديدات هتلر عند بدء الحرب العالمية الثانية، اعتبر مثل هذه التصريحات «زلّة لسان». وأضاف: «صدّام زعيم فظّ وصريح لا يتردّد في استخدام القوّة... وأعتقد أن الأمر يحتاج إلى حوار مستمرّ مع العراقيين وأنّ صدّام تصرّف عن ضِيق». وجاءت مقابلة مورفي بعد أربعة أيام من مقابلة سفيرة الولايات المتحدة في بغداد أبريل غلاسبي مع صدّام حسين حيث لاحظت أن الخلاف هو «شأن عراقي ـ كويتي». وفي شهادة لاحقة أمام لجنة الشؤون الخارجية في الكونغرس الأميركي، قالت غلاسبي إن الرواية العراقية

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لهذه المحادثة قد تمّ تحريفها. بعد تلقّي صدّام مكالمة من الرئيس المصري مبارك عاد إلى الاجتماع ووعد بعدم استخدام القوّة وبالعمل ضمن السياق الدبلوماسي الذي وضعه. وكالعادة، كانت هناك كل علامات الكارثة. فهل اخترنا ضمناً نحن الصحافيين والدبلوماسيين العرب والأجانب قراءتها على طريقتنا؟ لقد اعترف لي دبلوماسي بحريني لاحقاً بأنه فشل في فهم مغزى كلمات الرئيس العراقي في القمّة العربية قبل ثلاثة أشهر من الغزو:

> أظهر صدّام أول إشارة لما سيقوم به في قمّة بغداد في أيار/مايو، وفي جلسة مغلقة للقمّة بدا أنه متأثر جدّاً بالنسبة إلى وضع اقتصاده. وقال: «إن انخفاض أسعار النفط يخنقنا»، وأضاف أنه «لا يستطيع الاستمرار إذا ظلّت الأسعار على حالها». كنت هناك وسمعته يقول ذلك لكننا لم نفهم مغزى كلامه. وكان هناك الملك الأردني حسين الذي قال علناً إنّ بلاده بحاجة ماسّة إلى مساعدة اقتصادية وإنه بحاجة إلى دعم اقتصادي.. وهذا ما يذكره العالم.. لكنهم لم يُنصتوا لما قاله صدّام حسين.

بعد أربع وعشرين ساعة على غزو صدّام للكويت، اتّخذ العاهل السعودي الملك فهد قراره التاريخي، وكان ذلك تعبيراً سعودياً عن خطوة لا سابق لها: دعوة الأميركيين إلى دخول الأراضي السعودية، حيث أقدس مدينتين في الإسلام (مكّة والمدينة) للدفاع عن المملكة. وكان الوزراء ورجال الأعمال العرب يعتقدون أن الملك فهد سيطلب على الأرجح مساندة جوّية من الأميركيين في حال اضطرّت إلى ذلك قوّاته غير المجهّزة وغير المهيّأة من أجل الدفاع عن السعودية، وأن السعوديين سيموّلون مقاتلين عرباً للدفاع عن المقاومة الكويتية للاحتلال العراقي كما سبق لهم أن دعموا جيش أسامة بن لادن العربي ضدّ السوفيات في أفغانستان. لكنّ عرض أسامة بن لادن للمساعدة رُفض بازدراء مع كلّ النتائج الخطيرة المترتّبة على ذلك. بعد أربعة عقود من الإذلال على يد إسرائيل (حليفة أميركا الكبرى في الشرق الأوسط) سيشاهد العرب الآن هؤلاء الأميركيين أنفسهم يصلون إلى أرضهم المقدّسة ـ التي يشكل الملك فهد الوصيّ عليها ـ للدفاع عنهم ضدّ زعيم عربي آخر. وبالنسبة إلى العديد من العرب، فإن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ذلك يُعتبر بمثابة الكفر عينه. في تلك الأيام الأولى الحارّة من شهر آب/ أغسطس، ذهبت كما أفعل دائماً في الخليج لطلب رأي علي محمود، مدير مكتب وكالة الأسوشيتد برس في البحرين، وهو مصري سُجن أيام عبد الناصر،(*) ويمتلك رؤية مسبقة قاتمة عندما يتعلّق الأمر بالطيش في العالم العربي. قال لي يومها: «لا تهمّ النتيجة، فقد وقع الأذى».

في الواقع، فإن دعوة الأنظمة الدينية والقومية لأميركا إلى الشرق الأوسط ستكون موضع امتعاض لفترة طويلة ولن تكون موضع تسامح أبداً. وعند انتهاء هذه الأزمة سيحصل الأسوأ. وبعد ستّ سنوات في أفغانستان سوف أتذكّر كلمات علي، بينما كان بن لادن يعدّد ما وصفه بـ «مساوئ» آل سعود التاريخية واحدة تلو الأخرى.

بالنسبة إلى الغرب، بدا تصرُّف صدّام حسين وعرضه الانسحاب من الكويت مقابل انسحاب إسرائيل من الأراضي الفلسطينية المحتلّة، واعتقاله آلاف الرهائن الأجانب في العراق والكويت، وضمّه الرسمي للإمارة، سياسة ساذجة ووهماً. لكن لم يبدُ الأمر كذلك بالضرورة في العالم العربي الذي توجّه إليه صدام بشكل رئيسي. بالنسبة إلى العرب كان الاحتلال الإسرائيلي للأرض الفلسطينية جريمة كبرى دامت طويلاً، أمّا بشأن احتلال العراق للكويت فإن المحتلّين كانوا عرباً على الأقل(**).

(*) علي محمود هو معارض سياسي، وكذلك مراسل للأسوشيتدبرس في مصر إبّان حكم عبد الناصر. كانت ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة عندما كان يستذكر تجربة استجوابه من قِبل جلّادي الشرطة بينما كان معلّقاً من رجليه فوق وعاء كبير للسوائل مليء بغائط بشري ساخن في سجن القاهرة المركزي.

(**) كان ذلك مفهوماً كلّياً من قِبل محلّلي النفط الغربيين الذين جادلوا بحرص في ما إذا كانت الدراسات المبهمة وصلت أساساً إلى النتيجة نفسها. «معظم العرب مقتنعون بأن التدخّل الأميركي في المنطقة لا تبرّره الرغبة في فرض القانون الدولي». وقد كتب ذلك روبرت مابرو في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٠. كان العرب يتمنّون بصدق أن تلعب أميركا هذا الدور في لبنان وفلسطين كما تدّعي أنها تقوم به في الكويت. لكنّ فشل الولايات المتحدة المستمرّ عبر العقود في فرض القانون الدولي عندما يتعلّق الأمر بسياسات إسرائيل وأفعالها يترك شكّاً كبيراً في الذهن العربي حول المبرّرات الحقيقية لهذا الأمر.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وقد أضحت الصور التلفزيونية لآلاف الجنود الأميركيين الذين يهبطون من الطائرات رغم الرياح الرملية في شمال شرق السعودية من أكثر الصور إملالاً في الأزمة لاحقاً. لكن في تلك الأيام الأولى من آب/أغسطس ١٩٩٠ كان وصول الفرقة ٨٢ المُجَوقلة والقوّات الأميركية الأخرى إلى الظهران التي تبعد ١١٠٠ كلم عن مكّة وحوالى ٣٠٠ كلم عن المجموعات المتقدّمة من قوّة الغزو العراقي، هو القصّة الأضخم والأكثر تغطية في العالم. يحتاج الحصول على تأشيرة دخول إلى المملكة إلى أسبوعين عادة ضمن نظام متكتّم مصاب برُهاب الأجانب كحالة السعودية التي أخفت الغزو العراقي عن شعبها حوالى ٤٢ ساعة. ولا يحلم أيّ مسؤول حكومي بالسماح للصحافيين الأجانب بمشاهدة تحرّك قوّة كافرة على أرض مقدّسة(*).

هذا ما حملني على التحوّل إلى رحلة طيران الشرق الأوسط إلى الظهران. فقد اكتشف جو كاي ـ أحد مسؤولي محطّة بيروت، وهو من أذكى مديريها ـ أنه يحقّ لراكب طائرة هذه الشركة المرور عبر السعودية من دون تأشيرة شرط أن تكون معه تذكرة سفر إلى دولة خليجية أخرى . وهكذا حجز لي عبر السعودية إلى البحرين وساعد صحيفة «الإندبندنت» لتقوم بسبق صحافي عالمي. إذاً، كان لديّ خمس ساعات بالضبط للمكوث في الظهران. وقال جو: «سوف ترى الأميركيين يا حبيبي، وسيكونون في كلّ مكان». ولقد كانوا بالفعل!! فبينما كانت طائرتي تحطّ في السعودية استطعت رؤية العشرات من طائرات الهليكوبتر الأميركية المسلّحة «بل أغوستا» Bell Agusta تسطع تحت أضواء القاعدة الجوّية، بينما كانت مراوحها تدور مثل مراوح الهواء متراصّة كشبكة ضخمة من الحشرات منتظرة منتصف الليل للانتقال شمالاً.

(*) عندما كنا نحتاج إلى تأشيرة لم يكن ذلك متيسّراً عادة.. فإذا كان السعوديون يرغبون في دعوة الصحفيين إلى مؤتمر عربي، كانت سفاراتهم جاهزة لإصدار تأشيرات دخول خلال ساعات. وعندما كنّا نرغب في تجنّب هذه الظروف الصعبة، كنا نتجاهل ملء السؤال المتعلّق بالديانة على طلب التأشيرة بسبب الخشية من افتراضات السعوديين بأننا يهود، ولذلك كانوا يرفضون إصدار تأشيرة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كانت مجموعة من البوارج تلفظ المزيد من الطائرات المروحية وأكداساً من الصواريخ البيضاء. كانت هناك طائرة هيركوليس Hercules C-130 تهدر محرّكاتها وهي تحمّل صواريخ لرحلتها نحو الشمال الغربي إلى القواعد السعودية قرب الحدود. وداخل المطار، تفحّص السعوديون جواز سفري ولم يُبدوا اهتماماً بتذكرة السفر إلى البحرين وطلبوا مني الانتظار في القاعة. وكما قال جو، كانوا في كل مكان، كل هذه المجموعات الأميركية في الفرقة الثالثة المحمولة وعلى أكتافها شعارات عسكرية تقول «سليم، سريع، واثق». إننا ظاهرياً على أبواب حرب: جيش مسيحي ينزل في أكثر الدول الإسلامية حساسية. كل ذلك ضاع مع الشبّان والشابات المحدّدي الملامح الواقفين على الطريق المعبّدة، المحدّقين شرقاً لمشاهدة طائرة لوكهيد أخرى ضخمة C-5B تهبط من الجوّ. كانت طائرات النقل تصل كل خمس عشرة دقيقة تنوء إطاراتها تحت ثقل مدافع الكوبرا وتتأرجح أجنحتها البالغة ٣٠ متراً مثل الطيور المسنّة عندما تلامس حرارة الصحراء.

كان الأميركيون مبتهجين ومسرورين للكلام، ولم يكونوا مضلّلين (إطلاقاً)، ولم يبدُ عليهم القلق لأن صحافياً شاهدهم يُنزلون آلاف الجنود والطائرات إلى داخل السعودية. كان الرائد الطيّار كورت موريس ينتظر الباص الذي سيقلّه إلى موقعه. قال: «مكثنا في فندق جميل في المدينة وأكلنا بعض الطعام العربي الليلة الماضية واستمتعنا به، وكان الطقس لطيفاً في اليومين الأخيرين». وتابع مبتسماً: «خلال يومين سوف نعود إلى بلادنا في ميلدين هيل ونحن نتطلع إلى ذلك»... سياحة، طقس جميل، طعام أجنبي، العودة إلى غرب بريطانيا. من الجهة الأخرى للقاعدة الجوّية كانت القوّات المصرية تهبط من طائرة ٧٣٧ وهي طائرة تنقل المصطافين عادة إلى الأقصر.

بدا السعوديون على الأقلّ متفهّمين لخلفيّات هذه الأحداث التي يشهدونها. فقد كانت سلطات المطار مزوّدة بأقنعة سوداء مع فتحات للعينيْن. وقال لي أحدهم، وهو شاب رفيع الشارب، بينما كان يشاهد هبوط طائرة نقل تابعة لسلاح الطيران البريطاني: «أكانت أميركا تأتي لحمايتنا لو لم يكن لدينا نفط؟». عرفت الردّ بالثقة نفسها التي بنى عليها الرائد موريس تفاؤله.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لم يكن رجال الشرطة والجنود السعوديون الذين سألتقيهم في الأشهر القادمة حمقى، ولو لم يكونوا جامعيين، غير أن دينهم علّمهم بشكل كافٍ ممارسة مُنتهى الحذر، إن لم نقل الريبة، تجاه هجمة الوهم الخطرة التي يمثّلها الوصول الأميركي إلى بلادهم.

عمدت القوّات الأميركية منذ البداية إلى الحصول على غطاء ديني من حلفائها العرب الأكثر ولاءً (القوّات المصرية والمغربية وهي كانت موجودة أصلاً في معسكرات مجهّزة في الصحراء). وقد جرى إخلاء مدينة الخفجي الحدودية، وكذلك مدينة حفر الباطن إلى الغرب، حيث تمتد الأراضي السعودية على طول الحدود العراقية ويعود بناء قاعدتها الجوّية ومجمّعاتها السكنية إلى عام ١٩٨٥، وقد كلّفت يومها ٥ مليارات دولار وأقيمت لتستوعب ٧٠ ألف جندي. وتمّ كذلك إخلاء معسكر عمّال نفط أرامكو المحلّي. وقف الرائد موريس إلى جانب جنديّة شقراء طويلة القامة قصيرة الشعر (نموذج أميركي آخر يصدم السعوديين)، وقال: «لا أريد أن أفكّر بالطبع في ما سيحدث إذا اضطرّ رجالنا إلى ارتداء الملابس المضادّة للغاز عندما ترتفع الحرارة فعلياً». يمكنني التكهّن بأن الرجال سيموتون من الحرّ. عند الفجر، تمكّنت من رؤية معظم قاعدة الظهران وذلك عندما حلّقت طائرتي الخليجية محاطة ببطّاريّات الصواريخ الفضيّة والبيضاء.. وقد استطعت أن آخذ من مقعدي عدّة صور لصفوف الطائرات وطائرات الهليكوبتر. كان التاريخ في الشرق الأوسط يتحرّك بسرعة تفوق القدرة على الإمساك به.

تساءلت (وكانت تساؤلاتي هذه متوازية من المفاجآت أكثر منها قياساً نسبياً): أهكذا كان الأمر، يوم توجّه الإنكليز إلى الحرب عام ١٩١٤؟ لم تكن لدينا أيّ فكرة يومها عن الفوضى الشاملة التي ستجلبها القوى الامبريالية الأوروبية على نفسها. مَن كان يعتقد قبل ليلة فقط أن الكويت ستزول، وأن الأميركيين والإنكليز سيقفون ضدّ العراق في الصحراء التي مشى فيها النبيّ محمّد، وأن معركتهم عند حصولها ستقودهم بعد ثلاثة عشر عاماً مباشرة إلى أخطر نزاع شهده الشرق الأوسط منذ سقوط الامبراطورية العثمانية؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

من البحرين سافرت متطفّلاً فوق الخليج مع أصدقائي القُدامى من فريق التلفزيون الأميركي الذين قمت معهم منذ سنوات قليلة بجولة فوق المياه المليئة بالأسماك عندما كان العراق صديقنا وعندما كان يستطيع مهاجمة سفينة حربية أميركية دون قِصاص منذ سنتين فقط!! تذكّرت بينما كانت طائرتنا التجارية تعبر فوق الأمواج وأسماكها الطائرة، أن صدّام كان لا يزال صديقنا والزعيم الصلب الصريح الذى بقي كذلك حتى قرّر احتلال الكويت.

منذ بضعة أشهر فقط، عندما أحضر مبارك برفقته مجموعة من الشيوخ لمقابلة صدّام، اتفقوا على أن مشكلة الدكتاتور العراقي الحقيقية هي الصحافة. المزيد من الضحك! أجل كان صدّام يحتاج إلى مستشار في العلاقات العامة. أمّا الآن فإن رجال العلاقات العامّة هم مستخدمون لدى العائلة الحاكمة الكويتية ولدى القائد الأعلى للقوّات السعودية والحليفة المشتركة، صاحب السموّ الأمير خالد بن سلطان بن عبد العزيز ابن شقيق الملك فهد وابن وزير الدفاع الأمير سلطان.

حلّقنا فوق الأمواج المتحرّكة بلطف وفوق السفن الماخرة في البحر التي تُظهر مقدّماتها المقوّسة هشاشة عصر آخر وحضارة أخرى. لكن حتى ونحن نطير بسرعة مئة ميل في الساعة فوق الماء فقد تصبّب العرق على وجوهنا وظهورنا. بعد خمس أو ست ساعات تحت درجة حرارة ٥٤,٤ أصبح البحر والسماء غائمين مع سحابة رمادية احتفظت فيها الشمس بلونها الذهبي الباهت.

كيف يستطيع المرء مراقبة حرب في هذا الموقد الطبيعي؟ كان الدليل هناك: على بعد مئة كلم من دُبَي كانت الفرقاطة الفرنسية كوموندان دوكوان Commandant Ducoing تتزوّد بالمؤن من سفينة شحن ضخمة بينما يتجمهر طاقمها حول مدفع مضادّ للطائرات، وقد عكس ضوء الشمس على الماء رقمها ف٧٩٥ F795 ثم اختفى في الضباب . انسابت عبر الرطوبة ذكريات أخرى عن الغزو العراقي للشمال الغربي: ناقلات نفط فارغة تتجه شرقاً إلى خارج الخليج، وهذا تناقض طبيعي إذ كان عليها الاتجاه غرباً فارغة والعودة شرقاً مليئة بالنفط الكويتي الخام وخط غطسها تحت الماء.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وكانت الناقلة ت.م. ريغولوس T.M Regulus من سنغافوره طافية على الماء ويظهر الصدأ على مقدّمتها الراسية في الضباب.. وحتى ناقلة النفط الكويتية شيزابيك سيتي Chesapeake City التي كانت ترفع العلم الأميركي وكانت رمزاً للحماية الأميركية ضدّ التهديد الإيراني في حرب الناقلات منذ سنتين، فإنها كانت تلاطم أمواج البحرين. وعلى ضفاف الضباب وجدنا أيضاً سفينة شحن في داخلها وعلى متنها سيّارات تويوتا فخمة لأغنى إمارة في الخليج تهرب الآن نحو مضيق هرمز والبحار المفتوحة. لقد انتهت إذاً الأيام السعيدة!! باستثناء بعض الصحافيين الغربيين المتروكين في الكويت ـ كان من بينهم طوني والكر من صحيفة «الفايننشال تايمز» الذي ظهر في الصحراء بقصّة قويّة عن القسوة والخوف(*) ـ يتحدث مراسلو العالم الآن من بغداد أو من المدن الحرّة في الخليج العربي. من هناك، حاولنا إضافة علامات تساؤل إلى حملة الحرب: بعض قنابل الشكّ التي تدفع القارئ إلى طرح أسئلة كثيرة كما فعلنا في الليالي الطويلة والجافّة التي تناولنا خلالها اللحم وشربنا العصير في السعودية. وقد طالب خاطفو الرهائن الأميركيين في بيروت (وكان بينهم صديقي القديم تيرى أندرسون، مدير مكتب الأسوشيتد برس) بالإفراج عن ١٧ شيعياً كانوا معتقلين في الكويت، وذلك مقابل تحرير الرهائن. وقد تم بالفعل إطلاق سراح اثنين من المعتقلين السبعة عشر الذين كانوا جميعاً أعضاء في حزب الدعوة الإسلامي. هل أفرج العراق عن الخمسة عشر الآخرين؟ الجواب: كلّا.. فقد فرّوا.

(*) كان العديد منهم مهاجرين شجعاناً وكويتيين فرّوا من المحتلّين العراقيين. وقد اقترب جورج وودبري مسؤول عمليات الإنقاذ البريطاني المؤقّت في الكويت من الحدود بسيّارته ليجد ٥٠ دبّابة عراقية أمامه. وصرّح لنا: «لم نستطع رؤيتهم حتى وصلنا إلى قمّة المرتفع وكان قد فات الأوان للعودة، لذا واصلت القيادة بينهم وطول كل خط دبّابات ٤٠ ياردة من كل جهة. لم نلوّح لهم ولم نقل لهم شيئاً، بل تابعنا سيرنا. وكانت طواقم الدبّابات واقفةً هناك تراقبنا. وقد وصف وودبري الكويت المحتلّة حيث توقّف العمل قائلاً:
«كان الجنود العراقيون يقرعون أبواب المنازل طلباً للمال والطعام، وتمّ نهب كل متجر، وقام الفلسطينيون بالنهب أيضاً مع أنهم عاشوا هناك لسنوات طويلة. وكانت هناك خزائن وصناديق قوية متناثرة على الطرق حيث كان الناس يحملونها لفتحها. لم يسلم أي متجر أو مكتب في وسط المدينة من النهب».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بعد ثلاثة عشر عاماً أصبح حزب الدعوة حزباً سياسياً في العراق المحرّرة مطالباً أميركا بإجراء انتخابات. وتجاهل الأميركيون حقيقة أن أعضاءه من الذين تحدّثوا معهم، كانوا كبار إرهابيي الثمانينيّات.

وتحّدث دبلوماسيون عن أن الفلسطينيين المقيمين في الكويت تعاونوا مع المخابرات العراقية وزوّدوها بعناوين المسؤولين الكويتيين قبل الغزو. هل كانت منظمة التحرير تساعد صدّام لاحتلال الكويت؟ الجواب كلّا! لأن بعض الفلسطينيين انضموا إلى المقاومة الكويتية التي كانت قد تشكّلت. لكنّ الفلسطينيين المدرّبين في العراق أُحضروا فيما بعد من بغداد وكان يمكن رؤيتهم بأسلحتهم في شوارع الكويت. ويا لها من فرصة ـ حجّة تهيّأت للعائلة الكويتية الحاكمة المنفيّة حالياً والتي تستطيع العودة يوماً ما إلى الإمارة وتقوم بإبعاد ٣٠٠ ألف فلسطيني «عميل»، بعضهم وُلِد في الكويت؟ وهذا ما فعلته لاحقاً.

أرسل السوريون فرقة من الجنود للانضمام إلى الأميركيين في السعودية: سرايا الدفاع العربية المتحالفة الآن مع أصدقاء الصهيونية (أو كما بدا) ضدّ الأعداء البعثيين. وفي كلّ يوم كانت فِرق وكالات الأنباء ومئات من فِرق التلفزيون من مختلف أنحاء العالم تنتظر خارج قاعدة الظهران الجوّية على الطريق نفسها التي شهدتها بعد الغزو لمراقبة وصول الأميركيين بعتادهم ووحداتهم وفرقهم التي تعّد بعشرات الألوف لزيادة حجم جيش وصل في بداية عام ١٩٩١ إلى نصف مليون جندي ضدّ جيش صدّام. في عام ١٩٩١ اعتقدت أميركا أنها بحاجة إلى هؤلاء الجنود لتحرير الكويت.

وفي عام ٢٠٠٣ قدّر البنتاغون أنه يحتاج إلى أقلّ من نصفهم لمحاصرة العراق واحتلاله. لكن في ذلك، لم يقم أحد بمثل هذه المقاومة. وقد أقنع ضبّاط الجيش الملكي الصحافيين بارتداء أقنعة الغاز ونصحونا باستخدام نظام «بادي بادي» بحيث إنك تستطيع مساعدة زميلك بأن تضع الفيلتر في قناعه بعد الانتهاء من وضع قناعك أولاً... وفي أثناء ذلك يكون زميلك قد مات اختناقاً. ويحتاج مُجمل هذه العملية الرديئة إلى قوّة بدنية ـ جملة أشكّ في أنّ العسكريين حصلوا عليها من الصحافة ـ بينما كانت غالونات من كوكتيل صدّام الشرّير تحيط بنا.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

زيارة واحدة إلى الفرقة الأجنبية الفرنسية (نبيذ أحمر في الصحراء يزعج أكثر من جرعة ماء ساخن بريطانية) أقنعتني بأنّ هناك أساليب أبسط لتجنّب الانتشار الكيميائي. وقد أخبرني عنصر بريطاني في الفرقة البرّية الثانية من شرق لندن، أن وحدته لديها تعليماتها الميدانية الخاصّة. قال: «مبدئياً، عندما يكون هناك إنذار بهجوم بالغاز، يُطلق أحدهم صفّارة إنذار ونتجمّع في الشاحنات وننطلق خارج المنطقة». بدا ذلك شديد الحساسية بالنسبة إلى «الغازيت» السعودية، وهي الصحيفة التي فشلت في إبلاغ قرّائها بأن مئة ألف جندي عراقي احتلّوا الكويت وقتلوا شقيق الأمير وهم يقفون على الحدود السعودية.

«ما يجب أو لا يجب فعله عند حصول هجوم بالغاز»، اقرأ العنوان الرئيسيّ في الصفحة الرقم ٣. كان ذلك أحد أكثر مقالات الأطبّاء حصريّة في العالم. مقالٌ يتطرّق إلى السعوديّة بالقدر الذي يتطرّق إلى الحرب الكيميائيّة. أمّا الذين يتذكّرون كيف عزا الملك فهد في تلك السنة مقتل ١٤٠٠ حاجّ مسلم في مكّة إلى مشيئة الله، فسوف يجدون محتوى ذلك المقال مألوفاً بعض الشيء.

ويقول المقال: «إذا كنت خارج منزلك في العراء، ولا تستطيع عمل شيء سوى قبول مصيرك». من جهة أخرى، «إذا كنت في البيت فانظر من النوافذ إلى الطيور وهي تهوي عن الأشجار وإلى القطط والكلاب والبشر يتساقطون ويختنقون، والسيّارات تتصادم، والفوضى عارمة، هذه كلّها علامات هجوم كيميائي. عندما ترى مثل هذه الأشياء تحصل، أَحكم إغلاق الأبواب والنوافذ ولا تدع أحداً يدخل أو يخرج من البيت». وتتضمّن التعليمات المساعدة الأخرى: ارتداء ملابس طويلة وجوارب وقبّعة وتغطية الرأس كليّاً بمنشفة مبلّلة أو غطاء... ادخل تحت الدوش وابقَ هناك»...(*) لكن صحيفة «الغازيت» السعودية لم تشأ إخافة قرّائها، فقد تضمّنت صفحتها الأولى يوم ٤ آب/ أغسطس ١٩٩٠ فقرة واحدة غريبة، تقول: «تبادل الملك فهد وبوش وجهات

(*) كان الاغتسال تحت الدوش بشكل مستمرّ نصيحة جيّدة لضحايا هجوم كيميائي، وكانت القبّعة إضافة غريبة إلا إذا كانت بغطاء مقفل.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

النظر حول الوضع في المنطقة على ضوء التطوّرات الجارية». كان ذلك هو الامتياز الخالص للصحيفة بالنسبة إلى الحقيقة، وكان «التطوّر الجاري» يتمثّل باحتلال العراق للكويت. وقد أُعطي الأميركيون توجيهات ثقافية، كان بعضها شديد الحساسية: «لا تشرب الكحول، لا تظهر أيّ اهتمام بنساء العرب، لا تفقد أعصابك»؛ وأخرى تكشف المشاكل الحقيقية لسياسة أميركا ـ الشرق أوسطية ـ إذ تضمّن الدليل الرسمي للجيش الأميركي في السعودية مقطعاً بعنوان: «مناطق حسّاسة» يحثّ الجنود الأميركيين على عدم مناقشة المقالات والمواضيع التي تتحدّث عن علاقات الصداقة بين أميركا وإسرائيل، أو «التظاهرات ومشاعر العداء للعرب في الولايات المتحدة»، أو «دعم الأنشطة الإسرائيلية»، أو «الوجود في لبنان». الواقع أن هذا الدليل العسكري لا يستطيع حتى الإشارة إلى غزوات إسرائيل أو إلى الاحتلال بمثل هذه الكلمات، لأن تلك المواضيع كانت أكثر حساسية للبنتاغون منها للعرب الذين يستطيعون مناقشتها. وقد تضمّن مصنّف سابق للجنود الأميركيين تعليمات حول «تجنّب النقاش حول اللوبي (جماعة الضغط) اليهودي أو المعلومات الأميركية المعطاة لإسرائيل»، وهي تعليمات ألغاها البنتاغون الأميركي كلّياً بعدما كتب المؤتمر اليهودي العالمي رسالة إلى وزير الدفاع الأميركي ديك تشيني (نائب الرئيس حالياً)، يعبّر فيها عن استيائه وعن «شعور عميق بالأذى والغضب». وطُلِب إلى القوّات الأميركية أن تعمل على «إبراز كامل قِيَم التسامح والتعدّدية والانفتاح التي جعلت من الولايات المتحدة مجتمعاً ديمقراطياً واحداً». وبذلك نجح الضغط اليهودي في شطب كل نقاش حول اللوبي اليهودي.

وجرى حثّ اليهود الأميركيين أيضاً على التذكّر أنّ «النبي محمّد مؤسّس الإسلام وُلِد في السعودية عام ٥٧٠ ميلادي، وكان لهذا الواقع تأثير عميق في السعودية، جاعلاً منها المركز المميّز للدين الإسلامي». صادفت لاحقاً هذه الرواية السعودية لهذا الدليل، في إحدى الليالي عندما كنت عائداً من الظهران بعد زيارة إلى الحدود الكويتية، وتوقّفت عند نقطة مراقبة: توقّفت شاحنة عسكرية سعودية، وتوجّه منها جنديّان نحو سيّارتي، قال لي أحدهما: «سيّدي، نريد منك أن تأخذ هذه»، وقدّم لي منشوريْن مكتوبيْن بالإنكليزية من إعداد

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

منظمة الشباب المسلم العالمية، وتوزيع مركز الدعوة الإسلامية والإرشاد في الدمّام. كان عنوان المستند الأول «سيف الإسلام»، وهو يدّعي أن مجرّد لمعان هذا السيف «يزيل الكذب كما يزيل الضوء الظلمة». ويتضمّن سلسلة تعليقات من غربيين اعتنقوا الإسلام بمن فيهم كات ستيفنز ـ الذي مُنع من الدخول إلى أميركا عام ٢٠٠٤ بتهمة كاذبة كلّياً تقول بأنه كان متورّطاً في الإرهاب ـ الذي يحمل اليوم اسم يوسف إسلام. ويشتمل البيان على قول لستيفنز: «من الخطأ الحكم على الإسلام في ضوء تصرّف بعض المسلمين السيّئين الذين يقدَّمون دائماً للإعلام».... وهذا مثل الحكم على سيّارة بأنها سيّئة إذا كان سائقها ثملاً»... ويحثّ المنشور الثاني كلّ أجنبيّ «كافراً، كان أو لا أدرياً، أو مؤمناً بالديمقراطية والحرية» على دراسة حياة النبيّ وتعاليمه.

وقال لي الجندي السعودي: «أعطينا هذه المنشورات للأميركيين». كان رجلاً طويلاً ملتحياً، حيّاني ثم عاد إلى شاحنته. كانت شاحنة أميركية الصنع بالطبع، وكانوا يعتمرون قبّعات أميركية (كفْلار) وتحت قيادة أميركية: كان هذا فعلاً مصير العديد من المسلمين: العيش تحت المظلّة الغربية... إنها لمفارقة!!! أن يكون على السعوديين (مثلهم مثل الإيرانيين) العيش في بلد طُرقها السريعة وأنظمتها الضريبية من صُنع أميركي، وقواعدها الجوّية من صنع أميركي، وطائرات الهليكوبتر والطائرات المقاتلة والقاذفات فيها أميركية، وأن يعيشوا في دول بُنيتها التحتية أميركية، وأمراؤها (أو في حالة إيران: ثوّارها) درس معظمهم في الولايات المتحدة، أو يتكلّمون الإنكليزية بلكنة أميركية. ربّما كانت وجهة نظر الرئيس بوش وجيهة عندما أوضح أن الانتشار العسكري في السعودية يهدف أيضاً إلى الحفاظ على نمط العيش الأميركي، وأنه لم يكن يفكّر قطعاً بالدين، أو بقطع الرأس السعودي. لكنّ السعودية لم ترتدِ الملابس السعودية فقط، بل كانت بلاداً مليئة بالمنتجات البريطانية، بما في ذلك المزيد من الطائرات، التي يفوق عددها عدد الطيّارين السعوديين الذين يستخدمونها. ويعود الفضل في ذلك إلى صفقة ١٩٨٨ في اليمامة البالغة قيمتها ٢٣ مليار دولار، وهي تتضمّن شراء ١٣٢ طائرة تورنادو وهوك، وعمولات أعطيت للوسطاء البريطانيين ولنظرائهم في

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العائلة الحاكمة السعودية. وقد قام مكتب التدقيق البريطاني الوطني بإجراء تحقيق حول الموضوع عام ١٩٨٩، لكنّ التقرير حُفظ لتجنّب إغضاب السعوديين، بحسب ما قالت الحكومة البريطانية. وكانت رئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر متورّطة شخصياً في المشروع وذلك بحجّة منع المنافسة الفرنسية والأميركية. بالطبع «ليس للنفط على الإطلاق أيّ علاقة بانتشار القوّات الأميركية في السعودية». وإذا كان ادّعاء الجنرال نورمان شوارزكوف هذا دليلاً مُرضياً للذين يخشون ذلك، فإن البلاغة والحقيقة كانتا شريكين في الشرق الأوسط. ويجدر القول هنا إنّ الجنرال قد أدلى بتصريحه في لحظة تجلٍّ لخيال حقيقي. ولأنه القائد الأعلى للقوّات الأميركية في الخليج، فقد استخدم لغة مقرونة بالدبّابة. «على الإطلاق»، قال شوارزكوف وهو يحدجني بنظره عندما كنت سهل الانقياد للقول إن الحماسة الأميركية للدفاع عن السعودية لها علاقة ما بالبترول. «لا أعرف لماذا يظلّ الناس يتحدّثون عن هذا الموضوع، حقيقة لا أعلم. وإذا كان في ذهن أحدهم شيء ما حول ما قام به العراق، فأقترح عليه البحث عن مجال آخر للعمل. ما لديكم هنا أمر واضح: إنه ليس ظلماً بل اغتصاب». عندها قامت فِرق التلفزيون الأميركي بتشغيل كاميراتها وتسجيلاتها، فهنا جنرال لا يتكلّم بلغة العسكر فقط، أو ما اعتقده التلفزيون لغة عسكر، بل هو يتكلّم بلغة لطيفة ولاذعة أيضاً. صرخ: «هذا انتهاك أوّليّ للنظام الدولي، كلنا نشمئزّ عندما تُغتصب سيدة عجوز في نيويورك بوجود شهود بلغ عددهم ٢٤ شخصاً لم يفعلوا شيئاً لمنع الجريمة... ليس الأمر مسألة نفط... ليس هناك أيّ جندي يفكّر على هذا النحو».

إذاً، كلّ هذه الرواية عن الدعم الأميركي لصدّام كي يغزو إيران واعتداءاته الكيميائية على الإيرانيين والأكراد، وغضّ واشنطن النظر عن غُرف التعذيب والقبور الجماعية، كلّ ذلك سكت عنه العالم، ولم يتحرّك إزاءه كأنه لم يحصل. كان على الذين التقوا منّا ولو جندياً أميركياً واحداً لا يعتقد أن الأمر يتعلّق بالنفط، أن يلتزموا الصمت لاحقاً. وعندما سألنا الجنرال لماذا لم تستخدم أميركا قوّاتها لمنع ضمّ دول شرق أوسطية أخرى واغتصابها، قيل لنا لا تكونوا مغفّلين!

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أحبّ شوارزكوف، الرجل الضخم ذو الصدر المنتفخ والرأس الشبيه بالكرة الأميركية، كلّ ذلك. فقد كان أصلاً «الجنرال» الذي خدم دورتيْ قتال في فييتنام، للفرقة الأولى في قوّات المشاة الأميركية التعيسة. التي كانت مسؤولة بالفعل عن مجزرة ماي لاي ـ وهو بالفعل لم يكن قائداً لكل وحداتها ـ والرجل الذي يحمل ١٤ وساماً عسكرياً بما فيها وسام الخدمة المميّزة والنجمة الفضّية وفرقة الشرق ووسام الطيران وقلبان أرجوانيان.

بالطبع لم يسأل أحد عن والده نورمان شوارزكوف الآخر، الذي ساهم في تدمير الديمقراطية الإيرانية عام ١٩٥٣ مع كرفت روزفلت ومونتي وودهاوس. سُئل: كيف هي المعنويات العراقية؟ «يا يسوع! أرجو أن تكون منهارة! أن يكونوا جوعى وعطاشاً، وأرجو أن تكون ذخيرتهم قد نفدت... أظنّ أنهم مجموعة من المجرمين». هل هناك أيّ فرصة ليجتاح العراقيون السعودية؟ «الفرق أننا هنا الآن، وإذا قاتلوا فعليهم مقاتلتي، ليست المسألة التسلّط على جار ضعيف، لا يريد السعوديون أن يُنظَر إليهم كجار ضعيف، كانوا أقوياء، واثقين وقادرين على الدفاع عن أنفسهم، أليس الليفتانت جنرال الأمير خالد بن سلطان بن عبد العزيز قائد القوّات المشتركة؟». وبالفعل، وبينما كنّا نستقصي في وسط الغابة العسكرية التي كانت تحاصر الخليج، اكتشفنا أنه لم يُسمح لأيّ جندي أو طاقم دبّابة أميركية بتجربة سلاحه منذ بداية انتشار القوّات. وقد رفضت السلطات السعودية السماح للأميركيين بتجريب أسلحتهم خشية أن يسمع السكّان المدنيين أصواتها. وحتّى السفينة الحربية العملاقة «يو أس أس ويسكونسين» USS Wisconsin، التي تستطيع تسعة من مدافعها الستة عشر إطلاق قذائف تصل إلى ٣٠ كلم، مُنعت من الإعلان عن موعد تدريباتها بالذخيرة الحيّة وذلك لتجنّب الفوضى على ساحل الخليج. وفي بعض نقاط الصحراء الشرقية كان على فرقة المشاة ٢٤ إعادة تمركز دبّاباتها لأن جنازيرها تُعرّض مراعي الجمال للضرر.

إذاً، كان السعوديون يُضعفون موقّتاً القوّة العسكرية الأميركية، إذ إن الجيش الأميركي كان يقوم بعملية تحوّل نفسي مهمّة لقوّاته. فعندما غزا الجيش العراقي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الكويت يوم ٢ آب/أغسطس، كان جيشاً مليونياً قويّاً مقاتلاً، أكمل قدرته الهجومية بقوّة مقاتلة صلبة. غير أن الضبّاط السعوديين والأميركيين يستخلصون من الأنباء التي يرويها اللاجئون الكويتيون أن القوّات العراقية تنهب المحلّات والمنازل وهناك عمليات اغتصاب وشنق. وقد تحدّث الضبّاط الإنكليز عن الجيش العراقي قائلين: «فوضى عارمة بمعنويات منهارة». أما في ما يهمّنا فقد أبلغنا قُبطان المدمّرة البريطانية «يورك» بأن هناك خداعاً كبيراً حول الحرب الكيميائية. ومع ذلك، ففي بداية تشرين الثاني/نوفمبر كان كتاب «الترتيب القتالي لعاصفة الصحراء» المعدّ من قِبل رئيس جهاز الاستخبارات، يصف الجيش العراقي مجدّداً «كأفضل جيش تجهيزاً، والأكثر خبرة قتالية في العالم، والمميّز بمرونته وقدرته العالية على الحركة». ربّما يتوقّف الأمر على نوعية الجمهور الذي نتحدّث إليه. عندما تحدّث الجنرال كولن باول، المفترض أيضاً أنه ليبرالي ووزير خارجية (ومفكّر بليغ في إدارة بوش الآن بعد عشر سنوات) إلى قوّات البحرية الأميركية على متن المدمّرة ويسكونسين يوم ١٤ أيلول/سبتمبر، قال: «كان صدّام هو الجوكر الذي وضعناه في بغداد والذي قال العالم له: «لا نستطيع قبول هذا النوع من القذارة بعد الآن». وإذا أراد أحدهم مقاتلة الولايات المتحدة، قال باول لرجاله: «فارفسوه بأرجلكم». في هذا الوقت كان الفلسطينيون في الكويت أكثر استهزاءً بحسب قول آلان كلارك وزير الخارجية البريطاني، الذي ادّعى في البحرين أنهم شكّلوا ميليشيا غير رسمية في الكويت، وزعم أن العديد منهم استولى على أسلحة عندما تبدّل الوضع.

في الظهران كان خط الطيران شاهداً على كل قادم، على آلاف الجنود الأميركيين الشبّان وهم ينزلون سلالم الطائرات، حاملين زجاجات ماء بلاستيكية مصدومين من الحرارة، والذين اكتشفوا فجأة أنهم قابلوا عدوّهم الرئيسي هنا على أرض المطار. كانت على وجوههم ندوب وشرائط بين الندوب والخُوَذ، بحيث يبدون كمئة نسخة قوية للرجل الخفيّ. وكانت القاعدة الجوّية تضجّ بأصوات الناقلات والدبّابات التي تشقّ الغبار قرب صواريخ الباتريوت المضادّة للصواريخ غير المجرّبة بعد. وقد أصبح الصحافيون جزءاً من هذا الانتشار

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العسكري. لقد أحضروهم لتصوير عمليّات الوصول المستمرّة، وذلك (بشكل رئيسي) لإعطاء شعور بأن في السعودية قوّات أميركية أكبر ممّا هو متوقّع، ولتعزيز الاعتقاد أن هذه القوّات تمثّل القوّة التي لا تقاوَم، كما اعترف شوارزكوف. وإذا كانت الحرب ستندلع، فسوف يسمح للصحافيين بمرافقة القوّات بوسائل نقل مشتركة. وقد قاتل المراسلون والصحف وشبكات التلفزة بضراوة للانضمام إلى هذه الوسائل حيث إنهم سيخضعون للمراقبة والمنع وتقييد حريّة الحركة على أرض المعركة، في حين يفترض أن يخضع الباقون لأنظمة الكابتن مايك شيرمان. وكان شيرمان الذي هو أقصر من الرجل العجوز الخشن الذي شقّ طريقه عبر كارولينا، يمتلك نظرة ثاقبة مليئة بالقسوة كأحد أسلافه، الجنرال وليم تكومسي شيرمان. لم يكن ذلك مفاجئاً، لأن الكابتن شيرمان كان يقود أحد أكثر الأسلحة الأميركية فتكاً في الخليج، سفينة حوت كبيرة راسية بشكل دائم في قاعة رقص رائعة من الأحلام والتوقّعات في فندق الظهران الدولي. وكان مجرّد القول بأن قاعة الرقص كانت في الظهران كافياً للحصول على إحدى رسائل الكابتن شيرمان التحذيرية الشهيرة، لأن على متن السفينة قوانين يُتوقّع من الصحفيين الذين يتمتّعون بالتسهيلات الحربية الالتزام بها. أمّا حالات خرق القوانين الميدانية من قِبل ١٣٠٠ صحفي ومراسل تلفزيوني وقّعوا على تغطية الحرب بما في ذلك ستر هويّة القواعد العسكرية (حتى قاعدة الظهران التي استخدمها الطيّارون العراقيون خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية، ولذا كان شيرمان قلقاً)، فستعالج كلّ حالة منها على حِدة. هناك شبه بأستاذ المدرسة، لأن قيادة الكابتن شيرمان المعروفة رسمياً باسم المكتب الإعلامي المشترك أو (JIB) هي بحدّ ذاتها مدرسة. إنها تُثير وتُعقّد وتُغضب وتُضلّل.

في الأيام الخوالي، في منتصف آب/أغسطس عندما كانت الحرب وشيكة، أدار شيرمان المكتب الإعلامي بستة ضبّاط عسكريين في ركن من مدخل الفندق، وعلى مقربة منهم جلس مندوبان من وزارة الإعلام السعودية في غرفة مشابهة. لكن مع توسّع أهداف أميركا العسكرية، كقرار بوش بتحرير الكويت الذي تحّول إلى قرار بالقضاء على صدّام حسين، تحولّت مقصورة الكابتن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

شيرمان إلى شيء أضخم وتحرّكت إلى أعلى، من تحت سقف كبير أزرق تتدلّى منه بيضات ذهبية إلى قاعة رقص أكبر فيها سجّاد وهواتف وآلات طباعة وأكياس للعتاد وبنادق وسجلّات ومعلومات أكثر لأي شخص يريد الحصول على آليّات قتل الآخرين من البشر. إلى اليمين جلس ممثّلو التحالف العسكري الغربي خلف ستار طويل، ثلاثون ضابطاً بلباس عسكري من سلاح البحرية الأميركية، والجيش، والسلاح الجوّي والبحرية، وطاقم جديد من العناصر، وعلى رأسهم شيرمان وفريق من موظفي وزارة الدفاع البريطانية. إلى الجهة الأخرى في الغرفة، جلس ١٨ سعودياً مع آلات الكمبيوتر والهواتف وكل واحد منهم يرتدي كوفيّة ودشداشة بيضاء. وعلى مكتب منعزل، جلس أيضاً ممثل عن الحكومة الكويتية في المنفى موزّعاً صوراً ملوّنة لضحايا التعذيب. وبشكل مشابه للشبّان والفتيات في درس الرقص، كان الغربيون نادراً ما يعبرون الغرفة للحديث مع السعوديين المواجهين. كان الصحفيون وحدهم يتحرّكون بين الثقافتين، ستة أمتار ربّما كانت تفصل قوة الغرب عن مهد الإسلام. وكان في طرفي القاعة جهازا تلفزيون كبيران. في الجهة العربية، كان التلفزيون السعودي يبث مباريات كرة القدم والصلوات، وفي الجهة الأميركية، كانت «السي أن أن» تبث طريقة العيش الأميركية، وكان كثير من السعوديين يشاهدون «السي أن أن».

في سوق الحرب هذه، كان مراسلو خمسين بلداً قادرين على طلب معلومات حول صواريخ باتريوت، وترتيب زيارة ليلية إلى موقع القوّة المجوقلة ٨٢، وتناول الفطور مع طيّاري سرب طائرات تورنادو Toronado الملكية البريطانية، وطلب معرفة مدى طائرة ف ١٥ والقوّة التدميرية لقذيفة سايدويندر أو سعة برميل دبّابة شالنجر. كانوا يستطيعون التسجيل في الباصات والطائرات التي تقلّهم إلى السفن الحربية الأميركية، وإلى الوحدات المصرية المدرّعة والقوّات السورية الخاصّة ووحدة المشاة الأميركية ١٠١ ووحدة المدرّعات الأميركية الأولى أو جنود الاحتياط من بورتوريكو. وكان السعوديون يواكبون أيضاً المراسلين إلى سوق الجمال في الهفوف. وقد احتاج الأمر بضعة أيام قبل أن يكتشف المرء أنه إلى جانب الإثارة هنالك أيضاً شيء مقلق جدّاً حول المكتب الإعلامي المشترك.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تغلّبت الوعود بشأن القدرة العسكرية وقوّة العيارات الناريّة وعبارات الثقة والتفوّق التقني والمعدّات، على نوعية اللاوعي. ولفترة كان يمكنك تعلّم كلّ ما ترغب فيه عن القوّة التدميرية لمدفع ١٥٥ ملم أو خصائص القنبلة العنقودية، وكان من غير المسموح به نقاش نتائج استخدامها.

ماذا يحدث عندما تنفجر قنبلة ١٥٥ ملم أو سايدوندر؟ كان هناك كلام كثير عن تعطيل أهداف وخسارة أشخاص وطريقة جعل وحدات العدو غير ذات فائدة. ويمكنك طلب زيارة الوحدة المدرّعة السابعة البريطانية المدرّعة، لكن ليس مستودع الجثث. وكانت طلبات زيارة الأماكن الطبيّة مسموحة. وعند السؤال عن أكياس الجثث التي تصل إلى الظهران، كان الردّ أن سؤال المراسل تافه.

فهذه الحرب خيضَت من دون مجازفات. لقد كانت حرباً نظيفة ـ لم تكن جحيميّة بل فقط عديمة المسؤوليّة يتدفّق سيل المعلومات فيها فجأةً عند بدء الصدام، مثل الجنس بدون لذة... كان من السهل تقييم المكتب الإعلامي الأميركي: دراما وتسلية لكلّ العائلة. إذا كنت مؤمناً بالمكتب الإعلامي، فليس ما يمكن تصوّره بالنسبة للمستقبل.

كان صدّام حسين هو الذي احتكر سوق الموت. فلم يعلن العراقيون أيّ معلومات حول آلتهم العسكرية ولم تكن هناك تسهيلات لزيارة الحرس الجمهوري. لكن بعد الغارات، كلّ ليلة، كان صدّام يتحدّث عن الصحراء التي تحوّلت إلى مقبرة لعظام تسطع تحت الشمس أو جثث تتحلّل تحت وطأة الحرّ. ووصفت الإذاعة العراقية تعفّن الموت بأنه ثمن حاسم للوطنية العراقية. وتحدّث الأميركيون عن الثقة بينما تحدّث العراقيون عن الأنذال. لكن إذا كان الكابتن شيرمان يسوّق الآن للحرب، فقد كنّا نحن الصحافيين مندوبي تسويق. أنظر إلى زملائي في قاعة التأمّل الذين لبس العديد منهم لباس التعب العسكري. كان مراسل غانّيت نيوز سرفيس Gannet News Service يسوّق لبطاقات تعريف عسكرية علّقها على ملابسه. وظهرت سيدة من تلفزيون صوت كولومبيا في المكتب الإعلامي مرتدية اللباس العسكري الأميركي. واحتذت لوفونتانا من WISTV جنوب كارولينا، جزمة مغطاة بأوراق شجر ميتة وهي تُباع عادةً

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

للصحراء في متجر بارون لمعدّات الصيد. (إن أيّ شخص ألقى نظرةً على صحراء، أو حتى رأها خلال صورة، يدرك أنه لا توجد أوراق شجر على الرمل أو أشجار أو أي شيء). خلف الستائر، يشعر رجال الكابتن شيرمان ونساؤه، وبعضهم صحفي في الحياة المدنية، بالراحة مع الصحافة أكثر ممّا يشعرون به مع العسكر.

كان شيرمان نفسه متمركزاً في كاليفورنيا وكان مستشاراً بحرياً لبرنامج هرمان ووك التلفزيوني ـ الحرب والذكرى. وحصل الملازم البحري تشارلز هسكنسون على درجة عالية في دراسات الشرق الأوسط، ونظراً إلى مَيله المهنيّ الحقيقي عمل مراسلاً صحافياً في مجال التعليم و السياسة في صحيفة «غرينفيل» اليومية في شمال كارولينا. لقد دأبتُ على مقابلة جنود البحرية الذين يرغبون في كتابة قصص: المراسلون باللباس العسكري والجنود بلباس الصحافة، في شرايينهم علاقة توحي بالتعايش والتآلف. ويبدو أن نصف الجنود يرغبون في العمل في مجال الصحافة.

كان الباقون يتحلّلون بعيداً في الصحراء، يأكلون الطعام الجاهز ويتأمّلون النجوم والخطوط، ويتساءل العديد منهم كيف وقّع على دخول معهد التدريب ليجد نفسه على الشاطئ الكبير بانتظار قتال رجل لم يسمع به إلا قبل رحيله بأسبوعين. وكلّما سنحت لي الفرصة كنت أقوم برحلة رسمية أو غير رسمية إلى الصحراء، مع جنود صادقتهم في الظهران، أو في طلعات رسمية كان ينظمها شيرمان ورفاقه، أو مع الصحافيين الفرنسيين الذين رفضوا بروح حرّة الالتزام بالتعليمات وتحرّكوا ببساطة إلى الصحراء بحثاً عن صور ومقابلات مع جنود من أي نوع كانوا: أميركيين، إنكليزاً، مصريين، كويتيين، سوريين، سعوديين، وحتى باكستانيين. أجل، فالوحدات الخليجية تضمّ جنوداً آسيويين، هم الترجمة العسكرية لكلّ تلك الملايين من الخدم الباكستانيين والفيليبينيّين والسيريلانكيين والهنود، الذين يُستعبدون عبر الجزيرة العربية للأسياد والسيّدات العرب.

كانت الصحراء عدوّ هؤلاء الجنود كما كانت عدوّنا. كانت الشمس تسطع كالسيف والرمال تغزونا. كانت الرمال الحارّة والجافّة واللاصقة نفسها التي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

شقّت طريقها إلينا في الحرب الإيرانية ـ العراقية، بلّوراتٍ سكّرية سميكة أو ناعمة مثل ملح الأرض، بُنّية أو بيضاء أو رمادية تلتصق بالشُّعيرات في آذاننا وتستقرّ بين أصابعنا رطبة ومدغدغة ما بين ثنايانا، ومتفجّرة مثل رشّاش لزج من الماء على وجوهنا منسابةً بين عيوننا وجفوننا. . . ريح جاء وصفها في كتاب «بادرة جميلة» Beau Geste لـ پ. سي. وارن ـ وهو كتاب أعطاني إيّاه والدي عندما كنت صغيراً ـ كالآتي «ليست بعاصفة رملية، بقدر ما هي سحابة أو غيمة، أو غبار ناعم كالطحين، يملأ العيون، والرئتين، والمسامّ الجلدية، والأنف والصدر ويدخل في فتحات البنادق والساعات، وفي الماء والطعام، جاعلاً الحياة عبئاً ولعنة».

فتّشت على ولفريد أوين وحتى على روبرت بروك الموجود في الصحراء، متناسياً أن بروك كان جندياً يافعاً وأن شِعر أوين صُقل في الحرب وليس في السوبرماركت على الطريق السريع بين الظهران والخفجي، حيث يصطفّ الجنود لشراء الحليب (اللبن) المخفوق وشوكولاتة كادبري والبوظة (آيس كريم)، ويقفون في الباحة ومعهم هواتفهم النقّالة يتصلون بسيدار رابدز Cedar Rapids أو البريستول Bristol ويتذمّرون من البريد وغياب المشروب والنساء ووجود العقارب، وهي حشرات كبيرة نشطة تصل في الليل لتبدّل ألَم الإحساس بالحرّ بألم الجلد الممزّق ونقص الأخبار. بالطبع لعبنا على ذلك كلّه نحن الصحفيين. أخذنا معنا مجموعة من الصحف، وهواتفنا التي أفادتنا كثيراً حين كنا نرى الجنود على الخط السريع حيث السيّارات معطّلة، وكنّا ندعهم يتصلون بالوطن مجّاناً. وعندما قاموا بذلك شعرنا بأن انضباطهم وأنظمتهم تلاشت فأصبحنا أصدقاء للذين يستطيعون التعبير عن خوفهم ووحدتهم وعدم استعدادهم المذهل لإمكانية الذهاب إلى الحرب.

كم مرّةً سألني جنود البحريّة أو المشاة أو سائقي سيّارات الإسعاف، إذا كان باستطاعتهم استعارة خرائطي أو شراؤها؟ جنود بدون خرائط، جنود لا يعرفون أين هم في هذا المحيط من الرمل... الرمل المتحرّك بسرعة فوق الأرض تحوّله الرياح إلى غبار عبر إيران وتركمنستان ملطّخة (البحر) المتوسّط باللون البنيّ، مكدسةً إياه خلال الرياح الخمسينية على شرفتي في بيروت، ناشرةً

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إياه فوق اليونان وجنوب إيطاليا وعميقاً في تلك الأجزاء من أوروبا التي لم تصل إليها الغزوات العربية أبداً.

لا شعراء في سَريّة برافو التابعة لفرقة المشاة الآلية ٢٤. وقد اعترفوا أن رسائلهم للوطن مليئة بالملل وأوصاف الحرارة. يقرأون قليلاً، ينامون، يعملون كثيراً غالباً في الليل عندما ينتعش الهواء. يعيشون في عالم من السكون الضاغط بحيث تستطيع أن تسمع الجندي أندرو شوميكر يفتش في القعر الحارّ لدبّابته M1. وعندما يصعد إلى البرج كان يعمل وفي يده قطعة كرتون بنّية، يتّكئ على كتفه الأيمن فوق مخزن الرشّاش ثم يقوم ليبعد الرمل الناعم اللامع بيده اليسرى قبل أن يجلس على الجزء الملفوح من الدبابة. ثم يبسط ورقة الكرتون بعناية كبيرة كما لو كانت رسالة حبّ، فتبدو عليها مجموعة من الخطوط المستقيمة التي تتقاطع وتنقسم إلى سلسلة من الدوائر المرسومة بدقّة. ولكل دائرة اسم: زُحل، أورانوس، بلوتو، عُطارد، الأرض، وفي الأعلى بخط اليد وضع الجندي شوميكر خطاً تحت عبارة «لعنة الكوكب». هذه فكرته. وكل ما تحتاج إليه هو مجرّد «نرد». قال بأسلوب خجول: «أردت أن أبقي الشباب بعيداً عن الملل. ينطلق كلٌّ منّا في سفينة فضائيّة من كوكب الأرض وعلينا السفر بعيداً في الفضاء. عند كلّ كوكب، المرّيخ على سبيل المثال، علينا التزوّد بالوقود. لكنّ المسافات كبيرة جدّاً بحيث ينفد الوقود. عليك محاولة الوصول إلى كوكب آخر قبل أن ينفد الوقود، وعندها تستطيع التزوّد به. «ومَن يستمرّ حتى النهاية يكون هو الرابح، ويخسر الآخرون».

لم يلاحظ الجندي شوميكر، على ما أعتقد، أنه حجز أرواح طاقم دبّابته في هذه الورقة المستطيلة المطويّة. عزلة، حاجة ماسّة إلى الوقود، الخوف من المجهول. كان أصدقاء شوميكر جالسين على الدبّابة حوله وعلى الرمال قرب الجنازير ينصتون بانتباه بينما يشرح هو شروط اللعبة. في اليوم الحادي عشر من استقرارهم على الكوكب الشاسع الموحش لم تصلهم أي رسائل من الوطن، ولا أي صحف أو طعام ساخن. وليس لدى معظمهم خرائط. وعندما يتحدّثون يقومون بذلك على شكل حوار كونهم فكّروا كثيراً وتحدّثوا قليلاً منذ وصولهم.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

من الجهة الأخرى لمخزن المدفع الرشّاش كان الرقيب دارين جونسون يجلس القُرفصاء، وعيناه شاخصتان إلى تلك النقطة في الصحراء حيث الرمل شديد البياض والسماء الزرقاء باهتة بحيث أصبح الاثنان واحداً. لا ينظر إليك ولو مرّة وهو يتكلّم. تزوّج منذ ٢٠ يوماً. «اسمها فيرجينيا، أحبّها وأعتقد أنْ ليس فيها شيء مميّز سوى أنها تضع عدسات لاصقة زرقاء». ويضحك الآخرون بتوتّر. «لقد عرفتها منذ عشرة أشهر. لقد كانت تعمل لدى «هاردي» عندما التقيتها». «كان من المقرّر أن نتزوّج في عيد ميلادي يوم ٢٣ أيلول/سبتمبر، لكن تمّ استدعائي إلى ثُكنة ستيورات يوم ١٧ آب/أغسطس وقرّرنا معاً الزواج فوراً. أجرينا مراسم الزواج في منزل والدتها. كان أقاربها هناك ولم تستطع والدتي الحضور.، وبقيت معها ثمانية أيام أو تسعة». كان الرقيب جونسون لا يزال ينظر نحو الأفق المفقود وكانت أفكاره تتخطى ذلك الأفق. «جاءت لتودّعني في المطار. وأنا أوفر حظاً من بعضهم. كان هناك شابّ، وأومأ بيده نحو الأرض الصافية إلى الغرب، بقي ٣ أو ٤ ساعات فقط مع زوجته. تزوّج عند الغداء يوم مغادرتنا. لقد كتبت رسالتيْن لفرجينا حتى الآن. ماذا قلت لها؟ قلت إنني بخير وإنهم لن يفعلوا شيئاً». كانت «إنهم» إشارة جونسون إلى صدّام حسين والرئيس بوش.

لكنّ ما قاله لزوجته كان كذبة. قال: «حتى لا أحزنها». ويعتقد جونسون أنهم سيقومون بشيء ما بالتأكيد. قال «يبدو أن ذلك سيحصل، ولكن إذا حصلت حرب أتمنّى أن تنتهي بسرعة. أن أُصاب بجروح تشغل تفكيري كثيراً، أجل أفكّر في ذلك كثيراً. أعتقد أنني أشعر بأمان في دبّابتي، وأنني سأنجو من هنا. إنني أعمل في مجال الدبّابات منذ سبع سنوات وأعرف ماذا تصنع».

عندما صعدت إلى دبّابته لم تكن آمنة كثيراً. من جهة كان هناك مقعد مغطّى ببلاستيك أسود وكان موقع الرقيب جونسون إلى يسار مؤخّرة المدفع، وإلى اليمين موقع الجندي شوميكر مع قناعه المضادّ للغاز المتدلّي من الخلف. وربّما كانت المسافة ٦ أقدام من طرف إلى الطرف الآخر. ويشير ميزان الحرارة على صندوق الذخيرة إلى ٥١,٧ درجة مئويّة. وعندما تتحرّك الدبابة تصل الحرارة إلى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

٥٧,٢. عندما أخرجت نفسي من سفينتهم الفضائية الهزيلة، كان الرجال يضعون أيديهم على وجوههم لحمايتها من العاصفة الرملية. وكانت الصحراء مليئة بأغصان الشجر المحطّمة واليابسة.. وتحت شباك التمويه الكثيفة تبدو سريّة دبّابات «برافو» المنتشرة على الرمال كالعملاق الذي جعلته شباك خيوط العنكبوت الطويلة المميتة متحلّلاً ومسنّاً، مجمّدةً إياه في رمال الصحراء... لكن لا توجد حماية من رمال الصحراء. فالحُبيبات تدخل إلى رؤوسنا مثل الحشرات وإلى آذاننا وأفواهنا وأنوفنا. وعندما أشعر بالرمل أحسّه يُقضم تحت أسناني. وبينما كنت أتصبّب عرقاً خلف الدبّابة، كان العرق يترك آثار رمل على وجهي. كان شوميكر وجونسون وزملاؤهم بكامل لباسهم القتالي ويرتدي معظمهم الخُوَذ. لا توجد رشّاشة للاغتسال: هناك خيوط رفيعة بين التهكّم والواجب، وبين التذمّر والشجاعة، ليست واضحة مثل لعبة الجندي شوميكر. كان الجندي الاختصاصي كليفلاند كارتر غير متحمّس لهذه المغامرة في الشرق الأوسط. «أنا أحبّ الجيش، ولا تفهموني بشكل خاطئ، لكن لم أفكّر أبداً بالمجيء إلى هنا، فهم ليسوا من شأني ـ أي العرب ـ لكن بما أنه طُلب مني القيام بهذا العمل فأنا أقوم به، فأنا جندي. لكن أتمنّى أن يأتي بعض هؤلاء النوّاب إلى هنا مع كل هذه الوطنية ليشعروا بحرارة الصحراء. لا يبدو هذا عدلاً بالنسبة إليّ. هناك أناس يتقاضون مالاً أكثر لوقودهم، ثم يدفعون حياتي ثمناً لوقودهم».

ربّما كان الجنرالات متلهّفين إلى المعركة، لكن الجنود الأميركيين الشبّان الذين تكلّمت معهم لم يكونوا متحمّسين للحرب. قال لي الرقيب باروت وهو ملقّم دبّابة، ضعيف وطويل من تكساس، إنه يضيّع وقته في الصحراء. وقد انضمّ إلى الجيش للحصول على منحة دراسية وليس للقتال في السعودية. وأضاف أنهم يتحدّثون بإسهاب عن إمكانية حصول الحرب. كذلك، كان الجندي شوميكر قد انضمّ إلى الجيش لينهي دراسته: «كنت أحبّ كل تلك الأفلام، كنت أشاهد العديد من الأفلام عن الحرب العالمية الثانية، لكن كنت دائماً أريد الإنخراط في الجيش، أتعلم، لقد أحببت بيتون Patton؟ وكنت أرغب دائماً في قيادة الدبّابات بكلّ الأحوال». كان عمره ٢٠ سنة. إنّ كان معظم قادة الفرقة ٢٤ من قُدامى حرب فيتنام وكان معظم جنودهم في سنّ الخامسة عندما انتهت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حرب الهند ـ الصينية. لم تؤثر سياسة النفط فيهم جميعاً. ويعتقد جونسون أنه «إذا كان السعوديون أصدقاءنا فعلينا إذاً واجب حمايتهم». ويرى الرقيب جيف إيغارت «أن السعوديين يحتاجون إلى مساعداتنا، وقد وعدنا بها لذا علينا تأمينها». ويتحدّث اثنان من الجنود عن واجب إطاعة الرئيس. وبعد فترة بدأ الواجب يدخل في كل تفسيراتهم لوجودهم في الصحراء، فهم لا يكنّون أيّة كراهية للعراقيين، فأعداؤهم أكثر قُرباً. «تأتي العقارب في الليل» بحسب قول جونسون، «العشرات منها، وهنالك حيّات أيضاً يمكن رؤية آثارها على الرمال. لذا لا نستطيع النوم على الرمل، وعلينا أن ننام جميعاً على البطّانيّات لأن المعدن حارّ ـ متقوقعين حول برج الدبّابة». حلّقت فوقنا طائرتا أ ـ ١٠ نفّاثتان سوداوان، مُحدثتين ارتجاجاً في الدبّابات الشهيرة أو غير الشهيرة التي يفترض بها حماية الجندي شوميكر وزملاءه من المدرّعات العراقية.. وكان في أسفل كل طائرة صاروخ أصفر مطليّ. لكن الجنود لم ينظروا حتى إلى أعلى، وقال إيغارت: «إذا كانت طائراتنا لا آبه، فأنا أعرف كيف أميّز طائراتهم، الميغ ٢٣ والميراج. لكن لا أعتقد أن العراقيين يستخدمون الأسلحة الكيميائية. وأقول لزوجتي في رسائلي: كلّما طال انتظار الحرب قلّ احتمال استخدامهم الأسلحة الكيميائية، هذا منطقي ولا أعرف لماذا».

منذ سنتين فقط ارتبط الجندي شوميكر بصديقته هايدي، ابنة الثامنة عشرة، ويقول: «سنتزوّج قريباً، ولكنني لم أرها منذ خمسة أشهر، عندما أرسلوني إلى هنا. كل ما استطعت عمله أنني اتصلت بها هاتفياً وقلت إلى اللقاء، وعلى الفور غادرت من ثكنة فورت ستيوارت. كتبت لها، لكن لم يصلني جواب كما لم يصلني شيء من والدتي وأنا أفكر فيهما طوال الليل. أجلس على الدبّابة وأنظر إلى النجوم، وقد استوحيت لعبتي من الكواكب بهذه الطريقة». ليس لدى طواقم الدبّابات أيّة خبرة قتالية أو علم مسبق.

وبدا الجندي شوميكر وأعضاء طاقمه الآخرون مُحبطين بسبب الحرارة. ولم يكن لدى شوميكر جهاز راديو بحيث يستطيع الاستماع إلى إذاعة «البي بي سي» BBC. وقد سألني شوميكر وجونسون وأصدقاؤهم عندما غادرتهم: «ماذا يجري

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

هناك». قلت لهم هناك قمّة بين بوش وغورباتشوف حول إطلاق سراح العراق لبعض الرهائن من النساء والأطفال، وحول تزايد مأساة اللاجئين على الحدود العراقية ـ الأردنية. باختصار، أصبحت لديهم رؤية للعالم الخارجي، وكان الجواب فورياً إذ طلب مني الرقيب جونسون: «هل يمكنك الاتصال بزوجتي». وكان شوميكر يريد مني الاتصال بوالدته، ودوّن بقيّة الجنود في مفكّرتي أرقام عائلاتهم المتواجدة على بعد ٨ آلاف ميل منهم، مسافة تتخطّى أبعد نقطة على ملعب شوميكر.

اتصلت بهم بعد بضع ساعات، وبدت لي فرجينا جونسون شابّة. «إنني أكتب له كل دقيقة، أبلغه أنني تسلّمت رسالته الأولى، وأنني أكتب له كل يوم». أبلغت عائلة إيغارت أنه يرسل لها حبّه، ويحتاج إلى سجائر. وكانت والدة شوميكر تريد معرفة ما إذا كان في الخطوط الأمامية: «هل تستطيع إبلاغي بشكل تقريبي إذا كان قرب الكويت؟» أطلعتها أنه على بعد أكثر من ٥٠ ميلاً من حدود الكويت، ولم أقل لها إنه لا يوجد شيء سوى الأميال بينه وبينها. يستطيع صدّام أن يكون على أحد كواكب شوميكر، فهو يعقد اجتماعاً وقحاً مع الرهائن البريطانيين، وقد وضع يده على وجه طفل بريطاني، وسأله ما إذا كان يشرب الحليب بانتظام. وتدلّ تصريحات صدّام العلنية على شغفه بالحليب وهو يهدّد السعودية بحرب مقدّسة ويعرض نفطاً مجّانياً على دول العالم الثالث. لقد تمّ التعامل مع هذه الأحداث بازدراء من قِبل واشنطن ولندن. وفي المغرب حصلت تظاهرات مؤيّدة للعراق. وتحوّلت الجموع في الجزائر إلى تظاهرات عفويّة وهي دائماً بمثابة تهديد في العالم العربي عندما تكون حقيقية ومن تدبير الحكومة لدعم العراق. وقد رُسِمت على الجدران الضخمة صواريخ صدّام حسين التي هدّد بإلقائها على إسرائيل والتي سيطلقها عليها خلال شهور. على مقربة من حدود الكويت، اكتشفَت وحدة العمليات الخاصّة الحادية والعشرين ـ وهي قوّة سرّية أمضت الوقت في استطلاع اللاجئين الكويتيين وشعارها شيطان من الغبار يظهر من خلال العاصفة الرملية ـ أنّ هناك مناطق واسعة من الكويت غير موجودة على خرائطها. فقد بنت الثروة المتدفّقة في الكويت شوارع جديدة ومدناً أخرى بسرعة أكبر مما يستطيع أيّ رسّام خرائط تسجيلها.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ليلاً ونهاراً، كانت القوافل الأميركية الكبيرة تنشط على الخط السريع السادس باتجاه الحدود الكويتية بمدرّعاتها ومدافعها وناقلات الجند ومعدّات بناء الجسور والدبّابات وشاحنات الذخيرة وسيّارات الجيب والدوريات. كان هناك سرب من طائرات الهليكوبتر الخضراء القاتمة، ينساب فوق الرمل ويتبع الطريق شرقاً وهو ينوء تحت ثقل المدفعية والصواريخ والمولّدات وحتى البيوت الجاهزة التي يحملها. ولدى الجيش المتقدّم إيقاع خالص وطاقة وجدّية في التصميم، لا يستطيع أيّ مدير في هوليود إنتاجها. في نهاية تشرين الأول/أكتوبر كانت القوّة المتعددة الجنسيّات منتشرة عبر الصحراء وكانت الأرض ممهّدة ومغطّاة بآلاف السيّارات المدرّعة ومراكز القيادة ومواقع الصواريخ والمعسكرات، ومواقع مدفعية مموّهة بأسطول من الجرّافات التي تقيم تحصينات في الصحراء. كان غبار مئات الطرق العسكرية يملأ الجوّ، بينما يجلس عشرات الألوف من الجنود المفترض بهم المدافعة عن السعودية.

كم من الوقت يستطيع بوش وتاتشر الادّعاء أنّ هذا هو جلّ ما يتمّ القيام به.

كان هناك العديد من الجيوش العربية المسلمة منتشرة عبر الصحراء السعودية لتشكّل الأساس الروحيّ لـ «لتحالف»، وكانت بمثابة دليل على أنه ليست هناك عملية أميركية من أجل النفط وأنّه ما من تضحية كبيرة بالنسبة إلى الغرب. عندما ظنّت النساء السعوديات أن الوجود الأميركي في المملكة يمثّل حريّة جديدة، تظاهرن في الرياض ضدّ منع النساء من قيادة السيّارات، وظلّت واشنطن صامتة عندما عوقِبن. وعرضت «البي بي سي» شريط فيديو لجنود بريطانيين في الصحراء يحتفلون يوم الأحد بالذكرى السبعين لانتهاء الحرب العالمية الأولى حتى لا يشعر السعوديون بالإهانة لرؤية إقامة صلاة مسيحية على الأرض الإسلامية، وقد طُلب من الجنود الأميركيين عدم ارتداء الصلبان أو نجمة داود بشكل علني.

عندما قتلت الشرطة الإسرائيلية ١٩ شاباً فلسطينياً في تظاهرة القدس في تشرين الأول/أكتوبر، ردّت الصحافة السعودية والعربية الأخرى على عملية القتل ووصفتها بالمجزرة، وهي كانت بالفعل مجزرة، وقد وصفها وزير الخارجية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الأميركي جيمس بيكر بأنها «مأساة». في حال أقدم جنود بلد عربي على قتل ١٩ يهودياً ـ وكم مرّة يجب على المرء إجراء هذه المقارنات؟ ـ هل كان بيكر وصف الأمر بالمأساة؟ هل كان أحدهم فعل؟ عندها، لكانت الوكالات تحدّثت بحقّ عن المجزرة ولكان تمّ تحجيم العرب بدعوتهم إلى ضبط النفس. لم يحصل رابط على الإطلاق. فقد اكتفى بيكر بالقول بين «المأساة» في القدس والأزمة في الخليج.

لقد قامت أهمّ حليفة لأميركا في الشرق الأوسط للتوّ بقتل (أو ارتكاب مجزرة بحقّ) ١٩ فلسطينياً في ثالث أقدس مكان إسلامي، بينما تقوم الحليفة الثانية الأهمّ لأميركا، السعودية التي تضمّ أول وثاني أقدس الأماكن الإسلامية، بتشجيع الولايات المتحدة على مهاجمة جيوش صدّام حسين العربية. وهذا هو المعيار المزدوج للنظام العالمي الجديد الذي كان يتبنّاه بوش وما زال. كان بوش يريد إنهاء الاحتلال العراقي للكويت. لكنه لم يكن متلهّفاً مطلقاً إلى إنهاء الاحتلال الإسرائيلي للضفّة الغربية وغزّة. لم يتمّ غزو البلدين بالطريقة نفسها ـ عام ١٩٦٧ كانت إسرائيل معرّضة للهجوم ـ لكن كيف تستطيع واشنطن الآن التعامل مع كلّ من الاحتلالين بطريقة مختلفة(*)؟

وكيف نستطيع بهذه السهولة التخلّي عن الحلفاء العراقيين السابقين ـ الرجال الذين ساندناهم بقوّة في غزوهم لإيران ـ وتحويلهم إلى أعداء؟

كنت مصدوماً في تلك الليلة الباردة في الصحراء مع أفراد فرقة الخيّالة الملكية الإيرلندية الذين يعود تاريخهم القتالي إلى أكثر الكوارث البريطانية

(*) في حزيران/يونيو وآب/أغسطس ١٩٨٠ أعلنت الجمعية العامّة للأمم المتحدة ضمّ إسرائيل للقدس باطلاً وغير قانوني وفق القانون الدولي. وفي كانون الأول/ديسمبر ١٩٨١، أعلن مجلس الأمن ضمّ إسرائيل لهضبة الجولان السورية باطلاً وغير قانوني، وفق القانون الدولي. وفي ٩ آب/أغسطس ١٩٩٠، أعلن مجلس الأمن الدولي ضمّ العراق للكويت باطلاً وغير قانوني وفق القانون الدولي. بالنسبة إلى الإعلان الثالث وليس الإعلانين الأوّلين، يصرّ الغرب على التطبيق الواضح للقانون الدولي. ولقد عرف العرب مسبقاً بالتأكيد أنه يوجد قانون واحد للإسرائيليين وقانون مختلف تماماً لغير الإسرائيليين.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مأساويةً!(*) أخذني المجنّد كيفن ستيفلي ـ الذي لم يتحدّث أبداً إلى سعودي، ولكنه استنتج بذكاء أن الأمر يتعلّق بالنفط وليس بالديمقراطية ـ إلى دبّابة شالنجر خلف الكُثبان وكنت أحبّ التسلّل إلى هذه العوالم الخاصّة. رافقته في الدبّابة وصعدت إلى البرج متعلّقاً بالكوّة كالحيوان الذي يلتصق بالرمل. اكتشفت أن ستيفلي يتولّى قيادة سفينة كاملة. مالت دبّابة الشالنجر ذات البرج العالي وانحرفت نحو الصحراء مثل سفينة كبيرة تغطي صناديق الذخيرة مقدّمتها. وانساب الرمل من النتوء مثل رذاذ ماء بحري كان محتّماً علينا مثلما هو محتّم وجود خطّ مستوٍ على خارطة ملاحة خارطة بحرية. لكن عندما يجلس الجنود في معسكراتهم حول النار في الليل، كانوا يحبّون الجلوس باتجاه الغرب بعد غياب الشمس بفترة طويلة، لأن الأعداء العراقيين كانوا في الغرب.

كانت كلٌ من عقليّتهم وعقليّتنا طبيعية بقدر ما كانت مُعدية. منذ عشر سنوات تقريباً، وربّما حتى اليوم، كان العراقيون يدخلون مدينة خرمشهر الإيرانية متقدّمين فوق أنقاض المنازل المحترقة تحت قصف المدفعية. وكنت مع هؤلاء العراقيين. حينها كنّا نتقاسم معاً الأخطار نفسها، ونختبئ في المواقع العسكرية ذاتها. وقد وضعنا، جون سنو وأنا، ثقتنا بهؤلاء الكوماندوس العراقيين والرائد الذي ساعد في إنقاذ البريطونيّين على متن سفينة التنّين في نهر شط العرب. كانوا أصدقاءنا وجزءاً منّا.

عندما انطلق جون في مهمّته الإنقاذية الليلية الخطرة إلى السفينة، لم يكن هناك أدنى شكّ في مَن نكون! نعم هم كانوا عندئذٍ نحن. والآن ونحن جالسون مع هؤلاء الجنود البريطانيين، أصبحنا نحن هم. وكان المجنّد ستيفلي يتساءل

(*) زرت الوحدة البريطانية يوم ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر، وكلّ جندي تحدثت معه ذكّرني بالوحدة المضيئة التي أرسلت إلى وادي الموت في بالاكلافا منذ مئة وستّ وثلاثين سنة ويومين. واعترف اللفتانت كولونيل أرثور دينارو أن «من تقاليد الجيش البريطاني العادية الميل إلى الاحتفال بالهزائم» وهذا صحيح. بالنسبة إلى إحصائيات التاريخ الامبريالي، كان ٣٥ في المئة من الخيّالة من إيرلندا ومعظمهم من الرجال المستعدين لقتال صدّام، ولديهم لكنة بلفاست، وديري، ودبلن وكورك. وحتى دبّاباتهم كانت تحمل أسماء مدن إيرلندية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إذا كانوا سيلقون قنابل كيميائية علينا. وبدون شكّ اعتقدت أنه في مكان ما عبر ذلك المحيط الكبير والمخيف أمامنا في الرمل الذي لم يكن في الواقع يتجاوز ٣٠٠ كلم، كان هناك بعض قُدامى حرب خرمشهر بمن فيهم الرائد الذي شكرناه بحرارة، جون وأنا، منذ عشر سنوات.

إذا نسينا إنسانية العراقيين، كان من السهل أيضاً بالنسبة إلينا تجاهل مشاعر السعوديين وانفعالاتهم، أولئك الذين سيطلق وجودنا العقال لتأزّمات في مجتمعهم. وخلال هذه الأشهر الأخيرة قبل تحرير الكويت، غالباً ما أصبح السعوديون لاعبين صغاراً في مأساتنا، لوردات مساعدين يفترض بهم التفوّه بعبارات التأييد والولاء المناسبة تجاهنا والكراهية للقيادة العراقية. عندما أكّد وزير الدفاع الأمير سلطان بن عبد العزيز أنه لن يحصل أيّ هجوم من الأراضي السعودية ضدّ الأخوة العراقيين، استدعى الرئيس بوش السفير السعودي في واشنطن الأمير بندر بن سلطان لتفسير هذا التحوّل عن المخطط. وحصل انزعاج مماثل عندما صرّح الأمير سلطان في أواخر تشرين الأول/أكتوبر بأن السعودية إذ ترى أن على العراق الانسحاب من الكويت، فإنها سوف تساند أيّ مطالبة عراقية مُحقّة بأراضٍ في الإمارة.

في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٠، تلقيت اتصالاً في فندق الظهران من إمام مسجد قريب كنت من وقت لآخر خلال الأشهر السابقة أمّر للحديث معه. عندما وصلت إلى المدرسة الفارغة قرب المسجد، كان الشيخ منفعلاً بشكل واضح حول موضوع كان يناقشه مع مجموعة من الرجال الملتحين المتوسّطي العمر كانوا يجلسون بلباس أبيض في غرفة خلفية. اعتقدت أنه يريد مناقشة احتمالات الحرب، لكنّ ما سأله كان: «متى سيرحل الأميركيون؟».

لم يكن الشيخ راديكالياً. كانت خُطبه التي تبثّ عبر مكبّرات الصوت من المئذنة الإسمنتية قرب جامعه، تردّد الحاجة إلى الهدوء في أثناء الأزمة. «لكنّهم الآن هنا منذ أكثر من ثلاثة أشهر ولم يحصل شيء. وقالت حكومتنا إن الأميركيين سيرحلون عندما تنتهي الأزمة. صدّقنا ذلك، ولا نزال. لكن أعتقد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أننا نصدّق ذلك لأننا نريد تصديقه». سمع الشيخ كلّ الإشاعات. كان رجال الأعمال في جدّة يتبجّحون بصمت أنهم أمّنوا عقوداً مدّتها خمس سنوات لتأجير أراضٍ للقوّات العسكرية الأميركية المتمركزة في المملكة. وفي الظهران قيل إن الأميركيين أخذوا عقوداً لسنتيْن على مواقف السيّارات والمخازن وتسهيلات النقل. وكانت سفن الشحن الأميركية تُحضر معدّات بناء وأسلحة.

بالنسبة إلى الأميركيين والإنكليز الغرباء لم تكن العادات والتقاليد الخاصّة بالمجتمع السعودي واضحة... كانت الصحافة السعودية تعلن بملل تصميم الرئيس بوش على طرد صدّام من الكويت. وعندما زار بوش السعودية في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٠، قام المتعهّدون المحلّيون بنشر إعلانات على صفحات كاملة في صحف السعودية تمتدح قراره إرسال قوّات أميركية للحفاظ على السلام والحرية وحمايتهما والدفاع عنهما في هذا الجزء من العالم. لكن الشيء الآخر الأكثر أهمّية هو أن هذه الرسائل سُمعت الآن في السعودية.

وكانت أشرطة التسجيل الدينية التي يعبّر فيها الدعاة عن قلقهم المتزايد إزاء وجود الغربيين في الأراضي الإسلامية، توزّع في البلاد. وكانت الحكومة قد سمحت منذ سنوات بأشرطة التسجيل التي يقدّمها دُعاة مسلّحون لكن الشرطة السعودية سحبت ستّة أشرطة من التداول في الأشهر الثلاثة الأولى لانتشار القوّات الأميركية بسبب مضمونها المعادي. ويذكّر بعض هذه الأشرطة الجديدة بعلاقات السعوديين السابقة مع العراق عندما كان صدّام يُعتبر رسمياً تجسيداً للقومية العربية والفضيلة، وعندما كانت قسوته المدوّنة جيّداً في الغرب من قِبل الحكومات الغربية يتمّ تجاهلها من قِبل العائلة المالكة السعودية. وكانت تسجيلات أخرى تنتقد بقسوة حلفاء السعودية وبخاصّة الرئيس السوري حافظ الأسد. وكان المئات من اللاجئين السوريين الفارّين من انتفاضة حماه التي قُمعت بقسوة عام ١٩٨٢ عندما سحق جيش الأسد ثورة الإخوان المسلمين، أحد التنظيمات السنية الراديكالية، يعيشون الآن في السعودية وقد أثّرت ذكرياتهم تأثيراً عميقاً في أعضاء الطبقة الدينية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وقد قام الداعية السعودي المعارض سليمان العودة بطبع خطاب مسجّل معروف بـ «سقوط الأمم». فبينما تحدّثت خطبته الاحتفالية ظاهراً عن أسباب انحلال الأمم، عرّفت الفساد ومحاباة الأقارب وفقدان حرية التعبير وعدم وجود مجلس شورى استشاري، على أنها أسباب رئيسية للانهيار الوطني. وقد فهم المستمعون فوراً أنه كان يتحدّث عن آل سعود. وبعد فترة قصيرة من حظر الشريط، أعلن الملك فهد للمرّة الثالثة في بضع سنوات أن خطط إنشاء مثل هذا المجلس باتت في مراحلها النهائية. وقد ألغى العودة، الذي كان عميد جامعة محمد بن سعود في القصيم، خطبته في أوائل أيلول/سبتمبر ١٩٩٠ وجرت مصادرة تسجيلات الخطبة على الفور(*).

إزاء ذلك استمع السعوديون فقط إلى أمرائهم، والوعود التي لا تنتهي حول الحرية والحماية من قبل الزعماء الغربيين، وتصريحات الذين يعرّفون الفلسفة المسيحية كعربة لجعل أي حرب مستقبلية مقبولة. وقد أعلن أسقف كانتربري أنها ستكون حرباً عادلة بينما تحدّث أساقفة آخرون بالتفاهة نفسها التي ستستخدم لشنّ الغزو غير القانوني على العراق عام ٢٠٠٣. وأعلن الأسقف إدوارد نورمان عام ١٩٩٠ (وهو عميد معهد كنيسة المسيح في كانتربري) أن العراق يحتاج إلى تدمير، كونه يشكّل تهديداً نووياً، بينما يستمرّ كدولة يمكن أن تكون مساهمتها بالنسبة إلى العالم والمجتمع العربي قيّمة جدّاً. وكتب لاحقاً:

> إن أسلحته النووية ستكون جاهزة. ولدى العراق القدرة على إطلاقها... إن القوّة العسكرية، مع كلّ العذاب المتوقّع والخسارة البشرية التي ستنتج عنها تُعتبر بكلّ المقاييس أفضل أخلاقيًّا من الخسارة البشرية التي ستنتج عن نزاع نووي مستقبلي في الشرق الأوسط. إن خسارة أرواح في الحرب الآن سوف تحول دون خسارة الملايين من البشر بعد بضع سنوات، وهذا بالتأكيد استنتاج

(*) هذا هو الشيخ العوده نفسه الذي طالب بن لادن بإطلاق سراحه عندما التقيته في أفغانستان منذ سبع سنوات.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مسيحي خالص... إن مجتمعاً يضع الرفاهية المادّية والبشرية فوق صناعة قِيَم أعلى وأكثر استمرارية ليس تصوّراً سامياً وهو على أيّ حال تصوّر سيتخطّاه الذين يؤمنون حالياً بقِيَمهم.

بعيداً عن تبريراته غير العادية المشابهة للحرب القادمة التي هي واحدة ضدّ العراق، فإن القسم الثالث من هذا البحث الجزئي تحدّث عنه أسامة بن لادن، لكن هناك طرافة أخرى موازية لغزو العراق عام ٢٠٠٣ وهي تتمثل في العلاقة غير المتساوية بين واشنطن ولندن. وفيما حمل الدعم الذي عبّرت عنه مارغريت تاتشر، ولاحقاً جون مايجور، لتحرير الكويت قليلاً من التذلّل، فإن الحماس الروحي والنفسي الذي أبداه طوني بلير لغزو العراق، ودور بريطانيا كخادم مطيع لصانع القرار العسكري في واشنطن، كانا واضحين قبل بدء الحرب عام ١٩٩١ بفترة طويلة.

ميدانياً بدا التحالف الأنجلو ـ أميركي مؤثّراً. كان ضابط اتصال الوحدة المدرّعة متمركزاً الآن في الصحراء في مقرّ القيادة التكتيكي للجنرال ميخائيل ميث، قائد فرقة مشاة البحرية الأولى الأميركية. وقامت قوّات البحرية الأميركية والبريطانية بتدريبات دفاعية وهجومية بإشراف القائد البريطاني العميد باتريك كوردنغلي. وقد ناقش اللفتانت جنرال سير بيتر دولابيلير القائد الأعلى للقوّات البريطانية في الخليج مجموعة من السيناريوهات الهجومية مع شورازكوف في الرياض ووافق عليها. وسوف تلعب الدبّابات البريطانية دوراً رئيسياً في العمليات الهجومية البحرية الأميركية.

ولقد حان وقت الخلاف، وسوف تفقد بريطانيا قدرة اتخاذ القرار. ذلك أن التخطيط شيء والتنفيذ شيء آخر. وسوف تحوّل القيادة القومية في زمن الحرب، القوّة المتعدّدة الجنسيّات إلى فوضى. وقد ناقش دولابيلير موقع بريطانيا في شبكة القيادة والمراقبة خلال زيارة للسعودية قام بها وزير الدفاع البريطاني توم كينغ يوم ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر حين اعترف بالدور الرمزي للسعوديين والدور العسكري للأميركيين.

«القائد الأعلى هو الأمير سلطان، صلاحيّاته وصلاحيّات الجنرال

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

شوارزكوف تتفق مع احتياجاتي في ما يتعلّق بالخدمات التي يشترك فيها الإنكليز. إن القوّات البرّية والجوّية البريطانية تحت السيطرة التكتيكية للأميركيين)»(*).

وبحسب مصادري، فقد لوحظ ضمن القيادة الأنجلو ـ أميركية أن العلاقة بين البريطانيين والأميركيين لم تكن متقاربة أو موضع ثقة متبادلة كما أُريد للعالم أن يعتقد. كان ذلك واضحاً بشكل خاصّ عندما وصلني نبأ خلال عطلة الميلاد في باريس مفاده أن لصّاً سرق حقيبة وجهاز كمبيوتر يحتوي على خطط موجزة لحرب الخليج من سيّارة للجيش البريطاني في أكتون غرب لندن. واستناداً إلى مصدر معلوماتي، كانت المستندات بحوزة ضابط كبير في الجيش البريطاني، كُشف لاحقاً أنه القائد دايفيد فاركهار، ضابط العديد التابع للسير باتريك هاين، الرئيس المباشر لدولابيلير، وقد أخذها السارق من السيّارة بينما كان فاركهار متوقفاً لمشاهدة سيّارة مستعملة في معرض أكتون. وقد رمى اللصّ المستندات التي وجدت بعد بضع ساعات، بينما احتفظ بالكومبيوتر لبيعه، غير عابئ بأنه يحتوي على معلومات عسكرية. ولكنّ أخطر ما في ذلك هو أن البريطانيين لم يبلغوا الأميركيين بالسرقة. أرسلتُ إلى صحيفة الإندبندنت قصّة غير عادية، لأبلغ فقط أن الحكومة البريطانية أصدرت «التعميم D» حول المعلومات على أمل منع وصولها إلى الصحافة، وأن رئيس التحرير ماتيو سيموندز وافق على الالتزام بالطلب وإبقاء القصّة سرّية.

كان سيموندز أحد المؤسّسين الثلاثة لصحيفة «الإندبندنت» وكان من الشخصيات الأكثر مغامرة في تاريخ الصحافة البريطانية، وقد أنشأ صحيفة لا تخضع لسلطة بارونات الصحافة أو الحكومة. ولم يخضع أندرياس ويتام سميث أبداً للضغط، لكن سيموندس الذي بدأ يُظهر حماساً رومنسيّاً مربكاً للحرب فشل في إدراك أن التعميم D لم يُصدر بشكل أساسي لأسباب أمنية بل لمنع الجانب الأميركي من المعرفة بالسرقة. لذا أبلغتُ الموضوع إلى زميل لي في صحيفة «يرتش تايمز» الصادرة في الجمهورية الإيرلندية، وغير المعنية بإثارة الانتباه، عندها ضجّت الإدارة العسكرية ونشرت على الفور التقرير حول

(*) السؤال طُرح أيضاً عندما زار مارشال القوّة الجوّية ورئيس العديد في وزارة الدفاع السير غريغ المملكة السعودية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

السرقة. وقال أندرياس لي عندما عاد إلى المكتب من إجازته وعند عودتي إلى السعودية: «ما كنتُ لأسمح للتعميم D بإيقافنا». وقد كشف ذلك عن شرخ مهمّ في إدارة صحيفتي، شرحه أندرياس بنفسه في صحيفة الأحد بعد مضيّ ستّ سنوات. وإن الشيء الوحيد الذي ندم عليه بحسب قوله هو: «أنّ سيموندز أقنعه بوجهة نظره حول حرب الخليج المخالفة لوجهة نظري. أتمنّى لو أنني أدرت سياسة الصحيفة على نحو جعلها مناهضة للحرب، لكن ماتيو والجميع أقنعوني بعدم القيام بذلك لأنهم لا يوافقون على وجهة نظري». والأمر الأكثر أهمية، كان تأكيد مبلّغي أن السبب الحقيقي للتعميم D كان إخفاء السرقة عن حلفاء بريطانيا الأميركيين. واعترف دولابيلير De la Billière في تقييمه الشخصي لحرب الخليج بأن الأميركيين تُركوا في حالة جهل من قِبَل البريطانيين وأنّ الإفشاء الذي صدر في الأيريش تايمز والذي كان ليظهر في الإندبندنت لو كانت الأخيرة تحت رئاسة تحرير مغايرة في ذلك الأسبوع ـ سبَّب الارتباك السياسي نفسه الذي تسبّبه الصحف عادة في مجال الكشف: «لقد وضعني هذا الخبر في موقف شيطاني مُحرج. بماذا كنت لأبلغ نورمان شوارزكوف؟ لو لم أقل شيئاً، لكان بالتأكيد سمع عن السرقة من مصدر آخر. ولما كان الأمر بهذه الأهمّية الكبيرة، اقترحت أن يسافر بادي هاير لإبلاغ الـ CinC شخصياً، وهذا ما وافق على القيام به. في الوقت نفسه سافر معي رئيس الأركان في وزارة الدفاع السير ريتشارد فينسينت إلى واشنطن لإبلاغ كولن باول بدرجة خطورة الحادث بمجمله، ودرجة نسفه للعلاقات الأنجلو ـ أميركية». بدا شوارزكوف مرتاحاً للأخبار استناداً إلى دولابيلير مع أن مذكّرات الأخير الحديثة تكشف سرّاً صغيراً آخر بقي مخفياً عن واشنطن حتى الآن! فحسب دولابيلير إن الطبخة رقم ٢ «Cock up No2» جاءت عندما طُلب مني إبلاغ نورمان شوارزكوف أننا معه حتى النهاية مهما حصل، واكتشف فيما بعد أن الوزراء البريطانيين لن ينتدبوه ـ أنظمة التدخّل - لإرسال الطائرات للردّ السريع على أية ضربة عراقية وقائية»(*).

(*) أعاد اللصّ الوطني الكمبيوتر وترك معه هذه الملاحظة: «سيّدي العزيز، أنا لصّ وأحبّ ملكتي ووطني، فمن أضاع هذا الجهاز يجب أن يشنق» المخلص إدواردر.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جاء عيد الميلاد هذه المرّة وأنا في حالة اضطراب.. لقد كان صديقي وزميلي تيري أندرسون لا يزال رهينة في لبنان بيد رجال يطالبون بإطلاق سراح سجناء حزب الدعوة في الكويت ـ ذلك في حال كان هؤلاء لا يزالون في السجن. وبما أنني كنت قادراً على الإبقاء على بعض الاتصالات مع تيري عبر خاطفيه، سافرت إلى نيويورك لأتحدّث مع رئيس تيري في الأسوشيتد برس، لويس. دى. بوكاردي ـ وهو رجل صغير أنيق لديه عادة غريبة في التحدّث مع زوّاره على أنغام الموسيقى التي يرفعها عالياً في مكتبه ـ ومع صديق تيري دونالد. س. ميل الثالث، كما كنّا نسمّيه، وهو كان مصوّر تيري في بيروت. وقد أخذني إلى عشاء لا يُنتسى تناولنا خلاله ديكاً رومياً في صالة قوس القزح في مبنى GE في مانهاتن. ومع ذلك أقول (للذكرى) إنه مثل معظم دعوات عشاء ميل في بيروت، كان من الصعب تذكّر الجزء الأخير من ذلك العشاء. وعلى الرغم من أنه لم يكن رقيقاً كما كان في أيام الحرب السريعة في لبنان، كانت لدى ميل المقدرة المربكة على جذب أجمل المضيفات عندما يدخل المطعم؛ تأثير يبدأه بابتسامة ماكرة. وكان يقول عندما نجلس: «فيسكي، ستكون هناك حرب، والولايات المتحدة الأميركية القديمة سوف تكسب كالعادة»، أتذكر لبنان؟، أتذكر الفوضى الهائلة التي كانت؟، حسناً أنا متأكّد أننا سنفعل الشيء نفسه في العراق أيضاً». ربّما كان يتكلّم عن أحداث سوف تقع بعد ١٣ عاماً، غير أنه بالنسبة إلى عشرات الآلاف من العراقيين ـ على الأقلّ نصف مليون إذا أردنا تضمين عاقبة المرحلة الطويلة لحرب ١٩٩١ ـ فإن تقديراته كلّها ستكون دقيقة جدّاً. كان ميل مسافراً أيضاً إلى الخليج لتحرير الكويت ـ ولم نشكّ في أن ذلك سيحصل ـ وشربنا الشمبانيا معاً وأمامنا مبنى الإمبايرشيت يشعّ بألوان العلم الأحمر والأبيض والأزرق، ومركز التجارة العالمي يشعشع على قمّة منهاتن.

اتفقت أنا وميل على أن تأثير التحرّكات الأميركية في الشرق الأوسط مصيره في نهاية الأمر أن يطارد العرب، وتحدّثنا أيضاً حول هذا العشاء غير العادي، لكننا لم نخمّن أن الانفجار سوف يحدث بعد أقلّ من ١١ سنة وعلى بعد أقلّ من أربعة أميال.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

عدت إلى سعودية باردة الطقس، رطبة وموحشة. لقد عبر الثلاث مئة لاجئ كويتي الحدود منذ فترة طويلة، وقلّص العراقيون عدد مواطني محافظتهم التاسعة عشرة الأصليين إلى ثُلثي ما كانوا عليه قبل الغزو. وكان الملك فهد وصدّام حسين متورّطين في خلاف شخصي مرير، حيث جرى استحضار الله والشيطان، وقد تعلّق ذلك مباشرة بمساندة السعودية الأساسية للعراق في غزوه لإيران عام ١٩٨٠. فقد اشتكى صدّام من الملك فهد بكلمات نابية حول موقفه في ذلك الوقت، ما يعدّ إهانة كبيرة لأي عربي وليس فقط لسعودي. وكان رد فهد عارماً في كشفه لخلافهما، الذي يُظهر في تفاصيله مدى ما أنفقه السعوديون في محاولتهم تدمير إيران، قبل عقد من الزمن:

> لماذا لم تلتزم بوعدك لي وللرئيس حسني مبارك بأنك لن تشنّ هجوماً على الكويت؟ بعد بضعة أيام فقط من طلبك، ارتكبت أفظع جريمة نكراء في تاريخ البشر، عندما تسلّلت في جنح الظلام مع جيشك وأرقت الدماء، وطردت شعباً بكامله إلى الصحراء خارقاً كلّ المعايير والقِيَم.... لقد أصررت على متابعة الغزو زاعماً أن الكويت كانت جزءاً من العراق. الله يعلم أن الكويت لم تكن أبداً تحت الحكم العراقي، وأن آل الصُّباح كانوا حكّام الكويت منذ ٢٥٠ سنة(*). مَن سمح لك بقتل مليون إيراني وعراقي مسلم؟ مَن سمح لك باحتلال الكويت وقتل أبنائها واغتصاب نسائها ونهب ممتلكاتها وتدمير معالمها؟ لا شكّ أن الشيطان وشهوتك دفعاك إلى القيام بذلك على حساب دول الخليج العربي التي كانت فخورة بالجيش العراقي.

(*) هذا يدفع رسالة التاريخ بعيداً بعض الشيء. كانت الكويت جزءاً من محافظة البصرة العثمانية، واعتبر الأتراك آل الصباح حكّاماً عثمانيين حتى بعد أن وافق الشيخ الجديد مبارك الصباح الذي قتل أخويه غير الشقيقين عام ١٨٩٩ على جعل الكويت محميّة بريطانية مقابل ١٥ ألف جنيه استرليني كل سنة. وبعد سقوط الملكية العراقية عام ١٩٥٨، طالب العراق بالوحدة مع الكويت وقد تراجع عن غزوها بعد أن هُرعت القوّات البريطانية إلى المشيخة كما فعلت القوّات الأميركية عندما هُرعت لإنقاذ السعودية عام ١٩٩٠.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كان أمراً مفاجئاً أن يقوم الملك فهد بتحميل صدّام مسؤولية خسارة أرواح مليون مسلم خلال حرب ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ العراقية ـ الإيرانية، بما أن السعودية كانت المموّل الرئيسي للعراق في تلك الحرب. وقد تم كشف بعض التفاصيل حول حجم الدعم المالي الذي كان السعوديون مستعدّين لإنفاقه على صدّام في ذلك النزاع:

> «قلت في رسالتك إننا حوّلنا لك فقط ١١,٥٣ مليون دولار مساهمة في إعادة بناء البصرة، إضافة إلى مليون دينار قيمة معدّات لإعادة بناء الفاو.

لكنّنا نرغب في توضيح الحقائق: «يا حاكم العراق، حوّلت المملكة لبلادك ٢٥,٧٣٤,٤٦٩,٨٨٥.٨٠ دولار، أي حوالى ٢٦ مليار دولار».

أخذت مضامين هذا الكلام بعض الوقت لتنتشر في السعودية التي أعطت صدّام ٢٥ مليار دولار ليقاتل ويقتل أخوة مسلمين في إيران(*). لقد قدّم له الأميركيون المعلومات والأسلحة الكيميائية (بالتعاون مع الألمان) وزوّده الروس بمعظم المدرّعات، لكنّ السعوديين قدّموا المال بسخاء. توقّفت قليلاً لبضع ثوانٍ عند الـ ٨٠ سنتاً الموجودة في نهاية الفاتورة، وهي إضافة توحي أن ذهنية غريبة الأطوار تعمل في وزارة المالية السعودية.

دعاني أحد ضبّاط الهجرة السعوديين في مطار الظهران إلى العشاء في خيمته الصحراوية التي بدت مكاناً جيّداً لمراقبة رمال السلام تنفذ في جنيف (إشارة إلى فشل محادثات اللحظة الأخيرة في جنيف ـ المترجم). صبّ محمد

(*) تفاصيل هذه الأرقام كانت كما يلي: قروض غير قابلة للدفع، ٥,٨٤٣,٢٨٧,٦٧١.٢٣ دولار، قروض نقدية مريحة ٩,٢٤٦,٥٧٥,٣٤٣.٤٦ دولار، قروض تنمية ٩٥,٨٩٠,٤١٠.٩٥ دولار، معدّات عسكرية ولوجستية ٣,٧٣٩,١٨٤,٠٧٧.٨٥ دولار، نفط ـ ٦,٧٥١,١٥٩,٥٨٣ دولار، منتجات صناعية لإعادة بناء البصرة ١٦,٧٧٢,٨٠٠ دولار، مدفوعات لتصليحات صناعية ـ ٢٠,٢٦٦,٦٦٧ دولار، شاحنات، جرّافات تراكتورات، محادل للتزفيت (٢٧٠ آلية) ٢١,٣٣٣,٣٣٣.٥٠ دولار، كان الحساب السعودي أقلّ بدولار و١٩ سنتاً.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الشاي الساخن المُحلّى، وقام عبدالله بتوزيع أطباق الموز والعنب والجزر. وظهر جيمس بيكر على شاشة تلفزيون بالأبيض والأسود في إحدى زوايا الخيمة العربية التي كانت مكاناً جيّداً لسماع الأخبار. كنّا هناك محاطين بستة سعوديين بلباسهم الأبيض والبنّي وكوفيّاتهم، متمدّدين على سجّاد ملوّن، مُتّكئين على سروج جمال نأكل الدجاج المليء بالتوابل والشيش كباب، بينما العبور إلى الحرب يجري أمامنا. عندها نظر بيكر فجأة نحونا وتلفّظ بهذه الكلمات الهامّة: «بكلّ أسف أيها السيّدات والسادة»، كلمات مجوّفة مرعبة، كان يجب أن ترعبنا جميعاً، لكنّ السعوديين نظروا إلى الشاشة بالاهتمام نفسه الذي أبدوه لاحقاً لوضع شريط فرقة راقصة.

وعندما أعلن وزير الخارجية الأميركي وصورته تصعد وتهبط على الشاشة القديمة الكبيرة، حكمه القاتل «خلال ستّ ساعات لم أسمع شيئاً يوحي إليّ بأيّة مرونة عراقية من أيّ نوع». فقط، الشقيق الأصغر لمحمّد اهتمامه، ورفع يديه إلى مستوى كتفيه على شكل رجل يستسلم، ثم قال: «إذن ستكون هناك حرب، ماذا يمكن أن نفعل؟».

ربّما كانت هذه هي الطريقة التي تنظر بها القبائل إلى الكوارث منذ مئات السنين، متمدّدين على سجّاد، يقطعون أرجل دجاجة، بحماية سقف من القماش. كان موقد من الفحم مثبتة أرجله بقوّة في التراب يتوهج أمامنا. وقام محمد وعبدالله بتوزيع المزيد من الشاي والفاكهة، وأبدى الآخرون اهتماماً أكبر ببيكر الآن. قال خالد، وهو شاب ضعيف بلحية خفيفة: «عندما يبدأ ذلك سوف أحزم أمتعتي وأرحل».

جهّز محمّد تلفزيونه بلاقط من صنع محلّي، يلتقط بثّ السي إن إن المباشر من غرفة المؤتمر الصحفي في جنيف. كانت الإشارة ضعيفة، لكننا كنا نستطيع قراءة كلمات: «أوتيل إنتركونتيننتال ـ جنيف» على اللوحة أمام بيكر والاستماع إليه يشرح لماذا لا يستطيع القبول بالربط بين أزمة الخليج والصراع العربي ـ الإسرائيلي، بالنسبة إلى رجل غربي كان كلام بيكر منطقيًا. فبعدما أكّد الأخير أن العراق يواجه ١٨ دولة، إضافة إلى الولايات المتحدة قال: «الخيار الآن بيد القيادة العراقية». لكن عندما ظهر وزير الخارجية العراقي طارق عزيز على شاشة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

التلفزيون جذبت لُكنته العربية انتباه الجميع في الخيمة الصغيرة، وكانت كلمات بيكر بشكل ما أقلّ إقناعاً، ليس لأن الحقّ إلى جانب العراق ـ الجميع يوافق أن صدّام حسين كان رجلاً سيّئاً ـ لكنّ بيكر أميركي وعزيز عربي مثل السعوديين الستة.

سألت محمّد لماذا كان السعوديون لفترة طويلة أصدقاء صدّام المقربين؟ هل وثقوا به فعلاً وبوزير خارجيته طارق عزيز؟ ألم يصدّقوا التقارير حول استخدام العراق للغاز السامّ في الحرب ضدّ إيران؟ أو كانوا أصدقاء فقط لأن صدّام عربي، أو بشكل أدقّ عربي قويّ، قوّته مُهابة ومحترمة أيضاً؟ فجاء ردّ عبدالله: «أبلغنا في صحفنا ـ من حكومتنا ـ أنه كان رجلاً جيّداً. الحكومات تقول دائماً ما تريد وعلى شعبها أن يفهمه. هذا ما حصل، لم نُبلغ بالحقيقة»، ثم توقّف لبضع ثوانٍ وقال: «لكن سوف أفعل أي شيء تطلبه مني حكومتي». هنا دخل أحد السعوديين إلى الخيمة ومعه صينية عليها زجاجات الويسكي، ربّما نصف دزّينة، وقام محمّد بصبّها في أكواب صغيرة. لم أستطع تصديق ذلك: ويسكي جاك دانيالز، وجوني ووكر، وجينسون ابتسم محمّد وقال: «صادرناها من مسافرين يحاولون تهريب الكحول عبر المطار». لقد شرب الضيوف كمّية كبيرة من الكحول وكانوا يعبّون المشروب كما لو أنه عصير وليس كحولاً. السعوديّون لا يعرفون كيف يشربون. أدركت أن هنالك خطأ، عندما سألت عبدالله إذا كان يعتقد حقيقة أن الأميركيين سيغادرون السعودية، عندها وقف خالد فجأة وأعلن بغضب: «لن أبقى في هذه الخيمة هنا، إذا استمررت في هذه المناقشة». كانت لحظة قاتمة ومتوتّرة كما لو أن الكارثة التي ظهرت على تلك الشاشة المرتعشة دخلت أخيراً عقول السعوديين الستّة محدثة نوعاً من الفوضى في الخيمة. وسأل محمّد ما إذا كان يجب أن يحصل الأكراد على دولة، فردّ خالد وقد احمرّ وجهه: «لماذا يجب أن يحصلوا على دولة؟».

غادر الخيمة بالفعل ورداؤه يتأرجح في أثره حتى خرج محمّد وأقنعه بالعودة. وصل رجل آخر مع زوجته، وهذا خرق غير متوقّع للعُرف والتقليد،

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الذي يسمّيه العديد من السعوديين الأخلاق. كانت امرأة سوداء الشعر، تبتسم بلطف ولا ترتدي الحجاب، لكنّها جلست بصمت إلى جانب زوجها في زاوية من الخيمة، واضعة شالاً أسود على كتفيها. تحدّث الرجل بنشاط، وكان محمّد يؤكّد طيلة الوقت أنه لن يغادر بيته إذا ما حصلت الحرب. وسأل: «إلى أين أذهب؟!، ما هو المقصود؟ الحرب يمكن أن تصل إلى أيّ مكان».

على الشاشة كان دان راثر يبلغنا الآن بحتمية الحرب، ويتحدّث عن قصف واسع للقوّات العراقية، وضربات جوّية مدمّرة، وشلّ للقدرة العسكرية العراقية، وأنا جالسٌ بين هؤلاء السعوديين، بدت لي كلماته مُشينة وغير طبيعية. كان رجلاً غربياً، يتحدّث بطريقة عشوائية عن احتمال الموت العنيف لآلاف العرب المسلمين على يد أميركا. وكان السعوديون يستمعون إلى ذلك بانزعاج كبير وكذلك فعلت أنا. كانوا كمن يبدأ بالتهام الثمار السامّة وهو على وشك اختبار نوايا قاتله.

كان يمكن أن يتحدّثوا عن ذلك ما لم يتسلّل من خلفنا عبر الجدار الأخضر الهشّ للخيمة، هدير صوت طويل، مستمرّ ومتزايد تدريجياً بعمق وزخم. عرفنا جميعاً ماهيّته. كان هديره يدخل كلّ جزء من الخيمة مُضعفاً صوت راثر وجاعلاً الصورة تقفز بتوتّر حتى صُمّت آذاننا، وكنّا جميعاً نألف هذا الصوت الصادر عن إحدى طائرات النقل العسكرية س٥ C5 للرئيس بوش في مرحلة اقترابها الأخير من أقرب قاعدة على مسافة ٣٠ متراً فوق رؤوسنا مالئةً خيمتنا الضعيفة بضجيجها. في الأيام الأخيرة قبل المجزرة كانت القيادة على الطريق السريع إلى الحدود الكويتية لا تزال ممكنة. كانت أيام صخب وسخرية. وكانت سحب الغبار تخيّم على طول الشاطئ وتنفث الدخان الأبيض الذي يتصاعد بطريقة ودّية من المداخن في محطّة الطاقة الكويتية. كنت تستطيع رؤية ذلك بكل وضوح من الحدود السعودية، حيث المحطّة العاملة ببياضها الباهت والمدخنتيْن التوأميْن ما زالت تزوّد بالكهرباء الجنود العراقيين المحتلّين والمواطنين الأسرى على الجانب الآخر من الحدود. ودلّ ذلك على أن الأوضاع طبيعية، والحياة مستمرّة بشكل اعتيادي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في أسفل التلّة عند مركز الجمارك المهجور، وجدت باكستانياً على عتبة دكّانه، حيث الرفوف نصف فارغة قال لي أن لا مجال لإعادة التخزين. وعند زاوية الملعب قرب البحر، وقف رجل بلباسه الأبيض مع زوجته المتشحة بالسواد وابنهما الضعيف. وإن تمّ استثناءهم من المشهد، قد يبدو لك هذا اليوم مثل أيّ يوم ممطر في الجبهة البحرية في «مارغات» أو جزيرة «كونَي». ولا أثر لنصف مليون جندي عراقي على الجانب الآخر للحدود.

وعلى هذا الجانب يوجد رجل غربي ضخم بنّي الشعر في سيارة بيك آب رجلٌ من العصر الفيتنامي، غير قادر على إخفاء كرشه تحت الجاكيت، ينظر نحو الكويت ممثّلاً النصف مليون أميركي وحلفاءهم.

تجوّلت في الخفجي، لكنّ حقيقة النزاع العربي غائبة عن الذهن. لقد هرب معظم النساء والأطفال، وكان بعض الجنود السعوديين يُجرون مكالمات مع عائلاتهم من مركز البريد المحلّي، وعلى جهاز التلفزيون في قاعة الانتظار في فندق شاطئ الخفجي يُعرض فيلم حربي يتابعه شرطي بانتباه. كان عليَّ القيادة عبر الطريق الفرعية قبل أن أجد دورية من الجيش الأميركي مؤلّفة من ثلاث سيّارات، كان جنودها يرتدون الخوذات، ويجلسون على مقاعد عالية في العربات المصفّحة، ويحترمون حدود السرعة ويتوقّفون عند الإشارات الضوئية. لمدّة شهور راقبت المدرّعات تعبر الطريق السريع: أصبح المشهد مألوفاً مثل محطة الطاقة الكويتية، بحيث اكتسب ديمومته.

يمكنني التصوّر أنه لستّة أشهر أخرى وحتّى لفترة سنة ستظلّ الدبّابات والمدافع تتقدّم على هذا الطريق، وسيظلّ هذا البوش يهدّد بطرد العراق من الكويت، وستظلّ محطة الطاقة تنفث دخانها الأبيض كما لو أن الاستعدادات للحرب أبديّة كالصحراء.

في اليوم الذي سبق بدء شوارزكوف قصفه للعراق، كتب إلى زوجته في ١٧ كانون الثاني/يناير ١٩٩١: «أصدرت للتوّ الأوامر الرهيبة التي ستجعل الوحش

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يخسر». وكان الصحفيون الأميركيون مُحبطين تقريباً، ومثل الصحافة البريطانية، كانت الصحف الأميركية الكبرى تروي لقرّائها الدرجة التي أصبحت فيها الحرب حتمية بالفعل، وأن بعض الردّ أصبح إجبارياً، وأن القتال سيكون سهلاً. كان يوم ك "K" بالنسبة إلى محرّري العناوين مساعداً. فبينما كان بيكر وعزيز يتباحثان، ساد شعور شبه واضح من عدم الراحة في أوساط بعض خبراء الإعلام الأميركيين. لقد اتضحت المخاوف على السلام، لكن عندما اعترف بيكر بالفشل كانوا فرحين. وارتفعت آمال الحرب. لم يكن ذلك مجرّد سخرية فقد حذّر مراسل إذاعة أميركية مُستمعيه في الأسبوع الأول من كانون الثاني/ يناير بأن أزمة الخليج تسير نحو التسوية. وعلى غرار بطل شوميكر، الجنرال بيتون ـ الذي انتهى ممجّداً جمال الحرب ومشكّكاً بأهوال السلام ـ ووضع العديد من المراسلين أنفسهم في حالة ذهنيّة حيث السلام غير أخلاقي والحرب تمثّل الصلاح. ولا يبدو لأوّل وهلة أن هناك مكاناً في الحرب الجديدة للمراسلين المراقبين. علمنا جميعاً أن القصف الجوّي للعراق سوف يبدأ، بعدما رفض صدّام الموعد المحدّد من الأمم المتحدة للانسحاب من الكويت. لذا عندما رنّ هاتفي في الساعات الأولى من ١٧ كانون الثاني/يناير، وأبلغني صحافي شابّ من الدوام الليلي لصحيفة الإندبندنت أن قناة السي إن إن تنشر الصور الأولى للقنابل التي تتساقط على بغداد وسألني متى يمكنني التسجيل؟ أبلغته أنني أشاهد الصور نفسها في الظهران، وأننا كنّا نعلم بأن القنابل ستتساقط هذا الصباح، وقلت: القصّة الحقيقية، أن أقوى الجيوش المسيحية متمركزة الآن لقتال أكبر قوّة عسكرية في العالم الإسلامي. لذا «متى تستطيع التسجيل؟» سأل الصوت مجدّداً. أجبته: لقد بدأت. تصادم السلاح المسيحي ـ الإسلامي كان على الصفحة الأولى في اليوم السابق.

لكنّني توجّهت إلى قاعدة الظهران الجوّية، وكانت الطائرات الأميركية تنطلق أسراباً وتقصف بشدّة تاركة أثراً ذهبياً وأرجوانياً من الأنابيب العادمة في السماء. وشكّل ذلك مشهداً تلفزيونياً جيّداً. نفحة من الألوان تتسلّل إلى أضواء مقرّ السي إن إن الخضراء الباهتة في بغداد، المضادّ لصواريخ الطائرات البعيدة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المدى. في الساعات الأولى لذلك الصباح، انطلقت ١٢ طائرة قاذفة سعودية من قاعدة جوّية في المقاطعة الشرقية لمهاجمة العراق. وقد اتّخذ الملك فهد شخصياً قرار إرسال طائرات التورنادو في طلعات، وأيّد الرئيس بوش هذا القرار علماً بأن هذه الطائرات كانت جزءاً من مشروع اليمامة السعودي ـ البريطاني. لم ينتبه أحد لهذه الحقيقة، ولم يورد أيّ مراسل أن ١١ طائرة من أصل ١٢ عادت عند الفجر وصواريخها ما زالت ملتصقة بالأجنحة. وأفاد طيّاروها أنهم فشلوا في تحديد أهدافهم. وقد أفرغت الطائرات الـ ١٢ حمولتها فوق الصحراء العراقية الغربية! لكن هل ضلّت طريقها حقّاً؟

في اليوم التالي، انطلقت ٦ طائرات تورنادو يقودها سعوديون من القاعدة نفسها وفشل الطيّارون في إلقاء حمولتها من القنابل، وجرى تقديم الطيّارين إلى الصحافة. فالمهمّ الإيحاء بالتالي: كان السعوديون يقاتلون، وكان الرئيس بوش يستطيع الادّعاء أن القوّات العربية وكذلك الغربية في حالة حرب ضدّ العراق.

كان عليك النظر إلى طائرات التورنادو. كان على ذيل كلّ قاذفة مقاتلة العلم السعودي المذكور عليه بحروف عربية، الشعار الإسلامي: «لا إله إلا الله، محمّد رسول الله». وهكذا شكّلت السورة الأولى من أقدس كتاب للإسلام علم معركة العرب الذين ذهبوا إلى الحرب ضدّ دولة مسلمة أخرى. «أجل العراق دولة عربية»، كما شرح لي طيّار سعودي قبل الخروج في الطلعة الثالثة، «لكن عندما يهاجمك أخ لك فهو عدوّ، وصدّام عدوّنا الآن».

أو هكذا بدا، وبعد يوم من بدء القصف، كانت تسمية هذا الهجوم الخاطف حرباً تدفع هامش الحقيقة أبعد في هذه المرحلة. وقد قال الملك فهد شخصياً إن المعركة تشكّل «سيف الحقّ وصوته»، وإن الله «سيمنح النصر لجيشه». لقد التزم آل سعود الآن بشكل مُبرم بالقوّات العسكرية الغربية، وأصبح الملك فهد القائد الأعلى للقوّات المشتركة، وهي واحدة أخرى من الصفات الطريفة التي كان من المفترض أن تختبئ وراءها القوّة الأميركية التي لا تُقهر ضمن التحالف. واعتقد السعوديون أنهم أسكتوا انتقاد الطبقة الدينية للأميركيين،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

من خلال السماح لرجال الدين بالتعبير عن غضبهم حول القضايا الداخلية، مثل قيادة النساء للسيّارات، والعمل بسخاء كمضيفين للعائلة الحاكمة الكويتية القلقة.

مع تقدّم الحرب، أصبحت صور تحرّك القاذفات عبر الأجواء السعودية والكويتية روتينية. وقد اكتشف الذين لم ينضمّوا منا إلى تسهيلات النقل السيّئة السمعة أن ثمّة اختلافاً لا ينسجم بسهولة مع ما يعرفونه في استديوهات التلفزيونات برجالها الأكثر وطنية وجنرالاتها السابقين المملّين، ونماذج دبّاباتها وحُفرها الرملية عديمة الحياة. وكان لدى نقاط التفتيش السعودية العسكرية أوامر بمنع الصحفيين من السفر نحو الحدود إلا إذا كانوا مسجّلين بالنقل العسكري والرقابة. لذلك قمت مع مجموعة من المراسلين الفرنسيين والمصوّرين المتمرّدين بارتداء اللباس المموّه الواقي من الغاز الذي دفعت ثمنه صحيفة الإندبندنت لمراسليها، ووضعتُ على رأسي خوذة حديدية بريطانية. كانت الخوذة هديّة من الرائد آلان بارنز وهو عضو مدرّب عالي الرتبة في جهاز تدريب الجيش البريطاني، وقد أخذت معي في رحلتي طيلة النزاع ديوان شعر من مجموعته عن الحرب العالمية الأولى، مسروقاً على الأرجح من مكتبة الجيش.

ارتدى الفرنسيون ملابس قتال لجيشهم الوطني غير مُتقنة الصنع لم تفعل سجائر «جيتان» المتدلّية من شفاههم السفلى سوى تعزيز تغطيتهم. بينما أنا كنت في لباسي المضادّ للغاز سيّئ التهوية وخوذتي من طراز كوماندو بارنز، أبدو مثل ضابط اتصال مُمِلّ. كان مفتاح النجاح كما اكتشفنا بسرعة هو التقدّم من كل نقطة تفتيش دون النظر إلى الجنود الذين يحرسون الطريق، وقد أثبت فقدان اللياقة عندنا أننا جنود حقيقيّون.

حين وصلت إلى الخفجي بهذه الطريقة، كانت المدينة الحدودية السعودية قد تبدّلت، وارتفعت أعمدة من الدخان العالية تصل إلى ٣ كلم فوق الطرقات المهجورة. وقد وجدت ٤٠ قذيفة مدفع من عيار ١٣٠ ملم، أطلقت من وراء مجموعة من الأشجار على الجانب الكويتي من الحدود. وكانت ألسنة اللهب تتأجّج، حول قاعدة من الدخان داخل مستودع تخزين لشركة النفط العربية، بألوانها القرمزية والصفراء مستفزّة الرقيب البحري الأميركي بيل وليامز ورجاله

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

التسعة الواقفين على الرمل يقومون بتفكيك لواقط أجهزة الراديو الطويلة المدى بدون حماسة لدخول المدينة . كان هناك جهاز راديو يبثّ من خلف سيارته الجيب صوت مراسل من واشنطن مادحاً السجلّ المسلكي للقوّة الجوّية الأميركية. كان المجنّد رافي سابا، وهو شاب في العشرين من العمر من كولومبوس ـ أوهايو يتحدّث بلُكنة يوركشاير غير متّزنة ـ وقد أمضى طفولته في شيفيلد ـ مهتمّاً بالراديو أكثر منه بالبرهان على أن العراقيين يمكن أن يضربوا مرّة أخرى. قال: «فُقدت طائرة واحدة فقط في ألف طلعة، يمكنكم أن تحطّموا هذا الرقم؟».

كان الرقيب وليامز لا يزال يراقب النيران المتصاعدة من أنبوب النفط، وطبقة الدخان التي كانت تنتشر الآن إلى مسافة ١٥٠ كلم في البحر. وسأل: «لا أحد يعالج أمر النيران، هل يفعلون؟»، كنّا أنا ورفاقي الفرنسيون قد قمنا بجولة في الخفجي ولذلك كنّا نعرف أكثر ممّا تعرف قوّات البحرية. قلنا: كلّا، لم يستدعِ أحد فرقة الإطفاء». في الواقع لم يكن في الخفجي أحد ليرفع جهاز الهاتف لَلاتصال، فقد فرّ الجميع، عائلات صاحب صالون الحلاقة، وصاحب المخزن الباكستاني، ومديرو مطاعم المدينة الثلاثة.

وقد اكتشفنا للتوّ سرّ الخفجي غير السارّ، فقد كانت شوارعها الواحد تلو الآخر تحمل آثار الهلع، وثمّة ملابس مُلقاة في وسط الطريق، سقطت من الشاحنات أو السيّارات، وبقيت سيّارة ليموزين مفتوحة، وسيارة شرطة متروكة على الطريق الرئيسي وباب سائقها مفتوح. وعندما قدنا مباشرة نحو الحدود الكويتية على مرمى من نيران العراقيين، وجدنا مدافع الجيش السعودي متروكة، وتحصيناتهم الرملية فارغة، وخيَمهم مهجورة، وكان هناك فقط دورية حرس وطني سعودي وحيدة، مؤلّفة من ثلاثة رجال ملتحين يرتدون قبّعات حمراء، تُركت لتمثّل المملكة السعودية.

كانوا رجالاً فخورين، قاموا بتحيّتنا لأنهم كانوا فرحين لرؤية وجوه صديقة قريبة من المواقع العراقية. وكان من الصعب معرفة عدد العراقيين خلف الأشجار، لكنّ قذائفهم توزّعت عبر المدينة بخطّ مستقيم قرب مركز الجمارك

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفارغ، وعبر حائط حديقة إلى منتصف الطريق، حتى أصابت في الجولة الأخيرة أنبوب النفط ووسمت هذا المكان بعمود من الدخان. بعد فترة وجيزة من القصف، شاهدنا طائرة هليكوبتر تمرّ بمحاذاة الشاطئ وتطلق صاروخين بين الأشجار، فتوقّفت المدفعية عن القصف. كانت تبدو حرائق أخرى في العمق داخل الكويت. وعلى مسافة حوالي ٢٥ كلم منا ارتفعت طبقة كثيفة من الدخان: عدة كيلومترات في الطول والعرض تصاعدت في سماء الشتاء الباهتة، وربّما كان ذلك مخزن ذخيرة أو وقود ضربه الأميركيون.

كان الفرنسيون جيّدين في الصحراء فقد خدم بعض رفاقي من المراسلين الفرنسيين في الجيش في أفريقيا واستخدموا بوصلة للتحرّك بعيداً عن الخط السريع والقيادة عبر الرمال لتجنّب نقاط التفتيش الأميركية التي لن تخدعها ملابسنا العسكرية. وفي وقت لاحق قصفت طائرة ميراج فرنسية مراسل صحيفة ريدز Raids الفرنسية العسكرية ولم تنفجر القنبلة. لذلك أخذ المراسل القنبلة غير المنفجرة على ظهر الجيب، إلى قاعدة جوّية فرنسية للاحتجاج. كان الرمل الرطب يلتصق بعجلات سيّارتنا وقد حوّل الطرق إلى حلبات تزلّج موحلة، وكان الجنود يشعرون بالبرد. وكان جنود الفرقة البرّية الممكننة الأميركية الرابعة والعشرين يجلسون على عرباتهم بمعاطفهم الواقية من المطر، يضربون جوانبهم طلباً للدفء. وعبر الوحول كان البريطانيون محتشدين في شاحناتهم مع أغطيتهم أو جالسين في خِيَم حول مدافىء تعمل على الزيت. لا أحد يستطيع التصديق أن الحرارة تهبط إلى درجة الصفر في الصحراء السعودية. كانت العاصفة تأتي من الجنوب الغربي مندفعة فوق الكتل الرمادية المُخضلّة، والمنخفضات السبخة محوّلةً طرق الإمداد المغمورة بالنفط إلى أفخاخ موت. وكانت سيّارة هامفي متوقفة على الرمال غير قابلة للتمييز بعد اصطدامها بشاحنة. وهناك دبّابة أميركية كبيرة M1A1 مقلوبة رأساً على عقب في الصحراء برجها وخزاناتها نصف مدفونة في الوحل، وفوق هيكلها الكبير جندي وحيد يراقب. ومن بعيد في الصحراء، كنّا نستطيع سماع تلقيم وتفريغ بطاريات المدفعية التابعة للبحرية الأميركية التي كانت تقصف العراقيين. لكنّ عملية تجميع جيوش الحلفاء ـ غريبة السرعة التي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

بدأنا فيها باستخدام كلمة حلفاء، كما عشية يوم النصر ـ تُعزى في معظمها إلى السيناريوهات المريحة والفعّالة التي وضعها القادة العسكريون الأميركيون والبريطانيون في الرياض. وقد تأخّرت عمليات التجمّع على طرق الإمداد إذ حصل ازدحام لستّ ساعات في الوحول حول مراكز القيادة. وكان العديد من الضبّاط الشبّان يقودون وحداتهم إلى الخطوط الأمامية بدون خرائط. كما أن المستشفى الميداني البريطاني الثاني والثلاثين الذي توجّه بكامله إلى الحدود الكويتية لم تكن لديه أية خريطة، وكان الطاقم يحاول إيجاد مساره من خلال آخر دورية سعودية إلى الشرق من الخفجي ـ إلى أحضان القوّات العراقية مباشرة ـ إلى أن أبلغنا نحن مجموعةً من جنود القوّات الخاصّة الأميركية التي أعادتهم عن طريقهم. كانوا محظوظين لأنهم لم يوجدوا في الساعات الأولى من يوم ٣٠ كانون الأول/ ديسمبر عندما قامت قافلة عراقيّة من الدبّابات وناقلات الجند المصفّحة بالإبلاغ أن هدفها غير محميّ، فعبرت الحدود ودخلت الخفجي من الغرب مستولية على المدينة، وفي عمليّات أخرى منفصلة إلى الجنوب الشرقي قتلت ١٢ جندياً أميركياً بالضبط بعد أسبوعين من إعلان الأميركيين أن تحرير الكويت قد بدأ، كانت القوّات الأميركية تقاتل الآن وتموت لتحرير زاوية من السعودية! ولم يكن مقصوداً أن يكون الأمر بهذه الطريقة. وفي الوقت الذي وصلت فيه إلى طرف الخفجي صباح اليوم التالي كانت على الحدود سحابة نفطية كثيفة مدافع الـ ١٥٥ ملم الأميركية تطلق قذائفها على الطرقات حول مستودع النفط. وجدتُ الرقيب البحري جون بوست وهو رجل طويل كثيف الشارب يسجّل النيران المعادية القادمة على جهازه المغطّى بالرمل قرب المدافع الأميركية. بينما كانت قذائف الهاون تنفجر داخل المدينة وترتفع من أماكن سقوطها بقعة بيضاء ضعيفة من الدخان. ورغم السحابة السوداء، برز برج مائي مكسور محطّم بفعل القذائف لأن أحدهم استنتج أن العراقيين وضعوا نقطة مراقبة متقدّمة على قمّته. قال سكوت: «لا أعرف لماذا تركنا العراقيين يذهبون إلى داخل الخفجي منذ البداية، لكنّ هذه عملية سعودية والعراقيون ما زالوا هناك ـ ربّما كان هناك ٢٠٠ جندي. يقال إنهم قوّات خاصّة عراقية، أعتقد أن لدى السعوديين عدّة مئات من الأسرى وقد أحصيت

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

١٢ باصاً محمّلاً بهم حتى الآن مع حرّاس سعوديين على جوانب الباصات. لكنّ العراقيين مقاتلون .

طيلة الليل كانت ألسنة اللهب تنتشر فوق الخفجي، وفوق المدافعين الأشدّاء عنها. تسلّلت دبابة هاريير إلى الشرق وقصفت قرب الشاطئ. اتصلنا بفندق شاطئ الخفجي ليرحّب بنا جندي عراقي أعلن تأييده للقومية العربية، وأصدر عدداً من الشتائم عبر المذياع. أمّا الرقيب بوست الذي يتمتّع بخبرة ١٤ سنة في جهاز البحرية فقد أومأ برأسه واتّكأ على سيارة الهامفي وهي نسخة عن سيّارة الجيب التي أدخلها الأميركيون إلى المعركة للمرّة الأولى وكان على متنها جهاز إطلاق صاروخ تاو Tow. كانت هذه أسلحة ستصبح جزءاً من القوّة الأميركية في العقد القادم. وكالمعتاد، كان هناك راديو يعمل في أعلى السيّارة، ناقلاً مزيجاً من موسيقى البوب والتي يستمتع بها جنود المارينز والتي تتنافس مع أزيز نيران المدفعية ـ وأنباء جديدة عن ٣٠٠ قتيل عراقي في الخفجي و٥٠٠ أسير، ممّا أسعد المارينز أكثر.

كان السعوديون يقاتلون في المدينة يساندهم جنود من جنسيات أخرى عرفنا بسرعة أنهم قطريون ـ وبعضهم جنود باكستانيون معارضون لحكومة قطر ـ وعلى الخط السريع رأيت ناقلة ضخمة تحمل حُطام دبّابة قطرية مصابة بقذيفة في محرّكها الموجود في المؤخّرة. كان هناك قصف آخر، فأومأ الرقيب بوست برأسه مجدّداً وقال: «تلك طائرات ب٥٢ B 52 تلقي بقنابلها فوق الكويت، هل تستطيع تصوّر كيف تكون الحال تحتها!». كلّا، إذ كان من المستحيل تخيّل المذبحة الحاصلة عبر الحدود تحت تلك السحابة السوداء. وقبل ساعات، في الليل على بعد ٢٤٠ كلم سمعت هزّة أرضيّة بسبب طائرة ب٥٢ B52. وقد ردّدت الصحراء الصوت الأقوى والأعمق لسقوط برميل بعيداً كل دقيقة ونصف.

كان العراقيون يموتون على بعد ٢٥ كلم فقط وبالمئات، لكن السعادة العارمة بالقوة أعطت الأميركيين بهجة معيّنة، وكما قلت في تقرير تلك الليلة فإنها «سوف تكسبهم مزيداً من الأعداء في الشرق الأوسط في السنوات القادمة». على الأرض كان الجنود أكثر واقعيّة. نظر الكابتن جون بورث، قائد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بوست، إليّ بعيني رجل رأى فقط بضعة كيلومترات من الأرض حوله، وقال: «إذا كان صدّام يستطيع الاستيلاء على مدينة خاوية مثل الخفجي ويعتبرها نصراً، فإنه يخسر العديد من الرجال لاجتياح مدينة لا أهميّة لها. أنا متأكّد أننا لو كنا أكثر اهتماماً للأمر لكنّا فعلنا الكثير» ربّما! لكنّ الخفجي تعني الكثير لأنها في السعودية، وهي إحدى مدن المملكة الكبرى. قد أشار شوارزكوف إليها باحتقار وبشكل خاطئ على أنها قرية عندما أبلغ في البدء عن الهجوم العراقي. كانت مدينة، وكان على الحلفاء بشكل رئيسي الإعلان عن استرجاعها، الأمر الذي قام به رئيس الوزراء البريطاني جون ميجور بعدما طرد مارغريت تاتشر من داوننغ ستريت، وفي الوقت الذي كان العراقيون لا يزالون يقاتلون في الشوارع.

في النهاية، كان يجب أن يكون هناك انتصار سعودي شهير. «فشهداء الخفجي» ـ الثمانية عشر جندياً من الجيش والحرس الوطني الذين قُتلوا في عملية استعادتها ـ هم مكرّمون من قِبل الأمير عبدالله «كرمز للقِيَم والشجاعة في أذهان الأجيال القادمة»؛ وما حقّقوه هو شرف كبير لوطنهم وعائلاتهم. وأهمل التلفزيون السعودي ذكر أن هذا الشرف لم يكن ضرورياً لو دافع الجنود السعوديون والأميركيون عن الخفجي منذ البداية. ولكانوا جنّبوا الناس أيضاً مشاهد الفيديو التي تصوّر جثث شهداء المملكة المتفحّمة والممدّدة في رماد ناقلاتهم. رغم دمار المدينة التي عاد إليها سكّانها لم ألمح أيّة فرحة. وقد سألنا أصحابُ المحلّات: «لماذا لا يحرّر الأميركيون الكويت الآن؟» وبالمقابل كانوا يشاهدون على شاشات التلفزيون تدمير العراق. وعندما حاولت أن أشرح لمستورد ملابس سعودي أن تحرير الكويت سيسبقه قصف، كان ردّه فورياً: «لكنّ الجسور والكهرباء والنفط في العراق والناس في المستشفيات... لماذا يفعل الأميركيون ذلك؟» كان تساؤلاً طُرح بدرجة عالية من التكرار والحرارة. وكان عبثاً تفسير الأميركيين أنهم كلّما قصفوا هذه «الصراصير» كانت خسارة قوّات الحلفاء البشرية أقلّ، بمن فيهم الجيوش العربية، عند تقدّمهم نحو الكويت. وقد سمع السعوديون عبر وسيلة إعلام قوية وخطرة هي السي إن إن أن القتلى والجرحى من المدنيين العراقيين والعرب غالبيّتهم من المسلمين «ممّا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يشكّل ضرراً إضافياً على محيط غنيّ»... وهذه عبارات تحمل معنى شخصياً وماجناً عندما يكون المشاهدون يحملون عقيدة الضحايا.

كان دور الصحافة في حرب الخليج عام ١٩٩١ رخيصاً وغير شريف. إذا كانت العلاقة بين المراسلين والجنود متناغمة، فقد كانت أيضاً طفيلية على صعيد الصحفيين. لقد غذّينا الحرب وكنّا نريد أن نصبح جزءاً منها. وقد أراد كولونيل أميركي يشرف على القاعدة الجوّية الأميركية في البحرين تكريم مجموعة المراسلين في وحدته، الذين كانوا تابعين لسرب القاذفات المقاتلة لديه منذ بداية الحرب. هؤلاء لم يشاركوا في أيّة طلعة مع أية طائرة، ولم يصادفوا أيّ قصف أرضي، باستثناء الاحتماء من بعض الإنذارات الكاذبة ضدّ صواريخ سكود، ولم يفعلوا شيئاً أكثر من ترداد العبارات المبتذلة للطيّارين العائدين وقادتهم. لكنّ قائد القاعدة قدّم لكلّ منهم هديّة، علماً أميركياً صغيراً، موضحاً أن هذه الأعلام كانت موجودة على مقدّمات الطائرات الأميركية الأولى التي قصفت بغداد. وبينما كان يقدّم الأعلام لهم قال: «أنتم مقاتلون أيضاً».

تحدّث الإعلام كثيراً عن العلاقة الجديدة المفيدة (والضارّة) بين المراسلين والعسكريين، وهي علاقة ستُصقل وتُنحت وتُلمّع مع الوقت من أجل غزو العراق عام ٢٠٠٣. إذن كان الهدف من علاقة كهذه هو التحضير للحرب، وقد أصبح الصحفيون معتمدين كثيراً على المعلومات التي تقدّمها السلطات العسكرية الغربية، المفتونة بتقنيتها بحيث وجد مراسلو التلفزيون والصحافة أنفسهم أسرى حماسهم الصبياني.

بالنسبة إلى معظم الصحفيين في الخليج ومعظم الجنود الغربيين كانت الحرب كمّية مجهولة، مذهلة ومخيفة أيضاً، تاريخية ومميتة. قُدّمت لنا على أنها حرب عادلة، كما جعلتنا نعتقد بالأرشمندريت روبرت رونسي وبالرئيس بوش. إذا كان صدّام حسين، هتلر الشرق الأوسط، أسوأ من هتلر وفق تحليل بوش التاريخي، فمن المؤكّد أننا ننقل الصراع بشكل مناقض للواقع.

عندما انطلق طيّارو مقاتلات السلاح الجوّي البريطاني من قاعدة خليجية في

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أواخر كانون الثاني/يناير ١٩٩١، أبلغ مراسل بريطاني مستمعيه أن شجاعتهم لا حدود لها. وعندما انطلقت البحرية الأميركية من حاملة الطائرات «يو إس إس كنيدي» USS Kennedy في بداية الحرب لشنّ غارات تسبّبت بإصابات مدنية عديدة، كتب مراسل «فيلادلفيا إينكوايرر» Philadelphia Inquirer في رسالة مستعجلة من الحاملة: «كان صباح الخميس أحد تلك الأوقات التي توقّف فيها الزمن ... ممهّداً الطريق لفجر من الأمل». أصبح الصحفيون يتحدّثون عن العراق الآن كعدوّ كما لو أنهم ذهبوا إلى الحرب بأنفسهم، وقد حصلوا عليها للأسف.

كانت لهجتهم شبيهة بلهجة الأربعينيّات عندما وصلت جيوش هتلر إلى «پادكاليه» Pas de Calais وتمركزت لغزو بريطانيا. وكان الصحفيون باللباس العسكري والخُوَذ يحاولون تبنّي جدّية إدوارد مورو وريتشارد ديمبلبي. ولم يكن مراسلو الحاملة عُرضة لهجوم جويّ مثل مورو. ولم يقوموا بمهامّ فوق أراضي العدو مثلما فعل ديمبلبي خلال غارة عاصفة النار على هامبورغ. لكنّهم كانوا يهيّئون العالم لأكبر معركة دبّابات منذ الحرب العالمية الثانية أو منذ عملية إنزال D Day الضخمة أو حرب كوريا. لن تكون هناك معركة دبّابات رئيسية أو عمليّة إنزال برمائيّة على الإطلاق. لكن كانت جيوش الحلفاء تشبه مع الإيقاع المطمئن حلف زمن الحرب الذي أطاح بهتلر والذي لعب فيه ستالين، بطل صدّام، دور القيادة دون منازع.

كانت هذه التفاهة خطرة بقدر ما كانت مضلّلة. إذ عندما تقوم أكبر ثلاثة جيوش مسيحية في العالم بشنّ حرب ضدّ دولة مسلمة لصالح دولة مسلمة أخرى تضمّ أقدس مَعلمين في الإسلام، فليس هذا هو الوقت المناسب لإجراء مقارنات مع الحرب العالمية الثانية. لو كان إيد مورو حيّاً اليوم، لكان بين المراسلين القلائل في بغداد مثل زميلي باتريك كوكبورن من صحيفة الإندبندنت واصفاً آثار الغارات الأميركية على المدنيين. وربّما كان هذا الوصف بداية لكراهية متجدّدة بين الغرب والعالم العربي، لكنّ تقاريرنا لم تكن هي التي بدأت تعكس تلك الكراهية. . ليس سهلاً على الصحفيين ممارسة النقد الذاتي عندما يتحدّثون عن التاريخ. ولإثارة الشكّ حول كلام الضبّاط الأميركيين أو

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الإنكليز في الخليج كانت الدعوة للإدانة فورية على الأغلب. كان منّا هؤلاء الذين تحدّثوا عن المعاناة الإنسانية التي سبّبتها الغارات الإسرائيلية على بيروت عام ١٩٨٢ ووصفوا بأنهم معادون للساميّة. وأيّ شكّ حقيقي حول الادّعاءات الأميركية في الخليج يؤدّي إلى اتهامات مماثلة. هل أخذنا جانب صدّام؟ ألم ندرك أن العراق غزا الكويت عام ١٩٩٠! ليس هناك أي مراسل في السعودية لم يدرك أن صدّام حسين طاغية فظّ شرّير حكم من خلال الإرهاب. وليس هناك أدنى شكّ حول وحشية جيشه في احتلال الكويت. وقد كان المراسلون الذين حاولوا التحقيق في القضايا العسكرية في السعودية عُرضة لأبشع عمليّات الطرد وقد شُنق آخر صحفي قام بذلك في بغداد. وقبل غزو صدّام حسين للكويت بفترة طويلة.. كنّا نحن نكتب عن الأهوال وذلك بخلاف السعودية التي كانت تموّل نظامه السيّىء السمعة والولايات المتحدة التي كانت تسانده.

حالياً يرتدي معظم الصحفيين في الميادين العسكرية لباس حُماتهم الغربيين ويعتمدون على نصيحة الجنود من حولهم، خائفين من الاشتباكات على الأرض ويتطّلعون إلى مساندة الجنود. كانوا يحفرون الخنادق مع حُماتهم. ويقفون في الصفّ مع الجنود لأخذ حُقن وحبوب ضدّ الأنتراكس وضدّ الطاعون.

نصحتُ إحدى الزميلات المقرّبات بأن لا شأن لها بهذا السائل السحريّ الذي يُعتقد الآن أنه موجود بشكل واسع مع الذخائر المطليّة باليورانيوم وهو سبب عوامل الضعف والموت في حرب الخليج، وكانت شاكرة لي حتى يومنا هذا. كان هؤلاء الصحفيّون يعتمدون على القوّات في اتصالاتهم وربّما على حياتهم. وكانت هناك رغبة عميقة في التأقلم، في العمل بالنظام، وغياب نادر ومتزايد للقدرات النقدية.

كان ذلك واضحاً بشكل مؤلم بالنسبة إليّ عندما احتلّ العراقيون الخفجي. فقد بقي المراسلون المرافقين للقوّات الأميركية على بُعد ٢٥ كلم من منطقة القتال في البداية مضلَّلين من قِبل قادتهم العسكريين ونقلوا أخباراً غير صحيحة مدّعين أن المدينة استعيدت. لكن عندما سافرت مستقلّاً إلى المدينة للتحقيق، واجهني مراسل شبكة أن. بي. سي الذي كان تابعاً للقوّات المشتركة وصرخ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بي: «يا حمار، سوف تمنعنا من العمل، ليس مسموحاً لك أن توجد هنا. إرحل وعُد إلى الظهران الحقيرة». ثمّ حوّلني إلى جندي أميركي في العلاقات العامّة أبلغني: «لستَ مخوّلاً بالتكلّم مع جنود المارينز وليس مسموحاً لهم بالتكلّم معك». كان وقتاً كثير الاضطراب . اكتشفت صحيفة الإندبندنت من خلال السفر إلى الخفجي أن العراقيين ما زالوا يقاتلون في المدينة بينما كان رئيس الوزراء البريطاني يعلن من داوننغ ستريت أنها تحرّرت. مع ذلك كانت اللجنة المشتركة وامتيازاتها والقوانين المتعلّقة بها أكثر أهمية بالنسبة إلى المراسل الأميركي من حقّه الصحفي. وقد أشرت إلى مراسل الأن بي. سي في الإندبندنت وفي مقابلة مع النيويورك تايمز وجرى إبعاده عن الشرق الأوسط. لكنّ السلطات الأميركية كانت قادرة على توظيف مراسلين مضادّين لآخرين وذلك لتفتيت صفّ الصحفيين على الأرض بحيث يحاول الذين يعملون خارج اللجنة (مراسلون أحرار: كما تسمّيهم القيادة الأميركية المضلّلة) تدمير فرص الذين يتلقّون تعليمات صارمة من اللجنة . لذلك عندما وجد مراسل مغامر من صحيفة صانداي تايمز اللندنية وحدة ستافور شاير في الصحراء في أواخر كانون الثاني/يناير ١٩٩١ قال له ضابط بريطاني غاضب إنه سيخرّب فرص الآخرين إذا لم يرحل.

بيد أن الآخرين كانت لديهم مشاكلهم أصلاً. عندما التقط مراسلون أميركيون على الحاملة ساراتوغا الكلمات الدقيقة لطيّاري القوّة الجوّية، لاحظوا أن القائد وضباطاً آخرين حذفوا كلمات الشتائم وغيّروا بعض التصريحات قبل إرسال التقارير، بعد تأخير دام ١٢ ساعة. وعلى الحاملة كنيدي، سجّل مراسلو وكالات الأنباء في اللجنة المشتركة كيف يشاهد الطيّارون أفلاماً خلاعيّة بهدف الاسترخاء قبل مهمّات القصف، وكان ذلك محظوراً على المراسلين.

في إحدى القاعدتين الجويّتين في البحريْن كانت هناك لافتة كبيرة مدلّاة داخل مرآب طائرة، تمثّل سوبرمان أميركياً يحمل بين يديه عربياً ضعيفاً ومذعوراً ذا أنف معقوف. لم تُبلغ اللجنة الإعلامية في القاعدة عن وجود هذه اللافتة مع ما تحمله من توجّهات عنصريّة. ونقل مراسل تلفزيوني من اللجنة عن اللفيتانت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كولونيل ديك وايت وصفَه لرؤية قوّات عراقية تهرب من الكويت للنجاة بحياتها: «كان الأمر شبيهاً بإضاءة الأنوار في المطبخ في آخر الليل ورؤية الصراصير تهرول. قمنا في النهاية بإخراجها حيث وجدناها وقتلناها». لم تستدرّ هذه الملاحظات المذهلة أيّ سؤال من اللجنة الإعلامية مع أن الكولونيل سُئل: «ما جدوى النظام العالمي الجديد عندما يقارن ضابط أميركي أعداءه العرب بالحشرات بعد ثلاثة أسابيع فقط من القصف؟». شعر الصحفيون أن العراقيين لم يُعاقَبوا بشكل كافٍ وسعوا إلى تحريف سجلّ الحرب لإثبات ذلك، ورأوا أن تحرير الكويت الذي تمّ في أربعة أيام فقط شكّل مجمل النزاع. وكتب جيم هوغلند من الواشنطن بوست أنه «باستثناء المئة ساعة من عاصفة الصحراء عام ١٩٩١ فإن الولايات المتحدة وحلفاءها عاملوا نظام صدّام على أنه شرّ مقبول». وفي الصحيفة نفسها، ساهم ريتشارد كوهين في تطوير القصّة من خلال إبلاغ قرّائه أن الحرب استمرّت مئة ساعة فقط. وكناشط عربي أميركي قال سام حُسيني: «لقد تمّ تناسي الأربعين يوماً وليلة التي أمطرت فيها القوّات الأميركية العراق بحوالي ٨٠ ألف طنّ من المتفجّرات»، أي أكثر من القصف التقليدي لأوروبا في الحرب العالمية الثانية.

لكن مرّت فترة طويلة قبل انتهاء الحرب للحديث عن مجزرة كاملة ضدّ القوّات العراقية الهاربة وفقدان الاحترام من خلال خيانتنا لمئات الآلاف من العراقيين الشجعان الذين انتفضوا ضدّ صدام بناء لطلبنا. أصبح الصحفيون شبه أصفار، أبواقاً للجنرالات يتجنّبون بحرص أيّ أسئلة أخلاقية ويغلقون كاميراتهم، كما سنرى لاحقاً عندما تصبح أهوال الحرب واضحة جدّاً. وقد أصبح الصحفيون المتجاهلون للحرب هم مسانديها وباتوا جزءاً منها. فمن خلال عدم النضج وعدم الخبرة والتنشئة يمكن اختلاق أيّ عذر تريد . لكنهم خلقوا حرباً بدون موت. لقد كذبوا.

كانت الأسئلة التي طرحها السعوديون بطرق مختلفة أكثر صِلة بالموضوع من تلك التي طرحها المراسلون. سألني داعية سعودي: «ما هو النظام العالمي الجديد؟». يُعتبر النظام شيئاً يحبّ السعوديون وقعه. والعالم كِيانٌ كثير من

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

السعوديين معزولون عنه. لكن لدى العرب الخليجيين إحساس خطير تجاه كلمة «جديد». حاولت تفسير ما عناه الرئيس بوش في جملته، مستنداً إلى السياق الذي ظهرت فيه الجملة أصلاً: انتهت الحرب الباردة، وأصبحت أوروبا الشرقية حرّة، ويعتقد الأميركيون أن هذه الرياح يجب أن تهبّ على الشرق الأوسط أيضاً.

لم يعد ممكناً التسامح مع الطغاة، ولاسيّما الطغاة الذين يعارضون رغبات الولايات المتحدة. بالمقابل اكتشفت الآن أنني أشرح العقيدة الرسمية لبوش الابن وكنت مبكّراً عقداً من الزمن.

بالنسبة إلى اهتمامهم بأيّ نظام عالمي جديد، دع جانباً طريقة العيش الأميركية، فقد كان من الطبيعي أن يطلب الملك فهد من صدّام العودة إلى حكم الله. وهذا تفسير ديني يميّز رؤية بوش ـ مضيفاً: أن نطلب من الله أن يحقق النصر لقوّاته. وفي بغداد، طلب صدّام حسين الدعم الإلهي ضدّ قوّات الشيطان ومأجوريه. وباختياره شخصية المحارب الكردي في القرن الثاني عشر (صلاح الدين)، حاول التحدّث بالنبرة ذاتها، فقال بعد ثلاثة أيام من قصف العراق: «سيُهزم الشيطان». كان الاقتباس بمعظمه مطلوباً. ففي معركة حِطّين يوم ٧ تموز/يوليو ١١٨٧ روى الملك الأفضل ابن صلاح الدين كيف حشد والده قوّاته المسلمة في مواجهة الصليبيين الفرنسيين بصرخة المعركة: «الشيطان يجب أن يهزم». وبدوره طلب بوش من الله أن يحمي جنود أميركا في الخليج. لكنه وضع الصراع مسبقاً على قاعدة دينية وأخلاقية عندما دعا إلى اجتماع الزعماء الدينيين في الولايات المتّحدة معلناً أن حرب الخليج هي بين الخير والشرّ، الصواب والخطأ. وهكذا كانت القاعدة العقائدية للغزو الأميركي للعراق عام ٢٠٠٣ قد وُضِعت قبل تحرير الكويت عام ١٩٩١.

لم تبدُ نوبات الجنون التي بدأت يوم ١٣ شباط/فبراير ١٩٩١ في الساعة السادسة متأخّرة أبداً، لكنها لم تفاجئ أحداً. كانت هناك مشكلة في تأييد أهميّتها. كيف سيجيب ريتشارد نيل نائب قائد العمليّات الأميركي على عمليّة قتل أكثر من ٤٠٠ مدني عراقي بريء في الغارة التي شُنّت على العامرية في

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بغداد؟. هل يبدأ بالإعلان عن إجراء تحقيق في ما بدا أنّه مأساة مروّعة، القصف الخطأ لملجأ مُكتظّ بالمدنيين، أو من أسف عميق في حال كانت تقارير بغداد صحيحة؟ أو أنه سيدّعي أن القتلى كانوا ضمن موقع عسكري مُحصّن وأن الهدف صحيح وأنه لا يعلم كيف وصل المدنيون إلى هناك؟.

كان الردّ الأخير هو ما صرّح به نيل بدقّة مثبتاً لملايين العرب أن الأميركيين لا قلب لهم، وهم أقوياء. حتى أنه تفاخر بجرأة طيّاريه على إطلاق صواريخ عبر فتحة تهوية في الموقع. لا شكّ أن العرب حبسوا أنفاسهم. بالطبع، فقد اختار الجنرال تمضية أكثر من عشر دقائق في شرح نشاطه العسكري: عدد الطلعات الجوّية، وعدد الطائرات العراقية المدمّرة على الأرض، وعدد آبار النفط المشتعلة قبل الإشارة إلى مئات القتلى في بغداد كتذييل، كما لو كان آخر شيء يهمّ الناس. «قصف موقع» هذا ما سمّاه، «أنا هنا لأقول لكم إنه موقع عسكري، مركز قيادة ومراقبة، موقع مُحصّن، ولا تفسير حتى الآن لماذا وُجد المدنيّون هناك».

عندما انتهى من الردّ، وجد الجنرال نفسه يواجه بحراً من الأسئلة؟ ماذا حدث؟. كانت ردود الجنرال نيل محسوبة لطمأنة الحلفاء أن الخطط العسكرية بقيت أخلاقية كالمعتاد وكانت محكومة بإثارة السخط في معظم أنحاء العالم العربي. الملجأ/الموقع، كان هدفاً عسكرياً وكان على لائحة أهداف الحلفاء لبضعة أيام، وقد صدرت منه إشارات عسكرية. وقال إنه طُلي بطلاء تمويهيّ، لكنه اعترف في تحقيق لاحق أنه «لم يقل له ذلك إلّا عندما حضر»، وأضاف أن الأميركيين تعمّدوا ضربه. فهؤلاء الطيّارون الشبّان يتصرّفون من تلقاء أنفسهم رغم أن الحملة الجوّية حُدّدت أهدافها بدقّة وتطلّب وضع خططها وقتاً طويلاً. حتى الآن لم يتفوّه الجنرال بأيّ عبارة ندم وعندما سُئل ما إذا كانت هناك بادرة أسف أجاب: «إنك على حقّ لكنّني أضيف أنه كان هدفاً مشروعاً، لكن إذا كان قد قُتل ٤٠٠ مدني كما ورد، فمن المنطقيّ أن أقول لك إنني والرأي العامّ الأميركي وقوّات التحالف جميعاً نشعر بالحزن للواقعة إذا كان هناك بالفعل مدنيّون. إذا كان هناك بالفعل مدنيّون فإن ما حصل يكون مأساة»، إذا، إذا،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

إذا... لقد كان هدفاً عسكرياً مشروعاً، كان طيّارونا عظماء، كان «موقع قيادة ومراقبة». لكنه لم يكن كذلك. انكشفت الحقيقة التي أخفاها نيل في مؤتمره الصحفي بعد ٢٤ ساعة في دارة في ضاحية الرياض: اعتقد الأميركيون أن الموقع استُخدم من قِبل أعضاء كبار في حزب البعث العراقي وعائلاتهم وأصدقائهم. ولقد كانوا يقصفون بشكل منتظم المواقع التي يفترضون أن المدنيين المتعاونين مع صدّام ينامون فيها. وكان قصف الأهداف حيث توجد النساء والأطفال عادياً. كان مصدري صادقاً: جنرال سابق في سلاح الجوّ الأميركي يعمل الآن ضابط تحديد أهداف لدى سلاح الجوّ الملكي السعودي. كان يدقّق في صُوَر القوّات الجوّية الأميركية وصُوَر القمر الصناعي يومياً وكان على علم بملجأ العامرية.

عندما زرته صباحاً لشرب القهوة، كان في حالة من الحزن الشديد، قال: دخل أحد صاروخين أميركيين موجّهين عبر فتحة تهوية في ملجأ في بغداد، وقد أصاب الصاروخ الآخر كومة من الأوساخ في الخارج مسبّباً أضراراً للأبنية المجاورة. وأضاف أن جميع السعوديين غاضبون بسبب ذلك، والعرب الذين هم معنا في التحالف يقولون بأن العراق سوف يدمّر كلّياً إذا استمر هذا القصف. لقد كان المشروع مجلبة للعار عن عمد، للمدنيين كما للعسكريين... لكنّ هذا القصف كان خطأً كبيراً. كنت أرتشف قهوتي وأنا أدوّن الملاحظات وأراقب الألم على وجه هذا الرجل. أستطيع فقط التفكير ملياً في الفجوة بين الطبيعة المتعمّدة والقاسية لحملة القصف الأميركي والتحريف المتعمّد والمركّز للحقيقة المستوعَبة والمقبولة والمردّدة من قِبل وسائل الإعلام. وبعيداً عن محيط الهدف الثمين الذي ادّعى نيل وزملاؤه من الجنرالات أنه كذلك، يقوم الأميركيون والإنكليز الآن بما يتراوح بين ١٠٠ و ٢٠٠ طلعة جوّية يومياً فوق بغداد وحدها. ويفيد الطيّارون أنهم يعاودون قصف الأهداف ٥ أو ٦ مرّات حتى بعد تدمير البنية التحتية كلّياً. تحدّث الجنرال ببطء مستهجناً نشاطات القوّة الجوّية التي عمل معها في يوم ما... ليس الذنب ذنب الطيّارين بالتأكيد. وقد شهدَ المجادلات بين الليفتانت جنرال تشارلز هورنر، قائد قوّات الحلفاء في الخليج، والليفتانت جنرال أحمد البحيري، قائد سلاح الجو السعودي:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

«هناك غليان كبير سائد في أوساط وزارة الدفاع والطيران السعودية بسبب قصف بغداد. فهم حزينون لهذا القصف المستمرّ وهم مهتمّون جدّاً بمسألة أن العراق لا يجوز أن يُدمّر، ويفكّرون في مرحلة ما بعد الحرب... ولا يميل السعوديون إلى الاعتقاد مع واشنطن بأن الملجأ كان هدفاً عسكرياً مشروعاً. لكن تشارلز هورنر كان مؤيّداً لقصف بغداد كونه رجلاً تقنياً. بينما يرى الجنرال بحيرى أنه يجب البدء بالهجوم البرّي. لقد تحدث نيل عن تمويه على سطح الملجأ. ولست ممّن يعتقدون أن الملاجىء حول بغداد غير مموّهة، وقد قيل إن حوله أسلاكاً شائكة وهذا طبيعي في بغداد . وقيل لنا إن الأسلاك توضع في بعض الأحيان لضبط الحشود وأن هناك أسلاكاً شائكة حول الأفران لمنع الاضطرابات. وليس في الجيش الأميركي فرد واحد يصدّق أن الملجأ كان مقرّ قيادة عسكرية ومراقبة وإنّ القادة الميدانيين الكبار لا يقدّمون تقاريرهم إلى مراكز القيادة في بغداد . اعتقد الجيش أنها تضمّ جنوداً وكنّا نعتقد أنه ملجأ للجنود. ويفترض في أي ملجأ عسكري وجود بعض المدنيين. لقد هاجمنا هذا الموقع ونحن متأكّدون أن هناك نساء وأطفالاً وهم أفراد عائلات العسكريين الذين يُسمح لهم بدخول الملاجىء. ولا تصمد الملاجىء أمام القنابل الموجّهة بالليزر وأمام إمكانات الطاقة الحركية للقنبلة وسرعتها الكبيرة».

أستطيع التفكير بسهولة بتلك الطاقة. قمت بزيارة هذا الملجأ في ضاحية العامرية في بغداد عدّة مرّات في الأعوام اللاحقة. لقد أصبح مزاراً وغطت جدرانه السوداء صور ٤٠٠ امرأة وطفل قتلوا هناك. لقد كان يستخدم كل مساء كملجأ للعائلات المحلّية ولم يكن أي مسؤول بعثي بينهم وقد أحرقهم الصاروخان اللذان أُطلقا على المبنى جميعاً وهم أحياء. على بعض أجزاء الجدران ظلّت بقايا لحم لعدّة سنوات فيما بعد. ووجدتُ أحجاراً إسمنتيّة عليها علامات بحجم البشر تحوّلت إلى سائل عندما انفجرت الصواريخ الأميركية خلال ثوان. ستبقى ذكراهم كطيف على الجدران مثل هيروشيما. تجرّع الجنرال

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الكثير من القهوة، لقد شاهد صور القمر الصناعي وفهم درجة الألم غير الطبيعي الذي عانى منه الضحايا لكنه ظلّ محصوراً ضمن الأمور التقنية للقصف الجويّ. فالمصادر العسكرية الأفضل، حتى عندما تكشف الأكاذيب العسكرية، لا تصرّح دائماً بما نرغب في سماعه. إذا كانت القنابل تقتل الأبرياء في بغداد، فالجنرال يتحسّر أيضاً على خسارة الذخيرة:

«نحن ملتزمون بتقليص عديد القوّات العراقية بنسبة ٤٠ في المئة على مسرح العمليات الكويتية وعلينا زيادة فعالية أسلحتنا نحو الأفضل. لقد تخطّينا نقطة الرجوع في قصف بغداد، والجوائز المربحة توجد في الكويت. ويمكننا التأكيد أننا نقتل العديد من قوّاتهم المتقدّمة. لم يكن علينا قصف بغداد، إنها ضربة طائشة، فحملة قصف كهذه تجنح إلى القضاء على نفسها. بعد قصف الملجأ أصبحنا متوتّرين حيال استمرار حملة القصف على بغداد. كان لدى الرئيس بوش حرّية حركة حتى نهار أمس ولم يعد يملك هذه الحرّية بعد الآن. لكن حرّيته ليست مقيّدة. أظنّ أن ذلك يعجّل الحرب البرّية. سيعرف الطيّار الذي فعل ذلك أنه هو الفاعل، لكنها لم تكن غلطته هو... فصدّام حسين يضع الأطفال في المواقع العسكرية وهو الملام في ذلك».

لكننا كنّا مخطئين أيضاً. فالليفتانت جنرال توماس كيلي، قائد عمليات القوّات المشتركة شخص إنساني ولطيف وأنا أعرفه جيّداً، لكنه مأخوذ الى حدّ كبير بهذه الحرب التقنية الجوّية اللعينة بحيث يظهر على التلفزيون ويصرّح أنه مرتاح بالنسبة إلى التهديف. نستطيع من خلال إبداء أسفنا العميق عمل شيء لتصحيح الخطأ. لقد كان قصف ملجأ العامرية وحده الأكثر دموية في ما يتعلّق بالمدنيين . ففي ٤ شباط/فبراير قتلت طائرات بريطانية حسبما أعتقد ٤٧ مدنياً وجرحت أكثر من ١٠٢ عندما دمّرت جسراً فوق نهر مكتظ بالمشاة في الناصرية، وسقط معظم الضحايا في الفرات. يوم ١١ شباط/فبراير، هاجمت القاذفات جسراً متحرّكاً في مدينة الفلّوجة إلى الغرب من بغداد، وبعد ١٢ سنة أصبحت الفلّوجة مركزاً للمقاومة ضدّ الاحتلال الأميركي للعراق. لكنّ الطائرة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أخطأت الجسر وأصابت بناية وسوقاً مزدحماً وأدّت إلى قتل العشرات من المدنيين. ويعزو المراسلون غالباً اعتمادهم المراقبة الذاتية وعدم انتقادهم لتصريحات الجنرالات إلى إبقاء الباب مفتوحاً أمام الوصول إلى كبار الضبّاط بغية الحصول على معلومات، إذ من دون ذلك سيتخلّى عنهم قرّاؤهم. ولكن الأمر يختلف بين إيرلندا والشرق الأوسط. وبقدر ما يتحدّى الصحفيون السلطة يزداد عدد الراغبين في الحديث معهم طلباً للشهرة. وتتضمّن ملفّاتي مئات الرسائل من ضبّاط كل جيش عامل في الشرق الأوسط تقريباً. وجاءتني رسالة من لغويّ يعمل مع طاقم أواكس أميركي كان يراقب فوق الخليج قبل وخلال نزاع ١٩٩١.

«يبلغ وزن قنبلة BLU - 82 المعروفة بشكل عام بـ «دايزي كاتر»Daisy cuter ٦٨٠,٤ كلغ وتُلقى من على قاعدة خشبية من طائرة C-130 مثل حمولة شاحنة. في هذه الحالة ألقت طائرتا C-130 اثنتين منها في مكانين على التوالي. تلا ذلك إلقاء طائرتي MC 130 منشورات تقول إنهم سيحصلون على الشيء نفسه في الليلة القادمة وأن عليهم الاستسلام جميعاً. في الليلة التالية، ألقت الطائرتان قنبلتين مع منشورات أخرى تقول إننا أبلغناكم بذلك. وبما أن قنابلهما تُلقى اثنتين اثنتين، لم يُضع الملخّصون الوقت في تسميتهما باسم «الشقيقتين الزرقاوين» مؤثر أليس كذلك؟(*)».

(*) من قبيل المزاح مقارنة هذا الحساب الإنساني الساخر لـ BLU 82 بتقرير مراسل رويترز المتشوّق للقتال، عن سلاح أميركي خارق آخر استخدم لتدمير أكثر المواقع تحصيناً تحت الأرض عام ١٩٩١: كانت القنبلة GBU-28 أكثر قوّة بخمس مرّات من أيّ سلاح آخر غير نووي... كان عمرها بضع ساعات عندما أُلقيت على أقوى التحصينات العراقية تحت الأرض، وكان صانعوها يصلّون كي تنجح... صُنعت القنبلة الجديدة بسرعة في شركة لوكهيد للصواريخ والفضاء وشركة تكساس للمعدّات، بجهد فريق لا سابق له، وقد أُلقيت من طائرة ف١١١ على مركز قيادة في قاعدة التاج، واخترقت القنبلة الخارقة ٤٧٠٠ ليبرة (وهي عبارة عن برميل هوتزير مليء بالمتفجرات، وموجّه بأشعة الليزر) اخترقت الجدران الإسمنتية القويّة وانفجرت داخل الملجأ، وقال ميرل كالب من شركة لوكهيد: إنها قضية وطنية وتعاون لا سابق له.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وكانت طواقم طائرات أواكس AWAKS خلال حرب الخليج ١٩٩١ تطير في ظلام تامّ، وكانت النافذة الخلفية للطائرة مغطّاة لتجنّب التوهّج على أجهزة الكمبيوتر. كلّ فرد من الطاقم، رجلاً كان أم امرأة، يجلس على منصّة تتضمّن شاشة تصاميم كبيرة، مع خريطة لمنطقة الخليج. كانت الطائرة مجهّزة بشاشات متصلة، يحصل أعضاء الطاقم عبرها على مسار طائرات الأواكس الأخرى، والرادار الأرضي E2CS. ويستطيع الطاقم مراقبة عمليات الضرب: عندما يدخلون العراق والكويت، يقصفون أهدافهم، ويعودون فيراهم الطاقم كسهام مسنّنة على الشاشة. كانت مهمّة مصدري «التأكّد أن سلاح الطيران العراقي لا فرصة له»... ويُظهر وصفه لهذه العملية العديمة الرحمة مدى التطوّر الذي بلغته المراقبة الأميركية التقنية:

«بمجرّد التقاطي صوت مذياع أستطيع معرفة مَن هم؛ وأيّ نوع من الطائرات يستقلّون، وأين هم، وإلى أين يتوجّهون، أو ماذا سيفعلون. خلال الأيام الثلاثة أو الأربعة الأولى لحملتهم الجوّية، حاول العديد من الطيّارين العراقيين على الأقلّ إظهار محاولة الدفاع عن وطنهم.. ولكن ما إن يقوموا باتصالهم الأول، حتى أتصل بالأواكس وأخبرهم بعدد الطائرات، نوعها وموقعها، ووجهتها، وارتفاعها. وعلى الفور ترسل الأواكس مقاتلات التحالف خلفها. وكانت حقيقة ما يجري تصل إلى سمّاعتي فوراً وذلك عندما يصبح الطيّارون العراقيون ضائعين ومذعورين، وأخيراً صامتين. لقد شعرت حقاً بالأسف عليهم. كانوا يتحدثون جميعاً على الموجة نفسها، إلى درجة أن المراقب الأرضي لم يستطع الوصول إليهم لتحذيرهم بأن مقاتلات الحلفاء تقترب».

«إنهم يحرقون حقول نفطنا»، قالها مسؤول كويتي على الهاتف، وكانت بالتالي دليلاً غير قابل للنقاش. على مسافة ١٠٠ كلم فقط من الرياض كنا نرى ذلك الظلّ الناقص، سحابةٌ حاجبة امتدّت على طول الطرف البعيد للصحراء اللامعة. وبعد ساعة، وعلى بعد ١٥٠ كلم إلى الشمال، امتدت تلك السحابة فوقنا وصولاً إلى الشمس محوّلةً الرمل إلى لون أبيض شاحب. كان السائقون

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

على الطريق السريع ينظرون جميعاً إلى تلك السحابة كما لو أنهم يتوقّعون إشارةً ما من حجم الظلام... غير مدركين أن السحابة كانت هي، الإشارة. كان العراقيون يحرقون الأرض كما وعدوا. وقد ساعد الأميركيون على ذلك من خلال إلقاء متفجّرات على آبار النفط في الكويت والعراق. الآن أصبح شبح دمار الكويت يمتدّ إلى الشمال الشرقي للسعودية.

كان سرّاً معروفاً أن الأميركيين والإنكليز سوف يتوغّلون قريباً توغّلاً عميقاً غرب العراق مسافة ٢٥٠ كلم تقريباً وذلك في الهجوم الشامل لتحرير الإمارة. وكان التحضير لذلك واضحاً الآن على الطريق السريع الذي بات شبه فارغ، وكانت الدبّابات ومدافع الهوتزر وبطّاريات الصواريخ جاهزة خلف التلال تحت الظلام الكبير. وحدها شاحنات الذخيرة والنفط كانت تسير مسرعة على الطرق باتجاه الحدود. وخلف الأكمة ظهرت جمال ترعى. لم يقم رجال الشرطة المتعبين حتى بالتدقيق في أوراقنا. وكان مراسلو المكتب الإعلامي المشترك المحصورون بزيّهم العسكري ينتظرون جميعاً التحرّك قُدماً في الليل، إلى الشمال ثم إلى الشرق إلى داخل مدينة الكويت أو مباشرة عبر الحدود العراقية باتجاه نهر الفرات. وكانت الطريق على طول شاطئ الخفجي (الطريق الأسهل للوصول إلى الكويت في زمن السلم) تُعتبر مصيدة موت، إذ كانت ملغمّة ومحميّة من أفضل القوّات العراقية. وقرّر المخططون الأميركيون أن الجيش الكويتي وحلفاءه السعوديين سيكون لهم الشرف المريب للاستيلاء على الطريق السريع وتحرير عاصمة الكويت. لذا ومع شعور قريب من الخوف، قمت بجولة مع تلفزيون سكاي Sky ووحدة كوماندوس كويتية متلهّفة لعبور هذا الطريق غير السارّ والمشؤوم. ستكون هناك خنادق مليئة بالنفط وهم ينوون إضرام النار فيها لإحراقنا أحياء. وستكون هناك نيران من المواقع العراقية المتحصّنة بدبّابات T-72 لتدمير عرباتنا على الخط السريع... هكذا أُبلغنا. وعند الفجر المظلم لصباح ٢٥ شباط/فبراير، شربت وفريق تلفزيون سكاي الشاي بالحماس نفسه الذي شعر به والدي على شاطئ صوم عام ١٩١٨، ثم تأرجحنا خلف دورية مدرّعة كويتية ونزلنا عند مركز الجمارك السعودية. وبينما كانت الشمس تسطع في

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الوديان، عبرنا الخنادق المليئة بالوحول السوداء، والخنادق والسدود الترابية التي تمتد كذيل عبر الصحراء الكويتية، والتراب القاتم المبلّل بالنفط. كان من المفترض أن نُدمّر بالنار. لكن لم يكن هناك خنادق حارقة، أو قنّاصون أو حقول ألغام، بل ميلا بعد ميل مدرّعات وشاحنات ذخيرة عراقية مدمرّة، بفعل قنابل ذكية. لقد فرّ العراقيون مبكراً.

تنفّست هواء الفجر. كان كما لو أن الله أعطانا حياةً ثانية. تحرّكنا كيلومتراً تلو الآخر إلى جانب القوافل الكويتية والسعودية، والقوّات العربية، مع بعض القوّات الأميركية الخاصّة التي كانت تنطلق بسيّاراتها في الصحراء قربنا. كانت أجهزتهم اللاسلكية مزيّنة بعلم الكويت الملوّن بالأحمر والأخضر والأبيض والأسود. وكانت إشارات الطريق إلى مدينة الكويت ترشدنا. وفي الوقت الذي توقفنا فيه خلف سحابات منخفضة من النفط المحترق كان الضغط الجوّي يتغيّر مع انفجار قذائف المدفعية.

كانت الجائزة على بعد ٧٠ كلم. . والضواحي على بعد ٥٠ كلم فقط.. نصف ساعة من القيادة.. كان الكولونيل فؤاد حدّاد من الفرقة الكويتية التاسعة يقف في مدينة عزور الكئيبة، بلحيته الكثيفة والذكريات تكاد تخفي ابتسامته، في حين كان الأميركيون يطلقون النار على عدد قليل من المشاة العراقيين الذين فشلوا في الهرب. قال: «أشعر بأنني أحلم». نحن أيضاً شعرنا بذلك.. فبعد عدّة أشهر والكثير من التخطيط (ولنكن هنا صريحين وقُساة)، اخترقت قوّات الحلفاء القوّات العراقية في ساعات قليلة وانطلقنا بسرعة على الطريق السريع مثل الملوك. دمّر العراقيون خطوط الهاتف في الكويت، لكنّ هاتفي النقّال السعودي كان لا يزال فيه إرسال غرب عزور. اتصلت بالمكتب الخارجي لصحيفة الإندبندنت ولم يكن هارفي موريس موجوداً، فقد وجد مراسلنا الخارجي العزيز ريتشارد دودين نفسه منذ وقت طويل في مواجهة جنود عراقيين طلبوا منه أخذهم أسرى. وتحدّثت التقارير من الغرب عن استسلام الآلاف. فبعد وعده «بأمّ المعارك»، أمر صدّام جيشه بالانسحاب من الكويت مثل طفل سئم من لعبة مألوفة، وتعب من القصف والبيانات وهو متلهّف لبدء ملحمة جديدة وخلق هامش جديد من الشجاعة الفارغة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تساءلت كم سيمضي من الوقت قبل أن تُبلغنا بغداد تصميم العراقيين العارم على عدم الاستسلام للولايات المتحدة، وكيف أن العراق وحده واجه القوّة العظمى الوحيدة في العالم، وكيف كان احتلالهم المؤقّت للكويت نصراً عراقياً تاريخياً؟ لم يمض أكثر من أسبوع في الواقع. بينما كنت أمضغ لوح شوكولاتة أميركية في سيّارة هومفي تابعة للقوّات الخاصّة، تذكّرت كيف تمّ الدفاع عن خرمشهر عام ١٩٨٤ بمثل شجاعة ستالينغراد بواسطة الحشود الإيرانية ممّا دفع صدّام بعد ٧ سنوات إلى سحب جيشه من المدينة التي استولى عليها مضحّياً بدماء كثيرة سقطت عام ١٩٨٠. شكّلت الكويت تكراراً لخرمشهر. للمرّة الثانية، وما وصف بالمعارك الكبرى في التاريخ العراقي شُطب من كتب التاريخ. وهناك سيناريو جديد يبدأ غداً.

إلى جانب الطريق السريع إلى مدينة الكويت، كانت توجد كمّيات من الألغام المضادّة للأفراد وشاحنات عراقية مليئة بالصواريخ والقنابل اليدوية وصناديق ذخيرة للرشّاشات، تسطع في الرمال. لقد قطعت أسلاك الكهرباء، وكانت هناك سيّارات فخمة مقلوبة ومسروقة عجلاتها. وأنابيب النفط تنتشر في كل مكان في الصحراء، تنبعث منها رائحة النفط. وكانت الخنادق مليئة بسائل أسود مُزبد. ألم يكن باستطاعتهم إشعالها؟ أم كان الأميركيون أسرع؟ أم أن صدّام تخلّى عنها؟ ماذا فعل العراقيون؟ كان المكان أشبه بأرض ميتة.

وسألت في مدينة الكويت سؤالاً أشدّ وقعاً: أيّ نوع من البشر يقوم بذلك؟ تحوّل النهار إلى ليل، فقد كانت هناك طبقة من الدخان سميكة، وكانت آبار النفط الوطنية تحترق بلون ذهبي وبرتقالي على طول الأفق الأسود.. وهكذا ـ ويجب عليّ هنا استخدام مثل تلك الصور الحضارية التي كانت الأكثر انتشاراً في القرون الوسطى ـ اعتبر «هيرونيموس بوش» الجيش العراقي أكثر إنسانية هذه المرّة. وبعد خمس سنوات، سوف يتذمّر الصينيون من التلوّث والثلج الأسود على جبل إيفرست، والذي سبّبته حرائق النفط الكويتي..

لقد استخدم العراقيون ما يمكن اعتباره الموازي الحديث لعجلة التعذيب. طيلة اليوم، كان الرجال الكويتيون، شباباً وكباراً، يقتربون من سيّارتنا ويروون

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قصصهم المرعبة. قال رجل: «وضعوا ابني على عمود وكسروا رجليه بقطع خشبيّة، ظنّوا أنه في المقاومة، والآن أخذوه معهم مع كلّ الآخرين كدرع بشري». ثم هناك قصّة هيزر رينيسون، وهي امرأة بريطانية متزوّجة بكويتي: «اعتقلوا ابنة عمّ حماتي، وعمرها ١٩ سنة فقط، وقد وجدوا في غرفة نومها جهازاً لاسلكيّاً لاقِطاً ومستقبِلاً .. وبعد ثلاثة أيام جاءوا إلى منزل ذويها طلباً للملابس والأغطية... اعتقد أهلها أنها ستكون بخير.. قام العراقيون بشنقها ورموا بجثتها خارج منزلها... كانت الحروق بادية على يديها ورجليها. بالتأكيد احتفظ العراقيون بالملابس والأغطية».

ربّما كان على المرء السير على أرصفة مدينة الكويت ليرى حجم ما فعله العراقيون وأنه يصل بالفعل إلى درجة جريمة حرب. وقال لنا رجل مُلتحٍ في سيّارته: «سأدلّكم على المسجد الذي أعدموا فيه ١١ شخصاً يوم الجمعة». كان مسجد عبدالله عثمان يقع في حيّ حوَلّي الفلسطيني حيث أشار الرجل الملتحي إلى حائط أصفر: «قال العراقيون إن كل الذين يصلّون سيُؤخذون ويُخطفون، وقد بقي ١١ شخصاً في المسجد ورفضوا الرحيل، لذا جاءوا بهم إلى هنا، وعصبوا أعينهم، وأوقفوهم وظهورهم إلى الحائط، وأطلقوا النار عليهم في وجوههم»، وقال الرجل: «الرصاصات التي اخترقت رؤوس المؤمنين ما زالت مستقرّة الآن في الجدار الأصفر» وأضاف: «لا تُفاجأ، لديّ جاران ظنّ العراقيون أنهما كانا في المقاومة لذلك وضعوهما في مجرور، وأقفلوا الفتحة، ثم صبّوا عليهما النفط وأحرقوهما، وقام ذووهما بدفنهما لاحقاً، فأنت لا تستطيع ترك الجثث في المجارير»... كان رقم ٥ آلاف كويتي مخطوف في الساعات الأخيرة قبل الانسحاب العراقي يبدو خيالياً إلى أن تجد، كما حصل معي في ذلك اليوم، أن العائلات الثلاث التي أقلّتني إلى عدّة مناطق في مدينة الكويت وقع كل أولادها أسرى. لقد أُخِذ الشبّان ببساطة إلى باصات الجيش العراقي بينما كانوا ذاهبين إلى العمل. وقُتِل ثلاثة آلاف رجل وامرأة هنا... يتساءل الكويتيون أيضاً: «مَن يستطيع فعل ذلك؟».. وإنه لأمر مروّع أن تحاول

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تسجيل حُكم الرعب للبحث عن سبب منطقي: كراهية مُزمنة ربّما، أو بعض عناصر وحدة منحرفة من المخابرات السريّة العراقية. لكن سيكون ذلك أمراً خيالياً. ماذا يظنّ المرء حين يرى ما رأيت عندما تجوّلت في رُكام المتحف الوطني الذي أحرقه العراقيون يوم الثلاثاء؟ أو داخل البرلمان؟ أو المكتبة التي ما زالت تحترق في قصر السّيف، الذي دمّرت ساعةَ برجه الذهبية الرائعة قذيفة دبّابة، وحيث وجدت بقايا كتاب نشرته الحكومة الهندية: مختارات من أعمال المهاتما غاندي؟ أيّ نوع من الأشخاص يحرق المتاحف والمكتبات؟ ألن أقوم بكتابة الكلمات نفسها على بعد ٨٠٠ كلم من هنا ، في بغداد، بعد ١٢ سنة بالضبط من الآن؟

خارج المتحف، جرى حرق مجموعة السفن الخشبية الأثرية الكويتية لتصبح رماداً كما أصبح البيت الإسلامي رُكاماً. وقد دُمّرت جدران قصر أمير الكويت في دسمان بالقذائف والجرّافات. واستخدم العراقيون الدبّابات لقصف البرلمان كما تمّ إحراق الفنادق الكبرى بشكل منظّم. وزرع العراقيون متفجّرات في غرف فندق ميريديان. كان ذلك أشبه بأعمال جيش من جيوش القرون الوسطى يغزو وينهب ومن ثمّ يحرق... وحتى على مستوى الأفراد، وجد أصحاب السفن يخوتهم مسروقة، أو غارقة في المرافئ. ووجد أصحاب المحلّات مخازنهم محروقة، إن لم تكن منهوبة. وفي موقع مضادّ للطائرات على الشاطئ حيث لغّم العراقيون الشواطئ ضدّ إنزال بحري أميركي غير موجود، مررت بأكوام من الأحذية النسائية الجديدة صنع فرنسا، ليس فيها واحد مشابه للآخر .. كانت ملفوفة داخل أغطية الجيش العراقي في مجلّات رياضية. لماذا يفعل هؤلاء الجنود ذلك؟ لماذا سرقوا معرضاً لمستحضرات تجميل عيون نسائية؟ كانت هناك صناديق مخازن ذخيرة في باحة المتحف، وحُفر طلقات في جدران المبنى المهدّم الذي كان في يوم من الأيام يضمّ أثمن الكنوز الوطنية الكويتية التي نُهبت منذ فترة طويلة؛ فيمَ كان يفكّر هذا الجندي عندما فتح النار على المتحف؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جرى تدمير كلّ المطاعم المحاذية للشاطئ. وأُطلقت النيران على الأبراج المائية المغطّاة بالزجاج الفني. وفي الأحمدي، وضع العراقيون متفجّرات في حقلَي النفط اللذين يضمّ كل منهما ٢٠ خزّاناً. وكان «البيت الأبيض» البريطاني القديم الجميل محروقاً مع غرفة المراقبة التي تشغّل أنابيب النفط. أفترض أن أحدهم في الكويت شعر بأن شيئاً حقيراً جدّاً حصل هنا، شيئاً شرّيراً بالفعل ألمَّ بهذه المدينة، ليس جيش احتلال فقط ولا حتى ميليشيا حزب البعث العراقي، بل شيء يرتبط جوهرياً بالدكتاتورية والفساد. يقول شعار مكتوب بالأحمر على أحد جدران القصور المحروقة: «فليسقط القذر فهد وصباح وحسني، وعاش صدّام حسين». في المتحف الفنّي الزراعي الكويتي الصغير المنهوب وجدت مُلصقاً لصدّام معلّقاً على حائط، ويقول الشعار: «الأكثر ظفراً بين كل العرب، الزعيم الكبير صدّام حسين حفظه الله»، مَن كان قائل هذه الكلمات؟ أراد العقيد مصطفى عوضي من حركة المقاومة الكويتية إطلاعي على ما يجري في منطقة سكنية في ضاحية كيوان، فأخذني إلى مدرسة كان يستخدمها العراقيون مركزاً للتحقيق، وفي أحد الصفوف عرّفني على ستة عشر جندياً عراقياً. كانوا جالسين على الأرض، مُقيّدي الأرجل، غير حليقين وبؤساء. كانوا رجالاً عاديين تعبين، وجوههم وسخة وملابسهم قذرة. قال العقيد: «كانوا مسرورين بالاستسلام». «أنظر، نحن نعطيهم الشاي والطعام، وأعِد أنني سأسّلمهم بدون أذى إلى الجيش الكويتي».. كان اثنان من الرجال مصابين بجروح في الوجه، وكانت ضماداتهما جديدة وقد ابتسما عندما سلّمت عليهما.. قلت للعقيد بالعربية إنني سأبلغ الصليب الأحمر بوجود هؤلاء الأسرى. لا يستطيع المرء سوى الشعور بالأسى لهؤلاء الشباب المهزومين، وابتساماتهم الحزينة!! إذاً، أيّ نوع من الرجال اغتصب الكويت؟

أخيراً، كانت هذه فرصتي المثاليّة لأسأل التالي: الفرصة كيف كان الأمر تحت القصف وتحت ضربات القنابل الموجّهة والـ GBUs والدايزي كاتر؟ كيف تكون حال جندي عراقي تهاجمه القوّات الأميركية؟؟ قال محمّد: «قَصفنا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الأميركيون والإنكليز». تعرّفنا على كل الطائرات ف١٥، وف١٦، وب٥٢، وجاغوار، وعرفنا ما سيحصل». كان محمّد جندي احتياطي عراقي عمره ٣٣ سنة، ومن أكبرهم سناً، وكان رفاقه السجناء يومئون بالموافقة بينما كان هو يصف معاناتهم. حرّك يده اليسرى بسرعة من اليسار إلى اليمين بينما كان يصف في حركة سريعة تأثير قنبلة انشطارية: «الانفجارات حصلت في كل مكان، قنبلة كبيرة وعدّة قنابل صغيرة في كل مكان». بعد كل الروايات وصور أفلام الفيديو حول القنابل، هذا ما كان الوضع عليه في الجهة الأخرى، بلسان الذين حاولوا النجاة في «محيط الهدف المهمّ». وصف شوارزكوف العراقيين بأنهم لا يأكلون جيّداً ويعيشون في خوف من فِرق الإعدام. وبشهادة محمّد ورفاقه كان الأمر صحيحاً. لم يأكل أيّ من الجنود العراقيين شيئاً سوى الأرزّ والخبز الرديء لعدّة شهور. وتحدّث الجميع بازدراء عن القوّات الخاصّة. استناداً إلى عليّ (٢٢ سنة)، وهو جندي من الديوانية، كانت القوّات الخاصّة تسيطر على فِرق الإعدام «كانوا يأتون لرؤيتنا على الجبهة في الوفرة ـ الكويت ـ ويبلغوننا ما سيفعلونه بنا، قال لنا أحدهم أننا نعرف ما سيحلّ بنا إذا هربنا، ودعا أحدنا للذهاب والنظر إلى جثث خمسين جندياً أُعدموا. لكن بعد بضعة أيام، في نهاية الحرب، فرّ صديق لي اسمه سلام حنون وهو جندي من العمارة، فأمسكوا به وأعادوه، ثم جعلونا نشاهد إعدامه، وقد وقف ينتظر موعد إعدامه، ثم شتم صدّام حسين، وعندها أطلقوا النار عليه. كان عمره ٢٣ سنة».

كان وصف محمّد لفِرق الموت مُرعباً. كانوا كلّهم أعضاء في حزب البعث، بدّلوا أسماءهم حتى لا يتمّ التعرف عليهم أبداً. فالذي اسمه محمّد يدعونه حسين مثلاً، وقال: «ليست لديهم مشاعر ولا رحمة». لم تُرهب الإعدامات عليّ. «في النهاية حاول عشرة منا الهرب، تحت القصف، فأُلقيَ القبض علينا، وقُيّدت أيدينا وعُصبت عيوننا، وقالوا إنهم سيقتلوننا. لكن أتى أمر الانسحاب واحتاجوا إلينا لمساعدتهم في قيادة الشاحنات إلى خارج الكويت». وقال النقيب بعد فترة: «إذا كان الفرق بين الحياة والموت على الجبهة العراقية مسألة تكيُّف تقني، فقد حبّذ الجنود مخاطر قصف الحلفاء». وقال محمّد: «في الليل، كنا نختبىء دائماً في مواقعنا في التراب. كنّا مختبئين هناك طيلة الوقت،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

منتظرين انتهاء القصف وبدء الهجوم البريّ. كان أحد أصدقائي عبّاس، عطشاً ذات ليلة، عندما كانوا يرمون قنابل انشطارية علينا، وظلّ يشتكي أنه يحتاج إلى ماء. قلنا له لا تخرج إلى هناك فهذا خطير جدّاً، وكان الماء موجوداً في مخبأ آخر على بعد عشرة أمتار فقط. غادر عبّاس رغم تحذيرنا، وعلى الفور أصابته شظية في رأسه وقتلته. كان علينا تركه هناك ولم يُدفن».

اعتقد غسّان، وهو جندي احتياطي عمره ٣٠ سنة، من الناصرية، أنه كان هناك أمل ضئيل للاستسلام إلى الحلفاء، لذلك سلّم نفسه مع رفاقه للمقاومة الكويتية منذ ثلاثة أيام وقال: «بعد أن قرأنا المنشورات التي ألقيت علينا أردنا الفرار، وأبقينا المنشورات معنا طيلة الوقت، وصنعنا أعلاماً بيضاء لنلوّح بها لطائرات الهليكوبتر إذا جاءت، لكن كانت أمامنا ألغام كثيرة.. وفي البداية كنا على بعد ٤٠ كلم من الحدود... وقال العراقيون إنهم حصلوا فقط على الماء والأرزّ والخبز المخلوط بالرمل منذ تمركزهم في الكويت. «وفي العراق كانت حصّتهم العسكرية من الطعام ٥ كلغ من الطحين شهرياً وثلاث قطع من الخبز يومياً».

تكلّم العديد من الأسرى عن الشعور بالثكل والعذاب في أوساط عائلاتهم في العراق. كان طفل عدنان البالغ ثمانية أشهر يعاني من إسهال حادّ وحرارة مرتفعة عندما رأى هذا الجندي عائلته لآخر مرّة.. لم تستطع عائلته الحصول على الأدوية من الطبيب بسبب حصار مجلس الأمن ولا يعلم ما إذا كان طفله ما زال على قيد الحياة. وتوفّيت شقيقة غسّان، نضال، بعد إنجابها طفل بيومين، لأن الأُكسجين كان مفقوداً في مستشفييْن، قال: «هذا بسبب الحصار». كان هذا هو الدليل الأوّل الذي وجدته، حتى قبل تحرير الكويت،على أن عقوبات الأمم المتحدة كانت قاتلة.

فاقة ومأساة في الوطن، فِرق إعدام، جوع، و٢٤ ساعة قصف على الجبهة، كلّها معاً دمّرت معنويات ١٦ جندياً تحدّثوا إليّ.. تحدّث أحدهم بمرارة عن صدّام، للتأثير على سجّانيه الكويتيين دون شكّ، لكنه لم يكن خائفاً من خيانة زملائه له لاحقاً، قال: «أودّ العودة إلى عراق لا وجود فيه لصدّام

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حسين». كانت تلك أمنية ملايين عدّة من العراقيين. قبل يوم كنا نحن في الغرب نحثّ الشعب العراقي على القيام بذلك وعلى الثورة وتحطيم الطاغية. كم كان من السهل قيامنا بذلك؟ كم بدا ذلك طبيعياً؟ ذهبنا بعد ذلك إلى الحرب بالتحالف مع العرب. رجال صالحون وحقيقيّون، من الديانتين المسيحية والإسلامية، حاربوا معاً ضدّ صدّام. هذه هي الصورة التي أُعطيت عندما جلس شوارزكوف والأمير خالد القائد الأعلى لكلّ القوّات الغربية في صفوان في ٣ آذار/مارس ١٩٩١، لترتيب وقف إطلاق نار عراقي والسماح لصدّام بالحفاظ على طائرات الهليكوبتر وما تبقّى من قوّات الحرس الجمهوري سالمة.

في السنوات التي تلت، أثبتت مذكّرات الذين يُفترض أنهم قادوا هذه الحرب أن التحالف كان فريقاً وأن تقاريرنا عن الحرب مُعيبة مثل الرجال الذين خاضوها.. وقد استخدم الأمير خالد شركة علاقات عامّة أميركية لإدارة مؤتمراته الصحفية.. في أقصى المدخل المغطّى بالسجّاد الفاخر في وزارة الدفاع السعودية، كان رجل أميركي ضخم من أصل إيرلندي اسمه لينش من شيكاغو يقف خلف الأمير خالد يختار الصحفيين الذين يسمح لهم بطرح أسئلة، وكان يقترح على القائد السعودي كيفية الردّ. كان ذلك لجعل الأمر ألطف ولتقديم أداء مرحّب به. وقف الأمير خالد أمام كاميرات التلفزة وأعرب عن شكره العميق للشعب الأميركي لإرساله أبناءه للدفاع عن أرضه، بينما كان السيد لينش يربّت بلطف على كتفه. كان عرض الأمير أكثر تميّزاً بشعر كثيف مفروق ومنخفض، ويبدو أنه قام بزراعة شعر في رأسه مؤخّراً.

قال الأمير خالد: «كان قرار الملك فهد دعوة القوّات الأميركية إلى السعودية أحد أشجع القرارات في حياتي».. ولم يجد هو أيضاً أيّ خطأ في دعوة ضيوف أجانب. وقال إن الولايات المتّحدة ستحترم القوانين السعودية كما احترمت السعودية قوانين الولايات المتحدة. وكانت لفظة «الاحترام» هي الكلمة التي يستخدمها السعوديون دائماً؛ سيحترم الأجانب الإسلام، ويحترمون العرب، وبالطبع سيحترم العرب أميركا. وعبّر خالد عن احترامه لشوارزكوف وكذلك بادله

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

شوارزكوف باحترام قيادته. وبدا لبعض الوقت أن لا نهاية لهذا الإعجاب المتبادل حتى عندما تركت القوّات السعودية مواقعها في الخفجي، بعدما شقّ السعوديون والقطريون ومرتزقتهم من الباكستانيين طريقهم إلى داخل المدينة. كانت هناك ابتسامة الأمير الدائمة، وهو يتجوّل وعلى رأسه قبّعة زرقاء مزيّنة بنجوم الجنرالية الأربع معلناً فخره بجيشه وبحلفائه الأميركيين.

ولك أن تتخيّل مفاجأة الأمير خالد عندما تصفّح مذكّرات شوارزكوف بعد سنة، ووجد أن احترام القائد الأميركي لم يكن عميقاً بقدر ما تراءى له.. واستناداً إلى شوارزكوف فقد اشتكى خالد من أن القوّات الأميركية كانت ترتدي قمصاناً عليها خرائط السعودية (كانت خرائط سرّية)، وأن حاخاماً نفخ ببوق روش هاشانا على أرض إسلامية (كان الحاخام في أميركا وكتب في صحيفة إسرائيلية)، وأن الأميركيين أحضروا راقصات إلى الظهران.. وأن خالداً طلب من الأميركيين شنّ هجومهم من تركيا عوضاً عن السعودية.. وأنه أبلغ شوارزكوف بأن السوريين لا يرغبون في القتال... لقد اختير خالد لهذا العمل كما كتب شوارزكوف من قِبل جنرالَيْن أميركيَّيْن. وكان على السعوديّين توقّع مثل هذه المعاملة. ففي الأشهر التي تلت تحرير الكويت برزت السعودية باعتبارها الزبون المالي الرئيسي لأميركا في الشرق الأوسط، دولة تابعة تدعم تمويل حلفاء واشنطن الأفقر في الشرق الأوسط (مصر على سبيل المثال)، وتشتري شكوك الأقلّ حماسة للسياسة الأميركية (سوريا خاصّة)، ومقابل دعم القوّة العسكرية والسياسية الأميركية أصبحت السعودية مموّل واشنطن.

وعلى ما يبدو، فقد شنّ الأمير خالد بمرارة سلسلة تهجّمات على المحترم شوارزكوف متّهماً إيّاه بتلفيق روايات وتزييف حقائق لإعطاء نفسه كل الفضل بالنصر على العراق، بينما وجّه الطعن إلى الجميع.. مسكين خالد! هل اعتقد الأمير خالد حقاً أن الأميركيين قبلوا به جنرالاً بأربع نجوم مع شوارزكوف ودولابيلير؟ وعلى سبيل المثال، فقد أخفق في الاعتراض على إحدى الفقرات الأكثر تهجّماً في كتاب شوارزكوف، ربّما لأنه فشل في فهم معانيها، والقرّاء مدعوون لملاحظة الإهانة..:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

«كان خالد مثالياً (بين مزدوجين)، درس في ساندهرست في الكلّية العسكرية البريطانية والتحق بكلّية سلاح الطيران الأميركي في قاعدة ماكسويل الجوّيّة، نال درجة ماستير في العلوم السياسية من جامعة أوبورن Auburn، وكان الأمير الأعلى رتبة في القوّات المسلّحة السعودية، ولم تكن معلوماته العسكرية بمستوى أهمّية دمه الملكي بما أن كل السلطة تقريباً في السعودية محصورة في دائرة ضيّقة من العائلة المالكة. كان ولديه، بعكس الجنرالات الآخرين، السلطة لتوقيع شيكات للنفط».

ولذلك كان الأمير خالد مهمّاً، بالنسبة إلى حرب الخليج، بعد أن قلّصت مبيعات الغرب لكمّيات كبيرة من الأسلحة شعبية بوش الذي وعد بتخفيض مستوى التسلّح في الشرق الأوسط. فقد انتهت الحرب بربح صافٍ للتحالف الغربي، وقاتل فيها شباب من ديترويت وغلاسكو.. هل يستطيع شريكان كهذين إظهار قدر أكبر من الاحترام التجاري(*) المتبادل؟

والغريب أن قائديْ أكبر جيشين غربيين في الخليج يفردان قسماً كبيراً من مذكّراتهما محاوليْن إقناعنا بأنهما يحترمان العرب والمسلمين في الشرق

(*) أنفق العرب ٨٤ مليار دولار في عملية عاصفة الصحراء ودرع الصحراء والتي سمّيت بشكل مأساوي في إحدى المراحل بأزمة الخليج وحربها ١٩٩٠ ـ ١٩٩١. واستناداً إلى تقرير اقتصادي عربي نُشر عام ١٩٩٢، فإن هذا الرقم هو ثلاث مرّات أكثر ممّا دفعه السعوديون لحرب صدّام ضدّ إيران خلال ثماني سنوات. ويقدّر الأمير خالد بن سلطان مساهمة السعودية وحدها في نزاع ١٩٩١ بأكثر من ٢٧,٥ مليار دولار أي أكثر قليلاً ممّا قدّمت لصدّام. إجمالاً، تكبّد العرب خسارة مقدارها ٦٢٠ مليار دولار بسبب الغزو العراقي والنزاع اللاحق، وكانت الكويت الأولى في المساهمة بالموارد المالية للحرب عندما وافقت على دفع جزء من ٦ مليارات دولار لانتشار القوّات الأميركية في أيلول/ سبتمبر ١٩٩١. اشتكت أميركا في آب/ أغسطس ١٩٩١ أن السعودية والكويت ما زالتا مدينتين لها بـ ٧,٥ مليار دولار من حصّتهما في تكاليف حرب الخليج، آنذاك كانت كل منهما قد ساهمت بـ ١,٧ و١٢,٥ مليار دولار. كان يمكن للشرق الأوسط أن يثبت حقيقة اقتصادية جديدة في عالم الاقتصاد: وهي أن الحروب يمكن أن تخاض للفائدة كما للنصر، وهو درس عزّزه غزو العراق حتى انتهى الاحتلال إلى كارثة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الأوسط.. خلال زيارته لمنطقة الخليج كقائد للقيادة المركزية الأميركية عام ١٩٨٩، ادّعى شوارزكوف أنه معجب بطريقة العيش العربية، وقام برحلة صيد مع الشيخ محمّد بن زايد آل نهيان في الإمارات.. وحتى أنه ارتدى ملابس كويتية للعشاء. وقد رحّب به نُظراؤه في بيوتهم ومساجدهم، وكتب شوارزكوف «إنهم يعرفون الآن إعجابي بحضارتهم».. وبدا الجنرال السير بيتر دولابيلير شديد التأثّر بالحضارة العربية، وكتب: «أحببت العرب واحترمتهم وفهمت طرق عيشهم، وقدّرت العرب جيّداً وكذلك حضارتهم الممتازة». وفي صفحات لاحقة تفاخر مجدّداً بفهمه للعرب ولطرق عيشهم. غير أن جزءاً كبيراً من خدمة دولابيلير السابقة في الشرق الأوسط، مطاردة كضابط في المخابرات. في عمّان قال إنه فشل في القضاء أو القبض على ثلاثة زعماء عرب معارضين لكنه نجح في إجبارهم على الرحيل إلى المنفى.. وفي وادي روضة، هاجمت مخابرات SAS مركزين قويّين للثوّار، وقضت عليهم بفعالية.

ومن المستغرب أن دولابيلير لم يذكر حصار السفارة الإيرانية في لندن من قِبل المخابرات (SAS) التي كان يرأسها عندما اقتحم المبنى وأنقذ الرهائن المدنيين الموجودين هناك، ثم عمد إلى إعدام الخاطفين ما عدا واحداً منهم عربياً.

ربّما كان من الضروري بعد عدّة شهور من حرب الخليج جعل العلاقة رومانسية بين الغرب والعرب، بين المسيحيين والمسلمين، من دون تبسيط، وإعادة بناء أسباب قيام الجيوش الغربية بحملتها الصليبية لإنقاذ أضخم بُحيرة نفطية في العالم، ولمنع صدّام من أن يصبح أكبر مسيطر على النفط. وقد أورد شوارزكوف الذي يفهم على الأقلّ حاجة الولايات المتحدة إلى الحفاظ على علاقتها مع العرب أن أحد أهداف الحرب كان القضاء على قدرة العراق على تهديد العالم العربي.. وليس بعيداً عن الحقيقة ارتياب الملايين من العرب في كون الحرب وغزو العراق إنما كانا للإطاحة بقدرة العراق على تهديد إسرائيل، ويكفي لتأكيد ذلك الارتياب ملاحظة الجهد الكبير الذي بُذل لتدمير قواعد صواريخ سكود العراقية المتحرّكة والتي كانت تُطلق على إسرائيل.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لم يُشر شوارزكوف أو دولابيلير إلى قتل مئات الفلسطينيين في الكويت وعملية التطهير العنصري لعشرات آلاف آخرين على يد الكويتيين بعد الحرب.. وقد أتى شوارزكوف على ذكر الفلسطينيين ثلاث مرّات في كتابه. وأظهرت المرّة الثانية عدم إحساس من قبله ممّا أدّى إلى إثارة غضب الأمير خالد. ونورد محادثة بين الجنرال والأمير خالد جرت في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠ بعد قتل الشرطة الإسرائيلية ٢١ فلسطينياً في القدس. يقول شوارزكوف: «لقد حذّرت الجنرال خالد من التسرّع في إدانة الدعم التاريخي الأميركي لإسرائيل خاصة بعدما استوعب الشعب الأميركي ١٠ حوادث موت لجنود سقطوا بينما كانوا يدافعون عن السعودية». ذلك الشوارزكوف يستطيع مقارنة حوادث عسكرية مأساوية مع ما كان بالفعل مجزرة ممّا يظهر مدى ابتعاد «إعجابه بالحضارة العربية» عن الحقيقة.

انتقد الرجلان بعنف ظلم صدّام، وحتى قصّة دولابيلير كانت غير صادقة هنا. ففي نقطة ما تكلّم عن حرب صدّام ضدّ «التوسّع الإيراني»، في الوقت الذي كان فيه صدّام هو التوسّعي. كان العراق هو الذي غزا إيران عام ١٩٨٠ وليس العكس. إذن ثمّة الكثير من الفهم «لطريقة العيش العربية!». ولو كان حقّاً هناك احترام للعرب والمسلمين لكان من الإسراف في نهاية الحرب أن يطلب دولابيلير بفرح غامر من الشعب البريطاني «الخروج إلى الشارع وقرع أجراس الكنائس»، في الوقت الذي كانت فيه عشرات الآلاف من جثث الجنود العراقيين المسلمين تنتشر في الكويت والعراق ويُلقى الكثير منها في مقابر جماعية مجهولة الهوية. وبغض النظر إن كان مدركاً لمضمون حديثه أو تأثيره، فإننا نتساءل إن كان هناك تجلٍّ أوضح من ذلك لانتصار المسيحية على الإسلام؟ لكن حتى ترويج دولابيلير لنفسه لم يؤثر على الأمير خالد. فعندما ظهرت مذكّرات الأخير عام ١٩٩٥، شعر بالقدرة على إبلاغ قرّائه بأن الموافقة على طلب دخوله الكلّية الحربية في قاعدة ماكسويل الجوية تدلّ على أن الله كان يوجّه عمله ليعدّه لما سيأتي. كان متأثّراً عندما قارنه الدبلوماسيون الصينيون بهنري كيسنجر.

قبل الحرب، نام خالد في غرفة تحت غرفة وزير الدفاع السعودي. وأبلغنا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الجنرال الذي سمّى كتابه «مقاتل من الصحراء»: «عانيت من الوحدة، ولتهدئة نفسي وإبعادها عن الحرب، خصّصت الليل لمشاهدة مسرحيات أميركية كوميدية في التلفزيون، وبعد مشاهدة إحداها لمدّة نصف ساعة كنت أنام بهدوء». وقد زاد الأمر سوءاً ما نُقل عن جداله مع وزير الدفاع الفرنسي.. فقد قارن الأمير خالد نفسه بشكل غير مباشر بتشرشل الذي كان هو وعابر اللورين (ديغول) من الصعب مجارتهما. وقد انزعج لأن كرسيّ شوارزكوف كان أكبر من كرسيّه، وأصرّ على أن يقوم شوارزكوف بزيارة مكتبه للاجتماع به وليس العكس، ووصف معركة الخفجي بالمعركة المحورية في الحرب. وأبلغنا خالد بكآبة أن مهمّته كانت أكثر صعوبة وتعقيداً من مهمّة شوارزكوف الملكة. فهو لا يستطيع الانحناء عندما يحظى بتكريم من الملكة إليزابيت، ويذهب لتسلّم أوسمة الشرف والأوسمة الأخرى من فرنسا والبحرين وهنغاريا والكويت، والمغرب والنيجر وعمّان، وقطر والسنغال وبالطبع من السعودية. وقد أفادنا الجنرال أن ذلك، «شيء للتاريخ... بالنسبة لجنديّ عربي في حرب»، مضيفاً بسرور: إنني أرغب في شكر الذين قدّموا لي الأوسمة».. هل هذا ما تعنيه الجندية؟ حكى لنا خالد عن الحاجة إلى حماية حضارة السعودية وتقاليدها.. ومع أنه لم يقل ذلك، فقد تعني الحضارة قطع رؤوس المجرمين وإطلاق النار على مؤخّرة الرأس إذا كانت المحكومة امرأة، وتمييزاً فعلياً لكلّ الطبقة النسائية في المملكة. وأفرد صفحتين للحديث عن الحاجة إلى تقديم الولاء للعائلة المالكة، وهو نظام يقوم بموجبه خمسة آلاف أو أكثر من الأمراء بالسيطرة على أراضي ٩ ملايين نسمة بعد دعوة الأميركيين لحمايتهم. أما الأمير سلطان، والد الأمير خالد كما يذكّرنا باستمرار، فقد كان وزيراً للدفاع ولعب دوراً مهمّاً مثل دور ديك تشيني، وزير الدفاع الأميركي. والأمير سلطان هو الذي اقترح أيضاً أن يقوم الغرب مؤقّتاً بعقد اتفاق مع صدّام بينما تستعدّ الولايات المتّحدة للحرب.

في كتاب خالد الصحراوي، هناك من وقت لآخر نقاط بارزة حول كيفية تسلّل المخابرات العراقية إلى معسكرات اللاجئين في السعودية، على سبيل المثال، وخطأ شوارزكوف الفادح في صفوان عندما سمح للعراقيين باستخدام

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

طائرات الهليكوبتر بعد وقف إطلاق النار. قال الأميركيون للجنرالات العراقيين المذهولين: «لا مشكلة مطلقاً، هذه نقطة مهمّة جدّاً ونريد التأكّد أنّ باستطاعة طائرات الهليكوبتر التحليق فوق العراق». ردّ العراقيون بالشكر وذهبوا لذبح الشيعة في البصرة والأكراد في الشمال. استشهد الأمير الطيّب بكلاوزفيتز، وأخذ إجازة بعد الحرب ليستعيد رباطة جأشه بعد إحباط الأحداث الكبيرة التي لعب دوراً فيها. لطالما عانى وتنفّس بصعوبة نتيجة الكوابيس حول القتال والموت... هل قمت بعمل جيّد؟ أترك ذلك لحكم المعاصرين وللتاريخ.

بينما كان الأمير خالد يتعافى من الحرب ويستعدّ للإجازة كانت فلول الجيش العراقي تتوجّه إلى العراق تحت ضربات الأميركيين الشرسة. بعد وقف إطلاق النار على سبيل المثال، قام الجنرال باري ماكوفري من الوحدة ٢٤ الأميركية بشنّ هجوم لمدة ٤ ساعات ضدّ القوّات العراقية المنسحبة قرب نهر الفرات مدمّراً ٧٥٠ عربة بما في ذلك باص يقلّ نساء وأطفالاً، قاتلاً آلاف الجنود. وسُمِع أحد عناصر طائرة أباشي يصرخ قائلاً: «قُلْ مرحباً لله»، بينما كان يطلق جحيماً من الصواريخ عليهم. لم يُقتل أي أميركي(*). وقد قابل مراسلو وكالات الأنباء الغربية في بغداد الجنود الهاربين الذين وصفوا المجازر في أرض المعركة بالمرعبة. وأبلغ عراقي وكالة الأسوشيتدبرس: «كان ظلام وكنت أسير على الجثث، والأيدي، والأرجل ورؤوس الجنود الموتى». ووصف آخر كيف أُخذوا في شاحنات عسكرية وسيّارات من أرض المعركة وجثث الموتى تغطّي الخطوط الاثني عشر للطريق السريع: «لم نتوقف لأخذ الجرحى، هربنا بأرواحنا».

في السنوات اللاحقة قابلت العديد من الجنود العراقيين الذين نجوا من تلك الأيام الرهيبة الأخيرة. كان الملازم إحسان الصافي ضابطاً صغيراً في الوحدة الهندسية ١٥ من الجيش العراقي: «عندما وجدت نفسي وصديقاً لي تحت

(*) قام بالتحقيق في هذه المجزرة المشينة الشخص نفسه الذي كشف التعذيب في سجن أبو غريب عام ٢٠٠٤، سيمور هرش. وكالعادة، فشلت اللجنة الإعلامية في كشف حجم عمليات قتل الفرقة ٢٤ وقدّمته على أنه هجوم عراقي على الأميركيين.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

القصف الجوّي الأميركي لجسر كويتي مليء بجثث جنود آخرين كانوا ممدّدين على الأرض بينما يسعى جنديّان آخران للهرب إلى الأمان من ناقلة جند مصفحة». وقد أدّى انفجار القنبلة الأميركية إلى قذف ناقلة الجند المهجورة نحو صديق الصافي. وعندما وقف إحسان على قدميه أمسك بيد صديقه «لكن لم يكن هناك أحد متعلّقاً بها». كان العراقيون يحترقون أحياءً في زحمة القوافل على الطرق السريعة شمال الكويت. وكان العديد منهم مجنّدين إجباريين. وكان بعض الناجين الذين التقيتهم من الأكراد والتركمان في العراق وبعضهم من الأرمن الذين قُتل أجدادهم في مجزرة ١٩١٥. وقد تحدّثت مع كردي نجا من جحيم النار على الطريق السريع وعاد إلى العراق، ليجد نفسه بدون مأوى في الجبال إلى الشمال عندما سحق صدّام الانتفاضة التي شجّعها الأميركيون.

امتدّ دمار طريق صدّام إلى مئة كلم على الطريق السريع من مدينة الكويت إلى الحدود العراقية في صفوان؛ إنها طريق الرعب والدمار والعار بسبب مئات الجثث المقطّعة الممتدة على الطريق نتيجة تدمير آلاف الدبّابات العراقية والعربات المصفّحة التي تنتشر سوداء ومهجورة هناك: عار لأن جنود صدّام ملأوا سيّاراتهم المصفّحة بالسرقات، عار أيضاً لأننا عاقبناهم جميعاً بموت مهين وغير ضروري. لقد انتشر الموتى على طول الطريق على بعد ٨ كلم من مدينة الكويت، وكنت تستطيع رؤيتهم كلّما اقتربت من الحدود العراقية حيث آبار النفط المحترقة تقذف النار إلى السماء. بالطبع إن الرعب هو الذي يصدمك أولاً. ثمّة جثة جنرال عراقي نصفها خارج الليموزين المسروقة، شفتاه ممزّقتان ويداه ممدودتان على الطريق بشكل مهين على بعد ٢٥ كلم إلى الشمال من المدينة، وترى شارات الجنرال على لباسه المرقّط. لقد اصطدم بمؤخّرة مصفّحة في عمليّة التقهقر الكبير. وفي مكان أبعد، تنتشر الجثث على الطريق السريع قرب الدبّابات وشاحنات الجيش. هناك سقط جندي عراقي على جانب الطريق وتقوقع، يداه على وجهه وظهره ممزّق.

وعندما حضرت سيّارة الإسعاف ونقلت جثّته لاحظنا أن رجله اليسرى فُقدت كلّياً. وكان جنديان متفحّمان في مقصورة قيادة شاحنة تلقّت قذيفة مباشرة

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

من الجوّ، وكانا يشخصان إلى الطريق باتجاه الوطن الذي لم يصلا إليه. كان المدنيون الكويتيون يقفون فوق الجثث وهم يضحكون ويأخذون الصور لبقايا أجساد لجنود العراقيين. ويبدأ الدمار الكبير على بعد ٢٥ كلم أخرى تحت جسر يقع في أسفل تلّ صغير يُسمّى متلة، حيث مات العراقيون. ماتوا بالمئات لا بل بالآلاف عندما وقعوا في فخّ القصف الأميركي والبريطاني للطريق على قمّة التلّ، وربّما أصيبوا بالذعر عندما تكدّسوا في شاحناتهم ـ ٢٠ في كل واحدة، في سلسلة طولها ٦ كلم ـ وقام الطيّارون الأميركيون والبريطانيون باصطيادهم. كانت هناك دبّابات وسيّارات شرطة مسروقة، ومدفعية وبطّاريّات صواريخ وسيّارات ليموزين مسروقة، وسيّارات برمائية وجرّافات وشاحنات. لم أُحصِ عدد الجثث العراقية المدفونة في الحطام المحترق أو المغروسة في التراب.. كان ذلك باعتقادي من حيث المستوى والإذلال شبيهاً إلى حدّ ما بانسحاب نابليون من موسكو. ربّما كانت فرقتان كاملتان منتشرتين على الطريق. لقد غادر جيش نابليون موسكو ملتهبة وحاول جيش صدّام إحراق الكويت، لكنّ الفرنسيين لم يقوموا بهذا القدر من النهب. بين الأسلحة والمدرّعات وجدتُ عدداً كبيراً من السجّاد النفيس وعقود اللؤلؤ وشاحنة مليئة بالمكيّفات وببدلات رجالية جديدة وأحذية نسائية وعطور ومساند وألعاب أطفال وكمّية من نُسخ القرآن فوق خمس ساعات كبيرة مسروقة. وكانت هناك أقنعة وأحذية مضادّة للغاز، فقد أعدّ العراقيون أنفسهم لحرب كيميائية. وهناك آلاف البنادق وقاذفات الصواريخ المحمولة وقنابل وسكاكين. توقّفت سيّارتي بجانب صناديق من القنابل اليدوية والبنادق. واكتشفتُ العديد من الدبّابات والسيّارات المدرّعة مهجورة بشكل مرعب بينما كانت المفاتيح ما زالت في داخلها ومحرّكاتها تعمل. وجدتُ شاحنة ملأى بحقائب من عُلب الكبريت والسجّاد وخلّاطات طعام وأصابع أحمر الشفاه. وهناك علبة موسيقى لطفل في الرمل ما تزال تعزف سنة سعيدة جديدة وسنة جديدة سعيدة. معدّات عراقية، وخناجر عسكرية، وأحزمة، وقبّعات وخوذ منتشرة في كل مكان مع أسماء أصحابها مكتوبة على القطع الجلدية. في أعلى سيّارة مصفّحة، كان محرّكها لا يزال يعمل، وجدتُ خوذتَي الملازم رباح حميدي والجندي جمال عبدالله، اللذين لم تكن لديهما فرصة، إذ كان أمام

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عربتهم ٣ كلم من السيّارات العراقية العسكرية المحترقة، وفي نهايتها تقف قوّة من الجنود الأميركيين من الوحدة المدرّعة الثانية (على معاطفها عبارة "Hell on wheels" جهنّم تحت أحذيتنا) المسؤولة بشكل مباشر عن مصير آلاف السيارات المزدحمة في الأسفل. لا يستطيع أيّ مصوّر أن ينقل صورة صادقة عن الفوضى غير الطبيعية والمثيرة للشفقة التي أعطاها صدّام حسين تسمية «انسحاب منضبط». حول المذبحة والغبار، كانت هناك سيّارتا لاندروفر من وحدة المدفعية الملكية البرية، يرفرف فوق كل منهما علم كبير للاتحاد، وكان هناك الرقيب بوب هولز والمدفعي باري باكستر، اللذان أرشدانا إلى الطريق على الرمال لنصل إلى جسر متلة شاقّين طريقهما عبر القنابل الانشطارية غير المنفجرة والقذائف الحيّة. قال لي باكستر: «لا تستطيع بالفعل معرفة ما تسبّبه الحرب حتى ترى بنفسك! لماذا يحصل ذلك؟ قوّات صدّام لا اعتبار لها، هل هي مُعتبرة؟ لم يرغبوا في الذهاب إلى الحرب، كانوا يريدون الاستسلام فقط، إنهم أعداؤنا، لكنهم لم يكونوا راغبين في الحرب أصلاً، إنه لمشهد مؤسف». وكان كذلك بالفعل. كان الأسرى الذين رأيناهم بقايا رابع أكبر جيش في العالم غير حليقين متعبين يقودهم كالقطيع جنود فرقة الخيّالة من الفوجَين ١٦ و٥ يسيرون في الصحراء على الأقدام، ويلقون بأسلحتهم الفردية على كومة من الأسلحة ارتفاعها بين ٤ و٥ أمتار تحرسها القوّات الأميركية. على طول الطريق نحو الحدود العراقية، وجدنا حُطام الانسحاب العراقي، الدبّابات والسيّارات المصفّحة وعليها براميل الماء منتشرة في الصحراء على الخطّين، وبعضها لا يزال يحترق. كان الأميركيون ينظرون إلى كل ذلك بمزيج من الخوف والارتياح.

أمضى الملازمان أندرو ناي وروي مونك من الكتيبة «س» C من الوحدة الأولى من فرقة ستافوردشاير فترة من الصباح وهما يدفنان الموتى الذين كان بينهم نساء وأطفال، كانوا لاجئين عراقيين أو كويتيين أو مصريين هاربين من جبهة القتال سقطوا في آخر هجمات جوّية أميركية وبريطانية. لقد خسر الملازم ناي أحد رجاله في القتال، قال: «قُتل أحد رفاقنا، أصيب في بطنه بصاروخ

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

محمول بعدما رفع بعض العراقيين العلم الأبيض ومن المحتمل أن بعض العراقيين لم يعلموا باستسلام الآخرين. عندها أصبحنا معتادين على الأسرى، ورأينا العديد منهم، وسمعنا عن العدد الهائل لأسرى الحرب في الإذاعة، عليك أن ترى ذلك لتصدّق. يوجد أفخاخ صغيرة هنا وهناك. وكان العراقيون الذين ماتوا على الطريق قد نهبوا مدينة الكويت، ولكنني خشيت التفكير في ما سيكون عليه الوضع لو كنت مكانهم؟». إنّ تصوّر الموت (نهاية الحياة)، يجعل المرء يشهق من الرعب بسبب ما يلي ذلك من فراغ وفناء. لكن أن تصبح واحداً من هذه المخلوقات المحترقة في وقت الضحى، في ثواني الألم الذي لا يوصف، في الإدراك القصير الأمد، في معرفة عذاب كهذا، كان كل ذلك بالتأكيد كثيراً جدّاً. بعد حين نظرنا إلى تلك الوجوه المتفحّمة، وحاولت استخلاص شيء منها، أعتقد أنه بعض الغموض الرهيب الذي لم أكن مخوّلاً البحث عنه، والذي لم يكونوا مخوّلين كشفه.

كان صديقي قائد الآواكس يقوم بطلعة جوّيّة بعد يوم من قصف طريق الموت السريع، وقد كتب لي بعد ستّ سنوات: «أتذكّر كم كان المراقب مبتهجاً فعلاً عندما أخبرنا كيف حدّدت طائرة أواكس «جيستار» JSTARS، قافلة بكاملها قرب صفوان ، واتصلت بمركز المراقبة ABCCC فاتصل الأخير بسرب طائرات A10 الذي اعتبر ذلك اليوم يوماً ميدانيّاً!

ويبدو أنه بعد تدمير عدد قليل من دبّابات برادلي Bradleys التابعة للبحرية الأميركيّة، وعلى الأقلّ واحدة APC بريطانية، صوَّب طيّارو A10 أخيراً هدفهم.

بعد ذلك بوقت طويل، اكتشفنا أنّ الطيّارين أنفسهم دبّ فيهم المرض لاحقاً نتيجة لعملهم القذر: كان انهيار معنويات الطيّارين سبباً لذلك، حسبما قيل.. وقد قال وزير الخارجية البريطاني أكثر من ذلك بعد ستّة أشهر. إن كلماته تلك تحمل اليوم معنى أكثر ممّا حملته يومها، لأن تحذيراته عمّا كان يمكن أن يحصل لو لم نتوقف في الكويت وعن المخاطر التي كانت تنتظرنا لو ذهبنا مباشرة إلى بغداد، وربط ذلك مباشرة بالكارثة التي توجد جيوشنا فيها الآن في العراق، يعطي الأمر معنى مختلفاً.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لو عادت أشباح القتلى في المستقبل لكان العديد منهم يحدّق من فوق جسر متلة مستذكراً تلك الأيام الباردة والمكفهرّة من عام ١٩٩١. قال هيرد: «يناقش بعض الناس أنه كان ينبغي على الحلفاء نقل القتال إلى بغداد وطلب رأس صدّام. في الواقع، عندما فقدت القوّات العراقية فعلياً القدرة على الدفاع عن نفسها كان العديد من الطيّارين متردّدين في متابعة القتال ... أولاً: لقد حدّد الحلفاء بشكل واضح أهدافهم وفقاً لما أقرّته قرارات الأمم المتّحدة المتعلّقة بتحرير الكويت. ثانياً: لو أننا ذهبنا إلى بغداد لكنّا وجدنا أنفسنا مجبرين على اختيار، ثم على دعم، حكومة عراقية جديدة».

وقال هيرد أيضاً: «سيكون ذلك إغراقاً لقوّات الحلفاء في مستنقع السياسات العراقية، ومجازفة بأرواحنا وبالدعم الشعبي للمهمّة».

في وقت متأخّر من بعد ظهر ٢ آذار/مارس ١٩٩١ قمت مع صديقي القديم أليكس تومسون من «أي تي في» ITV بجولة على طريق الموت السريع إلى الشمال من طريق صفوان وأبعد إلى مكان آخر حيث كان ينتشر القتلى العراقيون بكثافة فوق الصحراء. اقتربت منهم مجموعة من الكلاب تنهش الأطراف وتمزّق الملابس لتصل إلى المعدة والصدر . كانت الكلاب تتقاتل على هذه الحفلة الليلية المرعبة، وكان بعضها قد حصل على أجزاء قاسية من الجسم، وكان هناك كلب يخطف يداً في فمه ويهرب في الصحراء، وكانت أصابع يد ميت آخر تقبع بقسوة في الكومة. قام فريق تومسون بطواعية بتصوير هذه الفظاعة. وأما أليكس الذي كتب أكثر الدراسات انتقاداً للإعلام في هذه الحرب، فقد نظر ببرود وقال: «لن يخرج ذلك للإعلام، بل هو للأرشيف فقط». وهكذا كان . عندما كان الصحفيون يريدون تصوير الحرب، كانوا يغضبون من إجراءات التقييد المفروضة عليهم، لكن عندما انتهت الحرب رسمياً ورُفعت الإجراءات المقيّدة، وأصبحوا قادرين على تصوير أي شيء، لم يرغبوا في إظهار حقيقة صورة هذا النزاع. لاحظت كيف كان العراقيون الذين ماتوا موتاً نظيفاً نسبيّاً ـ الذين كانوا مجبرين تماماً على الموت قطعة واحدة، وعلى السقوط المريع، متمدّدين كمقاتلين صرعى على جانب الطريق ـ يرمزون في مشاهد مقتضبة لهم

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

على شاشة التلفزيون إلى الثمن البشري للحرب. لكن لم يكن مسموحاً للعالم رؤية ما شاهدناه: الجثث المحروقة المفرغة من الداخل والمقطّعة، والرؤوس المخيفة، والحيوانات المقتاتة. هكذا ساعدنا نحن الصحفيين على جعل الحرب مقبولة. تغاضينا عن الحرب، دعمناها ثم أصبحنا جزءاً منها. عدت إلى الكويت تلك الليلة. ملأت تقريري لصحيفة الإندبندنت، متعباً، محبطاً وغاضباً من مهنتي. في نهاية تقريري حول القتلى العراقيين، أضفت بعد تفكير فقرتين حول العمّال المصريين الضيوف الذين كانوا يهربون من الفوضى إلى الشمال: بينما كنا نقترب من الحدود العراقية، بدأ اللاجئون المصريون ينزلون عن الخط السريع، بعضهم يحمل أغطية ويطلب ماء، وآخرون يحملون مقتنياتهم في عربات تسويق صدئة، وبعضهم يطلب سجائر، وكان العديد منهم مرهقين لا يستطيعون الكلام لأنهم ساروا حوالي ٦٠ كلم من البصرة . قال أحدهم: «يقتلون كل المصريين في العراق»، لكنه لم يضف الملاحظة المرعبة، أن مجموعة من الجنود الأميركيين قالوا إنهم سمعوا بأن العراقيين يطلقون النار على اللاجئين عند الحدود .

اتصلت بالمكتب الخارجي للصحيفة بعد ساعة لأسأل ما إذا كانت لدى هارفي موريس أية أسئلة حول التقرير. قال: «كنت مهتمّاً بالفقرتيْن الأخيرتيْن. أعتقد أنك تعرف ما ترسل، أليس كذلك؟ لقد بدأ التمرّد». كعادتي، كنت قد فشلت في إدراك ما عناه ذلك. الآن وقد انتهت حرب الخليج رسمياً، فإن حمّام الدم الحقيقي يوشك أن يبدأ.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفصل الثامن

الخيانة

«... ملوّحين بأسلحتنا الحمراء فوق رؤوسنا، لنصرخ جميعاً «سلام، حرية، تحرّر».

شكسبير ـ يوليوس قيصر

ليل ٢٤ شباط/فبراير، بينما كنت في مدينة الخفجي السعودية أستعدّ مع طاقم قناة «سكاي» SKY للذهاب إلى الكويت قامت محطة إذاعة تشرف عليها وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA وتُدعى «صوت العراق الحرّ»، بتوجيه نداء إلى الشعب العراقي للثورة على نظام صدّام حسين. كان واضحاً أن الحرب والدمار سيستمرّان حتى يُسقط الشعب العراقي الدكتاتور. لم تعلن الإذاعة أن لحظة التحرير قد دنت. ولكن قيل للعراقيين إن عليهم أن يثوروا إذا أرادوا النجاة. ومضت الإذاعة تقول: «اضربوا مراكز قيادة الطاغية وأنقذوا البلاد من الدمار». لكنّ مَن كان يستمع إلى تلك الإذاعة كان يظنّ بأن الجيوش العربية والغربية قادمة لنجدة العراقيين. كان المتحدث هو صلاح عُمر العلي، العضو السابق في مجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي والذي طرده صدّام عام ١٩٧٢، وكانت الإذاعة تبثّ من السعودية. كان العلي واضحاً:

> «ثوروا لإنقاذ الوطن من براثن الدكتاتورية ولتخلّصوا أنفسكم وتجنّبوها مخاطر استمرار الحرب والدمار. يا أبناء دجلة والفرات، في هذه اللحظات المصيرية من حياتكم وبينما تواجهون الموت على أيدي القوّات الأجنبية، ليس أمامكم خيار للنجاة والدفاع عن الوطن سوى وضع حدّ للدكتاتور وعصابته المجرمة».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لا خيار، لا خيار. إذا أراد العراقيون النجاة. هذا موضوع نفطي ومخيف. قال العلي إنّ صدّام كان «الطاغية ومجرم العراق»، وهو الذي دفع أبناء الوطن إلى مجزرة برفضه الانسحاب من الكويت:

«أثبتوا لشعبكم ووطنكم أنكم أبناء مخلصون وشرفاء لهذا الوطن وهذه الأمّة المعطاء. ابدأوا الثورة الآن قبل فوات الأوان. إن الطاغية يفكّر بنفسه فقط. لا يهتمّ للعذاب الذي عانيتموه خلال الأشهر القليلة الماضية من الأزمة المدمّرة. إنه يصرّ على دفع أبنائكم المخلصين إلى هذه المجزرة دفاعاً عن مجده المزيّف وامتيازاته وزعامته المجرمة».

واستناداً إلى الإذاعة فقد هرّب صدّام عائلته وثروته إلى خارج العراق. و«سيهرب من أرض المعركة عندما يتأكّد أن الكارثة أحاطت بكل شارع، بكل منزل وبكل عائلة في العراق». وقد استخدم صوت العراق الحرّ موجات الإذاعة العراقية الرسمية والموسيقى الافتتاحية نفسها في نشرة الأخبار، وكان قد بدأ البث على الموجات القصيرة والمتوسطة في بداية السنة. وقد حاول العراقيون التشويش على الرسائل المارقة لهذه الإذاعة، ومع ذلك ظلّت تبثّ ساعات قليلة كلّ مساء.

لكن لم تكن إذاعة الاستخبارات الأميركية السرّية هذه وحدها التي تبثّ هذه الرسالة الخطرة العنيفة. فقد كان الشيعي حيدر الأسدي من البصرة يستمع إلى الدعوة لحمل السلاح عبر «صوت أميركا» بالعربية وتوقّع أن «يحرّر الحلفاء العراق ويخلّصونا من المجرم». وهكذا حمل رشّاش كلاشينكوف وسار في شوارع مدينته ممزّقاً صور صدّام على الجدران. وقبل أيام دُمّر منزل الأسدي عندما أطلقت طائرة أميركية صاروخاً على عدّة مبانٍ في المدينة مخلّفة شقيقه مصاباً بجروح خطرة في كتفه. لكن مثل العديد من العراقيين الآخرين الذين عانوا من قصف الحلفاء اهتمّ حيدر بالنداء الأميركي: «انضممت إلى الانتفاضة لأنني منذ صِغري والناس حولي يكرهون صدّام، وقد سُجن أخوة والدي ١٢ سنة بسبب قولهم إن الحرب الإيرانية ـ العراقية لن تنتهي إلا بموت صدّام.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أتذكّر استماعي إلى البرنامج العربي لصوت أميركا الذي أبلغنا أن الانتفاضة شاملة وسوف نتحرّر». في ٦ آذار/مارس، تحرّك مراسل الإندبندنت ريتشارد دودين أمام الجيش الأميركي ووصل إلى مدينة الناصرية العراقية على بعد ١٦٠ كلم إلى الشمال الغربي من مدينة البصرة التي كانت بيد الثوّار العراقيين. وكما كتب في تقريره المميّز فقد:

«بدت الثورة التي انطلقت بعد سنوات من حكم البعث القمعي مرتبكة ومشوّشة، موحّدة فقط بكراهية الشيعة في الجنوب لصدّام حسين. إنها ثورة وطنية تهدف إلى تخليص البلاد من نظام البعث بحسب زعمها، لكنها تحمل أيضاً في طيّاتها سمات قويّة من الأسلوب الإيراني الأصولي الإسلامي. قال أبو إمام قائد الثوّار في المدينة إن النظام سوف يُستبدل بحكومة من الشعب لن تكون على شكل الديمقراطية الغربية أو الثورة الإيرانية، بل لها مسارها الخاصّ. لن تكون سنّية أو شيعية بل لكل العراقيين».

وحيث كانت صور صدّام ممزّقة وجد دودين صوراً لآية الله الخميني ولعالم دين شيعي كبير. وقد تسلّم بياناً مطبوعاً من اللجنة الثورية في الناصرية ينصّ على أهداف الحكومة الجديدة:

إنهاء الحرب وإسقاط النظام البعثي وإقامة حكم جديد مرتكز على الديمقراطية والوطنية. ودعا أعضاء حزب البعث إلى الانضمام إلى حكومة جديدة بمعزل عمّا سبّبوه للعراق من أذى. غير أنه استناداً إلى القادة الثوريين، فقد تمّ إعدام حاكم المدينة طه ياسين حسين وزعماء بعثيين محلّيين آخرين. وبدأت بذلك ثورة الفقراء. كان كل قادة الثوّار يرتدون جلابيب وكوفيّات قذرة وكانوا ملتحين ويتناقشون باستمرار.

مجدّداً وجد دودين طريق موت سريعاً آخر عندما اقترب من الناصرية:

حيث كانت الطريق مليئة بحُطام السيّارات العسكرية وفي العديد منها جثث متحلّلة أو ممدّدة قربها على الأرض. عند مدخل المدينة

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كانت هناك شاحنتان إلى جانب حاجز للثوّار مؤلّف من كرسيّ وطاولة وإطارين وصندوق قنابل. وفي داخل كل شاحنة جثث لمئة جندي عراقيّ، وكانت هذه الشاحنات برّادات للّحوم تُحضر الجثث من الجبهة منذ أربعة أيام، وقيل لي إن سائقيها رفضوا التوقّف عند الحاجز فأطلق الثوّار النار عليهم.. وقد فرّ السائقون... ولكن لم يتمّ لمس هذه الجثث منذ ذلك الحين.

غير أن دودين أنهى تقريره بتعليق مثير لقائد الثوّار المحلّي أبو إمام:

«الأميركيون لا يساعدوننا، إنهم يوقفوننا على الطريق وينزعون أسلحتنا.. لقد عملوا على تقوية صدّام ثم دمّروه، ومع انتهاء الحرب الآن فهم يدعمونه مجدّداً».

في السنوات اللاحقة، نفى القادة الأميركيون والإنكليز المسؤولية عن الانتفاضة العراقية الواسعة التي شجّعوها. وفي وقت سابق، في شمال العراق انتفض أيضاً عشرات الآلاف من الأكراد ضدّ مضطهديهم متجاهلين الخيانات الأميركية السابقة منتظرين بلهفة مساعدة الحلفاء. وكانت ردّة الفعل الأولى لرئيس الوزراء البريطاني جون ميجور ساخرة، فقد صرّح بعُنجهية أنه «لم يطلب من الأكراد القيام بهذه الثورة».

كان الارتياح عارماً في الغرب. وكان عدد القتلى الأميركيين والإنكليز في هذا النزاع قليلاً. وكانت الروايات عن الأعمال الوحشية العراقية في الكويت مرعبة وهائلة ، وآبار النفط تحترق ملتهبة في أنحاء جنوب العراق حيث قامت الطائرات الأميركية ب٥٢ بضربها.. ومرّت الأحداث المروّعة شمال الخطوط الأميركية مجهولة تقريباً.

وقد نتج عن الحرب نوع خاصّ من الاستنزاف عانينا منه جميعاً تحت سحب الحرائق النفطيّة التي حوّلت النهار إلى ليل مغلّفةً مناطق واسعة من الكَويت والعراق... كنا، نحن الجنود الأميركيين والعرب والعراقيين الفارين والكويتيين المحرّرين، نتحرّك تحت ستار من الظلمة والتعب. وكذلك كان الصحافيون الذين اضطرّوا إلى اجتياز أربعة عشر طابقاً من مخارج الحريق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لفندق الميريديان الكويتي. كان المراسلون الذين يتحرّكون شمالاً يتمايلون تحت مجموعة من خطوط الهاتف المخرّبة مُتعبين حذِرين. وجاءتنا الأرقام بسرعة الطلقات النارية: أعلن الجنرال شوارزكوف يوم ٢٧ شباط/فبراير: «نحن على بعد ١٥٠ كلم من بغداد ولا يوجد بيننا وبين بغداد شيء»... وقال إن جيشه استولى على، أو دمّر، ٣ آلاف دبّابة و١٨٥٧ سيارة مصفّحة و٢١٤٠ قطعة مدفعية. وقد تمّ أسر ٥٠ ألف جندي.. وقال أيضاً إن ٤ آلاف دبّابة عراقية دُمّرت في عمليات التحرير والقصف الجوي الذي سبقها لمدّة ٣٨ يوماً. لم يسأل أحد كيف استطاع شوارزكوف الحصول على هذه الإحصائيات الدقيقة بعد أقلّ من ٢٤ ساعة على إعلان الرئيس بوش تحرير الكويت. وقد أعلن بثقة يوم ٣٠ كانون الثاني/يناير أنه تمّ تدمير جميع قواعد صواريخ سكود الثلاثين في العراق بواسطة ١٥٠٠ طلعة جوّية.. في حين أن اللفتانت جنرال توم كيلي صرّح في ١٤ شباط/ فبراير أنه نتيجة ثلاثين يوماً من القصف تمّ تدمير حوالي ١٣٠٠ دبّابة من أصل ٤٢٨٠ في الكويت وحولها، وأُعطِبت حوالي ٥٠٠ دبّابة أخرى. وانفردت وكالة رويترز يوم ٢٧ شباط/فبراير بإلقاء نظرة مشكّكة عندما نقلت عن الكابتن البريطاني سيمون أوليفر من فرقة التنّين قوله إن قوّات الحرس الجمهوري الأفضل لدى صدّام والمجهّزة بدبّابات ت٧٢ استطاعت الإفلات من قوّات الحلفاء إلى الجنوب من البصرة. وقال: «شاهدنا آثار دبّابات تتحرّك إلى الشمال ومن الممكن أن يكون الحرس الجمهوري قد انسحب». كان على الصحفيين تخمين ما عرفه العسكريون آنفاً وهو أن لدى الحرس الجمهوري مهامّ أخرى أكثر أهمّية داخل جنوب العراق. كان الأميركيون دقيقين بشأن خسائرهم: «قُتل ١٤٨ أميركياً»، وكانوا أقلّ دقّة حول الخسائر العراقية. ففي ١٤ شباط/ فبراير عبّر كيلي عن اعتقاده «أن حجم الخسائر مرتفع نتيجة القصف المتواصل». وفي ٢٨ شباط/فبراير، كان السعوديون يتحدّثون عن مئة ألف قتيل عراقي بينما قدّر محلّل عسكري فرنسي سابق هو الكولونيل جان لوي دوفور عدد القتلى العراقيين بأكثر من ١٥٠ ألفاً. وتحدّث شوارزكوف فقط عن عدد كبير من القتلى. وفي ١٩ شباط/فبراير أعلن نائب وزير الدفاع العراقي السابق سعدون حمادي أن ٢٦ ألف عراقي من المدنيين والعسكريين قُتلوا نتيجة ٦٥ ألف غارة جوّية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وقد صرّح مصدر في البنتاغون إلى نيوزداي Newsday بعد ستّة أشهر بأن ثمانية آلاف جندي عراقي دُفنوا أحياء في خنادقهم بواسطة الجرّافات الضخمة المُبتة بمقدّمات الدبّابات الأميركية المهاجمة التابعة لفرقة المشاة. ربّما كانت لحظة الشفقة تلك التي ولّدها هذا التقرير ترتبط بتأنيب الضمير، إضافة إلى عدم التحرّك الغربي لمساندة الثوّار العراقيين، أكثر ممّا ترتبط بحجم الخسائر الضخمة في الأرواح البشرية(*).

لاحقاً فقط، عرفنا بعض الحقائق الأقلّ بطولة حول تحرير الكويت. لقد ألقى الأميركيون ـ وقد تسرّب الخبر ـ عدّة أطنان من القنابل يومياً توازي ما أُلقي على ألمانيا واليابان يومياً خلال الحرب العالمية الثانية. ومن بين ١٤٨ جندياً أميركياً قتلوا هناك ٣٥ جنديّاً تقريباً فقدوا حياتهم بنيران صديقة، أي من قوّات أميركية أخرى(**).

ولاحقاً أيضاً، أعلن مكتب الإحصاء العام الأميركي ـ غير المحبوب ـ عبر البنتاغون ومقاوليه عن دقّة أهداف طائرات الشبح وصواريخ كروز والقنابل الذكية الموجّهة، وأن طائرة ستيلث Stealth الخفيّة قد حقّقت ٤٠ في المئة فقط من النجاح في قصفها، بينما حقّقت القنبلة الذكية الضخمة الملقاة على الأهداف

(*) رأى الصحفيون أن القوّات العراقية المسلّحة تطوّرت بشكل ملحوظ بين ١٩٨٠ و٢٠٠٥ وقد أشير في الإعلام الغربي إلى العديد من الوحدات العراقية المسلّحة عندما غزت إيران على أنها قوّات صدم، فهي بكل الأحوال تهاجم إيران التوسّعية. بعد ذلك بعشر سنوات، غزا الجيش نفسه الكويت الصديقة وأصبح هو العدوّ الذي وصِف بالفظّ والقاسي. وعندما أصبح العراقيون معادين لصدّام عام ١٩٩١ بما في ذلك أفراد القوّات المعادية المهزومة في الكويت المحرّرة، اعتُبروا متمرّدين. لكن عندما انتفض الجنود السابقون الناجون ضدّ الاحتلال الأميركي عام ٢٠٠٢ اعتبروا عندها إرهابيين وقساة أو موالين لصدّام. وبسبب مهاجمتهم القوّة العظمى الوحيدة بشراسة، أنعمنا عليهم لاحقاً بلقب ثوّار.

(**) من بين آلاف الأميركيين الذين حصلوا على أوسمة لدورهم في تحرير الكويت، جندي مدفعية على دبّابة برادلي حصل على النجمة الفضّية وعدّة مداليّات أخرى. كان تيموتي ماكفاي جندياً شابّاً واعداً حاول الانضمام إلى القوّات الخاصّة الأميركية لكنه فشل وترك الجيش حزيناً في ٣١ كانون الثاني/ يناير ١٩٩١... أعدم تيموتي بتهمة تفجير أوكلاهوما سيتي يوم ١١ حزيران/ يونيو ٢٠٠١ والذى أدّى إلى مقتل ١٦٧ أميركياً.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العراقية ٧٠ في المئة. وقال مكتب الإحصاء العسكري إن الصاروخ المضادّ لصواريخ باتريوت Patriot الأكثر شهرة دمّر فقط ٤٠ المئة من صواريخ سكود الموجّهة إلى إسرائيل و ٧٠ في المئة من تلك الموجّهة إلى السعودية. في الواقع، وبحسب سيمون هيرش ـ نعمة الصحافة ـ فقد كشف تقرير للقوّة الجوّية الإسرائيلية صدر لاحقاً عدم توافر دليل واضح على أيّ اعتراض ناجح لصاروخ سكود العراقي من قِبل صاروخ باتريوت فوق إسرائيل.

وداخل مدينة الكويت كنّا نحن الصحفيين مغمورين بروايات الخسائر، هكذا ببساطة. بعد أسبوع من التحرير كانت أجزاء من المدينة تشبه فوضى زمن الحرب في بيروت، فقد سيطر المسلّحون على الشوارع وكانوا يقومون بخطف الفلسطينيين من بيوتهم. وقد ناشد بعض السفراء الغربيين ومنظّمات الإغاثة بعض الوزراء الكويتيين الذين وصلوا إلى الكويت (لم يكن الأمير وأفراد عائلته المباشرين قد عادوا بعد) فرض القانون والنظام قبل فقدان السيطرة على العاصمة. حتى تلك اللحظة بدا الجيش الكويتي مصمّماً على التحرّك ضدّ الجالية الفلسطينية التي تعاون بعض أفرادها مع المحتلّين العراقيين. وقد أفيد أن أكثر من ٥٠٠ شاب فلسطيني خُطفوا من منازلهم في الأيام الثلاثة الأولى من آذار/مارس. وعندما دخلت ومراسل الأوبزرفر، كولين سميث، صباح ٣ آذار/ مارس، إلى ضاحية حَولّي في مدينة الكويت، وهي مكان إقامة عشرات الآلاف من الفلسطينيين، وجدنا جنوداً كويتيين يقودون ١٢ عربة مصفّحة عبر الشوارع ويطلقون النار في الهواء ويأمرون المحلّات بالإقفال ويضربون المدنيين الفلسطينيين الذين يقعون تحت أيديهم. شيء لا يصدق، أو أنه بدا لنا كذلك! لم تفعل القوّات الأميركية الخاصّة الموجودة هناك شيئاً لوقف العنف وعوضاً عن ذلك أطلقت النار بوقاحة على الصحفيين الذين سألوا لماذا لا تتدخّل. وعندما بدأ ثلاثة جنود مسلّحين بضرب ولد فلسطيني على درّاجة في حَولّي، وجدت نفسي وسميث مضطرَّين للتدخّل دافعَيْن الكويتيين بعيداً عن الشاب وطالبيْن منهم خفض أسلحتهم. والحقيقة أنني كنت وسميث لا نزال نرتدي الثياب المضادّة للغاز التي دخلنا بها إلى الكويت مما أقنع الكويتيين أننا قوّات حلفاء ولذلك تركوا الصبيّ يذهب. لكن عندما طلبنا من أحد عناصر القوّات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الخاصّة الأميركية مساعدتنا ردّ علينا: «طاب يومكم؟ لا نرغب في رؤية أمثالكم هنا مع شائعاتكم. هذه حالة طوارىء يا فتى. أنت ثرثار. ارحل!». أخذت وسميث رقم السيّارة الأميركية IS055A وبعدها ذهبت إلى السفارة الأميركية، التي أعادت فتح أبوابها، لأبلغهم بما رأيت. وبالمصادفة، قامت البي بي سي بتصوير الحادثة. بعد بضع دقائق، برز ضابط أميركي مع فْريد كوني أحد أشجع مسؤولي الإغاثة بعد سنوات الحرب.. لكن بدا الضابط قليل الاهتمام بما سنخبره. وكان يريد أن يعرف: «هل رأيتم أيّ إشارة لإرهابيين فلسطينيين في الشوارع؟».

قلت لسميث لاحقاً: «ها قد عدنا من جديد إلى النغمة ذاتها: الفلسطينيون إرهابيون، إرهابيون، إرهابيون». كان تلهّف الأميركيين لمعرفة أخبار الإرهابيين أكثر من تلهّفهم على القانون والنظام(*). وقد أكّد لنا الرجلان تسجيل رقم سيارة هومفي التابعة للقوّات الخاصّة وقالوا إنهم «سينظرون في المسألة».. وكان ما سيلي أسوأ. كانت فرق الإعدام تجوب شوارع الكويت وكان على رأس إحداها ابن وابن أخ لأمير كويتي كبير. وقد عقد مسؤولون أميركيون اجتماعاً سرّياً مع الأمير في أواخر آذار/مارس ١٩٩١، وبعد الاستماع إلى نفيه الغاضب قاموا بتسليمه لائحة بأسماء وتواريخ وتفاصيل أخرى عن فِرق الإعدام.. جرى نقل كوني إلى ساحات القتال في كردستان شمال العراق للتعامل مع اللاجئين الأكراد الفارّين من انتقام صدّام. وكان هو الذي أسرّ إليّ في أواخر نيسان/ أبريل أن فريقاً سرّياً من القوّات الخاصّة الأميركية وضبّاط احتياط مدرّبين جيّداً

(*) كالعادة، ساهمت مصادر المخابرات الأميركية بهذه العملية. في صباح ٢ شباط/ فبراير أشار دوغلاس جيهل من صحيفة لوس أنجلوس تايمز، وهو صحفي يعمل مع القوّات الأميركية في السعودية، إلى تقارير للمخابرات صدرت للقادة الأسبوع الماضي تحذّر من أن أكثر من ١٢ فلسطينياً إرهابياً معروفين ينشطون في القطاع المحتلّ الآن من قِبل الفرقة الأولى المدرّعة. وقد ربط الضبّاط بين هؤلاء الإرهابيين غير الموجودين واختفاء خمسين سيّارة عسكرية أميركية من قاعدة أميركية. كيف يستطيع ١٢ فلسطينياً أو غيرهم سرقة هذا العدد الكبير من السيّارات؟ سؤال بقي دون تفسير. وقد رأى جيهل إمكانية واحدة في آخر تقريره وهي أن يكون الجنود الأميركيون قد سرقوا الشاحنات وسيّارات الهومفي وأخذوا منها قطع غيار لسياراتهم.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ومعهم قاضٍ فدرالي أميركي ومساعد مدّعٍ عامّ من فيلادلفيا، أُوكلت إليهم مهمّة اقتفاء أثر ومصير مئات الفلسطينيين المفقودين في الكويت. واستناداً إلى كوني، فإن وزارة الخارجية كانت على علم منذ فترة طويلة قبل التحرير بأن السلطات الكويتية أعدّت خططاً سرّية لترحيل كل الجالية الفلسطينية إلى العراق في حافلات عليها شارات جمعية الهلال الأحمر والإغاثة. وكانت الرواية الأخرى التي وصلت إلى مسامع الأميركيين أن الكويتيين سيعدمون أعداداً كبيرة من الفلسطينيين محاولين دفع الجالية إلى هجرة جماعية. شكل آخر من الأسلوب المستخدم في إسرائيل لإفراغ غرب فلسطين من السكّان عام ١٩٤٨ (مع أن هذه الملاحظة لم تكن أميركية). وقد اعترف كوني أن الأمور في الكويت لم تكن على ما يُرام في البداية، ولم يفهم رجالنا على الأرض ما هو دورهم. ولم يكن بعض كبار الضبّاط ينقلون تقارير حول ما حصل. وسنجد أن ضبّاط القوّات الخاصّة المتمركزين في مراكز الشرطة الكويتية يعرفون أن أشخاصاً خضعوا للتعذيب لكنهم لا يستطيعون إثبات ذلك.. ولدينا ضبّاط أميركيون سمعوا شخصاً يصرخ لكن لا يستطيعون القول إن كان الرجل يخضع للتعذيب لأنهم لم يشاهدوا شيئاً. أرسلت كل ذلك بدقّة في تقريري إلى الإندبندنت، وقلت إن الزعم بأن الأميركيين لم يتحرّكوا لأنهم فشلوا في رؤية ما حصل كان تفسيراً سخيفاً بالفعل.

لكنّ خطف الفلسطينيين كان لا يزال قائماً(*)، وفي النهاية كان لدى الحكومة الكويتية أسلوبها الخاص. فخلال الأشهر التالية قامت بإبعاد ٢٠٠ ألف

(*) لم تكن هناك صعوبة في جمع أدلّة حول ذلك: في حَولّي، أبلغتني سارة موسى كيف شاهدت ولديها تحسين وأمين يؤخذان من منزلهما يوم ١ آذار/ مارس ١٩٩١ من قِبل ستّة مسلّحين كويتيين ببنادق G3، قالت: «فتشوا البيت، قاموا بتقييدهما وغطوا وجهيهما. وعندما طلبا من الكويتيين عدم المسّ بشقيقاتهما، ضربهما المسلّحون ووضعوهما في صندوق سيّارة وأخذوهما بعيداً. لم أرهما منذ ذلك الحين». وقام مسلّحون بأخذ إبراهيم ابن تمّام سلمان، البالغ من العمر ٢٣ سنة في اليوم نفسه ووضعوه في صندوق سيّارة. قالت إنها عندما طلبت مساعدة شرطي كويتي، بصق عليها لأنها «فلسطينية». وقد ظهرت شهادات أخرى لأعمال اضطهاد كويتية في عدّة صحف أوروبية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فلسطيني، وقد تبعهم آخرون في ما بعد. كان الفرق الوحيد أن العديد منهم رحلوا شمالاً إلى العراق في حافلات الصليب الأحمر التي استأجرتها المنظمة عوضاً عن حافلات مموّهة بشارات الهلال الأحمر. واعترفت المقاومة الكويتية أن ٥ في المئة من رفاقها في السلاح كانوا فلسطينيين لكن ذلك لم ينقذهم. كانت تجربة هؤلاء الكويتيين أنفسهم رهيبة أحياناً، وقد اختفت جرائم أخرى من تقاريرنا المملّة. مع نهاية التحرير، كانت المقاومة قد أعدّت لائحة الشهداء التي تضمّنت نساء ورجالاً تمّ توقيف بعضهم في الساعات الأخيرة للاحتلال العراقي وعانوا مصائر مرعبة. كان أبو أحمد، وأبو سامي وأبو سعد من بينهم.

قال عضو في المقاومة الكويتية من ضاحية تيران: «كان العراقيون يعرفونهم وكانوا يراقبونهم لعدّة أيام وقرّروا الوصول إليهم في النهاية». كانت بينهم امرأتان وقد لقيتا المصير نفسه. وقال عضو في المقاومة يُدعى طارق أحمد: «ثقبوا رأسيهما بمثقاب وشاهدنا جثتيهما بعد ذلك.. قُتلتا بهذه الطريقة». مثل هذه الإحصائيات أُغفلت على اعتبار أنه مبالغ فيها.. لكن لم يكن في الأمر مبالغة بالنسبة إلى بعض الجثث التي وجدت في ما بعد في المستشفيات الكويتية: ثلاث منها على الأقلّ وجدت فيها ثقوب على الأيدي والأرجل، كانت مصلوبة آليّاً.

إذا لم يكن هناك شيء آخر فإن هذا وحده كان كافياً ليعطينا صورة مرعبة عن المعاملة التي مارستها الحكومة العراقية بحقّ الثوّار الذين لبّوا النداء الأميركي بشكل عفوي للثورة في الشمال، ثمّ وقعوا بين أيدي مخابرات صدّام. مع ذلك، كان المراسلون في الكويت، بمن فيهم أنا، مشغولين بحجم هزيمة الجيش العراقي في الكويت أكثر من انشغالهم بأخبار الوضع المخيف في العراق. في الأيام الأولى للتحرير، قدت سيّارتي إلى ما بعد الحدود الكويتية مع مراسلة التايم ـ لارا مارلو. كانت لا تزال هناك علامة بسيطة للأحداث المرعبة التي تحصل خلف الخطوط الأميركية: صوت إطلاق نار إلى الشمال وصوت ضابط أميركي يتحدّث عن رجال جاءوا إلى نقطة التفتيش طلباً للسلاح ولم يحصلوا عليه.

على الطريق السريع إلى الشمال من صفوان، قدّم لي جندي أميركي أسود من طاقم دبّابة تابعة للوحدة المدرّعة الأولى زجاجة بيبسي باردة من فوق دبّابته

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الأبرامز. جلسنا هناك معاً نحدّق إلى الشمال عبر الأراضي البور الرمادية لجنوب العراق. كانت الدبّابة متوقّفة على مفترق طرق مهمّ تغطي خطوطه الستة للطريق السريع مشهداً طبيعياً خطراً: قطعة مغروسة من أوروبا أو أميركا وسط أنقاض الحرب. كان الطقس بارداً ورطباً وكنا نستطيع سماع صوت حرائق النفط التي تتصاعد سحبها عالياً إلى السماء الموحشة. قال جندي الدبّابة الأميركي بعد فترة: «يسمّون هذا مهد الحضارة». بالطبع كان على حقّ.. إلى الشرق من هنا تقع المدينة السومرية القديمة (أور) التي تعود إلى ٤٠٠٠ سنة.. إلى بلاد ما بين النهرين والمهد التوراتي لإبراهيم... لتوّ، أوقف ضابط مدفعية أميركي مُتبصّر طاقم دبّابة يطلق النار على معالم تاريخية. وإلى الشمال باتجاه بغداد تقع بابل نينوى ونهرا دجلة والفرات الكبيران وكذلك مقامات النجف وكربلاء. من الشمال تقدّم نحونا، أنا، ولارا، ثلاثة جنود عراقيين يضعون القبّعات الحمراء التي يرتديها حرس صدّام الجمهوري. لم يكن معهم أسلحة وأظهروا أنهم مسالمون. طلبوا سجائر. أعطيناهم بعض سجائر مارلبورو فيما الجندي الأميركي يراقبنا من على ظهر الدبّابة. ثم أشار أطولهم إلى شاحنة عسكرية عراقية مهجورة في حقل شمال الطريق السريع وطلب الإذن بأخذ الشاحنة. قلنا: «بالتأكيد لكن سنبحث الأمر مع الأميركيين». وسألنا: «هل هناك مشكلة في أن يأخذ هؤلاء الرجال الشاحنة؟» أشار الجندي من على ظهر الدبّابة بالإيجاب. وأضاف: «لقد هُزموا ويستطيعون أخذ قذارتهم». أعطيناهم مزيداً من السجائر.. ثم سار العراقيون الثلاثة نحو الشاحنة العسكرية الروسية الصنع وأداروا المحرّك ثم انطلقوا بها نحو الشمال. تساءلنا لاحقاً فقط لماذا جاءوا لأخذ الشاحنة؟ لماذا يهتمّون بشاحنة مهجورة وسط كل هذا الدمار؟ لماذا يريد الحرس الجمهوري هذه الشاحنة الآن؟ في اليوم التالي فهمت. بالعودة إلى صفوان كان الخط السريع الخالي قد تحوّل من غربي إلى شرقي رهيب يتدفق عليه العديد من الأشخاص.

كان بعضهم جنوداً عراقيين وآخرون نساء مرتعبات، بعضهنّ يبكين وأخريات يلقين بأنفسهنّ في الخنادق طلباً للنوم. كان هناك العديد من الكويتيين الذين خُطفوا في الساعات الأخيرة للاحتلال والذين أفرج عنهم ثوّار البصرة وبجعبتهم روايات مرعبة عن المستشفيات المكتظّة بالجثث والمحتضرين. كان أحدهم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

صيدلياً ونائباً كويتياً سابقاً يدعى أحمد بختيار. كان قد أُخذ إلى مستشفى البصرة لمساعدة الجرحى من الرجال والنساء المنتشرين على الأرض. قال: «توفّي شابّ أمامي للتوّ. كانت الدبّابات تصل وتطلق النار مباشرة إلى داخل المنازل في كل شارع محوّلة البيوت إلى رماد. كان هناك كثير من الناس يموتون من مرض غريب. ويعتقد البعض أن السبب شربهم الماء الملوّثة الموجودة في الطرقات. ويقول آخرون إنّ الماء في البصرة يحتوي الآن على نفط نتيجة الحرائق فوق المدينة»(*).

وطيلة هذا الوقت، كان تدفّق الناس المرضى والجوعى والخائفين متواصلاً أمامنا. جاء بعضهم في عربات تدفع باليد، مسنّين وأطفالاً، بأغطية وسخة، وتذكّرت عربات القرون الوسطى التي كانت تنتقل من بيت إلى آخر عندما ضرب الطاعون أوروبا حاصداً الموتى. كان بعض هؤلاء الناس في العربات أمواتاً. كان هناك مصوّرا تلفزيون يوجّهان كاميراتهما عن قرب إلى وجوه اللاجئين ولاحظت كيف أن الوجوه لم تتأثر بالكاميرات، كما لو أن كل وجه مات أيضاً. كان مسؤولان أميركيان من السفارة يقفان أمام محطة قطار مع ضابط أميركي كبير. وقال أحدهما للرقيب نودل من الكتيبة المدرّعة الأولى: «لا نستطيع السماح لهم جميعاً بالبقاء هنا، لا يستطيعون عبور الحدود، ليست لدينا تسهيلات لاحتوائهم، عليهم العودة». لاحظت كوني يقف قرب موظَفي السفارة يستمع بصمت. وكان الدبلوماسي يقول: «أنظر! علينا إيقافهم، إنه أمر مأساوي، أعرف ذلك، لكن ليست عندنا تسهيلات لهم». وسأل كوني عمّا إذا كانت هناك إمكانية لنصب خيام الإسعاف الأوّلي للاجئين... شهق الدبلوماسي، ليس من

(*) بعكس حكومتهم، كان يمكن للكويتيين إظهار العطف تجاه الذين عانوا أيضاً. وقفت امرأة كويتية شابّة في صفوان تدعى سهام المرزوق تبحث عبثاً عن شقيقها فيصل الذي خُطف في الأيام الأخيرة للحرب بين الجموع الهاربة من العراق. كان المطر يتساقط عندما وجدت مصرياً عاش في الكويت أكثر من ثلاثين عاماً وكان ناظر مدرسة خطفه العراقيون، والآن لا تسمح له السلطات الكويتية بالعودة إلى بيته، وقد صنع من قطع الحواجز الحديدية للخط السريع كوخاً يحتمي فيه من المطر. وطلب من أحدهم إبلاغ السفارة المصرية في الكويت عن مكان وجوده، وكتب قصة معاناته على ورقة وجدها على الرمل وكان يبكي طيلة الوقت. حاولت المرأة الكويتية تهدئته وأعطته طعاماً ومالاً. وعندما رأت امرأة فلبّينية محتاجة خلعت رداءها الصوف وأعطتها إياه. بعد يومين وصل أخاها المخطوف فيصل إلى صفوان سالماً.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المفترض أن يكون الأمر هكذا. تحرير.. نصر نظيف.. والآن فوضى. وعلى التلفزيون تستطيع مشاهدة المعاناة. وأجاب الدبلوماسي: «عليكم إيقافهم». وانضم إليه الضابط قائلاً: «يمكن أن يتسلّل عناصر المخابرات العراقية إلى الكويت بين اللاجئين».

لكن، على هذا الطريق البارد المبلّل، ظهر أمامنا فجأة كل ما هو الأفضل في أميركا، كل الأمل والرحمة والإنسانية التي يحبّ الأميركيون أن نعتقد أنهم يملكونها. فقد التفت الرقيب الشابّ المتعب بغضب نحو الدبلوماسي قائلاً: «آسف سيدي. لكن إذا كنت ستأمرني بإيقاف هؤلاء فأنا لا أستطيع القيام بذلك. لقد جاءوا يطلبون العون، نساء وعجزة ينتحبون، وأطفال مرضى، وأولاد يطلبون طعاماً. أعطيناهم نحن معظم حصّتنا من الطعام. لكن عليّ إخبارك سيدي أنك إذا أمرتني بوقفهم فلن أقوم بذلك». تستطيع مشاهدة موظفي السفارة ينتفضون غضباً. أوّلاً كانت هناك تلك الجماعة من الناس مشتّتة على الطريق السريع، ثم كاميرات التلفزيون، والآن جندي يرفض الأوامر. لكن الرقيب نودل أدار ظهره للدبلوماسيين وسار نحو خط من سيّارات اللاجئين. وصرخ بالجنود عند نقطة التفتيش: «أبلغوا هؤلاء الناس أن يوقفوا سيّاراتهم إلى جانب الطريق هناك واطلبوا منهم الصبر وسوف نهتمّ بهم ولا تعيدوهم».

جلس حول نودل أفراد عائلتين عراقيتين جوعى، النساء بملابس سوداء قذرة والأطفال حُفاة ووجوه الرجال مذهولة متّسخة، يفتحون علب الطعام الأميركية العسكرية بأظفارهم ويأكلون كتل الطعام الباردة ويسكبون محتويات عُلب الصلصة في أفواههم. في الرمال الباردة، ساعد نودل وجنوده على إيواء امرأة عراقية مع خمسة أولاد. كانت قصّتهم بسيطة ورهيبة. أعدم أفراد الحرس الجمهوري الأب لرفضه الانضمام إليهم واغتصبوا الأم بعد ذلك. وقد قامت عمّة الأطفال بأخذهم جنوباً باتجاه الخطوط الأميركية وهم هناك الآن يقيمون في مركز كهرباء مهجور. كان الأميركيون يقدّمون لهم الطعام ووجدوا بعض الألعاب، أربعة كلاب وحماراً، أعطوها للأطفال.

أصبح هناك الآن خطّ متّصل من السيّارات التي كانت تتحرّك بثبات نحو موقع نودل وهي مكتظّة بالمدنيين الخائفين. كان العديد منهم بدون طعام منذ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أيام. وكان الرجال غير حليقين والنساء يبكين، وقد بال الأطفال في السيارات خلال الرحلة الطويلة عبر العراق المدمّر. وكانت عائلات بكاملها تبكي على أقارب مدنيين قتلوا في الغارات الجوّية للحلفاء. كانت القافلة قذرة. وهناك طفلة تتدلّى من نافذة سيّارة مرسيدس سوداء تحملها سيّدة تنتحب. كان جسد الطفلة ينتفض وكانت توشك على الموت..

لم يكن ذلك تفكير بعض الجنرالات في الرياض عندما أعلنوا أيام التحضير للمعركة وحظر الاتصالات. وأعطى نودل أوامر لرجال بالتوجّه نحو خط السيّارات. «أين السيّارة التي فيها الطفلة المريضة؟» كان الجندي يصرخ بالإنكليزية حتى ترجم أحدهم السؤال إلى العربية. كان هناك عويل صادر من المرسيدس. وأمر الجندي: «أحضروا طبيباً إلى هنا فوراً».. وصل أميركيّان آخران.. وأخذ جندي أسود ضخم الطفلة بين يديه ولمس جبينها. وقال: «يا اللّه إنها تمر بنوبة، أبلغ المستشفى الميداني أننا قادمون معها». وأخذ الطفلة المصدومة مع والدتها المضطربة في السيّارة. ثم وصل نودل وأمر بإخراج السيّارة من القافلة. وقال: «بلّغ بقيّة العائلة أننا نحتاج إلى تفتيش سيّارتهم ثم يستطيعون الذهاب والانتظار قرب شاحنة الصليب الأحمر». قدّم نودل وجنوده الاثنا عشر من الكتيبة المدرّعة الأولى المزيد من وجبات طعامهم. لكن ليست هناك أوسمة تُعطى مقابل القيام بهذه الأعمال.

ولسبب ما، لصراع مصالح بدا ظاهراً، وصل الضابط الأميركي والدبلوماسيون الأميركيون لتفتيش موقع نودل. ولم يكن لدى الحكومة الكويتية الجديدة والشرعية التي ذهب هؤلاء الأميركيون للحرب لأجلها الرغبة في إعطاء هؤلاء اللاجئين ملجأ في الكويت. وقد همس ضابط في أُذن نودل هذه العبارة الكاشفة: «جاءنا جندي عراقي وسلّم نفسه قرب هذا المكان اليوم الفائت فأخذه جندي كويتي إلى زاوية ثم أطلق النار على رأسه ورمى جثّته في خندق. إذا سمحت لهؤلاء بالعبور من صفوان فإنهم ربّما يلقون المصير نفسه». أُعطيت أوامر له بإعادة هؤلاء الناس إلى حتفهم ليس بسبب نقص الإمكانات أو لتسلّل عراقي، بل لأن الكويتيين لا يريدون تبديد ثروة إمارتهم المحرّرة. كان جواب نودل الرفض..

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

لم تكن هناك لحظات كثيرة جيّدة في هذه الحرب أو أيّ حرب أخرى.. لكن مرّت هنا للحظة أجنحة ملاك قربنا، روح راوول والنبرغ في ساحة سكّة حديد بودابست وهو يعطي جوازات سفر سويدية ليهود المجر. كلّا! لم تكن هذه الحرب العالمية الثانية! ماذا فعلنا لأمثال هؤلاء؟ سيموت هؤلاء العراقيون إذا أُجبروا على العودة، وقد رفض الرقيب نودل إطاعة الأمر. ومثل ضابط شاب في الصوم منذ ٢٣ عاماً رفض إعدام جندي آخر، رفض الرقيب الأميركي إطاعة الأوامر. هل كان بوش وتشيني وشوارزكوف وميجور يُظهرون مثل شجاعته الآن.

في البصرة بقي مراسل الإندبندنت كارل والدرون صامداً في مركزه بشجاعة حتى اللحظة الأخيرة للهرب يوم ٦ آذار/مارس. ويصف الآن نتائج الخيانة ببساطة مخيفة: «كانت الساعة تتعدّى الثانية فجراً عندما شقّت دبّابات ت٧٢ التابعة للحرس الجمهوري طريقها وسط البصرة عبر التحصينات في الطرقات الضيّقة... كانت جيوب المقاومة الصغيرة من المجموعات الشيعية بغالبيتها مثل، «الأخوة عتيق»، تحافظ على مواقعها حتى تصبح عاجزة أو مُجبرة على الانسحاب أمام فرقة المشاة المتقدّمة الجيّدة التسلّح... في شارع ناصر كان هناك آخر الباقين من، كانوا في اليوم السابق يفتخرون بلباسهم العسكري والعصبات الحمراء المربوطة فوق زنودهم ورؤوسهم على نحو يذكر بالصورة العامّة للثورة وقد ارتدوا الآن اللباس الديني... كانت هناك ذخيرة كثيرة لكنها ليست من عيار الأسلحة السوفياتية. وكان مَن بقي الآن في مخازن الذخيرة بعض الحرّاس الذين يراقبون تقدّم الحرس الجمهوري. وكانت أصوات جنازير الدبّابات تشير إلى اقترابهم فتراجعت المجموعة وبدأ عددها يتناقص بينما كان الرجال يختنقون في الليل مع حمولتهم الثمينة. وعندما هربنا جنوباً عابرين الحواجز المنخفضة حول مجموعة المباني، كان صوت مجنزرات أخرى مسموعاً أمامنا هذه المرّة...».

روى اللاجئون الذين تدفّقوا الآن إلى صفوان بتفصيل مرعب ماذا حصل خلف تلك الدبّابات: «دبّابات تسير فوق الجثث». وقال بعضهم إن مسؤولي حزب البعث شاركوا في عمليات القتل الجماعي للمدنيين. وكان أفراد القوّات العراقية الذين انضمّوا إلى الثوّار مشنوقين وجثثهم ممزّقة بالرصاص.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في البصرة، فرّ حيدر الأسدي ابن السابعة عشرة والذي كان يستمع إلى صوت أميركا وهو يدعو العراقيين للثورة ضدّ صدّام، فر إلى مدينة شطّ العرب أو لعلّه لجأ الى إيران(*).

وقد فعل العديد من الثوّار الناجين الشيء نفسه... ومع والدرن: «أصبح واضحاً أن السبيل الوحيد للنجاة هو العودة إلى النهر والزحف فوق رُكام الهجوم الجوّي الحليف الأخير حيث أملنا أن الدبابات لن تذهب، راجين أن يكون الإيراني في المركب على الضفّة الأخرى لم يفقد أعصابه. وعندما وجدناه أخيراً، كان هناك مركبان آخران يعودان إلى خرمشهر. وكان هناك رجل آخر في أواخر العشرينيّات وآخر أكبر سنّاً في مقدّمة المركب الصغير يحتميان من العاصفة والماء تحت القماش البلاستيكي لصندوق سمك. وبينما كانا يتغطّيان، ازداد السيل المدمدم وتحوّلت إدانة والدرن إلى إعصار: شكّل صدّام وبوش فهد وميتران حلفاً غير مقدّس مع سيل الشتائم. سأل الشاب: «لماذا لم يأتوا؟ لماذا لم يسمحوا لهم». وقال إن مجموعات المقاومة سمعت بتحرير الكويت وتوقّعت دعم الحلفاء أو حتى منع قوّات الحلفاء العراقَ من نشر مدرّعاته الثقيلة في محافظة البصرة. وقد صوّرت الأقمار الصناعية كل ذلك. إن شبح الحلفاء الذين كسبوا حربهم ويخشون الآن بروز تجمّع شيعي في شمال الخليج، متخلّين عن سكّان البصرة، لن يمرّ بسلام. والأمر الأسوأ كان تسامح الحلفاء وتشجيعهم للناجين من نظام صدّام.

كان الشيعة العراقيون على صواب. فقد نُقل عن دبلوماسي أميركي لاحقاً

(*) الآن فقط بدأت معاناة الأسدي. فهو سكن أوّلاً في مخيّم لاجئين غير صحّي جنوب إيران ثم انتقل بعدها إلى قُمّ حيث انضمّ إلى حزب الدعوة العراقي المعارض. لكنّ السلطات الإيرانية شكّت في أن تكون المجموعة شبكة تجسّس أميركية. ضُرب الأسدي وجرى تصوير اعتراف مزيّف بأنه كان يحاول إسقاط الحكم الإيراني. عام ١٩٩٦، بعد ستّ سنوات على فراره من البصرة، حُكم عليه بالسجن ثلاث سنوات لكن أطلق سراحه بعد فترة عندما وافق، حسب قوله، على التعاون مع الإيرانيين. بعد خمسة عشر يوماً من تركه السجن، دفع ثمن انتقاله عبر الحدود إلى منطقة شمال العراق الكردية وحصل على أوراق إقامة من الحزب الديمقراطي الكردستاني برئاسة مسعود برزاني، ثم انتقل عبر نهر دجلة إلى سوريا ثم إلى لبنان حيث قابله المؤلّف عام ١٩٩٨ وسعى جاهداً لطلب المساعدة من الأمم المتحدة للسفر إلى أوروبا. وسافر في النهاية إلى فنلندة للعيش هناك مع شقيقه.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قوله: «صدّام حسين الذى نعرفه أفضل من تحالف ضعيف صعب السيطرة عليه أو رجل جديد قوي غير معروفة قدراته». لقد تدفّق الناجون من غضب صدّام نحو نقاط التفتيش الأميركية في العراق مع روايات كثيرة حول عمليات إعدام جماعية ـ قالوا إنّ عددها بلغ أربعة آلاف في اليوم وبخاصّة في المدن الشيعية الأصغر إلى الشمال الغربي من البصرة أو جنوب بغداد حيث لا توجد أمام السكّان فرصة للفرار إلى إيران. وفي حالات عديدة لن يظهر دليل على شهاداتهم، التي كانت كلّها صحيحة، إلّا بعد ١٢ سنة. ففي عام ٢٠٠٣ فقط، اكتشفت ما حصل في مدينة المسيّب حيث بدأ فتح المقابر الجماعية بعد الاحتلال الإنجلو ـ أميركي.

كانت كلّ مقبرة جماعية تكشف أكثر فأكثر الفظاعة التي تمّ اقترافها في الصحراء الحارقة الرمادية، غربيّ نهر دجلة، كان هناك عمود معدني لامع في وسط كومة من العظام البنّية وقطعة قماش بالية ترمز إلى نظام صدّام، كان وركاً مُستبدلاً. لمس حفّار قبور بلطف قدم جثّة متحلّلة، وصدر صوت خافت. كانت للرجل المقتول قدم خشبية وعند موته كان مريضاً في المستشفى.

بلغ عدد الجثث ٧٣ جُثّة تم إحصاؤها من قِبل الحفّارين استناداً إلى الكشف الزمني، وكانت هناك بطاقة مستشفى مربوطة إلى عظمة. لم يهتمّ جلّادو صدّام بما إذا كانت لديهم أوراق ثبوتية تعرّف بهوية الضحايا.

كانوا ممدّدين بلباسهم الأبيض، أكثر من ثمانين منهم، تحت شمس منتصف النهار مثل الخراف الميتة، بينما كان آخرون مصفوفين جنباً إلى جنب (حوالي ٤٧٠ في آخر إحصاء) في ملعب لكرة السلّة في المسيّب، المدينة القذرة على دجلة حيث كان جميع المسلمين الشيعة يطيعون، قبل ١٢ سنة، أوامر صهر صدّام حسين، حسين كمال، بالتجمع. كان على كل رجل فوق ١٧ سنة أن يأتي إلى هذا المكان. وقالت النساء القلائل اللواتي قابلناهنّ: رأيناهم يتجمّعون بالآلاف، وكانت هناك أربعون شاحنة على الأقلّ تنتظرهم في الليلة الأولى (٥ آذار/ مارس ١٩٩١). لقد تمّ سحق التمرّد المسلم الشيعي في هذه المنطقة وكان منفّذو الإعدام ينتظرون في ساحات القتل في الصحراء في حفر صفا. ويعني الاسم «شاطىء الصخور».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كانت أيدي القتلى أو أجزاء منها مربوطة خلف ظهورهم وكان أحمد رسول كدوم مقيّداً بهذه الطريقة وكذلك رضا محمّد حمزة من الحلّة وعلي حسّونة علوان وإبراهيم عبد الصدر. وهناك رجل مجهول يرتدي ملابس عسكرية فرّ من الجيش وحمل السلاح مع الانتفاضة الشيعية. وقد أخبرني مزارع كان يساعد في عملية الحفر بملل: «هناك مقابر أخرى في كل مكان، لقد سمع بعضنا إطلاق نار في وقتها، وشاهد الجرّافة. كان الأمر منتظماً وروتينياً وقيل لنا إنه إذا تكلّم أحدكم فسوف يُعدم». وأشار إلى أكوام على الأرض غير مستوية إلى الجنوب وعندها أصبحت الحقيقة واضحة. كان هناك ألوف القتلى. وعندما كان يُطمر قبر جماعي كان قتلة صدّام يحفرون آخر. يمكنك تصوّر ثقب في مؤخّرة جمجمة. لكن بعدما ذهب القرويون العراقيون إلى المقابر في الصحراء الرمادية، كانت الرؤوس التي ظهرت محطّمة، وهناك رصاصة حطّمت كل الجمجمة. لكن لا تعطي الأرض الموتى برضاها دوماً. وقد ظلّ حفّار قبور يحفر لعدّة دقائق عند صخرة كبيرة حتى أزيحت فجأة وظهرت جمجمة مع شعر أسود وقميص مع عظام ناتئة. كان هناك فريق طبّي وعسكري يراقب عمليّات الحفر. وكانت معظم الجثث ترتدي دشاديش بيضاء وهي الملابس التي خرجوا بها من بيوتهم. وكانت بيد جثة ساعة توقّفت يوم ٩ آذار/ مارس وظلت تصدر صوتاً في المعصم لمدّة أربعة أيام أخرى في التراب. لكن القبور الجماعية هي مسألة سياسية مثلما هي أعمال إجرامية أيضاً.

إن حسن كامل، صهر صدّام حسين، هو نفسه الرجل الذى أمر بالمجزرة وهرب إلى الأردنّ وكشف أسرار أسلحة العراق الكيميائية قبل عودته إلى العراق ليُقتل على يد صدّام. بالطبع تحدّث حسن كامل إلى المخابرات الأميركية حول الأسلحة الكيميائية العراقية: هل تحدّث أيضاً عن حقول القتل الصحراوية وعن مصير رجال المسيّب؟ في ملعب الأطفال، كانت الأكفان ممدّدة بصفوف عسكرية وقد تمّ التعرف إيجابياً إلى ١٧٠ منها. قال رياض عبد الأمير أحد محقّقي القبور الجماعية بينما كان يسير ببطء قرب صفوف الجثث: «هؤلاء الناس ضحايا صدّام، لكنّهم أيضاً ضحايا الأنظمة العربية التي تعاونت مع

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

صدّام والغرب الذي سانده، وكانت انتفاضتنا عام ١٩٩١ لتنجح لولا تدخّل الإدارة الأميركية».

دلّ وجود ثماني جثث لمصريين ـ كانوا على ما يبدو سائقي شاحنات يعملون في العراق، ربّما حاولوا القتال إلى جانب الشيعة أو أنهم تحرّروا من الأسر في الأيام الأولى للانتفاضة ـ إلى إمكانية وجود جثث أخرى لأجانب. فمثلاً أين هم الكويتيون الستّمئة، أو أكثر، الذين لم يرجعوا أبداً من العراق عام ١٩٩١؟ كان محمّد أحمد يبحث دون جدوى بين الجثث عن بقايا شقيقه. قال: «هؤلاء القتلى كانت لهم حقوق لكن كيف نتأكّد أنهم حصلوا عليها»... لكن ليس للميت حقوق في العراق ولا حتّى للأحياء. في بيروت اجتمعت ٢٣ جماعة عراقية معارضة في منتصف آذار/مارس ١٩٩١ برعاية سوريا، وكان ثمّة رجال غاضبون، بعضهم علماء دين شيعة وعدد آخر منهم فارّون من نظام صدّام، وحصل جدل كبير واحتجاج بشأن طلب مساعدة الأميركيين لإقامة دولة جديدة وحرّة فوق أنقاض العراق وحزب البعث. كان الأمر مدعاة للشفقة. وفي مقهى مُحاذٍ لفندق البريستول نظر إليّ مندوب شيعي بجهد وسأل: «ما هي خطط الأميركيين؟» بينما كان عشرات من زملائه الشيعة والسنّة والأكراد والشيوعيين يحتلّون بهو الفندق: «لقد سمح الجيش الأميركي للحرس الجمهوري باجتياز طريق البصرة للهجوم على المقاتلين هناك. لماذا فعلوا ذلك؟ أعتقد أن اتفاق إطلاق النار نصّ على عدم تحريك القوّات. هل يريد الأميركيون بقاء صدّام؟».. شربت الكثير من القهوة ذلك اليوم. لا يسأل أحد عن نوايا الأميركيين في العراق مع أن مؤتمر بيروت الذي بدأ في ١٠ آذار/مارس (والمنطقة المحيطة بمكان انعقاده، البريستول، تسيطر عليها القوّات السورية ورجال المخابرات المسلّحين بمسدّسات) كان يفترض به الموافقة على برنامج سياسي مشترك لمرحلة ما بعد صدّام. كان هناك كلام أيضاً عن حكومة منفى. ومع ذلك تمّت الإشارة إليها بشكل مُبهم في خطاب بعثي على أنّها «قيادة مشتركة»، أداة للسلطة في بغداد بعد الإطاحة بصدّام، تهيّىء لتشكيل حكومة جديدة وطنية وديمقراطية من الرماد. لكن لم يحضر إلى المؤتمر أي مراقب أميركي. ويبدو

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أنهم غير معنيين بالموضوع على الإطلاق. سافرت من الكويت عبر السعودية إلى البحرين على خطوط طيران الشرق الأوسط MEA وعدت إلى بيروت. أثناء الرحلة حلّقنا فوق إيران وعند الفجر فوق تركيا، ونظرت شرقاً وشاهدت سُحب النفط السوداء من الكويت إلى العراق تمرّ فوق جبال آرارات القاتمة حتى الجبل المقدّس لأرمينيا القديمة والمقابر الجماعية المخفيّة منذ فترة طويلة في تلك البلاد. عندما نزلت في بيروت توجّهت إلى شقّتي وجلست على شرفتي أتنشّق نسيم الصباح المنعش. نظرت خارجاً فوق المتوسّط فرأيت في الأفق البعيد البقعة السوداء نفسها. وحين خرج بعض العراقيين من فندق بريستول وساروا على شاطىء البحر شاهدوا تلك العلامة المتجهّمة لمصير وطنهم.

رغم الحزن، بحثوا عن الأمل. قاموا بإحصاء المدن العراقية التي خسرها صدّام وأكّدوا أن مجرّد قيام ٣٢٥ عراقياً من مختلف الأطياف والقوى بالاجتماع معاً هو نصر بحدّ ذاته. وكانت اللافتة المعلّقة فوق المنصّة في قاعة المؤتمر تقول: إن وحدتهم ضمان للخلاص من الدكتاتورية. وقالوا لنا أن ليس لدى أيّ منهم نيّة فرض دولة إسلامية في العراق لأنهم اكتشفوا أن ذلك هو الكابوس الأميركي والكويتي والسعودي، لكن تركوا لآية الله مدرّسي التعبير عن مخاوفهم. قال: «بدأ بعض العراقيين التفكير في أن الأميركيين يفضّلون صدّام وهم يتساءلون ما إذا كانت أميركا تفضّل صدّام بدون أسنان على عراق بدون صدّام».

كان كل العراقيين في بيروت يتحدّثون بغموض. عندما عبّروا عن رغبتهم في إجراء انتخابات شعبية وديمقراطية كانوا يحاولون تبديد المخاوف الأميركية حول نشوء جمهورية على النسق الإيراني في مرحلة ما بعد صدّام. وعندما تحدّثوا عن الوحدة كانوا يحاولون إقناع بعضهم البعض أن العراق لن يتجزّأ إلى دولة شيعية ودولة سنّية وكردستان جديدة. وعندما أدانوا وجود قوّات أجنبية على الأرض العراقية (القوّات الأميركية) كانوا ينفون أنهم موظّفون أميركيون. وصرّح أحد المندوبين على المنبر: «لن نقبل أجانب على الشواطىء المقدّسة لدجلة والفرات»، لدرجة أن الأميركيين فقدوا الاهتمام بهذه اللعبة الديمقراطية.

لم يكن ذلك هو السبب الوحيد. فلفترة طويلة كانت الأحزاب الإسلامية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بغالبيّتها من الجماعات الشيعية، ولم يكن السنّة الذين يشكلون ٤٠ في المئة ممثلين بمنظّمة سياسية واحدة. ولم يستفد المسيحيون والشيوعيون كثيراً منذ بداية المؤتمر، حيث كان مندوبوهم يستمعون إلى تلاوات طويلة من القرآن الكريم.

كان الزعماء الشيعة اللبنانيون مرتبطين بشكل وثيق ببعض الحركات العراقية. كان آية الله محمّد باقر الحكيم ـ الرجل الذي يُعتقد أنه كان وراء انتفاضة البصرة والذي قُتل بانفجار ضخم في النجف أثناء الاحتلال الأميركي بعد ١٢ سنة ـ ابن خالة السيد محمّد حسين فضل الله، المرشد الروحي لحزب الله والمرشد الروحي لحزب الدعوة العراقي. كانت والدة الحكيم من عائلة بزّي اللبنانية.

كانت هناك صفة صغيرة ميّزت المؤتمر ولقد مرّت دون ذكر. كلّنا نعرف أنه كان بين الأحزاب العراقية الأشخاص السبعة عشر، الذين شكّلوا لجنة العمل المشتركة للمعارضة العراقية والتي اجتمعت في دمشق في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٠ للعمل على بناء عراق جديد وديمقراطي. كانت اللجنة تضمّ حزب الدعوة، والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية الأكثر أهمّية بين المجموعات الموالية لإيران والمرتبط بشدة بالوزير الإيراني السابق علي أكبر محتشمي، والحزب الشيوعي العراقي وعلى الأقلّ أربعة أحزاب كردية ومجموعتان من الحركة الإسلامية والوطنيين المستقلّين المدعومين من السعودية. لكن أصرّ السعوديون أيضاً على مشاركة صلاح عُمر العلي عن الحزب الدستوري العراقي الوطني وحزب سعد صلاح جابر ـ المؤتمر العراقي الحرّ ـ في المؤتمر. وكان صلاح عُمر العلي البعثي السابق نفسه الذي أذاع ذلك النداء العارم والمصيري للثورة عبر إذاعة الاستخبارات الأميركية يوم ٢٤ شباط/ فبراير. في الأيام القادمة، كانت هذه الدعوات الأميركية المنظمة للتمرّد على صدّام مشابهة لدعوات السوفيات إلى البولنديين للثورة على الألمان في وارسو عام ١٩٤٤ عندما وصلت القوّات الروسيّة إلى الضواحي الشرقية للمدينة وبدت مستعدّة لتحرير العاصمة البولندية عندما تبدأ الانتفاضة. أطاع البولّنديون الدعوة إلى الانتفاض ضدّ النازيين وانتظر السوفيات حتى قضى الألمان على الثوّار من القوّات القوميّة البولّنديّة التي كان يمكن أن تعارض النظام الشيوعي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كان العراقيون يعملون لصالح الأميركيين وفعل السعوديون الآن الشيء نفسه. دعوا إلى ثورة وراقبوا صدّام وهو يسحق الثوّار وقضوا على أيّة فرصة لجمهورية إسلامية أو أي نوع آخر من الدولة في العراق. وبعد ١٢ سنة احتلّوا بغداد وعيّنوا حكومتهم الانتقالية كما فعل السوفيات في بولّندا بعد الحرب.

في بيروت قابلت آية الله مدرّسي الذي وافق على أن البصرة سقطت بالفعل، لكنّه ادّعى أن العمارة والناصرية والديوانية وسامرّاء والنجف وكربلاء ما زالت صامدة أمام قوّات صدّام. وحول رغبة الأميركيين في دعم صدّام مسالم لمنع قيام دولة إسلامية، صرّح بأن «على الولايات المتحدة أن تدرك أن الثوّار العراقيين يركّزون على إعادة إعمار العراق وليس على الثورة. كان هذا الخوف لدى الغرب مرتبطاً بإيران مباشرة، إذ ليس لدى الغرب علاقات جيّدة مع إيران، لذا كان هناك قلق حول ما يجرى الآن في العراق. لكن هذا سوء تقدير. فالانتفاضة لم تحصل خلال السنوات الثماني للحرب العراقية الإيرانية بل حصلت بسبب ما قام به صدّام. لا تستطيع نسخ ثورة من دولة إلى دولة أخرى. أظنّ أن علينا سؤال الشعب أية جمهورية يريد. شخصيّاً أريد دولة إسلامية لكن ليس بالقوّة. إذا اختار الشعب طريقاً آخر فأنا معه أيضاً. لكن لن ينسى العراقيون قلّة الدعم الأميركي عند إسقاط صدّام».

لكن بعد ٢٤ ساعة، اعترفت المعارضة العراقية أن الانتفاضة الشيعية فشلت. وكان الدليل الأكثر إقناعاً حول ذلك ما ورد على لسان السيد عبد العزيز الحكيم، شقيق آية الله محمّد باقر الحكيم، الذي اعترف أن النجف وكربلاء لم تعودا بيد الثوّار. وحتى الشيوعيّون اعترفوا أن الانتفاضة تواجه الآن مصاعب خطيرة. وحدهم المندوبون الأكراد كانوا قادرين على تشجيع المؤتمر بمزاعم أن ثوّارهم ما زالوا يسيطرون على القرى شمال كركوك!

كانت الشخصية الأكثر احتراماً في بيروت شخصية محمّد مهدي الجواهري، أشهر شعراء العراق. كان عمره تسعين سنة وكان يجلس على المنصّة مرتدياً سترة مجعّدة مع قبّعة طرية على رأسه ويتحدّث بلغة الشعر. وقال: «لم أتوقّع المشاركة في المؤتمر... أطفال العراق يبتسمون الآن وكذلك المسنّون. يعاني

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

شعبنا في ظلّ نظام صدّام حسين، وكلّنا نعاني الإعدام والتعذيب والإبعاد. لكننا صابرون ومتّحدون. قلبي معكم ويدي بيدكم. تحتاج الانتفاضة في العراق إلى مساعدتكم... لكلّ شيء نهاية، ولكل جريمة عقاب»...

في ختام المؤتمر استطاعت المعارضة العراقية فقط صياغة طلب غير مُلزم بتشكيل لجان.. هذه المؤسّسات يحبّها الزعماء العرب الذين يرغبون تجنّب قرارات جدّية. وكانت لجنة الخلاص الوطني هي الصيغة الأكثر أهمّية والأقرب إلى حكومة منفى. ولكن الأمر الأكثر سخفاً كان تشكيل وفد لإبلاغ بقيّة العالم ماذا يجري في العراق كما لو أن العالم لا يعرف سلفاً ما الذي يجري هناك.

لقد بات واضحاً أنه عندما أوقفت الفرقة الأميركية المدرّعة الأولى دبّاباتها في صفوان، تحرّكت فِرق الإعدام شمالاً إلى داخل العراق ناشرة النار والدم على الأرض. ومثل العديد من الناس، كان العراقيون الذين يُقتلون كلّ يوم أكثر ممّا حصدت غارات الحلفاء الجوّية في الشهر السابق. وكان آية الله مدرّسي الذي وصف معاناة شعبه قد صرّح: «تحرّرت الكويت على حساب دم الشعب العراقي». وتجلّت حقيقة ذلك في ساحات الإعدام في جنوب ووسط العراق، بينما كانت واشنطن تراقب بصمت ماكر. وبحسب صحيفة الواشنطن بوست، لم تستطع الإدارة الأميركية التقرير إن تعمد إلى إرسال قوّات إلى داخل العراق «لشلّ قدرة صدّام على قمع الثوّار» أو تنسحب بحيث تستطيع القوّات العراقية تعزيز سيطرتها، ومن ثمّ تتحدّى زعامته. كان رئيس أركان القوّات الأميركية كولن باول في أشدّ حالات الهلع. وتساءل بطريقة مؤثّرة: «ما هي الطريقة الأفضل للتخلّص من صدّام حسين؟ حقيقةً لا أعرف». لم تتّخذ الإدارة الأميركية أي موقف حيال المسألة لأنها مشكلة داخلية في العراق، ولم تكن لدى باول أيّ تعليمات للقيام بشيء ما وهذا لمصلحة الطرفين.

كانت الطائرات الأميركية تحلّق بحرّية فوق العراق، على علوّ منخفض كافٍ لمراقبة المعارك عن قُرب. وكانت طائرات الاستطلاع التقطت صوراً لحواجز الطرقات والأبنية المحترقة والدبّابات العراقية، وفي بعض الحالات طائرات الهليكوبتر العراقية المهاجمة التي سمح لها شوارزكوف والأمير خالد بالتحليق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فوق شوارع مدن العراق الرئيسية. وإذا تحرّك الأميركيون متردّدين لحماية الأكراد كما فعلوا لاحقاً مُجبرين تحت ضغط الرأي العام فإن ذلك لم يحصل تجاه الشيعة في الجنوب. ورغم الدليل الحسّي على الجرائم المروّعة ضدّ الإنسانية، لم تكن هناك أيّة محاولة لإنقاذ السكّان الشيعة التي تخيف روابطهم الدينية بإيران واشنطن وحلفاءها في الخليج.

كانت هناك روايات دقيقة حول الفظائع يرويها الجنود العراقيون السابقون عند الخطوط الأميركية في الجنوب. روى إبراهيم مهدي إبراهيم (٣٢ سنة) وهو جندي فارّ، كيف أخرجت وحدات الحرس الجمهوري العائلات من بيوتها بوعود بالأمان ثم قصفتها بالمدفعية. قال: «كان جنود صدّام يحاولون حصدهم مثل القمح والقشّ بمدافع الهليكوبتر الرشاشة بينما كانوا يختبئون في الحقول». وقد أبلغني مُسعف عسكري أميركي عن معالجته للاجئين شيعة ضُربوا بالأنابيب وهم مصابون بحروق، فيما ضُرب الأطفال بأسلاك شائكة. وكان العديد منهم ممّن قُتلت عائلاتهم. وضُربت فتاتان بالأحزمة وبأدوات غير حادّة. ووصل العديد من الرجال الباكين إلى نقطة تفتيش أميركية في سوق الشويخ بروايات مشابهة حول مقتل عائلات بكاملها من قِبل الحرس الجمهوري. وقال جندي عراقي آخر هارب: «إن العائلات التي أرادت الرحيل حوصرت وقُتلت على الطريق. ورأينا بأمّ العين كيف أحضروا الجرحى من المستشفيات وقاموا بقتلهم مع الأطبّاء المعالجين. وعندما دخل الجيش العراقي منذ أسبوع، عادت العائلات التي هربت من القتال مع أولادها، فقاموا بصفّهم على الجدران ثم أعدموهم». ولقد أثبتت أسرار المقابر الجماعية الكثيرة خارج المسيّب بعد عدّة سنوات أن قصّة هذا الرجل لا مبالغة فيها. وفي أميركا نشرت صحيفة نيويورك تايمز أن الولايات المتحدة تركت الثوّار العراقيين لمصيرهم ونقلت عن مسؤول كبير، مجهول كالعادة، قوله: «لم نقدّم أبداً وعوداً لهؤلاء الناس، ليس لدى التحالف أيّة مصلحة في عمليّات عسكرية إضافية». وهكذا كانت الحال في أوساط حلفاء أميركا العرب. فإذا كان تصرّف الولايات المتحدة وبريطانيا مهيناً وغير أخلاقي فردّ فعل معظم الأنظمة كان مُذلّاً. وقد عبّر العديد من الصحفيين العرب عن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

اشمئزازهم لأن أكبر الجيوش العربية والأكثر تطوّراً في الشرق الأوسط هُزم بشكل مُخزٍ. في الصحف العربية وُصِف تدمير جسر متلة بأنه «نكبة» وهو التعبير نفسه الذي استُخدم لوصف هزيمة الفلسطينيين عام ١٩٤٨. وباستثناء سوريا، كانت هناك بعض كلمات التعاطف في العواصم العربية مع الرجال اليائسين الذين يقاتلون ضدّ صدّام بين أنقاض جنوب العراق وجبال الأكراد. ولم تُثر مجازر البصرة والنجف ولاحقاً كركوك أيّة مشاعر بالفظاعة بين ملوك وأمراء الخليج ولا بين الرؤساء المسنّين المدعومين من الغرب. فبشكل عام كان لدى معظمهم أقلّيات مقموعة بينها الكثير من الشيعة.. ولم تكن لديهم النيّة لدفع شعوبهم لإدانة ما حصل للانتفاضة العراقية. ولخزيه، كان على عرفات الذي يوجد شعبه في المنفى إظهار تعاطف مماثل مع الأكراد الهاربين لكنّه لم يُظهر أي شعور نحوهم.

مرّت جُلجُلة الشيعة غير مكشوفة بشكل واسع من الصحفيين الغربيين وخاصة التلفزيون وكانت الروايات عن حجمها تنقل عن طريق الرجال والنساء اليائسين الواصلين إلى مراكز التفتيش الكويتية شمال الكويت. ولكن في كردستان كان مراسلو التلفزيون والصحافة بين المقاتلين واللاجئين حيث نتجت عن هجوم صدّام المعاكس مأساة ضخمة (قُتل أربعة مراسلين هناك). وسار الصحفيون إلى جانب عشرات الآلاف من الرجال والنساء الأكراد الذين كانوا يهربون شمالاً إلى جبال الثلج الكثيفة على الحدود التركية. وكان المسنّون يموتون من البرد والنساء يلدن في الثلج والأطفال يُتركون وسط القاذورات. وكما كتبت صحيفة الإندبندنت بدقّة متناهية: «كانت أقوى آلة عسكرية تجمّعت منذ الحرب العالمية الثانية تراقب المشهد الوحشي من الخطوط الجانبية». لذا ورغم تقارير المراسلين المؤلمة كانت وجهات النظر التي تشكّلت لدى الصحف الأميركية الكبرى والرأي العامّ الشرقي متفاوتة: كانت الواشنطن بوست لصالح عدم التدخّل بينما اشتكى كاتب النيويورك تايمز لسلي غيلب قائلاً: «إن منطق التدخّل يقود حكماً إلى احتلال بغداد. وإذا فشلت القوّات العراقية في القتال في الكويت فإننا لا نستطيع الاعتماد على ذلك في مدينتهم. ومن سيقاتل إلى جانبنا؟ لا أحد. وماذا عن الخسائر المدنية؟ العديد منها. وماذا نفعل بعد احتلال بغداد؟ وبأي ثمن؟».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

هنا سوف تزور أشباحُ المستقبل الماضي مجدّداً. أجل، لو تابعت القوّات الأميركية التقدّم نحو بغداد، كما اعتقد شوارزكوف أنه كان عليها القيام بذلك بسرعة، فماذا يحصل؟ سوف يتفكّك التحالف العربي ولن يكون لدى بريطانيا وأميركا أيّ أصدقاء. لكن هناك بعض الشكّ في أنه لو سارع الأميركيون لإسقاط نظام صدّام لكان قد حصل ترحيب من العراقيين الذين توقّعوا بثقة حصوله عام ٢٠٠٣، لكن ذلك لم يحصل. بالتأكيد بعد خيانة أميركا للشيعة عام ١٩٩١ لم يعد الأميركيون موضع ترحيب لدى الشعب العراقي. عام ١٩٩٦، تحدّث الرئيس بوش الأب من شاشة التلفزيون في سلسلة مقابلات وقال إن ابنه أخطأ بملاحقة القوّات العراقية حتى بغداد عندما غزا العراق عام ٢٠٠٣، «لأننا سنسمع بعد ذلك أن أميركا احتلّت أرضاً عربية بحثاً عن هذا الطاغية الفظّ الذي يمتلك أفضل أمن في العالم، والمتورّط في حرب عصابات مدنية». الأمر الذي حصل بالفعل لاحقاً حتى مع فشل بوش في إدراك أن القبض على صدّام سوف يشجّع حرب العصابات المدنية التي تحدّث عنها(*).

غير أن المَخرج المبدئي تمثّل في مساندة بوش لدعوة الثوّار العراقيين. لقد أيّد بحماسة الانتفاضة وبثت إذاعة الاستخبارات الأميركية نداءات للشعب العراقي تدعوه إلى إسقاط صدّام. وكان واضحاً أن هذه النداءات ألزمت الأميركيين بحماية الذين دعوهم لحمل السلاح إلى جانبهم.. ولم يكن تجاهل هؤلاء الرجال الشجعان والمصمّمين عندما لبّوا النداء، وتركهم يبادون مع عائلاتهم، عملاً حقيراً فقط بل جريمة بحقّ الإنسانية. والآن، وحتى بعد أن أُجبرت الحكومة الأميركية على تقديم حماية عسكرية للأكراد، وعلى الرغم من سحق تمرّدهم بشكل جوهري، فإنها ما زالت تعتبر حرب الخليج نزاعاً أخلاقياً بالطبع، نزاعاً يرفع من شأن الأميركيين. في آب/أغسطس ١٩٩١، كان وزير

(*) كانت هناك أصوات غامضة أخرى داخل الإدارة في ذلك الوقت. وقد نقل مراسل الواشنطن بوست يوم ١٤ نيسان/ أبريل ١٩٩١ عن مسؤول أميركي مجهول بالطبع «أن الشيء الذي يجعل الأمر مثل فيتنام هو الدخول إلى العراق والبقاء هناك وإقامة حكومة جديدة وحمايتها ضد الشعب المعادي.. إن ذلك سيكون مصدر الكارثة».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الدفاع الأميركي ديك تشيني قادراً على وصف الحرب بأنها قدر بالنسبة إلى أميركا بعد فيتنام. وصرّح: «إنها عملية مداواة بامتياز لجرح ظلّ مفتوحاً لفترة طويلة». على أن الجراح الحقيقية لعشرات الآلاف من الجرحى الناجين من الانتفاضة العراقية، وللعائلات المحطّمة والمشتّتة من الشيعة والأكراد، وحتى للعدد الأكبر من المقاتلين والمدنيين الأموات المدفونين تحت التراب على أيدي قتلة صدّام، لم تكن جزءاً من عملية المداواة التي تحدّث عنها تشيني. كان قدرهم الموت. قاموا بما أُمروا به، خدموا قضيّتهم. فشلوا في إسقاط صدّام. كان هذا مصيرهم. لكننا شُفينا. دعا بوش لإسقاط صدّام ثمّ قال إنه لم يهدف أبداً إلى مساعدة الثوّار في نزاعهم. وأوجز تقرير للأسوشيتدبرس بوضوح سياسة بوش في أوائل نيسان/أبريل. قال التقرير إن الرئيس يراهن «على أن الأميركيين مهتمّون بعودة القوّات من الخليج أكثر من مساعدة الثوّار العراقيين على إسقاط صدّام». لكنّ الرايات الصفراء وأجراس الكنائس التي احتفلنا بها نحن الغربيين عام ١٩٩١ أصبحت الآن موضع سخرية. امتدت شظايا الزجاج الهشّ الذي يرتكز عليه الشرق الأوسط الآن إلى مسافة ٨٠٠ كلم، إلى الفرات ودجلة. وكانت أرواح بشرية كثيرة معظمها من المدنيين تُزهق يومياً داخل العراق أكثر من أي وقت مضى منذ غزو صدّام للكويت. وقد أبلغني مسؤول كبير من مجلس التعاون الخليجي في الرياض: «حذّرناهم من ذلك، أبلغنا الأميركيين أن تحرير الكويت سوف يحرق المنطقة. أبلغناهم أن عليهم البقاء حتى لو رفضهم شعبنا لكنهم لا يتعلمون أبداً، أبداً».

كان عليّ التحدّث إلى الكويتيين وبشكل خاصّ وترك المعارضة العراقية والسوريّة جانباً، وكانت صحوة مرعبة أن أدرك أن هذه الأحداث في الخليج تمثّل بالنسبة إليهم مرحلة غير منفصلة ومأساوية من تاريخهم، فترة دموية مستمرّة بشكل مأساوي بدأت قبل سقوط الإمبراطورية العثمانية وهي تتزايد بشكل مرعب في جبال كردستان. عبر التاريخ، لم يحصل تدخّل غربي في العالم العربي لم تصاحبه خيانات، مع أن الخداع كان أكثر وضوحاً هذه المرّة.

ما كان يفترض أن يبدأ «كحملة» غربية نبيلة لتحرير الكويت من العدوان

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تحوّل إلى مأساة بأحجام كارثية. كتبت في صحيفتي في نيسان/ أبريل ١٩٩١، أن المؤرّخين ربّما يقرّرون في المستقبل أن تحرير الكويت شكّل فقط الفصل الأول من حرب الخليج، وأن مجزرة الشيعة والأكراد داخل العراق كانت الفصل الثاني. ويوحي التاريخ نفسه بأن الغرب لن يكون قادراً على تجنّب التورّط في الفصول القادمة.

في الأسبوع الأول من نيسان/أبريل، كان مليونا لاجىء كردي منتشرين على الحدود المغطّاة بالثلج بين تركيا وإيران وقد مات ١٢٠٠ منهم على الحدود. وأقرّت أميركا مع حلفائها الغربيين الآن أن المأساة يُستبعَد أن تكون نتيجة منطقية لدعواتهم إلى الثورة بل هي نتيجة أخرى لجرائم صدّام ضدّ الإنسانية. إن المعاناة الكردية وبطش فرق القتل التابعة لصدّام تمثّل جريمة ضدّ الإنسانية من قِبل النظام العراقي. لكنّ التورّط الغربي في مأزق الثوّار العراقيين سوف يُترجم من خلال تدفّق المساعدة الإنسانية. وسوف تغرق الضمائر المذنبة بالأطعمة الجاهزة والخِيَم وملايين الدولارات مساعدة لهؤلاء الثوّار. وفي الأسابيع اللاحقة وبينما كانت القوّات الأميركية والبريطانية تنتشر في شمال العراق لحماية اللاجئين الأكراد مُلقية من الجوّ آلاف الأطنان من الأغطية والأطعمة، قُتل العديد من الذين هُرعوا لالتقاطها عندما وقعت في الجبال عليهم.. وهذا خبر جديد وغير سارّ وُضِع جانباً من قِبل الغرب. تعال انظرْ ماذا حصل للأكراد، انظرْ ماذا يستطيع قتلة صدّام فعلَه؟ مَن يستطيع الآن أن يشكّ في المبرّر الأخلاقي للحرب ضدّ صدّام؟ هنا كان الدليل الأخير، بين مخيّمات اللاجئين في الجبال، على انتقام صدّام. وعندما رحنا ننبش المقابر الجماعية للثوّار وعائلاتهم، بعد ١٢ سنة، كنا نريد أن نقول إن ذلك فقط هو الدليل الأخير على مظالم صدّام والبرهان على أننا كنّا على حقّ بغزو العراق عام ٢٠٠٣، وأننا كنا في عام ١٩٩١ نستعرض مجموعة من الأدلّة على شروره.

لا حاجة إلى القول إن القتلى الشيعة تمّ تناسيهم على نطاق واسع. ويجب الآن إعادة كتابة التاريخ لنعطي هؤلاء حقّهم بشكل أفضل ضمن سياسة الولايات المتحدة. «لن نقوم بتكرار التدخّل في عمليات اللاجئين» هكذا حذّر مستشار

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الأمن القومي برانت سكوكرفت من عنف صدّام يوم ٤ آذار/مارس.. ثم أضاف بالنبرة نفسها: «إننا لن نتدخّل.. وقد قلنا سابقاً إنها حرب أهلية». كان ذلك مُهيناً.. فمن دون تحدّي أحد بهذه الملاحظات المخادعة، حوّل سكوكرفت الانتفاضة التي دعت إليها حكومته إلى حرب أهلية بين العراقيين. كان الثوّار الآن مشاركين في نزاع داخلي. والذين طلبنا منهم إسقاط صدّام يشاركون في نزاع لا علاقة لنا به. إن هؤلاء العراقيين يؤمنون بالتأكيد بما طلبناه منهم أساساً وهم يحاولون إسقاط دكتاتور بناء على طلبنا.

ثم عمد الرئيس بوش إلى توسيع هذا الشريط الجديد الكاذب للأحداث. في خطاب ألقاه في ألاباما في اليوم نفسه، أعلن أن واشنطن لن تتسامح مع أيّ تدخّل في عمليات الإغاثة الدولية، ثم قال «لا أريد أن يقتل أيّ جندي أو طيّار في حرب أهلية قائمة في العراق منذ أجيال». لاحِظ الدلالات هنا. يجب على صدّام ألّا يتدخّل في توزيع المساعدة الدولية لكنه لم يتدخّل أو حتى يخطط للتدخّل بما أسماه الأميركيون «عملية تأمين الراحة». كانت طائرات صدّام وفِرق إعدامه تقضي على الثوّار والأهالي المدنيين قبل وصولهم إلى مراكز الإغاثة، وكانوا يقصفون الأكراد ويقتلونهم حين كانوا يحاولون جاهدين الوصول إلى المخابئ في الجبال. وعندما وصلوا، كان هناك «دليل آخر على وحشية صدّام». وأثناء فرارهم إلى الجبال كانوا «مشاركين في حرب أهليّة»، ولذلك لم يكن من الضروريّ التدخّل. أضف إلى ذلك أنهم كانوا «جزءاً من حرب أهليّة تجري منذ أجيال». كان الأمر لغزاً بالنسبة إلى معظم العراقيين، فها هم وقد صاروا متورّطين فجأة في حرب أهلية. صحيح أن قمع صدّام للأكراد كان يهدف إلى إشعال مثل هذا النزاع لكنّ الحرب الأهلية كانت شكلاً من العنف تحرّر منه العراق تاريخياً. لم تكن هناك أبداً حرب أهلية في العراق. وظلّت هذه حقيقة حتى عندما ادّعى الاحتلال الأميركي والبريطاني بعد ١٢ سنة أن أعداءهم في البلاد يحاولون إشعال حرب أهلية. كل ذلك يعيدنا بالذكرى، وهو هروب إلى الأمام، إلى واقعة رفضنا إنقاذ أرواح الأبرياء في حرب البوسنة عام ١٩٩٢، بعد عام فقط من إعلان انتهاء حرب العراق. في البوسنة، كرّر المسؤولون

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الأميركيون والأوروبيون الأسطوانة ذاتها، بينما كان المسلمون يُذبحون على أيدي الصرب: «إنها حرب أهليّة بالفعل وهذه الحرب الأهليّة مستمرّة منذ أجيال». ربّما فهم جنود الحدود الأميركيون وقوّات البحرية، وقد وجدوا أنفسهم الآن مع الطواقم الجوّية بعيداً عن الكويت ليعودوا بعد أيام ويُرسَلوا إلى البلد الذي اعتقدوا أنهم انتهوا منه. كانوا هناك بالآلاف، جيش آخر، ولكنه هذه المرّة جيش عنده ضمير (ضميره مُذنب بحسب رأيي)، أُعطيت له أوامر لإنقاذ أرواح وليس للقتل بالطبع.. رحلت أرواح الشيعة، آخر أكوام الإعدامات ملأت شوارع البصرة، ولكن بعض أرواح الأكراد ما زالت هناك. كان الأميركيون رجالاً أذكياء، قمنا بجولة مروحيّة داخل ما يشبه مدينة أميركيّة صغيرة حقيقية، كانت آلة التسجيل بيدي، بينما كنا نحلّق فوق ما سوف يصبح دولة جديدة، إذا لم يتعرّض الأكراد مجدّداً للخيانة، كما اعتقدت. أمّة أسمها ـ كردستان. أول تقسيم للعراق. وكالعادة أراد الأميركيون أن يكونوا مُرشدين سياحيين. « حسناً بوب، سوف نريك جزءاً من العراق». كان الضابط تيم كوروين يعني جيّداً ما يقول. قاد طائرته «سيكلون سيڤن فايف» Cyclone seven five CH 47 فوق زاوية جبل ارتفاعه ٦٠٠ متر حيث الوديان والسهول الكبيرة الخصبة لما بين النهرين تنتشر تحتنا. وبحسب ملفّ قانون الطيران، المتأرجح على ركبة كوروين نحو المحرّكات، كنا نطير فوق بلد اسمه كردستان. الويل للجندي العراقي الذي أطلق النار علينا أو على القوّات البريطانية الزاحفة نزولاً عند أطراف الجبل تحتنا.

كان صوت كوروين الذي يطقطق عبر سمّاعات القائد تشاك لانكستر يروي كلّ القصّة. «سيّارة نصف مجنزرة إلى اليمين، قربها ثلاثة إنكليز. وادٍ جميل جدّاً، هذا المكان برمّته. إذا رأيت أيّ أشرار أعلمني». كان مدفع رشّاش الرقيب جيمس سيمز يتدلّى من باب المروحية التي عبرت الوادي الذي أمامنا... أجاب «لا أحد»، وعيناه تراقبان الصخور أمامه ورجلاه مثبّتتان بشدّة في مواجهة الاضطراب الذي خرج من الشقّ الجبلي. «أليس هناك رجال أشرار؟».

خارج العمادية كان هناك المزيد من الإنكليز، قبّعات البحرية الملكية تتحرّك

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

على طول الطريق وسلسلة من سيّارات اللاندروفر. ضغط كوروين على زرّ الراديو: «الإنكليز في كلّ مكان». أومأ لانكستر برأسه وضغط: «أحبّ رؤية ذلك».. المزيد من سيّارات اللاندروفر الآن على طول طريق زاخو والسيّارات المدنية محمّلة بالفرش والأغطية.

على القمم كانت التحصينات العراقية مهجورة، وآثار موحلة للمدرّعات والأسلحة تسلّلت باتجاه أقرب الطرق. حصن عراقي بأسلحته اللامعة وأبراجه الحجرية الأربعة يتّجه نحو المرفأ، علمه العراقي ممزّق، وأبوابه مشرعة للريح، آخر حُطام لقمع صدّام للأكراد. لم تعد هذه العراق. أصبحت شيئاً مختلفاً، كياناً جديداً يظلّل خرائطنا أعمق من الوديان المتصدّعة بفعل حرارة الموصل.

مالت مروحية «سيكلون سيڤن فايف» بزخم شديد مع انحسار التلال تحتنا. صرخ كوروين: «بالطبع هذا بلد جميل. إنه مثل بلدي في أريزونا». الجبال إلى الشمال تغطّي الأفق مكسوّة بالثلوج، سلسلة من الغيوم المنفوشة تلتصق بالغرانيت، «نفاية» بلغة الطيران عند لانكستر. نظر الطيّارون الأميركيون الأربعة إليها بانتباه وهم يتحدّثون مثل طيّاري حرب فيتنام معبّئين موجات الراديو بالشكاوى والمراسلات اللاسلكيّة والحسابات الدائرية. كانوا رجالاً أذكياء ومرحين يمزجون الفرح بالسياسة مع الطيران. في مؤخّرة المروحيّة جلس الرقيب تشارلز نابورز صامتاً معظم الوقت. تتعلّم الكثير من الطيران معهم وأنت تستمع إليهم... الخطوط تطقطق، الوحول تتسلّل إلى الملاجىء المؤقتة تحت جسم المروحيّة، جوف صغير آخر أستطيع الجلوس فيه مع مسجّلتي وأشعر بالأمان مع نظرة «سيكلوبية» إلى العالم. بعيداً إلى الغرب، كان نهر دجلة يلمع.

كوروين: «بالطبع أعرف أن هذا من التاريخ. أعتقد أنها ستصبح دولة كردستان أو ما يسمّونها».

لانكستر: «إذا كان علينا البقاء هنا أكثر من ثلاثة أشهر سينخفض معدّل مزاحي».

كوروين: «أتمنّى أن لا يكون ذلك مستنقعاً مثل بيروت ـ لبنان. أتمنّى أن يكون بوش يعرف ماذا يفعل».

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لانكستر: «عليه ذلك، لأن الشعب لن يوافق على القذارة. هذا يكلّف كمّية ضخمة من المال. نحن تكلّف ما بين ٢٥٠٠ و٣٠٠٠ دولار على هذه المروحية لكلّ ساعة صيانة فقط. لحظة، اتصل بالمجهّز على ٣٧٥، لديّ مهمّة لدلتا فايف Delta five. الشيء الوحيد الذي يهمّني على هذا الارتفاع هو الوقود. أنظر فقط إلى تلك القرية. إنها تبدو كما في العهد القديم».

كوروين: «إنها تشبه ما تقرأه في الإنجيل. طرسوس إلى الغرب من هنا، إنها من حيث جاء بولس. وجبل أرارات إلى الشرق، أليس هذا شيئاً ما؟ كنت في أزمير حيث سُجن ريتشارد، «قلب الأسد»، وكنت بعيداً ١٥ ميلاً عن طروادة قبل ذلك. فكّر في ذلك: هوميروس، الأوديسة.... هناك الكثير من الدم على هذه الأرض. شيء لا يصدّق. كلّ ذلك باسم المسيحية. كل ذلك الدم والتخثّر».

لانكستر: «كم تعتقد أن هذا المستنقع سيستمرّ؟».

كوروين: «أراهن أنه لن يستمرّ أكثر من شهر ونصف. وماذا عن الأكراد؟».

لانكستر: «إنهم لا يثقون بنا».

كوروين: «كلّا، هذه هي الحقيقة».

لانكستر: «هل ساعدناهم عندما حصل التمرّد؟».

نابورز (من آخر المروحيّة): «كانت معي طفلة عمرها أربع سنوات توفّيت بين يديّ. أعتقد أنها كانت مصابة بالتهاب معويّ. كان ينقصها الماء. أخذناها معنا إلى زاخو مع كل عائلتها لمحاولة إنقاذها. بدأت تتنفّس بصعوبة وكنت أحملها بين يديّ. كان أفراد العائلة جالسين قربي على الأرض ووضعوا أيديهم عليها. كانوا يصلّون. وضع والدها يده على رأسها وصلّى ونظر بعيداً. هكذا صلّى كل الأكراد لها في الطائرة. أترى، كانوا يعرفون أنها ستموت ثم ماتت. رحلت بسرعة بين يديّ».

مشيت إلى مؤخّرة الطائرة شينوك. كانت عيون نابورز مليئة بالدموع. تحتنا ظهرت بقايا قرية من العصور الوسطى وربّما الحجرية، والعشب يغطي الدوائر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

والطرقات والأزقّة القديمة التي كانت يوماً العراق. كانوا رجالاً جيّدين على متن هذه الطائرة. كانوا ينقلون الطعام إلى مخيّم يكمال الموجود في منطقة جبلية تركية والذي أخذنا لانكستر إليه لاعناً المراقبة الأرضية وشاتماً، عندما تمزَّقت خِيَم اللاجئين على الأرض بسبب المراوح. كان تحت الخيم ٦٠ ألف لاجيء وعندما أوقف كوروين المحرّكات سمعنا فجأة أصوات ٦٠ ألف شخص يتمتمون. عندما غادرنا، عدنا إلى عالمنا الزجاجي الأولمبي متسلّلين فوق أشجار الصنوبر والشلّالات مظفّرين في طيراننا، آمنين في وجودنا الصغير، ضمن أجهزة الإرسال وأجهزة التدوير، وضغط النفط، فوق كردستان. ربّما مع هذا الانحياز تنشأ الأمم.

بالطبع، خرقت عملية إنقاذ الأرواح في وقت ما التشابه الغريب مع نقيضها. كان تقرير المهمّة اليومية هو الذي يعطيك شعوراً محسوساً بعدم الراحة: «هذه عملية ٢٨ يوماً لتأمين المساعدة». حتى الساعة السادسة كان هناك ما مجموعه ١٩٥٤ مهمّة إلقاء جوّي لـ ٨٧١٣ طنّاً من المساعدات. كانت الطلعات الجوية بقيادة أميركا وبريطانيا وفرنسا وكندا وإيطاليا وألمانيا لمجمل قوّات التحالف مستمرّة في التزايد مع أكثر من ١٣١٤٦ جندياً من ثماني دول مشتركة الآن. هل سمعنا هذه اللغة من قبل؟ لماذا قبل شهرين فقط كانت اليد نفسها ترحّب بنا للقيام بعملية ٢٨ يوماً في عاصفة الصحراء. لقد قُدّمت لنا أعداد المهمّات والطلعات وأعداد الشركاء من الحلفاء والقوّات العسكرية بالقدر ذاته من الشجاعة والتفاخر. ثم قامت طائرة ف١٦ F16 وطائرة أ ـ ١٠ A-10 بقصف محيط ملجأ صغير. لقد أصبح كلام الحرب كلام سلام، وهذا تحوّل لغوي طفيف لكنه فريد من نوعه. وحدها الأزياء تبدّلت فعوضاً عن ارتداء ملابس صفراء يرتدون ملابس مرقّطة. وليس لدى هؤلاء الأميركيين الذين عادوا إلى العراق شيء من الخدمة الشخصية. كان لديهم شعور حادّ بالمسؤولية أكثر من قادتهم السياسيين، وهم عادوا قبل وقت طويل من طلب بوش وميجور بحسب اعتقادهم.. وكان لديهم رغبة في إنقاذ الأرواح. طرت إلى داخل إيليكلي، وهو وادٍ من العشب وأشجار الحور ونهر مُزبد، سمّاه عناصر القوّات الخاصّة الأميركية «الوادي السعيد»، ووجدت جنوداً يحفرون آباراً وجداول

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مركّزين مضخّات وسدادات صنابير وخِيم للتلقيح الطبّي. كان الرقيب جون ملكويست من القوّات الخاصّة العاشرة ومعه مترجمه الكردي، أحد عناصر قوّة الغزو إلى الكويت في آب/أغسطس الماضي، يشرف على معالجة اللاجئين المرضى طيلة أسبوعين. كان يعيش بقربهم، ويتقاسم طعامهم.. وهو أصيب شخصياً بالتهاب معويّ نتيجة بقائه مع المدنيين الذين أُرسل لإنقاذهم. لمست هناك الحزن نفسه الذي لا ينتهي حول روايته للأحداث كما عرفها تشارلز نابورز:

«كانت عندنا طفلة تموت وكنا نعلم أنها ستموت. كانت بالغة، لا تأكل وتعاني من التجفاف. قلنا لوالدتها أن تغلي الماء الذي كانت تعطيه لطفلتها لكنها لم تفعل. أخذت الماء من النهر الملوّث وقالت إنه جيد. قلنا لها اغليه، فلم تفعل، وماتت الطفلة».

كان هؤلاء الرجال يشهدون الآن ولأوّل وهلة نوعاً من المعاناة، لم يشهدوا مثلها في حياتهم. ليس هناك أدنى شكّ حول غياب أنانيّتهم وهم يواجهون هذا السيل من الأبرياء. لقد عرفوا أن لديهم مسؤولية نحو هؤلاء الناس وأن عليهم أن يكونوا هنا. كان السياق القصصي مفقوداً بين عملية عاصفة الصحراء وعملية الراحة المقدّمة. لقد ارتكب نظام صدّام فظائع عديدة ضدّ الأكراد. بالطبع، يُشجّع الصحفيون الآن من قِبل الأميركيين للسفر إلى مدينة حلبجة المحرّرة، وهي مكان إحدى عمليات القتل الجماعي بالغاز التي أمر بها «علي الكيماوي» عام ١٩٨٨. لكن ابتعد الجميع عن الهدف. فهؤلاء الأكراد لا يموتون في الجبال لأن صدّام قرّر فجأة استئناف قمعه بعد تحرير الكويت. لقد ارتدّ جيشه بقسوة ضدّ الشعب الكردي لأنه لبّى دعوتنا إلى الثورة ضدّ نظام البعث. إن موقفهم الصعب الآن ناتج مباشرة عن تشجيعنا وسياستنا ونداءاتنا. نحن، الغرب والحكّام العرب أصدقاءنا في الخليج، نتحمّل المسؤولية عن هذه الكارثة. وقد حوّلناها الآن لصالحنا ومحينا كل شيء حصل بين تحرير الكويت ووصول مئات الآلاف من الجموع الغفيرة إلى الجبال. أجل كنا مسؤولين عنهم، لكن

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كضحايا، لسوء أدائنا السياسي من جهة ولقسوة صدّام من جهة أخرى. ومثل تقاريرنا اليومية، كانت عملية الإنقاذ الإنسانية هي الجانب الآخر من الحرب.

كان موقفاً مفاجئاً أن يرفض الأكراد الذين وصلوا إلى الأماكن الجبلية الجليدية تركها الآن. وكان القادة الأميركيون والإنكليز متلهّفين لإقناعهم بالعودة جنوباً تحت الحماية الغربية والعيش في معسكرات المدن الواسعة التي أقامها الأميركيون حول زاخو والمدن العراقية إلى الشرق. كان الخط الثلجي يختفي: آخر الصقيع بُقعة رمادية على القمم. قريباً سوف ترتفع الحرارة، وسيرتفع الماء القذر وتنتشر الأمراض. لكن الأكراد لن يتزحزحوا. عزونا ذلك إلى الخوف من عودة جيش صدّام لقتلهم جميعاً، وتغاضَينا عن فهم الحقيقة التي شرحها لنا كل كردي بلباقة شديدة، وهي عدم ثقتهم بنا لحمايتهم في حال خرجوا من الجبال. وعدناهم بعدم السماح لقتلة صدّام بالوصول إليهم، لكننا كنا نحن الذين طلبوا منهم تدمير صدّام ثم تركناهم لمصيرهم منذ شهرين فقط. كانت تلك مشكلة الرقيب فرانك جوردن عندما وجدته واقفاً وحذاؤه غارق في حقل من الخشخاش في تلّ الكبير غير بعيد عن زاخو. كانت المرّة الأخيرة التي التقينا فيها الجندي الاحتياطي من ماين ـ وهو رجل لطيف يضع نظّارة ووجهه متغضّن ـ عندما كان غارقاً حتى ركبتيه في الوحل وهو يحاول التعامل مع آلاف اللاجئين الشيعة الذين لم يستطع تقديم الخِيَم والطعام لهم. وهو الآن يحرس مئات الخِيَم وآلاف الحصص الغذائية التي لا يكاد يحصل عليها اللاجئون. أصبح الدور الأميركي في العراق دائرة مكتملة. فقد أخذت الولايات المتحدة ثلاثة أيام فقط لإرسال جوردن من صفوان إلى تلّ الكبير، والآن كان هذا الجندي (٣٥ عاماً) ينتظر الأكراد للنزول من الجبال. لكن بالطبع لن يأتوا. لم يكن الجندي جوردن نفسه الذي التقيته الآن. فعوضاً عن وحشة الصحراء، كان محاطاً بنبات كثير من الذرة والخشخاش. وكانت عاقبة الحرب الخيانة. لقد بدأ يدرك أن الحرب لم تنته بكل الأحوال. وقال: «حصل الكثير من إطلاق النار في التلال الليلة الماضية. وعندما كنت في زاخو، وجدت هناك العديد من الجنود العراقيين وكنت متوتّراً لأنني رحتُ أفكّر في القنّاصة».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وفق بنود التفاهم المتّفق عليها بوقار بين الحلفاء والسلطات العراقية في بغداد، ينسحب الجيش العراقي إلى الجنوب بينما يبقى ممثلو السلطة العراقية من الشرطة خلفهم لتأمين القانون والنظام وسيادة الأمّة العراقية. وهذا يقلّل من طبيعة وحجم الأزمة في شمال العراق ليسخر من مخاوف جوردن. لكن جيلبير وسوليفان وجدا وحي أوبرا حيّة عند طريق زاخو حيث كان مئات من الجنود العراقيين يزعمون أنهم شرطة، بينما يزعم مئات من رجال المخابرات أنهم مدنيّون. كانت القوّات الأميركية تواكب هذه التمثيلية مع أن الشرطة كانت تحمل رشّاشات كلاشينكوف والأميركيون يحملون بنادق م١٦. لم تكن مجموعة الشرطة سعيدة. أما عشرات الآلاف من الأكراد فقد رفضوا تقبّل هذا الرمز المسرحي لأنهم عرفوا على الأقلّ أن الجنود العراقيين ليسوا شرطة وأن ضبّاط الخدمات المدنية الأميركية كانوا جنوداً. لو عرف الأخيرون فقط حقيقة السابقين، عندها يمكن أن يشعر الأكراد بالأمان بشكل كافٍ للنزول من الجبال. في الوقت نفسه كانت المسرحية مستمرّة. سألت أحد رجال الشرطة العراقية خارج مركز شرطة زاخو: «ما اسمك» أجاب بينما كان أصدقاؤه باللباس المدني يضحكون: «اسمي شرطي». وإذا توقّفتَ للحديث مع أستاذ مدرسة، أو مهندس أو فلّاح، يقف رجلان أو ثلاثة بلباس مدني قربك للاستماع. وإذا سألت عن هويّتهم يقولون إنهم عسكر أو طلّاب. أترى كيف قام صدّام بتطوير التعليم العالي في كردستان. لماذا لا يحبّه شعبه إذن؟.

قال لنا مدنيّ محترم: «نريد من الأميركيين البقاء. لماذا لا يأتون؟». وهنا كان على أحدهم الدخول إلى خِيَم الرقيب جوردان. كان العديد من جنود البحرية الذين يبنون المعسكر الكبير الفارغ في تلّ الكبير عناصر من وحدة الاستطلاع البحرية ٢٤ التي لعبت عام ١٩٨٣ دوراً مختلفاً في بيروت. عام ١٩٨٢ غزا الإسرائيليون لبنان وساعدت البحرية الأميركية في إخلاء عناصر منظمة التحرير المحاصرين في المدينة. وأعلنوا رسمياً عندما رحلوا بعد أيام قليلة أن: «المهمّة أُنجزت»... بعدها حصلت مجزرة بحقّ مئات الفلسطينيين المدنيين غير المحميّين على أيدي الكتائب حلفاء إسرائيل. قام الضمير الأميركي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وصوت الرأى العام، الذي لا يشبه ذلك الذي رحّب بالهجرة الكردية، بإرسال القوّات الأميركية مجدّداً إلى بيروت «لحماية المدنيين».. مهمّة ورطّت البحرية الأميركية في الحرب الأهلية اللبنانية لأنها انحازت إلى جانب الحكم الكتائبي الذي وضعته إسرائيل. في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٣، قُتل ٢٤١ جندياً أميركياً معظمهم من الوحدة ٢٤ على يد أول الانتحاريين الشرق أوسطيين. عام ١٩٩٠ غزا العراقيون الكويت، وقامت الولايات المتّحدة بطردهم وأعلنت مجدّداً أن المهمّة أنجزت بفعالية. ثم جاءت الانتفاضة التي شجّعناها والصور التي نقلها التلفزيون عن الأكراد المحصّنين في الجبال ممّا أعاد الأميركيين إلى العراق. بالطبع لم تكن المقارنات دقيقة، لكنها كانت مفهومة. كان الرقيب جوردن خائفاً من أنه إذا بقي الأميركيون طويلاً في شمال العراق فستكون هناك عمليات انتحارية مجدّداً. بعد ١٢ سنة، كانت مخاوفه حقيقية. لكنه عبّر عن ذلك الأمر بعبارات أبسط وأكثر إنسانية.

> «عندما أبلغونا بالانسحاب من صفوان، طلبوا منّا عدم النظر خلفنا. لكنني شاهدت من سيّارتي المصفّحة صبيّاً عراقياً صغيراً. لم يلوّح أو يرسم علامة النصر مثل الآخرين، ورمقني بنظرات ثاقبة ثم حكّ بطنه دون إزاحة نظره عني، ربّما كان جائعاً جدّاً. وكنت شديد الغضب طيلة يومين ولم أستطع الكلام مع أحد. والآن لا أستطيع التفكير في عدد القتلى الأكراد الذي وصل إلى ألف شخص يومياً».

ما زالت نزاعات الشرق الأوسط تتداخل مثل الأواني المستطرقة، ففي بضعة عقود حصل تحوّل مؤذٍ تحت المنطقة يزلزل مدنها ومكاتبها وأبنيتها ومساجدها. ذات ليلة على الحدود العراقية الشمالية، لم أستطع الحصول على غرفة في أيّ من فنادق محطات توقّف الشاحنات على الحدود التركية الجنوبية وانتهيت متجهاً بالسيارة إلى التلال، لأن البعثة المسيحية أبلغتني عن قرية قديمة أستطيع فيها الحصول على سرير.

كان سائق التاكسي التركي يتفقّد الطريق الوعرة عندما جاءت الأوامر مدويّة في الظلام. فتحت بابي وطلبت من السائق تخفيف الأنوار وإنارة الضوء الداخلي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

للسيّارة. توجّهوا نحونا على الطريق والبنادق على أكتافهم وكانوا دورية من الجنود الأتراك. كانوا يضعون القبّعات الزرقاء للقوّات الخاصّة التركية وصرخوا بعدوانية بينما توزّعوا حول السيّارة. لم أفهم كلمة واحدة، لكن لم أحتجّ على ذلك أيضاً. وكان سائقي بجانبي رافعاً يديه والضوء مسلّط على وجهه. في مثل هذه الظروف أستخدم الأداء البريطاني المهني. أضع يدي على فخذي وأصرخ: «ماذا يجري على الأرض؟».. توجّه ضابط نحوي فأخرجت يدي. إنها طريقة نجاحُها مضمون لتخفيف التوتّر في أوساط الجنود الغاضبين (جندي غاضب أو خائف أو سكران)، إذ لا يريد أيّ ضابط إذلال نفسه برفض مصافحة أجنبي صديق. حرّك الجندي بندقيته إلى اليد الأخرى وصافحني وابتسم وسأل بإنكليزية لا عيب فيها: «ماذا تظنّ أنك تفعل هنا؟».. قلت له إنني أبحث عن مكان للنوم وقيل لي عن هذه القرية وقرّرت تمضية الليل هنا». وسأل: «هل تعرف أنه يوجد مشكلة هنا؟».

أجل يوجد مشكلة بالفعل، اسمها الأكراد. إذا كان أكراد العراق مستعدّين للثورة ضدّ صدّام ومن ثمّ يتعرّضون للخيانة من قِبلنا ويهربون إلى الجبال، فإن أكراد تركيا، أو بعضاً منهم، مستعدّين للانتفاض ضدّ دولة أتاتورك التركية لأنهم هم أيضاً يريدون العيش في دولة تُسمّى كردستان. إنها كردستان التي وافق الرئيس ولسون أساساً على حمايتها منذ أكثر من سبعة عقود لكنها مثل أرمينيا كانت منسيّة ببساطة في نُفايات العُزلة الأميركية. تعامل الأتراك كما رأينا بقسوة مستوحاة من المشكلة الأرمنية منذ سبعين سنة. ويستخدم الحكم التركي الآن نظاماً من القمع العسكري وإعادة التوطين والتطهير العِرقي والتعذيب والقتل غير القانوني للتعامل مع المشكلة الكردية الحالية.

وبالطبع، كان الأتراك الآن خائفين كثيراً من القومية الكردية، لأن أكراد العراق يطالبون بدولتهم وحوالي مليون ونصف المليون منهم يريدون الفرار عبر الحدود التركية إلى الجزء التركي من وطنهم. وبما أن تركيا عضو في حلف الناتو وصديقة للولايات المتحدة، نفهم الجبن الأميركي عن الحديث عن الإبادة الأرمنية.. كما أن واشنطن متلهّفة أيضاً للحفاظ على الأكراد العراقيين داخل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

العراق. وكان هذا سبباً غير معلن ومهمّاً لإرسال قوّات أميركية لحماية الأكراد داخل العراق، وإقناعهم بعدم التوجّه إلى الحدود الجبلية والعودة إلى منازلهم العراقية. وكان ذلك أيضاً سبب إبلاغ الرقيب جوردان لإرسال كل هذه الخِيَم إلى خارج زاخو. كان يجب إبقاء أكراد العراق بعيداً عن أقاربهم الأكراد في تركيا. ويجب حماية الأكراد العراقيين.. لكن هكذا فعلت الدولة التركية كما علمت لاحقاً من مصادري. لقد بتّ متعوِّداً على التحليق حول شمال العراق. فقد أعطانا الأميركيون حرية التنقّل بمروحيّاتهم مثل فيتنام، مُجبرين على ترك ممرّات لنا للسفر على أيّة آلة إلى المعاقل الجبلية المحصّنة التي تحتاج إلى أيام للوصول إليها على الطريق أو مشياً على الأقدام. وقد تمّ ترتيب مساعدتنا بالمروحيّات عن طريق طيّار مدني أميركي يده اليمنى اصطناعية. وحتى خلال الأيام الأكثر ضباباً أو سوءاً كان يرسلنا إلى الجبال مع رجاله لمشاهدة الأكراد ينجون أو يموتون في المعسكرات المكسوّة بالثلج. انتقلت إلى قاعدة سالوبي الجوّية يوم ٢٩ نيسان/أبريل مع حقيبة أوراقي وخرائطي وملابس إضافية في يوم ممطر وعاصف بينما كانت ١٢ مروحية تهدر على مدرج الطائرات. كان الكابتن هوك مبلّلاً ولا يكاد يتمكّن من النظر إليّ عندما أعطاني أغراضي عبر العاصفة «إذهب، اذهب»، صرخ في أذني وركضت باتجاه الطائرة الخضراء الهادرة التي كان طاقمها يشير إليّ من خلال المطر. لم تظهر عليهم الأبّهة التي كنت أرى فيها كوروين ولانكستر وآخرين. وأشار الطيّار إليّ بسرعة من مقصورته. وعندما صعدت إلى المروحيّة أمسك بي أحدهم ووجدت نفسي ملقى على بطني على أرض الطائرة. عندها فقط، أدركت أنها طائرة أباتشي مسلّحة وهي دبّابة قاتلة كبيرة، وليست من نوع مروحيّات شينوك الصديقة ذات المقدّمة البارزة والحادّة التي تجسّد العدوان العسكري، والمكتظّة بجنود أميركيين جدّيين. جلست على المقعد الخلفي باحثاً عن حزام الأمان بينما كانت المروحية تنطلق في الجوّ. عندها لاحظت أن كل الأميركيين كانوا يرتدون اللباس المدني ويحملون جميعاً مسدّسات أو بنادق قنّاصة. مال نحوي الأميركي الجالس قُبالتي، وهو رجل ضخم بدين بيده فانوس، وصرخ في أذني: «من أين أنت؟» قلت بحزن: «من بريطانيا، صحفي من جريدة الإندبندنت». زعق: «يا مسيح» واستدار نحو جاره

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وصرخ في أذنه. عبس الرجلان في وجهي وحرّك الرجل القوي رأسه غير مصدّق. ومال نحوي مجدّداً: «ربّما حصل خطأ». لا أدري: لقد صعدت إلى مروحية وقد طلب مني الكابتن هوك ذلك، أو اعتقدت ذلك، أو بدا لي ذلك، ثم اكتشفت أنني في المروحية الخطأ، أو احتجت إلى ثوانٍ في الضوضاء والمطر لأدرك ذلك. لكنني كمراسل موجود بوضوح على الطائرة الصحيحة. مهما حدث فسوف يكون أكثر إثارة من عملية إلقاء موادّ غذائية أخرى. ملت نحو حامل الفانوس وسألته: «من أين أنتم؟».. أجاب: «نحن من السفارة الأميركية في أنقرة ومعظم هؤلاء الرجال من وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. ليس مفترضاً أن تكون هنا!» نظرت إليه وابتسمت. في الواقع، انفجرت بالضحك بصوت مرتفع رغم الضجّة في المقصورة، حتى أن حامل الفانوس ابتسم راضياً. ملت نحو أذنه مجدّداً لأن دوري جاء الآن وقلت: «يا الله» ثم ابتسم لي بشكل ودّي وقال: «لقد حصلت على قصّة مهمّة».

انطلقت الطائرة على المدرج وحلّقت عبر فتحات في سلسلة الجبال وارتفعت في السحاب بسرعة كبيرة وطارت على طول الخط الثلجي، فيما كان الركّاب المأخوذون ينظرون أمامهم. كنّا ننطلق شرقاً بسرعة كبيرة. أخرجت خارطتي الرقّيّة من حقيبتي وحدّدت الأميال بوضع إصبعي الممدود على الجبال. كنا نتوجّه مباشرة إلى الحدود الإيرانية. أخذ حامل الفانوس خارطتي ووجّهها نحوي ووضع إصبعه على اسم صغير بالإيطالية ياسيلوڤا Yasilove. نظرت خلسة إلى الخارطة بينما كانت الأباتشي تعبر بين مجموعتين من الصخور. قال لي لانكستر إنه إذا حلّقت مروحيّة بتماسّ مع الصخور فهي تكسب دائماً. وكنا نتحرّك أسرع من طائرة الشينوك القديمة.

خلال لحظة، حلّقنا عبر السماوات الزرقاء ثم انحرفنا جانبياً داخل مجموعة سحب لا تكاد تعلو خمسة أمتار عن أشجار الصنوبر. كانت طائرة الأباتشي تتمتّع بقدرة فائقة على التسلّل في الجوّ، والمرور في الزوايا مثل سيّارة أو الانبساط أو التحليق كعصفور فوق مجموعة من الصخور. وتذكّرت كل تلك الدبّابات المحترقة والسيّارات المصفّحة والسيّارات فوق رمال جنوب العراق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وأدركت مجدّداً أنه لم تكن لدى العراقيين فرصة للنجاة. كان ذلك الموت بالكومبيوتر، ذاك الذي تعتمد عليه حياتنا. لم تعن ياسيلوڤا لي شيئاً. لكن كانت الحدود الإيرانية على مسافة ضئيلة إلى يمين الاسم.. ثم هبطنا. تفحّص رجال المخابرات الأميركية وحرّاس السفارة، وهم جميعاً متشابهون، ذخيرتهم، وحملوا أسلحتهم على صدورهم بينما كنا نهبط وادياً خصباً من العشب الطريّ وأشجار الربيع، ونهر صغير يتحرّك مثل السيل فوق الأرض. كان تحتنا مخيّم للاجئين، خيم قذرة ورجال ونساء ينظرون إلى أعلى، إلى مروحيّتنا الأباتشي ثم إلى الأمام حيث الأبواب المفتوحة وجنود الجيشين الكبيرين يصوّبون أسلحتهم بعضهم باتجاه بعض: الأتراك إلى اليسار والبحرية الملكية الإنكليزية إلى اليمين. وضع الأتراك مدفعاً رشاشاً على أحد جوانب النهر فيما بدت القبّعات الخضر للجيش البريطاني داخل العشب الخفيف الأخضر وأسلحتهم، جاهزة. عندما توقّفت المراوح في المروحيّة وهبط رجال المخابرات منها، ربّتَ حامل الفانوس على ركبتي وصرخ: «رجالكم والأتراك على وشك الذهاب إلى الحرب»، ورمقني بابتسامة كبيرة حقيقية «ألم أقل لك إنك ستحصل على قصّة كبيرة مهمّة».

كنت خارج المروحيّة أركض مثل الفأر للنجاة بحياتي من الأميركيين نحو النهر حيث كان عامل الراديو من البحرية الملكية يصارع حمولته في الوحل قُبالة الأميركيين. وكان الأتراك يركضون صعوداً إلى شرقي النهر وهم يصرخون ويصوّبون أسلحتهم نحونا. وفي أعلى المنحدر على مسافة ٢٥ كلم إلى الشرق تقع الحدود الإيرانية. تساءلت ماذا تفعل الجمهورية الإسلامية حيال ذلك؟

توجّه بعض رجال المخابرات الأميركية عبر النهر نحو القوّات التركية التي كان يقف عدد من أفرادها قرب أكوام من الأسرّة والفُرش وصناديق الطعام، وراح الآخرون يركضون أمامي نحو الإنكليز. ولما أصبحنا في وسط هؤلاء، صرخ أحد الأميركيين بأحد الضبّاط الإنكليز الشبّان سائلاً: «ما هو وضعكم؟ هل تبادلتم النار؟» .. رأيت الجندي يومىء برأسه قائلاً: «ليس بعد».. وردّ الأميركي: «لن يحصل إطلاق نار» .. ثم حدّثني جندي بلهجة ريفية وسأل: «هل أنت مراسل صحفي؟».. وعندما أومأت برأسي إيجاباً ابتسم وقال: «جيّد، نحن نحتاج إلى مراسل هنا» .. وكدت لا أصدّق أذني.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أمضت وزارة الدفاع وقتاً طويلاً محاولةً إبعاد الصحفيين عن القصص الحقيقية مثل هذه. والواقع أنه منذ عملت في شمال إيرلندا، كان لدى الوزارة كراهية خاصّة تجاه تقاريري. لكن كان ذلك تحت السيطرة. فهذا كوكب الأرض ورغم التنوّع البارد والجبلي، كان يحصل هناك شيء غريب جدّاً. لماذا كان الجنود الإنكليز على وشك إطلاق النار على الجنود الأتراك لأوّل مرّة بعد غاليبولي؟.

كان الملازم الجرّاح بيتر ديفيس، من الكادر الحربي والجبلي للبحرية البريطانية الطبيب، الوحيد الذي يعالج ٣ آلاف لاجىء كان بعضهم يقف حولنا بمزيج من الرهبة والخوف. وقد شرح ما حصل بسرعة وبدقّة الجنود المحترفين: «كان الجنود الأتراك يسرقون طعام اللاجئين والأغطية لذا كان علينا منعهم، ونحن في حالة استنفار وعلى سلاحنا منذ ذلك الحين». نظرت عبر النهر إلى الأكداس الضخمة من صناديق الماء والأغطية الموجودة قرب القوّات التركية بشكل آثم. كان اللاجئون الأكراد، وبينهم العديد من الأشوريين الذين هربوا من بغداد، يقفون إلى جانب الإنكليز حُماتهم. سرق الأتراك حتى الآن ٦٠ صندوق ماء من هؤلاء اللاجئين المشرّدين... ولعدّة دقائق كان الإنكليز، والأميركيون الأقلّ عدداً مُجبرين على رؤية الأتراك وهم يسرقون أغطية أخرى وأسرّة وأطعمة مقدّمة كلّها من الجمعيات الإنسانية الدولية. كان الإنكليز يرغبون في نقل ثلاثة آلاف كردي جوّاً خارج ياسيلوفا لحمايتهم من الأتراك، لكنّ ضابطاً تركياً رفض السماح لهم بالرحيل. والآن كان ديفيس ورجاله يجمعون ما تبقّى من طعام الأكراد في طائرة شينوك RAF متوقّفة عند الأشجار لإبعادها عن متناول الأتراك. إنهم يأخذون مساعدات الإغاثة جوّاً بعيداً عن معسكر اللاجئين.

كان هناك أميركيون مع الإنكليز منذ أسبوع، وكلّهم من البحرية، وقد سردوا قصّة قوّات تركية متتالية تنهب طيلة هذه الفترة. وكان ضابط بريطاني ينتفض غضباً ويقول: «الجنود الأتراك هنا قذرون لا يبدو أنهم يهتمّون لما يحصل لهؤلاء الأكراد. وكان من المفترض أن يشرفوا على المعسكر. إنهم يأخذون ما يريدون، وقد قال لي أحدهم: «إن من الأفضل تجويع الأكراد، إذ بهذه الطريقة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

نستطيع السيطرة عليهم، ولكنني لا أستطيع السماح بحصول ذلك». مرّت الفضيحة في معسكر ياسيلوڤا بدون إعلان.. من جهة لأن الأمر طفيف، ومن جهة أخرى بسبب الرغبة الطبيعية لجيوش الحلفاء الذين عرفوا المهانة لعدّة أيام، في الحفاظ على علاقات جيّدة مع الأتراك. عندما وصل الإنكليز والأميركيون أوّلاً إلى معسكر ياسيلوڤا كان الأتراك وحدهم مسؤولين. قال أميركي: «كان الأكراد في حالة مُزرية. كانوا يعانون من التهابات معوية حادّة ولم تكن هناك خدمات طبية تقدّم من قِبل الأتراك. وكان المكان معرّضاً لانتشار الكوليرا فيه». كان هذا المعسكر لا يزال أكثر المعسكرات حقارة وكانت رائحة المجارير تملأ المكان.

كان مئة على الأقلّ من اللاجئين يطلبون من الأميركيين والإنكليز أخذهم إلى أوروبا لأنهم بحسب قولهم، خائفون من الأتراك وكذلك من العراقيين. وتحدّثت امرأة شابّة معي: «لدينا أقارب في النمسا والسويد وأميركا، بالله عليك قل لهم إننا هنا». كانت تروى قصص سوداء في المعسكر حول قيام الأتراك بتقسيم العائلات ونقلهم إلى معسكر آخر إلى الغرب. وكان الإنكليز مستمرّين في تحميل المساعدات الغذائية على متن المروحية واضعين صناديق الماء والأغطية على قاعدة خشبية قرب المحرّك. قال أحد مشاة البحرية: «إذا لم يحصل عليها اللاجئون فلن يأخذها الأتراك».

سافرت على طائرة سلاح الجوّ الملكي البريطاني مع المساعدات الغذائية وطفل مريض وامرأة كردية تبحث عن ابنها الضائع ورجل كردي مصاب بعينه خلال الانتفاضة. أنزلناهم في زاخو وانتقلنا إلى ديار بكر حيث لديّ غرفة في فندق الآن. اتصلت بهارفي موريس في لندن وأبلغته قصّة للصفحة الأولى تظهر فضيحة ياسيلوڤا. في اليوم التالي، عرفت أن السلطات استاءت من التقرير. ومع وجود مليون لاجىء كردي على الحدود، شعر الجيش التركي أنه يفقد السيطرة على عملية الإغاثة. وفي الحقيقة لم تكن لديه الإمكانيات لضبطها. وفي تركيا كان يُنظر إلى أيّ انتقاد للجيش على أنه جريمة. وكان هذا جزءاً من شريعة أتاتورك الذي كان عمله العسكري في غاليبولي جزءاً من أسطورة تركيا. لكن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تركيا تريد الانضمام إلى المجموعة الأوروبية.. وتكاد لا تستطيع أن تنفي حقيقة ما جرى في ياسيلوڤا.. أو أن هذا ما اعتقدته أنا.

أمضيت اليوم التالي في الجوّ، مسافراً مع طاقم الشينوك الأميركية حول زاخو، لكن عندما عدت مجدّداً إلى ديار بكر أخبرني عامل إغاثة بريطاني: «إن الأتراك غاضبون ولو كنت مكانك لأخبرت صحيفتي بذلك».

اتصلت بهارفي فضحك قائلاً: «بالطبع الأتراك غاضبون فقد أهنت جيشهم. اتصل بي إذا واجهتك أيّة مشكلة».. جاءت المشكلة بعد ساعتين مع طرق على باب غرفتي. فتحت الباب، فرأيت مدير الفندق وهو رجل كردي صغير واقفاً أمامي وخلفه رجلان عابسان يلبسان سترتين جلديّتين سوداوين. قال: «آسف لإزعاجك يا سيّد فيسك، لكن هناك بعض رجال الشرطة يطلبون الحديث معك». إنهم لا يتكلّمون الإنكليزية وأنا لا أتكلّم التركية، لذا طمأنني الكردي الصغير أنهم جاءوا كأصدقاء ويريدون مني زيارة مركز الشرطة. كان عليّ أخذ أغراضي معي. وقد أخذت الغليون أيضاً. وبينما كان رجال الشرطة يتذمّرون، طلبت لندن وتحدثت مع محرّر الشؤون الخارجية غودفري هودجسون. أبلغته بعبارة واحدة ما حصل وأنني أشكّ أن الأمر أكثر خطورة ممّا تصوّرنا وطلبت منه الاتصال بأهلي في ميدستون لإبلاغهم أن لدينا مشكلة. ولا يرغب بيل وبيغي سماع ذلك من الإذاعة(*). اقتادوني (وقد لحق بي زميل من دايلي مَيل Daily Mail إلى مركز الشرطة حيث دعاني مفتّش وقور للجلوس في مكتبه. وقد شرح لي مدير الفندق تعيس الحظ: «أنت هنا ضيف مفتش الشرطة ولم يتمّ توقيفك». في هذه الحالة، قلت، الموقف قائلاً: «أريد شرب الشاي مع مفتّش الشرطة. تجهّم. وصل الشاي بعد نصف ساعة، ومن على الجدار خلفه، كان أتاتورك ينظر عابساً نحوي أيضاً.

أبلغني بول أوكنور، السكرتير الثاني في السفارة البريطانية في أنقرة، ببرود: «يريدون التحقيق معك حول التقرير. نصيحتي عدم التفوّه بأي شيء». إلا أنه بدا

(*) فعلوا ذلك. ولسبب غير معروف، فشل هودجسون وهو صحافي من الدرجة الأولى وصديق ـ في إبلاغهم.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

واضحاً أن ما يعتبره رجال الشرطة اتهاماً شكليّاً ضدّي، لإهانتي الجيش التركي، أخطر من ذلك، ممّا جعلني أشكّ أن هذا أمر عسكري للشرطة وليست تعليمات من وزارة الداخلية أو الخارجية في أنقرة. أبلغني أحد رجال الشرطة بسرور كبير أن إهانة الجيش عقوبتها عشر سنوات سجناً. جلست في مقعد المفتش متذكّراً فيلم «قطار منتصف الليل» لاعناً النقيب هوك. كان لركوبي مروحيّة رجال المخابرات الأميركية نتائج غير سارّة.

دخل الغرفة عدد آخر من رجال الشرطة. وتلقّى المفتش عدّة اتصالات هاتفية وكان ينظر إليّ وهو يستمع إلى المتّصل. ثم وصل شرطي بلباس مدني ومعه آلة كاتبة كبيرة قديمة ألمانية. وبدأ يفتّش في حقيبتي مستخرجاً فرشاة الأسنان، والبطانية الإضافية، والشوكولاتة، ولسوء حظّي، كتاباً عن التاريخ الأرمني. كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحاً. سقط أوكنوَر من التعب وطلب أن يُسمح لي بالعودة إلى فندقي. أجاب المفتش أنه ليست لديه سلطة للسماح بذلك. عندها أعلن الشرطي الذي معه الآلة الكاتبة أن التحقيق سيبدأ. اعترض أوكنوَر لكنني قرّرت أن التحقيق هو الأمر الذي سينهي هذه المسرحية. طلبت منه الترجمة، وللحقّ، فإنه وافق بملل مصارعاً البقاء يقظاً. تقتضي بنية اللغة التركية إكمال كل جملة قبل ترجمتها. وكانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف صباحاً، قبل انتهاء هذه التفاهة. متى دخلت تركيا لأوّل مرّة؟ هل دخلت البلد من أي مكان غير خابور (الحدود بين العراق وتركيا)؟ هل جئت إلى ديار بكر مباشرة من أنقرة؟ هل تعمل لصحيفة الإندبندنت؟ هل كتبت مقالاً للإندبندنت يوم ٣٠ نيسان/ أبريل ١٩٩١؟ هل هناك روبرت فيسك آخر في صحيفة الإندبندنت؟ هل لديك أي مقال آخر نشر في الإندبندنت يوم ٣٠ نيسان/أبريل ١٩٩١؟ كان ذلك أمراً غبيّاً صبيانياً وسخيفاً. وبدأت أدرك لماذا لم يستطع الأتراك قمع الثورة الكردية في جنوب تركيا. وأصبح واضحاً لي أيضاً أن ترجمة الشرطة لقصّتي لم تأتِ في صحيفتي بل في تقارير لمراسلين أتراك في لندن أعادوا ترجمة مقالاتي إلى إسطنبول وأنقرة.

هل شاهدت الجنود الأتراك يسرقون؟ هل أخذت صوراً لذلك؟ فهمت هذا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

السؤال. ففي حال كانت لديّ صور للجيش التركي وهو يسرق، عندها تسقط الملاحقة ضدّي. إذن يريدون مصادرة هذه الصور. لكن ليس لديّ أي صور. بقيت أردّد أن الجواب» عن أسئلتهم موجود في مقال الإندبندنت. «هل رأيت جنوداً يسرقون «هلڤاراً» helvar؟ حاول أوكونور ترجمة هذه الكلمة الغريبة كانت تعني نوعاً من البسكويت التركي الذي لم أره أو أتذوّقه في حياتي. وصل جنود آخرون، ورغم وجود أوكنوَر فقد وقفوا حولي وكل واحد منهم يحمل عصاً خشبية. قال المفتش إنه ربّما كان عليّ قضاء الليلة في قبو مركز الشرطة. تمتم أوكنوَر: «أصبح الأمر صعباً نوعاً ما». ثم جاءت اللحظة التي كنت أنتظرها.

شرطي: «في مقال صحيفة الإندبندنت يوم ٣٠ نيسان/أبريل ١٩٩١ والذي يحمل اسمك، هل صحيح أن الجنود الأتراك سرقوا المساعدة الإنسانية في معسكر ياسيلوڤا؟».

فيسك: «أبلغني والدي دائماً أن مصطفى أتاتورك كان من عظماء القرن العشرين. أعتقد أن والدي كان على حقّ. للأسف، لم يلتزم بعض جنودكم في ياسيلوڤا بالمعايير العليا والمبادىء التي وضعها مصطفى أتاتورك، مؤسّس الأمّة التركية».

فجأة تغيّر الجوّ، وشكرت بصمت بيل فيسك على كل هذه القصص التاريخية الصبيانية. لست متأكّداً على الإطلاق أن أتاتورك كان عملاقاً (أو أن بيل فكّر كذلك) لكنني كنت مستعداً لأصبح من المعجبين به لأجل المفتّش ورفاقه. وبدأوا الكلام بعضهم مع بعض بحماس كبير. أخبرني أوكنوَر، وقد بدا مغمياً عليه من التعب، أنهم سيسمحون لي الآن بالعودة إلى الفندق. وردت كلمة ترحيل في محادثتهم، وعرفت لماذا. فإذا كان جدلي سيؤدّي إلى إدانة للطريقة التي تجاهل بها الجيش التركي مؤسّس الأمّة، والرجل الذى أنوي الدفاع عن نزاهته ضدّ الجيش التركي، فمن الأفضل حينذاك إسقاط الاضطهاد أو قضية المحاكمة. وهكذا قُضيَ الأمر.

بعد ساعات قليلة، أُبلغت باحترام أنني سوف أخضع للترحيل.. وعرض

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أوكنوَر شراء تذكرة الطائرة. وأكّد المتحدّث باسم وزارة الخارجية التركية مراد سنغار ترحيل فيسك من الوطن، وقال: «وجوده في تركيا غير مرغوب فيه بسبب تقريره المتحيّز والمنحرف والمغرض». كانت رحلة شاقّة إلى أنقرة وكان عليّ تهدئة رجل شرطة تركي لم يركب الطائرة من قبل. لكنّ قرار النقيب هوك بوضعي على مروحية الأباتشي يعطي للرحلة معنى آخر. وأصدر الأتراك أمراً بترحيل رجال البحرية البريطانية أيضاً زاعمين أنهم أساءوا إلى مسؤول محلّي تركي. وقامت وزارة الدفاع بإعادة انتشارهم فوراً جنوب الحدود داخل العراق. واحتجّت وكالات الصحافة وطالبت اللجنة الأوروبية بتفسير من السفير التركي في بروكسل. وأرسل لي أحد مسؤولي الأسوشيتدبرس من نيويورك رسالة من سطرين: «لا يمكن تخيّل نوعية الطعام في سجن في ديار بكر، حتماً أنت تحسد اللاجئين الأكراد الآن». كانت المشكلة أن اللاجئين الأكراد اختفوا من الرواية السخيفة. كانت كرامة الجيش التركي الآن على المِحكّ. أما رئيس الأركان الجنرال دوغان غورس الذي كان يتعيّن عليه ضبط جنوده في ياسيلوڤا وحماية الأكراد، فقال غاضباً إن تقريري الدقيق كان مخطّطاً ودعاية مبرمجة.. لكن ماذا كان يفترض بي أن أعمل؟ الامتناع عن الصعود إلى المروحية في سالوبي؟ تجاهل كشف ما شاهدته عيوني في ياسيلوڤا؟ مراقبة تقاريري لمصلحة العلاقات التركية الغربية؟ في أنقرة وضعت على طائرة لوفتهانزا إلى فرانكفورت. وقد حيّتني مضيفة قائلة: «أنت الرجل المبعد، أليس كذلك، لعلّك كنت تروي الحقيقة؟».

هذا ما أردت متابعته في شمال العراق. لكن كيف العودة إلى هناك الآن وتركيا قريبة مني؟ عدت إلى بيروت ومنها إلى دمشق حيث كان أتباع الإمبراطورية العثمانية السابقين أكثر من سعداء لتكريمي. شرحت مأزقي لمحمّد سلمان وزير الإعلام ـ لأوبَّخ من قِبل نظام الأسد بعد ثماني سنوات ـ الذي اقترح عليّ زيارة الجنرال منصور، مسؤول المخابرات العسكرية السورية في مدينة القامشلي الحدودية. قدت السيارة عبر سوريا باتجاه الحدود التركية وكنت أستطيع رؤية العلم التركي خارج نافذة الجنرال منصور الذي قام بتنظيم دورية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لأخذي إلى نهر دجلة الذي يتدفّق من تركيا ويشكّل حدود سوريا وشمال العراق. كان رجل مسنّ على قارب خشبي ينتظر في ضوء الفجر.. ودّعني الجنود السوريون بينما راح الرجل يجدّف بصمت إلى الشاطىء الآخر حيث كان ينتظرني ثلاثة من مقاتلي البشمركة الكردية. إن الشقيقة سوريا، كما تُسمّى دولة الأسد في لبنان، لها أصدقاء داخل كردستان. سألني أحد الأكراد: «سيّد روبرت؟ نحن هنا لمرافقتك إلى زاخو». وهكذا عدت إلى سرد الكارثة الكردية. كان الوقت الآن آخر الربيع وكان الأميركيون والإنكليز يخطّطون للرحيل.

وصلت الأمم المتحدة مع مراقبيها لحماية الأكراد. ولكن في ما بعد فقط، ومن خلال توسيع كردستان الحرّة جنوباً تمكّن الأميركيون من إغلاق معسكرات اللاجئين التي اضطرّ الأكراد إلى العيش فيها مؤقتاً بعد تركهم الجبال. وقريباً سيتعرّض الأكراد للهجوم مجدّداً، كالمعتاد من القوّات التركية ومن طيّاريها الذين سيقصفون في السنوات القادمة القرى الكردية حيث يعتقدون أنّه يوجد ثوّار لحزب العمّال الكردي. وسوف تدخل القوّات التركية زاخو خارقة كل المعاهدات مع الحلفاء الغربيين. وسوف يضرب صدّام المنفيين الأكراد في شمال العراق الذين فشلوا في اغتيال الدكتاتور الحقير بالتعاون مع المخابرات الأميركية. وهكذا وبينما كان الأميركيون يرحلون عن شمال العراق كان عليهم التقدّم جنوباً لإقامة «أماكن آمنة» أكثر للأكراد. وقد أيّدوا إجراء مفاوضات كردية جديدة مع صدّام. وكانوا متحمّسين للعمل مع نظام البعث، أو الحكم في بغداد كما فضّلوا تسميته.

احتاج الأميركيون إلى مساعدة صدّام وفهم الأكراد معنى ذلك. لم يستطيعوا منع الأميركيين من الرحيل لكنهم استطاعوا القضاء على بقايا حكم البعث في المدن الواقعة ضمن حزام الأمان وفعلوا ذلك بقسوة. قُتل العديد من رجال صدّام أو طُردوا من منازلهم وجرى الاستيلاء على مراكز الشرطة وفُتحت غرف التعذيب للمرّة الأولى منذ أكثر من عقدين.

في عُمق سجن دهوك مقرّ قيادة الشرطة السرّية، كانت الشابّات الكرديات اللواتي اغتُصبنَ وقُتلن على أيدي رجال المخابرات، قد تركن آخر سجلّ على الجدران القذرة. رسمت إحداهنّ صورة لنفسها بعينين كبيرتين وشعر طويل: فتاة

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جميلة ترتدي قميصنا ياقته طويلة. ورسمت أخرى وردة فوقها الكلمات التالية: «سوف أموت، أرجو إبلاغ الآخرين». وأخرى، يبدو أن اسمها نادرة، كتبت على جدار زنزانتها كلمتين فقط: «هذا مصيري».

اقتحم البشمركة الأكراد وعدّة مئات من أهالي مدينة دهوك مركز الشرطة، وإن متأخّرين، لمنع المخابرات العراقية من إحراق السجلّات التي تتضمّن أسماء السجناء وجلّاديهم في كشك الحارس الإسمنتي على المدخل الرئيسي. وكانت لا تزال مشتعلة عندما وصلنا هناك، يراقبها عشرة رجال شرطة عراقيين بصعوبة وقد أصبحوا الآن رهائن عند الأكراد. ماتت آخر امرأة شابّة هنا في الزنزانات القذرة منذ شهرين تقريباً. وقال البشمركة إنهم وجدوا جثث ثلاث نساء عاريات وأيديهنّ موثقة. وكانت إحداهنّ تبلغ الثانية عشرة من العمر وأخرى امرأة أكبر اغتُصبت مراراً قبل أن تموت. إن كل من يريد معرفة لماذا هرب مليون ونصف المليون كردي من بيوتهم في آذار/مارس ١٩٩١ عليه فقط زيارة مركز شرطة دهوك(*). في مواجهة ذلك، يمكن أن نتوقّع قيام الأميركيين بإلقاء نظرة على هذا الدليل حول بربرية صدّام حسين. كانت مقرّات الشرطة السريّة في دهوك موجودة في دارة من طابقين فقط على بعد كيلومترات قليلة من مقرّ القيادة العسكرية الأميركية الجديد. هنا على الأقلّ، دليل على أن أزلام الطاغية الذي قارنه الرئيس بوش بهتلر يستطيعون حقاً التصرّف مثل النازيين. ألم يقم بعض الحلفاء في وقت ما بإجراء محاكمة لجرائم الحرب؟.

(*) أصبح وجود غُرف الاغتصاب العراقية موضوع نقاش غير ضروري عندما قال الكاتب المنفي كنعان مكّية عام ١٩٩٣ إن بحوزته مستنداً رسمياً يثبت أن الاغتصاب استخدم سلاحاً سياسياً. وكان الدليل الذي أصدرته منظمة الأمن العامّ العراقية يتضمّن نشاطاتها «في هتك أعراض النساء»، وادّعى العديد من شهود مكّية المناهضين لصدّام أنه أشرف على السجلّات، وقد وصف سجناء سابقون كيف كانت نساء معارضي صدّام يُغتصبنَ أمامهم. ولقد كان تقريري الأول حول الحرب العراقية ـ الإيرانية سبب الرسالة العنيفة الموجّهة من السفير العراقي في لندن إلى التايمز. وقد وجدت دليل سجن دهوك قبل أن يصل مكّية إلى برهانه. وبالرغم من ذلك أشرت لاحقاً إلى الاغتصاب في السجون العراقية واتّهمت باستخدام مكّية كمصدر.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ليس بعد الآن كما يبدو، على الأقلّ.. كان اثنان من كبار ضبّاط الشرطة في دهوك، وهما رجلان عرفا الأسرار الرهيبة تحت تلك الدارة، يجتمعان الآن يومياً مع كبار الضبّاط الأميركيين لمناقشة عودة اللاجئين الأكراد إلى المدينة. الآن، بات العقيد مقداد والكولونيل جمال بارعين الآن في ضمان عدم حصول تصادم بين العراقين المسلّحين وقوّات الحلفاء في دهوك. وكانا في كلّ صباح، يقتادهما سائقاهما في سيارتيهما الليموزين أو لدزموبيل، يصلون إلى الفندق الجديد الذي يتخذّه الأميركيون مقرّ قيادة ويقومون بتحيتهم مصادفة.

كم من الوقت ستستمرّ هذه التفاهة؟ يوم ٢٥ أيار/مايو، وصل العقيد مقداد مع ممثّل البشمركة وتوجّه نحو كولونيل أميركي شابكاً سبّابتيه في إشارة تقول: نحن أصدقاء الآن. كان من المفترض أن تكون الشرطة العراقية والأكراد حلفاء خلال تفاوض زعمائهم في بغداد. وبعد إنجاز تلك المحادثات يؤمّن العراقيّون الديمقراطية للأكراد، أو على الأقل هذا ما يفترض تصديقه. وبالطبع، يمكن عندئذٍ للقوات الغربيّة العودة إلى ربوع الوطن. ويبدو أن أي ثمن جدير دفعه من أجل الانسحاب، حتى لو كان ذلك الثمن تجاهل مركز قيادة الشرطة السرّية.

كانت أمام المبنى حديقة عاطرة. فيها ورود مزروعة بشكل منسّق قرب الممرّ. وتم تزيين مدخل المقرّ بشكل ذوّاق بأضواء عربية صغيرة. كان المنظر جميلاً بمستوى جمال الحديقة خارج مبنى تعذيب السافاك في طهران عام ١٩٧٩. لكن على بعد أمتار قليلة إلى اليمين كانت هناك بضع درجات. قمنا بفتح باب حديدي سماكته تسعة إنشات ونزلنا مع قائد البشمركة تاسين كيميك. كان الماء ينساب على الدرج. وفي الأسفل سلسلة من الزنازين الضيّقة وعدّة غرف واسعة، كانت مليئة بالقاذورات والأغطية الوسخة. قال كيميك: «جلبوا النساء إلى هنا، ولم يكنّ نساء البشمركة فقط. عذّبوهنّ واغتصبوهنّ ثم قتلوهنّ. وبعضهنّ كنّ صغيرات السنّ. وكان أفراد الجيش العراقي يأتون إلى الزنازين ويتعاقبون على اغتصابهنّ واحداً تِلو الآخر». كان على الأرض فراش مبقّع وبعض الملابس النسائية. وكانت الجدران مغطّاة بالكتابات. وقال كيميك: «أحياناً كنّ يكتبن أسماءهنّ بالدم».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لكنّ رغبة أميركا في محاسبة صدّام تراجعت بينما زاد اندفاعها نحو الانسحاب من العراق. ولم يكن أحد جدّ مصمّم على الانسحاب أكثر من قائد قوّات التحالف القوية البالغة ١٥ ألف جندي في كردستان والتي تسيطر على مساحة ١٣ ألف كلم٢ في شمال العراق، ألا وهو الجنرال جاي غارنر. بعد ١٢ سنة، سيكون غارنر أحد الحكّام الأميركيين في العراق المحتلّ؛ رجلٌ أساء القيام بواجبه بشكل خطير، بحيث استُبدل خلال شهور. لكن في عام ١٩٩١ لم يكن أحد جدّياً في المفاوضات مع السلطات العراقية. قال غارنر: «أبلغنا الأكراد منذ اليوم الأول أننا هنا لسببين، لوقف الموت في الجبال ولإنشاء محيط يستطيعون العيش فيه مجدّداً. لم نوقّع أبداً على أن نكون قوّة أمن في شمال العراق. لقد أُرسلنا إلى هنا للقيام بعمل واحد وأنجزناه بشكل جيد. لا أعتقد أن الأكراد سيعودون إلى الجبال إلا في حال تعرّضهم للهجوم. وإذا عادوا فتلك مشكلة الأمم المتحدة وزعماء العالم وعليهم اتخاذ قرار قاسٍ. من أجل ذلك يتلقّى الزعماء رواتب، من أجل اتخاذ القرارات الصعبة».

كان غارنر رجلاً قصيراً وبديناً يتحدّث بعبارات دقيقة، وهو نائب قائد الجيش الخامس الأميركي في أوروبا، لكنه في كردستان يلعب دور الرجل السياسي: «الأكراد مواطنون عراقيون. لا أعتقد أن عليكم إبقاء قوّات هنا لحماية الأكراد. أوافق أن هناك زعيماً شرّيراً في بغداد، ونظاماً شريراً، لكن إذا كنتم تريدون إبقاء القوّات العسكرية هنا، فعليكم تغيير المهمّة ومن ثمّ تغيير الأنظمة.. الأكراد يموتون بمعدّل ٤٠٠ شخص يومياً في الجبال التركية. لم يكونوا مواطنين أتراكاً ولذلك حصل شيء ما هناك. حالياً، زعماؤهم على وشك توقيع اتفاق مع صدّام، إنهم يعيشون هنا. في الواقع، جئنا إلى هنا لإعطائهم موقفاً أفضل للتفاوض».

كان على غارنر مثل شرطي حزين تقريباً، استنباط قوانينه الخاصة بينما كان يعمل بانتظام. وإذا كان قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٨ قد سمح بالتدخّل الإنساني في بلد أجنبي، فقد وفّر بعض التوجيهات للضبّاط الأميركيين والإنكليز والفرنسيين والإسبان والهولنديين الذين يلتقون الجنرال كل مساء من أجل تقريرهم اليومي. وأسرّ لي غارنر: «الخوف الأسوأ يكمن في وضع رجالنا وسط

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المعركة ومن ثمّ إصابتهم. كان العراقيون والبشمركة يتقاتلون منذ وصولنا إلى هنا. لسنا جيش احتلال، ولا أحد تحت الحكم العُرفي. ليست هناك شرعية».

في زاوية من مكتب غارنر بندقية ملفوفة بقماش يحمل علامة عائلة بهلوي. كان المزلاج صدئاً والخشب مشقّقاً، لكنّ أسد الشاه كان واضحاً على الرمز الملكي. بالنسبة إلى غارنر، كان هذا السلاح الذي سلّمه جندي عراقي عند وصول القوّات الغربية إلى كردستان تذكار الحرب الأهلية الذي يعتقد رئيس غارنر أنها مستمرّة منذ أجيال، والنزاع الذي ينوي الجنرالات البقاء خارجه. بدا كل شيء بسيطاً. يودّ الأكراد ترقيع الأمور مع بغداد بوضوح، فالأكراد مواطنون عراقيون وليسوا مواطنين أتراكاً، وكانت اهتمامات تركيا كبيرة وفق لائحة أولويات غارنر، وإذا رجع صدّام لقمعهم فتلك مشكلة الأمم المتّحدة.

اعترف غارنر بصعوبة النقاش يومياً مع المسؤولين العراقيين الذين ربما كانوا مسؤولين عن تعذيب المدنيين وخلال انتفاضة دهوك وقبلها. لكنه قال إن مهمّته لا تشمل مثل هذه العواطف: «في اجتماعهم معي، كانوا مهذّبين، ومنهم الفظّ. إنهم قُساة جدّاً. كان الذين حضروا الاجتماعات بملابس مدنية، يقفون ويلقون عليك خطاباً سياسياً طويلاً وأفكاراً حول طريقة معالجتك للأمور».

إذن، هذا ما توصّلت إليه. شكراً على تعليقاتكم. حيوان بغداد لم يعد يخيف. كان يجب تهدئته والعمل معه والاعتماد عليه لمعاملة الأكراد كمواطنين عراقيين، وبعدل. لم تكن النهاية بعيدة بالتأكيد. جاء الصيف إلى شمال العراق كسولاً، هواء ساخن يلفح مئات الكيلومترات المربّعة من حقول القمح حول دهوك. فاستباقاً لآثار عقوبات الأمم المتحدة عام ١٩٩٠، أمر صدّام العراقيين بزرع القمح في كلّ الأراضي المتوفّرة.

وكانت المنظمات الإنسانية والجيش الأميركي والأمم المتحدة تشجّع الأكراد على حصاد المحصول الذي يخرق عقوبات الأمم المتحدة.

في وسط الطريق ذي الاتجاهيْن شمال دهوك كان ستّة جنود من البحرية الأميركية متعبين يلوّحون للاجئين الأكراد العائدين عبر حاجزهم المحاط

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

بالأسلاك. كانت هناك إشارة تحمل عبارة «منطقة خاضعة للحلفاء» مطبوعة بالأسود. إلى الشرق، كانت هناك بطارية مدفعية ١٠٥ ملم تابعة للبحرية مموّهة على أثر الحرّ، إنّها شبح صغير لكلّ مواقع المدفعية التي كانت يوماً منتشرة في الصحراء السعودية على بعد ٨٠٠ كلم إلى الجنوب. لقد تمّت تهدئة ضمير العالم. تم تلطيف المأساة الحادّة للتقهقر الكردي إلى الجبال بعودتهم وإعادة توطينهم. وعوضاً عن الأطفال الأموات والمرضى، كانت حقول زاخو الآن مكتظّة بالعائلات الكبيرة. وعند المساء، كانت سلسلة من الأضواء التي تتحرك نزولاً من الجبال تثبت أن الأكراد يعودون إلى بيوتهم.. إذن، مَن الذي يفاجأ عندما سمع الجنرال كولن باول يقول لدى وصوله إلى مطار صدّام الخاصّ في سيبرنك بعد ظهر ٣٠ أيار/مايو بكلمات محدّدة إنه لن تكون هناك ضمانات للأكراد؟ قال لنا: «سوف تقوم المجموعة الدولية بتقييم تحرّكات بغداد في الأسابيع القادمة. وسوف تستخدم الولايات المتحدة كل الوسائل الدبلوماسية والسياسية وأيّ وسائل أخرى متاحة لإقناع السلطات العراقية بعدم استخدام القوّة ضدّ الأكراد».

كان مؤتمر باول الصحفي غامضاً. لم يورد ببساطة اسم صدّام، فالوحش الذي شغل العالم لشهور لا يمكن التحدّث عنه بعد الآن. سألت باول عن الرضوخ. قلت له إنه يقف هنا على أرض مطار صدّام الشخصي الذي يغطّي الرخام مبانيه غير المكتملة، ورغم رؤيته لقصور صدّام الشتوية في الجبال المحيطة، لم ينبس باسم صدّام. لماذا؟ أجاب بمراوغةٍ شجاعةٍ حقاً: «لن يكون من مصلحة القيادة في بغداد العودة إلى هذه المنطقة بالقوّة أو بطريقة عدوانية تهدّد هؤلاء الناس وتسبّب لهم الخوف على حياتهم مجدّداً». وتحدّث أيضاً عن الحكم في بغداد كما لو كان نوعاً من الديمقراطية البيروقراطية الكبيرة. وهذا كل شيء. لقد جرى شطب اسم صدّام من الخطاب. وعندما سأل مراسل أميركي باول ما إذا كانت أميركا قد ربحت فعلاً حرب الخليج عام ١٩٩١، رغم الحرائق النفطية الضخمة في الكويت والضرر البيئيّ في الخليج وعدم رغبة السعودية في دعم الخطط الأمنية الأميركية والكارثة الكردية والطريق المسدود

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في عملية السلام في الشرق الأوسط، ذكّر باول مستمعيه بأن غزو الكويت قد انتهى وتحرّرت، واستعادت الإمارة الآن شرعيّتها (حتى لو كان حكمها غير ديمقراطي) «أصدقاؤنا المقرّبون في المنطقة لم يعودوا عُرضة لخطر رابع أكبر جيش في العالم». كان هذا انتصاراً. لقد تغيّر الوضع الاستراتيجي في المنطقة كلّياً. وكان الشيء الوحيد الذي لم يتغيّر هو الوجود المستمرّ لصدّام في بغداد. لكنّ هذا اسم لن يتحدّث عنه الجنرال باول.

كانت هناك أوقات أيضاً لا يمكن فيها الحديث عن التاريخ في كردستان. كان في زاخو جسر روماني، ويخبر السكّان المحلّيون الزوّار بأن العشب الذي يغطّي التلال المنخفضة التي تحمي المدينة وطِئها ألوف اليونانيين في عصر كزينوفون. وعلى بعد ١٥ كلم إلى الغرب، على ضفاف نهر الخابور، كان التاريخ ما يزال حديثاً جدّاً لكي يدوّن. لا يتحدّث السكّان المحلّيون عن تسعة آلاف أرمني ذُبحوا هنا خلال الإبادة الأرمنية عام ١٩١٥ لأن الأكراد كانوا القتلة.

إذن كانت زاخو مدينة أسرار، أخفتها حتى عن جيوش الحلفاء. عام ١٩١٩، اشتهرت المدينة بقتل ضبّاط الجيش البريطاني الذين أرداهم الأكراد المطالبين بالاستقلال في زمن الانتداب. وجرى قتل الجنود البريطانيين في السنة نفسها في ضاحية قرية العمادية التي يسيطر عليها جنود البحرية البريطانية. فلا عجب إذا أخفت زاخو ماضيها كما تخفي حاضرها.

قُبالة مركز الشرطة العراقية منطقة قيل لي إن الجالية اليهودية الرئيسية عاشت فيها إلى حين رحيلها إلى دولة إسرائيل الجديدة عام ١٩٤٨. كانت المنازل هناك فقيرة تتألّف من طابق واحد من الطين والطوب. وتقع المقبرة اليهودية القديمة تحت فندق «أشوا» على الجانب الآخر من المدينة. وقد عمل رجال صدّام على تحقيق ذلك. لكن إذا عبرت النهر نحو شارع الكنيسة تكون بين الأكراد والأرمن، أحفاد وحفيدات القتلة والمقتولين عام ١٩١٥. وحتى الآن لا تستطيع السؤال عن المجازر دون إثارة الشكّ. فالأكراد يلقون بالمسؤولية على الأتراك، بينما يخبرك الأرمن وبشكل صحيح أن الأكراد كانوا هم المذنبين

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وكانوا تحت إمرة الأتراك. قال لي رجل أعمال أرمني: «لدينا أصدقاء أكراد. بالطبع نتحدّث عمّا حصل في ما بيننا، نشرب القهوة معاً. اتفقنا أن ما قام به الأكراد كان غلطة. لقد جرى استخدامهم من قِبل آخرين (الأتراك) ليقوموا بما فعلوه ضدّنا. أجل، لكنّ معظم أصدقائي مسيحيّون». كان ١٥٠٠ أرمني فقط يعيشون في زاخو وسط ١٥ ألف كردي. ويشكّل الأشوريون والكلدان الجالية المسيحية الأخرى. كان الأرمن يخضعون للقانون في ظلّ صدّام. وعندما فرّ الأكراد من زاخو لتجنّب الخدمة العسكرية، ذهب الأرمن طواعية للقتال من أجل صدّام. قُتل ثلاثة جنود أرمن في زاخو من جرّاء قصف الحلفاء عام ١٩٩١ على الكويت والبصرة والموصل. وقُتل حوالى ١٣٠ أرمنياً في المدينة خلال ثماني سنوات من الحرب بين العراق وإيران. ويمكن القول إن الأكراد كانوا الوحيدين الذين قاتلوا في حرب ١٩٩١ في معسكرات اللاجئين خارج زاخو مع أنهم ليسوا من المدينة. كان أحدهم يعيش في خيمة زرقاء وبيضاء مع والده ووالدته وهو شابّ كان عنصراً من كتيبة دبّابات الرافدين العراقية ونجا من الهجمات الأميركية والبريطانية عند مرتفع متلة. قال: «كنت مختبئاً في الرمل عندما جاءت الطائرات (وطلب عدم ذكر اسمه)، وشاهدت السيارت العراقية في زحمة السير وقد بدأت تنفجر. كانت هناك شاحنة عسكرية شاهدت طائرة أميركية تطلق صاروخاً عليها، فرأيت ناراً ذهبية ثم تحوّلت الشاحنة إلى ضعف حجمها واختفت. نجحت في الوصول إلى البصرة وحصلت على إجازة لخمسة أيام لذا سافرت إلى الجبال للهرب». لكنّ الانتفاضة الكردية لم تصل إلى الجاليتين الكردية والأرمنية في زاخو. وعندما عاد الأكراد إلى المدينة بحماية الأميركيين وجدوا أن الأرمن لم يغادروا بيوتهم. قال شابّ أرمني: «ظنّوا أننا وقفنا إلى جانب الحكومة، لم يفهموا أننا لم نستطع التمرّد، فنحن قلّة». وقد هربت عدّة عائلات أرمنية إلى الجبال عندما انهارت الثورة الكردية. وكان هناك أربعة أطفال أرمن بين المئات الذين ماتوا على الحدود التركية متقاسمين القبور مع خلفاء الذين ذبحوا أجدادهم العظام.

الآن، يهتمّ الأرمن بمشكلة مختلفة. قال لي مهندس أرمني: «نريد الذهاب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إلى وطننا الأمّ. إن الاتحاد السوفياتي على وشك التفكّك، وقريباً تصبح أرمينيا السوفياتية دولة حرّة، وطننا الذي سيحمينا. لا أستمع إلى إذاعة بغداد أو الإذاعة الكردية. أستمع كل مساء في الساعة السادسة إلى الإذاعة الأرمنية، التي تبثّ في ياريفان في الاتحاد السوفياتي. يقولون: «هذه إذاعة الجمهورية الأرمنية» ويبلغوننا أن الجنود الروس والأذريين يغتصبون نساءنا كما فعل الأكراد. هل تصبح أرمينيا حرّة قريباً؟ هل نستطيع الذهاب إلى هناك؟» .

يبدو أن الجميع يريد مغادرة العراق، الجميع باستثناء الموتى. يقول البعض إن ٢٠٠ ألف عراقي قُتلوا في الانتفاضة التي تلت تحرير الكويت، أي ضعف مجموع العراقيين الذين قُتلوا في الحرب وفق بعض الإحصاءات ممّا يعني أن أكثر من ربع مليون عراقي قُتلوا في العراق في النصف الأول من عام ١٩٩١. وكان بين القتلى ألوف من عرب المستنقعات الذين لم يسجّل شيء عن مصيرهم، لأن بيوتهم تقع في الأراضي السومرية القديمة المجفّفة في شرق العراق.

عودة إلى عام ١٩٨٢، في السوق السيّئة لأحد فنادق بغداد المشلولة، اشتريت دليل البلد. كان مطبوعاً من قِبل حزب البعث أو كما هو مذكور في الصفحة الأولى من «المنظمة الحكومية لتنظيم السياحة العامّة للسفر والخدمات السياحية».. فإلى أين ينصحني هذا الكتيّب بالذهاب للسياحة؟». إلى العالم الفريد، إلى المستنقعات حيث يبدو أن الطبيعة حافظت على عُذريّتها. أميال وأميال من المياه مع تنوّع لا ينتهي من الطيور والسمك والنبات والقصب والعشب منتشرة بقدر ما تستطيع العين مشاهدته مع الأكواخ.. كل جزيرة قائمة بحدّ ذاتها». لأوّل مرّة شاهدت المستنقعات شرقيّ الطريق السريع بين البصرة وبغداد. كان الدليل صادقاً في كلماته. فلعدّة كيلومترات، توجد ألوف الأكواخ من القصب على اليابسة وفي الجزر، يسكنها المتحدّرون من السومريين القدماء، في زمن من البساطة التي بدأت، استناداً إلى المخطوطات العربية القديمة، مع فيضان جارف حوالى العام ٦٢٠ بعد الميلاد. وقد بدأ صدام بتجفيف المستنقعات فعلياً عام ١٩٨٩ قبل سنة من غزوه للكويت، والتفسير الرسمي للعملية: «أسباب أمنية».. لا أحد يستطيع إخفاء التأثير الفعلي لذلك.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لسنوات خلت كان عرب المستنقعات يذهبون إلى الكويت وإيران حاملين روايات عن تجفيف النهر والمجاعة والأمراض. كان الرجل الذي بنى بابل على صورته يدمّر سامرّاء. بالطبع كانت حرب صدّام مع إيران هي التي لفتت نظره إلى قابلية تعرّض المستنقعات للهجوم، ومن هنا قام الجنود الشبّان الإيرانيّون باختراقهم الكبير للعراق. وكما رأينا، أغرق صدّام المستنقعات بالنفط والنار والموت والكهرباء. وبعد سنة من انتهاء الحرب، بدأ العمل لبناء السدود الضخمة وجدار الإسمنت المسلّح، أوّلاً بشكل سرّي ثم علناً بعدما كشفت الأقمار الاصطناعية للرأي العامّ ما يقوم به صدّام.

بعد عام ١٩٩١، جرى اصطحاب الصحفيين الأميركيين لرؤية السدود الشمالية لما وصف بـ «مشروع الريّ». كانوا ممنوعين من الذهاب إلى المستنقعات جنوباً حيث لا يزال صدّام يتعرّض للهجوم من قبل الفارّين من الجيش الذين كانوا يظهرون ليلاً في المستنقعات لمهاجمة قوافل الجيش ومراكز الشرطة حتى بعد ثلاث سنوات من حرب ١٩٩١. وكالمعتاد في العالم العربي عرف الجميع ماذا يحصل ولم يتفوّه أحد بكلمة. كان الطيّارون البريطانيون والأميركيون الذين يحلّقون فوق منطقة الحظر الجوّي يشاهدون ما تبقّى من مياه المستنقعات والبرك الشاطئية. لكن لم نفعل شيئاً وظلّت الأنظمة العربية صامتة. لم يصدر عن كبار العالم العربي المفترضين، مبارك وعرفات والأسد وفهد، أي انتقادات. . ولا كلمة.. تماماً كما فعلوا عندما قُتل الأكراد بالغاز. وقد لفت الكاتب العراقي كنعان مكّية الانتباه إلى مقال عنيف في صحيفة الثورة البعثية في نيسان/أبريل ١٩٩١، بينما كان جيش صدّام يحاول قمع الانتفاضة الجنوبية. فقد هاجم الكاتب عرب المستنقعات لفقرهم وتخلّفهم وذلّهم واصفاً إيّاهم بالأشرار والقذرين. تقول الصحيفة: «يسمع الغرب غالباً عن الشذوذ الذي يجعل فمك يتدلّى».. إذن، عرب المستنقعات الذين تُحمل عرائسهم في وقت ما إلى زفافهنّ في مواكب من القصب، تحوّلوا إلى حيوانات قبل تدمير حضارتهم. قام صدّام بتجفيف ركن آخر من العراق وألجأ الناس والطيور إلى الفرار، وتأكّد من عدم بقاء أي جزر صغيرة في المستنقعات.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الجزء الثاني روبرت فيسك

مع الجزء الثاني من هذه السلسلة، يدرك القارئ أهمية المساحة الواسعة التي يفردها روبرت فيسك لتغطية ما يجري على سطح الارض من حروب ومذابح: من يقف وراءها، من يمولها، من يعتم عليها ومن يضيء.

تحسب للوهلة الأولى أنه يستعرض مذبحة من هنا ومحرقة من هناك، ينقل حديثا لشاهد عيان او تصريحا لرئيس منظمة او زعيم بلد؛ وسرعان ما تكتشف انه متماسك الافكار الى الحدود القصوى وانه يديرها بدقة لا توصف، مشيراً الى ان اليد الخفية واحدة، والخيوط مربوطة بذكاء، لتحريك الاحداث في مناطق قد تبعد إحداها عن الاخرى آلاف الأميال.

- يتحدث عن أبيه الملازم الثاني المكلّف كتابة مذكرات الحرب العالمية الاولى.
- يجري تحقيقات مع مسنّي الأرمن ويستدرجهم إلى التحدّث عن محرقة الارمن الاولى، عن الذين القوا في قبور جماعية، عن إغراق ٩٠٠ امراة شكلت جثثهن سدّاً على نهر الفرات، عن ذبح اكثر من ٢٠٠٠٠ امراة وولد.
- يذكّر بالضراوة التي عامل النازيون بها اليهود في أوروبا.
- يعرّج على الاحداث الدامية في الجزائر.
- يعود إلى فظائع حرب إسرائيل على الشعب الفلسطيني.
- يضيف معطيات جديدة إلى يوميات حرب امريكا على العراق.

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص. ب. ٨٣٧٥-١١٣ - بيروت - لبنان
تلفون: ٧٢٢ ٣٥٠ ١ ٩٦١+
تلفون+فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر